الروضتين في أخبار الدولتين: النورية و الصلاحية

ابو شامة المقدسي

To PDF: www.al-mostafa.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله رب العالمين

المقدمة

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الأعمال، وبكرمه وجوده تدرك الآمال، وعلى وفق مشيئته تتصرف الأفعال، و بإرادته تتغير الأحوال، و إليه المصير والمرجع والمال، سبحانه هو الباقي بلا زوال، المتره، عن الحلول والانتقال، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، ذو العرش والمعارج والطول والإكرام والجلال؛ نحمده على ما أسبغ من الإنعام والأفضال، ومن به من الإحسان والنوال، حمدا لا توازنه الجبال، ملء السموات والأرض وعلى كل حال. ونصلى على رسوله ونبيه وخيرته من خلقه وصفيه وخليله ووليه وحبيبه المفضال، سيدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ذى الشرف الباذخ، والعلم الزاسخ، والفضل الشامخ، والجمال والكمال؛ صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين، والأنبياًء والمرسلين، وعترتهم الطيبين، ما أَفَلَ كوكب وطلع هلال، وعلى آل محمد وصحبه خبر صحب وأكرم آل، وعلى تابيهم بإحسان وجميع الأولياء والأبدال، وعفا عن المقصرين من أمته أولى الكسل والملال، وحشرنا في زمرته، متمسكين بشرعته، مقتدين بسنته، متعظين بما ضرب من الأمثال، مزدحمين تحت لوائه، في جملة أوليائه، يوم لا بيع فيه ولا خلال.

أما بعد، فإنه بعد أن صرفت جل عمرى ومعظم فكرى في اقتباس الفوائد الشرعية، واقتقاص الفرائد الأدبية، عن لى أن أصرف إلى علم التاريخ بعضه، فاحوز بذلك سنة للعلم وفرضه؛ اقتداء بسيرة من مضى، من كل عالم مرتضى. فقل إمام من الأئمة إلا ويحكى عنه من أخبار من سلف فوائد جمة. منهم إمامنا أبو عبد الله الشافعي، رضى الله عنه. قال مصعب الزبيري "ما رأيت أحدا أعلم بأيام الناس من الشافعي" ويروى عنه أنه أقام على تعلم أيام الناس والأدب عشرين سنة، وقال: "ما أردت بذلك إلا الاستعانة على الفقه" قلت: وذلك عظيم الفائدة، جليل العائدة. وفي كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أخبار الأمم السالفة، وأنباء القرون الخالفة ما فيه عبر لذوى البصائر، واستعداد ليوم تبلى السرائر. قال الله عز وجل وهو أصدق القائلين: "وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أنباء الرسُل ما نُثَبِّت به

فُؤَادَك وَجَاءَكَ فِي هَذِه الحق ومَوْعظَةٌ وَذِكْرَى للمُؤمِنِين". وقال سبحانه: "وَلَقَدْ جَاءَهم من الأنْبَاء مَا فيه مُزْدَجَرٌ. حكمَة بالغة فما تُغْنِى النُّذُرُ". وحدث النبي صل الله عليه وسلم بحديث أم زرع وغيره مما جرى في الجاهلية والأيام الإسرائيلية، وحكى عن عجائب ما رآه ليله أسرى به وعرج، وقال: "حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج. وفي صحيح مُسلم عن سماك بن حرب قال: قلت لجابر بن سمُره.: أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم، كثيراً كان لا يقوم من مصلاه الذي صلى فيه الصبح أو الغداة حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام. وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون و يتبسم "صلى الله عليه وسلم". وفي سنن أبي داود مهن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، قال: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن بني إسرائيل حتى نُصبح ما يقوم إلا إلى عُظم صلاة قلت: و لم يزل الصحابة والتابعون فمن بعدهم يتفاوضون في حديث من مضى، ويتذاكرون ما سبقهم من الأخبار وانقضى، ويستنشدون الأشعار، و يتطلبون الآثار والأخبار؛ وذلك بين من أفعالهم لمن اطلع على أحوالهم، وهم السادة القدوة، فلنا بهم أسوة. فاعتنيت بذلك وتصفحته، و بحثت عنه مدة وتطلبته؛ فوقفت والحمد لله على جملة كبيرة من أحوال المتقدمين والمتأخرين، من الأنبياءً والمرسلين، والصحابة والتابعين، والخلفاء والسلاطين، والفقهاء والمحدثين، والأولياء والصالحين، والشعراء والنحويين، وأصناف الخلق الباقين؛ ورأيت أن المطلع على أخبار المتقدمين، انه قد عاصرهم أجمعين، وأنه عند ما تفكر في أحوالهم أو تذكرهم كأنه مُشاهدهم ومحاضرهم؛ فهو قائم له مقام طول الحياة، و إن كان متعجل الوفاة. قال نعيم بن حماد: كان عبد الله بن المبارك يكثر الجلوس في بيته، فقيل له ألا تستوحش؟ قال:كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وفي رواية قال: قيل لان المبارك: يا أبا عبد الرحمن تكثر القعود في البيت وحدك! فقال أأنا وحدي؟! أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه تعني النظر في الحديث. وفي رواية أخرى: وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان. قلت وقد أنشدت لبعض الفضلاء:

كتاب أطالعه مؤنس — أحب إلى من الانسه

وأدرسه فيريني القرون — حضورا وأعظمُهُم دراسه

وقد اختار الله سبحانه النا أن نكون آخر الأمم، وأطلعنا على أنباء من تقدم، لنَّتعظ بما جرى على القرون الخالية، وتَعِيَها أذنٌ واعِيَة، فَهَل تَرَى لَهُمْ من بَاقِيَةٍ، ولنقتدى بمن تقدمنا من الأنبياء، والأئمة الصلحاء، ونرجو بتوفيق الله عز وجل أن نجتمع بمن يدخل الجنة منهم، ونذاكرهم بما نقل إلينا عنهم، وذلك على رغم أنف من عدم الأدب، و لم يكن له في هذا العلم أرب، بل أقام على غيّه وأكبَّ؛ والمرء من أحب.

هذا وإن الجاهل بعم التاريخ راكبُ عمياء، خابط خبط عشواء؛ ينسب إلى من تقدم أخبار من تاخر، ويعكس ذلك ولا يتدبر، وإن رُد عليه وهمه لايتأثر، وإن ذكر ما جهله لا يتذكر؛ لا يفرق بين صحابي وتابعي، وحنفي ومالكي وشافعي؛ ولا بين خليفة وأمير، وسلطان ووزير؛ ولا يعرف من سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم أكثر من أنه نبي مرسل، فكيف له بعرفة أصحابه وذلك الصدر الأول، الذين بذكرهم ترتاح للنفوس، ويذهب البُوس. ولقد رأيت مجلسا جمع ثلاثة عشر مدرسا، وفيهم قاضي القضاة لذلك الزمان، وغيره من الأعيان، فجرى بينهم وأنا اسمع ذكر من تحرم عليه الصدقة، وهم ذوو القربى المذكورون في القرآن؛ فقال جميعهم: بنو هاشم وبنو عبد المطلب، وعدلوا بأجمعهم في ذلك عما يجب. فتعجبت من جهلهم حيث لم يفرقوا بين عبد المطلب والمطلب، و لم يهتدوا إلى أن المطلب هو عم عبد المطلب، وأن عبد المطلب هو ابن هاشم، فما أحقهم بلوم كل لائم، إذ هذا أصل من أصول الشريعة قد أهملوه، وباب من أبواب العلم جهلوه؛ ولزم من قولهم إخراج بني المطب من هذه الفضيله. فابتغيت إلى الله تعالى الوسيله، وأنفت لنفسي من ذلك المقام، فاخذها بعلم أخبار الأنام، وتصحيح نسبنها، و إيضاح محجتها؛ فإن كثيراً ممن يحفظ شيئا من الوقائع يفوته معرفة نسبتها إلى أربابها، وإن نسبها خلط فيها وصرفها عن أصحابها. وهو باب واسع غزير الفوائد، صعب المصادر والموارد؛ زلت فيه قدم كثير من نقلة الأخبار ورواة الآثار.

ثم أردت أن أجمع من هذا العلم كتاباً يكون حاويا لما حصلته، وأتقن فيه ما خبرته، فعمدت إلى أكبر كتاب وضع في هذا الفن على طريقة المحدثين، وهو تاريخ مدينة دمشق حماها الله عز وجل الذي صنفه الحافظ الثقة أبو القاسم على بن الحسن العساكرى رحمه الله، وهو ثمانمائة جزء في ثمانين مجلدا، فاًختصرته، وهذبته، وزدته فوائد من كتب أخرى جليله وأتقنته، ووقف عليه العلماء، وسمعه الشيوخ والفضلاء ومر بي فيه من الملوك المتاخرين، ترجمة الملك العادل نور الدين؛ فاطر بني ما رأيت من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخر زمانه، وتغير خلانه. ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده، الملك الناصر صلاح الدين. فوجدهما في المتاخرين، كالعُمَرين رضي الله عنهما في التقدمين؛ فإن كل ثان من الفريقين حذا حذو من تقدمه في العدل والجهاد، واجتهد في إعزاز دين الله أى الجهاد، وهما ملكا بلدتنا، وسلطانا خطتنا، خصنا الله تعالى بهما فوجب علينا القيام بذكر فضلهما. فعزمت على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف، يتضمن التقريظ لهما والتعريف. فلعله يقف عليه من الملوك، من يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا أبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين، وذكرى منه سبحانه فإن الذكرى تنفع

المؤمنين. فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين، ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين؛ و يقولون: نحن في الزمن الأخير، وما لأولئك من نظير. فكان فيما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم، بمن هو في عصرهم، من بعض ملوك دهرهم، فلن يعجز عن التشبه بهما أحد، إن وفق الله تعالى الكريم وسدد. واخذت ذلك من قول أبي صالح شعيب بن حرب المدائني رحمه الله وكان أحد السادة الأكابر في الحفظ والدين قال: إني لأحسب يجاء بسفيان الثوري يوم القيامة حجة من الله تعالى على هذا الخلق، يقال لهم إن لم تدركوا نبيكم فقد أدركتم سفيان؛ ألا اقتديتم به ؟! وهكذا أقول هذان الملكان حجة على المتأخرين من الملوك والسلاطين. فَلِله درهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة، وجميل السريرة. وهما حنفي وشافعي، شفى الله بهما كل غى، وظهرت بهما من خالقهما العناية، فتقاربا حتى في العمر ومدة الولاية. وهذه نكتة قل من فطن لها ونبه عليها، ولطيفة هداني الله بتوفيقه إليها. وذلك أن نور الدين رحمه الله ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة وتوفى سنة تسع ويتين، وولد صلاح الدين رحمه الله سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وتوفى سنة تسع وثمانين. فكان نور الدين أسن من صلاح الدين بسنة واحدة وبعض أخرى، وكلاهما لم يستكمل ستين سنة. فانظر كيف اتفق أن بين وفاتيهما عشرين سنة، وبين مولدهما إحدى وعشرين سنة. وملك نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين، وملكها صلاح الدين سنة سبعين؛ فبقيت دمشق في الملكة الفورية عشرين سنة، وفي المملكة الصلاحية تسع عشرة سنة، تمحى فيه السيئة وتكتب الحسنة؛ وهذا من عجيب ما اتفق في العمر ومدة الولاية ببلدة معينة لملكين متعاقبين؛ مع قرب الشبه بينهما في سيرتهما، والفضل للمتقدم؛ فكأن زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله، والإرشاد إلى عظم محله، فإنه أصل ذلك الخير كله، مهد الأمور بعدله وجهاده وهيبته في جميع بلاده، مع شدة الفتق، واتساع الخرق وفتح من البلاد ما استعين به على مداومة الجهاد فهان على من بعده على الحقيقة، سلوك تلك الطريقة، لكن صلاح الدين أكثر جهادا، وأهم بلادا، صبر وصابر، ورابط وثابر، وذخر له من الفتوح أنفسه، وهو فتح الأرض المقدسة فرضى الله عنهما فما أحقهما بقول الشاعر: "كم ترك الأول للآخر"

وألبس الله هاتيك العظام، وإن	بلين تحت الثرى، عفوا وغفرانا
سق ثرى أودعوه رحمة ملأت	مثوى قبورهم روحا وريحانا

وقد سبقني إلى تدوين مآثرهما جماعة من العلماء، والأكابر الفضلاء. فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي في تاريخه ترجمة حسنة لنور الدين محمود بن زنكي رحمة الله، ولأجله تم ذلك

الكتاب وذكر اسمه في خطبته. وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة ابن أسد التميمي في مذيل التاريخ الدمشقي قطعة صالحة من أوائل الدولة النورية إلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة. وصنف الشيخ الفاضل عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري، عرف بابن الأثير، مجلدة في الأيام الأتابكية كلها وما جرى فيه، وفيه شيء من أخبار الدولة الصلاحية لتعلق إحدى الدولتين بالأخرى لكونها متفرعة عنها. وصنف القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تمتم الموصلي. عرف بابن شداد قاضي حلب مجلدة في الأيام الصلاحية وسياق ما تيسر فيها من الفتوح، واستفتح كتابه بشرح منلقب صلاح الدين رحمه الله تعالى. وصنف الإمام العالم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد حامد الأصفهاني كتابين كلاهما مسجوع متقن بالألفاظ الفصيحة والمعاني الصحيحة؛ أحدهما الفتح القدسي، اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين وسيرته، فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. والثاني البرق الشامي ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات والفتوحلت وغيرهما مما وقع من سنة وروده دمشق، وهي سنة اثنتين وستين وخمسمائة إلى سنة وفاة صلاح الدين وهي سنة تسع وثمانين فاشتمل على قطعة كبيرة من أخبار أواخر الدولة النورية. إلا أن العماد في كتابيه طويل النفس في السجع والصف، يمل الناظر فيه، ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول و ينسيه. فحذفت تلك الأسجاع إلا قليلا منها، استحسنتها في مواضعها، و لم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع، نحو ما ستراه في أخبار فتح بيت المقدس شرفه الله تعالى وانتزعت المقصود من الأخبار، من بين تلك الرسائل الطوال، والأسجاع المفضية إلى الملال، وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام. واخترت من تلك الأشعار الكثيرة قليلا مما يتعلق بالقصص وشرح الحال، وما فيه نكتة غريبة، وفائدة لطيفة.

ووفقت على مجلدات من الرسائل الفاضلية، وعلى جملة من من الأشعار العمادية مما ذكره في ديوانه دون برقه؛ وعلى كتب أخر من دواوين وغيرها، فالتقطت منها أشياء مما يتعلق بالدولتين أو بإحداهما؛ و بعضه سمعته من أفواه الرجال الثقات، من المذكرين لتلك الأوقات. فاختصرت جميع ما في ذلك من أخبار الدولتين، وما حدث في مدتهما من وفاة خليفة أو وزير، أو أمير كبير، أو ذى قدر خطير، وغيرذلك. فجاء مجموعا لطيفا، كتابا طريفا، يصلح لمطالعة الملوك والأكابر، من ذوي المآثر والمفاخر. وسميته "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين". ولله در حبيب بن أوس حيت يقول:

ثم انقضت تلك السنون ... وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

فصل

أما الدولة النورية فسلطانها لملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين أتابك وهو أبو سعيد زنكى بن قسيم الدولة آق سنقر التركي ويلقب زنكى أيضاً بلقب والده قسيم الدولة، ويقال لنور الدين ابن القسيم. وسنتكلم على أخبار أسلافه عند بسط أوصافه. وقدمت من إجمال أحواله ما يستدل به على أفعاله.

ذكر الحافظ أبو القاسم في تاريخه أنه ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وأن جده آق سنقر ولى حلب وغيرها من بلاد الشام، ونشأ أبوه زنكى بالعراق ثم ولى ديار للوصل والبلاد الشامية؛ وظهرت كفايته في مقابلة العدو عند نزوله على شيزر حتى رجع خائباً، وفتح الرها، والمعرة كفر طاب، وغيرها من الحصون الشامية واستنقذها من أيدى الكفار. فلما انقضى أجله قام ابنه نور الدين مقامه، وذلك سنة إحدى وأربعين وخمسمائة؛ ثم قصد نور الدين حلب فملكها وخرج غازيا في أعمال تل باشر، فافتتح حصونا كثيرة من جملتها قلعة عزاز، ومرعش، وتل خالد؛ وكَسَر إبرنس إنطاكية وقتله وثلاثة ا لاف فرنجي معه؛ وأظهر بحلب السنة وغير البدعة التي كانت لهم في التأذين، وقمع بها وقمع الرافضة، وبنى بها المدارس، ووقف الأوقاف، وأظهر العدل، وحاصر دمشق مرتين وفتحها في الثالثة، فضبط أمورها وحصن سورها، و بنى بها المدارس والمساجد، وأصلح طرقها، ووسع أسواقها، ومنع من أخذ ما كان يوخذ منهم من المغارم بدار الطبخ، وسوق الغنم، والكيالة، وغيرها، وعاقب على شرب الخمر، واستنقذ من العدو ثغر بانياس والمنيطرة وغيرهما. وكان في الحرب ثابت القدم، حسن الرمى، صليب الضرب، يقدم أصحابه، و يتعرض للشهادة وكان يسال الله تعالى أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير. ووقف رحمه الله تعالى وقوفا على المرضى ومعلمي الخط والقرآن وساكني الحرمين. وأقطع امراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج، وأمر بأكمال سور المدينة و استخراج العين التي بأحد، و بنى الر بط والجسور والخانات، وجدد كثيرا من قنى السبيل. كذا صنع في غير دمشق من البلاد التي ملكها. ووقف كتبا كثيرة، وحصل في أسره جماعة من أمراء الفرنج، كسر اللروم والأرمن والفرنج على حارم وكان عدهم ثلاثين ألفا، ثم فتح حارم وأخذ قرى أنطاكية، ثم فتح الديار المصرية وكان العدو قد اشرف على أخذها، ثم أظهر بها السنة وانقمعت البدعة. وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعا للآثار النبوية، مواظبا على الصلوات في الجماعات، عاكفاً على تلاوة القرآن، حريصاً على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق، متحريا في المطاعم والملابس، لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره. وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها أو إرشاد إلى سنة يتبعها.

وقال أبو الحسن بن الأثير: قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومناً هذا، فلم أر فيها

بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزير ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أ كثر تحريا للعدل والإنصاف منه. قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجز له ، وظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه وإنعام يسديه. ونحن نذكر مل يعلم به محله في أمر دنياه وأخراه؛ فلو كان في أمة لافتخرت به، فكيف بيت واحدة.

اما زهده وعبادته وعلمه فانه كان مع سعة ملكه، وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين. أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما أفتوه بحله، و لم يتعده إلى غير ألبتة. و لم يلبس قط ما حرمه الشرع من حديد أو ذهب أو فضة. ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ومن إدخالها إلى بلد ما وكان يحد شاربها الحد الشرعي، كل الناس عنده فيه سواء.

حدثني صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين، زوجة نور الدين ووزيرها، قال: كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختص به وتقوم في خدمته لاتتقدم إليه إلا أن يأذن ثيابه عنه. ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختص بها و ينفرد هو، تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال، أو في مطالعة كتاب أتاه و يجيب عنهما. وكان يصلى فيطيل الصلاة، وله أوراد في النهار؛ فإذا جاء الليل وصلى العشاء ونام يستيقظ نصف الليل. و يقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكره فيظهر الركوب و يشتغل بمهام الدولة قال: وإنها قلت عليها النفقة و لم يكفها ما كان قرره لها فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفنها. فلما قلت له ذلك تنكر وأحمر وجهه، ثم قال: من اين أعطيها، أما يكفيها مالها! والله لا أخوض نارجهنم في هواها. إن كانت تظن أن الذي بيدى من الأموال هي لي فبئس الظن. إنما هي أموال المسلمين مُرَصد؛ لمصالحهم ومعدة لفتق إن كان من عدو الإسلام.، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها. ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكا وقد وهبتها إياها فلتأخذها. قال: وكان يحصل منها قدر قليل.

قال ابن الأثير: وكان رحمه الله لا يفعل فعلا إلا بنية حسنة. كان بالجزيرة رجل من الصالحين كثير العبادة والورع، شديد الانقطاع عن الناس، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله ويعتقد فيه اعتقادا حسنا. فبلغه أن نور الدين يُدْمِن اللعب بالكرة. فكتب إليه يقول: ماكنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية. فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول: والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، إنما نحن في ثغر، العدو قريب منا، و بينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب. ولا يمكنا أيضاً ملازمة الجهاد ليلا ونهاراً شتاء وصيفا إذ لابد من الراحة للجند. ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكر والفر في

المعركة. فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب. فهذا والله اللمى بعثني على اللعب بالكرة. قال ابن الأثير: فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير، الذي يقل في أصحاب الزوايا والمنقطعين إلى العبادة مثله، فإن من يجيء إلى اللعب يفعله بنية صالحة حتى يصيرمن أعظم العبادات وأكبر القربات يقل في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئا إلا بنية صالحة، وهذه افعال العلماء الصالحين العاملين.

قال: وحكى لي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة، فلم يحضرها عنده، فوصفت له فلم يلتفت إليها. وبيناهم معه في حديثها و إذا قد جاءه رجل صوفي فامر بها له؛ فقيل له إنها لا تصلح لهذا الزجل ولو أعطى غيرها كان أنفع له. قال: أعطوها له فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة.

فسُلمت له، فسار بها إلى بغداد فباعها. بستمائة دينار أميري أو سبعمائة دينار.

قلت: قرأت في حاشية هذا المكان من كتاب ابن الأثير بخط ابن المعطى إياها قال: أعطاها الشيخ الصوفية عماد الدين أبي الفتح بن حمويه بغير طلب ولا رغبة، فبعثها لملى همدان فبيعت بالف دينار.

قال ابن الأثير: وحكى لنا الأمير بهاء الدين على بن السكرى، وكان خصيصا بخدمة نور الدين قد صحبه من الصبا وأنس به وله معه انبساط، قال: كنت معه يوما في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا، فكلما سرنا تقدمنا الظل؛ فلما عدنا صار الظل وراء ظهورنا، فاجرى فرسه وهو يلتف وراءه، وقال لي: أتدري لأي شيء أجرى فرسى وألتفت وراثي قلت: لا. قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا، تهرب ممن يطلبها، وتطلب من يهرب منها. قلت رضى الله عن ملك يفكر في مثل هذا. وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى:

مثل الزرق الذي تطلبه ... مثل الظل الذي يمشي ملك
أنت لاتدركه متَّبِعاً ... فإذا ولّيت عنه تبعك

قال ابن الأثير: وكان، يعنى نور الدين رحمه الله، يصلى كثيرا من الليل ويدعو و يستغفر ويقرأ، ولايزال كذلك إلى أن يركب:

جمع الشجاعة والخشوع لربه ... ما أحسن المحراب في المحراب

قال: وكان عارفا بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه، ليس عنده تعصب، بل الإنصاف سجيته في كل شيء. وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر. وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للموك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك؛ فإنهم كانوا قبله كالجاهلية: هم أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع

ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ماكانوا يفعلونه. ومن سَن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة قال: فإن قال قائل كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة، وتجبى إليه الأموال الكثيرة، فليذكر نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام مع ملكه وهو سيد الزاهدين في زمانه. ونبينا صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضرموت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام إلى العراق، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين. قال: و إنما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لاخلو اليد عنها.

قال: وأما عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرة وأعدلهم حكما. فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكسا ولا عشرا، بل أطلقها رحمة الله جميعها في بلاد الشام والجزيرة جميعها والموصل وأعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه وكان المكس. في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً وهذا لم تتسع له نفس غيره. وكان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان، القوى والضعيف عنده في الحق سواء. وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير. فلا جَرَمَ سار ذكره في شرق الأرض وغربها.

قال: ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول نحن شحن لها نُمضي أوامرها. فمن اتباعه أحكامها أنه كان يلعب بدمشق بالكرة، فرأى إنسانا يحدث آخر وبومئ بيده إليه، فارسل إليه يساله عن حاله. فقال: لي مع الملك العادل حكومة، وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني. فعاد إليه و لم يتجاسر أن يعرفه ما قال ذلك الرجل وعاد يكتمه؛ فلم يقبل منه غير الحق، فذكر له قوله. فألقى الجوكان من يده وخرج من الميدان وسار إلى القاضي، وهو حينئذ كمال الدين ابن الشهرزورى، وأرسل إلى القاضي يقول له إنني قد جئت محا كما فاسلك معى ميل ماتسلكه مع غيرى. فلما حضر ساوى خصه وخاصمه وحاكمة فلم يثبت عليه حق؛ وثبت الملك لنور الدين. فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن حضر: هل ثَبَت له عندي حق؟ قالوا لا. فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا الملك الذي قد حاكمني عليه، وهُوَ لَهُ دُوني؛ وقد كنت أعلم أن لا حق له عندي وإنما حضرت معه لئلا يظن بي أني ظلمته، فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له قال ابن الأثير: وهذا غاية العدل والإنصاف، بل غاية الإحسان، وهي درجة وراء العدل. فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة، المنقادة للحق، الواقفة معه.

قلت: وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الأزمنة وتفرق الكلمة؛ وإلا فقد انقاد إلى المضي إلى مجلس الحكم جماعة من المتقدمين مثل عمر وعلي ومعاوية رضي الله عنهم، ثم حكى نحو ذلك عن أبي جعفر المنصور. وقد نقلنا ذلك كله في التاريخ الكبير، وفيه عن عبد الله بن طاهر قريب من هذا، لكنه أحضر

الحاكم عنده و لم يمض إليه. وقد بلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى استُدعى مرة أخرى بحلب إلى مجلس الحكم بنفسه أو نائبه؛ فدخل حاجبه عليه متعجبا وأعلمه أن رسول الحاكم بالباب، فانكرعليه تعجبه وقام رحمه الله مسرعا ووجد في أثناء طريقه ما منعه من العبور من حفر جب بعض الحشوش واسخراج ما فيه؛ فوكل م ثم وكيلا وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل ورجع.

قال ابن الأثير: ومن وعدله انه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الأعصار على الظنة والتهمة، بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد فدفع الله إذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة، وأمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر. قال: وحكى لي من أثق به أنه دخل يوما إلى خزانةالمال فرأى فيها مالا أنكره، فسأل عنه، فقيل إن القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا. فقال: إن هذا المال ليس لنا، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء. وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده على صاحبه. فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين، فرده إلى الخزانة وقال: إذا سال الملك العادل عنه فقولوا له عنى إنه له. فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى، فرآه، فأنكر على النواب، وقال لهم: ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه؟ فذكروا له قول كمال الدين، فرده إليه وقال الرسول: قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله، والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى. يُعاد قولاً واحداً.

قال: ومن عدله أيضا بعد موته وهو من أعجب ما يحكى أن إنسانا كان بدمشق غريباً، استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله. فلما توفى تعدى بعض الأجناد على هذا الرجل، فشكاه، فلم ينصف. فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكى وقد شق ثوبه وهو يقول: يانور الدين: لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا؛ أين عدلك! وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ماً لا يحصى وكلهم يبكى ويصبح. فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد والرعية و إلا خرج عن يدك. فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين يبكى والناس معه فطيب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه، فبكى أشد من الأول. فقال له صلاح الدين: لم تبكى؟ قلل: أبكى على سلطان عدل فينا بعد موته. فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكل ما ترى فينا من عدل فمنه تعلمناه.

قلت: ومن عدله أن بنى دار العدل. قال ابن الأثير: كان نور الدين رحمه الله أول من بنى دارا للكشف وسماها دار العدل. وكان سبب بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراؤه، وفها أسد الدين شيركوه وهو أكبر أمير معه، وقد عظم شانه وعلا مكانه، حتى صار كأنه شريك في الملك واقتنوا الأموال

وأكثروا؛ تعدى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها. فكثرت الشكاوى إلى كمال الدين فانصف بعضهم من بعض، و لم يقدم على الإنصاف من أسد الدين شيركوه. فأنهى الحال إلى نور الدين، فأمر حينئذ ببَناء دار العدل. فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي؛ و إلا فمن هو الذى يمتنع على كمال الدين؟ ووالله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه. فامضوا إلى كل من بينكم و بينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه، وأرضوه بأي شيء أمكن، ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي. فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب. فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهل على من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يساوى بيني و بين آحاد العامة في الحكومة. فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم، وأشهدوا عليهم. فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات. وكان يجلس في الأسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء؛ و بقى كذلك مدة فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين. فقال نور الدين لكمال الدين: ما أرى أحدا يشكو من شيركوه. فعرفه الحال، فسجد شكرا لله تعالى، وقال: الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا. قال ابن الأثير: فانظر إلى هذه المعدلة ما أحسنها، و إلى هذه الهيبة ما أعضمها، و إلى هذه السياسة ما أسدها؛ هذا مع أنه كان لا يريق دماً، ولا يبالغ في عقوبة، وإنما كان يفعل هذا صدقه في عدله وحسنُ نيته.

قال: وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيا، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، و به كان يضرب المثل في ذلك. سمعت جمعا كثيراً من النلس لا أحصيهم يقولون أنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه، كأنه خلق عليه لا يتحرك ولا يتزلزل. وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها؛ لم يرجو كأنه يعلو على رأسه. وكان ربما ضرب الكرة و يجرى الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان. وكانت يده لا ترى والجوكان فيها بل يكون في كم قبائه استهانة باللعب وكان إذا حضر الحرب اخذ قوسين وتركاشين و باشر القتال بنفسه، وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها. سمعه يوماً الإمام قطب الدين النيسابورى الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك فقال له: بالله لا تخاطر بنفسك و بالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم، ولئن اصب والعياذ بالله في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف وأخذت البلاد. فقال: يا قطب الدين: ومن محمود حتى يقال له هذا؟ قبلى من حفظ البلاد والإسلام، ذلك الله الذي لا إله إلا هو. قال: وكان رحمه الله يكثر إعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج، خذلهم الله تعالى، وأكثر ما ملكه من بلادهم به. ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروب، فإنه

ما زال يخدعه و يستميله، حتى جعله في خدمته سفرا وحضرا؛ وكان يقاتل به الإفرنج، وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فنال من بلاد الإسلام، فإذا طلب انحجر فيها فلا يقدر عليه. فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئا من للإقطاع على سبيل التالف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج. قال: وحين توفى نور الدين رحمة الله وسلك غيره غير هذا الطريق ملك المتولي الأرمن بعد مليح كثيرا من بلاد الإسلام وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم، وخرق واسع لا يمكن رقعه.

قال: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده؛ فإنه كان إذا توفى أحدهم وخلف ولدا أقر الإقطاع عليه، فإن كان الولد كبيرا استبد بنفسه، وإن كان صغيرا رتب معه رجلا عاقلا يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر. فكان الأجناد يقولون هذه أملاكناً يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سبَباً عظيما من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب. وكان أيضاً يثبت أسماء الأجناد، كل أمير في ديوانه، وسلاحهم خوفاً، من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد؛ ويقول: نحن كل وقت في النفير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العَدَد والعُدد دخل الوهن على الإسلام. قال: ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال، وأصاب فيما فعل، فلقد رأينا ما خافه عياناً.

فال: وأما ما فعله في بلاد الإسلام من المصالح مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم. من ذلك أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها؛ فمنها حلب، وحماة، وحمص، ودمشق، و بارين، وشيزر، ومنبج، وغيرها من القلاع والحصون، وحصنها وأحكم بناءها، وأخرج عليها من الأموال ما لا تسمح به النفوس وبنى أيضا المدارس بحلب، وحماة، ودمشق، وغيرها للشافعية والحنفية. وبنى الجوامع في جميع البلاد، فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان. ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوض أمر عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر الملا رحمه الله، وهو رجل من الصالحين، فقيل له إن هذا لا ويصلح لمثل هذا العمل. فقال: إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتاب أعلم أنه يظلم في بعض الأوقات، ولا يفي الجامع بظلم رجل مسلم، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لا يظلم، فإذا ظلم كان الإثم عليه لا على. قال: وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم. وبنى أيضاً بمدينة حماة جامعاً على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها. وجدد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم، إما بزلزلة أو غيرها، وبنى البيمارستانات في البلاد؛ ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج جدا. بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير. قلت: وقد وقفت على

كتاب وقفه فلم أره مشعرا بذلك، و إنما هذا كلام شاع على ألسنة العامة ليقع ما قدره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه، والله المستعان. وإنما صرح بأن ما يعز وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء، فحص ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدى إلى غيره، لاسيما وقد صرح قبل ذلك بان وقف على الفقراء والمنقطعين، وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفا لمرضه أعطى. وروى أن نور الدين رحمه الله شرب من شراب البيمارستان فيه، وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: من جاء إليه مستوصفا لمرضه أعطى. والله أعلم. وبلغني في أصل بنائه نادرة، وهي أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعض أكابر الملوك من الفرنج، خذلهم الله تعالى، فقطع على نفسه في فدائه مالا عظيما؛ فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعد ما استخار الله تعالى، فأطلقه ليلا لئلا يعلم أصحابه، وتسلم المال. فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات، و بلغ نور الدين خبره، فأعلم أصحابه فتجمعوا من لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع الحُسْنَيَين، وهما الفداء وموت ذلك اللعين. فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارستان ومنع المال الأمراء، لأنه لم يكن عن إرادقم كان.

قال ابن الأثير: وبنى أيضا الخانات في الطرق، فأمن الناس وحفظت أموالهم، وباتوا في الشتاء في كن من البرد والمطر. و بنى أيضا الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادى؛ فإذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم، واحتاطوا لأنفسهم فلم يبلغ العدو منهم غرضا؛ وكان هذا من ألطف الفكر وأكثرها نفعاً قال: و بنى الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأدر عليهم الإدرارات الصالحة، وكان يحضر مشايخهم عنده ويقربهم، ويدنيهم ويَبسطهم؛ ويتواضع لهم؛ وإذا أقبل أحدهم إليه، يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويعتنقه ويجلس معه على سجادته، ويقبل عليه بحديثه. وكذلك كان أيضا يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنظر، فقصدوه من البلاد الشاسعة، من خراسان وغيرها. و بالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك، وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يقول: ومن المعصوم؟! وإنما الكامل من تُعد ذنوبه. قال: وبلغني أن بعض أكابر الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري، الفقيه الشافعي، وكان قد استقدمه من خراسان، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه؛ فحسده ذلك! الأمير فنال منه يوما عند نور الدين. فقال له: يا هذا إن صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها وهي العلم والدين. وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك؛ وأنا احتمل سيئاتكم مع

عدم حسناتكم، أفلا أحتمل سيئة هذا، إن صحت، مع وجود حسنته على؟! إنني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدبنك. فكف عنه. قال ابن الأثير: هذا والله هو الإحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب.

وبنى بدمشق أيضا دار الحديث، ووقف عليه وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفا كثيرة، وهو أول من بنى دارا للحديث فيما علمنا. و بنى أيضا في كثير من بلاده مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة؛ وبنى أيضاً مساجد كبيرة ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن. قال: وهذا فعل لم يسبق إليه. بلغني من طرف بإعمال الشام أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا، وهو ثمان وستمائة، كل شهر تسعة الاف دينار صورية، وليس فيها ملك غير صحيح شرعي ظاهرا وباطنا، فإنه وقف ماً انتقل إليه وورث عنه، أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه.

قال: وأما هيبته ووقاره فإليه النهاية فيهما. ولقد كان كما قيل: شديد في غير عنف، رقيق في غير ضعف. واجتمع له ما لم يجتمع لغيره، فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غاية لا مزيد عليها. وكان يلزمهم بوظائف الخدمة الصغير منهم والكبير، و لم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف، وأما من عداه، كأسد الدين شيركوه، ومجد الدين أبن الداية، وغيرهما فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياما إلى أن يأمرهم بالقعود. وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه، ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه. وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول: إن هؤلاء لهم في بيت المال حق، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا. وكان مجلسه كما روى في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس حلم وحياء لا تؤبن فيه الحرم؛ وهكذا كان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا. بلغني أن الحافظ ابن عساكر الدمشقي، رضي الله عنه، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق فرأى فيه من اللغط وسوء الأدب من الجلوس فيه مالا حد عليه. فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المحدثين وقلة استماعهم.. فقام و بقى مدة لا يحضر المجلس الصلاحي؛ وتكرر من صلاح الدين الطلب له، فحضر، فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه، فقال: نزهت نفسي عن مجلسك فإنني رأيته كبعض مجالس السُّوقة، لا يستمع إلى قائل، ولا يرد جواب متكلم. وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين فكنا، كما قيل، كأن على رءوسنا الطير، تعلونا الهيبة والوقار، فإذا تكلم أنصتنا و إذا تكلمنا استمع لنا. فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أنه لا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ. قال ابن الأثير: فهكذا

كانت أحواله جميعها رحمه الله مضبوطة محفوظة.
وأما حفظ أصول الديانات فإنه كان مراعياً لها لا يهملها، ولا يمكن أحدا من الناس من إظهار ما يخالف الحق. ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته؛ وكان يبالغ في ذلك و يقول: نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق؛ والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين وتمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل! قال: وحكى أن إنسانا بدمشق يعرف بيوسف بن آدم، كان يظهر الزهد والنسك وقد كثر أتباعه، أظهر شيئاً من التشبيه، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حمارا وأمر بصفعه، فطيف به في البلد جميعه ونودي عليه: هذا جزاء من أظهر في الدين البدع. ثم نفاه من دمشق، فقصد حران وأقام بها إلى أن مات. قال ويسوق الله القصار الأعمار إلى البلاد الوخمة.

قلت وذكر العماد الكاتب في أول كتابه البرق الشامي أنه قدم دمشق في شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة في دولة الملك نور الدين محمود بن زنكى؛ وأخذ في وصفه بكلامه المسجوع فقال: كان ملك بلاد الشام ومالكها، والذي بيده ممالكها، العادل نور الدين، أعف الملوك وأتقاهم وأثقبهم رأيا وأنقاهم؛ وأعدلهم وأعبدهم، وأزهدهم وأجهدهم؛ وأظهرهم وأطهرهم، وأقواهم؛ وأقدرهم؛ وأصلحهم عملا، وأنجحهم أملا! وأرجحهم رأياً، وأوضحهم آيا؛ وأصدقهم قولا! وأقصدهم طولا؛ وكان عصره فاصلا، ونصره واصلا وحكه عادلا، وفضله شاملا؛ وزمانه طيبا، وإحسانه صيباً؛ والقلو بمهابته ومحبته متلية والنفوس بعاطفته وعارفته متملية؛ وأمور مقتلبة، وأوامره ممتملة؛ وجده متره عن الهزل ونواهفي أمن العزل؛ ودولته مأمونه، وروضته مصوبة؛ والرياسة كاملة، والسياسة شاملة؛ والزيادة زائدة، والسعادة مساعدة؛ والعيشة ناضرة، والشيعة ناصرة. والإنصاف ضاف، والإسعاف عاف؛ وأزر الدين قوى، وظمأ الإسلام روى، وزند النجح ورى؛ والشرع مشروع، والحكم مسموع؛ والعدل مُولى والظلم معزول، والتوحيد منصور والشرك مخذول؛ وللتقى شروق، وما للفسوق سوق؛ وهو الذي أعاد رونق الإسلام، إلى بلاد الشام؛ وقد غلب الكفر، وبلغ الضر؛ فاستفتح معاقلها، واستخلص عقائلها؛ وأشاع بها شعار الشرع في جميع الحل والعقد، والإبرام والنفض، والبسط والقبض، والوضع والرفع. وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الإسلام بالشام قطائع فقطعها، وعفى رسومها ومنعها؛ ونصره الله عليهم مرارا حتى أسر ملوكهم، وبدد سلوكهم؛ وصان الثغور منهم، وحماها عنهم وأحيا معالم الدين الدوارس وبنى للامة المدارس؛ وأنشأ الخانقاهات للصوفية، وكثرها في كل بلاد وكثر وقوفها، وقرر معروفها، وأدنى للوافدين من جنان جنابه قطوفها؛ وأجد الأسوار والخنادق، وأنمى المرافق، وحمى الحقائق؛ وأمر في الطرقات ببناء الربط والخاتات؛ وضاقت ضيوف الفضائل، وفاضت فيوض الأفاضل؛ وهو الذي فتح مصر وأعمالها،

وأنشأ دولتها ورجالها.

ثم ذكر العماد في أثناء حوادث سنة تسع وستين، وهي السنة التي توفى فيها نور الدين، قال: وفي هذه السنة أكثر نور الدين من الأوقاف والصدقات وعمارة المساجد المهجورة، وتعفية آثارل الآثام، وإسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام، فما أبق سوى الجزية والخراج، وما تحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج. قال وأمرني بكتابة مناشير لجميع أهل البلاد فكتب أكثر من ألف منشور؛ وحسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر فذلك على ثلاثين ألف دينار. وكانت عادته في الصدقة أن يحضر جماعة من أماثل البلد من كل محله، و يسألهم عمن يعرفن في جوارهم من أهل الحاجة، ثم يصرف إليهم صدقاتهم. وكان برسم نفقة الخاصة في كل شهر من جزية أهل للذمة مبلغ ألفى قرطيس، يصرفه في كسوته ونفقته وحوائجه المهة، حتى أجرة خياطه، وجامكية طباخه، ويستفضل منه ما يتصدق به أخر الشهر. واما ما كان يهدي إليه من هدايا الملوك وغيرهم فإنه كان لا يتصرف في شيء منه، لا قليل ولا كثير، إذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي يحصل ثمنه، ويصرف في عمارة المساجد المهجورة. وتقدم بإحصاء ما في محال دمشق فاناف على مائة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كله وعين له وقوفاً. قال: ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب و لم يبلغ إلى أمد. أبيته الدالة على خلوص نيته تغنى عن خبرها بالعيان، ويكفي أسوار البلدان عن الرابط المدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب، وفي شرح طوله طول، وعمله لله مبرور مقبول. وواظب على عقد مجالس الوعاظ، ونصب الكرسي لهم في القلعة له للإنذار والاتعاظ، وأكبرهم الفقيه قطب الدين النيسابوري، وهو مشغوف ببركة أنفاسه، واغتنامً كلامه واقتباسه. ووفد من بغداد ابن الشيخ أبي النجيب الأكبر، وبسط له في كل أسبوع المنبر، وشاقه وعظه، وراقه معناه ولفظه. وكذلك وفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن شَوَرْوَه، وما أثمن تلك الأيام وابرك تلك الشتوه.

فال: ولما أسقط نور الدين الجهات المحظورة، والشبه المحذوره، عزل الشحن، وصرف عن الرعية بصرفهم المحن، وقال للقاضي الدين ابن الشهرزوري: انظر أنت في ذلك واحمل أمور الناس على الشريعة. قال: و لم يكن لمال المواريث الحشرية حاصل، ولا الديوانه طائل، فجعل نور الدين ثلث ما يحصل فيه لكمال الدين الحاكم، فوفره نوابه وكثروه، وما كان نور الدين يحاسب القاضي على شيء من الوقوف، ويقول: أنا قلدته على أن يتصرف بالمعروف؛ ومال من مصارفها وشروط واقفها يأمره بصرفه في بناء الأسوار وحفظ الثغور، وكانت دولته نافذة الأوامر منتظمة الأمور.

قلت: وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن هبة لله أنه حضر مع عمه لحالفظ أبي القاسم رحمه الله مجلس

نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمر في أثناء الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج متقلداً سيفا؛ فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه وقال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يتقلد السيف! يشير إلى التعجب من عادة الجند، إذ هم على خلاف ذلك يربطونه بأوساطهم. قال: فلما كان من الغد مررنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان. فوقفنا ننظر إليه معهم، فخرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك. فرحمة الله على الملك الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الحالة، لما بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوائدهم، اتباعا لما بلغه عن نبيه صلى الله عليه وسلم؛ فما الظن بغير ذلك من السنن. ولقد بلغني أنه أمر بإسقاط ألقابه في الدعاء على المنابر، ورأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني الشاعر في منامه أنه يغسل ثيابه، وقض ذلك عليه. ففكر ساعة، ثم أمره بكتابه إسقاط المكوس، وقال: هذا تفسير منامك، وكان في تهجده يقول: ارحم العشار المكاس و بعد أن أبطل ذلك استعجال من الناس في حل وقال: والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدو الإسلام، يعتذر بذلك إليه عن أخذها منهم. وعلى الجملة كان نور الدين رحمه الله تعالى فردا في زمانه من بين سائر الملوك. ولو لم يكن إلا استماعه للموعظة وانقياده لها، وإن اشتملت على ألفاظ قد أغلظ له فيها . قرأت في تاريخ إربل لشرف الدين ابن المستوفى رحمة الله: قال المنتخب الواعظ، هو أبو عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي، ورد إربل ووعظ بها وكان له قبول عظيم، وسافر إلى نور الدين محمود بن زنكى ابن آق سنقر إلى الشام بسبب الغزاة، وأنفذ له نور الدين جملة من مال فلم يقبلها وردها عليه؛ أنشدني له يحيى بن محمد بن صدقة قصيدة عملها في نور الدين وحلف أنه سمعها من لفظه:

مثل وقوفك أيها المغرور = يوم القيامة والسماء تمور

إن قيل نور الدين رحت مسلما = فأحذر بان تبقى ومالك نور

أنهيت عن شرب الخمور، وأنت من = كأس المظالم طافح مخمور

عطلت كاسات المدام تعففا = وعليك كاسات الحرام تدور

ماذا تقول إذا نقلت إلى البلى = فردا، وجاءك منكر ونكير

وتعلقت فيك الخصوم وأنت في = يوم الحساب مُسَحَّبٌ مجرور

وتفرقت عنك الجنود وأنت في=ضيق اللَّحود مُوَسَّدٌ مقبور

وددت أنك ما وليت ولاية = يوماً، ولا قال الأنامُ: أمير

وبقيت بعد العزّ رَهْن حُفيرة في = عالم الموتى وأنت حقير

وحشرت عريانا،حزينا،باكيا قلقا، ومالَكَ في الأنام مجير

أرضيت أن تحياً وقلبك دارس عافي الخراب وجسمُك المعمور

أرضيت أن يحظى سواك بقربه أبداً وأنت مبعد مهجور

مهد لنفسك حجة تنجو بها يوم المعاد لعلك لمعذور

قلت: ولعل هذه الأبيات كانت من أقوى الأسباب المحركة إلى إبطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم. رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه، ووفق من رام الاقتداء به.

ونقلت من خط الصاحب العالم كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة في كتاب تاريخ حلب الذي صنفه، وسمعت من لفظه، أن نور الدين رحمه الله كان مع أبيه بجلب، فلما حاصر أبوه قلعة جعبر وقتل عليها قصد حلب وصعد قلعتها وملكها في شهر ربيع الأول منة إحدى وأربعين وخمسمائة، وأحسن إلى الرعية و بث العدل ورفع الجور، وأبطل البدع واشتغل بالغزو، وفتح قلاعا كثيرة من عمل حلب كانت بيد الفرنج، وحدث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له، منهم أبو عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المعرى، روى عنه جماعة من شيوخنا مثل أبي الفضل أحمد وأبي البركات الحسن وأبي منصور عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبه الله الشافعي. قال: ووقفت على رقعة بخط الوزير خالد بن محمد بن نصر ابن القيسراني كتبها إلى نور الدين، وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور؛ فنقلت جميع ما فيها من خطبهما. قال: وكان رحمه الله كتب رقعة يطلب من ابن القيسراني أن يكتب له صورة مايدعى له به على المنابر حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه، ويصونه عن الكذب وعما هو مخالف لحلله. ونسخة الورقة بخط خالد: "أعلى الله قدر المولى في الدارين، و بلغه آماله في نفسه وذريته، وختم له بخير في العاجلة والآجلة، بمنه وجوده، وفضله وحمده. وقف المملوك على الرقعة، وتضاعف دعاؤه وابتهاله إلى الله تعالى بأن يرضى عنه وعن والديه، وأن يسهل له السلوك إلى رضاه والقرب منه والفوز عنده، إنه على كل شيء قدير وقد رأى المملوك ما يعرضه على العلم الأشرف، زاده الله شرفا، وهو أن يذكر الخطيب على المنبر إذا أراد الدعاء للمولى: اللهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين. فإن هذا جميعه لا يدخله كذب ولا تزيد والرأى أعلى وأسمى شاء الله تعالى". فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه ما هذا صورته: "مقصودى ألاّ بكذب على المنير، أنا بخلاف كل ما يقال. أفرح بماً لا أعمل، قله عقل عظيم، الذي كتبت جيد هو، اكتب به نسح حتى نسيره

إلى جميع البلاد". وكتب في آخر الرقعة: "ثم يبدءوا بالدعاء: اللهم أره الحق حقاً، اللهم أسعده، اللهم انصره، الله وفقه، من هذا الجنس" قال: وحدثني والدي قال: استدعانا نور للذين أنا وعمك أبو غانم شرف الدين ابن أبي عصرون إلى الميدان الأخضر وأشهدنا عليه بوقف حوانيت على سور حمص. فلما شهدنا عليه التفت علينا وقال: بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البر والخير، دلونا عليه وأشركونا في الثواب. فقال شرف الدين ابن أبي عصرون: والله ما ترك المولى شيئا من أبواب البر إلا وقد فعله و لم يترك لأحد بعده فعل خير إلا وقد سبقه إليه. وقال: قال لي والدي: دخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجر موسر فمات بها وخلف ولداً صغيرا ومالاً كثيرا فكتب بعض من بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه قد مات ههنا رجل تاجر موسر وخلف عشرين ألف دينار أو فوقها وله ولد عمره عشر سنين. وحسن له أبن يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصغير ويرضى منه بشيء ويمسك الباقي للخزانة. فكتب على رقعته : أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشاه الله، وأما المال فثمره الله، وأما الساعي فعلنه الله. وبلغتني هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضاً. وحدثني الحاج عمر بن سنقر عتيق شاذ بخت النوري قال: سمعت الطواشي شاذ بخت الخادم يحكى لنا قال: كنت يوما أنا وسنقرجا واقفين على رأس الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو يفكر فكراً عظيما، وجعل ينكث بأصبعه في الأرض. فتعجبنا من فكره وقلنا تُرى في أي شيئ يفكر، في عائلته أو في وفاء دينه؟ فكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال: ما تقولان؟ فقلنا: ما قبلنا شيئاً. فقال بحياتي قولا لي. فقلنا عجبنا من إفراط مولانا في الفكر وقلنا يفكر في عائلته أو في نفسه فقال. والله إنني أفكر في وال وليته أمرا من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك. فبالله عليكم. وإلا فخبري عليكم حرام لا تريان قصة ترفع إلى أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعاها إلى.

وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم قال: كان نور الدين ينفذ كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملأ شيئاً يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه. وكان إذا قدم الموصل لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر الملأ. قال: وكان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين شحنة الموصل ألا يعمل شيئاً بالشرع إذا أمره القاضي له.، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بأمر الشيخ عمر الملأ. قال: فكان لا يعمل بالسياسة، و بطلت الشحنكية. فجاء أكابر الدولة وقالوا لكمشتكين قد كثر الدعار وأرباب الفساد،ولا يجئ من هذا شيء إلا بالقتل والصلب؛ فلو كتبت إلى نور الدين وقلت له في ذلك فقال لهم أنا لا أكتب إليه في هذا المعنى ولا أجسر على ذلك؛ فقولوا للشيخ عمر يكتب إليه فحضروا عنده وذكروا له ذلك،

فكتب إلى نور الدين وقال له: إن الدعار والمفسدين وقطّاع الطريق قد كثروا ويحتاج إلى نوع سياسة، فمثل هذا لا يجئ إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يشهد له؟ قال: فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره: إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بما يصلحهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى. قال: فجمع الشيخ عمر الملأ أهل الموصل وأقرأهم الكتاب وقال: انظر وافي كتاب الزاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد! وسمعت صقر المعدل يقول: سمعت مقلداً-يعني الدولعي- يقول: لما ملت الحافظ المرادي، وكنا جماعة الفقهاء قسمين: العرب والأكراد؛ فمنا من مال إلى المذهب، وأردنا أن يستدعي الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، وكان بالموصل، ومنا من مال إلى علم النظر والخلاف، وأراد أن يستدعي القطب النيسابوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدس ثم عاد إلى بلاد العجم؛ فوقع بيننا كلام بسبب ذلك ووقعت فتنة بين الفقهاء. فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب وخرج إليهم مجد الدين- يعني ابن الداية- عن لسانه وقال: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض للبدع من هذه البلدة و إظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق. وقد قال المولى نور الدين: نحن نرضى الطائفتين ونستدعي شرف الدين ابن أبي عصرون وقطب الدين النيسابوري. فاستدعاهما جميعاً، وولى مدرسة ابن أبي عصرون لشرف الدين ومدرسة النفرى لقطب الدين قال وعلقت أيضاً من خط ففيه كان معيدا بالنظامية يقال له أبو الفتح بنجه بن أبي الحسن بنجه الأشترى، وكان ورد دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة، قال كان نور الدين يقعد في الأسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام في دار العدل للنظر في أمور الرعية وكشف الظلامة، لا يطلب بذلك درهما ولا ديناراً ولا زيادة ترجع إلى خزانته، و إنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله وطلبا للثواب والزلفى في الآخرة، و يأمر بحضور العلماء والفقهاء، و يأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والقوي، والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن الكلام، و يستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال. و يحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه فيأمر بمساواتها له فتغلب خصمها طمعا في عدله، ويعجز الخصم عن دفعها خوفا من عدله. فيظهر الحق عنده فيجرى الله على لسانه ما هو موافق للشريعة، و يسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة فلا يجرى في مجلسه إلا محض الشريعة.

قال: وأما زمانه فهو مصروف إلى مصالح الناس، و النظر في أمور الرعية، والشفقة عليهم. وأما فكره ففي إظهار شعار الإسلام وتأسيس قاعدة الدين من بناء الربط والمساجد حتى إن بلاد الشام كانت خالية من

العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقرا للعلماء والفقهاء والصوفية، لصرف همته إلى بناء للدارس والربط وترتيب أمورهم، والناس آمنون على أموالهم وأنفسهم. ولو لم يكن من هذه الخصال إلا ما علم منه وشاع أنه إذا وعد وفي، وإذا أوعد عفا؛ وإذا تحدث بشيء يقف عليه ولا يخالف قوله، ولا يرجع عن لفظه ومنطقه، لكفى ولا يجرى في مجلسه الفسق والفجور، والشتم والغيبة، والقدح في الناس والكلام في أعراضهم، كما يجرى في مجالس سائر الملوك؛ ولا يطمع في أخذ أموال الناس، ولا يرضى بأن يأخذ أحد من أموال الشريعة شيئاً بغير حق.

قال: وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعة أعتمد على قولهم أنه أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلا بوجهه عليه، و يؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها، وركوعها وسجودها. قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار أنهم يقولون: ابن القسيم له مع الله سر، فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل و يرفع يده إلى الله و يدعو، والله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ويعطيه سؤله، وما يرد يده خائبة، فيظفر علينا. قال: فهذا كلام الكفار في حقه قال: وحدثنا الشيخ داود القدسي خادم قبر شعيب، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، قال: حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين؛ فقام رجل وادعى على نور الدين الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق، قال: وأنا مطالب لك بذلك. فقال نور الدين أنا ما أعلم ذلك، فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها وأنا أرد إليك ما يخصني، فإني ما ورثت جميع ماله، كان هناك وارث غيري. فمضى الرجل ليحضر البينة فقلت في نفسي هذا هو العدل. قال: وحضر رجل زاهد فيه سمة الخير معروف بالسداد والصلاح، فسألت عنه، فقالوا: أخو الشيخ أبي البيان. وكان قد أودع عند أخيه أبي البيان وديعة، وقد توفي، فادعى المودع على هذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة، وطالبه. بالرد عليه؛ فأنكر هذا الرجل سلمه بالوديعة؛ فأوجب عليه القاضي كمال الدين حكم الشرع أن يحلف أنه لا علم له بهذه الوديعة، فحلف على ذلك. فجعل المودع يشنع عليه يقول: إنه حلف كاذباً، ويتكلم في عرضه، ويقول في حقه من التنمس وغيره. فحضر عند الملك العادل شاكياً منه وذاكرا سيرته وطريقته، ومن الذي يقدر أن يقول في حق هذا؛ و يتعرض بالتماسه من الملك العادل التقدم بإحضاره والإنكار عليه فيما يقول في حقه. فلما فرغ من الكلام ورمى ما كان في جعبته من دعوى للحقيقة والطريقة، وكان حاصله التماس الإنكار عليه. فقال الملك! العادل أليس أن الله تعالى يقول في كتابه: "وَإِذَا خَاطَبَهُم الَجْاهِلُونَ قالوا سَلاَماً". فإذا كان هو يجهل عليك ويقول في حقك بالجهل مالا يجوز فيجب عليك ألا تعمل معه مثل معاملته فتكون مثله، فكأنك قابلت الإساءة بالإساءة، ومن حقك أن تقابل الإساءة بالإحسان. فقلت في نفسي: الحق ما قال الملك العادل؛

إما قرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه، أو أجراه الله على لسانه وأنطقه به. قال: وحضر جماعة من التجار وشكوا أن القراطيس كان ستون منها بدينار، فصار سبعة وستون بدينار، وتزيد وتنقص، فيخسرون. فسأل الملك العادل عن كيفية الحال فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار، ولا يرى الدينار في الوسط، وإنما يعدون القراطيس بالسعر، تارة ستين بدينار، وتارة سبعة وستين بدينار وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه وتكون المعاملة بالدنانير الملكية، وتبطل القراطيس بالكلية. فسكت ساعة وقال: إذا ضربت الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأني خربت بيوت الرعية، فان كل واحد من السوقة عند عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس. "إيش يعمل به" فيكون سيبا لخراب بيته. قال: فأي شفقة تكون أعظم من هذا على الرعية!

قال: وحضر صبي وبكى عند الملك العادل وذكر أن أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف. فسأل عن حاله. فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة الوقف وليس له قدرة على الأجرة؛ وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة. قال الملك العادل كم أجرة السنة؟ فقالوا: مائة وخمسون قرطاسا، وذكروا سيرته وطريقته وفقره. فرق له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها. تقدم بذلك وبإخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الإنعام كان في حقه. أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب ابن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي قال: كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكردي قاضي حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يدعي سويداً يحضر الخصوم إلى مجلس الحكم. فحضر بعض التجار وادعى أن له على نور الدين دعوى. فقال الكردي لسويد المذكور: امض إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم وعرفه أنه حضر شخص يطلب حضوره؛ وكان نور الدين في الميدان، فجاء سويد إلى باب الميدان، فخرج إسماعيل الخازندار فوجده، فتقدم سويد إليه وقال: قد سيرني تاج الدين القاضي وذكر أنه حضر تاجر وذكر أن له دعوى على المولى نور الدين؛ وقد أنفذني تاًج الدين وقال لي كذا وكذا. فضحك إسماعيل الخازندار ودخل على نور الدين ضاحكا وقال له مستهزئا: يقوم المولى إلى مجلس الحكم فأنكر نور الدين على إسماعيل استهزاءه وقال: تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم! وقال نور الدين: يحضر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة. قال الله تعالى "إِنّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إذا دُعُوا إِلىَ اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا" ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة، فاستدعى سويدا وقال" امض إلى القاضي تاج الذين وسلم عليه وقل له: أني جئت إلى ههنا امتثالا لأمر الشرع، وأحتاج في الحضور الى مجلسه إلى سلوك هذه الأزقة وفيها الأطيان؛ وهذا وكيلي يسمع الدعوى وإن توجهت على يمين أحضر إن شاء الله قال فحضر الوكيل وسمع الدعوى.، وتوجهت اليمين؛ فقال الكردي: قد توجهت الدين

فليحضر. فلما بلع نور الدين ذلك وعلم أنه لا مندوحة عن حضور مجلسه لليمين استدعى ذلك التاجر وأصلح الأمر فيما بينه وبينه وأرضاه.

سمعت قاضي القضاة بهاء الدين يقول: حكى السلطان الملك الناصر صلاح الدين قال: أرسلني الملك العادل نور الدين إلى عمي أسد الدين شيركوه، وكان لا يفعل شيئا إلا بمشورته، فقال: امض وقل لأسد الدين قد خطر في بالي أن أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس، وخذ رأيه في ذلك. قال: فجئت إليه وأنهيت إليه ما قال لي. فقال: امض وقل له يا مولانا إذا فعلت ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم، وتحتاج إليهم للغزاة وخرج العساكر. فقال السلطان صلاح الدين: فقلت لعمي هذا أمر قد ألهمه الله إياه فساعده عليه. فصاح في وقال: امض إليه، وقل له ما أقول لك فعدت إلى نور الدين فأنهيت إليه ما قال لي عمي، فقال امض إليه وقل له إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولا نخرج. قال فعدت إلى عمي وقلت له ما قال. فقال قل له: إن تركوك تقعد فجيد هو. فراجعته في ألا يثبط ! في ذلك. فصاح في وقال: امض إليه وقل له ما أقول لك. قال فجئت إليه وقالت له ذلك فترك ذلك مدة ثم أمضى ما كان عزم عليه. قال لي صقر بن يحيى: بلغني أن موفق الدين خالدا رأى في النوم كأن نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقص منامه على نور الدين، فتمعر وجه نور الدين؛ فخجل موفق الذين وبقى أياما على غاية من الخجل فاستدعاه يوما نور الدين وقال: تعال، قد آن لك أن تغسل ثيابي اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار واكتب للمسلمين: إنني قد رفعت عنكم مارفعه الله عنكم وأثبت عليكم ما أثبته الله عليكم. قال فكتب موفق الدين توقيعا. سمعت خليفة بن سليمان بن خليفة الفقيه يقول: سمعت أبي يقول لما كسر نور الدين، يعني كسرة البقيعة، تكلم البرهان البلخي فقال: أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور! كَلاًّ وكَلا، مَامع هذا. فلما سمعه نور الدين قام ونزع عنه ثيابه تلك، وعاهد الله تعالى على التوبة وشرع في إبطال المكوس، إلى أن خرج في نوبة حارم وكسر الإفرنج. وسمعت صديقنا شمس الدين إسماعيل بن سودكين بن عبد الله النوري، وكان أبوه أحد مماليك نور الدين وعتيقه، يقول: سمعت والدي يقول: كان نور الدين محمود رحمه الله يلبس في الليل مسحا ويقوم يصلى فيه قطعة من الليل. قال: وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكى ويتضرع ويقول: ارحم العشار المكاس. قال لي قاضي القضاة بهاء الدين: سير نور الدين إلى بغداد كتاباً يعلم الخليفة بما أطلق وبمقدار ما أطلق، و يسأله أن يتقدم إلى الوعاظ بان يستجعلوا من التجار ومن جميع المسلمين له في حل مما كان قد وصل إليه، يعنى من أموالهم فتقدم بذلك وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك. حدثني رضى الدين أبو سالم عبد المنعم بن المنذر أن نور الدين حين خرج لأخذ شيزر خرج أبو

غانم بن المنذر صحبته، فأمره نور الدين رحمه الله بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحران وسنجار والرحبة وعزاز وتل باشر وعداد العرب فكتب عنه توقيعا نسخته: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقرب به إلى الله تعالى سبحانه صافحا وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا، رعاهم الله، لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكفار،.أبادهم الله تعالى، عند استيلائهم على البلاد وظهور كلمتهم في العباد، رأفة بالمسلمين المثاغرين، ولطفا بالضعفاء المرابطين، الذين خصهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد، واستمحنهم بمجاورة أهل العناد اختبارا لصبرهم، وإعظاما لأجرهم، فصبروا احتسابا، وأجزل لله لهم أجرا وثوابا، إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب؛ وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العمرية؛ وأقرها في الدولة الإسلامية بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين، فطمس عنهم بذلك معالم الجور، وهدم أركان التعدي، وأقر الحق مقره. لقوله تعالى: "مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمثَالهاَ"، "واللّهُ يُضاعِفُ لُمِنَ يَشَاءُ". ثم لما أعانه الله بعونه وأيده بنصره، وقمع به عادية الكفر، وأظهر بهمته شعائر الإسلام وأظفره بالفئة الطاغية، وأنه من ملوكها الباغية فجعلهم بين قتيل غير مُقاد، وهارب ممنوع الرقاد، "وَآخَرِينَ مُقَرَّنِين في الأَصْفَادِ، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنن أو أَمْسِكْ بغَيْرِ حِسَاب، وَإن لَهُ عِنْدَنا لَزُلفى وَحُسْن

مآب".علم أن الدنيا فانية، فاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى ملكه الزائل بان قدمه أمامه و جعله ذخرا للمعاد، فالتقوى مادة دارة إذا انقطعت المواد، وجادًة واضحة حين تلتبس الجواد "يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذ لِلَّهِ". فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه، وحرمها على كل متطاول إليها، ومتهافت عليها، تجنبا لإثمها واكتسابا لثوابها. فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه، اتباعا لكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار. جهة ذلك حلب خمسون ألف دينار، عزاز، عن مكس جددته الفرنج، خذلهم الله، على المسافرين، عشرة آلاف دينار، تل باشر واحد وعشرون ألف دينار، المعرة ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحروسة، لما استنجد به أهلها واستصرغ من فيها خوفاً على أنفسهم وأموالهم من القشة العدو، وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم في كل سنة، وهو رسم يسمونه القشة، عشرون ألف دينار، حمص ستة وعشرون ألف دينار، حران خمسة آلاف دينار، سنجار ألف دينار، الرحبة عبرة آلاف دينار، عداد العرب عشرة آلاف دينار. وما وقفه وتصدق به وأجراه في سبل الخيرات ووجوه البر والصدقات تقدير ثمنه مائتا ألف دينار، وتقدير الحاصل من ارتفاع في كل سنة ثلاثون ألف دينار. من ذلك ما وقفه على المدارس الحنفية والشافية والمالكية والحنبلية وأئمها ومدرسيها وفقهائها، "وما وقفه على آدر الصوفية والربط والجسور والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار" وما وقفه على السبيل في

طريق الحجاز، وما وقفه على فكاك الأسرى و تعليم الأيتام ومقر الغرباء وفقراء المسلمين، وما وقفه على الأشراف العلويين والعباسيين، وما ملكه لجماعة من الأولياء والغزاة والمجاهدين. هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور حرمها الله تعالى من أملاكهم التي تقدم ذكرها فإنه يضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه، جعل ذلك ذريعة عند الله تعالى وتقربا إليه، مضافا إلى ما أنفقه في الغزاة والجهاد، واستئصال شافة المكفر والعناد، من خزانته المعمورة، وأمواله الموروثة المذخورة، طلبا لما عند الله، والله عنده حسن الثواب.
فالواجب على كل إمام عادل وسلطان قادر أن يُمِدَّه ويَوَدَّء، و يشد عضده، يقوي عزمه، وينفذ حكمه. وعلى كل مسلم أن يواصله والدعاء، آناء الليل وأطراف النهار. وكتب خادم دولته وغذى نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان بن عبد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبي، غفر الله له ورحمه ورضي عنه، إلى كل من يصل إليه من أئمة الدين وفقهاء المسلمين،وأصحاب الزوايا المتعبدين، وكافة. التجار والمسافرين، أحسن لله توفيقهم، وسدد إلى الخير تفويقهم، ليشعروا بذلك من حضرهم من التجار، والمترددين إليهم من الشفار، ليعرفوا قدر ما أنعم الله به عليه وعليهم، "وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ"، ويمدوه بأدعيتهم يبرئوا ذمته مما سبق من أخذ مؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلا في وجه بر، وتجهيز جيش، ومعونة مجاهد، وردع كافر ومعاند، فهم شركاؤه في الثواب. قال لي رضى الدين أبو سالم ابن المنذر: فلما وقف نور الدين على قوله: ويبرئوا ذمته مما سبق. استحسن ذلك كثيراً ووعده بإقطاع حسن، واتفق موته بعد ذلك.

قلت: ونقلت من خط الشيخ الأمين أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الخضر ابن الحسين بن عبدان الأزدى الدمشقي: وقف المولى نور الدين بستان الميدن سوى الغيضة التي من قبليه بعد عمارته و إصلاح ما يحتاج إليه على تطييب المساجد التي يأتي ذكرها، وهي: جامع دمشق المحروسة، جامع قلعة دمشق، مدرسة الحنفية التي جددها نور الدين، مسجد ابن عطية داخل باب الجابية، مسجد ابن لبيد بالفسقار، مسجد سوق الرماحين؛ المسجد المعلق لسوق الصاغة، مسجد دار البطيخ المعلق، مسجد العباسي بسوق الأحد، مسجد جدده نور الدين جوار بيعة اليهود، جامع الصالحين بجبل قاسيون. يبتاع بذلك طيب وعود ويفرق على هذه الأماكن: النصف للجامع بدمشق والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءا، جزء ن للمدرسة وتسعة أجزاء لتسعة المساجد الباقية لكل مسجد جزء واحد؛ تطيب هذه الأماكن في الأوقات الشريفة ومواسم. الاجتماعات وليالي شهر رمضان والأعياد وأيام الجمع وقت عقد الجمعة في الجوامع، وليالي الجمعة والخميس والاثنين. ونقلت من خطه أيضاً أن نور الدين رحمه الله تعالى حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة القاضي زكي الدين أبو

الحسن علي بن محمد بن يحيى القرشي والفقهاء الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد، والإمام عز الدين أبو القاسم على بن الحسن بن الماسح الشافعيون، وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى المالكي، وشرف الإسلام محمد بن عبد الوهاب الحنبلي ورضى الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد التميمي رئيس دمشق، ونظام الدين أبو الكرام المحسن ابن أبي المضاء متولي الوزارة بدمشق، والأعيان من شهود العدالة بدمشق وهم: عبد الصمد بن تميم، وعبد الواحد بن هلال، والصائن أبو الحسين، وغيرهم. فسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصاغ التي ليست وقفا عليه، وأن يظهر كل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به ويقع الاعتماد عليه، وقال لهم: ليس يجوز لأحد منك أن يعلم من ذلك شيئا إلا ويذكره، ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلا وينكره، والساكت منكم للناطق ومصوب لقوله، وليس العمل إلا على ما تتفقون عليه وتشهدون به؛ وعلى هذا كان الصحابة رضى الله عنهم يجتمعون و يتشاورون في مصالح المسلمين. فكل من الحاضرين شكره على ما قصده وأثنى عليه ودعا له بالبقاء. ثم أمر نور الدين متولي أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقني السبيل وما جرى مع ذلك أن يقرأ عليه بمحضر من المذكورين ضريبة الأوقاف موضعا موضعاً ليفرد ما يعلمون أنه للمصالح دون الوقف. فافتح بالسوق المستجد تحت المئذنة الغربية جوار البيمارستان، فقال الصائن وابن تميم وابن هلال: هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين وليس من وقف الجامع لأنه احدث في طريق المسلمين، وقد صرف في الجامع من أجوره أوفى مما غرم على عمارته من وقفه. فصدقهم الحاضرون على ما شهدوا به، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة. ثم عين للمصالح أيضا ما في زيادة الجامع القبلية وزيادة باب البريد في الصف القبلى والشامي من العضائد والحوانيت والحجر التي طباقها وطباق الطريق بحضرهما وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع والفرن المستجد بها، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل، وحانوت في الخواصين في الصف الغربي واثنا عشر حانوتاً متلاصقات في الصنف الشرقي تعرف. بالمعتصميات، ونصف حانوت والفرجة المستجدة بحضرة دار الوكالة إلى سوق على وعدهما ثلاثة عشر حانوت، ومصطبة وثلاثة حوانيت في الصف الشامي من سوق على بلصق الفرجة من شرقها، وحانوت بالفسقار في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفقاعي، وحوانيت اللبادين، و التي بحضرة الفوارة، وتحت اللبادين، وقيسارية العقيقي بسوق الأحد وتعرف بدار الشجرة، وحانوتان في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب درب التمارين، وحانوت بقنطرة الشماعين في الصف الشامي بحضرة البياطرة، وقطعة جوار المامونية من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق الأحد وهي خمس عشرة عضادة، وستة أسهم من طاحونة السقيفة. وذلك كله ميراث عن بنى أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضه اشترى بمال الوقف والمصالح،

وبعضه أخذ من باد أهله الموقوف عليهم و لم يكن له مال وبعضه أحدث في الطريق قال فلما شهدوا بصحة

جميع ما ذكر وأن منافع ذلك وأجوره جارية في المصالح قال نور الدين: إن أهم المصالح سد ثغور المسلمين وبناء السور المحيط بدمشق والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم: فصوبوا ما أشار إليه وشكروه. ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين فأفتى شرف الدين ابن عبد الوهاب المالكي بجواز ذلك، ومنهم من روى في مهلة النظر، وقال الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون الشافعي لا يجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره ولا وقف معين إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بد من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه من إليه الأمر في بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجبا من بيت المال. فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك. ثم سال ابن أبي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى وبناء الكلام من شام الجامع وعلى إنشاء الوقف المقرنص تحت النسر بالجامع وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشامي من الجامع وسائر العمارات المتعلقة بالجامع المعور بغير إذن مولانا وهل كان إلا مبلغا للأمر العالي في عمل ذلك فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولاشيء منه إلا بإذني وأنا أمرت به و بفتح المشهدين من غربي الجامع المعمور اللذين كانا مخزنين، كتب مبلغا عنى ومؤديا بامري.

قلت: هذا مختصر الذي كتب فيه صورة ما جرى في ذلك المجلس وهو مشتمل على فوائد حسنة وتأكيد نقل من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أوامر الشريعة. وفي ذلك المختصر خطوط الجماعة الحاضرين.

وصورة ما كتبه المالكي المفتي: "حضرت المجلس المذكور عمره الله وزينه بالعدل أبداً ما عاش صاحبه، وشهدت على ما تضمنه من المشورة المباركة وما نسب إلى الجماعة الشهادة به من المواضع المشهورة كما نسب إليهم، وقد أخل بذكر دار الحجارة وقد ذكروها في المصالح المشهورة، وما نسب إلى من الفتوى فقد كنت قيدته بالحاجة وفراغ وبيت المال أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهماتهم الدينية كتبه عبد الوهاب بن عيسى بن محمد المالكي.

فصل

وقد مدح نور الدين رحمه الله باشعار كثيرة، وأوصافه فوق ما مدح به. وكان في أول دولته شاعرا زمانه أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير، وأبو الحسن أحمد بن منير؛ ولهما فيه أشعار فائقة سيأتي جملة منها في مواضعها. وقد رأيت أن أقدم منها شيئا هنا.

قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني: كتب إلى نور الدين سلام الله وحنانه، ورأفته وامتنانه، وروحه وريحانه، على من عصم بعزه العواصم، وخصم بحجته الدهر المخاصم وألجم بهيبته العائب والواصم؛. الذي انتضى في سبيل الله سيوف الجهاد، وارتضى بعز سلطانه شعار العُباد والزهاد، واهتدى إلى طاعة الله وليس غير الله من هاد؛ ومن أصبحت أطراف البلاد أوساطا لمملكته، ومعاقل الكفار في عقال ملكته، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته؛ ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النصر، وممالك الإسلام متوجة بتيجان الفخر، وصعاب الأمور منقادة إليه بأزمة القهر؛ ومن رأى الحكم دراسة فبنى مدارسها، والهمم يابسة فسقى منابتها ومغارسها، والمنابر شامسة فأمكن من صهواتها فوارسها؛ومن عمر ربع السنن بعدها عفا، وأنقذ من الفتن من كان منها على شفا؛ ومن نشر أعلام الفضل، وأنشر بعد الوفاة أيام العدل؛ ومن أنار بوجهه الإيمان، وأخذ الناس به من الزمان توقيع الأمان.

ذو الجهادين من عدوّ ونفس ... فهو طول الحياة و في هيجاء

أيها المالك الذي ألزم النا ... س سلوك المحجة البيضاء

قد فضحت الملوك بالعدل لما ... سرت في الناس سيرة الخلفاء

قاسماً ما ملكت في الناس حتى ... لقسمت التقى على الأتقياء

شيم الصالحين في جتُر التُّر ... ك وكم من سكينة في قباء

أنت حينا تقاس بالأسد الور ... د وحينا تعد في الأولياء

صاغك الله من صميم المعالي ... حيث لا نسب سوى الآلاء

وكأن القباء منك لما ضم من الطهر مسجد لقُباء

أنت إلا تكن نبيا فما فا ... تك إلا خلائق الأنبياء

رأفة في شهامة، وعفاف ... في اقتدار، وسطوة في حياء

وجمال ممنطق بجلال ... وكمال متوج ببهاء

وإذا ما الملوك خافت سهام الذ ... م زرت عليك درع الثناء

عجب الناس منك انك في الحر ... ب شهاب الكتيبة الشهباء

وكأن السيوف من عزمك الما ... ضي أفادت ما عندها من مضاء

ولعمري لو استطاع فداك ال ... قومُ بالأمهات والآباء

وله فيه:

لله عزمك أي سيف وغى — طبعت مضاربه على القهر
ما زفت الحرب العوان به — إلا انجلت عن معقل بكر
هل وجه نور الدين غير سنا — صدع الدجى عن خجله البدر
ملك مهابته طليعته — أبدا أمام جيوشه تسرى
كم فل كيدهم بصاعقة — شغلت قلوبهم عن الفكر
تركت حصونهم سجونهم — فالقوم قبل الأسر في أسر
عصم العواصم فهي ضاحكة — تجلو الظبي ثغرا على الثغر
وإذا القلاع بمثل جندلها — حتى استكان الصخر بالصخر
ياسائلي عن نهج سيرته — هل غيرُ مفرق هَامِه الفجر
وعدلٌ حقيقُ من تأمله — أن يُحْيِيَ العُمَرَيْن بالذكر
وشهامة في الله خالصة — عقدت عليه تمائم الأجر
وندى يد ماضر واردها — ألا يبيت مجاور البحر
هذا المخيم في ذرا حلب — وثناؤه أبدا على ظهر

وله وقد وصف داره:

دار تغار الشمس في أفقها — من حسنها والشمس مغيار
يزأر فيها ضيغم ماله — غير سيوف الهند أظفار
تمسي وتضحي وهو جارٌ لها — والله ذو العرش له جار
لسيفه البائر من دهره ال — جائر ما يهوى ويختار
قد ملأ الأسفار من ذكره — نشر له في الروض إسفار
حمد يضوع الجوُّ من نَشره — كأنما راويه عطار
إن خطرت في قلبه خطرة — أجابها ماض وخطار
وإن دعا داعيه يوم الوغى — سيوفه لبَّتْه أقدار
كأنما صارمه مرسلُ — له من التأييد أنصار

يا مالك الدنيا ولكنها=دنيا لها في الدين آثار ويا جواداً ما لآلآئه=غير قضاء الحمد مضمار وله فيه:

تدرك ملة العربي ذبا — إلى أن عده منه معد
وحل ذرا العواصم وهي نُهْبى — فأجلى الشرك حتى ليس ضِدٌّ
ثنى يده عن الدنيا عفافا — ومال بها عن الأموال زهد
رأى حط المكوس عن الرعايا — فأهدر قبل ما أنشاه بعد
ومدلها رواق العدل شرْعا — وقد طُوِى الرِّواقُ ومن يمد
وبات وعند باب العرش منها — لدولته دعاء لا يرد

وله فيه:

ملك أشبه الملائك فضلا — وشبيه بمالك الأمر جندُه
عم إحسانه فأصبح يُتْلى — شكره في الورى ويُدْرس حمده
فسقى الله ذكره أينما حل — ولا فاته من النصر رفده

وله:

ضحكت تباشير الصباح كأنها — قَسَماتُ نور الدين خير الناس
المشترِى العُقبى بأنفس قيمة — والبائع الدنيا بغير مكاس
وسرى دعاء الخلق يحرس نفسه — إن الدعاء يعد في الحراس
راض الخطوب الصُّم بعد جماحها — وألان من قلب الزمان القاسي
وأعاد نور الحق في مشكاته — وأقام وزن العدل بالقسطاس
واختار مجد الدين سائس ملكه — فحمى الرياسة منه طود رأسي
فهو الخبير بكل داء معظل — يأسو جراح زماننا ويواسي
وأذل السلطان النفاق بعزة — خضعت لها الآساد في الآخياس
وعرته أقران الخطوب فصدها — ألوى يمارسها أشد مراس
ولوان فيض النيل فائض فضله — لم تفتقر مصرٌ إلى مقياس
سكنت شعب الدهر بعد تحمط — وألنت من عِطْفيه بعد شِماس

وفتحت باب الحظ بعد رتاجه وأذنت للأطماع بعد الياس
حتى منحت الخلق كل مسرة فالناس في عرس من الأعراس

وله:

سام الشام ويالها من صفقة لولاء ما عنت على يد سائم
ولشمرت عنها الثغور وأصبحت فيها العواصم وهي غير عواصم
تلك التي جمحت على من ارضها ودعوت فانقادت بغير شكائم
وإذا سعادتك احتبت في دولة قام الزمان لها مقام الخادم
حصِّن بلادك هيبة لا رهبة فالدرع من عدد الشجاع الحازم
هيهات يطمع في محلك طامع طال البناء على يمين الهادم
كلفت همتك السُّمُوَّ فحَلَّقت فكأنما هي دعوة في ظالم
وأظن أن الناس لما لم يروا عدلاً لعدلك أرجفوا بالقائم

وله:

قلت تقول الله لا خائفاً مع حكم القرآن حكم القِران
لا رَاقِب النجم ولا سائلا ما فعل السعدان والنيران
بل غِرْت للإسلام حتى لقد دان له من بالطواغيت دان
رُعْتَ نواميس نواقيسها بحلبة الآذان وقت الأذان
تمحو تصاوير الدُّمى عن يد تبنى المحاريب خلال المحان
هذا وكم أنشأت من منبر فارسه فارس سحر البيان
من مال بالإخلاص ما مِلْتَهُ كان من الله مكين المكان
يا شائماً بالشام. صوب الحيا ودانيا من كل قاص ودان
هذى سجوف الملك مرفوعة عن ملك أخباره كالعيان
أوضح سُبْلَ العدل مفتنة فللبرايا بالدعاء افتتان
ألْغَى حمقوقاً كلها باطل إلى ضمان حط مال الضمان
عطفا ورفقا بالرعايا وإن أصبح تأديب ملوك الزمان

كم بين من نام على نشوة | وساهد في صهوة من حصان
في كل يوم ينثني سيفه | ببلدة بكر وأخرى عوان

وقرأت في ديوان أحمد بن منير الطرابلسي من قصائد يمدح بها نور الدين رحمه الله تعالى:

يا محيى العدل ويا مُنْشِرهُ | من بين أطباق البلى وقد همد
وركن الإسلام الذي وطده | طال وأرسى العزفيه ووطد
وشارع المعروف إذ لا سفه | ينجح للقول ولا تسمح يد
محوت ما أثبته الجور مضى | عليه إخلاد الليالي فخلد
من كل مكاس يظل قاعداً | لما يسوء المسلمين بالرصد
كانت لأرجاس اليهود دولة | أزالها منك الهصور ذو اللبد
الملك العادل لفظ طابق ال | معنى وفي الوصف معاد مسترد
خير النعوت ما جرى الوصف على | صفحته جرى النسيم في الومد
عدل جنيت اليوم حلو ريعه | وسوف جنى لك أحلى منه غد
لازال للإسلام منك عدة | تقيم منه كل زيغ وأود
الناس أنت والملوك شرط | تعد ليثا ويعدون نقد
مثلك لا يسخوبه زمانه | ومثل ما أوتبت لم يؤت أحد

وله:

أيا نور دين خبا نوره | ومذ شاع عدلك فيه اتقد
رآك الصليب صليب القنا | ة أمين العثارمتين العمد
تهم فتسلبه ما اقتنى | وتدأى فتشكله ما احتشد
زبنتهم أمس عن صرخد | ففضوا كان نعاما شرد
ويوم العرُيْمة أقبلتهم | عراما تثعلب منه الأسد
حبيت مليكهم في الصفاد | وعفوك عنه أعم الصفد
وقبل أزرتهم في الرها | موازق مزقن جُرد الجرد
بقيت ترقع خرق الزمان | قياما لأبنائه إن قعد

نثقف من زيفه ما التوى — وتصلح من طبعه ما فسد

وله:

أيا ملك الدنيا الحلاحل والذي — له للأرض دارٌ والبرية أعبُد
وليست بدعوى لا يقوم دليلها — ولكنها الحق الذي ليس يُجحد
أخو غزوات كالعقود تناسقت — تحل بأجياد الجياد وتعقد
لسان بذكر الله يكسو نهاره — بهاء وحتى في الدجى ليس يرقد
وبذل وعدل أعرقا وتألقا — فلا الورد مثمود ولا الباب موصد
مرام سمائي وحزم مسدد — ورأى شهابي وعزم مؤيد

وله:

أبداً تنكب عن ضلال سادرا — بثقوب زندك أو تدل على هدى
سُدت الكهول من الملوك مراهقا — وشأوت شِيبَهم البوازل أمردا
إن شيدوا صرحا أناف مناره — أو أسجدوا للكأس جدد مسجدا
وإذا استهزهم قلائد معبد — هزته موعظة فعرف معبدا
قسما لشام الشام منك مهند — أرضاه مشهورا وراع مقلدا
وتمسك الإسلام منك بعروة — الله أبرم حبلها فاستحصدا
أشفى فكنت شفاءه من حادث — غاداه عارض مردى بالردا
كنت الصباح لليله لما دجا — والغوث كف لظاه حين توقدا
لله يوم أطلعتك به النوى — يجتاب من مهج الأصافر مسجدا
نشوان غنتك الظبي مفلولة — وأمال عطفيك الوشيح مقصدا
في معرك ما قام بأسك دونه — إلا أقام المشركين وأقعدا
ولكم مكر قمت فيه معلماً — أرضى إلهك والمسيح وأحمدا
يوم العريمة والحطيم وحارم — وشعاب باسوطا وهاب وصرخدا
لا يعدم الإشراك حدك إنه — ما سل فيهم حاكما إلا اعتدى
أهمدتهم من بعد ما ملأ وا الملأ — رجلا فهل كانت سيوفك مرقدا
طلعت نجوم الحق من آفاقها — وأعاد هاكر العصور كما بدا

وهوى الصليب وحزبه وتبختر ال إسلام من بعد التساقف أعيدا
سبق المجلى للخطى فرفع نسق بثم وفد رُفِعت بالابتدا

وله:

محمود المربى على أسلافه إن زاد في حسب الحسيب تجار
ملك إذا تليت=كسد اللطيم وهجّن النوار
ملأ الفرنجة جور سيفك فيهم فلهم على سيف المحيط جؤار

يوما يزيرك جوف عِرْقة معلما جون له خاف الدروب أوار
ويجر في الأردن فضلة ذيله نقع باكناف الأرنط مثار
إما تبيح حريم أنطاكية أو يفجأ الداروم منك دمار
عفى جهادك رسم كل مخوفة وعفت بصفوة عدلك الأكدار
ومحا المظالم منك نظرة راحم لله في خطراته أسرار
غضبان للإسلام مال عموده فلنوره مما عراه نوار
وجذمت كل يد تسور على يد فأحلت ذاك السور وهو سوار
لم يبق ماكس مسلم سلعا ولا ساع لمظلمة ولا عشار
همدوا كما همدت ثمود، وقادهم لخسارهم مما أتوه قدار
العارفي الدنيما شقوا بلباسه ولباسهم يوم الحساب النار
كم سيرة أحييتا عمرية رُفعت لها في الخافقين منار
ونوافل صيرتهن لوازما بأقلها تستعبد الأحرار
لازلت تقفو الصالحين مسابقاً لهم وتطلع خلفك الأبرار
نفس السيادة زهد مثلك في الذي فيه تفانت يعرب ونزار
ومتى أدعى ما تدعيه محكم أوهى مَعاقِد دِينِه دينار
لله ما ظفرت به منك المنى وتكنفت من ركنك الأستار
وسق الغمام ؤى أبيك فإنه أزكى ثرى قطرت عليه قطار

وشهدت نضارة عودك الغض الجنا — أن الذي استخلصت منه نضار

أما نهارك فهو لَيْلُ مجاهد — والليل من طول القيام نهار

فلذلك النصر العزيز أدلة — كيف اتجهت وللفتوح أمار

وله أيضم فيه رحمه الله تع إلى:

رأينا الملوك وقد ساجلوك — تنموا منونا وغروا غرورا

أبى لك أن يدركوها أب — يزير فينسى الأسود الزئيرا

وجد إذا جد يوم الرها — ن أبقى لتاليه جدا عثورا

تصب عصاك على من عصا — ك يوما عبوسا بها قمطريرا

لقد ألبس الشام هذا الإباء — لبوسا من الأمن لينا وثيرا

تداركت أرماقه والقلوب — توافر أن يستجن الصدور

أقمت جثاثا وكانت جثا — وشدت قصورا وكانت قبورا

وكم لك من غضبة للهوى — تميت الهوى وتجب الذكورا

إذا قَطَبَ البأسُ كانت ردى — وإن ضحك العفو عادت نشورا

كملت فوْفيت عين الكمال — تبيد السنين وتفنى العصورا

وجادَ لنا بكَ رَبٌّ برا — ك للكفر نارا وللدين نورا

إذا ما خدمت فمولى كريما — وإما عبدت فعبدا شكورا

أمام المحاريب برا حصورا — وتحت الحروب هزيرا هصورا

تبارك من شاد هذى الخلا — ل فى ظُلَّة الملك طودا وقورا

وألف في مَعْقِدِ التاج منك — سطوا سعيرا وعفوا نميرا

وله:

عقل الحق ألسن المدعينا — أنت خير الملوك دنيا ودينا

وأسدُّ الأنام قولا وأفعا — لا ونفسا ونية ويقينا

أنت أسناهم أبا وإباء — وامرأ حيا وأمرع حينا

بسط الرزق في البسيطة كفا — ك فكلتا يديك تُلفى يمينا

فيد تحسم النوائب عنا ... ويد تقسم الرغائب فينا

أيها البحر لو تساجلك الأب ... حر عامت في ساحليك سفينا

ولكان المحيط منها محاطا ... مثل نون الهجاء أو خِيلَ نونا

مشرعا مترعا ومنا مهنا ... ورباعا فيحا وكفا لبونا

ومحيا طلقًا ومالاً طليقًا ... وابتهاجاً قصداً وحبلاً متيناً.

بين ذب بميت،عادية الشر ... ك وهب يحيا به المسلمونا

تتبدى من الفتوح ألوفا ... أنت أعلى من أن تعد المئينا

كلما احتزت ثوب نصر عزيز ... من مرام أقبلت فتحا مبينا

صرف الله عنك صرف زمان ... أنت علمت صرفه أن يهونا

يابن من طبق البسيطة آثا ... را وعك المنا بذيه الأجُونا

وغدت حصنه على سرح هذا الد ... ين من شكة الأعادى حصونا

كم تعالى صهيلها في ربا الشا ... م فأعلى خلف الخليج الرنينا

كان صنو الرشيد أبقاك للحك ... مة والبأس بعده المأمونا

سمع الله فيك دعوة سكن ... أوطنوا من حماك حصنا حصينا

عرَقتهم مدى الخطوب فأحيي ... ت رفاتا من التراب دفينا

ألبسوا عدلك المدبج فاختا ... لوا بنات في وشيه وبنينا

سهرت عنيك الكلّوء وناموا ... تحت أكناف رعيها آمنينا

قلت: فهذا أنموذج من أشعار هذين الفحلين فيه، مع أنهما ماتا في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، قبل أن يفتح نور الدين دمشق؛ وبقى نور الدين حيا بعدهما إحدى وعشرين سنة يترقى كل عام في ازدياد، من جهاد واجتهاد؛ ولو كانا أدركا ذلك لأتبا فى وصفه بعجائب مع أنه قد تولى ذلك غيرهما ممن لم يبلغ شأوهما.

ولأبي المجد المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي من قصيدة فيه:

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهه ... كالرمح دل على القساوة لينه

و وراء يقظته أناة مجرب ... لله سطوة بأسه وسكونه

هذا الذي في الله صح جهاده هذا الذي بالله صح يقينه
هذا الذي بخل الزمان بمثله والمشمخز إلى العلا عرنينه
ملك الورى ملكٌ أغَرٌّ متوج لا غدره يُخشى ولا تلوينه
إن حل فالشرف التليد أنيسه أوسار فالظفر الطريف قرينه
فالدهر خاذل من أراد عناده أبدا وجبار السماء معينه
والدين يشهد إنه لَمُعِزُّهُ والشرك يعسلم أنه لمهينه
ما زال يقسم أن يبدد شمله والله يكره أن تمين يمينه
فتح الرها بالأمس فانفتحت له أبواب ملك لايزال مصونه

ومدائح نور الدين كثيرة رحمه الله تعالى. وذكر الحافظ أبو القاسم أنه كان قليل الابتهاج بالشعر. ومات حادى عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة، ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل إلى قبته بمدرسته جوار الخواصين. قلت وقد جرب استجابة الدطء عند قبره.

وهذا ذكر طرف من مناقبه جملة، ونحن بعد ذلك نأتي بأخباره وأخبار سلفه مفصلة مرتبة وما جرى في زمانهم على سبيل الاختصار إن شاء الله تعالى.

فصل

أصل البيت الأتابكي هو قسيم الدولة آق سنقر جد نور الدين، رحمه الله، فنذكره وماتم في أيامه، ثم نذكر ولده زنكي وما تم في أيامه، ثم نذكر ولده محمود بن زنكي، ثم نذكر ما بعده وهي الدولة الصلاحية الأيوبية وما تم في أيامها فنقول:

كان آق سنقر تركيا من أصحاب السلطان ركن الدين ملكشاه بن ألب أرسلان، وهو عم دُقاق بن تُتُش ألب أرسلان الذي كان سلطان دمشق، وقبره بقبة الطواويس بها، بنته والمشهد والدته. وكان السلطان ملكشاه من جملة الملوك السلجوقية المتغلبين على للبلاد بعد بنى بويه بالعراق؛ فكان قسيم الدولة من أصحابه وأترابه وممن ربى معه في صغره، واستمر في صحبته إلى حين كبره. فلما أفغت السلطنة إليه بعد أبيه جعله من أعيان أمرائه وأخص أوليائه، واعتمد عليه في مهماته، وزاد قدره علوا إلى أن صار يتقيه مثل نظام الملك الوزير مع تحكمه على السلطان وتمكنه من المملكة. فأشار نظام الملك على السلطان أن يولى آق سنقر مدينة حلب وأعمالها، وأراد بذلك أن يبعده عن خدمة السلطان ويتخذ عنده بذلك يدا. قال ابن الأثير: من الدليل على علو مرتبته تلقبه قسيم الدولة، وكانت الألقلب حينئذ مصونة لا تعطي إلا

لمستحقها. وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائه سير للسلطان ملكشاه الوزير فخر الدولة ابن جهر وزير الخليفة إلى ديار بكر لتملكها، وسير عميد الدولة ابن فخر الدولة ابن جهير وكان زوج ابنة نظام الملك إلى الموصل، وسير معه جيشاً عظيما وجعل القدم على الجيش قسيم الدولة آق سنقر. فساروا نحو الموصل، ولقيهم في الطريق الأمير أرتق التركماني، جد ملوك الحصن وماردين، فاستصحبوه معهم، فحصروا الموصل وصالحوا من بها وتسلموها، وسار صاحبها إلى السلطان فردها عليه، وكانت حينئذ لأحد أمراء بني عقيل، وهو شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلي. وكان ملكة من السندية بالعراق على نهر عيسى إلى منبج وما بينهما من البلاد الفراتية كهيت والأنبار وغيرهما، وملك الموصل وديار بكر والجزيرة بأسرها، وملك مدينة حلب؛ وكان عادلا ح سن السيرة عظيم السياسة. واتفق أن وقع بينه وبين صاحب أنطاكية خلاف، وذلك أن أنطاكية كان الروم قد استولوا عليها سنة ثمان وخمسين وثلثمائة و لم يزالوا بها إلى هذه السنة، ففتحها سليمان بن قتلمشى وه و جد الملك غياث الدين كيخسرو صاحب قونية وغيرها. وكان لشرف الدولة صاحب حلى على صاحب أنطاكية الرومي جزية يأخذها كل سنة، فانقطعت عنه بسبب أخذ سليمان البلد. فأرسل شرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الروم و يهدده. فقال: أنا في طاعتك، وهذا الفتح بسعادتك والخطبة والسكة لك، ولست بكافر حتى أعطيك ما كنت تأخذه من الروم. فلج شرف الدولة فى طلب المال، فالتقيا وقتل شرف الدولة وانهزم عسكره، وسار سليمان إلى حلب فحصرها، وسار إليها من دمشق تاتج الدولة تش بن ألب أرسلان أخو السلطان ملكشاه. فالتقى عسكر تتش وسليمان فقتل سليمان وانهزم عسكره، وملك تتش مدينة حلب دون القلعة. فأرسل أهل القلعة إلى ملكشاه ليسلموها إليه، وهو يومئذ بالرها. وكان سبب مسيره إليها أن ابن عطية النميري كان قد باعها من الروم بعشرين ألف دينار وسلمها، فدخلوها وأخربوا المساجد وأجلوا المسلمين عنها. فسار ملكشاه إليها في هذه السنة فحصرها وفتحها وأقطعها اللأمير بزان. فلما أتاه رسل قلعة حلب با لتسليم سار إليهم. فلما بلغ مسيره إلى أخيه تاج الدولة لم رحل عن حلب إلى دمشق، ووصل السلطان إلى حلب و بالقلعة سالم بن بدران القيلي، وهو ابن عم شرف الدولة، فسلمها إلى السلطان بعد قتال، وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جعبر، وكان قد ملكها في هذه السفرة من صاحبها جعبر النميرى، وكان شيخاً كبيراً أعمى. فبقيت بيد سالم وأولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين كما يأتي.

فلما ملك السلطان حلب أرسل إليه الأمير نصر بن علي بن المقلد بن منقذ الكناني صاحب شيزر ودخل في طاعته وسلم إليه اللاذقية، وفامية، وكفر طلب.

ثم إن نظام الملك أشار على السلطان. بتسلهيم حلب وأعمالها وحماة ومنبج واللاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سنقر، فأقطعه الجميع؛ وبقيت في يده لمد أن قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة كما سيأتي. وأقطع السلطان مدينة أنطاكية للأمير ياغي سيان. ولما استقر قسيم الدولة في الشام ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده. ثم إن السلطان، استدعاه إلى العراق فقدم إليه في تجمل عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه، فاستحسن ذلك منه، وعظم محله عنده؛ ثم أمره بالعود إلى حلب فعاد إليها. فلما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشا إلى تكريت فملكها. وفي سنة إحدى وثمانين قصد قسيم الدولة شيسز فهبها وعاد إلى حلب. وفي سنة ثلاث وثمانين اجتمع قسميم الدولة وبزان وحصروا مدينة حمص فملكوها ومضى ابن ملاعب إلى مصر. وفي سنة أربع وثمانين ملك قسيم الدولة حصن فامية من الشام وملك الرحبة.

فصل

وفي عاشر رمضان سنة خمس وثمانين قتل الوزير نظام الملك أبوعلي الحسن بن علي ابن اسحق، قتله صبي ديلمي بعد الإفطار وقد تفرق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقراء وغيرهم من أصناف الناس؛ وحمل في محفة لنقرس كان به إلى خيمة الحرم فلقيه صبي ديلمي مسغيثا به فقربه منه ليسمع شكواه فقتله، وقُيل الصبي أيضاً. فعدمت الدنيا واحدها الذي لم تر مثله. وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام كانه أتاه وأخذه من محفته فتبعه؛ فاستبشر نظام الملك بذلك وأظهر السرور به وقال: هذا أبغي و إياه أطلب. و بلغ من الدنيا مبلغاً عظيا لم ينله غيره. وكان عالما فقيهاً دينياً خيراً متواضعا عادلا، يحب أهل الدين ويكرمهم و يجزل صلاتهم. وكان أقرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء؛ وكان يناظرهم في المحافل ويبحث عن غوامض المسائل لأنه اشتغل بالفقه في حال حداثته مدة. وأما صدقاته ووقوفه فلا حد، عليها، ومدارسه في العلم مشهورة لم يخل بلد منها، حتى جزيرة ابن عمر التي هي في زاوية من الأرض لا يؤبه له بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة، وهي التي تعرف الآن بمدرسة رضى الدين. واعماله الحسنة وصنائعه الجميلة مذكورة في التواريخ، لم يسبقه من كان قبله، ولا أدركه. من كان بعده. وكان من جملة عباداته أنه لم يحدث إلا توضأ ولا توضأ إلا صلى. وكان يقرأ القرآن حفظا ويحافظ على أوقات الصلوات محافظة لا يتقدمه، فيها المتفرغون للعبادة، حتى إنه كان إذا غفل المؤذن أمره بالأذان؛ وإذا سمع الأذان أمسك عن كل ما هو فيه واشتغل بجابته ثم بالصلاة. وكان قد وزر للسلطان عضد الدولة ألب أرسلان والدملكشاه قبل أن يلي السلطنة، في حياة عمه السلطان طغرلبك أول الملوك السلجوقية ببغداد. فلما توفى طغرلبك سعى نظام الملك في أخذ السلطنة لصاحبه ألب

أرسلان، وقام المقام الذي تعجز عنه الجيوش الكثيرة، واستقرت السلطاة له. و بقى معه إلى أن توفى، ثم وزر بعده لولده السلطان ملكشاه إلى أن قتل. وكان قد تحكم عليه إلى حد لا يقدر السلطان على خلافه لكثرة مماليكة ومحبة العساكر له والأمراء، وميل العامة والخاصة إليه لحسن سيرته وعدله. هذا كلام أبي ابن الأثير.

وقرأت في كتاب المعارف المتأخرة ويسمى عنوان السير لمحمد بن عبد الملك ابن إبراهيم الهمداني قال: وزر نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن اسحق الطوسي السلطان ألب أرسلان وولده السلطان ملكشاه أربعاً وثلاثين سنة، وقتل بالقرب من نهاوند وعمره ست وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوما؛ اغتاله أحد الباطنية وقد فرغ من فطوره. قال: وقيل إن السلطان ملكشاه ولف عليه من قتله لانه سئم طول عمره. ومات بعده بشهر وخمسة أيام. وقد تقدم نظام الملك في الدنيا التقدم العظيم، وأفضل على الخلق الإفضال الكريم، وعم الناس بعروفه، وبنى المدارس لأصحاب الشافعي "رضي الله عنه" ووقف عليهم الوقوف، وزاد في الحلم والدين على من تقدمه من الوزراء، و لم يبلغ أحد منهم مترلته في جميع أموره. وعبر جيحون فوقع على العامل بأنطاكية بما يصرف إلى الملاحين، وملك من الغلمان الأثراك ألوفا؛ وكان جمهور العساكر وشجعاهم وفتاكهم من مماليكه.

قلت: وأنشد أبو سعد السمعاني في ذيل تاريخ بغداد وقال: أنشدني عمي الإمام أبو القاسم أحمد بن منصور السمعاني غير مرة من لفظه للأمير شبل الدولة، يعني مقاتل ابن عطية بن مقاتل التكريتى:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ... ثمينة صاغها. الرحمن من شرف

عزّت ولم تعرف الأيام قيمتها ... فردّها غيرة منه إلى الصدَّب

فصل

عاش السلطان ملكشاه بعد نظام الملك خمسة وثلاثين يوما، ومات في منتصف شوال سنة خمس وثمانين وعمره ثمانية وثلاثون عاما ونصف عام. وكانت مماكته قد اتسعت اتساعا عظيما وخطب له من حدود الصين إلى الداروم من أرض الشام، وأطاعه اليمن والحجاز. وكان يأخذ الخراج من ملك القسطنطينية، وأطاعه صاحب طراز واسبيجاب وكاشغر وبلاسغون وغيرها من الممالك البعيدة، وملك سمرقند وجميع ما وراء النهر. ثم ان صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان إليه، فلما قارب كاشعر هرب. صاحبها منه فسار في طلبه، و لم يزل حتى ظفر به وأحسن إليه واستصحبه معه إلى أصفهان وعمل السلطان من

الخيرات وأبواب البر كثيراً، منها ما اصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة وحفره من الابار، و بنى مدرسة عند قبر الإمام أبس حنيفة رحمة الله عليه، وبن الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة. وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر مما يلي الكوفة بمكان يعرف، بالسبعي وبنى مثلها بسمرقند أيضاً.
قيل إنه خرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج، فجاوز العذيب و بلبغ السبعية بقرب الواقصة، وبنى هناك منارة أنزل في أثنائها قرون الظبي وحوافر الحمر الوحشية التي اصطادها في طريقه.
وبعد موته تنازع ابناه بكياروق ومحمد ودامت الحروب بينهما نحو ثنتي عشرة سنة إلى أن توفى بكياروق واستقرت السلطنة لمحمد. وفي مدة تلك الحروب ظهرت الفرنج بالساحل وملكوا أنطاكية أولا ثم غيرها من البلاد. وكان السلطان قد أقطع أخاه تتش تاج الدولة مدينة دمشق وأعمالها وما جاورها كطبرية والبيت المقدس، فلما توفى ملكشاه طمع تاج الدولة في السلطنة، فسار إلى حلب، و بها قسيم الدولة، فصالحه، وراسل بوزان صاحب حران وياغي سيان صاحب أنطاكية فسارا معه نحو الرحبة ونصيبين فأخذهما. وراسل صاحب الموصل إبراهيم بن قريش بن بدران يأمره بالخطبة له وان يعطيه طريقاً إلى بغداد فامتنع، فالتقيا، فهزم صاحب الموصل وقتل وأخذت بلاده. وسار إلى ميافارقين فملكها وسائر ديار بكر. ثم سار إلى أذربيجان فالتقى هو وابن أخيه بكياروق بن ملكشا، فانتقل قسيم الدولة و بوزان إلى بكياروق، فرجع تاج الدولة إلى الشام ورجعا إلى بلاد، بأمر بكياروق ليمنعا تاج الدولة عن البلاد إن قصدها. فجمع تاج الدولة العساكر وسار عن دمشق نحو حلب، فاجتمع قسيم الدولة وبوزان وأمدهما السلطان ركن الدين بكياروق بالأمير كربوقا، وهو الذي سار فيما بعد صاحب الموصل، فالتقوا بالقرب من تل السلطان، وبينه وبين حلب نحو من ستة فراسخ؛ فانهزم جيش قسيم الدولة وأخذ أسيرا، فقتله تاج الدولة صبراً. ودخل بوزان وكربوقا حلب، فحصرهما تاج الدولة حتى فتحها وأخذها أسيرين. وأرسل إلى حران والرها، وكانا لبوزان، فامتنع من بهما من التسليم؛ فقتل بوزان وأنفذ رأسه وتسلم البلدين. وأما كربوقا فإنه سجنه بحمص، فلم يزل إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تاج الدولة.
قال ابن الأثير: وكان قسيم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته وحفظالهم. وكانت بلاده بين. عدل عام ورخص شامل وأمن واسع. وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس غرم أهلها جميع مايؤخذ من الأموال من قليل وكثير. فكانت السيارة إذا بلغت قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمنين وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا. فأمنت الطرق وتحدث الركبان بحسن سيرته.
وفي المحرم من سنة خمس وثمانين وأربعمائه توفى الخليفة المقتدي بأمر الله فجأة. وهو أبو القاسم عبد الله ابن الأمير محمد ابن القائم بأمر الله، وعمره تسع وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام. وكانت خلافته

تسع عشرة سنة وخمسة أشهر، وأمه تركية. و بويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد. ويلقب محمد ابن القائم والد المقتدي بالله الذخيرة، مات في حياة أبيه فلم يل الخلافة.

ذكر أخبار زنكي

والد نورالدين رحمهما الله تع إلى على طريق الاختصار في فصول إلى حين وفاته. ثم نذكر أخبار نور الدين على ترتيب السنين.

لما قتل قسيم الدولة آق سنقر لم يخلف من الأولاد غير واحد هو عماد الدين زنكي والد نور الدين؛ وكان حينئذ صبياً له من العمر نحو عشر سنين؛ فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه، وفيهم زين الدين علي، وهو صبي أيضاً. ثم إن الأمير كربوقا خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وتوجه إلى حران وقد اجتمع معه عسكر صالح فملكها. ثم سار إلى نصيبين فملكها، ثم إلى الموصل فملكها وزال عنها علي ابن شرف الدولة العقلي، وسار نحو ماردين فملكها، وعظم شأنه وهو في طاعة ركن الدولة بكياروق. فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيم الدولة آق سنقر وأمرهم بإحضار عماد الدين زنكي وقال: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته. فأحضروه عنده فأقطعهم الإقطاعات السنية، وجمعهم على عماد الدين زنكي، واستعان بهم في حروبه؛ وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها. فلم يزالوا معه فتوجه بهم إلى آمد، وصاحبها من أمراء التركمان، فاستنجد بمعين الدين سقمان بن أرتق جد صاحب الحصن، فكسرهم قوام الدولة كربوقا. وهو أول مصاف حضره زنكي بعد قتل والده. و لم يزل كربوقا إلى أن توفى سنة أربع وتسعين وأربعمائة. وملك بعده موسى التركماني فلم تطل مدته وقتل. وملك الموصل شمس الدولة جكرمش، وهو أيضاً من مماليك السلطان ملكشاه، فأخذ زنكي وقربه وأحبه واتخذه ولدا لمعرفته بمكانة والده، فبقى معه إلى أن قتل سنة خمسمائة. فلا جرم أن زنكي رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرها من البلاد، فإنه أخذ ولده ناصر الدين كورى فأكرمه وقدمه وأقطعه إقطاعا كبيراً، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده، واتخذه صهراً. ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولى سقاوه فاتصل به عماد الدين زنكي وقد كبر وظهرت عليه أمارات السعادة والشهامة، و لم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد. وكان جعاولى قد عبر إلى الشام ليملكه من الملك فخر الملك رضوان، فأرسل السلطان إلى الموصل الأمير مودودا وإقطعه إياها سنة اثنتين وخمسمائة. فلما اتصل الخبر. بجاولى فارقه زنكي وغيره من الأمراء. فلما استقر مودود بالموصل واتصل به زنكي أكرمه وشهد معه حروبه؛ فسار موعود إلى الغزاة بالشام، ففتح في طريقه قلاعا لهم منها شبخنان كانت للفرنج وقتل من كان بها منهم.

ثم سار إلى الرها فحصرها، و لم يفتحها، فرحل وعبر الفرات، فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوما؛ ثم سار إلى معرة النعمان فحصرها، ثم حضر عنده أتابك طغتكين صاحب دمشق فسفارا إلى طبرية وحاصراها وقاتلاها، قتالا شديداً، وظهر من أتابك زنكي شجاعة لم يسمع بمثلها. منها أنه كان. في نفر وقد خرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه، وهو يظن أنهم يتبعونه، فتخلفوا عنه وتقدم وحده وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد ووصل رمحه إلى الباب فأثر فيه وقاتلهم عليه، و بقى ينتظر وصول من كان معه، فحيث لم ير أحدا حمى نفسه وعاد سالما؛ كافعب لناس من إقدامه أولا ومن سلامته آخرا. ثم التقى. الجمعان فهزم الفرنج، لعنهم الله، ووصلوا إلى مضيق دون طبرية فاحتموا به، وجاءهم نجدة فأذن الأمير مودود العسكر في الرجوع إلى بلادهم والاجتماع إليه في الربيع. فلما تفرقوا دخل دمشق وأقام بها. فخرج يوما يصلي الجمعة؛ فلما صلاها وخرج إلى صحن الجامع ويده بيد طغتكين وثب عليه إنسان فضربه بسكين معه فجره أربع جراحات، وكان صائما، فحمل إلى دار طغتكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل وقال: لا لقيت الله إلا صائما، فإنني ميت لا محالة سواء افطرت أو صمت. وتوفى في بقية يومه رحمه الله؛ فقيل إن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه، وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من يقتله. وكان خيراً عادلا كل حسن السيرة. قال ابن الأثير: فحدثني والدي رحمه الله قال: كتب ملك الفرنج إلى طغتكين: إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها.

فلما قتل الأمير مودود أقطع السلطان البلاد، الموصل وغيرها، للأمير جيوش بك وسير معه ولده الملك مسعود إلى الموصل. ثم إنه جهز آق سنقر البرسقي في العساكر وسيره إلى قتال الفرنج، وكتب إلى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه فساروا، وفيهم عماد الدين زنكي، وكان يعرف في عساكر العجم بزنكي الشامي. فسار البرسقي إلى الرها في خمسة عشر ألف فارس، فحصرها وقاتل من بها من الفرنج والأرمن، وضاقت الميرة عن العسكر فرحل إلى سميساط، وهي أيضاً للفرنج، فأخرب بلدها و بلد سروج وعاد إلى شبختان فأخرب ما فيه للفرنج. وأبيلى زنكي في هذه المواقف كلها بلاء حسنا؛ ثم عادت العساكر تتحدث بما فعله، وعاد البرسقي إلى بغداد، وأقام زنكي بالموصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك إلى سنة اربع وعشرين وخمسمائة، وقد علا قدره وظهر اسمه.

فصل

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة ولد الولك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى. وفيها غرقت سنجار من سيل المطر وهلك منها خلق كثير. ومن أعجب مايحكى أن السيل حمل مهداً فيه طفل

فعلق المهد في شجرة ونقص الماء فسلم ذلك الطفل وغرق غيره من الماهرين بالسباحة. وفيها أيضا زلزلت إربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة. وفيها في الرابع والعشرين من ذى الحجة توفى السلطان غياث الدين محمد ابن ملكشاه وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام. وأول ما خطب له ببغداد في ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وقطعت خطبته عدة مرار، ولقى من المشاق والأخطار ما لم يلقه أحد إلى أن توفى أخوه بكياروق، فحينئذ صفت له السلطنة واستقرت له، ودانت البلاد وأصحاب الأطراف لطاعته. وكان اجتماع الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة سنة وستة أشهر. وكان عادلا حسن السيرة شجاعا، وأطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد. ومن عدله أنه اشترى عدة مماليك من بعض التجار وأمر أن يوفى الثمن من عامل خوزستان، فأوصل إليه البعض ومطل بالباقي. فحضر التاجر مجلس الحكم وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان واستغاث إليه، فأمر من يستعلم عن حاله، فعاد الحاجب وأعلم السلطان حاله، فَعَظُم عليه وضاق صدره وأمر في الحال أن يحضر عامل خوزستان ويلزم بمال التاجر. ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكم. وكان يقول كثيراً: لقد ندمت على تركي حضور مجلس الحكم ولو فعلته لا قتدى بي غيري و لم يمتنع أحد عن أداء الحق. قال ابن الأثير: وهذه الفضيلة ذخرها الله تعالى لهذا البيت الأتابكى، فإن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه. وقد تقدم ذلك. لما علم الأمراء وغيرهم من خلق السلطان محبة العدل وأداء الحق وكراهية الظلم ومعاقبة من يفعله اقتدوا به فأمن الناس وظهر العدل.

وولى بعد السلطان محمد ولده محمود، وعمر يومئذ أربع عشرة سنة، فقام بالسلطنة وجرى بينه وبين عمه سنجر حرب انهزم فيها محمود وعاد إلى عمه بغير عهد فأكرمه وأقطعه من البلاد من حد خراسان إلى الداروم بأقصى الشام. وهي من الممالك هدان وأصبهان و بلد الجبال جميعه و بلاد فارس وكرمان وخوزستان والعراق وآذربيجان وأرمينية وديار بكر وبلاد الموصل والجزيرة وديار مضر وديار ربيعة والشام وبلد الروم الذي بيد قليج أرسلان وما بين هذه المالك من البلاد. قال ابن الأثير: ورأيت منشوره بذلك.

وفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة توفى الإمام المستظهربالله أمير المؤمنين ابو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله. وكان عمره إحدى واربعين سنة وستة أشهر وستة أيام، وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما، ومضى في أيامه ثلاث سلاطين خطب لهم ببغداد من الساجوقية، وهم أخو ملكشاه تاج الدولة تتش، وركن الدولة بكياروق بن ملكشاه وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه. وكان المستظهر رحمه الله كريم الأخلاق، لين الجانب، مشكور المساعي، يحب العلم

والعلماء؛ وصنفت له التصانيف الكثيرة في الفقه والأصول وغيرهما. وكان يسارع إلى أعمال البر والمثوبات، حسن الخط، جيد التوقيعات. ولما توفى صلى عليه ولده المسترشد بالله، ودفن في حجرة كانت له يألفها. وفي أيامه توفى جماعة من العلماء. ففي شعبان سنة ثمان وثمانين وأربعمائة توفى قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المظفر الشامي. وفي ذي القعدة منها توفى القاضي عبد السلام بن محمد القزويني المعتزلى، مصنف"حدائق ذات بهجة" في تفسير القرآن يزيد على ثلمائة مجلد. قال ابن الأثير رأيت منه تفسير الفاتحة في مجلد كبير. وفى ذي الحجة منها توفى الإمام أبو نصر الحميدي مصنف الجمع بين الصحيحين. وفى شوال سنة إحدى وتسعين توفى الكامل نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي وله نحو تسعين سنة. وفي سنة اثنتين وخمسمانة توفى أبو زكريا التبريزي اللغوي. وفي الحجة منها توفى أبو الفوارس الحسين بن علي الخازن صاحب الخط الحسن المشهور. وفي سنة خمس وخسمائة توفى الإمام أبو حامد الغزالي. وفي سنة سبع وخمسمائة توفى الإمام أبو بكر محمد ابن أحمد الشاشي الفقيه رحمهم الله أجمعين.

فصل

لما ولى السلطان محمود السلطنة أقر أخاه مسعودا على الموصل مع أتابكه جيوش بك، فبقى مطيعا لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة فحسن له الخروج عن طاعته وطلب السطنة، فأظهر العصيان وخطب الملك مسعود بالسلطنة، وكان زنكي يشير بطاعة السلطان و ترك الخلاف عليه، و يحذرهم عاقبة العصيان، فلم ينفع. فالتقى الأخوان في عسكريهما فهزم عسكر مسعود وأسر جماعة من الأمراء والأعيان، منهم الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن إسماعيل الطغرائي وزير مسعود فقتله السلطان محمود وقال قد صح عندي فساد اعتقاده ودينه، وكان قد جاوز ستين سنة، وكان حسن الكتابة جيد الشعر. قلت إنه قتل سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة أو ثماني عشرة وخمسمائة. وقيل إن الذي قتله هو السلطان طغرل بن محمد ابن ملكشاه. ذكر ذلك كله أبو سعد السمعاني في تاريخه وسماه الحسن بن علي بن عبد الصمد الدليمي، وأنشد له أشعاراً حسانا. منها

إذا ما لم تكن ملكا مطاعا ... فكن عبدا لمالكه مطيعا
وإن لم تملك الدنيا جميعا ... كما تهواه فاتركها جميعا
هما شيئان من ملك ونسك ... ينيلان الفتى الشرف الرفيعا
ومن يقنع من الدنيا بشيء ... سوى هذين يَحْىَ بها وضيعا

ثم استأ من مسعود وأتابكه جيوش بك فأمنها السلطان وأخذ الموصل منهما فأقطعها آق سنقر البرسقي مع أعمالها، كالجزيرة وسنجار ونصيبين وغيرها، في صفر سنة خمس عشرة وسيره إليها وأمره بحفظ عماد الدين زنكي وتقديمه والوقف عند إشارته، ففعل البرسقي ذلك وزاد عليه، لمكان زنكي من العقل والشجاعة وتقدم والده في الأيام الكنية. وكانت سيرة ملكشاه عندهم كالشريعة المتبعة، فأعظم الناس عندهم أكثرهم اتباعا لسيرته.

وفي سنة ست عشرة وخمسمائة أقطع أتابك زنكي مدينة واسط وشحنكية البصرة، وظفر من كفايته في البلدين ما لم بظنه أحد، فازداد شأنه عظما. وهاب الأمير دبيس ابن صدقة الأسدي صاحب الحلة ناحيته، وجرت بينه وبين البرسقي حروب ومواقفات، وهم دبيس بقصد بغداد فسار البرسقي إليه، وتبعه الخليفة المسترشد بالله بنفسه. فانهزم عسكر دبيس وقتل منهم وأسر خلق كثير. وكان لعماد الدين زنكي أثر حسن في هذه الوقعة، أيضا بين يدي الخليفة، وذلك في أول الحرم سنة سبع عشرة. وأما دبيس فإنه لما انهزم لحق بالملك طغرل بن السلطان محمد وصار معه من خواص أصحابه، وكان عاصياً على أخيه السلطان محمود. وأمر السلطان محمود البرسقي أن يرجع إلى الموصل، فعاد واستدعى زنكي من البصرة ليسير معه إلى الموصل؛ فقال زنكي لأصحابه: قد ضجرنا مما نحن فيه؛ كل يوم قد ملك البلاد أمير ونؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته. ثم تارة بالعراق وتارة بالموصل وتارة بالجزيرة وتارة بالشام. فسار من البصرة إلى السلطان محمود فأقام عنده. وكان يقف إلى جانب تخت السلطان عن يمينه لا يتقدم عليه أحد، وهو مقام والده قسيم الدولة من قبله، وبقي ولده من بعده.

ثم أتي السلطان الخبر أن العرب قد اجتمعت ونهبت البصرة، فأمر زنكي بالمسير إليها وأقطعه إياها لما بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي وقت اختلاف العساكر والحروب. ففعل ذلك فعظم عند السلطان وزاد محله. وكان قد جرى بين برتقش الزكوى شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نفرة، فتهدده المسترشد، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة شاكيا من المسترشد، وحذر السلطان جانبه، وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه من العراق. فسار السلطان إلى بغداد وجرى بينه و بين المسترشد حروب ووقائع، ثم اصطلحاً وعدا إلى ما كانا عليه؛ وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر ربيع الآخر، ونظر فيمن يصلح أن يلي شحنكية بغداد، والعراق يأمن معه من الخليفة ويضبط الأمور. فولى ذلك زنكي مضافا إلى ما بيده من الإقطاع وسار السلطان عن بغداد.

وفي سنة عشرين وخمسمائة قتل آق سنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد الصلاة يوم الجمعة، ثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس، فقتل بيده منهم ثلاثة، وقتل رحمه الله. وكان عادلا لين الأخلاق

حسن العشرة، وكان يصلى كل ليلة صلاة كثيرة ولا يستعين في وضوئه بأحد. فقرر السلطان ولده عز الدين مسعوداً على ما كان لأبيه من الأعمال، وهي الموصل وديار الجزيرة وحلب وحماة وجزيرة ابن عمر وغيرها. وكان شابا عاقلا فضبط البلاد، و لم تطل أيامه؛ وتوفى سنة إحدى وعشرين، وولى الأمر بعده أخوه الصغير. وقام بتدبير دولتيهما الأمير جاولى، وهو مملوك تركي من مماليك أبيهما، فجرت الأمور على أحسن نظام.

فصل في ولاية زنكي الموصل وغيرها من البلاد التي كانت يد البرسقي

وذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين. وسيب ذلك أن عز الدين البرسقي لما توفى وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير وتولى أمره جاولى أرسل إلى السلطان محمود يطلب ان يقر البلاد عليه؛ وكان المرسل بذلك، القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن المشزوي وصلاح الدين محمد للباغيساني. فحضرا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك، وكانا يخافان جاولى ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه. وكان بين الصلاح و بين نصير الدين جقر مصاهرة، فأشار عليهما أن يطلبا البلاد لعماد الدين زنكيم، ففعلا وقالا للوزير: قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج على أكثرها وفي تمكنوا منها وقويت شوكهم، وكان البرسقي يكف بعض عاديتهم، فمند قتل ازداد طمعهم. وهذا ولده طفل صغر ولا بد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها و يحمي حوزتها؛ وقد أنهينا الحال إليكم لئلا يجرى خلل أووهن على الإسلام والمسلمين فنحصل نحن بالإثم من الله تعالى واللوم من السلطان. فأنس الوزير ذلك إلى السللطان فأعجبه وقال: من تريان يصلح لهذه البلاد؟ فذكرا جماعة فيهم عماد الدين زنكي، وعظما محله أكثر من غيره. فأجاب السلطان إلى توليته لما علم من شهامته كفايته؛ فولى البلاد جميعها، وكتب منشوره بها وسار من بغداد إلى البوازيج ليملكها و يتقوى بها و يجعلها ظهره إن منعه جاولى عن البلاد. فلما استولى عليها سار عنها إلى الموصل، فخرج جاولى إلى لقائه وعاد في خدمته إلى الموصل، فسيره إلى الرحبة وأعمالها، وأقام، بالموصل يصلح أمورها و يقرر قواعدها. فولى نصير الدين دزدارية قلعة الموصل وفوضى إليه أمر الولاية جميعها، وجعل الدزدارية في البلاد جميعها له، وجعل الصلاح محمد الياغبساني أمير حاجب الدولة، وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد، ووفي لهم بما وعدهم. وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده مترلة وأكرمهم عليه، وأكثرهم انبساطا معه وقربا منه، ورتب الأمور على أحسن نظام وأحكم قاعدة.

وكان الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكثرت أجنادهم، وعظمت هيبتهم، وزادت صولتهم، وامتدت إلى

بلاد المسلمين أيديهم، وضعف أهلها عن كف عاديهم، وتتابعت غزواقم، وساموا المسلمين سوء العذاب، واستطار في البلاد شرر شرهم، وافتدت مملكتهم من ناحية ماردين وشبختان إلى عريش مصر لم يتخللها من ولاية المسلمين غير حلب وحماة وحمص ودمشق. وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى آمد ومن ديار الجزيرة إلى نصيبين ورأس عين؛ أما أهل الرّقة وحر إن فقد كانوا معهم في ذل وهوان.
وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبر؛ ثم زاد الأمر وعظم الشر، حتى جعلوا على أهل كل بلد جاورهم خراجا وإتاوة، يأخذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهم. ثم لم يضعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق واستعرض والرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطانهم؛ فمن اختار المقام تركوه ومن اثر العود إلى أهله أخذوه؛ وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً. وأما أهل حلب فإن الفرنج أخذوا منها مناصفة أعمالها حتى في الرحا التي على باب الجنان، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة. وأما باقي بلاد الشام فكان حال أهلها أشد من حال هذين البلدين. فلما نظر الله سبحانه إلى بلاد المسلمين ولاها عماد الدين زنكي فغزا الفرنج في عقر ديارهم وأخذ للموحدين منهم بثأرهم، واستنقذ منهم حصونا ومعاقل. وسيأتي تفصيل ذلك وما فتحه من البلاد الإسلامية هو وابنه من بعده إن شاء الله تعالى.

فصل

ثم شرع زنكي رحمه الله في أخذ البلاد؛ فافتتح جزيرة ابن عمر ثم مدينة إربل في رمضان سنة اثنتين وعشرين، ثم عاد إلى الموصل. وسار في جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين إلى سنجار فتسلمها وسير منها الشحن إلى الخابور فملكة، ثم قصد الرحبة فلكت قسرا، ثم افتتح نصيبين وسارً إلى حران. وكانت الرها وسروج وغيرهما من ديار الجزيرة الفرنج، لعنهم الله، وأهل حران معهم في ضيق عظيم؛ فراسلوا زنكي بالطاعة واستحثوه على الوصول إليهم ففعل، وهادن الفرنج مدة يسيرة يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقى من البلاد الشامية والجزرية. وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات، وملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية. فلما عبر الفرات ملك مدينة منبج وحضن بزاعة، وحاصر حلب ثم فتحت له فرتب أمورها، وسار عنها إلى حماة فملكها وقبض على صاحب حمص وحصرها، وذلك سنة ثلاث وعشرين. وفي سنة أربع وعشرين اتفق صاحب آمد مع صاحب حصن كيفا وغيرهما من الملوك وجمعوا عساكر نحو عشرين ألفاً وقصدوا زنكي فلقيهم فهزمهم وملك سَرْجَة ودارا. ثم على الجهماد فنازل حصن الأثارب، وكان أضر شيء على أهل حلب، فجمع الفرنج جمعا عظيما فهزمهم وقتلهم مقتله

عظيمة وبقيت عظام القتلى بتلك الأرض مدة طويلة. ثم رجع إلى حن فملكه عنوة فأخربه ومحا أثره، وأزال من تلك الأرض ضرره. ثم رحل إلى حصن حارم فحصره، فأنقذ من لم يحضر المعركة من الفرنج ومن نجا منها يسألون الصلح ويبذلون له المناصفة على ولاية حارم، فأجابهم ذلك لأن عسكره كان قد كثرت فيهم الجراحات والقتل فأراد أن يستريحوا، فهادنهم وعاد عنهم وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن وحلول النصر، وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك, وفيها استولى زنكي على مدينة حماة وما فيها، وكان فيها بهاء الدين سونج بن تاج الملوك بورى، فأخذه ورجاله ثم طلب في إطلاقهم خمسين ألف دينار، فانفق حضور دبيس بن صدقة بن مزيد أمير العراق بدمشق منهزماً فطلبه زنكي وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه. ذكر ذلك الرئيس أبو العلى.

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة توفى السلطان محمود بهمذان، وكان عمره نحو ثماني وعشرين سنة، وكانت ولايته ما يقارب أربع عشرة سنة؛ وكان حليما كريما عاقلا عادلا كثير الاحتمال. وطلب السلطنة بعد وفاته ابنه داود بن محمود، وأخواه مسعود وسلجوق شاه ابنا محمد، وعمها سنجر بن ملكشاه ومعه طغرل ابن السلطان محمد. فجرت بينهم حروب واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة في هذان وأصفهان والري وسائر بلاد الجبل. وفي سنة سبع وعشرين سار الخليفة المسترشد بنفسه إلى الموصل في ثلاثين ألف فارس فحاصرها ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى بغداد و لم يبلغ غرضا. وفي سنة تسع وعشرين استولى زنكي على سائر قلاع الحميدية وولاياتهم، منها قلعة العقير وقلعة شوش، وحاصر مدينة آمد ثم مدينة دمشق. وفيها توفيت والدته بالموصل. وفي المحرم سنة تسع وعشرين توفى السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه، فخرج السلطان مسعود والتق هو والخليفة المسترشد في عسكرين عظيمين عاشر رمضان، فهزم عسكر الخليفة وقبض عليه وعلى خواصه، وأنفذ السلطان شحنة إلى بغداد فقبض جميع أملاك الخليفة، وهجم جماعة من الباطنية على المسترشد وهو في الخيمة فقتلوه. وكتب السلطان إلى شحنة بغداد يأمره بالبيعة لابنه أبي جعفر المنصور بن المسترشد، فبايعه في السادس والعشرين من ذي القعدة ولقب بالراشد. وكان عمر المسترشد ثلاثا وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر. وكان شهما شجاعا، مقداماً فصيحاً، وتمكن في خلافته تمكنا عظيما لم يره أحد ممن تقدمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله إلى خلافته، إلا أن يكون المعتضد والمكتفي، لأن المماليك كانوا قديما يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم؛ و لم يزالوا كذلك إلى مُلك الديلم واستيلائهم على العراق، فزالت هيبة الخلافة بالمرة إلى انقراض دولة الديلم. فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس، لا سيما في وزارة نظام الملك فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى

أحسن حالاتها، إلا أن الحكم والشحن بالعراق كان إلى السلطان، وكذلك العهد وضمان البلاد، و لم يكن للخلفاء إلا إقطاع يأخذون دخله. وأما المسترشد فإن استبد بالعراق بعد السلطان محمود، و لم يكن للسلطان معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة، واجتمعت عليه العساكر، وقاد الجيوش وباشر الحروب. وفي سنة ثلاثين وخمسمائة سار الراشد إلى الموصل صحبة زنكي ملتجئا إليه. وذلك أن جماعة حسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود فأجابهم إلى ذلك، وظهر منه تنقل في الأحوال وتلون في الآراء، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه وخافه الباقون، وتقدم السلطان مسعود وحصر بغداد واستظهر عليها. فخرج الراشد ملتجئا إلى زنكي فسار به إلى الموصل، ودخل مسعود بغداد وأمر بخلع الراشد ومبايعة،عمة أبي عبد الله محمد ابن المستظهر بالله، ففعل ذلك ولقب المقتفى لأمر الله. وأما الراشد فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك يأمره بإخراجه عن بلده، فسار إلى اذربيجان ثم إلى همدان، فاجتمع إليه مُلوك وعساكر كثيرة وسار السلطان إليهم فتصافوا فانهزم الراشد وقصد أصبهان، فقتله الباطنية بها في السابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، ودفن بأصبهان. وفي سنة اثنتين، وثلاثين أيضاً تزوج زنكي بالخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير جاولى،أم شمس الملوك إسماعيل وإخوته بني تاج الملوك بن طغتكين أتابك؛ وهي أخت الملك دقاق لأمه. و إليها ينسب مسجد خاتون الذي هو مدرسة لأصحاب أبي حنيفة بأعلى الشرف القبلي بأرض دمشق بأرض صنعاء. وتسلم قلعة حمص.

فصل في جهاد زنكي للفرنج

لما كان في سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق عظيم لا يحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى، فقصد الشام، لخافه الناس خوفا عظيما. وكان زنكي مشغولا بما تقدم ذكره لا يمكنه مفارقة الموصل. فقعد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها، وهي على مرحلة من حلب، وفتحها عنوة وقتل المقاتلة وسبى الذرية في شعبان. ثم سار عنها إلى شيزر، وهي حصن منيع على مرحلة من حماة، فحصرها منتصف شعبان ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقا. وأرسل صاحبها أبو العساكر سلطان بن منقذ إلى زنكي يستنجده، فترل على حماة، وكان يركب كل يوم في عساكره ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل السرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب، ثم يعود آخر النهار. وكان الروم والإفرنج قد نزلوا على شرقي شيزر، فأرسل إليهم زنكي يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شركم. و لم يكن له بهم قوة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيبا لهم.

فأشار الفرنج على ملك لروم بلقائه وقتاله وهونوا أمره، فقال لهم الملك أتظنون أن معه من العساكر ما ترون وله البلاد الكثيرة! و إنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له، فحينئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم. وكان أتابك زنكي مع هذا يراسل فرنج الشام و يحذرهم ملك الروم و يعلمهم أنه إن ملك بالشام حصنا واحدا أخذ البلاد التي بأيديهم منهم. وكان يراسل ملك لروم يتهدد ويوهمه أن الفرنج معه. فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوما، وترك المجانيق والآت الحصار بحالها فسار زنكي خلفهم فظفر بطائفة منهم في ساقة العسكر فغنم منهم وقتل وأسر، وأخذ جميع ما خلفوه ورفعه إلى قلعة حلب، وكفى الله المؤمنين القتال. وكان المسلمون بالشام قد اشتد خوفهم وعلموا أن الروم إن ملكوا حصن شيزر لا يبق لمسلم معهم مقام، لاسيما حماة لقربها.

ولما يسر الله تعالى هذا الفتح مدح الشعراء الشهيد أتابك فأكثروا. منهم أبو المجد المسلم ابن الخض بن المسلم بن قسيم الحموي، له قصيدة، قد ذكرها في ترجمته في التاريخ، أولها:

بعزمك أيها الملك العظيم ... تزل لك الصعاب وتستقيم
ألم تر أن كلب الروم لما ... تبين أنك الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلا ... كأن الجحفل الليل البهيم
وقد نزل الزمان على رضاه ... فكان الخطبه الخطب الجسيم
فحين رميته بك في خميس ... تيقن أن ذلك لا يدوم
وأبصر في المفاضة منك جيشا ... فأحزن لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور ... توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى ... وليس سوى الحمام له حميم
يؤمل أن تجود بها عليه ... وأنت بها وبالدنيا كريم
أيلتمس الفرنج لديك عفوا ... وأنت بقطع دابرها زعيم
وكم جرعتها غصص المنايا ... بيوم فيه يكتهل الفطيم
ولما أن طلبتهم تمنى ال ... منية جوسلينهم اللئيم
أقام يطوف الآفاق حينا ... وأنت على معاقله مقيم
فسار وما يعادله مليك ... وعاد وما يعادله سقيم

إذا خطرت سيوفك في نفوس ... فأول ما يفارقها الجسوم

وله أيضاً من قصيدة يمدح بها صلاح الدين محمد بن أيوب العمادي التوتان صاحب حماة:

وما جاء كلب الروم إلا ليحتوي ... حماة، وما يسطو على الأسد الكلب

أراد بها أن يملك الشام عنوة ... وقد غُلبت عنه الضراغمة الغلب

وما ذم فيها العيش حتى صدمته ... فمال جناح الجيش وانكسر القلب

فولى وأطراف الرماح كأنها ... نجوم عليه بالمنية تنصب

ولابن منير من قصيدة في مدح أتابك زنكي رحمه الله ستأتي عند فتحه لمدنية الرها إن شاء الله تعالى:

وما يوم كلب الروم إلا أخو الذي ... أزحت به ما في الجناجن من نبل

أتاك بمثل الروم حشدا، وإنه ... ليفضل أضعافا كثيراً عن الرمل

فقاتلته بالله ثم بعزمة ... تصك قلوب العاشقين بما تسلى

توهم أن الشام مرعى، وما درى ... بأنك أمضى منه في الشزر والسجل

فطار وخير المغنمين ذماؤه ... إذا رد عنه مغنم المال والأهل

قال ابن الأثير: ومن عجيب ما يحكى في هذه الحادثة أن الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر قام الأمير مرشد بن علي، أخو صاحبها، وهو ينسخ مصحفا، فرفعه بيده وقال: اللهم بحق من أنزلته عليه إن قضيت بمجيء الروم فاقبضني إليك؛ فتوفى بعد أيام ونزل الروم بعد وفاته. ولما عاد الروم إلى بلادهم نزل أتابك إلى حصن عرقه، وهو من أعمال طرابلس، فحصره وفتحه عنوة ونهب ما فيه وأسر من به من الفرنج وأخربه وعاد سالما غانما. وفيها ملك قلعة دارا من حسام الدين تمرتاش. وفيها توفى، بهاء الدين علي بن القاسم الشهرزوري قاضي الممالك الأتابكية، وكان أعظم الناس مترلة عنده. وفيها ولد صلاح الدين يوسف بن أيرب بتكريت.

فصل في فتح شهرزور وبعلبك وحصار دمشق

قال ابن الأثير: كانت شهرزور وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال في يد قفجق ابن أرسلان تاش التركماني، وكان ملكها نافذ الحكم على قاضي التركمان ودانيهم، يرون طاعته فرضا حتما. فتحامى، الملوك قصد ولايته ولم يتعرضوا لها لحصانتها، فعظم شأنه وازداد جمعه. فلما كانت سنة أربع وثلاثين بلغ

الشهيد أتابك عنه ما اقتضى أن يقصد بلاده؛ فهزم عسكره ومذ بلاد شهرزور وغيرها، فأضافها إلى بلاده وأصلح أحوال أهلها، وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان. وعاد إلى الموصل عازما على المسير إلى الشام، فإنه كان لا يرى المقام، بل لا يزال ظاعنا، إما لرد عدو يقصده، وإما لقصد بلاد عدو، و إما لغزو الفرنج وسد الثغور. وكانت مياثر السروج آثر عنده من وثير المهاد، والسهر في حراسة المملكة أحب إليه من عرض الوساد، وأصوات السلاح ألذ في مسمعه من الغناء، لا يجد لذلك كله عناء.
وفي هذه السنة، وهي سنة أربع وثلاثين، ولد تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب بن شاذي. وفيها سار الشهيد في جنوده بعد ملك شَهْرَزَوْرَ إلى مدينة دمشق فحصرها، وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بورى بن طغتكين، وكان محكوما عليه، والغالب على أمره معين الدين أثر مملوك جده طغتكين. وكان أنابك قد أمر كمال الدين أبا الفضل بن الشهرزوري بمكاتبة جماعة من مقدمي أحداثها وزناطرتها واستمالتهم وإطماعهم في الرغائب والصلات؛ ففعل ذلك فأجابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد، وخرجوا متفرقين إلى كمال الدين، وجدد عليهم العهود، وتواعدوا يوماً يزحف فيه الشهيد إلى البلد ليفتحوا له الباب و يسلموا البلد إليه. فأعلم كمال الدين الشهيد أتابك بذلك، فقال: لا أرى هذا رأياً، فإن البلد ضيق الطرُق والشوارع، ومتى دخل العسكر إليه لا يتمكنون من القتال فيه لضيقه، وربما كثر المقاتلون لنا فنعجز عن مقاومتهم لأنهم يقاتلون على الأرض والسطوحات، وإذا دخلنا البلد اضطررنا إلى التفرق لضيق المسالك فيطمع فينا أهله. وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره.
ومن العجب أن محمد بن بورى صاحب دمشق توفي وأتابك يحصره، فضبط أثر الأمور يتغير بالناس حال. وأرسل إلى بعلبك فأحضر ولده مجير الدين آبق بن محمد بن بورى، ورتبه في الملك أبيه، فمشى الحال بتمكين معين الدين أثر وحسن تدبيره. وهذا مجير الدين آبق هو الذي منه أخذ نور الدين بن زنكي دمشق كما سيأتي. ولما دخل مجير الدين دمشق أقطع معين الدين أثر x فأرسل إليها نائبه وتسلمها. فلما علم الشهيد ذلك سار إلى بعلبك، وحصرها عدة شهور، فملكها عنوة، وترك بها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين دزداراً، وزعم على العود عنها إلى دمشق، فجاءته رسل صاحبها ببذل الطاعة والخطبة، فأجابه إلى ذلك، وعاد عن قصد دمشق، وقد خطب له فيها وصار أصحابها في طاعته وتحت حكمه.

قال يحيى بن أبي طي الحلبي: واتفق أن الامراء نزلوا من بعلبك أفسدوا ذخائرها فقبض عليهم أتابك زنكي وقتل بعضهم وصلبهم، وكان ولى قتلهم صلاح الدين محمد بن أيوب الياغساني فحكى أنه أحضر إليه في جملة الامراء شيخ مليح الشيبة، ومعه ولده أمرد كأنه فلقة قمر فقال الشيخ لصلاح الدين، سألتك بحياة المولى أتابك إلا صلبتني قبل ولدي لئلا أراه يعالج سكرات الموت! وبكى وكان نجم الدين أيوب واقفا،

فرحم الشيخ وبكى، وسال صلاح الدين في إطلاقه فقال: ما أفعل خوفا من المولى أتابك. فذهب نجم الدين إلى أتابك وسأله في الشيخ وولده ما قاله؛ فأذن بإطلاقه وإطلاق من بقى من الجماعة، ووهبه نصف بعلبك. وقيل إن نجم الدين ورد على أتابك وهو قد ملك بعلبك فسأله في الأمراء فأطلقهم له، وولاه بعبك، وكتب له ثلثها ملكا، واستقر فيها هو وأهله؛ و لم يزل بها إلى أيام نور الدين محمود بن زنكي، فأخرجه منها على مما سنذكره.

ثم إن أتابك بعد ملكة بعلبك سار إلى دمشق، فترل البقاع. فوردت هدية صاحب دمشق، ويطلب العود و يعطيه خمسين كل ألف دينار، ويعطيه حمص. فأشار نجم الدين على زنكي بقبول ذلك، وقال هذا مال كثير، وقد حصل بلا تعب، و بلد كبير بلا عناء، ودمشق بلد عظيم، وقد ألف أهله هذا البيت وتمرنوا على سياستهم وقد بلغتهم الأحوال التي جرت بعلبك. فامتنع زنكي من قبول ما أشار به؛ ففاته فلك و لم يظفر بغرضه.

فصل

ثم سار أتابك الشهيد في هذه السنة، وهي سنة أربع وثلاثين، إلى بلاد الفرنج فأنار عليها،. واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه، فلقيهم بالقرب من حصن بارين، وهو للفرنج؛ فصبر الفريقان صبرا لم يسمع بمثله إلا ما يكى عن ليلة الهرير. ونصر الله المسلمين، وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم، فدخلوا حصن بارين، وفيهم ملك القدس، لأنه كان أقرب حصونهم، وأسلموا عدتهم وعنادهم، وكثر فيهم الجراح. ثم سار الشهيد إلى حصن بارين فحصره حصرا شديدا؛ فراسلوه في طلب للأمان ليسلموا و يسلموا الحصن، فأبى إلا أخذهم قهرا. فبلغه أن من بالساحل من الفرنج قد ساروا إلى الروم والفرنج يستنجدونهم، وينهون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر عليهم؛ فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل، ومن بالحصن لا يعلمون بشيء من ذلك لقوة الحصر عليهم. فأعادوا مراسلته في طلب الإمان، فأجابهم وتسلم الحصن وساروا، فلقيتهم أمداد النصرانية، فسأوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن. فلاموهم وقالوا عجزتم عن حفظه يوما أو يومين! فحلفوا لهم إنا لم نعلم بوصولكم، و لم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا إلى الآن. فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهلتم أمرنا، فحقنا دماءنا بتسليم الحصن.

قال ابن الأثير: وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين، فأن أهله كانوا قد أخربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها، وتقطعت السبل؛ فأزال الله تعالى بالشهيد، رحمه الله هذا الضرر العظيم. وفي مدة مقامه على حصن بارين سير جنده إلى المعرة وكفر طاب وتلك الولاية جميعها، فاستولى عليها

وملكها، وهي بلاد كبيرة وقرايا عظيمة.

قلت: وقد قال القيسراني يذكر هزيمة الفرنج ويمدح زنكي قصيدة أولها:

حَذار مِنَّا، وأني ينفع الحذر — وهي الصّوارم لا تُبقى ولا تَذَر

وأيْن ينجو ملوكُ الشرك — من خيْله النَصرُ، لا بل جُندُه القدر

سلُّوا سيوفا كأغماد السيوف بها — صالوا فماَ غمدوا نصْلا ولا شهورا

حتى إذا ما عمادُ الدين أرهقهم — في مأزق من سناه يبرق البصر

ولَّوْا نضيق بهم ذرعا مسالكُهم — والموت لا ملجأٌ منه ولا وَزَرُ

وفي المسافة من دون النجاة لهم — طول وإن كان في أقطارها قصر

وأصبح الدين لا عينا ولا أثرا — يخاف والكفر لا عين ولا أثر

فلا تخفف بعدها الإفرنج قاطبة — فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفر

إن قاتلوا قُتِلوا أو حاربوا حُرِبوا — أو طاردوا طُرِدوا أو حاصر واحْصِروا

وطالما استفحل الْخَطْبُ البهيم — حتى أتى مَلك آراؤه غُرر

والسيف مُفْترِع أبكار أنفسهم — ومن هنالك؟ قيل الصارم الذكر

لا فارقت ظِلَّ محيى العدل لامعة — كالصبح تطوى من الأعداء ما نشروا

ولآ انثنى النّصرْ ُ عن أنصار دولته — بحيث كان وإن كانوا به نصروا

حتى تعود ثغور الشام ضاحكة — كانما حل في أكنافها عمر

وقال ابن منير:

فدتك الملوك وأيامها — ودام لنقضك إبرامها

وزلت لِعَيْنك أقدامها — وزال لبطشك إقدامها

واو لم تُسلم إليك القلوب — هواها لما صح إسلامها

أيا محيى العدل لما نعاه — أيامي البرايا وأيتامها

مستنفذ الدين مع أمه — أذال المحاربب أصنامها

دلفت لها تقتفيك الأسو — دو البيض والسمر آجامها

جزرت جزيرتها،بالسُّيو	ف حتى تشاء مها شامها
وصارت عوارى أكنافه	متى شئت أرخص مستامها

قال ابن الأثير: ولما وصل الروم والفرنج إلى الشام ورأوا الأمر قد فات، أرادوا جبر مصيبتهم بمنازلة بعض بلاد المسلمين. فنازلوا حلب وحصروها، فلم ير الشهيد أن يخاطر بالمسلمين و يلقاهم، لأنهم كانوا في جمع عظيم. فانحاز عنهم، ونزل قريبا منهم، يمنع عنهم الميرة، ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدو فيها، والإغارة عليها. وأرسل القاضي كمل الدين ابن الشهرزوري إلى السلطان مسعود. ينهى إليه الحال بأمر البلاد وكثرة العدؤ، و يطلب منه النجدة وإرسال العساكر. فقال كمل الدين: أخاف أن تخرج البلاد من أيديناً ويجعل السلطان هذا حجة ويُنفذ العساكر، فإذا توسطوا البلاد ملكوها. فقال الشهيد: إن هذا العدو قد طمع في، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام؛ وعلى كل خال فالمسلمون أولى بها من الكفار. قال: فلما وصلت إلى بغداد وأديت الرسالة، وعدني السلطان بإنفاذ العساكر، ثم أهمل ذلك و لم يتحر فيه بشيء؛ وكُتُبُ الشهيد إلى متصلة يحثني على المبادرة بإنفاذ العساكر، وأنا أخاطب فلا أزاد على الوعد. قال: فلما رأيت عدم اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرت فلانا، وهو فقيه كان ينوب عنه في القضاء، فقلت: خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أو بأش بغداد والأعاجم، و إذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا، وأنت معهم، واستغاثوا بصوت واحد: وَا إسْلاماه ! وَا دين مُحمّدَاه! ويخرجون من الجامع يقصدون دار السلطنة مستغيثين. ثم وضعت إنسانا آخر يفعل مثل ذلك في جامع السلطان. فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر، قام ذلك. الفقيه ومزق ثوبه وألق عمامته عن رأسه،، وصاح، وتبعه أولئك النفر بالصياح والبكاء. فلم يبق بالجامع إلا من قام يبكي؛ و بطلت الجمعة، وسار الناس كلهم إلى دار السلطان. وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم. فاجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان، يبكون ويصرخون ويستغيثون، وخرج، الأمراء عن الضبط، وخاف السلطان في داره وقال ما الخبر فقيل له: إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغزاة. فقال: أحضروا ابن الشهرزوري. قال: فحضرت عنده وأنا خائف منه، إلأ أنني عزمت على صدقه وقول الحق. فلما دخلت عليه قال: ياقاضي: ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفا من الفتنة الشر، ولا شك أن السلطان ما يعلم كم بينه وبين العدو، و إنما بينكم نحو أسبوع. ولئن أخذوا حلب انحدروا إليك في الفرات وفي البر، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد. وعظمت الأمر عليه حتى جعلته كأنه ينظر إليهم فقال: اردُد هؤلاء العامة عنا، وخذ من العساكر ماشئت، وسر بهم والأمداد تلحقك. قال فخرجت إلى

العامة ومن انضم إليهم فأخبرهم وعرقهم الحال، وأمرهم بالعود، فعادوا وتفرقوا. وانتخبت من عسكره عشرة آلاف فارس، وكتبت إلى الشهيد أعرفه الخبر وأنة لم يبق غير المسير، وأجدد استئذانه في ذلك. فأمرني بتسييرهم والحث على ذلك، فعبرت العساكر الجانب الغربي. فبينما نحر نتجهز للحركة وإذا قد وصل نجاب من الشهيد يخبر بأن الروم والفرنج قد رحلوا عن حلب خائبين، لم ينالوا منها غرضا؛ ويأمرني بترك استصحاب العساكر. فلما خوطب السلطان في ذلك أصر على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها؛ وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها. قال: فلم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي وسرت إلى الشهيد. قال ابن الأثير: فانظروا إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس، يعنى كمال الدين،. رحم الله الشهيد فلقد كان ذاهمة عالية، ورغبة في الرجال ذوى الرأي والعقل، يرغبهم و يخطبهم من البلاد، ويوفر لهم العطاء.

حكى لي والدي قال: قيل الشهيد: إن هذا كمال الدين يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار. فقال لهم: بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي! إن كمال الدين يقل له هذا القدر، وغيرة يكثر له خمسمائة دينار! فإن شغلا واحدا يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار. وكان كما قال رحمه الله تعالى.

فصل

قال: وفي سنة سبع وثلاثين سار الشهيد إلى بلد الهكارية، وكان بيد الأكراد، وقد أكثر في البلاد الفساد، إلا إن نصير الدين جقر نائب السلطان الشهيد بالموصل كان قد ملك كثيرا من بلادهم. فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشعباني، وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها، فملكها وأخربها، وأمر ببناء قلعة العمادية عوضا عنها. وكانت هذه العمادية حصنا كبيرا عظيما فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره. فلما ملك أتابك الشهيد البلاد التي لهم قال: إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأتا بحول الله لا أعجز عنه فأمر ببنائه، وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمر فُبنى وسماه العمادية، نسبة إلى لقبه عماد الدين وفي هذه السنة خطب لأتابك بآمد ،وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود احب الحصن والانتماء إلى خدمته والخطبة له؛ فأجابه إلى ذلك وفيها ملك الشهيد مدينة عانة. وفيها حصر مدينة حمص مرة أخرى وفتحها في شوال؛ وقصد ولاية دمشق بها.

وفي سنة ثمان وثلاثون عزم السلطان مسعود على قصد الموصل بعساكره؛ وكان قد وقع بينه وبين الشهيد

وحشة. فترددت الرسل بينهما حتى استقرت الحال على مائة ألف دينار أمامية يحملها الشهيد إلى السلطان؛ وطلب أن يحضر الشهيد في خدمته، فامتنع، واعتذر باشتغاله بالفرنج، فعذره وشرط عليه فتح الرها. وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل أنه قيل له إن تلك البلاد لا يقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين، فإنها قد وليها قبله مثل جاولى سقاوه، ومودود، وجيوش بك، والبرسقي، أو غيرهم من الأكابر. وكان السلاطين يُمدونهم بالعساكر الكثيرة ولا يقدرون على حفظها؛ ولا يزال الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد إلى أن وليها أتابك، فلم يُمده أحد من السلاطين بفارس واحد ولا بمال، ومع هذا فقد فتح من بلاد العدو عدة حصون وولايات، وهزمهم غير مرة، واستضعفهم، وعز الإسلام به. ومن الأسباب المانعة له أيضاً أن الشهيد كان لا يزال ولده الأكبر سيف الدين غازي في خدمة السلطان مسعود بأمر والده، وكان السلطان يحبه و يقربه، و يعتمد عليه ويثق به. فأرسل إليه الشهيد يأمره بالهرب. والمجيء إلى الموصل؛ وأرسل إلى نائبه بالموصل يأمره أن يمنعه من دخول الموصل ومن المسير إليه أيضا. ففعل ذلك، وقال له: ترسل إلى والدك تستأذنه في الذي تفعله. فأرسل إليه، فعاد الجواب: إنني لا أريدك مهما السلطان ساخط عيك. وألزمه بالعود إليه، فعد ومعه رسول إلى السلطان يقول له: إنني لما بلغني أن ولدي فارق الخدمة بغير إذن لم أجتمع به ورَدَدْته إلى بابك فحل هذا عند السلطان محلا كبيراً، وأجلب إلى ما أراد الشهيد. ولما استقر المال حمل منه نحو عشرين ألف دينار. ثم إن الأمور تقلبت عاد أصحاب الأطراف خرجوا على السلطان، فاحتاج إلى مداراة الشهيد، وأطلق له الباقي استمالة له.

وفي هذه السنة سار الشهيد إلى ديار بكر ففتح عدة بلاد منها طترة، وإسعرد، وملك مدية المعدن الذي يعمل منه النحاس من إرمينية، ومدينة حيزان، وأخذ من أعمال ماردين عدة مواضع، ورتب أمور الجميع، وملك مدينة حاني، وحاصر امد، وأرسل عسكراً إلى مدينة عانة، فملكها له، وقد تقدم ذكرها في السنة قبلها.

فصل

في فتح الشهيد الرها في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة. وكانت لجوسلين، وهو عاتي الفرنج وشيطانهم، والمقدم على رجالهم وفرسانهم. وكانت مدة حصاره لها ثمانية وعشرين يوما، وأعادها إلى حكم الإسلام. وهذه الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلا، وهي أحد الكراسي عندهم؛ فأشرفها البيت المقدس، ثم أنطاكية، ثم رومية ثم قسطنطينية والرها. وكان على المسلمين من

الفرنج الذين بالرها شر عظيم. وملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات على طريق سنجار عدة حصون كسروج، والبيرة، وجملين، والمُوزر. وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر، وماردين، ونصيبين، ورأس عين، والرّقة. وأما حران فكانت معهم في الحزى كل يوم قد صبحوها بالغارة. فلما رأى الشهيد الحال هكذا أنف منهم، وعلم أنة لا ينال منها غرضا ما دام جوسلين بها. فأخذ في إعمال الحيل والخداع، لعل جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع. فتشاغل عنها يقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الإسلام كحاني وجبل جور وآمد؛ فكان يقاتل من بها قتالا فيه إبقاء، وهو يُسر حشوا في ارتغاء، فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم. وكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده. فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظن أنه لا فراغ له إليه، وأنه لا يمكنه الإقدام عليه. ففارق الرها، إلى بلاده الشامية، ليلاحظ أعماله، و يتعهد ذخائره وأمواله. فأقبل الشهيد مسرعا بعساكر. إلى الرها.

ثم وصف ابن الأثير الجيش. وأنشد:

بجيشٍ جاش بالفرسان حتى	ظننت البر بحرا من سلاح
وألسنهٍ من العَذبات حمر	تخاطبنا بأفواه الرياح
وأروع جيشه ليلٌ بهم	وغرته عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن	قليل الصفح ما بين الصِّفاح
وكان ثباته للقلب قلبا	وهيبته جناحاً للجناح

وألح الشهيد في حصارًها فملكها عنوة، فاستباحها، ونكس صلبانها، وأباد قُسُوسها ورهبانها، وقتل شجعانهاً وفرسانها، وملأ الناس أيديهم من النهب والسبي ثم إنه دخل البلد فراقه، فأنف لمثله من الخراب. فأمر بإعادة ما أخذ من أثاث ومال وسبى ورجل، وجوار وأطفال، فردوا عن أخرهم، لم يفقد منهم إلا الشاذ والنادر؛ فعاد البلد عامراً بعد أن كان داثراً. ثم رتب البلد وأصلح من شأنه، وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا، كسروج وغيرها، وأخلى ديار الجزيرة من معرة الفرنج وشرهم، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين. وكان فتحا عظيما طار في الآفاق ذكره، وطلب بها نشره، وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء.

قال ابن الأثير: حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا، يوم فتح الرها الشيخ أبا عبدا الله بن علي بن مهران الفقيه الشافعي، وكان من العلماء العاملين، والزاهدين في الدنيا، المنقطعين عنها، وله.الكرامات

الظاهرة. ذكروا عنه أنه غلب عنهم في زاويته يومه ذلك ثم خرج عليهم وهو مُستَبشر مسرور، عنده من الارتياح ما لم يروه أبداً. فلما قعد معهم قال: حدثني بعض إخواننا أن أتابك زنكي فتح مدينة الرها، وأنة شهد معه فتحها يومنا هذا. ثم قال ما يضرك يا زنكي ما فعلت بعد اليوم؛ يرُدد هذا القول مراراً؛ فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح. ثم إن نفرا من الأجناد حضروا عند هذا الشيخ وقالوا له: منذ رأيناك على سور تكبر أيقنا بالفتح؛ وهو ينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا. قال: وحكى لي بعض العلماء بالأخبار والأنساب، وهو أعلم من رأيت بها، قال: كان ملك جزيرة، صقلية من الفرنج لما فتحت الرها، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك في يحضره ويكرمه، ويرجع إلى قوله، ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين. فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرها سير هذا ملك الفرنج جيشا في البحر إلى أفريقية فنهبوا وأغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي وقد نعس وهو شبيه النائم. فأيقظه الملك وقال: يافقيه: قد فعل أصحابا بالمسلمين كيت وكيت؛ أين كان محمد عن نصرهم: فقال له: كان قد حضر فتح الرها. فتضاحك من عنده من الفرنج؛ فقال لهم الملك: لا تضحكوا فوا الله ما قال عن غير علم. واشتد هذا على الملك؛ فلم يمض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدة هذا الوهن رخاء ذلك الخبر، لعلو منزلة الرها عند النصرانية. قال: وحكى لي أيضا غير واحد ممن أثق إليهم، أن رجلا من الصالحين قال: رايت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له ما فعل الله بك؟ فقال غفر لي، فقلت بماذا. قال بفتح الرها.

قلت وهنأه القيسراني عند فتح الرها بقصيدة أولها:

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده	وهل طوق الأملاك إلا نجاده
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا	سناها وإن فات العيون اتقاده
سمت قبة الإسلام فخرا بطوله	ولم يك يسمو الدين لولا عماده.
وذاد قسيم الدولة ابن قسيمها	عن الله ما لا يستطاع ذياده
ليهن بنى الإيمان أمن ترفعت	رواسيه عزا واطمأن مهاده
وفتح حديث في السماع،حديثه	شهيٌّ إلى يوم المعاد مُعادُه
أراح قلوباً طرن من وُكُناتها	عليها فوافى كل صدر فؤاده
لقد كان في فتح الرُّهاء دلالة	على غير ما عند العُلوج اعتقاده
يرجعون ميلاد ابن مريم نُصرة	ولم يغن عند القوم عنه ولاده
مدينة إفك منذ خمسين حجة	يفل حديد الهند عنها حداده

تفوت مدى الأبصار حتى لوانها ترقت إليه خان طرفاً سواده

وجامحةٍ غزَّ الملوك قيادُها إلى أن ثناها من يعز قياده

فأوسعها حر القراع مؤيد بصير بتمرين الألد لداده

كأن سنا لمع الأسنة حوله سرار ولكن في يديه زناده

فأضرمها نارين: حرباً وخدعة فما راع إلا سورها وانهداده

فصدت صُدُودَ البكر عند افتضاضها وهيهات كان السيف حتما سفاده

فيا ظفراً عم البلاد صلاحُه بمن كان قد عم البلاد فساده

فلا مطلق إلا وشد وثاقه ولا موثق إلا وحل صفاده

ولا منبر إلا ترنح عوده ولا مصحف إلا أنار مداده

فإن يثكل الابرنز فيها حياته وإلا فقل للنجم كيف نهاده

وباتت سرايا القمص تقمص دونها كما تتنزى عن حريق حراده

إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها لقد ذل غاويكُم وعز رشاده

رويدكم لا مانع من مظفر يعاند أسباب القضاء عناده

مُصيبُ سهام الرأي لو أن عزمه رمى سد ذي القرنين أصمي سداده

وقل لملوك الكفر تُسلِمُ بعدها ممالكها، إن البلاد بلاده

كذا عن طريق الصبح أيتها الدُّجى فيا طالما غال الظلام امتداده

ومن كان أملاك السَّموات جنده فأية أرض لم ترضها جياده

ولله عزم ماء سيحان ورده وروضة قسطنطينية، مستراده

وله من قصيدة هنأ بها القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري أولها:

هي جنة المأوى فهل من خاطب .

يقول فيها:.

إن الصفائح يوم صافحت الرها عطفت عليها كل أشرس ناكب

فتح الفُتوح مبشراً بتمامه كالفجر في صدر النهار الآيب

لله أية وقفةٍ بدريّةٍ نصرت صحائبها بأيمن صاحب

ظفر كمال الدين كنت لقاحه كم ناهض بالحرب غير محارب

وأمدكم جيش الملائك نصرة بكتائب محفوفة بكتائب

جنبوا الدبور وقد تم ريح الصبا جندُ النبوة هل لها من غالب!

أترى الرها الورهاء يوم تمنعت ظنت وجوب السور سورة لاعب

لا أين يا أسرى المهالك بعدها ضاق الفضاء على نجاة الهارب

شدا إلى أرض الفرنجة بعدها إن الدُّرُوب على الطريق اللاّحب

أفغركم والثارُ رهنُ دمائكم=-ما كان من إطراق لحفظ الطالب؟!

وإذا رأيت الليث يجمع نفسه عون الفريسة فهو عين الواثب !

وقال ابن منير:

صفات مجدك لفظ جل معناه فلا استرد الذي أعطاكهُ الله

يا صارما بيمين الله قائمة وفى أعالي أعادي الله حداه

أصْبَحْتَ دْون ملوك الأرض مُنفرداً بلا شبيه إذا الأملاك أشباه

فداك من حاولت. مسعاك همته جهلا، وقصر عن مسعاك مسعاه

قل للأعادي:ألا موتوابه كمداً فالله خيبكم والله أعطاه

ملك تنام عن الفحشاء هِمّمُهُ تُقى وتسهر للمعروف عيناه

مازال يَسُمُك والأيأم تخدمه فيما ابتلاه وتدنى ما توخاه

حتى تعالت عن الشعري مشاعره قدراً، وجاوزت الجوزاء، نعلاه

وقد روى الناس أخبار الكرام مضوا وأين مما رَوَرْه ما رأينا

أين الخلائف عن فتح أتيح له مظلل أفق الدنيا جناحاه

على المنابر من انبائه أرج مقطوبة بفتيق المسك رياه

فتح أعاد على الإسلام بهجته فافتر مبسمه واهتز عطفاه

يهدى بمعتصم بالله فتكته حديثها نسخ الماضي وأنساه

إن الرها غير عمورية، وكذا من رامها ليس مَعْزَاهُ كمغزاه

أخت الكواكب عزا ما بغى أحدٌ | من الملوك لها وقما فوتاه
حتى دلفت لها بالعزم يشحذه | رأى يبيت فُويَق النجم مسراه
مشمراً وبنو الإسلام في شُغُل | عن بدء غرس لهم أثمار عقباه
يا مُحيي العدل إذ قامت نَوَادِبُه | وعامر الجود لما مح مغناه
يا نعمة الله يستصفى المزيد بها | للشاكرين ويستصفى صفاياه
أبقاك للدين والدنيا تحوطهما | من لم يتوجك هذا التاج إلا هو

ولابن منير أيضاً من قصيدة تقدم بعضها:

أيا ملكاً ألقى على الشرك كلكلا | أنخ على أماته كلكل الثكل
جمعت إلى فتح الرها سد باله | بجمعك بين النهب والأسر والقتل
هو الفتح أنسى كل فتح حديثه | وتوج مسطور الرواية والنقل

فضضت به نقش الخواتم بعده | جزيت جزاء الصدق عن خاتم الرّسْل
تجردت للإسلام دون ملوكه | تُبتِّكُ أسباب المذلة والخذل
أخو الحرب غذته القراع مفطَّما | يشوب بإقدام الفتى حنكة الكهل

وله من قصيدة أخرى:

بعماد الدين أضحت عروة الد | ين معصوبا بها الفتح المبين
واستزادت بقسيم الدولة ال | قسم من إدْحاض كيدْ المارقين
ملك أسْهَر عينا لم تزل | هُّمها تشريدُهمِّ الرّاقدين
لا خَلَتْ من كَحَل النصر فقد | فقات غيظا عيون الحاسديين
كلُّ يوم مر من أيامه | فهو عيدٌ عائد للمسلمين
لو جرى الإنصاف في أوصافه | كان أولادها أمير المؤمنين
ما روى الرّاوُون بل ما سطّروا | مثل ما خطت له أيدي السنين
إذ أناخ الشرك في أكنافه | بمئي ألفٍ ثناها بمئين
وقعة طاحت بكلب الرّوم من | قطعة البين إلى قطع الوتين

إن حمت مصر فقد قام لها ... واضح البرهان أن الصّين صين
درج الدّهر عليها معصراً ... لم يدنس بمرام اللائمين
والرها لو لم تكن إلا الرّها ... لكنت حَسْماً لشك الممترين
هم قسطنطين أن يفرعها ... ومضى لم يَحْوِ منها قِسْطَ طِينْ
ولكَم مِنْ مَلِكٍ حاولها ... فتحلى الحين وسماً في الجبين
هي أختُ النّجم إلا أنها ... منه كالنجم لرأى المُبْصرين
مُنِيَتْ منه بليثٍ قائد ... بعران الذل أساد العرين
زارها يزأر في أسد وغى ... تبدل الأسد من الزأر الأنين
صولجوا البيض بضرب نَثَر ال ... هامَ في ساحاتها نثر الكرين
يالَهَا هِمّةُ ثغرِ أضحكت ... من بنى القلف ثغور الشّامتين
برنست رأس برنس ذلة ... بعد ما جاست حوايا جوسلين
وسروج منذٌ وعت أسراجه ... فرقت جماعها عنها عضين
تلك أقفال رماها الله من ... عزمه الماضي بخير الفاتحين
شام منه الشام برقاً ودْقُه ... مؤمن الخوف مخيف الآمنين
كم كنيس كنست رامها ... منه بعد الروح في ظل السفين
دنت الآجال من آجالها ... فأحلّتها القطا بعدَ القطين
ومنار يجتلى صلبانه ... نجين بيض تتبارى فى البرين
قرعته البيض حتى بدلت ... قرعة الناقوس تثويب الأذين
بالقسيميّات مقسوما لها الد ... هر في علك لجين أو لجين
سل بها حران كم حرى سقت ... بردا من يوم ردت ماردين
سمطت أمس سُمَيْسَاط بها ... نظم جيش مبهْج للناظرين
وغدا يلقي على القدس لها ... كلكل يدرسها درس الدرين
همة تمسى وتضحي عزمة ... ليس حصن إن نحته بحصين
قل لقوم غرهم إمهاله ... ستذوقون شذاه بعد حين

إنه الموت الذي يدرك من فرمنه مُشحا للغافلين

وهو يُحيى مُمْسكى عروته إنها حبل لمن تاب متين

من يطع ينج، ومن يعص يكن من غداة عبرة للآخرين

بك ياشمس المعالي رُدت الر وح في المَيْتَيْن من دنيا ودين

أقسم الجد بأن تبقى لكي تملك الأرض يمينا لا يمين

وتُفيض العدل في أقطارها مُنسياً مُؤلم عسف الجأرين

لاتزال دارك كيف انتقلت كعباً محفوفة بالطائفين

كل يوم يتحلى جيدها من نظيم المدح بالدر الثمين

كلما أخلص فيها دعوة=لك قالت ألْسُنُ الخلق أمين

فصل

لما فزغ الشهيد من أخذ الرها وإصلاح خالها والاستيلاء على ما وراءها من البلاد والولايات سار إلى قلعة البيرة، وهي حصن حصين مطل على الفرات، وهو لجوسلين أيضا، فحصره، وضايقه. فأتاه الخبر بقتل نائبه بالموصل والبلاد الشرقية، نصير الدين جغر بن يعقوب، فرحل عنها خوفا من أن يحدث بعده في البلاد فتق يحتاج إلى المسير إليها. فلما رحل عنها سير إليها حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي صاحب ماردين عسكراً، فسلمها الفرنج إليهم خوفا من الشهيد أن يعود إليهم فيأخذها. وكان قتل النصير في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين. وسببه أن الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان محمود بن محمد كان عند الشهيد، وهو أتابكه ومربيه، وكان هو يظهر للخلفاء وللسلطان وأصحاب الأطراف أن البلاد التي بيده للملك ألب أرسلان وأنه نائبه فيها؛ وكان إذا أرسل رسولا أو أجاب عن رسالة فإنما يقول قال الملك كذا وكذا. وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليجمع العساكر باسمه و يخرج الأموال ويطلب السلطنة، فعاجلته المنية قبل ذلك. وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة، وبها نصير الدين، وهو يترل إليه كل يوم يخدمه ويقف عنده ساعة ثم يعود. فحسن المفسدون للملك قتله، وقالوا له: إنك إن قتلته ملكت الموصل وغيرها، و يعجز أتابك أن يقيم بين يديك، ولا يجتمع معه فارسان عيك؛ فوقع هذا في نفسه وظنه صحيحاً. فلما دخل نصير الدين إليه على عادته وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه وألقوا رأسه إلى أصحابه، ظنا منم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرقوا، ويملك الملك البلاد. وكان الأمر بخلاف ما

ظنوا؛ فإن أصحابه وأصحاب أتابك الذين معه ك رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير. وكانت دولة الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاد ذوى الرأي والتجربة، فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء. وكان في جملة من حضر القاض تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، أخو كمال الدين، فدخل إلى السلطان وخدعه حتى أصعده إلى القلعة وهو في يحسن له الصعود إليها، وحينئذ يستقرله ملك البلاد. فلما صعد القلعة سجنوه بها، وقتل الغلمان الذين قتلوا نصير، وأرسلوا إلى أتابك يعرفونه الحال؛ فسكن جأشه، واطمأن قلبه وأرسل زين الدين على بن بكتكين واليا على قلعة الموصل، وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه، فسلك بالناس غير الطريق التي سلكها النصير، وسهل الأمر، فاطمأن الناس وأمنوا، وازدادت البلاد معه عمارة.،ولما رأى الشهيد صلاح أمر الموصل سار إلى حلب فجهز منها جيشا إلى قلعة شيزر، و بينها وبين حماة نحو أربعة فراسخ، فحصرها.

قلت كذا وقع في تحن ابن الأثير. وقد وهم في قوله ألب أرسلان المعروف بالخفاجي، فالخفاجي غير ألب أرسلان على ما ذكره العماد الكاتب في كتاب السلجوقية فإنه قال: كان مع زنكي ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، أحدهما يسمى ألب أرسلان وهو في تنقل من معاقل شجار، والآخر يسمى فرخشاه و يعرف بالخفاجي الملك، وهو بالموصل، وكان هذا الملك فت مسلماً إلى الأمير دبيس بن صدقة، فانزعه منه زنكي في حرب جرت، فكانت زوجة زنكي، خاتون السكمانية، تربيه حتى بلغ.

وكان النصير يقبض عنانه، ويبسط فيه لسانه، ويقول: إن عقل و إلا عقلته، وإن ثقل طبعه وإلا ثقلته. فدبر في قتله مع اصحابه، فقطعوه في دهليز داره لما دخل للسلام على الملك. ثم أصعد القاضي تاج الدين الملك إلى القلعة فلم يُر له أثر، والتقط مماليكه. ثم عطف زنكي على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجه من معقله، وغنى بتفاصيل أمره وجمله، وضرب له نوبتية ونوبا، ورتب له في حالتي ركوبه وجلوسه رتبا؛ واغرى بتولي إكرامه وتوخيه، وغرضه خفاء ما جرى من هلاك أخيه. ثم ذكر قصة موت زنكي على قلعة جعبر، كما سيأتي.

وفي سنة أربعين وخمسمائة أرسل أتابك إلى زين الدين علي يأمره بإرسال عسكر إلى حصن فنك يحصره، فسير خلقا كثيراً من الفرسان والرجالة؛ فأقاموا عليه يحصرونه إلى أن أتاهم الخبر بقتل الشهيد أتابك. وهذا الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر، هو للأكراد البشنوية، وله معهم مدة طويلة، يقولون نحو ثلاثمائة سنة؛ وهو من أمنع الحصون، مطل على دجلة؛ وله سرب إلى عين ماء لا يمكن أن يحال بين أهله وبينها.

قلت وفي هذه السنة أنشد ابن منير بالرقة عماد الدين زنكي، يهنئه بالعافية من مرض عرض له في يده ورجله، قصيدة أولها:

يا بدر لا أفل ولا محاق ولا يرم مشرقك الإشراق
بالدين والدنيا الذي يشكو،وهل يهتز فرع لم يُقعه ساق
إن تورق القضب ويجرى ماؤها إلا إذا ما التاثت الأعراق
إن الرعايا ما سلمت في حمى للخطب عن طروقه إطراق
غرست بالعدل لهم خمائلا ترتع في حديقها الحداق
يا هضبة الدين، التي عاذبها فعاد لا بغت ولا إرهاق
لو ولم تحطه راحلاً وقافلا أصبح لا شام ولا عراق
عماد دين قد أقام زيغه حي، ومات الشرك والنفاق
يا محيي العدل الذي في ظله تسربلت زينتها الآفاق
يفديك من لاَنَ مِهاد جنبه لمانبا بجنبك الإقلاق
من بِشَبَا سيفك أنبطْت له ال عَذْبَ وما عيسه زُعاق
تجرع السم ولو لم تحمه بحده لَعزّهُ الدّرياق
ملوك أطراف لا حمى أطرافها عزمك هذا اللاحق السبّاق
لو لم ترق ماء كرى العين لما ساغت بأفواههم الأرْياق
شققت من دونهم موج الردى وشق أكبادهم الشقاق
أقسم :لو كلفتهم أن يسمعوا حديث أيامك ما طاقوا
لما اشتكيت دب في أهوائهم توجس للسمع واستراق
تطالوا، لا عدمت آمالهم قصرا ولا جانبها الإخفاق
توهموها غسقا ثم انجلت والصفو من مشربهم غساق
لئن ألم ألم بقدم خد السها لنعلها طراق
أو كان مدَّ يَدّهُ إلى يدٍ تجرى بها الآجال والأرزاق
فالنصْل يُعْلَى صَدَأ وتحته حد حسام وسناُ رقراق
رمى الصَّليبَ بصليب الرَّأي عن زوراءَ أوهى نزعها الإغراق
ونوم من خلف الخليج سَهَرٌ والعيش في فرنجة سياق

ماتوا فلا همسٌ و لا إشارة　　خوف هموس ز أره إزهاق

لا سلبت منك الليالي ماكست　　و لا عرت نجدتك الإخلاق

فصل في وفاة زنكي رحمه الله

قال ابن الأثير: كانت قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملكشاه إلى الأمير سالم بن مالك العقيلي لما ملك قسيم الدولة بمدينة حلب؛ فلم تزل بيده و يد أولاده إلى سنه إحدى وأربعين. فسار الشهيد إليها فحصرها، وكان الباعث له على حصرها وحصر فنك ألا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره وإن قل، لِلْحَزْم الذي كان عنبده والاحتياط؛ وأقام عليه يحصره بنفسه إلى أن مضى من شهر ربيع خمس ليال.. فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليك فقتلوه غيلة و لم يجهزوا عليه، وهربوا من ليلتهم إلى القلعة، و لم يشعر أصحابه بقتله. فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله، فبادر أصحابه إليه، فأدركه أوائلهم وبه رمق. ثم ختم الله له بالشهادة أعماله:

لاقى الحمام ولم أكن مستيقنا　　أن الحمام سيُبتلى بحمام

فأضحى وقد خانه الأمل، وأدركه الأجل، وتخلى عنه العبيد والخول. فأي نجم للإسلام. أفل، وأي ناصر للإيمان رحل؛ وأي بحر ندى نضب، وأي بدر بكارم غرب؛ وأي أسد افترس، و لم ينجه قلة حصن ولا صهوة فرس. فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته، وكم أذها في حفظه وحراسته؛ فأتاه مبيد الأمم، ومُفنيها في الحدث والقدم؛ فأصاره بعد القهر للخلائق مقهورا، وبعد وثير المضاجع في التراب معفراً مقبوراً؛ رهين جدث لا ينفعه إلا ما قدم، قد طويت صحيفة عمله فهو موثوق في صورة مستسلم. ثم دفن بصفين عند أصحاب على أمير المؤمنين رضي الله عنه.

قلت وذكر العماد الكاتب في كتاب السلجوقية، قال: قصد زنكي حصار قلعة جعبر فنازلها؛ وكان إذا نام ينام حوله عدة من خدامه الصباح وهو يحبهم و يَحْبُوهم ولكنه. مع الوفاء منهم يجفوهم، وهم أبناء الفحول القروم، من الترك والأرمن والروم. وكان من دأبه أنه إذا نقم على كبير أرداه وأقصاه، واستبق ولده عنده وخصاه. فنام ليلة موته وهو سكران؛ فشرع الخُدام في اللعب فزجرهم، وزبرهم وتوعدهم، فخافوا من سطوته. فلما نام ركبه كبيرهم، واسمه برتقش، فذبحه، وخرج ومعه خاتمه، فركب فرس النوبة مُوهماً أنه يمضي في مهم، وهو لا يرتاب به لأنه خاص زنكي. فأتي الخادم أهل القلعة فأخبرهم، وذكر الحديث. قلت: ثم نقل إلى الرّقة فدفن بها، وقبره الآن فيها.

قال ابن الأثير: وكان حسن الصورة مليح العينين، قد وخطه الشيب، طويلا وليس بالطويل البائن. وخلف من الأولاد سيف الدين غازيا، وهو الذي ولى بعده، ونور الدين محموداً الملك العادل، وقطب الدين مودوداً، وهو أبو الملوك بالموصل، ونُصرة الدين أمير أميران، و بتاً. فانقرض، عقب سيف الدين من الذكور والإناث، ونور. الدين من الذكور و لم يبق الملك إلا في عقب قطب الدين. ولقد أنجب رحمه الله، فبن أولاده الملوك لم يكن مثلهم.

قلت ومن عجيب ما حكى أنه لما اشتد حصار قلعة جعبر جاء في الليل أبى حسان المنبجي ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها، فأجابه؛ فقال له: هذا المولى أتابك صاحب البلاد، وقد نزل عليك بعساكر الدنيا وأنت بلا وزر ولا معين؛ وأنا أرى أن ادخل في قضيتك واخذ لك من المولى أتابك مكانا عوض هذا المكان؛ وإن لم تفعل فأي شيء تنتظر؟! فقال له صاحب القلعة: أنتظر الذي انتظر أبوك. وكان بلك بن بَهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشد حصار، ونصب عليه عدة مجانيق، وقال يوما لحسان، وقد أصرفه بحجارة المنجنيق: أي شيء تنتظر؛ أما تسلم الحصن؟! فقال له حسان: أنتظر سهام من سهام الله. فلما كان من الغد بينا بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سهم غرب، وقع في لبته فخر ميتا؛ و لم يكن من جسده شيء ظاهر إلا ذلك، المكان، لأنه كان قد لبس الدرع و لم يزرها على صدره. فلما سمع أبى حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جعبر رجع عنه. وفي تلك الليلة قتل أتابك، فكان هذا من الاتفاقات العجيبة والعبر الغريبة. ذكر ذلك يحيى بن أبى طي في كتاب السيرة الصلاحية.

فصل في بعض سيرة الشهيد أتابك زنكي.

وكانت من أحسن سير الملوك وأكثرها حزما وضبطا للأمور، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوى عن التعدي على الضعيف. قال أبن الأثير: حدثني والدي قال: قدم الشهيد أتابك زنكي إلينا بجزيرة ابن عمر، في بعض السنين، وكان زمن الشتاء، ونزل بالقلعة، ونزل العسكر في الخيام. وكان في جملة أمرائه الأمير عز الدين أبو بكر الدبيسي، وهو من أكابر أمرائه ومن ذوي الرأي عنده، فدخل الدبيسي البلد ونزل بدار في إنسان يهودي وأخرجه منها؛ فاستغاث اليهودي إلى الشهيد وهو راكب فسأل عن حاله، فأخبر به؛ وكان الشهيد واقفا والدبيسي إلى جانبه ليس فوقه أحد؛ فلما سمع أتابك الخبر نظر إلى الدبيسي نظر مغضب و لم يكلمه كلمة واحدة، فتأخر القهقرى، ودخل البلد فأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد، و لم تكن الأرض تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين. قال: ولقد رأيت الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته؛ فلما رأوا كثرته جعلوا على الأرض تبناً ليقيموها، ونصبوا الخيام، وخرج إليها من ساعته.

قال: وكان ينهى أصحابه عن، اقتناء الأملاك ويقول: مهما كانت البلاد لنا فأي حاجة لكم إلى الأملاك،، فإن الاقطاعات تغنى عنها؛ وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها؛ ومتى سارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم. ثم ذكر ما تجدد في أيامه من. عمارة البلاد، لا سيما بالموصل، وذلك لحسن سيرته، فكان يقصده الناس ويتخذون بلاده دار إقامة. وهو الشي أمر ببناء عور المملكة بالموصل، و لم يكن بها للسلطان غير الدار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان. ثم رفع سورها وعمق خندقها. وهو الذي فتح الباب العمادي و إليه ينسب. قال: وكانت الموصل اقل بلاد الله فاكهة، وكان الذي يبع الفواكه يكون عنده مقراض يقص به العنب لقلته إذا أراد أن يزنه؛ فلما مرت البلاد عملت البساتين بظاهر الموصل وفي ولاينها.

قال: ومن أحسن آرائه أنه كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجرى لأصحابها حتى في خلواتهم، ولا سيما دركاة السلطان، وكان يغرم على ذلك المال الجزيل فكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره، من حرب وسلم،، وهزل وجد، وغير ذلك فكان يصل إليه كل يوم من عيونه عدة كتب. وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير؛ وكان يقول إذا لم يعرف ليمنع صار كبيراً. وكان لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير أمره؛ وإذا استأذنه رسول في العبور في بلاده أذن له وأرسل إليه من يسيره، ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم؛ فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم من أحوالها شيئا. وكان يتعهد أصحابه و يمتحنهم. سلم يوما خشكنانكة إلى طشت دار له وقال احفظ هذه؛ فبقى نحو سنة لا تفارقه الخشكنانكة خوفا أن يطلبها منه. فلما كان بعد ذلك قال له: أين الخشكنانكة فأخرجها في قنديل وقدمها بين يديه، فاستحن ذلك منه وقال: مثلك ينبغي أن لا يكون مستحفظا لحصن. وأمر له بدُزْدَاريةً قلعة كواشي، فبقى فيها. إلى أن قتل أتابك. وكان لا يمكن أحدا من خدمه من مفارقة بلادة ويقول:إن البلاد كبستان عليه سياج، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدوو فيها زالت الهيبة وتطرق الخصوم إليها قاله: ومن. صائب رأيه وجيده أن سير طائفة من التركمان الإيوانية مع الأمير اليارق إلى الشام، وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجله ملكا لهم فكانوا يغادرون الفرنج بالقتال و يراوحونهم؛ وأخذوا كثيراً من السواد وسدوا ذلك الثغر العظيم. و لم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ستمائة قال: ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل وبعضها بسنجار وبعضها بحلب، وقال إن جرى على بعض هذه الجهات خرق أو حيل بيني و بينه استعنت على سد الخرق بالمال في غيره.

قال: واما شجاعته وإقدامه فإليه النهاية! فيها، وبه كانت تضرب الأمثال، ويكفى في معرفة ذلك جملة، أن ولايته أحدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب: الخليفة المترشد، والسلطان مسعود، وأصحاب أرمينية وأعمالها، بيت سكمان، وركن الدولة داود صاحب حصن كيفا، وابن عمه صاحب ماردين، ثم الفرنج، ثم دمشق. وكان ينتصف منهم و يغزو كلا منهم في عقر داره ويفتح من بلادهم، ماعدا للسلطان مسعود فإنه كان لا يباشر قصده، بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً إليه، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته، فيصير كالحاكم على الجميع، وكلٌ يداريه ويخضع له، ويطلب ما تستقر القواعد على يده.

قال: وأما غيرته فكانت شديدة ولا سيما على نساء الأجناد، فإن التعرض إليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها؛. كان يقول إن جندي لا يفارقوني في أسفاري وقلما يقيمون عند أهلم، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن. قلت: وفي صحيح مسلم من حديث أبى سعيد الخدري، وذكر حديث رجم النبي صل الله عليه وسلم ما عزاً، قال: ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا قال: أو كُلَّماَ انطلقنا غُزَاةً في سَبِيلِ الله تَخَلَّفَ رَجُلٌ في عِيالنا لَهُ نَبِيبٌ كَنَبِيبِ التَّيْسِ!! على ألا أؤْتَي بِرَجُلٍ فَعَلَ ذلك إلا نَكَّلْتُ به. قال ابن الأثير: وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دُزْدَاراً اسمه نور الدين حسن البربطي، وكان من خواصّه وأقرب الناس إليه، وكان غير مرضى السيرة؛ فبلغه عنه أنه يتعرض للحُرم؛ فأمر صاحبه صلاح الدين الياغبساني أنه يسير مجدا ويدخل الجزيرة، فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع ذكره، وقلع عينيه عقوبة لنظره بهم إلى الحرم، ثم يصلبه. فسار الصلاح مجدا، فلم يشعر البربطي إلا وقد وصل إلى البلد؛ فخرج إلى لقائه، فأكرمه الصلاح ودخل معه البلد، وقال له: المولى أتابك يسلم عليك ويريد أن يُعلى قدرك، ويرفع مترلتك، ويسلم إليك قلعة حلب وبوليك جميع البلاد الشامية لتكون هناك مثل نصير الدين، فتجهز وتحدر مالك في الماء إلى الموصل وتسير إلى خدمته ففرح ذلك المسكين فلم يترك له قيلا ولا كثيراً إلا نقله إلى السفن ليحدرها إلى الموصل في دجلة. فحين فرغ من جمع ذلك أخذه الصلاح وأمضى فيه ما أمر به،، وأخذ جميع ماله. فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله.

قال: وأما صدقاته، فكان يتصدق كل جمعة بمائة دينار، أميري ظاهراً، ويتصدق فيما عداه من للأيام سرا مع من يثق به. وركب يوما فعثرت به دابته فكاد يسقط عنها، فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاما لم يفهمه و لم يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد عنه إلى بيته وودع أهله عازما على الهرب؛ فقالت له زوجته ما ذنبك وما حملك على هذا الهرب فذكر لها الحال، فقالت له إن نصير الدين له عناية، فاذكر له قصتك وافعل ما يأمرك به. فقال أخاف أن يمنعني من الهرب فأهلك. فلم تزل زوجته تراجعه وتقوي

عزمه، فعزف النصير حاله، فضحك منه وقال: خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه فعي التي أراد. ففال: الله الله في دمي ونفسي. فقال: لا بأس عليك فإنه ما أراد غير هذه الصرة؛ فحملها إليه. فحين رآه قال: أمعك شيء قال نعم؛ فأمره أن يتصدق به. فلما فرغ من الصدقة تصد النصير وشكره، وقال: من أين علمت أنه أراد الصرة؟ فقال له: إنه يتصدق في هذا اليوم بمثل هذا القدر، يرسل إلى من يأخذ من الليل، وفي يومنا هذا لم يأخذه. ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض، وأرسلك إلي، فعلمت أنه ذكر الصدقة فقال: وحكى لي من شدة هيبته ما هو أشد من هذا. قال والدي خرج يوما الشهيد من قلعة الجزيرة من باب السّر خلوة وملاَّح له نائم فأيقظه بعض الجاندارية وقال له اقعد؛ فحين رأى الشهيد سقط إلى الأرض فحركوه فوجدوه ميّتاً.

قال: وكان الشهيد قليل التلون والتنقل، بطيء الملل والتغير، شديد العزم، لم يتغير على أحد من أصحابه مُذْ مَلَكَ إلى أن قتل إلا بذنب يوجب التغير؛ والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولاً هم الذين بقوا أخيراً، من سلم منهم من الموت؛ فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له. وكان الإنسان إذا قدم عسكره لم يكن غريباً: إن كان جندباً اشتمل عليه الأجناد وأضافوه، و إن كان. صاحب ديوان تصد أهل الديوان، وإن كان عالما قصد القضاة بني الشهرزوري فُيحسنون إليه ويؤنسون غربته فيعود كأنه آهل. وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العالية، والآراء الصائبة، والأنفس الأبية.، ويوسع عليهم في الأرزاق، فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف.

قلت: وما أحسن ما وصفه به أحمد بن منير من قوله في قصيدة:

في ذرا ملك هو الده ... ر عطاء واستلابا
من له كف تبز ال ... غيث سحا وانسكاباً
فاتح في وجه كل ... أمة للنصر باباً
تَرْجُفُ الدنيا إذا حر ... ك للسير الركابا
وتخر المشمخرا ... ت اختلالا واضطرابا

وترى.الأعداء من هي ... بته تأوى الشعاباً
وإذا ما لفحتهم ... ناره صاروا كبابا
يا عماد الدين لا زل ... ت على الدين سحابا
جاعلا من دونه سي ... فك إن ريع حجابا

فالبس النعماء في الأ — من الذي طبت وطابا

وأصف عيشاً إن أعدا — ءك .قد صاروا تراباً

وقال العماد الكتاب: استولى زنكي على-الشامل من سنة اثنتين وعشرين إلى أن قتل في سنة إحدى وأربعين. وهو الذي فتح الرها عنوة، واحتل بها من السعادة ذروة؛ فتسنى بفتح الرها للمسلمين، جَوْسُ بلاد جوسلين؛ وعاد جمعها إلى الإسلام في عهد ولد زنكي نور الدين وصارت عقود الفرنج من ذلك الحين تنفسخ، وأمورها تنْتسخ؛ ومعاقلها تفرع، وعقائلُها تُفْتَرع.

وقال الرئيس أبو يعالي التميمي: كانت الأعمال بعد قتل زنكي قد اضطربت، والمسالك قد اختلت، بعد الهيبة المشهورة ؟، والأمنة المشكورة؛ وانطلقت أيدي التركمان والحرامية في فساد الأطراف.، والعيث في سائر النواحي والأكناف؛ ونظمت في صفة هذه الحال أبياتا من قصيدة:.

كذلك عماد الدين زنكي تنافرت — سعادته عنه وخرت دعائمه

وكم بيت مال من نضار وجوهر — وأنواع ديباج حوتها مخاتمه

وأضحت بأعلى كل حصن مصونة — يُحامى عليها. جنده وخوادمه

ومن صافنات الخيل كل مطهم — يروع الأعادي حليه وبَرَاجمه

فلو رامت الكتاب وصف شياتها — بأقلامها ما أدرك الوصف ناظمه

كم معقل قد رامه بسيوفه — وشامخ حصنْ لم تَفُتْه غنائمه

ودانت وُلاة الأرض فيها لأمره — وقد أمنتهم كتبه وخواتمه

وأمن من في كل قطر لهتبة — يراع بها أعرابُه وأعاجمه

وظالم قوم حين يذكر عدله — فقد زال عنهم ظُلْمه وخصائمه

وأصبح سلطان البلاد بسيفه — وليس له فيها نظير يزاحمه

وزاد على الأملاك بأساً وسطوة — ولم يبق في الأملاك ملك يقاومه

فلما تناهي مُلكُه وجلاله — وراعت ولاة الأرض منه لوائمه

أتاه قضاء لا ترد سهامه — فلم تنجه أمواله ومغانمه

وأدركه لِلْحيْن. فيها حِمامه — وحامت عليه بالمنون حوائمه

وأضحى على ظهر الفراش مُجدلا — صريعاً تولى ذبحه فيه خادمه

وقد كان في الجيش اللهام مبيته — ومن حوله أبطاله وصوارمه

وسمر العوالي حوله بأكفهم | تذود الردى عنه وقد نام نائمه
ومن دون هذا عصبة قد ترتَّبَت | بأسهمها يُرْدى من، الطير حائمه
وكم رام في الأيام راحة سره | وهمته تعلو وتقوى شكائمه
وكم مسلك للسفر أمن سُبلَه | ومسرح حي أن تُراعَ سوائمه
وكم ثغر إسلام حواه بسيفه | من الروم لماً أدركته مراحمه
فمن ذا الذي يأتي بهيبة مثله وتنفذ | في أقصى البلاد مراسمه
فلَوْرَقِيتْ في كل مصر بذكره | أراقمه ذلت هنك أراقمه
فمن ذا الذي ينجو من الدهر سالما | إذا ما أتاه الأمر، والله حاتمه
ومن رام صفواً في الحياة فما يرى | له صفو عيش والحمام يحاومه
فإياك لا تغبط ملكيا بملكه | ودعه فإن الدهر لاشك قاصمه
وقل للذي يبني الحصون لنحفظه | رويدك ما تبني فدهرك هادمُه
وفى ضل هذا عبرة ومواعظ | بها يَتَناسى المرء ما هو عازمه

قال: وفي ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة وصل الخادم يرتقش القاتل لعماد الدين زنكي وانفصل من قلعة جعبر لخوف صاحبها من طلبه منه، فوصل دمشق متيقنا أنه قد أمن بها، ومدلاًّ بما فعله، وظنا منه أن الحال على ما توهمه. فقبض عليه وانفذ إلى حلب صُحبة من حفظه وأوصله إليها، فأقام بها أياما ثم حمل إلى الموصل، وذكر أنه قتل بها.

قلت وللحكيم أبي الحكم المغربي قصيدة في مرثية الشهيد عماد الدين زنكي رحمه الله، منها:

عينُ لا تذخرى الدموع وبكى | واستهلى دما على فقد زنكي
لم يَهَتْ شخصه الردى بعد أن كا | نت له هيبة على كل تركي
خيرُ ملك ذي هيبة وبهاء | وعظيم بين الأنام بُزُزْكْ
يهب المال والجياد لمن يم | مه مادحا بغير تلكي
إن داراً تمدنا بالرزايا | هي عندي أحق دارٍ بِتَرْكْ
فاسكبوا فوق قبره ماء وردٍ | وانضحوه بزغفران ومسك
أي فتك جرى له في الأعادي | بعد ما استفتح الرُّها، أي فتك

كل خطب أنت به نوب الده — ر يسير في جنب مصرْع زنكي
بعد ما كاد أن تدين له الرو — م ويحوي البلاد من غير شك

فصل فيما جرى بعد قتل زنكي من تفرق أصحابه وتملك ولديه غازي ومحمود

قال الرئيس أبو يعلى: توجه الملك ولد السلطان، المقيم كان معه، فيمن صحبه وانضم، إليه إلى ناحية الموصل، ومعه سيف الدين غازي بن عماد الدين أتابك؛ وامتنع عليهم الوالي بالموصل، على كوجك، أياما إلى حين تقررت الحال بينهم. ثم فتح الباب ودخل ولده واستقام له الأمر، وانتصب منصبه. وعاد الأمير سيف الدولة سوار وصلاح الدين، يعنى محمد بن أيوب الياغبساني.، في تلك الحال إلى ناحية حلب، ومعهما الأمير نور الدين محمود ابن زنكي، وحصل بها. وشرع في جمع العساكر وإنفاق المال فيها، واستقام له الأمر وسكنت الدهماء. وفصل عنه الأمير صلاح الدين وحصل بحماة ولايته على سبيل الاستيحاش والخوف على نفسه من أمر يُدبر عليه.

وقال الحافظ أبو القاسم: لما راهق نور الدين لزم خدمة والده إلى ان انتهت مدته على قلعة جعبر. وسير في صبيحة الأحد الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود إلى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه، وقال لهم إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى الموصل فهي له وأنتم في خدمته، وإن تأخر فأنا أقرر أمور الشام وأتوجه إليكم. ثم قصد حلب ودخل قلعنها يوم الاثنين سابع ربيع الآخر، ورتب النواب في القلعة والمدينة.

وقال ابن أبي طي الحلبي: لما اتصل قتل أتابك بأسد الدين شيركره ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين وقال له: اعلم ان الوزير جمال الدين قد اخذ عسكر الموصل وعزم على تقديم أخيك سيف الدين وقصده إلى الموصل، وقد انضوى إليه جُل العسكر. وقد انفذ إلى جمال الدين وأرادني على اللحاق به فلم اعرج إليه وقد رأيت أن أصيرك إلى حلب وتجعلها كرسي مُلكك وتجتمع في خدمنك عساكر الشام؛ وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعُه إليك لأن ملك الشام بحلب، ومن ملك جلب استظهر على بلاد الشرق.

فركب وأمر أن لم ينادى في الليل في عساكر الشام بالاجتماع، فاجتمعوا وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب، ودخلوها سابع ربيع الأول. ولما دخلوا حلب جاء أسد الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها، وأصعد نور الدين إليها لي قرر أمره ومشى أحواله، فكان نور الدين يرى له ذلك وأسد الدين يمن بأنه كان السبب في توليته.

قال ابن الأثيرأ. لما قتل أتابك الشهيد ركب الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود، وكان مع الشهيد، واجتمعت العساكر عليه وخدموه. فأرسل جمال الدين الوزير إلى الصلاح يقول له: المصلحة أن نترك لم ما كان بيننا وراء ظهورنا، ونسلك طريقا يبقى به الملك في أولاد صاحبنا، ونعمر بيته جزاء لإحسانه إلينا؛ فإن الملك قد طمع في البلاد واجتمعت عليه العساكر؛ ولئن لم نتلاف هذا الأمر في أوله ونتداركه في بدايته لَيَتَّسِعَنَّ الخرق ولا يمكن رقعه. فأجابه الصلاح إلى ذلك وحلف كل واحد منهما لصاحبه. فركب الجمال إلى الملك فخدمه وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها، ومعه الصلاح، وقالا له: إن أتابك كان نائباً عنك في البلاد، وباسمك كنا نطيعه فقبل قولهما، وظنه حقاً، وقربهما، طمعاً أن يكونا عونا له على تحصيل غرضه. وأرسلا إلى زين الدين بالموصل يعرفانه قتل الشهيد ويأمرانه بالإرسال إلى سيف الدين غازي، وهو ولد عماد الدين زنكي الأكبر، وإحضاره إلى الموصل، وكان بشَهْرَزَوْر، وهي إقطاعُه من أبيه؛ ففعل زين الدين ذلك. وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قُتل والده إلى حلب فملكها، وذلك بإشارة أسد الدين شيركوه عليه. بذلك، وقال الجمال الملك: إن من الرأي أن يسير الصلاح إلى مملوك نور الدين بحلب يدبر أمره، وكانت حماة إقطاع الصلاح، فأمره فسار، وبقى الجمال وحده مع الملك فأخذه وقصد الرقة. فاشتغل بشرب الخمر والخلوة بالنساء، وأراد أن يعطي الأمراء شيئا فمنعه خوفا من أن تميل قلوبهم إليه، وقال: لهم الإقطاع الجزيل والنعم الوافرة. وشرع الجمال يستميل العسكر ويحلف الأمراء لسيف الدين بن أتابك الشهيد واحداً بعد واحد؛ وكل من حلف بأمره بالمسير إلى الموصل هاربا من الملك. وأقام بالملك في الرقة عدة أيام، ثم سار به إلى ماكسين تركه بها عدة أيام أيضاً، قد اشتغل بلذته عن طلب الملك ثم سار به نحو سنجار، وكان سيف الدين غازي قد دخل الموصل واستقر بها، فقوى حينئذ جنان جمال الدين، ووصل هو والملك إلى سنجار، فأرسل إلى دُزدارها وقال له: لا تسلم البلد ولا تمكن أحداً من دخوله، ولكن أرسل إلى الملك وقل له إنا تبع الموصل، فمتى دخلت الموصل سلمت إليك ففعل الدُّزدار ذلك. فقال الجمال للملك: المصلحة أننا نسير إلى الموصل، فإن مملوكا غازي، إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة، فحينئذ نقبض عليه ونتسلم البلاد. فساروا عن سنجار، وكثر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك؛ فبقى في قلة من العسكر، فساروا إلى مدينة بلد وعبر لملك دجلة من هناك. فلما عبرها دخل الجمال الموصل وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الدبيسي إلى الملك في عسكر، وهو في نفر يسير، فأخذه وأدخله الموصل، فكان آخر العهد به واستقر أمر سيف الدين، وأقر زين الدين على ما كان عليه من ولاية الموصل، وجعل الجمال وزيره. وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين فحلف له وأقره على البلاد، وأرسل له الخلع. وكان سيف الدين هذا قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيام أبيه سفراً وحضراً، وكان السلطان يحبه كثيراً ويأنس به ويبسطه. فلما

خوطب في اليمين وتقرير البلاد له لم يتوقف. قال ابن الأثير: فانظروا إلى جمال الدين وحُسْن عهده وكمال مروءته ورعايته لحقوق مخدومه!! وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس. ولقد قلل من قال الناس ألف منهم كواحد؛ وهو معذور لأنه لم ير مثل جمال الدين. قال: ولما استقر سيف الدين في الملك أطاعه جميع البلاد ما عدا ما كان بديار بكر كالمعدن وحيزان وإسْعَرد وغير ذلك، فإن المجاورين لها تغلبوا عليها.

قال: ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه وتقرير أمر البلاد عبر إلى الشام لينظر في تلك النواحي، ويمرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، وهو بحلب، وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وجافه؛ فلم يزل يراسله و يستميله، فكلما طلب نور الدين شيئاً أجابه إليه استمالة لقلبه. واستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج العسكر السيفي، ومع كل واحد خمسمائة فارس، فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمسمائة فارس، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس؛ فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه، فحين رآه عرفه؛ فترجل له وقبل الأرض بين يديه، وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا. وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا، فقال له سيف الدين: لم امتنعت من المجيء إلي، أكنت تخافني على نفسك؟ والله ما خطر في بيالي ما تكره، فلمن أريد البلاد، ومع من أعيش، وبمن أعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إلي!! فاطمأن نور الدين وسكن روعه، وعاد إلى حلب فتجهز وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده، وقال: لا غرض لي في مقامك عندي، وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه. فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه.،وعاد كل واحد منهم إلى بلده.

قلت: ومن قصيدة لابن منير في نور الدين:

أيا خير الملوك أبا وجدا	وأنقعهم حيا لغليل صاد
علوا وغلوا وقال الناس فيهم	شوارد من ثناء أو أحاد
وما اقتسموا ولا عمدوا بناهم	بمنصبك القسيمي العمادي
وهل حلب سوى نفس شعاع	تقسمها التمادي والتعادي
نفى ابن عماد دين الله عنها الش	كاة فأصبحت ذات العماد
تبختر في كسا عدل وبذل	مدبجة التهائم والنجاد

وفي محرابها داود منه يهذب حكمة آيات صاد

تجاوزت النجوم، فأين تبغي ترق، فلا خلوت من ازدياد

فصل فيما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والإفرنج المخذولين

قال ابن أبي طي: في سابع يوم من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب أنطاكية البيمند، فخرج ليومه في ساكر أنطاكية وقسم عسكره قسمين: قسما أنفذه إلى جهة حماة، وقسما أغار به على جهة حلب وعاث في بلادها، وكان الناس آمنين فقتل وسبى عالما عظيما، وتمادى حتى وصل إلى صلدى ونهبا. ووصل الخبر إلى حلب فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر وجد في السير، ففاته. الفرنج وأدرك جماعة من الرجالة يسوقون الأسرى فقتلهم واستنقذ كثيرا مما كانت الفرنج أخذته؛ وسار مجنبا عن طريق الفرنج إلى أن شن الغارة على بلد أرتاح، واستاق جميع ما كان للفرنج فيه، وعاد إلى حلب مظفراً.

وقال ابن الأثير: لما قتل الشهيد سار مج ر الدين صاحب دمشق في عسكر إلى بعلبك وحاصرها، وبها نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين، فسلمها إليه وأخذ منه مالا، وملكه قرايا من أعمال دمشق.؛ وانتقل أيوب إلى دمشق فأقام بها. وقال ابن أبي طي: اشتد صاحب دمشق في القتال، وصبر نجم الدين أيوب أحسن صبر. فاتفق أن الماء لما شاء الله من حصن بعلبك غار حتى لم لبق منه شيء، وأهل القلعة يستمدون من البلد. فلما ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة، فاشتد الأمر فطلبوا الأمان والمصالحة. فاستخلف صاحب دمشق نجم الدين، وأقر له الملك الذي كان أتابك قد جعله له فيها، وأقره فيها. ولما بلع ذلك نور الدين خاف أن يفسد عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول أخيه نجم الدين عند، ومال نور الدين إلى مجد الدين أبي بكر ابن الداية حتى ولاه جميع أموره وجميع مملكته، فشق ذلك على أسد الدين.

قال الرئيس أبو يعلى: لما اتصل خبر موت زنكي بمعين الدين أثر شرع في التأهب والاستعداد لقصد بعلبك وانتهاز الفرصة فيها بآلات الحرب والمنجنيقات. فترل عليها وضايقه، و لم يمض إلا أيام قلائل حتى قل الماء في قلة دعتهم إلى الترول على حكمه. وكان الوالي بهاذا حزم وعقل ومعرفة بالأمور؛ فاشترط ما قام له به من إقطاع وغيره، وسلم البلد والقلعة إليه، ووفى له بما قرر الأمر عليه، وتسلم ما فيه من غلة وآلةٍ في أيام من جمادى الأول من السنة. وأرسل معين الدين إلى الوالي بحمص، وتقررت بينه وبينه مهادنة

ومُوادعة يعودان بصلاح الأحوال وعمارة الأعمال. ووقعت المراسلة فيما بينه وبين صلاح الدين بحماة، وتقرر بينهما مثل ذلك. ثم انكفأ بعد ذلك إلى البلد عقيب فراغه من بعبك ترتيب من رتبه لحفظها والإقامة فيها قال: ووردت الأخبار في أيام من جمادى الآخرة من السنة بأن ابن جوسلين جمع الإفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها، على غفلة، بموافقة من النصارى. المقيمين فيها، فدخلها واستولى عليها، وقتل من فيها من المسلمين. فنهض نور الدين صاحب حلب في عسكره ومن انضاف إليه من التركمان وغيرهم في زهاء عشرة آلاف فارس، ووقعت الدواب في الطرقات من شدة السير، ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين، وأصحابه فيه، فيه عليهم ووقع السيف نجم. وقتل من أرمن الرها والنصارى من قتل، وانهزم إلى برج يقال له برج الماء، فحصل في ابن جوسلين في تقدير عشرين فارسا من وجوه أصحابه، وأحدق بهم المسلمون وشرعوا في النقب عليهم حتى تعرقب البرج، فانهزم ابن جوسلين في الخفية من أصحابه، وأخذ الباقون، ومحق بالسيف كل من ظفر به من نصارى الرها، واستخلص من كان فيه أسيراً من المسلمين، ونهب منها شيء كثير من المال والأثاث والسبى، وانكفأ المسلمون بالغنائم إلى حلب وسائر الأطراف.

قال ابن الأثير: لما قتل زنكي كان جوسلين الفرنجي الذي كان صاحب الرها في ولايته غرب الفرات في تل باشر وما جاورها، فراسل أهل الرها، وكان عامتهم من الأرمن، وواعدهم يوما يصل إليهم فيه، فأجابوه إلى ذلك، فسار في عساكره إليها وملكها وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين، فقاتلهم وجد في قتالهم. فبلغ الخبر نور الدين، وهو يومئذ بحلب، فسار إليها بعسكره؛ فهرب جوسلين ودخل نور الدين مدينة الرها ونهبها وسبى أهلها. وفي هذه الدفعة نهبت وخربت وخلط من أهلها، و لم يبق منهم بها إلا القليل. ووصل خبر الفرنج إلى سيف الدين غازي بالموصل فجهز العساكر إلى الرها، فوصلت العساكر وقد ملكها نور الدين، فبقيت بيده و لم يعارضه فيها أخوه سيف الدين. قال: ومن عجيب ما جرى أن نور الدين أرسل من غنائمها إلى الأمراء، وأرسل إلى زيد الدين عل جملة من الجواري، فحملن إلى داره ودخل لينظر إليهن، فخرج وقد اغتسل وهو يضحك، فسُئل عن ذلك فقال: لما فتحنا الرها مع الشهيد كان في جملة ما غنمت جارية مالت نفس إليها، فعزمت على أن أبيت معها، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر بإعادة السبي والغنائم، وكان مهيبا مخوفا، فلم أجسر على إتيانها وأطلقتها. فلما كان الآن أرسل إلى نور الدين سهمي من الغنيمة وفيه تلك الجارية، فوطئتها خوفا من العود.

قلت: وللقيسراني قصيدة مدح بها جمال الدين وزير الموصل ذكر فيها فتح الرها أولها:

أماً آن أن يَزْهق الباطل ... وأن ينجز العدة المْاطلُ

لى كم يغب ملوك الظلا ... ل سيف بأعناقها كافل
فلا تحفلن بصول الذئاب ... وقد زأر الأسد الباسل
وهل يمنع الدين إلا فتى ... يصول انتقاماً فيستاصل
أبا جعفر أشرقت دولة ... أضاء لها بدرك الكامل
فإما نصبت لرفع اسمها ... فإنكما الفعلُ والفاعل
ليهنك ما أفرج النصر عنه ... وما ناله الملك العادل
فقل للحقاق الطريق الطريق ... فقد دلف المقرم البازل
وجاهد في الله حق الجها ... د محتسب بالعلا قافل
هل يمنع السور من طالع ... يُشايِعُه القدر النازل
فإن يك فتح الرها لُجَّة ... فساحلها القدس والساحل

فهل علمت علم تلك الديا ... ر أن المقيم بها راحل
أرى القمص يأمل فوت الرماح ... ولا بد أن يضرب الشائل
يقوى معاقله جاهداً ... وهل عاقل بعدها عاقل
وكيف بضبط بواقي الجهات ... لمن فات حسبته الحاصل

ولا بن منير من قصيدة في نور الدين:

ملك ما أذل بالفتح أرضا ... قط إلا أعزها إغلاقه
الوهي في الرها أزجي إليها ... عارضاً شيب الدجى إبراقه
جارت جارة إليه فحلى ... عطلا من إعناقها إعناقه
تلك بكر الفتوح فالشام منها ... شامه والعراق بعد عراقه
أين كان الملوك عن وجهها الطل ... ق يُرينا إضاءة إطلاقه
سنة سنها أبوه بكلب الر ... وم لما أظله إرهاقه
خافقا قلبه إلى أمل عا ... جله دون نيله إخفاقه
قسمت راية المواضى القسيمي ... ات وبتز من لَهَاهْ عراقه

كذا أنت يا بْنَه ما عدا من خلقه فيك خصلة خَلاقه

وكفى البحر أنه ابن سحاب ما ونَى سَحُّه ولا إصْعَاقه

لم يمت من سددت ثلمته يا من على الذين كظه إشفاقه

رهبة لم تدع على الأرض قلبا خلف صدر ينشق عنه شقاقه

كلما طن ذكرها منه في السم ع يكمى في النافقاء نفاقه

وجهاد عن حوزة الدين لم يأ ل له ركضه ولا إنفاقه

وله فيه من قصيدة أخرى:

بنور الدين روض كل محل من الدنيا وجدد كل بال

أقام على ثنية كل خوف سهادا بات يكلا كل كال كل

وصوب عدله في كل أوب فعوض عاطلا منه بحال

ينكس رأيه رأى المحامي ويقتل خوفه قبل القتال

لقد أحصدت للإسلام عزا يفوت سنامه يد كل قال

وأصبحت العواصم ملحقات عصاما غير منتكث الحبال

فصل

وقفت على توقيع كتب في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين عن خليفة مصر يومئذ،وهو الملقب بالحافظ، وعليه علامته: الحمد لله رب العالمين: إلى القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسين بن احمد البيساني، البيساني وهو والد القاضي الفاضل، وكان يومئذ متولي القضاء والحكم بمدينة عسقلان، يقول، فيه: انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين أن قوما من أهل ثغر عسقلان، حماه الله، قد صاروا يؤدون توقيعات بقبول أقوالهم من غير تزكية من شهودها المعروفين بالتزكية لهم، مع كونهم غير مستوجبين الشهادة ولا مستحقين لسماع القول. فأنكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم، وخرج عالي أمره بألا يسمع قول شاهد، ولا من تقدم لخطابة ولا لصلاة بالناس، ولا لتلاوة في موضع شريف، إلا من زكاه أعيان شهود الثغر المحروس، وهم. فلان وفلان؛ وعد ثمانية أنفس: عبد الساتر بن عبد الرحمن، عبد العزيز بن مفضل، علي ابن قريش، أحمد بن حسن، أحمد بن علي، عبد الرحمن بن محسن، أسامة بن بد الصمد،، علي بن عبد الله. قلت: وهذا من أحسن ما يؤرخ عن إمام تلك الدولة المباينة للشريعة، على ما سيأتي إن شاء الله

تعالى.

وقال الرئيس أبو يعلى: وفي شوال من م سنة إحدى وأربعين ترددت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين أثر إلى أن استقرت الحال بينهما على أجمل صفة وأحسن قضية. وانعقدت الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما؛ بكتب كتاب العقد في دمشق بمحضر من رسل نزر الدين في الثالث والعشرين من شوال. وشرع في تحصيل الجهاز. وعند الفراغ منه توجهت الرسل عائدة إلى حلب، وفي صحبتهم ابنة معين الدين ومن في جملتها من خواص الأصحاب، في النصف من ذي القعدة.

قال: وتوجه معين الدين إلى ناحية صرخد وبصرى بالحيل والرجل وآلات الحرب، ونزل على صرخد وبها المعروف بالتونتاش غلام أمين الدولة كمشتكين الأتابكي الذي كان واليها أولا. قلت هو الذي تنسب إليه المدرسة الأمينية قبلي الجامع بدمشق.

قال: وكانت نفس ألتونتاش قد حدثته، لجهله، أنه يقاوم من يكون مستولياً على دمشق، وأن الإفرنج يعينونه على مراده. وكان قد خرج من حصن صرخد إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم وتقرير أحوال الفساد معهم؛ فحال معين الدين بينه وبين العود إلى أحد الحصنين. وراسل نور الدين في إنجاده على الكفرة فأجابه، وكان مبرزاً بظاهر حلب في عسكره، فثنى إليه الأعنة وأغذ المسير، فوصل إلى دمشق في السابع والعشرين من ذي الحجة، فأقام أيام يسيرة.

ودخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فتوجه نور الدين نحو صرخد، ولم يشاهد أحسن من عسكره، وهيئته وعدته ووفور. عدته. واجتمع العسكران، وأرسل من بصرخد إليها يلتمسون الأمان، والمهلة أياما وتسلم المكان؛ وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الإفرنج لترحيلهم. وقضى الله تعالى وصول من أخبر بتجمع الفرنج واحتشادهم، ونهوضهم في فارسهم وراجلهم، مجدين السير إلى ناحية بصرى، وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها. فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بصرى فسبقوا الفرنج إليها، فحارا بينهم و بينها ووقعت العين على العين فانهزم الكفار، وولوا الأدبار؛ وتسلم معين الدين بصرى، وعاد إلى صرخد فتسلمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلاها يوم الأحد السابع والعشرين من الحرم. وفي هذا الوقت. وصل ألتونتاش، الذي خرج من صرخد إلى الفزنج بجهله وسخافة عقله، إلى دمشق من بلاد الإفرنج من غير أمان، ولا تقرير واستئذان، توهما منه أنه يكرم ويُصطنع، بعد الإسامة القبيحة والارتداد عن الإسلام.

فاعتقل في الحال، وطالبه أخوه خطلخ بما جناه عليه من كل عينيه؛ وعقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القصاص. فسمل كما سمل أخاه، وأطلق إلى دار له بدمشق فأقام بها.

قلت: وقد ذكر ابن منير وقعة بصرى هذه وغيرها من الوقعات التي يأتي ذكرهاً في قصيدة قد تقدم بعضها. منها:

أي شأن أدركت يانور دين الل	مه أعيا على الملوك لحاقه
نطق الحاسدون بالعجز عن مل	ك محلى بالنيرات نطاقه
غض أبصارهم لحاق جواد	ليس إلا إلى المعالي سباقه
سل بصيراً: كم أعتقت يوم بصرى	من أسار الموت الزؤام عتاقه
كم عرام على العريمة شبت	ضاق منه على الصليب خناقه
ولكم هبوة بهاب وأختي	ها لها صكت الأسارى رباقه
بسط الذل فوق بسطة باسو	طا ولكن طواه عنه ارتفاقه

وفي هذه السنة ولد في ببعلبك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب؛ وقيل في سنة فتح زنكي الرها قال:

أبو يعلى: وفي ليلة الجمعة الثالث من ربيع الأول توفى الفقيه شيخ الإسلام أبو الفتح نصر الله بن محمد عبد القوى المصيصي بدمشق كان بقية الأئمة الفقهاء المفتنين على مذهب الإمام الشافعي، و لم يخلف بعده مثله. قال وفي جمادى الآخرة تقررت ولاية حصن ، صرخد للأمير مجاهد الدين بزان بن مامين على مبلغ من المال والغلة، وشروط وأيمان، دخل فيها وقام بها. واستبشر أهل تلك الناحية به، لما هو عليه من حب الخير والصلاح، والتدين والعفاف.

قال: وفي الحادي والعشرين من شوال، وهو مستهل نيسان، أظلم الجو ونزل غيث ساكن، ثم أظلمت الأرض في وقت العصر ظلاما شديداً بحيث كان ذلك كالغُدوة بين العشائين؛ وبقيت السماء في عين الناظرين إليها كصفرة الورس، وكذلك الجبال وأشجار الغوطة وكل ما ينظر إليه من حيوان ونبات وجماد. ثم جاء في أثر ذلك من الرعد القاصف، والبرق الخاطف، والهدات المزعجة، والرجفات المفزعة، ما ارتاع لها الشيب والشبان، فكيف الولدان والنسوان؛ وقلقت لذلك الخيول في مرابطها. و بق الأمر على هذه الحال إلى وقت العشاء الاخرة، ثم سكن بقدرة الله تعالى. وأصبح على الأرض والأشجار وسائر النبات غبار في رقة الهواء، بين البياض والغبرة.

قال ابن الأثير: وفى سنة أثنتين وأربعين فتح نور الدين ارتاح بالسيف، وحصن بارة، وبصرفوت، وكفر

لاثا. وكان الفرنج قد طمعوا وظنوا أنهم بعد قتل الشهيد يستردون ما أخذ منهم. فلما رأوا من نور الدين هذا الجد علموا أن ما أملوه بعيد.

فصل في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم الله عنها.

قال الرئيس أبو يعلى: وفي هذه السنة تواصلت الأخبار من ناحية القسطنطينية وبلاد الفرنج والروم وما والاها بظهور ملوك الإفرنج من بلادهم؛ منهم الألمان والفنش، وجماعة من كبارهم، في العدد الذي لا يحصر، لقصد بلاد الإسلام بعد أن نادوا في سائر بلادهم ومعاقلهم: النفير النفير إليها، والإسراع نحوها؛ وخلوا بلادهم وأعمالهم خالية شاغرة من حُملتها والحفظة لها. ثم استصحبوا من ذخائرهم وأموالهم وعددهم الشيء الكثير الذي لا يحصى، بحيث يقال إن عدتهم ألف ألف من الرجالة والفرسان، ويقال أكثر من ذلك وغلبوا على أعمال قسطنطينية، واحتاج ملكها إلى الدخول في مداراتهم ومسالمتهم، والنزول على أحكامهم. وحين شاع خبرهم واشتهر امرهم، شرعت ولاة الأعمال المصاقبة لهم، والأطراف الإسلامية القريبة منهم، في التأهب للمدافعة لهم، والاحتشاد على المجاهدة فيهم. وقصدوا منافذهم، ودروب معابرهم، لكي يمنعوهم من العبور والنفوذ إلى بلاد الإسلام، وواصلوا شن الغارات على أطرافهم؛ واستحر القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العدد الكثير، وحل بهم من عدم القوت والعُلوفات والمير وغلاء السعر، إذا وجدوه، ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض. و لم تزل أخبارهم تتواصل بهلا كهم وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة اثنتين وأربعين، بحيث سكنت النفوس بعض إلى سكون

ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

وتواترت الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا، واجتماعهم مع من بها من الفرنج. و يقال إنهم بعد ما فنى منهم بالقتل والمرض والجوع، وصل تقديرهم مائة ألف، وقصدوا البيت المقدس فقضوا حتى حجم وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر، وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك، وبق للألمان أكبر ملوكهم ومن هودونه واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الإسلامية، إلى أن استقرت الحال على منازلتهم دمشق. وبلغ ذلك معين الدين فاستعد لحربهم، فجاءوا في تقدير خمسين ألفا ودنوا من البلاد؛ ثم قصدوا في المنزله المعروفة بنزول العساكر فيها فصادفوا الماء مقطوعا؛ فقصدوا ناحية المزة فخيموا عليها لقربهم من الماء. وزحفوا إلى البلد بخيلهم ورجلهم، ووقف المسلمون بازائهم، في يوم السبت سادس ربيع الأول.

ونشبت الحرب بين الفريقين، واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والقتال وأحداث البلد والمطوعة والغزاة، الجم الغفير؛ واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد، وغلبوا على الماء، وانتشروا في البساتين وخيموا فيها، وقربوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديما وحديثا منه واستُشهد في هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفندلاوي المالكي، رحمه الله، قريب الربرة على الماء، لوقوفه في وجوههم، وترك الرجوع عنهم ؟ اتبع أوامر الله تعالى في كتابه الكريم وقال بعنا واشترى.
وكذلك عبد الرحمن الحلحول الزاهد، رحمه الله، جرى أمره هذا المجرى.
قلت: وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن ملك الألمان الفرنجي لما وصل إلى الشام اجتمع إليه كل من بالشام من الإفرنج، وقصد دمشق فخرج، عسكرها وأهلها لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي المالكي، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحول، رحمهما الله، وكانا من خيار المسلمين. فلما قاربوهم قال الفقيه عبد الرحمن: أما هؤلاء الروم. قال: بلى: قال فإلى متى نحن وقوف قال: سر على اسم الله. فتقدما فقاتلا حتى قتلا في مكان واحد، رحمهما الله تعالى.

ثم قال أبو يعلى: وشرعوا في قطع الأشجار والتحصن بها، وهدوا الفطائر؛ وباتوا تلك الليلة على هذه الحال، وقد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه، والروع بما عاينوه، ما ضعفت به القلوب وحرجت معها الصدور. و باكروا الظهور إلها غد ذلك اليوم، وهو الأحد تاليه، وزحفوا إليهم، ووقع الطراد.
بينهم؛ واستظهر المسلمون عليهم،. وأكثروا القتل والجراح فيهم؛ وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسناء، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره، بحيث كان لا يني في جهادهم، ولاينثني عن دمارهم. و لم تزل رحا الحرب دائرة بيهم، وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم، حتى تتهيأ الفرصة لهم، إلى أن مالت الشمس إلى الغروب، وأقبل الليل، وطلبت النفوس الراحة، وعاد كل منهم إلى مكانه. وبات الجند بإزائهم وأهل البلد على أسوارهم الحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم. وكانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، وجعلت خيل التركمان تتواصل، ورجالة الأطراف تتتابع؛ وباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم، وزال عنهم روعهم، وثبتوا بإزائهم؛ وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ، بحيث يقع في مخّيمهم في راجل أو فارس، أو فرس أو جمل. ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجاله كثير من الرُّماة، فزادت بهم العدة وتضاعفت العدة. وانفصل كل فريق إلى . مستقره في هذا اليوم، وباكروهم من غده يوم الثلاثاء وأحاطوا بهم في مخيمهم، وقد لم تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقاً بالنشاب، وحذفا بالأحجار؛ وقد أحجموا عن البروز وخافوا وفشلوا، و لم يظهر منهم أحد وظن أنهم يعملون مكيدة أو يدبرون حيلة

و لم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة، خوفا من المهاجمة، إلى أن يجدوا لحملتهم مجالا. وليس يدنو منهم أحد إلا صُرع برشقة أو طعنة وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث والضياع، وجعلوا يقصدونهم في المسالك وقد أمنوا، فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رُءوسهم لطلب الجوائز عليها. وحصل من رءوسهم العدد الكثير وتواترت إليهم أخبار العساكر الإسلامية بالمسارعة إلى جهادهم واستئصال شأفتهم، فأيقنوا بالهلاك والبوار، وحلول الدمار، وأعملوا الآراء بينهم. فلم يجدوا لنفوسهم خلاصا من الشبكة التي حصلوا بها غير الرحيل، فرحلوا سحر يوم الأربعاء التالي مفلولين. وحين عرف المسلمون ذلك برزوا إليهم في بكرة هذا اليوم، وسارعوا في آثارهم بالسهام، بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير. ووجدوا في آثار منازلهم. وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم مالا عدد له ولا حصر يلحقه؛ بحيث لها أراييح من جيفتهم تكاد تصرع في الجو. وكانوا قد أحرقوا الرّبوة والقبة الممدودية في تلك الليلة. واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها الله عليهم، وأكثروا من الشكر له تعالى على ما أولاهم من إجابة دعائهم الذي واصلوه في أيام هذه الشدة فلله الحمد على ذلك والشكر. واتفق عقيب هذه الرحمة اجتماع معين الدين مع نور الدين عند قرية من دمشق للإنجاد لها.

وقال ابن الأثير: خرج ملك الألمان، من بلاد الإفرنج في جيوش كبيرة عظيمة لا تحصى كثرة من الفرنج إلى بلاد الشام. فاتفق هو ومن بساحل الشام من الفرنج فاجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها، ولا يشك ملك الألمان إلا أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره. قال: وهذا النوع من الفرنج هو أكثرهم عدداً وأوسعهم بلاداً، وملكهم أكثر عَدَداً وعُدَدا، وإن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلا. فلما حاصروا دمشق، و بها صاحبها مجير الدين آبَق بن محمد بن بورى بن طغتكين، وليس له من الأمر شيء، و إنما كان الأمر إلى مملوك جده طغتكين، وهو معين الدين أنر، فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر،، وكان عاقلا دينا خيرا حسن السيرة؛ فجمع للعسكر وحفظ البلد؛ وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم. وكان فيمن خرج الشيخ الفقيه حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن دوناس المغربي الفندلاوي شيخ المالكية بدمشق؛ وكان شيخا كبيراً، زاهدا عابدا؛ خرج راجلا، فرأى معين الدين، فقصده وسلم عليه وقال له: يا شيخ أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوة على القتال. فقال: قد بعت واشترى، فلا نُقيله ولا نستقيله. يعنى قول الله تعالى "إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ..." الآية. وتقدم فقاتل الفرنج حتى قتل، رحمه الله، عند النيرب، شهيدا. وقوى أمر الفرنج وتقدموا فنزلوا بالميدان الأخضر، وضعف أهل البد

عن ردهم عنه. وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين يستغيث به ويستنجده، ويسأله القدوم عليه، ويعلمه شدة الأمر. فجمع سيف الدين عساكر. وسار مجدا إلى مدينة حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول لم: قد حضرت ومعي كل من يطيق حمل السلاح من بلادي، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي وأصحابي وكانت الهزيمة والعياذ بالله علينا، لا يسلم منا أحد لبعد بلادنا عنا، وحينئذ تملك الفرنج دمشق وغيرها. فإن أردتم أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلم البلد إلى من أثق إليه؛ وأنا أحلف لك، إن كانت النصر لنا على الفرنج، أنني لا آخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدو عنها، وأعود إلى بلادي فماطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج. فأرسل سيف الدين إلى الفرنج الغرباء يتهددهم ويعلمهم أنه على قصدهم إن لم يرحلوا. وأرسل معين الدين إليهم أيضاً يقول لهم قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر مالا طاقة لكم به، فإن أنتم رحلتم عنّا وإلا سلمت البلد إليه، وحينئذ لا تطمعوا في السلامة منه. وأرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم، ويقول لهم أنتم بين أمرين مذمومين: إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق لا يبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرون على منعه من البيت المقدس. و بذل لهم أن يسلم إليهم بانياًس أن رحلوا ملك الألمان عن دمشق. فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه، واجتمعوا بملك الألمان وخوفو بن سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع أمداده، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم مقام بالساحل فأجابهم إلى الرحيل عن دمشق. فرحل ورحل فرنج الساحل، وتسلموا حصن بانياس من معين الدين وبقى معهم حتى فتحه نور للدين محمود، رحمه الله، كما سنذكر.

قلت: وذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر رحمة الله في تاريخه أن الفقيه الفندلاوي رؤى في المنام، فقيل له انت؟ قال في جنات عدن على سُرُرٍ متقابلين. وقبره الآن يزار بمقارب الباب الصغير من ناحية الملى، وعليه بلاط كبير مقورة فيها شرح حاله. واما عبد الرحمن الحلحول فقبره في بستان في جهة شرقه، وهو البستان المحاذي لمسجد عبان المعروف الآن بمسجد طالوت. وكان مقامه في حياته في ذلك المكان، رحمة الله. وقرأت قصيدة في شعر أبي الحكم الأندلسي شرح فيها هذه القصة منها:

بشطى نهر داريا ... أمور ما تؤاتينا
وأقوام رأوا سفك الد ... ما في جلق دينا
أتانا مائتا ألف ... عديدا أو يزيدونا
فبعضهم من أندلس ... وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن ور ... ومن صيدا وتبنينا

وإذا أبصرتهم أبصر ت أقواماً مجانينا
ولكن حرقوا في عا جل الحال البساتينا
وجازوا المرج والتعدي ل أيضاً والميادينا
تخالهم وقد ركبوا فطائرها جراذينا
وبين خيامهم ضموا ال سخنازر والقرابينا
ورايات وصلبانا على مسجد خاتونا
وقلنا إذ رأيناهم لعل الله يكفينا
سَمَا لهم معين قد أعان الخلق والدنيا
وفتيانٍ تخالهمُ لدى الهيجا شياطينا
فوَّوْا يطلبون المرْ جَ من شرقي جِسْرِينا
ولكن غادروا إليا س تحت الترب مدفونا
وشيخا فند لاويا فقيها يعضُد الدينا
وفتيانا، تفانوا من دمشق نحو سبعينا
ومنهم مائتا علج وخيل نحو تسعينا
وبا قيهم إلى الآنَ من القتل يفرّونا

وللعرقلة حسان في مدح مجير الدين صاحب دمشق حينئذ قصيدة ذكر فيها هؤلاء الفرنج ،أولها:

عرّج على نجد لعلك منجدى بنسيمها، وبذكر سعدي مسعدى

يقول فيها:

من قاتل الأفرنج دنْيا غيرهُ والخيل مثلُ السّيل عند المشهد
رد الأمان بكل نَذْبٍ باسل ومن الجياد بكل نهد أجرد
ومن السيوف بكل عضب أبيض ومن العجاج بكل نقع أسود
حتى لوى الإسلام تحت لوائه وغدا بحمد من شريعة أحمد

وقرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني قصيدة في مدح تاج الملوك بورى جد مجير الدين، أنشده إياها عند كسرة الفرنج على دمشق في أواخر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة؛ وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن مجير الدين.

أول القصيدة:

الحق مبتهج، والسيف مبتسم		ومال أعدا مجيبر الدين مُقْتَسَمُ

يقول فيها:

قُدتَ الجياد، وحصنت البلاد، وأم		نت العباد، فأنت الحل والحرم
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها		معاقد الحزم في أوساطها الحُزُم
حتى إذا ما أحاط المشركون بنا		كالليل، يلتهم الدُّنيا له ظلم
وأقبلوا، لا من الإقبال، في عدد		يؤود حاسبه الإعياء والسأَم
أجريت بحرا من الماذي معتكرا		أمواجه بأواسى اليأس تلتطم
وسُست جندك والرحمن بكلؤه		سياسة ما يعفى إثرها ندم
وقفت في الجيش، والأعلام خافقة		بالنصر، كل قناة فوقها علم
يحوطك الله صونا عن عيونهم		والله يعصم من بالله يعتصم
حتى إذا بد الآراء ضاحكة		وأقبلت أوجه الإقبال تبتسم
أتبعت جن سراياهم مضمرة		فيها نجوم إذا جد الوغى رجموا
والنصر دان، وخيل الله مقبلة		ترجو الشهادة في الهيجا، وتغتنم
صاب الغمام عليهم والسّهام معا		فما دروا أيُّما الهطالة الدّيم
سروا لينهبوا الأعمار، فانتهبوا		قتلا، ويغتنموا الأقوال فاغُتنموا
وأقبلت خيُلنا تردى بخيلهم		مجنوبة، وعلى أرْماحنا القم
وأدْبر الملك الطاغي، يزعزعه		حر الأسنة، وهو البارد الشبم
وَافوا دمشق فظنوا أبها جدة		ففارقوها وفي أيديهم العدم
وأيقنوا مع ضياء الصبح أنهم		إن لم. يزولوا سراعا زالت الخيم
فغادروا أكثر القربان وانجفلوا		وخلفوا أكبر الصُّلبان وانهزموا
فغادروا المسجد الأدْنى فما عبرت		عن مسجد القدم الأقصى لهم قدم

مُستَسْلمين لأيدي المسلمين، وقد أعزى القنا بتمادي خطفهم نهم

لا يملك الجسْمُ دفعاً عن مقاتله كأنه حين يغشاهُ الردى صنم

فصل

قال ابن الأثير: لما رحل الفرنج عن. دمشق سار معين الدين أثر إلى بعلبك؛ وأرسل إلى نور الدين، وهو مع أخيه سيف الدين، يسأله أن يحضر عنده فاجتمعا. فوصل إليها كتاب القمص صاحب طرابلس يشير عليها بقصد حصن العُرَيْمة وأخذه ممن فيه من الفرنج. وكان سبب ذلك أن ولد الفنش صاحب جزيرة صقلية خرج مع ملك الألمان إلى الشام وتغلب على العُرَيم"ة وأخذها من القمص، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضاً. وجد هذا الذي ملك العُريمة هو الذي غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب. فلما استولى هذا على العريمة كاتب القومص نور الدين ومعين الدين في قصده، فسارا إليه مجدين، فصحباه؛ وكتبا إلى سيف الدين يستنجد انه ويطلبان منه، المدد فأمدهما فحصروا الحصن، و به ابن الفنس، ونقبوا السور؛ فأذعن الفرنج واستسلموا، وألقوا بأيديهم. فملك المسلمون الحصن وأخذوا كل من به من رجل وصبي وامرأة في وفيهم ابن الفنس.؛ وأخربوا الحصن وعادوا إلى سيف الدين. وافتتح نور الدين أيضا باسوطا وهاب.

وقال الرئيس أبو يعلى: قتل أكثر من كان فيه، يعنى في حصن العُريمة، واخذوا ولد الملك وأمه، وهب ما فيه من العدد والخيول والأثاث وعاد عسكر سيف الدين إلى مخيمه بحمص، ونور الدين عاد إلى حلب ومعه ولد الملك وأمه ومن اسر معهما، وانكفأ معين الدين إلى دمشق.

قال: ووردت الأخبار في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجه في عسكره إلى ناحية الأعمال الإفرنجية، وقصد أفامياأ، وظفر بعدة من الحصون والمعاقل الإفرنجية، وبعدة وافرة من الإفرنج؛ء وأن صاحب أنطاكية جمع الفرنج وقصده على حين غفلة منه، فَنَال من عسكره وأثقاله وكُراعه ما أوْجبته الأقدار للنازلة، وانهزم، بنفيه وعسكره، وعاد إلى حلب سالما في عسكر لم يفقد منه إلا النفر اليسير، بعد قتل جماعة وافرة من الإفرنج. وأقام بحلب أياما بحيث جدد ما ذهب له من اليزك وما يحتاج إليه من آلات العسكر، وعاد إلى منزله، وقيل لم يَعُد.

وذكر ابن أبي طي أن أسد الدين لما كان في نفسه على نور الدين من تقديم ابن الداية عليه لم ينصح يومئذ، وهي وقعة يغرا؛ ومر به نور الدين فقال له: ما هذا الوقوف والغفلة في مثل هذا الوقت والمسلمون قد أنكسروا؟ فقال: "ياخوند إيش ننفع نحن؟ إنما ينفع مجد الدين أبو بكر، فهو صاحب الأمر". فاستدرك

نور الدين بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعرف لأسد الدين حقه، وأصلح بينهما.

قال: وقتل في هذه الكسرة شاهنشاه بن أيوب، أخو الملك الناصر، وقيل في كسرة البقيعة. قلت وهو والد عز الدين فرخشاه، وتقى الدين عمر، والست عذرا المنسوب إليها العذاروية داخل باب النصر بدمشق. وقبره الآن بالتربة النجمية جوار المدرسة الحسامية بمقبرة العونية ظاهر دمشق، رحمهم الله تعالى.

قلت: ولابن منير من قصيدة تقدمت اعتذارا عما جرى في هذه الغزاة قال:

لم يشنه من ماء يغراء أن فر ... الأشابات ذاد عنها انذلاقه

كان فيها ليث العرين، حمى الأشْ ... بال منه غضبان، كالنار ماقه

وشبيه النبي يوم حُنيْن ... إذ تلافى أدواءهم درْيَاقه

وهي الحرب، فحلها يحسن الكر ... ة إن عض بأسها، لا نياقه

فصل

وقال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وأربعين أيضاً سار نور الدين إلى بصرى، وقد اجتمع بها الفرج في قضهم وقضيضهم وقد عزموا على قصد بلاد الإسلام. فالتقى بهم هنالك واقتتلوا أشد قتال، ثم أنزل الله نصره على المسلمين وانهزم الفرنج، وكانوا بين قتيل وأسير. وفي هذه الوقعة يقول القيسراني من قصيدة أولها:

يا ليت أن الصدود مصدود ... أولا، فليت النوم مردود

إلى متى تعرض عن مغرم ... في خده للدمع أخدود

قالوا عيون البيض بيض الظبا ... قلت ولكن هذه سود.

يخاف منها وهي في جفنها ... والسيف يُخشى وهو مغمود

ثم خرج إلى المدح فقال:

وكيف لانثنى على عيشنا ال ... محمود والسلطان محمود

فليشكر الناس ظلال المنى ... إن رواق العدل ممدود

ونيرات الملك وهاجة ... وطالع الدولة مسعود

صارم الإسلام لا ينثني ... إلا وشلْوُ الكفر مقدود

مناقب لم تك موجودة ... إلا ونور الدين موجود

مظفر ،في درعه ضيغم | عليه تاج الملك معقود
نال المعالي حاكما مالكا | فهو سليمان وداود
ترتشف الأفواه أسيافه | أن رُضاب العز مورود
وكم له من وقعةٍ يومها | عند ملوك الشرك مشهود
والقوم: إما مُرهق صرعة | أو موثق بالقد مشدود
حتى إذا عادوا إلى مثلها | قالت لهم هيبته عودوا
طالبْ بثأر ضَمِنِتْه الظبا | فكل ما يضن مردود
والكنر والفر سجال الوغى | فطارد طوراً ومطرود
وإنما الإفرنج من بغيها | عادوا وقد عادلها هود
قد حصحص الحق، فما جاحد | في قلبه بأسك مجحود
فكل مصر بك متفتح | وكل ثغر بك مسدود

وقال أيضاً قصيدة في نور الدين، وأنشده إياها بظاهر حلب، وقد كسر الإفرنج على يغرا وهزمهم إلى حصن حارم، وقد كانت الفرنج هزمت. المسلمين أولاً بهذا الموضع، أولها:

تفي بضمانها البيض الحداد | وتقضى دينها السُّمر الصعاد
وتدرك ثارها من كل باغ | فوارس من عزائمها الجلاد
ويغشى حومة الهيجا همام | يُشَدُّ بضبعه السبع الشداد
أظنوا أن نار الحرب تخبو | ونور الدين في يده الزناد
وجند كالصقور على صقور | إذا انقضوا على الأبطال صادوا
إذا أخفوا مكيدتهم أخافوا | وإن أبدوا عداوتهم أبادوا
ونصرة دولة حاميت عنها | وهل يخشى وأنت لها عماد
وإن تَتْلُ القوافي ما تلته | بإنِّب ما يؤنبها سناد
جرت بالنصر أقلام العوالي | وليس سوى النّجِيع لها مداد
وطلّت أرؤس الأعلاج خصبا | فنادى السيف قد وقع الحصاد
أحطت بهم فكان القتل صبراً | ولا طعن هناك ولا طراد

ولللإبرنز فوق الرمح رأس تَوَسّدُ، والسِّنان له وساد

ترجل للسلام ف ففر سوه وليس سوى القناة له جواد

غضيض المقلتين ولا نعاس وغائرها وليس به مهاد

فَسِرْ واستوعب الدنيا فتوحا فلا هضب هناك ولا وهاد

وزز ببني الوغى مثوى حبيب فما عن باب مسلمه ذياد

ولا في باب فارس غير ثكلى بفارسها يضيء بها الحداد.

لأنطاكية يحمي ذراها=وقد دانت لسطوتك البلاد

وأذعنت الممالك واستجابت ملبية لدعوتك العباد

قلت: ووقعة إنب هذه كانت عظيمة، وقد أكثر كذلك الشعراء لها؛ وسيأتي ذكرها قريبا إن شاء الله تعالى.

فصل

قال أبو يعلى التيمي: وفي رجب من هذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بأن صاحبها نور الدين بن أتابك أمر بابطال "حي على خير العمل" في أواخر تأذين الغداة والتظاهر بسب الصحابة، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً، وساعده على ذلك جماعة من أهل السنة بحلب. وعظم هذا الأمر على الإسماعيلية وأهل التشيع وضاقت له صدروهم، وهاجوا وماجوا، ثم سكنوا وأحجموا، للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة.

قلت وأنشده ابن منير في شهر رمضان:

فداك من صام ومن أفطرا ومن سعى سعيك أو قصرا

وما الورى أهلا فتفدى بهم وهل يوازي عرض جوهرا

عدل تساوى تحت أكنافه مطافل العين فاسد الشرى

يا نور دين الل ه:كم حادثٍ دجا وأسفرت له فانشرى

وكم حمى للشرك لا يهتدي ال وهم له غادرته مجزرا

يا ملك العصر الذي صدره أفسح من أقطارها مصدرا

وابن الذي طاول أفلاكها فلم يجد من فوقه مظهرا

مناقب تكسر كسرى كما تقصر عن إدراكها قيصرا
ما عام في أوصافها شاعر إلا رأى أوصافها أشعرا
لله أصل أنت فرع له ما أطيب المجنى وما أطهرا
ما حلب البيضاء مذ صنتها إلا حرام مثل أم القرى
شيدت في سور أرجائها لكل باغي عُمرة مشعرا
فأصبح الشادى إذا ثوب الد اعي له هلل أو كبرا
لا عدم للإسلام مَنْ كَفُّه كهفٌ لمن أرهق أو أُحْصرا
كأنما ساحُته جنة أجرت بها راحته كوثرا
تصرم الشهر الذي كنت في أوقاته من قدره أشهرا
جهاد ليل في نهار، فَفُزْ إذ كنت فيه الأصْبرَ الأشكرا
أصدق ما يرشفه سامع ما هز من أو صافك المنبرا
أبقاك للدنيا وللدين من خلاك في ليلهما نيرا
حتى نرى عيسى من القدس قد لجا إلى سيفك مستنصرا

قال أبو يعلى: وفي رجب أذن لمن يتعاطى الوعظ بالتكلم في الجامع المعمور بدمشق على جارى العادة والرّسم، فبدا من اختلافهم في أحوالهم وأغراضهم، والخوض في قضايا لا حاجة إليها من المذاهب ما أوجب صرفهم عن هذه الحال وإبطال الوعظ، لما يتوجه معه من الفساد، وطمع سفهاء الأوغاد؛ وذلك في آخر شعبان منها.

قال: وكثر فساد الفرنج المقيمين بصور وعكا والثغور الساحلية في الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق؛ فأغار. معين الدين على أعمالهم، وخيم في ناحية من حَوْرَان بالعسكر، وكاتب العرب، واستدعى جماعة وافرة من التركمان، وأطلق أيديهم في نهبهم والفتك بهم. فلم يزل على النكاية فيهم والمضايقة لهم إلى أن ألجأهم إلى طلب المصالحة.

ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فجددت المهادنة في المحرم مدة سنتين. وأنفذ نور الدين إلى معين الدين يعلمه أن صاحب أنطاكية قد جمع إفرنج بلاده وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبية، وأنه قد برز في عسكره إلى ظاهر حلب للقائه، والحاجة ماسة إلى معاضدته، فندب معين الدين مجاهد الدين بزان بن مامين في فريق وافر من العسكر الدمشقي للمصير إلى جهته، وبذل المجهود في طاعته ومناصحته؛ وبقى معين الدين في باقي العسكر بناحية حَوْرَان.

قال: وفي صفر من السنة وردت البشائر من جهة نور الدين بما أولاه الله تعالى، وله الحمد، على حشد الإفرنج المخذول، ولم يُفلت منهم إلا من خبر ببوارهم وتعجيل دمارهم. وذلك أن نور الدين اجتمع له بن سائر العساكر سنة آلاف فارس مقاتلة سوى الأتباع والسواد، فنهض بهم إلى الفرج في الموضع المعروف بإنب، وم في نحو أربعمائة فارس وألف راجل، فقتلوهم وغنموهم؛ ووجد اللعين البرنس مقدمهم صريعا بان حُماته وأبطاله، فعرف وقطع رأسه وحمل إلى نور الدين. وكان هذا للعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس، وقوة الحيل وعظم الخلعة، مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة، والتناهي في الشر؛ وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر. ثم نزل نور الدين في العسكر على باب أنطاكية، وقد خلت من حُماها، والذابين عنها، ولم يبق فيها غير أهلها مع كثرة أعدادهم وحصانة بلدهم. وترددت المرسلات بينه وبينهم في طلب لتسليم إليه وإيمانهم وصيانة أموالهم، فوتع الاحتجاج منهم بأن هذا أمر لا يمكنهم الدخول فيه إلا بعد انقطاع آمالهم من الناصر لهم، والمعين على من يقصدهم. وحملوا ما أمكنهم من التحف والمال، ثم استمهلوا فأمهلوا. ثم رتب نور الدين بعض العسكر للإقامة عليها والمنع لمن يصل إليها، ونهض في باقية العسكر إلى ناحية أفامية، وقد كان رتب الأمير صلاح الدين في فريق وافر من العسكر لمنازلتها ومضايقتها، فالتمسوا الأمان. فأومنوا على أنفسهم، وسلموا البلد في ثامن عشر ربيع الأول، وانكفأ نور الدين في عسكره إلى ناحية أنطاكية، وقد انتهى الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لإنجاد من بها. فاقتضت الحال مهادنة من في أنطاكية وموادعتهم، وتقرير أن يكون ما قرب من الأعمال الحلبية له، وما قرب من أنطاكية لهم. ورحل عنهم إلى جهة غيرهم، بحيث كان قد ملك في هذه التوبة مما حول أنطاكية من الحصون والقلاع والمعاقل وغيرها المغانم الجّمة.

وفصل عنه الأمير مجاهد الدين بزان في العسكر الدمشقي، وقد كان له في هذه الوقعة ولمن في جملته البلاء المشهور والذكر المشكور، لما هو موصوف به من الشهامة والبسالة، وإصابة الرأى، والمعرفة بمواقف الحروب.

وقال ابن أبي طي: حمل أسد الدين على حامل صليب الفرنج فقتله، وقُتل البرنس صاحب أنطاكية وجماعة من وجوه عسكره، و لم يقتل من المسلمين من يقوم به، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى. وكان لأسد الدين في هذه الحرب اليد البيضاء ومدحه بها بعض الشعراء الحلبين بقصيدة يقول فيها.

إن كان آل فرنج أدركوا فلجا ... في يوم يغرا، ونالوا منية الظفر

ففي الخطيم خطمت الكفر منصلتا ... أبا المظفر بالصمصامة الذكر

نالوا بيغرا نهابا، وانْتَهبْت لنا ... على الخطيم نفوس المعشر الأشر

واستقودوا الخيل عرياً واستَقَدْتَ لنا ... قوامص الكفر في ذل وفى صغر

قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاح كثير، وعدة أسارى وخيول كثيرة، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئا. وفي هذه السنة عظم أمر أسد الدين.

وقال ابن الأثير: سار نور الدين إلى حصن حارم، وهو للفرنج، فحصره وخرب ربضه، ونهب سواده؛ ثم رحل عنه إلى حصن إنب فحصره. فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه لِيُرَحِّلُوه عن إنب فلم يرحل، بل لقيهم وتصاف الفريقان، واقتتلوا، وصبروا. وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس. وانجلت الحرب عن هزيمة الفرنج؛ وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً؛ وفيمن قتل البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتياً من عتاة الفرنج، وذوى التقدم فيهم والمال. ولما قتل البرنس خلف ابنا صغيرا، وهو بيمند، فبقى مع أمه بأنطاكية؛ فتزوجت أمه ببرنس آخر وأقام معها بأنطاكية يدبر الجيش و يقودهم و يقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند. ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى وهزمهم وقتل فيهم وأسر، وكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أم بيمند. فلما أسره تملك بيمند أنطاكية بلد أبيه وتمكن منه، وبقى بها إلى أن أسره نور الدين بحارم، سنة تسع وخمسين وخمسمائة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح وقتل البرنس، وممن قال فيه القيسراني الشاعر من قصيدة أنشده إياها بجسر الحديد، الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية، أولها:

هذى العزائم، لا ما تدعى القضب ... وذى المكارم، لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاّتي متى خَطبت ... تعثرت خلفها الأشعار والخطب

صافحت يابْن عماد الدين ذروتها ... براحة، للمساعي دونها تعب

ما زال جدك يبق كل شاهقة ... حتى ابتنى قبة أوتادها الشهب

لله عزمك ما أمضى، وهمك ما أقضى اتساعا بما ضاقت به الحقِب

ياساهد الطرف والأجفان هاجعة وثابت القلب والأحشاءَ تضطرب

أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة فؤاد رومية الكبرى لها يجب

ضربت كبشهم منها بقاصمة أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب

قل للطغاة وإن صمت مسامعها قولاً لصُم القنا في ذكره أرب

ما يوم إنّب، والأيام دائلة من يوم يغرا بعيدٌ، لاَ ولاَ كثب

أغركم خدعة الآمال ظنكم كم اسلم الجهل ظنا غرّهُ السكذب

غضبت للدين حتى لم يفتك رضى وكان دين الهدى مرضاته الغضب

طّهرت أرض الأعادي من دمائهم طهارة كل سيف عندها جنب

حتى استطار شرار الزند قادحُه فالحرب تضرم والآجال تحتطب

والخيل من تحت قتلاها تقر لها قوائم خانهن الركض والخبب

والنقع فوق صقال البيض منعقد كما استقل دخان تحته لهب

والسيف هام على هامٍ بمعركة لا البيض ذو ذمّةٍ فيها ولا اليَلَب

والنبل كالوبل هطال، وليس له سوى القسي وأيدٍ فوقها سحب

وللظبا ظفر حلوٌ مذاقته كأنما الضرب فيما بينهم ضَرَب

وللأسنة عما في صدورهم مصادر، أقلوب تلك أم قُلُب

خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم فاستسلموا وهي لا نبع ولا غرب

كذلك من لم يوق الله مهجته لاقى العدا والقنا في كفه قصب

كانت سيوفهم أوحى حتوفهم يا رب حاتثة منجاتها العطب

حتى الطواراق كانت من طوارقهم ثارت عليهم بها من تحتها النوب

أجسادهم في ثياب من دمائهم مسلوبة، وكأن القوم ما سُلبوا

أنباء ملحمةٍ لو أنها ذكرت فيما مضى نسيت أيامها العرب

من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا من الملوك فنور الدين محتسب

ذو غرة، ما سمت والليل معتكر إلا تَمَزَّقَ عن شمس الضحى الحجب

أفعاله كاسمه في كل حادثة ووجهه نائب عن وصفه اللّقب

في كل يوم لفكرى من وقائعه شغل، فكل مديحى في مقتضب

من باتت الأسد أسرى في سلاسله هل يأسر الغُلْبَ إلاَّ من له الغَلَب

فملكوا سلب الإبرنز قاتله وهل له غير أنطاكية سلب

من للشقي بما لاقت فوارسه وإن بسائرها من تحته قتب

عجبت للصَّعْدة السمراء مثمرة برأسه إن أثمار القنا عجب

سما عليها سو الماء أرهقهُ أنبوبُهُ في صَعُود أصلها صَبَب

ما فارقت عذبات التاج مفرقه إلاّ وهامتهُ تاج ولا عذب

إذا القناة ابتغت في رأسه نفقا بدا لثعلبها من نحره سَرَب

كنا نَعُد حمى أطرافنا ظفراً فملكتك الظبا ماليس نحتسب

عمت فتوحك بالعدوى معاقلها كان تسليم هذا عند ذا جرب

لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق كما التوَى بعد رأس الحية الذنب

فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب يوليك أقصى المنى، فالقدس مرتقب

وائذن لموجك في تطهير سلحه فإنما أنت بحر لُجُّه لجب

يامَن أعاد ثغور الشام ضاحكة من الظبا عن ثغور زانها الشنب

ما زلت تلحق عاصيها بطائعها. حتى أقمت وأنطاكية حلب

حلت من عقلها أيدي معاقلها فاستحلفت وإلى ميثاقك الهرب

وأيقنت أنها تتلو مراكزها وكيف يثبت بيت ماله طُنُب

أجريت من ثغر الأعناق أنفسها جرى الجفون امتراها بارح حصب

وما ركزت القنا إلا ومنك على جسر الحديد هزبرٌ غيله أشب

فاسعد بما نلته من كل صالحة يأوى إلى جنة المأوى لها حسب

إلا تكن أحد الأبدال في فلك الت قوى فلا نمارى أنك القطب

فلو تناسب أفلاك السماء بها لكن بينكما من عفة نسب

هذا، وهل كان في الإسلام مكرمة | إلا شهدت وعبّادُ الهوى غُيُب

وله فيه من قصيدة أخرى:

ألا لله درك، أي در | صريح جاء بالكرم الصريح
وعسكرك الذي استولى مسيحا | على ما بين فامية، وسيح
ووقعتك التي بنت العوالي | صوادر عن قتيل أو جريح
بإنب يوم أبرزت المذاكى | من النقع الغزالة في مسوح
غداة كأنما العاصى احمرارا | من الدم عبرة الجفن الفريح
وقد وافاك بالإبرنزا حتف | أتيح له من القدر المتيح
قتلت أشحهم بالنفس، إذلا | يجود بفسه غير الشحيح
ملأت بهم ضرائحهم، فأمسوا | وليس سوى القشاعم من ضريح
وعدت إلى ذرا حلب حميدا | سمو البدر من بعد الجنوح
فإن حَلِيَتْ بغرتك الليالي | فكم لِسَنَاك من زمن مليح
رويدك تسكن الهيجا فواقا | بحيث تريح من تعب المريح
فأنت وإن أرحت الخيل وقتا | فهمُّك غيرُهَمّ المسترتح

وقال أحمد بن منير يمدحه ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه وحمل رأسه إلى حلب، وأنشده إياها أيضا بجسر الحديد:

أقوى الضلّالُ وأقفرت عرصاته | وعلا الهدى وتبلجت قسماته
وانتاش دين محمد محموده | من بعد ما عُلت دما عبراته.
ردت على الإسلام عصر شبابه | وثباته من دونه وثباته
أرسى قواعده، ومدعماده | صُعُداً، وشيد سوره سوراته
وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا | إصْلاَته، وصِلاَتُه، وصَلاَتُه.
لما تواكل حزبه، وتخاذلت | أنصاره، وتقاصرت خطواته
رفعت لنور الدين نار عزيمة | رجعت لها عن طبعها ظلماته
ملك مجالس لهوه شداته | ومُشوقُهُ بين الصفوف شذاته

يغرى بحثحثة اليراع بنانه إن لذ حثحثة الكئوس لداته
ويروقُه ثغر العداء فاني دما لا الثغر يعبق في لما لثاته
فصبوحه خمر الطلى، وغبوقه نطف النفوس تديرها نشواته
فتح تعمّعت السماء بفخره وهفت على أغصانها عذباته
سبغت على الإسلام بيض حجوله واختال في أوضاحها جبهاته
وانهل فوق الأبطحين غمامُهُ وسرت إلى سكينها نفحاته
لله لمجة ليلة محصت به واليوم دبج وشيه ساعاته
حط القوامص فيه بعد قماصها ضرب يصلصل في الطلي صعقاته
نبذوا السلاح لضيغم، عاداته فرس الفوارس، والقنا غاباته
لمجرب عمريه غضباته لله، معتصمية غزواته
نحيا لضيق صفاده اسراؤه وتغيض ماء شؤونها نقماته
بين الجبال خواضعا أعناقها كالذود نابت عن براه حداته

نشرت على حلب عقود بنودهم حلل الربيع تناسقت زهراته
روض جناه لها مكر جياده واستوأرت حمّالهُ حملاته
متساندين على الرحال، كما انتشى شرْب أمالت هامه قهواته
لم تُنبت الآجام قبل رماحه شجراً أصولُ فروعه ثمراته
فليحمد الإسلام ماجدحت له شربات غرس هذه مجناته
وسقى صدى ذاك الحياصوب الحيا خير الثرى ما كنت أنت نباته
نصب السرير ومال عنه، ومهدت لمقر منصبك السري سرايته
ما ضر هذا البدر وهو محلق أن الكواكب في الذرا ضراته
في كل يوم تستطيل قناته فوق السماء، وتعتلى درجاته
وتظل ترقم في الضحى آثاره مجدا وألسنة الزمان رواته
أين الأولى ملأوا الطروس زخارفا عن نزف بحر هذه قطراته

غدقوا بأعناق العواطل ماله		من جوهر فأتتهم في ذاته
لو فصلوا سمطا ببعض فتوحه		سخرت بما افتعلوا لهم فعلاته
يُمسى قنانيه بنات قيونه		فوق القوانس والقنا قيناته
صلتان من دون الملوك تقرها		حركاته وتنيمها يقظاته
قعدت بهم عن خطوه هماتهم		وسمت به عن قطوهم هماته
سكنوا مسجّفة الحجال، وأسكنت		زحل الرحال مع السها عزماته
لو لاح للطائي غرة فتحه		بآءت بحمل تأوه باءاته
أوهب للطبري طيب نسيمه		لا حتش من تاريخه حشواته
صدم الصليب على صلابة عوده		فتفرقت أيدي سباخَشَباتُه
وسقى البرنس، وقد تبرنس ذلة		بالروح ممقرما جنت غدراته
فانقاد في خطم المنية أنفه		يوم الخطيم، وأقصرت نزواته
ومضى يؤنب تحت إنب همة		أمست زوافرغيها زفراته
أسد تبوا كالغرنف فجأته		فتبوأت طرف السنان شواته
دون النجوم مغمضا، ولطالما		أغضت وقد كرّت لها لحظاته
فجلوته تبكي الأصادق تحته		بدم إذا طحكت له شُمّاته
تمشي القناة برأسه، وهو الذى		نظمت مدار النيرين قناته
لوعانق العيوق يوم رفعته		لأراك شاهد خفضه إخباته
ما انقاد قبلك أنفه بخزامه		كلا، ولا همت لها هدراته
طّيان خف السرح طال زئيره		نطقت سُطاك له فطال صُماته
لما بدا مسود رايك، فوقه		مبيض نصرك، نكست راياته
ورأى سيوفك كالصوالج طاوحت		مثل الكرين تقلصت كراته
ولى وقد شربت ظباك كماته		تحت العجاج وأسلمته حماته
ترك الكنائس والكناس لناهب		بالبيض ينهب ماحواه عفاته
غلاب، أروع، لا يُميت عدِاَته		داء المطال، ولا تعيش عُداتُه

للوحش ملقى بالعرا يقتاته | ما كان قبل بصيده يقتاته
اليوم ملّكك القراع قلاعه | متسنّما ما استشرفت شرفاته
وغدا تحل لك الحلائل أسهم | متوزغات بينهن بناته
أوطأت أطراف السّنابك هامه | فتقاذفت بعيقها قذفاته
لازال هذا الملك يشمخ شأنه | أبدا، ويكفت في الحضيض شناته
ما أخطأتك يد الزمان فدونه | من شاء فلتسرع إليه هناته
أنت الذي تحلى الحياة حياتُه | وتهب أرواح القصيد هباته

فصل

قال ابن الأثير: وفيها سار نور الدين إلى حصن أفامية. وهو للفرنج أيضاً، وبينه وبين حماة مرحلة؛ وهو حصن منيع على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها. وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة وشيرر وينهبونها، فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار. فسار نور الدين إليه وحصره وضيق عليه، ومنع من به القرار ليلا ونهارا، وتابع عليهم القتال لينعوا الاستراحة. فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها وساروا نحوه ليزحزحوه عنها، فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر، من طعام ومال، وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه. فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم؛ فحين رأوا جده في لقائهم رجعوا واجتعوا ببلادهم، وكان قصاراهم أن صالحو. على ما أخذ ومدحه الشعراء وأكثروا؛ منهم أبو الحسين أحمد بن منير. قال:

أسنى ما الممالك ما أطلت منارها | وجعلت مرهفة الشفاردسارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها | رَؤُفٌ تكنّف عدلُه أقطارها
من عام سام الخافقين وحامها | مننا، وزاد هوًى فخصّ نزارها
مضرية طبعت مضاربه، وإن | عدته ذروة فارس أسوارها
آل الرعية وهي تجهل آلها | وتعاف نطفتها وتكره دارها
فأقرّ ضجعتها وأنبت نيها | وأساغ جزْعتها وأثبت زارها
ملك أبوه سما لها، فسما، بها | وأجارها، فعلت سُهيلا جارها

نهج السبيل له فأوضع خلفه ... وشدا له يمن العلا فأنارها

أنشرْت يامحمود ملة أحمد ... من بعد ما شمل البلى أبشارها

إن جانأت عدل السنان قوامها ... أو نأنأت كان الحسام جبارها

عقلت مع العصم العواصم مذغدت ... هذي العزائم أسرها وإسارها

وتكفلت لك ضُمر أنضيتها ... في صونها أن تسترد ضمارها

كلأت هواملها ورد مطارها ... ما أريشته، وثقفت آطارها

كم حاولت من كفتيها غرة ... غلب الأسود فقلمت اظفارها

أني، وحامى سرحها من لم سمت ... للفلك بَسْطته أحال مدارها

في كل يوم من فتوحك سورة ... للدّين يحمل سفره أسفارها

ومطيلة قصر المنابر إن غدا ال ... خطباء تنثر فوقها تقصارها

هم تحجّلت الملوك وراءها ... بدم العثار، وما اقتفت آثارها

وعزائم تستوئر الآساد عن ... نهش الفراش إن أحس أوارها

أبدا تقر طول مشرفة الذرا ... بالمشرفية، أو تطيل قصارها

فغرت أفاميةٌ فما فهتمته ... كبوار أجناها الأران بوارها

أرهقت رائك فوق رائك تحتها ... فحططت من شعفاتها أعَفارها

أدركت ثأرك في البغاة، وكنت يا ... مختار أمة احمد مختارها

عارية الزمن المغير، سمالها ... منك المعير فاسترد معارها

زأر الهزبر فقيدت عاناتها ... عصر الضلال وأسلمت أعيارها

ضاءت نجومك فوقها، ولربما ... باتت تنافثها النجوم سرارها

أمست مع الشعرى العبور وأصبحت ... شعراء تستقلى الفحول شوارها

ولكم قرعت بمقرباتك مثلها ... تلعا، وقلدت الكماة عذارها

حتى إذا اشتملتك أشرق سورها ... عزا، وحلاها سناك سوارها

خر الصليب وقد علت نغماتها ... واستوبلت صلواته تكرارها

لما وعاها سمع أنطاكية ... سرت الوقار وكشفت استارها

فاليوم اضحت تستذم مجيرها	من جوره، وغدت تذم جوارها
علمت بأن ستذوق جرعة أختها	إن زز أطواق القباء وزارها
ماض، إذا قرع الركاب لبلدة	ألقت له قبل القراع إزارها
وإذا مَجَانقه ركعن لصعبة ال	ملقاة أسجد كالجدير جدارها

ملأ البلاد مواهبا ومهابة	حتى استرقت آيُهُ أحرارها
يذكى العيون إذا أقام لعونها	أبداً، ويفضى بالظّبا أبكارها
أوما إلى رمم الندى فأعاشها	وهى لسابقة المنى فأزارها
نبوىّ تشبيه الفتوح، كانما	أنصاره رجعت له أنصارها
أحبا لصرح سلامها سلمانها	وأمات تحت عمارها عمارها
إن سار سار وقد قدم جيشه	رجفٌ يقصع في اللها دعارها
أوحل حل حبا القروم بهيبة	سَلَب البدور بدارها أبدارها
وإذا الملوك تنافسوا درج العلا	أربى بنفس أفرعته خيارها
ونُهّى إذاهيضت تدل بخيرها	وسُطى تُذل إذا عنت جبارها
تهدى لمحمود السجايا كاسكه	لو لز فاعلة بها لأبارها
الفاعل الفعلات ينظم في الدجى	بين النجوم حسودها أسمارها
ساع سعى والسابقات وراءه	عنقا، فعصفر منتماه عثارها
كالمضرجي إذا يُصرَصِر آيبياً	خرس البغاث وهاجرت أوكارها
عرفت لنور الدين نور وقائع	يُغشى إذا اكتحلت به أبصارها
مشهورة سعطت وقد حاولتها الْ	أقدار عجزاً أن تشق غبارها
لله وجهك والوجوه كأنما	حطت بها أوقار هِيت وقارها
واليض تخنس في الصدور صدورها	هبرا، وتكتحل الشفور شفارها
والخيل تدلج تحت أرشية القنا	جذب المواتح غاورت آبارها
فبفيت تستجلى الفتوح عرائسا	متمليا صدر العلا وصدارها

في دولة للنصر فوق لوائها | زبر تنمق في الطلى أسطوارها
فالدين موماة رفعت بها الصوى | وحديقة ضمنت يداك إيارها

وله فيه من قصيدة أخرى:

خنس الثعالب حين زمجر مصحر | ملأ البلاد هماهماً وزئيرا
تركوا مشجارة الرماح لحاذق | جعلت محافته القصور قبور
لريب حرب، لم تزل فعلاته | كالراء يلزم لفظها التكريرا
أسد إذا ما عاد من ظفر بمف | ترس أحدَّ لمثله أظفورا
يتناذر الأعداد منه سطوة | ملء الزمان تغيظاً ورفيراً
عرفوا لنور الدين وقع وقائع | وفي بها الإسلام أمس نذورا
أبدا يظافرك القضاء على الذي | تبغى، فترجع ظافرا منصورا
قوّضت، فانتقع الظهائر ظلمة | وقفلت، فاشتغل الدياجر نورا
وعلى العواصم من دفاعك عاصم | ينشى الرشيد وينشر المنصور

فصل في وفاة معين الدين أثر بدمشق وما كان الرئيس ابن الصوفي في هذه السنة

قال أبو يعلى التميمي: فصَل معين لدين من عسكره بحَوْرَان ووصل إلى دمشق في أواخر ربيع الآخر، لأمر أوجب ذلك ودعا إليه، وأمعن في الاكل، فلحقه عقيب ذلك انطلاق تمادى به؛ وحمله اجتهاد فيما يدبره على العود إلى عسكره بناحية حوران وهو على هذه الصفة من الانطلاق، وقد زاد به وضعفت قوته، وتولد معه مرض في الكبد. فأوجب الحال إلى دمشق في محفة لمداواته؛ فوصل وقضى نحبه في لية الثالث والعشرين من ربيع الآخر، ودفن في إيوان الدار الأتابكية التي كان يسكنها، ثم نقل بعد ذلك المدرسة التي عمرها.

قلت: قبره في قبة بمقابر العونية شمالي دار البطيخ الآن، واسمه مكتوب على بابها، فلعله نقل من ثم إليها.

وفيهه يقول الأميرمؤيد الدولة أسامة بن منقذ، وكتب بها إليه من مصر لمّا لقى الفرنج في أرض بصرى وصرخد مع نور الدين، وقد تقدم ذلك كتب إليه قصيدة يقول فيها:

كل يوم فتح مبين ونصر | واعتلاء على الأعادي وقهر
صدق النعت فيك، أنت معين الد | ين، إن النعوت قال وزجر

أنت سيف الإسلام حقا، فلا كَل	غراريك ايها السّيفُ دهر

لم تَزل تُضمر الجهاد مُسِرًا	ثم أعلنت حين أمكن جهر

كل ذخر الملوك يَفْنَى، وذخرا	ك هما الباقيان: أجرٌ وشكر

قال: وفي يوم الجمعة تاسع رجب قرئ المنشور المنشأ عن مجيرالدبن بعد الصلاة على المنبر بإبطال الفسة المستخرجة من الرعية، وإزالة حكمها وتعفية رسمها، وإبطال دار الضرب؛ فكثر دعاء الناس له وشكرهم.

قال: واستوحش الرئيس مؤيد الدلولة من مجير الدين استيحاشاً أوجب جمع من أمكنه من سفهاء الأحداث والغوغاء، وحَمَلة السلاح من الجهلة والعوام، وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حيدرة، للاحتماء بهم من مكروه يتم عليهما؛ وذلك في ثالث عشر رجب. ووقعت المراسلات من مجير الدين بما في يُسَكنها ويطيب أنفسهما، فما وثقا بذلك، وجدا في الجمع والاحتشاد من العوام وبعض الأجناد، وأثارا الفتقة فقصدوا باب السجن وكسروا أغلاقه وإطلقوا من فيه. واسنفرُوا جماعة من أهل الشاغور وغيرهم، وقصدوا الباب الشرقي وفعلوا مثل ذلك، وحصلوا في جميع كثير، وامتلأت بهم الأزقة والدروب. فحين عرف مجير الدين وأصحابه هذه الصورة اجتمعوا في القلعة بالسلاح الشاكي، وأخرج ما في خزانته من السلاح والعدد، وفُرِّقت على العسكرية، وعزموا على الزحف على جميع الأوباش، والإيقاع بهم، والنكاية فهيم. فسأل جماعة من المقدمين التمهل في هذا الأمر وترك العجلة، بحيت تحقن الدماء ويسلم. البلد من النهب والحريق؛ وألحوا عليه إلى أن أجلب سؤالهم.

ووقعت المراسلة والتلطف في إصلاح ذات البين. فاشترط الرئيس وأخره شروطا أجيبا إلى بعضها وأعرض عن بعض، بحيث يكون ملازما لداره، ويكون ولده و ولد أخيه في الخدمة في الديوان، ولا يركب إلى القلعة إلا مُسدعى إليها؛ وتقررت الحال على ذلك، سكنت الدهماء. ثم حدث بعد هذا التقرير عود الحال إلى ما كانت عليه من العناد وإثارة الفساد، وجمع الجمع الكثير من الأجناد والمقدمين والرعاع والفلاحين، واتفقوا على الزحف إلى القلعة وحصر من بها، وطلب من عين من الأعداء الأعيان، في أواخر رجب ونشبت الحرب بين الفريقين، وجرح وقتل بينهم نفر يسير، وعاد كل فريق منهم إلى مكانه. ووافق ذلك هروب السلار زين الدين إسماعيل الشحنة واخيه إلى ناحية بعلبك و لم تزل الفتننة ثائرة والمحاربة متصلة، إلى أن اقتضت الصورة إبعاد كل من التمس إبعاده من خواص مجير الدين، وسكنت الفتنة وأطلقت أيدى النهاية في دار السلاربن وأصحابهما، وعمها النهب والخراب ودعت الضرورة إلى تطييب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما، و إعادة الرئيس إلى الو زارة والرئاسة، بحيث لا يكون له في ذلك معترض ولا

مشارك.

قلت: وفى هذه الفتنة يقول العرقلة:

ذر الأتراك والعربا وكُنْ في حزب من غلبا
بجلق أصبحت فتنٌ تجر الويل والحربا
لئن تمت فوا أسفا ولم تخرب فواعجبا

وقال في الرئيس لما زحف إلى القلعة:

زد علوا في المجد يابن علي هكذا من أراد أن يتعالى
قد حوى الدين، يا مؤيّدهُ، مِنْ كَ، هزبرا، وديمة، وهلالا
وغدت جلق تناديك عجبا هكذا هكذا، وإلا فلا. لا
جئتَها في الظلام خيْلا ورَجْلا وحميت النفوس والأموالا
لن تبالى من بعدها بعدوّ إنما ذاك كان قطعاً فزالا
قد بلغت المراد من كل ضد وَكَفَى الله الْمُؤمِنِينَ الْقِتَالا

قال أبو يعلى التميمي: وفيها ورد الخبر من ناحية مصر بوفاة المستخلف بها الملقب بالحافظ، واسمه عبد المجيد بن الآمر بن المستنصر، في خامس جمادى الآخرة. وولى الأمر بعده والده الأصغر أبو منصور إسماعيل، ولقب بالظافر، وولى الوزارة له أمير الجيوش أبو الفتح ابن مصال المغربي.

فصل في وفاة سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل وهو أخو نور الذين الأكبر

قال ابن الأثير: كان أتابك الشهيد، يعني زنكي، ملك دارا وبقيت بيده إلى أن قتل، فأخذها صاحب ماردين، ثم سار إليها سيف الدين ابن الشيهد، في سنة أربع وأربعين، فحاصرها وملكها، واستولى على كثير من بلاد ماردين بسببها، ثم حصر ماردين عازما على أن يدخل ديار بكر ويستبعد ما اخذ من البلاد بعد قتل والده. فتفرق العسكر في بلادها ينهبون ويخربون. فقال صاحب ماردين: كنا نشكو من أتابك وأين أيامه. فلقد كانت أعياداً!! قد حَصَرَنا غير مرة فلم يتعد هو وعسكره حاصل السلطان، ولا أخذوا كفا من التبن بغير ثمن:

رُب دهرٍ بكيت منهُ، فلما صِرْتُ في غيرِه بكيت عليه

ثم إنه راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد وزوجه ابنته الخاتون، ورحل سيف اللإين عن ماردين وعاد إلى الموصل؛ وجُهِّزت الخاتون وسُيرت إليه، فوصلت إلى الموصل وهو مريض، فتوفى و لم يدخل بها؛ وذلك في أواخر جمادى الآخرة، وكان عمره نحو أربعين سنة؛ وكان من أحسن الناس صورة. ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل وخلف ولدا ذكراً، أخذه نور الدين محمود عمه فرباه فأحسن تربيته، وزوجه ابنة عمه قطب الدين مودود، فلم تطل ايامه، وأدركه أجله في عنفوان شبابه، فتوفي، وانقرض عقب سيف الدين.

وكان كريها شجاعا ذا عزم وحَزم؛ وهو أوّل من حمل على رأسه سنجق من أصحلب الأطراف، فإنه لم يكن فيهم من يفعله لأجل السلاطين السلجوقية. وهو أول من أمر عسكره ألا يركب أحدهم إلا والسيف في وسطه، فلما أمر هو بذلك اقتدى به غيره من أصحاب الأطراف. و بنى بالموصل المدرسة الأتابكية العتيقة، وهي من أح-ن المدارس وأوسعها، وجعلها وقفاً على الفقهاء الشافعية والحنفية نصفين. و بنى رباط الصوفية، وهو الر باط المجاور لباب المشرعة، ووقف علبهها الوقوف الكثيرة، وكان كريما. قصده شهاب الدين حيص بيص، وامتدحه بقصيدته المشهورة، وهي من جيد شعر، فأجازه عنها ألف دينار أميري سوى الإقامة والتعّهد مدَّة مُقَامه، وسوى الخلع والثياب.

قلت أول تلك القصيدة:

إلاَمَ يراك المجد في زي شاعر

و يقول في آخرها:

أتابك، إن سُميت في المهد غازيا	فسابقة معدودة في البشائر
وَفَيتَ بها والدين قد مال رَوْقُه	وصدقتها والكفر بادى الشعائر

وعز ى أبو الحسن أحمدُ بن منير نور الدين بأخيه بقصيدة تقدم بعضها، أولها:

هو الجذ بز التمام البدورا

يقول فيها:

شوى كل ماجنت الحادثا	ت ما كنت ظلا علينا قريرا

أسان وأحسن صن الهلال=وملأننا منك بدرا منيرا

إذأ ثبح البحر أخطأنه	فلا غرْو أن ينتشفن الغديرا
وأصغِر بفقداننا الذاهبين	ماعشت نأتيك ملَكا كبيرا
وما أغمد الدّهر ذاك الحسا	م ماسل حدَّاك عضبًا بتورا

قسيمُ عُلاك، ونعم القسيم		أخٌ شاف نزراً وأعطى كثيرا
وكان نظيرك،غار الزما		ن من أن يرى لك فيه نظيرا
فدتك نفوسٌ بك استوطنت		من الأمن نوراً، وقد كُنّ بُورا
بقيت مُعزًّا من الهالكين		تُوقّى الرّدى وتوفي الأجورا
وغيرك يمهد بسبط العزاء		ويولى المُسَلّين سمعاً وقورا
وما نقص الدّهرُ أعدادكم		إذا شف قطراً وأبقى بُحُورا
ولو أنصف المجد موتاكم		لَخَطّ لهم في السماء القُبُورا
حياتُك أحيت رميم الرّجاء		وأمْطَت من الجود ظهراً ظهيرا

وللقيسراني قصيدة منها:

ما أطرق الجو حتى اشرق الأفق		إن أغمد السيف فالصَّمصام يأتلق
دون الأسى منك، نور الدين، في حلب		مُلّكٌ ينجلى عن وجهه الغسق
كُنْتَ الشقيق الشفيق الغيب، حين ثوى		أراق ماء الكرى من جفنك الأرق
تلقى الأسى من لباس الصبْر في جُنن		حصينة، تحتها الأحشاء تحترق
ومدّةُ الأجل المحتوم إن خفيت		فإن أيامنا من دونها طُرُق
وإنما نحن في مضمار حلبتها		خيل إلى غاية الأعمار تستَبِق

شأو إذا ابتدر الأقوام غايته		كان المؤخر فيها من له السبق
إن كان صنوك هذا قد ثوى فذوى		ففي مغارسك الأثمار والورق
أو أصبحت بعده الأهواء نافرة أيدى		سبا، فعلى علياك تّتفق
ما غاب من غاب عن آفاق مطلعه		إلاّ لِيفْترَّ عن أنوارك الأفق
ما دام شمسك فينا غير آفلةٍ		فالدين منتظم والملك مُتَّسق

فصل

قال ابن الأثير: ولما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل؛ فاتفقت كلمة جمال الدين وزين الدين على توليته وتمليكه طلباً للسلامة منه، فإنه كان لين الجانب، حسن الأخلاق، كثير

الحلم، كريم الطباع. فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا له، ونزل بدار المملكة، وحلف له الأمراء والأجنادً، واستقر في الملك وأطاعه جميع ما كان لأخيه سيف الدين، لأن المرجع كان في جميع المملكة إلى جمل الدين وزين الدين. ولما ملك واستقر في الملك تزوج امرأة أخيه، التي مات و لم يدخل بها، الخاتون ابنة. حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده، على ماسنذكره، و لم يملكها من، أولاد قطب الدين أحد غير أولادها.

قال: وكانت هذه الخاتون يحل لهاً ان تضع خمارها عند خمسة عشر ملكا من آبائها، وأجدادها، وإخوتها، وبني إخوتها، وأزواجها، وأولادها، وأولاد أولادها. ثم ذكرهم ابن الأثير في كتابه وسماهم، وذكر أنها أشبهت في ذلك فاطمة بنت عبد الملك ابن مروان، زوج عمر بن عبد العزبز، رضي الله عنه؛ كان لها أن تضع خهارها عند ثلاثة عشر خليفة، وهم: من معاوية رضي الله عنه إلى آخر خلفاء بني أمية، سوى آخرهم، وهو مروان بن محمد، فإنه ابن عم لها ليس بمحرم، والباقون محارم لها. وما تم له ذلك إلا بعد ذكره أن أمها عاتكة بنت يزيد بن معاو ية؛ فمعاوية جدّها لأمها، ومعاوية بن يزيد خالها، ومروان جدها لأبيها، وعبد الملك أبوها، والويد وسليمان وهشام و يزيد إخوتها، وعمر بن عبد العزيز زوجها، والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد أولاد أخويها، وهؤلاء كلهم خلفاء وعدتهم ثلاثة عشر.

قلت: وهذا كله مبني على أصل فيه خلل، وهو أن فاطمة بنت عبد الملك ليست أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، بل أمها امرأة مخزوميّة، على ما بيناه في ترجمتها في تاريخ دمشق. ولكن الصواب في ذلك أن يقال: كان لفاطمة إن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء، وهم: مروان بن الحكم ونسله، سوى مروان بن محمد؛ وأما عاتكة فالجيمع محرم لها سوى عمر بن عبد العزيز ومروان ابن محمد، بقى ثنا عشر خليفة كلهم محارم لها: معاوية جدها، ويزيد أبوها، ومعاوية بن يزيد أخوها، ومروان حموها، وعبد الملك زوجها، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجها، ويزيد بن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها، ويزيد بن الوليد وأبرابيم بن الوليد انبا ابن زوجها. ولو أضيف إلى ذلك الملوك من محارم عاتكة أو فاطمة كالإخوة والأعمام والأخوال وبني الإخوة، لتضاعف العدد، كخالد بن يزيد بن معاوية أخى عاتكة، وعبد العزيز بن مروان عم فاطمة، ومسلمة وعبد الله ابنى عبد الملك، وغيرهم. وذلك ظاهر لمن عرف أنساب بني أمية. وما ذكره ابن الأثير من أمر بنت حسام الدين، فستُّ الشام بنت أيوب أكثر منها محارم من الملوك، يجتمع لها من ذلك اكثر من ثلاثين ملكا. من إخوتها الأربعة: المعظم، وصلاح الدين، والعادل، وسيف الإسلام، ومن أولادهم وأولاد أولادهم، وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أبوب تقي الدين، وذريته أصحاب حماة، وفرخشاه.

فصل

قال ابن الأثير: ولما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية كان أخوه نور الدين بحلب، وهو أكبر من قطب الدين، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه إليهم؛ منهم المقدم والد شمس الدين ابن المقدم، وهو حينئذ دزدار سنجار. فسار نور الدين جريدة في سبعين فارسا من أكابر دولته، منهم أسد الدين شيركوه، ومجد الدين أبو بكر ابن الداية، وغيرهما. فوصلوا إلى ماكِسِين في ستة أنفس في يوم شديد المطر وعليهم اللبابيد، فلم يعرفهم الذين بالباب، وأرسلوا إلى الشحنة وأخبروه بوصول نفر من الأجناد وكأنهم تركمان؛ فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين. فحين رآه الشحنة قبّل يده وخرج عن الدار، فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه. وسار مجد الدين إلى سنجار فوصلها وليس معه إلا نفر يسير، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفورة صغيرة من شدّة تَعبه، وأرسل إلى المقدم بالقلعة يعرفه وصوله، وكان المقدم قد استُدعى من الموصل لأن خبره مع نور الدين بلغ من بها، فأرسلوا إليه فتوقف عدة أيام، فلم يصل نورالدين، فسار إلى الموصل وترك ابنه شمس الدين بسنجار، وقال له: أنا أتأخر في الطريق، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني، فلما فارق سنجار وصل نور الدين، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصدا إلى أبيه بالخبر وأنهى الحال إلى نور الدين، فخاف فوات الأمر. ورصل القاصد الذي سيره ابن المقدم إلى أبيه فأدركه بتل يعفر، فعاد إلى سنجار وسلمها إلى نور الدين، وكاتب فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن يستنجده، وبذل له قلعة الهيثم، فسار إليه بجنده. فلما سمع قطب الدين الخبر جمع عساكره وسار عن الموصل نحو سنجار، ومعه الجمال والزين، ونزلوا بتل يعفر، وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه. إقدامه وأخذه ما ليس له، وتهددوه بقصده وإخراجه من البلاد قهراً إن لم يرجع اختياراً. فأعاد الجواب: إنني أنا الأ كبر، وأنا أحق ان أدبر أمر أخى منكم. وما جئت إلا لما تتابعت إلى كتب الأمراء يذكرون كراهيتَهم لولا يتكم عليهم، يعني الجمال والزين، فخِفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على أن يخرجوا البلاد من أيدينا. فأما تهدُّدُكم إياى بالقتال فأنا ما أقاتلكم إلا بجندكم؛ وكان قد هرب إليه جماعة من أجنادهم. فخافوا أن يلقوه لئلا يخامر عليهم باقي العسكر، ودخل الأمراء في الصلح، وأشار به جمال الدين الوزير وقال: نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نورالدين، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ويهددهم بنا. فإن كاشفناه وحاربناه فإن ظفر بناً طمع فينا السّلطان، وإن ظفرنا، به طمع فينا الفرنج. ولنا بالشام حمص وقد صار له عندنا سنجار، فهذه أنفع لنا من تلك، وتلك إنفع له من هذه؛ والرأى أن نسلم إليه حمص ونأخذ سنجار؛ وهو في ثغر بإزاء الفرنج ويتعين مساعدته. فاتفق الجماعة على هذا

الرأي، وسار جمال الدين إلى نور الدين وابرم معه الأمر وتسلم حمص وسلم سنجار إلى أخيه؛ وعاد نور الدين وأخذ ما كان بسنجار من المال. ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها لزين الدين، لأن حمص كانت لأخيه ينال وهو مقيم بها. واتففت كلمتهم واتحدت آراؤهم، كل واحد منهما لا يصدر إلا عن أمر أخيه. وطلب نور الدين أن يكون الجمال عنده، فقال له الجمال: أنت عندك من الكفاية ما يستغنى به، عن وزير ومشير، وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك، لأن عدوك كافر فالناس يدفعونه ديانة، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم. وإذا كُنت عند أخيك فالنفع إليك عائد؛ وأريد من بلادك مثل مالي من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي. فأجابه له إلى ذلك فقال له جمال الدين أنت عليك خرج كثير لأجل الكفار فيجب مساعدتك، وأنا أقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة. فأمر له بها. فكان نائب جمال الدين يقبضها كل سنة ويشتري بها أسرى من الفربج ويطلقهم. قلت: وقرأت في ديوان القيسراني: وقال في نور الدين عند قدومه، وقد استولى على سنجار وأعمال الرّحبة والفرات، وذلك في منتصف ذى القعدة سنة أربع وأربعين وخمسمائة:

هذا الذي ولدت له الأفكار ... وتمخَضت فألا به الأشعار
وجرت له خيل النهى في حلبة ... وردت وصفو ضميرها المضمار
وأتت به نذر القوافي برهة ... إن القوافي وحيها إنذار

حكمت لسيفك بالممالك عنوة ... حكما، لَعمرى، ماعليه غبار
يأيها الملك المطيل نجاده ... بَرٌّ يَدِينُ بِهَدْيه الأبرار
يابْن السيوف،وهل فخرت بنسبة ... إلا سمابك قائم وغرار
فارقت دار الملك غير مفارق ... لك من علاك بكل أرض دار.
في عسكر يخفي كواكب ليله ... نقعاً، فيطلعها القنا الخطَار
جرّاز أذيال العجاج وراءه ... وأمامه، بل جحفلٌ جرّار
تدنى لك الغايات أكبر همة ... نوريّة، هم الملوك كبار
حتى ملأت الخافقين مهابة ... دانت لُعظم نظامها الأقطار
وملكت سنجاراً، وما من بلدة ... إلا تَمَنَّى أنها سنجار
وبسطْت بالأموال كفًّا طالما ... طالت بها الآمال وهي قصار

وجرت أمداد الجياد شعابها ... جرْى السيول، وما عداك قرار
وثنى الفراتُ إلى يديك عنَانه ... والبحر ما اتّصلت به الأنهار
وملكت رحبة مالك فتبرَّجت ... منها لِعَيْنِك كاعبٌ مِعطار
جاءتك في حُلل الربيع وحَلْيها ... قبل الربيع شقائق وبهار
نثرت عليلث هوى القلوب محبة ... وتدّ لو أن النجوم نثار
فأقمت كالشمس المنيرة، إن نأت ... عن أفْقها فَلَها بِهَ أقمار
من كان نور الدين ثم أجَنَّه ... ليلُ السُّرى حفّت به الأنوار
تدعو البلاد إليك ألسنة الظّبا ... فتجيبك الأنجاد والأغوار
حتى عمدت الدين يابن عماده ... بقنا أسنّتها عليه منار
وقفلت من أسفار جدك قادما ... كالصبح نمّ بثغره الإسفار
يغشى البصائر نور وجهك بعد ما اع ... تركت على قسماته الأبصار
حتى عمرت بكل قلب صدره ... حين الصدور من القلوب قفار
إن تُمسِ في حلب رياحك غضة ... فلها بأنطاكية إعصار
وغدت جيادك بالشآم مقيمة ... ولها بأطراف الدروب مغار
هم سبقت بها إلى مهج العدا ... صرف الردى، ومسيره إحضار
وأرى صياح القمص كان خديعة ... فطغى وَجَارَ، وليس ثَمّ وِجَار
سأل الصنيعة غير محقوق بها ... والخير يهدم ما بنى الختار
حتى إذا ما غبت أقدم عاثيا ... إقدام من لم يدْنُ منه قرار
أمضى السّلاح على عدّوك بغيهُ ... بالغدر يُطعن في الوغي الغدار
فاحسم عنا ذوي العناد بجحفل ... كالليل فيه من الصفيح نهار
جند على جُرد، أمام صدورها ... صدر عليه من اليقين صدَار
قد بايع الإخلاص بيعة نصرة ... ولكلّ هادي أمةٍ أنصار
ملك له من عدله ووفائه ... جيش، به تستفتح الأمصار
وإذا الملوك تثاقلت عن غاية ... وأرادها حَفّت به الأقدار

وإذا انتضته إلى الثغور عزيمة | قامت مقام جنوده الأخبار

ولابن منير من قصيدة فيه:

ترنح معطف الزوراء لما | دعاك لزَوْرَ سنجار لمام
وزلزلت الصّعيد وراء مصر | غداة علتك في قطنا الخيام
رجاء هَزَّ تيك، وتلك خوفٌ | ولو قد شئت ضمهما قرام
بعيشك يامبيد الخيل ركضا | حَمَامٌ هنّ تحتك أم حِمام

وقال ابن منير أيضاً يهنئه بتسلم قلعة حمص من بنال، وأنشده في القلعة، قصيدة أولها:

أرحها فهي أزلام المعالي | لهنّ إلى الوغى تَوْقُ المغالي

أقاد مقيلهن بكل نقع | يقوّض، بالهدى عمر الضّلال
وأي سيوفك الحمر الحواشي | منزلة متى دُعِيتْ نَزَال
مَواضٍ، إن سُللن سلكن جزما | نفاه من الطلي لفظ اعتلال
لقد غلت الصليب بِحَرْ حرْب | يُشيب أوارُها لمم الليالى

وشمت لنصر هذا الدين بأساً=تحرم منه كل حمّى حلال ومنها:

وقائع أنزعت في كل فج | وقائع جوّها دامي العزَال
تسائل حمص عن منسىّ دين | تقاضاه لك الحِجج الخوالي
فواتَت وهي أخت النجم بُعدا | ووعدا صيغ فن مطل مطَال
تشامخ أنفها عزا وشدت | على أن لاتنال يدا ينال
فما زالت رقاك تجدّ نقضا | لما تثنيه من مرر الحِبال
إلى أن أطلق الخنساء كرها | وآل إلى ملاوحة المآلي
يصد الوجه عن شمّاء ألقت | يداً لأشمّ ذي باع طوال
شغلت بها يمينك، والمواضي | تكّفلُ أنّ مصرا للشمال
إذا فتح القتال عليك أرضا | أباحك أختها لاَ عَنْ قتال

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: اتصل الخبر بنور الدين بإفساد الفرنج في الأعمال الحَوْرَانيّة بالنّهب والسبي، فعزم على التأهب لقصدهم، وكتب إلى مَنْ دمشق يعُلمهم بما عزم عليه من الجهاد ويستدعي المعونة على ذلك بألف فارس تصل إليه مع مقدم يعول عليه. وقد كانوا عاهدوا الفرنج على أن يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين، فاحتج عليه وغولط. فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج يبوس، و بعض العسكرية بيعفور. فلما قرب من دمشق وعرف من بها خبره و لم يعلموا أين قصده، وقد كانوا راسلوا الإفرنج بخبره، فقرروا معهم الإنجاد عليه، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عسقلان لعمارة غزة، ووصلت أوائلهم إلى بانياس. وعرف نور الدين خبرهم فلم يحفل بهم، وقال لا أنحرف عن جهادهم، وهو مع ذلك كافّ أيدي أصحابه عن العيث والإفساد في الضايع، وأمر بإحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم، والدعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها، وسائر البلاد وأطرافها وكان الغيث قد انحبس عن حَوْرَان والمرج والغوطة، ونزح أكثر أهل حوران عنها للْمَحْل واشتداد الأمر. فلما وصل نور الدين إلى بعلبك اتفق نزول المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجة، وأقام إلى مثله، فروّى الآكام والوهاد، وجرت الأودية، وزادت الأنهار، وامتلأت برك حوران ودارت أرحيتها، وط د ما صوّح من النبات والزرع غضًّا طريا، وجد الناس بالدعاء لنور الدين وقالوا هذا ببركته وحُسْن مَعْدلته وسيرته. ثم رحل من مترله بالأعوج، ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العساكر في السادس والعشرين من ذي الحجة، وأرسل إلى مجير الدين والرئيس، وقال: إنني ما قصدت بترول هذا المترل طلبا لمحاربتكم ولا منازلتكم، و إنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حَوْران. والعربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسُبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الأفرنج، وعدم الناصر لهم ولا يسعني، مع ما أعطاني الله، وله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين، وكثرة المال والرجال، أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذبّ عنها، والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالإفرنج على محاربتي، وبذْلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظُلْماً لهم وتعدّياً عليهم. وهذا ما لا يرضي الله تعالى ولا أحداً من المسلمين؛ ولابد من المعونة بألف فارس مُزاحِي العلّة، تُجرّدُ مع من يوثق بشجاعته من المقدّمين، لتخليص ثغر عسقلان وغزّة. قال: فكان الجواب عن هذه الرسالة: ليس بيننا وبينك إلا السيف، وسُيوافينا من الإفرنج ما يُعينُنا على دفعك إن قصدتنا ونزلت إلينا. فلما عاد الرسول بهذا الجواب ووقف عليه، أكثر التعجب منه والإنكار له، وعزم على الزحف إلى البلد ومحاربته في غد ذلك اليوم. فأرسل الله من الأمطار وتدارُكها ودوامها ما منعه من ذلك.

ثم دخلت سنة خمس واربعين وخمسمائة

ففي مستهل المحرم تقررالصلح بين نور الدين وأرباب دمشق. والسبب في ذلك أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها، بعد ما اتصل به من أخبار دعته إلى ذلك. واتفق أنهم بذلوا له الطاعة وإقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان، وكذا السكة، ووقعت الأيمان على ذلك. وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة كاملة بالطوق، وأعاده مكرما محترماً، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشرمحرم. ثم استدعى الرئيس إلى المخيم وخلع عليه خلعة كاملة أيضاً وأعاده إلى البلد. وخرج اليه جماعة من الأجناد والخواصّ إلى المخيم واختلطوا به ووصل من استماحه من الطلاب والقراء والضعفاء، بحيث ما خاب قاصدُه، ولا أكدى سائله. ورحل عن مخّيمه عائداً إلى حلب بعد إحكام ما قرر وتكميل ما دبّر.

قلت: وفي فلك يقول القسراني:

لك الله؛ إن حاربت فالنصر والفتح — وإن شئت صلحاًعُدَّ من حَزمك الصلح
وهل أنت إلا السيف في كل حالة — فطَوراً له حدّ وطوراً له صفح
سقيت الرّدينيات حتى رددتها — تَرَنَّحُ من سكر فحلّ القنا تصحو
وما كان كف العزم إلا إشارة — إلى الحزم لو لم يغضب السيف والرمح
وقد علم الأعداء مُذ بِتَّ جانحا — إلى السلم ما تنوي بذاك وما تنحو
إذا ما دمشق، ملكتك عنانها — تيقن من في إيليا أنه الذبح
متى التف نقع الحجفلين على الهدى — فلا مهمةٌ يحوي الضلال ولا سفح
إذا سار نور الدين في الجيش غازيا — فقولا لليل الإفك قد طلع الصبح
تركت قلوب الشرك تشكو جراحها — فلازالت الشكوى ولا اندمل الجرح
صبرت فكان الصبر خير مغبة — فسيق إليك الملك يسعى به النجح
كان القنا تجلو له وجه أمره — ولو أمهلت بلقيس ما غرها الصرّح
بدولتك الغراء أصبح ضدها — بهيما، ولولا الحسن ما عرف القبح
وكم من قريح القلب لو بات واردا — موارد هذا العدل ما مّسه قرح
سخابك هذا الدهر جودا على الورى — على أنه ما زال في طبعه شح
وقد كان يمحو رسم كل فضيلة — ونحن نراه اليوم يثبت ما يمحو

بك ابتهج الألباب، وانتهج الحجا | وأثمرت الآداب، واطّرد المدح
ولاذت بك، التقوى وعاذت بك العلا | ودانت لك الدنيا، وعز بك السرح
فلا قلب إلاقد تملكته هوى | ولا صدر إلا قد جلاه لك النصح
وما الجود في الأملاك إلا تجارة | فمن فاته حمد الورى فاته الربح
ولم أختصر ما قلت إلا لأنني | اعبر عما لا يقوم به الشرح

فصل في فتح عزاز

قال أبو يعلى: وورد الخبر في الخامس من المحرم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جوسلين صاحب عزاز وأصحابه، وحصلوا في قبضة الأسر في قلعة حلب. فسر هذا الفتح كافة الناس، وتوجه نور الدين في عكسره إلى عزاز ونزل عليها وضايقها وواظب قتالها، إلى أن سهل الله تعالى ملكها بالأمان، وهي على غاية من المنعة والحصانة والرّقعة. فلما تسلمها رتب فيها من ثفاته من وثق به، ورحل عنها ظافراً مسرورا، عائدا إلى حلب، في أيام من شهر ربيع الأول.

قلت: وذكر ابن منير فتح عزاز وغيرها وأمر دمشق في قصيدة أولها:

فدتك القلوب بألبابها | وَساحُ الملوك بأربابها
كتائب ترمى جنود الصلي | ب منها بتقطيع أصلابها
إذا ما انثنت من قراع الكماة | كست وقدها وشي أسلابها
تبرنس منها البرنس الثياب | حلته وقع أحلابها
عشية غصت على إنّب | نفوس النصارى بغصابها
وقام لأحمد محمودها | بجذْع موارن أحزابها
تجلى لها حيدرى المصا | ع أغلب مُودٍ بغلابها
مورث أركاسها من أب | أكول الفوارس شرابها

همامٌ إذا اعْصَوْ صَبَتْ نَبوة | دهاها بها أعصابها
مضى وجنى لك حلو الشها | د مما تمطق من صابها
وأوصى بها لك من بعد ما | تجرع ممقر أوصابها

وأقسم جدك ألا يليق بغيرك ملبس أثوابها
صبحت دمشق بمشق الجياد زبور الوغى بين أحدابها
وأصلَت رأيك قبل الحسام فحمد جمرة أجلابها
فأعطتك ما لم تنله يدُ وفازت رقاك بأصحابها
وأنت تصرف فضل الزما م من حمص تأخير ركابها
تخونها الجور فاستدركت بعدلك أغبار ظبظابها
وفاجأت قُورُس بالشائلات تمج القنا سمّ أذنابها
فما رِمت حتى رَمَت بيضها إليك أزمّة ضرّابها
وعَزّت غزاز فأذللتها بمجر مضيق لأسهابها
بأشمخ من أنفها منكبا وأكثر من عد تورابها
دلفت لعيطاء أم النجو م في الأمر إيطاء أترابها
وعذراء مذ عَمَرت ما اهتدت ظنون الليالى لإخْرَابها
تفرّعتها بفروع الوشي ج مثمرة هام أوشابها
وعوج إذا أنبضت اغمضت ذكاء لإرسال نشابها
ومحدودبات تطير الخطوب ملافظ ألسُن خطابها
تصوب عقبان ريب المنون متى زبَنَتْها بأعقابها
وما ركعت حول شم الهضا ب إلا سجدن لأنصابها
فلاذت بمعتصم بالكتاب وَهوبِ الممالك سلابها
بمعتصمى الندى والهدى هموس السُّرى غير هيابها
محلى المحل بوصف الفتوح ووصف التهاني وأربابها
وتعجز مداحه أن تحيط بآدابه فلك آدابها
بدائع، لو رد دهر رمين بَنات حبيب بأحبابها
وأين ابن أوس وآياته من اللاء أودت بحسابها
من اللاء عاد عتيق لها ورد عليها ابن خطابها

فأيامه من حبور تكاد يطير بها فرط إعجابها
لك الفضل إن راسلتك الجياد وقامت أدلة أنجابها
إذا اعتسفت هم الجائرين أتيت السيادة من بابها
أبوك أبوها، وأنت ابنها الْ عريق، ودمية محرابها
أقول لمؤجره بالغرور تمطت هواها فأهوى بها
حذار فعند ابتسام الغيو ث تحشى صواعق ألهابها
ولا تخدعوا بافترار الليو ث فالنار في برد أنيابها

فصل في صفة أسر جوسلين

قال ابن الأثير: سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شمالي حلب منها تل باش. وعين تاب، وعزاز، وغيرها من الحصون. فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم، ولقوا نور الدين. وكانت بينهم حرب شديدة انجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج، وأخذ جوسلين سلاح دار كان لنورالدين أسيرا، أخذ مامعه من السلاح فأنفذه إلى السلطان مسعود بن قليج أرسلان السلجوقي صاحب قونية وأقصرا وغيرهما من تلك الأعمال، وكان نرر الدين قد تزوج ابنته وأرسل مع السلاح إليه يقول: قد أنفذت لك بسلاح صهرك، وسيأتيك بعد هذا غيره. فعظمت هذه الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم أنه إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع فاحضر نور الدين جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الإقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين، إما قتلا وإما أسرا. فاتفق أن جوسلين خرج في عسكره وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبى، فاستحسن من السبي امرأة منهم خلا معها تحت شجرة؛ فعاجله التركمان، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذو. أسيرا، فصانعهم على مال بذله لهم؛ فرغبوا فيما واجابو إلى ذلك، وأخفوا أمره عن نور الدين. فأرسل جوسلين في إحضار المال، فأتى بعض التركمان إلى نائب نور الدين بحلب فأعلمه الحال، فسير معه عسكراً أخذوا جوسلين من التركمان قهرا؛ وكان نور الدين حينئذ بحمص. وكان أسره من اعظم الفتوح على المسلمين، فإنه كان شيطانا عاتيا من شياطين الفرنج، شديد العداوة للمسلمين. وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجباعته وجودة رأيه، وشدة عداوة للملة الإسلامية، وقسوة قلبه على أهلها. وأصيبت النصرانية كافة بأسره، وعظمت المصيبة عليهم بفقده؛ وخلت بلادهم من حاميها،

وثغورهم من حافظها؛ وسهل أمرهم على المسلمين بعده. وكان كثير الغدر والمكر، لا يقف على ي ين، ولا يفي بعهد. طالما صالحه نور الدين وهادنه، فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر؛ فلقيه غدره، وحاق به بكره، "وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ". فلما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم. فمنها عين تاب، وعزاز، وقورس، والراوندان، وحصن البارة، وتل خالد، وكفر لاثا، وكفر سود، وحصن بسرفوث بجبل بني عليم، ودوك، ومرعش، ونهر الجوز، وبرخ الرصاص.

قال: وكان نور الدين، رحمه الله، إذا فتح حصنا لا يرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين، خوفا من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين، فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء. وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا؛ منهم القيسراني. قال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها، ويذكر قتل البرنز وأسر جوسلين وأخذ بلاده:

دعا ما ادعى مَن غره النهى والأمر ... فما الملك إلا ما حباك به القهر

ومن ثنت الدنيا الييما عنانها ... تصرف فيما شاء عن إذنه الدهر

ومن راهن الأقدار في صهوة العلا ... فلن تدرك الشعري مداه ولا الشعر

إذا الجد أمسى دون غايته المنى ... فماذا عسى أن يبلغ النظم والنثر

ولم لا يلي أسنى الممالك مالك ... زعيم بجيش من طلائعه النصر

ليهن دمشقا أن كرسي ملكها ... حبي منك صدراً ضاق عن همه الصدر

وأنك نور الدين، مُذْ زرت أرضها ... سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر

خطبت، فلم يحجبك عنها وليها ... وخطب العلا بالسيف ما دونه ستر

جلاها لك الإقبال حورية السنا ... عليها من الفردوس أردية خضر

خلوب، أكَنّت من هواك محبة ... نمت فاتمت جهرا، وسر الهوى جهر

فسقت إليها الأمن والعدل نحلة ... فأمست ولا أسر تخاف ولا إصر

فإن صافحت يمناك من بد هجرها ... فأحلى التّلاقي ما تقدمه هجر

وهل هي إلا كالحَصان تمنعت ... دلالاً، وإن عز الحيا وغلا المهر

ولكن إذا ما قستها بصداقها ... فليس له قدر وليس لها قدر

هي الثغر أمسى بالكراديس عابساً ... وأصبح عن باب الفراديس يفترّ

على أنها لو لم تجبك إنابة ... لأرهقها من بأسك الخوف والذعر
فإما وقَفْت الخيل ناقعة الصدّى ... على بردى من فوقها الورق النّضر
فمن بعد ما أوردتها حومة الوغى ... وأصدرتها والبيض من علَقٍ حُمْر
وجللتها نقعا أضاع شِيَاتها ... فلا شُهبها شُهبٌ ولا شُقرها شُقر
علا النهر لما كاثر القصب القنا ... مكاثرةً في كل نحرٍ لها نحر
وقد شرقت أجرافه بدم العدا ... إلى ألغ جرى العاصي وضَحْضَاحُه غمر
صدعتهم صدع الزجاجة لا يد ... لجابرها، ما كل كسر له جبر
فلا ينتحل من بعدها الفخر دائل ... فمن بارز الإبرنز كان له الفخر
ومن بز أنطاكية من مليكها ... أطاعته ألحاظ المؤلَّلة الخزرُ
أخو الليث لولا غدره، نزعت به ... إلى الذئب أن الذئب شيمته الغدر
أتي رأسه ركضا وغُودر شِلْوه ... وليس سوى عافي النسور له قبر
وقد كان في استبقائه لك منة ... هي الفتك لو لم تغضب البيض والسمر
كما أهدت الأقدار للقمص أسره ... وأسعد قِرْنٍ مَنْ حواه لك الأسر
طغى وبغى عدوا على غُلوائه ... فأوبقه الكفران عدواه والكفر
وألقت بأيديها إليك حصونه ... ولو لم تُجب طوعاً لَجَاه بها القسر
وأمست عزاز كاسمها بك عزة ... تشق على النسرين لم أنها الوكر
فسِرْ، وَاملأ الدنيا ضياء وبهجة ... فبالأفق الداجي إلى ذا السنا فقر
كأني بهذا العزم، لا فل حده ... وأفصاه بالأقصى وقد قضى الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهراً ... وليس سوى جارى الدماء له طُهر
وقد أدت البيض الحداد فروضها ... فلا عهدة في عُنق سيف ولا نذر
وصلت بمعراج النبي صوارم ... مساجدها شفع وساجدها وتر
وإن يتَيَمّم ساحل البحر مالكاً ... فلا عجب أن يملك السّاحلَ البحر
سللت سيوفا أثكلت كل بلدة ... بصاحبها،حتى تَخوَّفك البدر
إذا سار نور الدين في عزماته ... فقولا لليل الإفك: قد طلع الفجر

ولم لم يَسِرِ في عسكر من جنوده … لكان له من نفسه عسكر مَجْرِ
مليك سمت تم المنابر باسه … كما زُهيت تِيهاً به الأنجم الزُّهر
فيا كعبة ما زال في عرصاتها … مواسم حج لا يروّعها النفر
خلعت على الأيام من حلل العلا … ملابس من أعلامها الحمد والشكر
وتوَجت ثغر الشام منك جلالة … تمنّت لها بغدادُ أنها ثغر
فلا تفتخر مصر علينا بنيلها … فُيمناك نيلٌ، كل مصر بها مصر
رددت الجهاد الصعب سهلا سبيله … ويا طالما أمسى ومسلكة وعر
وأطمعت في الإفرنج من كان بأسه … تخوف أن يعتاده منهم فكر
وأقحمت جُرد الخيل أعلى حصونها … ولولاك لم يهجم على كافر كفر
ومن يدعى في قتلك الشرك شركة … إذا لم يكن عند القوافي له ذكر
هي القانتات الحافظات فروجها … فشاهدها عدل وراثقها سحر
ولو لم يكن في فضلها وكمالها … سوى أنها من بعد عمر الفتى عمر

وله من قصيدة يصف فيه وقائعه أولها:

أما وخيال زار ممن أحبه … لقد هاج من ذكراه مالا أغبّه
إذا ما صبا قلب المحب إلى الصبّا … ذكرت نسيما بالثغور مهُّبهُ
فيا نفحات الشام، رفقا بمهجة … يحامى عليها مدنف القلب صبّه
فلا تسألن الصب أين فؤاده … فإن فؤاد المرء مع من يحبه

وفي شعب الأكوار من هو عالم … غداة استطار البرق من طار لبه
يشيم ثغور المزن تهمى، كأنها سنا … بشر نور الدين تنهل سُحبه
إذا ما سما في مُبهم الخطب وجهه … تمزق عن بدر الدُّجُنَّة حُجبه
تولد بين الغيث والليث والتقى … منافسه أي الثلاثة تربه
يعد مضاء في الظبا، لا، وضربه … بها قلل للأعداء ما السيف ضربه
مكين الحجا،أرضى الزمان بنفسه … إلى الآن، حتى لان وانقاد صعبه

حمى قبّة الإسلام بالخليل، فاغتدت ... وأوتادها جرد الطعان وقبه
فكم هبوة أوقعن بالكفر تحتها ... فما انقشعت إلا وللذل جنبه
كيوم الرّها الورهاء والهامُ يانع ... ملى برعي الهندوَانىّ خصبه
وشهباء هاجتها وغى صرخدية ... ثناها وليل الحرب تنقضن شهبه
وعارم يوما بالعُريمة فاغتدت ... كوادي ثمود إذ رغا فيه سَقْبُه
وعاصي على العاصي بأرْعن خاطب ... دم الإفك حتى أنكح النصل خطبه
بإنب لما أكسب المال وانثنى ... يصاحب أنطاكية وهو كسبه
غداة هوى شطرين: للسيف رأسه ... وللرمح حتى توج الرأس قلبه
على حين النصر للخطى فيه عوامل ... يعاقبه خفض الحسام ونصبه
وقائع محمودية النصر لم تزل ... غريباً بها عن موطن السّيف غربه
يقوم مقاًم الجيش فيها وعيده ... ويَفعل أفعال الكتائب كتبه
وحين انتضته عزمةُ من قرابه ... مضى وهو نصل، والمالك قربه
إلى أن دعته ربها كل بلدة ... فليس من الأمصار ما لا يربه.
ولما نزا بالقمص عُجب، هوى به ... على أم رأس البغى والغدر عُجبه
فاصبح في الحجلين ينكر خطوه ... بعيد على الرجلين في السعي قربه
تعاقبه البشرى بأخذ حصونه ... فياعانياً ضرب البشائر ضربه
تناجي عزاز باسمه تل باشرِ ... فيلعنه لعن الصريح وسبّه
فإن يكن المقهور من تل عرشه ... فهذا عمود الكفر قد طاح طُنبه
فقل لملوك الخافقين نصيحة ... كذا عن طريق الليث يزأر غلبه
وخلوا عن الآفاق، فالشرق شرقه ... بحكم الرّدينتات، والغرب غربه
ولا يعتصم بالدرب طاغ على القنا ... فإن القنا في ثغرة النحر دربه
رحيب فضاء الحلم عن ذات قدره ... إذا ضاق من صدر المملك رحبه
عفو عن الجاني، يكاد الذي جنى ... يكرَّ به شوقا إلى العفو ذنبه
أمُتخذ الإخلاص الله جُنّة ... ومن يعتصم بالله فالله حسبه

أبوك استرد الشام بالسيف عنوة ... وللروم بأس طالما غال خطبه
إذا ذب عن أضغاث دنياه مالك ... فأنت الذي عن حوزة الدين ذبه
رأيت اتباع الحق خيراً مغبة ... فأفرجت عن رأى يسرك غبٍّةٌ
وأوضحت ما بين الفريقين سنة ... بهاً عرف المربوب من هو ربه
وبينت ما قد كان من كان يبتغي ... دليلا بان الله من.أنت حزبه

وقال ابن منير يمدح نور الدين بظاهر حمص:

هيهات يعصم من أردت حِذارُ ... أني، ومن أوهاقك الأقدار
طلعت عيك بجوسلين ذريعة ... لا سحل انشاها ولا إمرار
وسعادة مازلت تمرى خلفها ... فيشف، وهو الناتق المدرار
فأرتك مايجنى الوفى وفاؤه ... وأرته كيف يُحَيَّن الغدار
عود أمر على أبارك طلعه ... فأحيل ذاك البر وهو بوار
مازلت تنعم وهو يكفر عاتيا ... والله يهدم مابنى الكفار
حتى أتاح لقومه ما جره ... لثمود من عقر الفصيل قدار
أسرى فأصبح في براثن آسرٍ ... مازال يدُمى ظفره الأظفار

سام، كقرن الشمس، يُقبس نوره ... وتغض عون محله الأبصار
يهب التلاد من البلاد وما حوت ... إن السماحة للبحار بحار
يقظان، يخشى الله في خلواته ... لا مُترف لاه، ولا جبار
نصب المراقب العواقب ناظرا ... فيها، كذلك تربأ الأبرار
لا كالذين تعجلوا حسوأتها ... وتفلسوها بعد وهي خسار
درجوا وأدرج في ملف رفاتهم ... سوءى تساء لذكرها الآثار
والمرء من يُطوى فيَنشر طيه ... ما أودعته صدورها الأخيار
قل للأولى ناموا على نأماته ... ما كلُّ هبة بارخ إعصار
لا تأمنوا في الله بطشة ثائر ... لله، ملء سريره أسرار

صاف إذا كدر المعادن، عادل إن خاف حكام الملوك وجاروا

أعلى أبو له النجاد، وشيد في صهواتها مما ابتناه منار

محمود المحمود آثاراً إذا نظمت على جيد الدجى الأسمار

دانت له الأيام صاغرة،كما دانت له في ظله الأمصار

وله من أخرى أولها:

ما الملك إلاّ ما حواهُ نجادُه

يقول فيها:

وتدين حُسده لمحكم آيه والفضل ما شهدت به حسّاده

شمس إذا ما الحربُ زَر جيوبها حل المعاقد كَرُّه وطِراده

ألوى، ألد، حمى الشريعة جهده وأذل ناصية الضلال جهاده

صعق البرنس وقد تلألأ برقه وأطار ساكن جأشه إرعاده

ولى وقد سُلَّت فَسَلَّت ضغنه زُبر تلقى فودهن فؤاده

مستلئما مستسلما، لاعدة رد المى عنه ولا استعداده

ولجوسلين احتثهن فأصبحت=نهبى لهن: بلاده وتلاده

جاءت به بعد الشماس عوابس قود يلين لعُنفهن قياده

وتصيدته لك السّعود، وقلما ينجو بخيرٍ من أردت مصاده

داني له قينا أدهم كلما غناه طار شماتة عوّاده

سلبت عزاز عزاءه، وبِقُورس محجوبة فرشت له أقتاده

وبتل خالد يوم تل جبينها خلط الثرى بجبينه إخلاده

وغدا يباشر تل باشر قلُبه بأحر ما حمل القلوب عداده

منّت أمانيه في بشائرك التي عادت لهن ما تما أعياده

وحبوت ملكك من نظيم ثغوره حَلْياً تَتَايَه تحته أجيادُه

لا يخدعتك، فإنما إصلاح من يخْشى انتشاط خناقه إفساده

أنزله حيث قضت له غدراته وأحلّه طُغيانه وعناده

في حيث لا يأوى له سجّانه حنقا ويكشط جلده جلاده

وثن هدمت بني الضلال بهدمه وعدت عبادك عنوة عباده
فتكت به آيات مَن لمحمد ولدينه ابداؤه وعواده
او أنشط البلد الحرام تواءمت تُثْنى عليه تلاعه ووهاده
ولو ان منبره أطاق تكالما نطقت بباهر فضله أعواده
نام الخليفة، واستطال لذَبّه عن سذنيه واستطير رقاده
رجعت لك العز القديم سيوفه ما زان رونق مائها أغماده
من بعد ما نعق الصليب لحزبه ورأيت زرع الملك حان حصاده
أني تميل الحادثات رواقه بهبوبها، وابنُ العماد عماده!

فصل

قال ابن الأثير: لما سار نور الدين إلى قلاع جوسلين ملك بعضا وأبق بعضا. فاجتمعت الفرانج، فالتقوا مع نور الدين بدُلُوك، فهزمهم واستولى على دلوك وغيرها. ففيها يقول أحمد بن منبر قصيدة منها:

هي الخبرل خير عتاد الكريم يحضر للهم إحضارها
ضغنت فأدررت أفواها وسرت فقلمت أظفارها
إلام، ولم تُبق مما غزوت قلوبا تكابد إذعارها
اما في مفصل آى القرا ع أن تضع الحرب أوزارها

عسى أن يُحم لهذا الحما م أن يتوكر أو كارها
وما يوم من غلته واحد فتودعه اللّسْنُ أشعارها
واين المقَاول مما فعلت ولو شفع القطر إكثارها
فكم أجلبت خلفك الجافحات فصلصل فخرك فخارها
أعدت بعصرك هذا الأنيق فتوح النبي وأعصارها
وكان مهاجرها تابعيك وأنصارُ رأيك أنصارها
فجددت إسلام سلمانها وعمر جدّك عّمارها
وما يوم إنب إلا كتي ك، بل طال بالبوع أشبارها

وأيامك الغرّ من بعده تُعيد إلى إلى الطيّ أغرارها
ولما، هببت ببصرى سمكت بأهباء خيلك أبصارها
ويوم على الجؤن جون السرا ة عز فسعَّطها عارها
صدمت عُريمتها صدمة أذابت مع الماء أحجارها
وفى تل باشر باشرتهم بزحف تسور أسوارها
وإن دالكتهم دُلُوك فقد شددت فصدقت أخبارها
وشب التدامُر حتى طلعت عليها فولتك أدبارها
مشاهد مشهورة نمنمت على صفحة الدهر أسطارها
يلذ الأغاني ترجيعها وتستسفر السَّفْرُ أسفارها
بنيت لوفد المنى كعبة تُجير المعلق أستارها
ملكت الأراضي مُغْتبرَّة تكاد تُحَدِّثُ أخْبَارَهَا
فما زلت تدجن حتى محوت دجاها وشعشت أنوارها
وَصلَتَ فأعززت مسكينها وَصُلْتَ فأذلت جبارها
وصغت حلى من علا أحكمت على عنق الدهر أزرارها

قال أبو يعلى: وفى رجب وردت الأخبار من ناحية نور الدين بظفره بعسكر الإفرنج النازلين بإزائه قريبا من تل باشر، وعظيم النكاية فيهم والفتك بهم؛ وامتلأت الأيدي من غنائمهم وسبيهم واستولى على حصن خلد الذي كان مضايقه ومنازله. قال: وفي أيام من المحرم وصل جماعة من حجاج العراق وخراسان المأخوذين في طريق الحج عند عودهم بجماعة من كفار العربان، وحكوا مصيبة ما نزل مثلها بأحد في السنين الخالية، ولا يكون أبشع منها. وذكر أنه كان في هذا الحاج من وجوه خراسان و تُنَّائها، وفقائها وعلمائها، وقضاقا، وخواتين أمراء العساكر السلطانية والحرم العسد الكثير، والأموال الجمة، والأمتعة الوافرة. فأخذ جميع ذلك وقتل الأكثر، وسلم الأقل؛ وهتكت النساء وسُلبن، وهلك من هلك بالجوع والعطش؛ فضاقت الصدور لهذه النازلة. فكسي العارى منهم وأطلق لهم ما استعانوا به على عودهم إلى أوطانهم من أصحاب المروءة بدمشق. ذَلِكَ تَقْدِيُر الْعَزِيزِ الْعَلِيم.

فصل

قال: وكان مجاهد الدين بزان قد توجه إلى حصنه صرخد ليتفقد أحواله، فعرضت نُفرة بين مجير الدين والرئيس بسعابات أصحاب الأغراض والفساد، واقتضت الحال استدعاء مجاهد الدين لإصلاح الحال، فوصل وتم ذلك بوساطته على شريط إبعاد الحاجب يوسف، صاحب مجير الدين، عن البلد مع أصحابه. وتوجهوا و لم يعْرض لشيء من أموالهم؛ وقصد بعلبك فأكرمه وإليها.

قال: ووردت الأخبار من مصر بالخُلف المستمر بين وزيرها ابن مصال وبين الأمير المظفر ابن السلار ووقوع الحرب وسفك الدماء، إلى أن أسفرت الحال عن، قتل ابن مصال الوزير وانتصاب ابن السلار موضعه في الوزارة.

قال: وفيها في سابع عشير رجب توفى القاضي بهاء الدين عبد الملك ابن الفقيه عبد الوهاب الحنبلي. وكان إماما فاضلا، مناظرا مستقلا، مفتيا على مذهب الإمامين أحمد وأبى حنيفة، بحكم ماكان عليه عند إقامته بخراسان لطلب العلم والتقدم. وكان يعرف اللسان الفارسي مع العربي؛ وهو حسن الحديث في الجدّ والهزل. وكان له يوم مشهود، ودفن في جوار أبيه، وجده في مقابر الشهداء. قال: وتوفى عقيب وفاته الشريف القاضي النقيب أبو الحسن فخر الدولة ابن أبى، الجن، وتفجع الناس لخيريته وشرف بيته.

ودخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة

ففيها خاصر نور الدين رحمه الله دمشق لمعاضدة اهلها الفرنج واستنصارهم بهم. ومدحه ابن منير بقصيدة يحرضه فيها عليهم، وكتبها إليه من حماة وهو محاصر دمشق، وقد تخلف عن الخدمة لمرض عرض له.

منها:

أخليفة الله الذي ضمنت له ... تصديق واصفه سراة المنبر

لا المسطيل بمصر ظل قصوره ... والمستطال إليه شقة صرصر

يانور دين الله وابن عماده ... والكوثر ابن الكوثر ابن الكوثر

صفّر بحد السيف دار أشائب ... عقلوا جيادك عن بنات الأصفر

هم شيدوا صرح النفاق، وأوقدوا ... نارا تخشى بهم غدا في المحشر

اذكوا بجلق حرّها، واستشعرت ... لفحاتها بين الصفا والمشعر

شردتهم من خلفهم مستنجدا ... ماظاهر الكفار من لم يكفر

لاتعف، بل شق الهدى نفس الذي اد ... رع الضّلال على أغرّ مشهر

قلده ما اهدى على لمرحب … فلقد تهكم في الخداع الخيبري

ما الغش ممن أمه نصرانة … لم تختن كالغش من متنصر

أذكت لنا هذي العزائم، لاخبت … ماغار من سنن الملوك الغبير

إثقاب آراء المعز، وخفق رايات … العزيز، ويقظة المستنصر

شمر، فقد مدت إليك رقابها … لايدرك الغايات خير مشمر

أولَسْت من ملأ البسيطة عدلُه … واجتب بالمعروف أنف المنكر

حدب الأب البر الكبير، ورأفة الْ … أم الحفية باليتيم الأصغر

يا هضبة الإسلام، من يعصم بها … يُؤمن، ومن يتول عنها يكفر

كانوا على صلب الصليب سرادقا … أنبت بنيته بكل مذكر

آثارهم نجس أذال المسجد الْ … أقصى، فضن ما دنسوه وطهر

جار الخليل ومن بغزة هاشم … بلهامك الْمُتَدَمْشق المتمصر

بعرمرم صلمت وعاوعه عرى … أسماع جيحون وسيف البربر

يفتر عن ملك الملوك منحل ال … أنواء، بل سعد السعود الأكبر

عن طاعن الفرسان غير مكذب … ومتمم الإحسان غير مكدر

بدر الجحافل والمحافل، فارس الآ … ساد في غاب الوشيج الأسمر

ملك تساوي الناس في أوصافه … غذر المقل وبان عجز المكثر

يأيها الملك المنادي جوده … في سائر الآفاق: هل من مُعسر

إن القصائد أصبحت أبكارها … في ظل ملكك غاليات الأمهر

إن كنت أحييت ابن حمدان لها … فأنا الذي غبرت في وجه السرى

ولأنت أكرم من أناس نوّهوا … باسم ابن وستخصوا البحترى

ذلت لدوتك الرقاب، ولا تزل … إن تَغْزُ فُتغنم، أو تقاتل تظفر

وكتب إليه من حماة أيضا، وهو محاصر دمشق، ينال فيها من صاحبها منها:

أبوك أب ركان للناس كلهم … أبا ورضوا وطء النجوم لفندوا

وما مات حتى سد، ثلمة ملكه … بك الله، ترمى ما رماه فتصرد

صدمت ابن ذي اللّغدين فانحل عقده ... وكالسلك قد أمسى يحل ويعقد
يقلب خلف السّجف عينا سخينة ... ويبكى بأخرى ذات شتر ويسهد
ولا غَرْوَ، قد أبقى أبوه وجده ... له كل يوم ثوب عجز يجدد
فيارا كبا إما عرضت فبلغن ... يبوتا على جَيْرُون بالذّلّ تعمد
وقل لمبير الدين وهو مجيره ... بزعم له وجه الحقيقة ازبد
حملت الصليب باغيا، ونبذته ... وثغرك مطووس النبات وأدرد
وحاربت حزب الله، والله ناصر ... لناصره، ودين أحمد أحمدُ
تنصرت حينا، والبلاء موكل ... ولابُد من يوم به تتهوّد

وأقسم ماذاق اليهود بإيليا ... وموضعها من بختنصر أسود
كبعض الذي جرعته فسرطته ... وايد فيه من عماك المؤيد
ولايته عزل إليك موجه ... وتصحيفه قتل عليك مؤبد
رماك باقلاّ دمشق، فلم تكن ... سوى بقلة حمقاء، بالحق تحصد
وجالدت جَلاّدً وأنت مؤنث ... تذكرت، والجلاد أدهى وأجلد
تطاولت لانفس تسمى ولا أب ... وراءك زحفا، إنما أنت مقعد
أمسعاة نور الدين تبغى ودونها ال ... أسنة بُتر والعوامل تعضد!
بمخمود المحمود سيفا وساعدا ... حملت لقد ناجتك صما مؤيد
وهل يستوي سار تأمد طاويا ... ونشوان يُعْلَى معصما ويؤيد
تنصرت أما، بل تمجَّسْت والدًا ... وعمًّا، فعِرق الكفرفيك مردد
تخذت بني الصوفي أسراً واسرة ... لكي يصلحوا مافي يديك فأفسدوا
لعمرى لَنِعْم العبد أنت، تجيعه ال ... موالى وتوليه هواناً فيحمد
إليكم بني العلاّت عن مُتشاوس ... له الشام مرفا والعراق مرفد
وما مصر إلا بعض أمصاره التي ... إلى أمره تسعى قماءً وتَحفد
انيبوا إليه فهو أرحم قادرٍ ... له الصفح دينٌ واقبلوا النصح تَرْشُدوا

ولا ترشفوا نفث المؤيد إنه — عن الخير يزوي أو إلى المَيْن يسند
وفرّوا إلى مولاكم والذي له — عليكم أياد وَسْمُها ليس يجحد
ولا تكفروه، إنما أنتم له — ومنه، ويوم عند حوران يشهد
غداة على الجولان جول، وللظبا — رُعود، فربص الموت منهنّ يرعد
ولما اكفهر اليوم واربد وجهه — وعوّد مرهون وفر مزيد
وأيقن من بين السُّدَيْر وجاسم — بأن الجرار السود بالجرد تجرد
رَدَتهم على بصرى وصرخد خيله — وقد أبصرت بصرى رَداها وصرخد
وطاروا تهز المرهفات طِلابهم — كما انصاع من أسد نعام مشرد
وليلة ألقى الشرك. بالمرج بركهُ — ومارج نيران الوغى تتوقد
رمى وأخوه مغرب الشمس دونكم — بمشرقها غضبان يغْدو ويسئد
فمذ وردت ماء الأرنط مُغِذَّةً — أثارت بثَوْرًا غة ليس تبرد
أيا سيف شامته يد الملك صارما — فيمهد إذ يسرى، ويسرى فيمهد
دمشقَ دمشقَ: إنما القدس سرحة — مركزها صرح عليها ممرّد
حموها لكي يحهوا وقد بلغ المدى — بهم أجل حتم وعمر محدّد
متى أنارَاءٍ طائر فتح صادجا — يرفرف في أرجائها ويغرد؟!

وله، من قصيدة أخرى:

نذرك بالغوطتين قد ضمنت — ربوتها ربعه مقراها
أطلع لها الشمس، من جبينك لم — ترج سواها في النوم جفناها
فالخيل صور إلى تساهم سهمي — ها وملهى في بيت لهياها
دولة من دانت البلاد له — وعمّها ظلّه فأغناها
لاَ بِسواها تليق بهجتها — ولا سواه تبغى رعاياها

قال أبر يعلى: وفى عاشر المحرم نزلت أوائل عسكر نور الدين على أرض عذراء من عمل دمشق وما والاها. وفي الغد قصد فريق وافر منهم ناحية السهم والنيرب؛ وكمنوا عند الجبل لعسكر، دمشق. فلما خرج منها إليهم أسرع النذير إليهم فحذرهم وقد ظهر الكمين، فانهزموا إلى البلد. وفي الغد نزل نور

الدين بعسكره على عيون فاسريا بين عذراء ودومة، وامتدوا إلى تلك الجهات، ونزلوا من الغد في أراضي حجيرا وراو ية في الخلق الكثير والجم الغفير، وانبثت أيدى المفسدين من العكر الدمشقي والأوباش، من أهل العيث والفساد، في زروع الناس، فحصدوها، وفي الثمار فأفنوها، بلا مانع ولا دافع. وتحرك السعر وانقطعت السابلة، ووقع التأهب للحصار. ووافت رسل نور الدين إلى ولاة البلد يقول: أناما أوثر إلاّ صلاح أمر المسلمين، وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسارى. فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد، فذلك المراد. فلم يعد الجواب إليه بما يرضاه، فترل في أرض مسجد القدم وما والاه من الشرق والغرب، و بلغ منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبلى البلد. قلت: هو الذي يسمى في زماننا بمقبرة المعتمد، بين مسجد القدم ومسجد فلوس. فال: وهذا مترل ما نزله أحد من مقدمى العساكر فيما سلف من السنين. وأهمل الزحف إلى البلد إشفاقا من قتل النفوس. ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لإنجاد أهل دمشق، فضاقت صدور أهل الصلاح، وزاد إنكارهم لمثل هده الأحوال المنكرة؛ والمناوشات في كل يوم متصلة من غير مزاحمة ولا محاربة. فلم يزل ذلك إلى ثالث عشر صفر؛ فرحل العسكر النورى من هذه المترلة ونزل في أراضي فذايا وحلفبلتين والخامسين المصاقبة للبلد، وما عرف فى قديم الزمان من أقدم على الدنو منها. ثم رحل في العشرين من صفر إلى ناحية دَارَيّا لتواصل الإرجاف بقرب عساكر الإفرنج من البلد لقوة عزمه على لقائهم. وصار العسكر النورى في عدد لا يحصى، وفي كل يوم يزداد بما يتواصل من الجهات وطوائف التركمان. ونور الدين هذه الحال لا يأذن لأحد من عسكره في التسرع إلى قتال أحد من المسلمين؛ وكانوا، يعني أهل البلد، يحملهم الجهل والغرور، على التسرع والظهور، ولا يعودون إلا خاسرين مغلولين. وأقام على هذه الصورة، ثم رحل إلى ناحية الأعوج لقرب عسكر الإفرنج وعزمهم على قصده. واقتضى رأيه الرحيل إلى جهة الزبداني اسجراراً لهم. وأفرق من عسكره فريقاً يناهز أربعة آلاف فارس مع جماعة من المقدمين، ليكونوا في أعمال حَوْرَان مع العرب لقصد الإفرنج ولقائهم، وترقبا لوصولهم، وخروج العسكر الدمشقي إليهم، واجتماعهم بهم، ثم يقاطع عليهم. واتفق أن عسكر الفرنج رحل عقيب رحيله إلى الأعوج، ونزل به في ثالث ربيع الأول، ودخل منهم خلق كثير إلى البلد لقضاء حوائجهم. وخرج مجير الدين ومؤيد الدين في خواصهما وجماعة وافرة من الرعية، واجتمعوا بملكهم وخواصه، وما صادفا نحده شيئا مما هجس في النفوس من كثرة ولا وقوة. وتقرر بينهم الترول بالعسكرين على حصن بصرى لتملكه واستغلال اعماله. ثم رحل عسكر الإفرنج إلى رأس الماء، و لم يتهيأ خروج العسكر الدمشقي إليهم، لعجزهم واختلافهم. وقصد من كان بحوران من العسكر النوري، ومن انضاف إليهم من العرب في خلق كثير، ناحية الإفرنج للايقاع بهم والنكاية فبهم. والتجأ عسكر الإفرنج إلى لجأة حوران الاعتصام بها، ونمى الخبر إلى نور الدين فرحل ونزل

على عين الجر من البقاع، عائدا إلى دمشق، وطالبا قصد الفرنج والعسكر الدمشقي. وكان الإفرنج حين اجتمعوا مع العسكر الدمشقي قد قصدوا بصرى لمضايقتها ومحاربتها فلم يتهيا ذلك لهم، وظهر إليهم سرخاك واليها في رجاله، وعادوا عنها خاسرين. وانكفأ عسكر الإفرنج إلى أعماله، وراسلوا مجير الدين ومؤيده يلتمسون باقي القطيعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق، وقالوا لولا نحن نَدفعه ما رحل عنكم.

قال أبو يعلى: وفي هذه الأيام ورد الخبر بوصول الأسطول المصري إلى ثغور الساحل في غايةٍ من القوة، وكثرة من العِدّة والعُدّة. وذكر أن عدة مراكبه سبعون مركبا حربية مشحنة بالرّجال، ولم يخرج مثله في السنين الخالية؛ وقد أنفق عليه فيما حكى وقرب ثلثمائة ألف دينار، وقرب من يافا من ثغور لإفرنج، فقتلوا وأسروا وأحرقوا ما ظفروا به، واستولوا على عدة وافرة من مراكب الروم والإفرنج. ثم قصدوا ثغر عكا ففعلوا فيه مثل ذلك؛ وحصل في أيديهم عدة وافرة من المراكب الحربية الفرنجية؛ وقتلوا من حجّاجهم وغيرهم خلقا عظيما. وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس، وفعلوا في الكل مثل ذلك. ووعد نور الدين بمسيره إلى ناحية الأسطول المذكور لإعانته على تدويخ الفرنجية. فاتفق اشتغاله بامر دمشق وعوده إليها لمضايقتها. وحدث نفسه بملكها، لعلمه بضعفها، وميل الأجناد والرعية إليه، و إشارتهم لولايته وعدله.

قال: وذكر أن نور الدين أمر بعرض عسكره فبلغ كمال ثلاثين ألفاً مقاتلةً. ثم رحل ونزل بالدلهمية من عمل البقاع، ثم نزل، بأرض كوكبا غربي داريّا، ثم نزل بارض داريّا إلى جسر الخشب، ونودى في البلد بخروج الأجناد والأحداث إليه، فلم يظهر منهم إلا اليسير ممن كان يخرج أولا. ثم تقدم ونزل القطيعه وما والاها ودنا منها بحث قرب من البلد، ووقعت المناوشة بين الفريقين من غير زحف ولا شد في محاربة، تحرجا من قتل المسلمين، وقال لاحاجة إلى قتل المسلمين بايدى بعضهم بضعا، وأنا أرفُههم ليكون بذل نفوسهم. في مجاهدة المشركين.

قال: وورد الخبر إلى نور الدين بتسلم نائبه الأمير حسن المنبى مدينة تل باشر بالأمان في الخامس والعشرين من ربيع الأول، وورد مع المبشر جماعة من أعيان تل باشر لتقرير الأحوال. وترددت المرسلات في عقد الصلح ثم أهل دمشق على شرط واقتراحات، وتردد فيها الفقيه برهان الدين على البلخي والأمير أسد الدين سيركوه، وأخوه نجم الدين أيوب. وتقارب الأمر في ذلك إلى أن استقرت الحال على قبول الشروط المقترحة ووقعت الأيمان من الجهتين على ذالك والرضا به في عاشر ربيع الآخر. ثم رحل نور الدين من الغد طالبا ناحية بصرى للنزول عليها، والتمس من دمشق ما تدعو إليه الحاجة من آلات

الحرب، لأن واليها سرخاك كان قد شاع خلافه وعصيانه، ومال إلى الإفرنج فاعتضد بهم؛ فأنكر نور الدين ذالك عليه وأنهض إليه فريقا وافراً من عسكره.

قلت: ولابن منير في نور الدين يذكر وقعة الجولان وغيرها قصيدة أولها:

ما برقت بيضك في غمامها — إلا وغيث الدين لابتسامها

يقول فيها: محمود المحمود جدا وجداً=أرخص جلد الأرض حكم عامها

ملك أزال الرّوم عن صلبابها — دفاعُه وكبَّ من أصنامها
جال على الجولان أمس جولة — صفّرت الأدحىّ من نعامها
والجون قد جرعها أجونه — وفَلّ مشحوذاً من اعتزامها
وشد في القد له مليكها — قود عتود القوط في شبامها
وفي الرّها صابت له سحابة — صاروا جُفَاء خف في التطامها
وهب في هاب له عواصف — تجهمتها الهفّ من جهامها
كفرُ لاَثا لاث في جبينها — لثم ظبا أبت على أشامها
وقائع يرفضُّ تحت وقعها — نظم الثريا في فضا مصامها
فساعة البيض إذا عدّدها — سوط عذاب صب في أيامها
واَعجبا لعُصب الشرك التي — لم يصعب الرشد على أحلامها
حكمة استواؤها في غيّها — في نقص ما أحصد من إبرامها
مظفر الرّايات والرأي والرأى إذا — الحربُ مشت تعثر في خطامها
عدت به حد العلاء — همهن النجوم أو نواصي هامها
جلت له الدنيا على زبرْجها — عفوا فلم تلو على خطامها
رأته وهو اللّيث يدمى ظفره — أنفذ في المشاكل من حكامها
فتوّجتْه العزّ في في مرتبة — تمنطق الجوزاء في نظامها
غضبان للإسلام لا يغيظه اسْ — تسلامها للقسر من إسلامها
خط على مثل أب طاعت له الْ — آفاق واستشرف لاغتشامها

تصرف الذّنيا على إيثاره — عراقَها مُستردفا بشامها

لو لم يكن دون منى فات المنى واقعد الفائز من قوامها
وامتك ماء مكة رواضع يقصر باع الدّهر ش فطامها
وصار كالجمر الجمار وخلا من أهله الأشرف من مقامها
ودونها لازلت ترقى في حمى من مؤلم الأرواء أو لمامها
تُلْبس بيت الله وشى يَمَن يقرأ آياتك من أعلامها
فإنما الدّين رحى قطّبَتَها وبازل مُكّنت من زمامها
أمّت بنا الآمال منك كعبة سلم الليالى آية استسلامها
وأرشفَتنا بك ثغر نعمة لانسال الله سوى دوامها

وقال أيضاً يمدحه:

بجدك أصحب الجد الحزون وأطلع فجره الفتح المبين
وفي كنفيك سولمت الليالي وفارق طبعه الزمن الخؤون
ومنك تعلم القطع المواضي وقد زبنت بها الحرب الزّبون
وأنت السيف لم تمسه نار ولا شحذت مضاربه القيون
ترَقْرقُ فوق صفحته الأماني ويقطر من غراريه المنون
وقبلك ما سمعت بذى فقار يبُير الفقر كان ولا يمكن
ولا غيث سماوته سرير ولا ليث وسادته عرين
ولا قمر له الهيجاء هال ولاتاج له الدنيا جبين
جُبلتَ ندى وعفواً وانتقاما وماءُ كلُّ مجبول وطين
وملكك عمم الأقطار قَطْراً فأمرعت الأواعث والحزون
تَلألأ تحته غررُ الليالي إذا الأيام عند سواك جون
وأنت أقمت للجدوى مناراً يبين لشائميه ولا يبين
وعندك مشرب النّعمى زلال إذا عبقت مشاربها الأجون
تحكم في عطائك كل عاط وقد شيدت من الُمنع الحصون
لقد أشعرت دين الله عزا تتيه له المشاعر والحجون

وقام بنصره والناس فوضى … قوى منك في الجلى أمين.
رجعت ملوكهم وهم خيوف … أسير في صفادك أو كنين
فبرنست البرنس لفاع خسف … وجُرّع مرّ جوسك جوسلين
إذا ما الفعل عُلَّ تلاه حذف … يتاح لمنتهاهُ أو سكون
غنوا حتى غزوتهم فغنى الصَّ … دى في أرضهم حف القطين
وكم عبر الصليب بهم صليبا … فردته قناك وفيه لين
وما خطرت بدار الشّرك إلا … هوى الناقوس وارتفع الأذين
ملأت عظام ساحِهُم عظاما … فكل ملأ لقوك به جرين
بإنب في القنا تجرى تجيعا … كأن عيون أكعُبِها عيون
وبين حِرار صرخد ذُبْنَ حَرًّا … له في كل حبحبة كمين
وَفين من العُرَيْمة في عَرام … له في جونها الأقصى وجون
وكم حرم لحارم غادرته … ودارته لمنسفها درين
وفي شعراء قُورُس صغن شعرا … تدار على غراريه اللجون
وقائع صِرْن في صنعاء طيرا … يوقعها على عدن عدون
نماك أب إذا عد انتسابا … تراقي مصعدا والناس دون
شِمالاً كان أملاك البرايا … وقد قيسوا به وهو اليمين
قضى وقضاؤه في اللأرض حتم … وطاعة أهلها لبنيه دين
لهذا اليوم تُنشخب القوافي … ويذخر نفسه الدُّرُّ المصون
ونحن أحق منك بأن نهنا … إذا قرّت برؤيَتِك العيون
سلمت لنا، فإئا كلُّ صعب … نوازيه بأن تبقى يهون
ترابطنا بعقوتك التهاتي … ويغبطنا بدولتك القرون

فل في باقي حوادث هذه السنة

قال أبو يعلى: وورد الخبر من ناحية ديار مصر بأن أهل دمياط حدث فيهم فناء ما عهد مثله في حديث

ولا قديم، بحيث أحصى المفقود منهم في سنة خمس واربعين فبلغ سبعة آلف شخص، وفي سنة ست وأربعين مثلهم، فصار الجميع اربعة عشر ألفا. وخلت دور كثيرة من أهلها، وبقيت مغلقة لا ساكن فيها ولا طالب لها.

قال،: وفيها في ثاني جمادى الآخرة توفى القاضي السديد الخطيب أبو الحسين ابن أبي الحديد خطيب دمشق، وكان خطيبا بليغا صيِّتا عفيفا، ولم يكن له من يقوم مقامه في منصبه سوى أبي الحسن الفضل، ولد ولده، وهو حدث السن، فنصب مكانه وخطب وصلى بالناس، واستمر الأمر له ومضى فيه.

قال: ووردت الحكايات بحدوث زلزلة وأفت الليلة الثالثة عشرة من جمادى الاخرة اهتزت الأرض لها ثلاث رجفات في أعمال بُصرى وحَوْران وما والاها من سائر الجهات، وهدمت عدّة وافرة من حيطان المنازل ببصرى وغيرها، ثم سكنت بقدرة من حركها سبحانه وتعالى.

قال: وفي ثاني عشر رجب توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصه ووصل إليها، ودخل على نور الدين صاحبها فأكرمه، وبالغ في الفعل الجميل في حقه، وقرر معه تقريرات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق، ورجع إلى دمشق مسروراً سادس شعبان.

قلت: وفي ذلك يقول القيسراني:

وفت لك الدنيا بميعادها ... ياذلة أفلاذ أكبادها
وأوفدت غرّ سلاطينها ... عليك في همة أنجادها
تبغى سناء اقصدت قصده ... طائعة طاعة أجنهادها
خاضعة تعتد أعمارها ... يوم التلاقي يوم ميلادها
شامت دمشق بك بَرْق العلا ... فأرسلت أصدق روّادها
رأتك نور الدين نار الهدى ... قد أشرق الأفق بإقادها
فيممت منك حيا مزنة ... بيض الأيادي ورد ورّادها
فاسأل مجير الدين عن خُبره ... أوردها محمود إيرادها
تبوأت من عزها ة قبة ... سُمر القنا أطناب أوتادها
تنافس الناس على دولة ... فت بها أعين حسادها
يغدو المعُادي كالموالى لها ... فوالها إن شئت أو عادِها
يا ملكا تُزههى بأسمائه ... منابر تسمو بأعوادها

وتأخذ السماع أوصافه عن جُمع الدنيا وأعيادها
كمْ للمعالي فيك من رغبةٍ تفنى الأماني دُون تعدادها
لك المساعي الغر، ياجا معاً من طرفيها بين أضدادها
يغْشى الوغى أفرس فرسانها وفي التقى أزْهد زهادها
فأنت نُسْكاً غيث أبدالها وأنت فتكا ليث آسادها
في أمّة أنت حمَى دينها حينا،وحينا شمس عبادها
يطوى بك العمرُ إلى غايةٍ حسبُك تقوى الله من زادها
هذا، وكم مِنْ سسنةٍ بدعةٍ أعدمْتها من بعد إيجادها
مآثرٌ لو عَدِمت راوياً تكفَّل النّظم بإسنادها

قال أبو يعلى: وفي أواخر شعبان أغار بعض التّركمان على ظاهر بانياس، فخرج إليهم واليها من الإفرنج في أصحابه، وظهر التركمان عليهم فقتلوا وأسروا. وفي رمضان قصد بعض الفرنج ناحية من البقاع وأغاروا، فأنهض إليهم والى بعلبك رجاله، فلحِقُوهم وقد أرسل الله عليهم من الثلوج المتداركة ما ثبطّهم؛ فاستخلصوامنهم الغنيمة.

قلت: والى بعلبك هذا هو نجم الدين أيّوب، والد صلاح الدّين يوسف.

قال ابن أبي طي: في سنة ست واربعين أغار التركمان على بانياس، فخرج أهل بانياس من الفرنج، واستنقذوا ما أخذو؛ فعاد التركمان عليهم فكسروهم واتصل ذلك بصاحب دمشق فأغضبه فعل التركمان لِمَكان الهُدنة المنعقدة بينه وبين الفرنج؛ فأنفذ عسكراً إلى التركمان استعاد منهم ما أخذوه. واتصل خبر التركمان بالفرنج فجيشوا وخرجوا في جيش عظيم، وشنوا الغارة على البقاع والناس غافلون؛ فامتلأت أيديهم من الغَنائم والأسارى. واتصل خبر غارة الفرنج بنجم الدين أيوب وهو في بعلبك وعنده جماعة من عسكر دمشق وأصحابه، فقدم عليهم ولد شمس الدولة، فخرج وأوقع بالفرنج. واتفق أنه كان قد أصاب الفرنج ثلج عظيم فهلك أكثرهم، وجاء شمس الدّولة وهم متورّطون فقتل فيهم مقْتَلةً عظيمة، وخلص من كان عند الفرنج من الأسارى.

قال: وفى هذه السنة فارق صلاح الدين والدَه، وصار إلى خدمة عمه أسد الدين، بحلب، فقدّمه بين يدىْ نور الدّين، فقبله وأقطعه إقطاعاً حسناً.

قال أبو يغلى: وفي ثاني شوّال، وهو الثّاني من شباط، وافت قُبيل الظهر زلزلة اهتزت لها الأرض ثلاث

هزّات هائلة، وتحركت الدور والجُدران، ثم سكنت.

قلت: وفي هذه السنة، في غرة جمادى الأولى، كتب أحمد بن منير من حماة إلى نورالدين قصيدة يهنئه بوصول الخلع إليه من بغداد من عند الخليفة، على يد الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، ويصف الفرس الأصفر، الأسود القوائم والمعارف، والسّيف العربيّ. أولها:

لِعَلائك التّأييدُ والتأميل ... ولمُلكك التّأبيد والتّكميل

أبداً تهم وتقتفى، فتنال ما ... عز الورى إدراكُه، وتُنيل

إما كتاب يستقل به الكتا ... ئب، أو رسول للنجاح رسيل

لك من أبى سعد زعيم سعادة ... فمن تفاءل فيك ليس يفيل

نعم الحسامُ، جلوته وبلوته ... يرضيك حين يصل ثم يصول

سهم تُعوّد في الكنانة عودُه ... ويقصّر المطلوب وهو طويل

سددته فمضى وقرطس صادراً ... كالنّجم، لاوَهْلٌ ولاَ تهليل

فثنا القلوب إلى ولائك حُوَّلٌ ... منه بكا يجنى رضاك كفيل

وأقام ينشر في العراق ودجلةٍ ... آياً تأولها لمصر النّيل

وكساك من رأى الخليفة جبة ... لا النّقص يُوهيها ولا التقليل

كنت الشريف، أفضت في تشريفه ... ماء عليه من سَناك دليل

ألِيُوسف لما طلعت مقرطقا ... طمئت حصانٌ واستخف أبيل

أم عن سليمان يفرج ضاحكاً ... سجف الرواق وضعضع الكِيّول

ومُملّكٌ في السرّج، أم ملك سطت ... لبهائه عقلٌ وتاه عقول!

وبرزت في لبس الخلافة كالهلا ... ل، جلاه في حلل الدجا التهليل

خِلَعٌ خَلعْن عل القلوب مسرّةً ... سد كاتها التعظيم والتَّبْجيل

نثرت نُضاراً جامدا أعلامها ... وتكاد تجرى رقة وتسسل

لقضى لها أن لا عديل لِفَخرها ... رب براك فما تلاك عديل

أنت المهَّند، مُنذ سَّلتْهُ العُلا ... لم يخلُ من مهج عليه تسيل

مذهر قائمَهُ الإمامُ تألقت ... غررٌ شُدخن لمُلكه وحجول

والَيْت دولَته فتِهتَ بدولةٍ ... متُكلل بصعيدها الإكليل

ونصرتَهُ، فحَلاك أبيض، دونه صَرْف الزمان إذا استكل كليل
قُلِّدتَه، وكِلاَ كما مُتَلَهْذِمٌ عَضْب، فَزَانَ المغمد المسلولُ
وحَبار كابك حين قرّ بزحفه ال قرآن واستخْذَى لهُ الإنجيل
بأَقب أصفر مشرف الهادي، له الت حجيل لون واللّما تحجيل
قسم الدجابين الغدائر والشوى واعنْام رونقَه الأصيلَ أصيل
وتقاسم الراؤُوه تحتك إنه حيزوم يصرف عطفُه جبريل
تختال في حبك الحُلىّ مخيلا أن الشّوامخ للبدور خيول

مُرْخَى الذوائب كالعروس، يزينُه طرف بأطراف الرّماح كحيل
تتصاعق النعرات تحت لبانه إن شب زفْرٌ واستجشَّ صهيل
لم يَحْبُ مثلك مثله مُهد، ولم يشلل على سرق سواه شليل

وأنشده في هذه السّنة أيضاً بحمص قصيدة منها:

الدّهر أنت، ودارُك الدُّنْيا، ومَنَ في العَدِّ بعدُ مؤمِّل وحَسُود
وأزمَّةُ الأقدار طوعُ يديك، وال أيامُ جندُك، والأنام عبيد
فُتَّ الورى، وعقدت ناصية المدى بذمرّ الشعري، فأين تريد؟!
تال أباك، فهل سليمانٌ يُرى في الدَّست مهد مُلكه داود
جَلَّى وسُدْتَ مصلِّيًا،لايرفع ال معدُومُ ما لم يشفع المدجود
لم يختُرم جدٌّ نماك ولا أب إن النباهة في الخليف خلود
شمخت منارُك في اليفاع، وأمها من لم يسُدْ، فَأَرتْه كيف يسود
وهَبَبْتَ للإسلام وهو مصوّح فاهتز أهضاب ورق نجود
وفثأت جمرة صالميه بصيلم نَصَعَ الأجنةَ يومُها المشهود
خطمتهم فوق الخطيم لوافح نفس الأرين لوأرهنّ برود
ورمُوا على الجولان منك بجولة توئيدها نسر الضلال وثيد
ولَحَا عظامهم بِعَرْقَةَ عارق ما زلتَ تمحض جوّه فتجود

وشللت بالرّوح السروج وفوقها زرعٌ تحصدُه الرماح حصيد
وعلى عنوْا وثل عروشهم ملك مقيد من عصاه مقيد
وَبِتَلٍّ باشِرَ باشُروك فعافسوا أهب الأساود حشوهنّ أسود
أوْدَوْا كما أوْدى بِعادٍ غيَّها وعقوا كما استغوى الفصيل ثمود
إن آلموا عقراً فإنك صالح أو آلموا غدراً فإنك هود
وزَّعتهم، فبكُلّ مهبِط تَلْعَةٍ خدٌّ به من وازع أخدود
وعصبتهم بعصائب ملء الملا شتّى، وإن خل البسالة عو
آثارها محمودة، وأثارها مشهودة، وشعارها محمود
لَبست من سمك في الكريهة ملبسا يَبْلَى جديدُ الدّهر وهو جديد
وقصيرة الآجال طول باعها بوع يسامي هامها وقدود
مطرورة الأسلاب مُذ هزَّعتها تاه الهدى وتبختَرَ التّوحيد
أشرعتها، فعلي شريعة أحمد مما جنته بوارق وعقود
ولكم نثرت نطيمها في موقف تغريد صالى حره التغريد
يجلو سناك ظلامَهُ، ويحل ما قدت قناهُ لواؤك المعقود
في هبوة زحم السماء رواقُها والأرض ترجُف تحته وتَميد
ضربت مُخَيَّمها، فكان كُمَاتُها أو تادَهُ القُصوى وأنْت عمود
في كل، يوم من فتوحك صادِحٌ هزِجُ الغناء، وطائرٌ غرِّيد
تهدى لعانة كأسه فرغانة وتسيع زبدة ما شداه زبيد
فغِرار سيفك للأحابش محبس ومُثار نقعك للصعيد صعيد
لا تَعْدَ من هذا المقلد أمنة مُلقى إليه لرعْيها القليد
الورد قمور، والمسارح رَحبةٌ والرّفْد مد، والظّلال مديد
والعيش أبلجُ مشرق القَسَمات، وال أشجار غرٌّ، والأصَائِل غيد
والملك مدود الرّواق، منور ال آفاق، وضاء المنى، محسود
في دولة مُذْ هَبّ نشر ربيعها نُشِرِ الرفَاتُ وأثمر الجُلمود

محمودة الآثار، محمودية كل المواسم عندها تعييد

وقال يهنئه بليلة الميلاد ويصف النازلين في الجبل من قلعة حلب قصيدة منها:

هُنيت روزى فذاك صومك وال_ميلاد جا والعيد في نسق

فذاك أنحلت فيه كل يد وذاك أخملت فيه كل نقي
وجه كصدر الحسام تصبُوله ال عَيْن وينقد القلب من فَرَق
ومقلة شوقها ليَقْظتها شوقٌ لحسّادها إلى الأرق
ومُرتقًى تَعْجبُ السماء له إذا استطالت إليه: كيف رُقى
توّجت شهباءَها بمُشْرقة مشرقة شهبُها على الأفُق
جوّتهاوى منه كوكبه طرفه طرف رجوم مُسترق
فوارس تذْهلُ الفوارس أن تهافتت من أرشاقها الرّشق
من راكضٍ في الهواء أهوى من ال فتح مجر من تحته لبق
شاو من الخصر لو تحاوله ال خُضر لزلت عن موطئ رُلَق
يقول من دينه الفروسة: ما لاقك إلا ضرب من الإلق
بَدائعٌ تغبط السماء بها ال أرض وتُذكى الإشفاق في الشفق
في دولة جمعت إيالتها من بدد الحسن كل مفترق
تَزَّرَّ أطواقُها على ملِك مكتفلٍ رزقَ كلّ مرتزق
محمود اسماً وَميسما وندى واعتصب الدم كل مرتفق
طبّق طوفانُه، فلسْت ترى إلا مغيثا مشفٍ على غرق
مابحرُ، لاَ خلق تدعى شبها فات المدى ما حَويتَ من خُلُق
ملكك هذا الذي تملأه صباه يجرى والدهر في طلق

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة

قال أبو يعلى: وورد الخبر في المحرم بنزول نور الدين على حِصْن أنطرسوس في عسكره وافتتاحه له وقتل من كان فيه من الإفرنج. وطلب الباقون الأمان على النفوس فأجيبوا إلى ذلك؛ ورتب فيه الحفظة، وعاد عنه، وملك عدّة من الحصون بالسبي والسيف والإخراب والإحراق والأمان قال: وورد أيضا ظفر رجال

عسقلان بالإفرنج المجاورين لهم بغَزة، بحيث هلك منهم العدد الكثير وانهزم الباقون.

قلت: وقرأت في ديوان ابن منير يمدح نور الدين ويهنّئه بفتح أنطرسوس ويحمور وعوْده عنهما قصيدة منها:

أبداً تباشر وجه غزوك ضاحكا ... وتؤوب منه مؤيداً منصورا

تدني لك الأمل البعيدَ سَوَاهِمٌ ... محقت أهلتها وكُنّ بدورا

مثل السهام، لو ابتغى ذو أرْبَع ... في الجوّ مُطلباً لكن طيورا

نبذت علائقها بحمص وأعلقت ... سحراً بمعرق عرقه الأضفورا

وعدَوْن صافيثاء لاح شوارها ... قد أتلعت عُنقاً إليك مشيرا

القلب أنت، فإن تعامى عن هدى ... عُضْوٌ أهَابَ بِه فعاد بصيرا

عرفوا مكانك والظهيرة بينهم ... يغُرى بياض أديمها الديجورا

أين الذّبالُ من الغزالة، أشرقت ... وجهاً وطبّقت البسيطة نورا

غضبانُ اقسم لا يَشيم حسامه ... والارض تحعل في الكُفور كَفورا

غسل العواصم أمس من أدرانهم ... واليوم رد به السواحل بورا

لم يُبْقِ بين الحولتين وآميد ... وثراً لِمُضْطغنٍ، ولاَ مَوتورا

أخلى ديار الشرك من أوثانها ... حتى غدا تلوثُهن نكيرا

رفع القصور على نضَائد هامِهِم ... من بعد ما جعل القصور قبورا

بشواجِب الأَلياط تقطو في الظَّلا ... م قطاً، وتهوى في الصباح نشورا

غادرت أنطرسوس كالطرس امحى ... رسماً وحّمر درعها يحمورا

وهي الرماد لفتنة كانت عل ال ... إسلام أحكم كسره إكسيرا

هتمت طرابلسا فأصبح ثغرها ال ... بَسامُ من الثُّغور ثَغيرا

إقليدها كانت وقد أنطيته ... واسأل به ممن دهَتْه خبيرا

إن الأولى أمنوا وقاعك بعدها ... غُروا وقد ركبوا الأغَرّ غرورا

ألق العصا فيمن أطاع، ومن عصى ... منهم، ودمرْ أرضهم تذميرا

لا يُلهِهِم أن قد مَنَنْتَ، وشنها شعواء تُصلى الكافرين سعيرا

باكر بركَز قناً تُنسّف أسها والخيل صورّ كي تزيُرك صُورا

وتُريك لامعة التريك بساحة ال أقصى مُطهرة لها تطهيرا

أولَستَ من قوم إذا هزموا القنا فتلوا معاصمهم لها تسويرا!

وإذا هم خطبوا اليراع عزيزة ساقوا الشفار على المهار مهورا

الق قسيماهم إليك أزمَّة ال مُلك المطل على السُّها تأثيرا

ضحكت لك الأيام، واكتاب العدا قلقاً، فجئت مبشراً ونذيرا

لامُلك إلاّ ملكُ حمود الذّي تَخِذَ الكتاب مُظاهراً ووزيرا

تمشى وراء حدوده أحكامُه تأتمُّهن فيحكم التقديرا

يقظان، ينشر عدله في دولةٍ جاءت لِمَطْوِىَّ السّماح نُشورا

خلف الخلائف قائماً عنهم بما عَيُّوا به، ألْوى، الدَّ، غيورا

البرّ، والمعصوم، والمهدى، وال مأمون، والسفاح، والمنصورا

بشروابه به فعهودهم وعهادهم يَمْتَحن تحت لوائه منشورا

وأنشده بحلب في هذه السنة قصيدة أوّلها:

المجدُ ما ادّرعت ثراك هضابُه وتتقفتك شعوبه وشعابه

ملك تكنّفَ دين أحمد كنه فأضاء نِّيرهُ وصاب شهابه

فالعدل حيث تصرّفتْ أحكامه والأمن حيث تصرّمَتْ أشرابه

متهلل والموتُ في نبراته يُرجى ويرهب خوفه وعقابه

عقد اللّواء وسار يَقدهه، وما حلت عقودَ تَميمِها أترابه

أسد، فرائسه الفوارس، والظبا أظفاره، والسَّمهرية غابه

طبع الحديد فكان منه جنانه وسِنانه، وإهابه، وثيابه

وتهش ان كثب الوجوهُ، كانما أعداؤه تحت الوغى أحبابه

نشرت بمحمودٍ شريعة أحمدِ وأرى الصّحابة ما احتذاه صحابه

ما غاب أصلع هاشم فيها ولا ال فاروق باء بخطبه خطّابه

أبناء قيلة قائمون بنصره ... إن أجلبت من قاسط أحزابه

صبَحوا مُحلّقة البرنس يحالق ... حرش الضباب من القلوب ضبابه

ما زال يغلب من بغاه ضلاله ... حتى أتيح من الهدى غلابه

ملق بوحش الأصرمين، تزايلت ... آراؤه وتزايلت آلابه

دون الأرنظ سخت به نجداته ... ونجاده وقِرابه وقُرابه

سلبته دُرّةَ تاجه يدُ ضيغم ... لم تتْجه من بأسه أسلابه

وأتته تجلب جُوسلين جنائبٌ ... هّبت فقلّ إلى القتال هبابه

أسرته لا منعت سراه وعزه ... بالقاع إن رام الورود سرابه

يمشي فيسمعه وقائع قيده ... هزجا تقى دماً له أندابه

لا تل باشره، ولا كيسونه ... صدت منّى عنه ولا عنتابه

ضمنت شقاوته سعادة صافحٍ ... غطى على إعناته إعتابه

ما زال يغدر ثم يغدر قادراً ... حتى أتاه بجامحٍ أصحابه

قصر الأماني أن يملأ عصرك ال ... إسلامُ مضروبا عليه حجابه

مجر يجر إلى الغنائم قَبَّه ... وحمى يزار على الفتوح قبابه

وأنشده بحلب أيضا في شوال من هذه السنة قصيدة منها:

لقد أوطأت دين الله عزًّا ... أديمُ الشعريَيْن له رغام

دعاك وقد تناوشت الرزايا ... له اهًباً يوزعها العذام

فقمت بنصره والنّاس فوضى قيامٌ ... ذمّ ما اقترفت فئام

جذبت بضْبِعه من قعر يّمٍ ... له من فوق مقسمه التطام

صببت على الصليب صليب بأسٍ ... قواه تحت كلكاه خطام

وملت على معاقلهم فخرت ... ولاء مثل ما انتقض النّظام

بصرخد والخطيم، وفي عزاز ... وقائع هز مشهدها الأنام

ولو لم تعترف وتشم لأمسى ... وأصبح لا عراق ولا شآم

ويوم بالعُرَيْمة كان حتفاً على الإشراك أمقره العرام
لُقوك كأن ما سلّوه سيح وما اعتقلوه من خور ثمام
وهاب وقُورس وبكفرلاثا ذممت وأنت للجلىّ ذمام
صدمتهمُ بأرعنَ مُرجحَنّ كأن مطار أنسُره غمام
وأية ليلة لم تلف فيها لهم طيفاً يروع به منام
بنور الدين أنشر كل عدل تعفت في الثرى منه الرمام
وعاد الحق بعد كلال حدٍ حمى من أن تراع له سُوام
تألقّ عدله وذكت سطاه فَلاَ حيف يخاف ولا اهتضام
بقأوك خيرُ ما يرجوه راجٍ وأنفع ما يُبلّ به أوام

فصل

وفي هذه السنة ولد بحمص نور الدين ابن سماه أحمد، وهنأه به ابن منير في بعض قصائده، ثم توفى بدمشق، وقبره خلف قبر معاوية رضي الله عنه إذا دخل الحظيرة في مقابر الباب الصغير. وقصيدة ابن منير قد تقدم بعضها في أول الكتاب، ومنها في ذكر المولود:

توالت الأعيادُ، لا زلت لها تُبلى دبابيج البقاء وتُجِد:
الفطر، والميلاد، والمولود لو قابله بدر التّمام لسجد
ثلاثة تعرب عن ثلاثة لمثلها يذكر حمداً من حمد:
فتح مبين، وطلاب مُدْرك ودولة ما تنتهى إلى أمد

وله من أخر يقول:

وجئت بأحمدٍ فملأت حمداً موارد كان معدنُها عذابا
تهلل وجه ملكك يوم أهدت قوابلُه لك الملك اللّبابا
شبيهك، لا يغادر منك شيئا سَنا، وحيا، و بدلآ، واستْلابا
قسيم الحمد، إلا أن حرفاً من اسمك زاد للمعنى منابا
ألا لله يوم فَرَّ عنه وركْبٌ نصّ بالبشرى الرّكابا

قال أبو يعلى: في أواخر صفر توجه مجير الدين في العسكر ومعه مؤيد الدين الوزير إلى ناحية حصن بُصرى، ونزل عليه محاصراً لسرخاك واليه لمخالفته وجَوْره. وأراد مجير الدين المصير إلى حصن صرخد لمشاهدته، فاستأذن مجاهد الدّين واليه في ذلك، فقال له هذا المكان بحكمك، وأنا فيه والٍ من قِبَلِك وأنفذ إلى ولده سيف الدين محمد النائب فيه بإعداد مايحتاج إليه، وتَلَقى مجير الدين بما يجب له. فخرج إليه في أصحابه ومعه المفاتيح، وأخلى الحصن من الرجال، ودخل إليه في خواصه، وسر بذلك مجير الدين وتعجب، وشكره على ذلك. وعاد إلى مُخيَّمه على بُصرى وحاربها عدة أيام إلى أن استقر الصلح والدخول فيما أراد، وعاد إلى دمشق.

قال: وفي شوال توفى الأمير سعد الدولة أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الملحى ودفن في مقابر الكهف؛ وكان فيه أدبٌ وافر وكتابه حسنة ونَظْم جيّد وتقدم والده في حلب في التدبير والسّياسة وعرض الأجناد.

قال ابن الأثير: وفيها توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان وعهدإلى ابن أخيه ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد وخطب له ببلاد الجبل. وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خاصبك بن بلنكرى، فقام بامر ملكشاه، و لم يمهله غير قليل حتى قبض عليه، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود، وهو بخوزستان، يستد عيه إليه ليخطب له بالسلطنة وكان غرض خاصبك أن يقبض عليه أيضاً قيخلو وجهه من منازع من السلجوقية، وحنئذ يطلب السلطنة لنفسه. فلما كاتب محمداً أجابه إلى الحضور عنده، وسار إليه، وهو بهمذان، واجتمع به وخدم خاصّبك خدمة عظيمة فلما كان الغد دخل عليه خاصبك فقتله محمد وألقى رأسه إلى أصحابه، فتفرقوا، واستقر محمد وثبتت قدمه، واستولى على بلاد الجبل جميعها.

وكان قتل خاصبك سنة ثمان وأربعين، وبقى مطروحاً حتى أكلته الكلاب. وكان ابتداء أمره أنه كان من بعض أولاد التركمان، فخدم السلطان فمال إليه وقدمه حتى فاق سائنر الأمراء، واستولى على أكثر البلاد. وهو كان السبب في أكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأنفون من اتّباعه لما كان يُقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم.

وذكر الوزير يحيى بن هبيرة في كتاب الإفصاح، أنه لما تطاول على الخليفة المقتفي أصحاب مسعود وأساءوا الأدب، و لم يمكن المجاهرة بالمحاربة، اتفق الرأى على الدعاء على مسعود بن محمد شهراً، كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على رِعْل وذَكْوان شهرا. فابتدأ هو والخليفة سِرّا،كل واحد في موضعه، يدعو سحراً، من ليلة تسع وعشرين من جمادى الأولى سنة وأربعين وخمسمائة؛ واستمر الأمر على ذلك كل ليلة. فلما كان ليلة تسع وعشرين من جمادى الآخر،كان موت مسعود على سريره، لم يزد عن

الشهر يوما و لم ينقص يوماً. ووصل القُصّادُ بذلك من همذان إلى بغداد في ستة أيام؛ فأزال الله يده ويد أتباعه عن العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم. فتبارك الله رب العالمين، مجيب دعوة الداعين. قال: وكان الشيخ محمد بن يحيى يقول لا أدل على وجود موجود أعظم من إن يُدعى فيجيب.

ثم دخلت سفة ثمان وأربعين وخمسمائة

ففيها أخذت الفرنج، خذ لهم الله، عسقلان وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله سنة ثلاث وثمانين، كما سيأتي إن شاء الله تعلى.

قال الرئيس أبو يعلى التميمي: وتواصلت الأخبار من ناحية نور الدين وبقوة عزمه على جمع العساكر والتركمان، من سائر الأعمال والبلدان، للغزو في أحزاب الشرك والطّغيان، ولِنُصرة أهل عسقلان على الإفرنج النازلين عليها، وقد ضايقوها بالزحف إليها بالبرج المخذول، وهم في الجمع الكثير. واقتضت الحال توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى نور الدين في جمهور عسكره للتعاضد على الجهاد في ثالث عشر محرم، واجتمع معه في ناحية الشّمال، وقد ملك نور الدين الحصن المعروف بإفليس بالسيف، وهو على غاية المنعة والحصانة، وقتل من كان فيه من الإفرنج والأرمن وحصل العسكر من المال والسبي الشيء الكثير. ونهضوا طالبين ثغر بانياس، ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حماته، وتسهلت أسباب ملكته. وقد تواصلت استغاثه أهل عسقلان واستنصارهم بنور الدين، فقضى الله تعإلى بالخلف بينهم والقتل، وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل، فأجفلوا عنها من غير طارق من الإفرنج طرقهم، ولا عسكر رهقهم، ونزلوا على المترل المعروف بالأعوج، وعزموا على معاودة الترول على بانياس وأخذها، ثم أحجموا عن ذلك من غير سبب ولا موجب، وتفرقوا. وعاد مجيرالدين إلى دمشق ودخلها سالما في نفسه وجملته حادي عشر ربيع الأول، وعاد نور الدين إلى حمص ونزل بها في عسكره.

ووردت الأخبار بوصول أسطول مصر إلى عسقلان فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال، وظفروا بعدة وافرة من مراكب الفرنج في البحر، وهم على حالهم في محاصرتها ومضايقتها، والزحف بالبرج اليهم. واستمر ذلك إلى أن تيسرت لهم أسباب الهجوم عليها من بعض جوانب سورها، فهدموه، وهجموا البلد؛ وقتل من الفريقين الخلق الكثير، وألجأت الضرورة والغلبة إلى طلب الأمان، فأجيبوا إليه، وخرج من أمكنه الخروج في البر والبحر إلى ناحية مصر وغيرها. وقيل إن في هذا الثغر المفتتح من العُدد الحربية والأموال والميرة والغلال مالا يحصر فيذكر. ولما شاع هذا الخبر في الأقطارساء سماعه،، وضاقت الصّدور، وتضاعفت الأفكار بحدوث مثله فسبحان من لا يُردُّ نافذ قضائه، ولا يُدفع محتوم أمره عند نفوذه ومضائه.

قال وعرض بين الرئيس ابن الصّوفي وبين أخويه عزّ الدولة وزينها مشاحنات ومشاجرات، اقتضت المساعاة إلى مجير الدين في جمادى الأولى، فأنفذ مجير الدين إلى الرئيس يستدعيه للإصلاح بينهم في القلعة، فامتنع من ذلك وجلس في داره، وهم بالتّحصن عنه بأحداث البلد والغوغاء. وآلت الحال إلى تمكُّن زين الدولة منه بمعاونة مجير الدين عليه، وتقرر بينهما إخراج الرئيس من البلد وجماعة إلى حصن صرخد مع مجاهد الدين بزان واليه بعد أن قرر له بقاء داره وبستانه وما يخصة ويخص أصحابه. وتقلد أخوه زين الدولة مكانه، وأمر ونهى، ونفذ الأشغال على عادته في العجز والتقصير، وسوء الأفعال، والتماس الرشا على أقل الأعمال. ورأى مجير الدين عقيب ذلك التوصل إلى بعلبك لتطيب نفس واليها عطاء الخادم واستصحابه معه إلى دمشق لينوب عنه في تدبيرالأمور، وعاد وهو معه. واستشعر مجاهد الدين بزان أن نية مجير الدين قد تغترت فيه، فاستوحش من عَوْده إلى البلد بغير يمين يخلف له بها على أمانه في نفسه، فوعد بالإجابة، فعاد إلى داره بدمشق.

ثم هجس في خاطره من مجير الدين وأصحابه ما أوحشه منهم، فدعاه ذالك إلى الخروج من البلد سرا طالبا صرخد. فحين عرف خبره أنهض في طلبه وقص أثره، فأدرك وقد قرب من صرخد، ففبض عليه وأعيد إلى القلعة بدمشق، واعتقل بها اعتقالا جميلا.

ثم تجدد من الرئيس الوزير حيدرة المقدم ذكره اشياء ظهرت عنه، مع ما في نفس الملك مجير الدين منه ومن أخيه المسيب من المعرفة بالسعي والفساد، فاقتضت الحال استدعاءه إلى القلعة على حين غفلة عن القضاء النازل به، لسوء أفعاله، وقبح ظلمه، وخبثه. ثم عدل به الجانْدَارِية إلى الحمام بالقلعة، مستهل ذي القعدة، وضُربت عنقه صبراً، واخرج رأسه ونصب على حافة الخندق، ثم طيف به، والناس يلعنونه ويصفون أنواع ظلمه، وتفنُّنه في الفساد، ومقاسمة الّلصوص وقطاع الطريق على أموال الناس المستباحة، بتقديره وتدبيره وحمايته، وكثر السرور بمصرعه، وابتهج به. ثم زحفت العامة والغوغاء ومن كان من أعوانه على الفساد من أهل العَيْث إلى منازله وخزائنه.، ومخازن غلاته، وأثاثه وذخائره، فانتهبوا منها مالا يحصى، وغلبوا أعوان السلطان وجنده عليها بالكثرة، فلم يحصل السلطان من ذالك إلا النزر اليسير. ورد أمر الرئاسة والنظر في البلد إلى الرئيس رضىّ الدين أبي غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد بن علي التميمي في اليوم المقدم ذكره، فطاف في البلد مع أقاربه وأهله، وسكنت الدّهماء، و بولغ في إخْراب منازل الظالم ونقل أخشابها.

قال: وكان عطاء الخادم قد استبد بتدبير الأمور، ومدّيده في الظلم، وأطلق لسانه بالهجو، وأفرط في الاحتجاب، وقصر في قضاء الأشغال؛ فتقدم مجير الدين باعتقاله وتقييده، والاستيلاء على ما في داره

ومطالبته بتسليم بعلبك وما فيها من مال وغلال ثم ضربت عنقه، ونهبت العوام والغوغاء بيوت أسبابه وأصحابه.

قال: وورد الخبر من ناحية مصر بأن العادل المعروف بابن السّلار، الذي كانت رتبته قد علت، ومترلته في الوزارة قد تمكنت، كان لزوجته ولد يعرف بالأمير عّباس قد قدمه واعتمد عليه في الأعمال؛ ولعّباس هذا ولد قدمه الوزير وأنعم عليه، وأذن له في الدخول بغير إذن إليه فدخل عليه وهو نائماً في فراشه، فقطع رأسه، وحصل عّباس في منصب العادل، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قلت: هو أبو الحسن علي بن السّلار وزير خليفة مصر وهو الذي بنى مدرسة الشّافعية بالاسكندرية للحافظ أبي طاهر السّلفى، رحمه الله. كان قتله في سادس المحرم بمواطأةٍ من الخليفة الملقب بالظّافر بن الحافظ.

قال: وفيها في آخر شعبان توفى الفقيه برهان الدين أبو الحسن علي البخلي رئيس الحنفية، ودفن في مقابر الباب الصغير الجاورة لقبور الشهداء. وكان من التفقه على مذهبه ماهو مشهور شائع، مع الورع والدين، والعفاف والتّصوّف، وحفظ ناموس العلم، والتّواضع، والتّودّد إلى الناس على طريقة مرضية وسجّية محمودة.

قال: وورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الأديب أبي الحسين أحمد بن منير الشاعر في جمادى الاخرة. ووصل في ثاني عشر شعبان إلى دمشق الأديب الشاعر، أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني، ومن حلب، باستدعاء مجير الدين له، ومات بعد عشرة أيام، وفي الثاني والعشرين من شعبان. قلت: هما شاعراً الشام في وقتهما. وقد شبههما العماد الكتاب في كتاب الخريدة بالفرزدق وجرير، وكذلك كان اتفق موتهما في سنة واحدة، ومات جرير بعد الفرزدق بقليل. وقد سبق من شعرهما في مدح نور الدين رحمة الله قصائدة حسنة، وسيأتي غير ذلك في موضعه لغرض سنذكره.

ومما قاله ابن منير من قصصيدة له:

أيَا سيفاً أغر الدين منه ال ... غرارُ العضْبُ والنوم الغرار
ملأت جوانح الاقطار رجفاً ... كأن الأرض خامرها دُوار
علاك حلى شمس عدلك في دجاها ... بمفرقها، وفي يدها سوار
أضاءت شمس عدلك في دجاها ... فكلُّ زمان ساكنها نهار
تُحرق من عصاك وأنت ماء ... وتغرق من رجاك وأنت نار

ألا لله وجهك والمنايا مكحلة، وللبيض افترار
هتكت حجابه والنصر غيب وللهبوات طيٌّ وانتشار
بطعن للقلوب يه انتظام وضرب للرءوس به انتثار
تبادره، وكأن الموت غتم وما من عادة البدر الدار
أنخت على الصليب مطا صليبا به من صك مبركه هذار
بمشرفة المتاكب مقرابات لهن بمنتن كل وغى حضار
جبين بإنب أنب العناصي وإضن وللقنا منها ثمار
وفي هاب أهْبت بها، فجاءت كما أجلى من الكسم الصوار
وكم في فج حارم من حريمٍ عفته، فلا جدير ولا جدار
وأنطاكية أسْنَّتْ إليها فأجفل خيطها وله عرار
وصبح في عزاز بها عزاز فأمسى وهو وَعْثٌ أو خبار
يشق بها دُجا الغمرات عسفا جواد لا يُشق له غبار

وله من أخرى:

وما يرم الفرنجة مك فذٌّ فتحر عدّهُ خطط الحساب
أجاش الأربعاء لهم خميساً بعيد الغور ملتطم العباب
وأحكم بالخطيم لهم خطاما أمر بريمه مرّ الضراب
مشوا متساندين إلى صليب يبرقع هبوة الصمّ الصلاب
تُلفُّهم المنايا في الثنايا وتفجؤهم شَعوبُ من الشّعاب
أطاشت سهم كبشهم هناة فكنت ذباب طائشة الذّباب
حللت التّاج عنه وحل تاجا مكان العقد من عقد الكعاب
أناف على العقاب فكان أشهى وأبهى منه في ظل الُعقاب
فأشرف وهو عن شرفٍ معوق وأصعد وهو غاية الانصباب
تكاشره الشوامت وهو مغض ثناه مناه عن رجع الجواب
بعيداً من قراع واقتراع يؤوب له إلى يوم المآب

وكم سوط بخيلك أقبلوه الص — دور فكان سوطا من عذاب
تركتهم بأرض الشام شاما — لِظُفرٍ تتقيه، أو لِنَاب
هتكت حجابه والشمس وَسْنَى — بشمس لا توارى بالحجاب
بأبيض من حَبِيك الهند صافٍ — مَصُون المتن مبتذل الذّباب
له سمةُ الشيوخ صفاء شيب — وفي خطراته نزق الشباب
ألاَ يا ناظر الدنيا بعين — أرته علابها خدع السراب
تبطنها فطلّقهَا ثلاثاً — على عزّ التملق والخلاب
فلا يأوى إلى رأى شَعاعٍ — ولا يثنى إلى أمل خراب
ترفع عن مجاوزة الأماني — وحلق عن محاضرة التصابي
صلاة الله كل درور شمس — على مثوى أبيك من التّراب
فقد ألقى إلى الإسلام عضباً — يطّبق في النوائب غيرنا بي

تجيس له رَوَاسٍ كالرّواسي — تمد لها جِفان كالجوابي

وله من أخرى:

مُظفر العزم، ممدود الرواق على — معالم الدين، يرفيها ويبنيها
رد الكنائس كُنسا للهدى، فخبت — نار الظلال وواراتها أثافيها
وأورد العلم عدا من ايالته — فاستن وافتنّ عبّا في صوافيها
وبث للشرك أشراكاً فما درجت — طريدة منه إلا استوهقت فيها
يا بدرُ مُذْ أشرقت في الدّست غُرتهُ — غيثَ الرّعيةُ واخضلت مراعيها
أقام أحمد من محمودها علما — به استقام على البيضاء ساريها
محيى شريعته من بعد ما انهدمت — واستعجمت بعد إفصاح معانيها
شابت مواهبه فيها مهابته — حتى استقرت على سمت سواريها

وله من أخرى

عزت سيوفك، فالعراق عراقها — والشام غير مدافعات شامهاً

إن اغمدت حل العزائم حلها ... أوجردت حرم الكرى إحرامها
شخبت عداك بها، فلا إشراقها ... بمفازة منها، ولا إعتامها
سربت فصبحها بها يقظانُها ... هدأت فمستها بها أحلامها
كالماء، إلا أن في رشفاته ... ناراً حشاشات النّفوس ضِرامها
خفت على أيمانكم أوزانها ... يوم الوغى، واستثقلتها هامُها
حتى أحلن الشام شاما صرصرت ... فيه جنادبها وصدح هامها
ورَحَضْنَ أدْران الجزيرة بعد ما ... غمرت بها وهداتها وإكامها
شطرا أبرت، ومثله أنظرته ... وقع الخطوب تكرها، أيامها
بالخابطات الغاب، تزأر أسده ... والمجفلى الحي اللقاّح صيامها
أوردتها أجمات أنطاكية ... عنقا وقد شبب الصدا اجمامها
تلقى المشافر في مراشف، كلما ... بردت بها الأكباد زاد هيامها
فغدت وقد عز السراح سراحها ... وتوزعت في كنسها آرامها
ومشى الضلال القهقرى واستأصل ال ... آذان من رجع الأذان صلامها
وغدا يخللها الخليل سواحبا ... عذبا يمر لها العذاب غمامها
غضبا لدين الله خص جناحه ... بغيا وادمى صفحتيه لدامها
فالان رد النور فيه نوره ... وانجاب من تلك الهنات ظلامها
محمود المحمود اقداما إذا ... خام الكماة زلزلت اقدامها
الفارج الكرب العظام تضاجمت ... اشداقها وفرى القلوب ضغانها

وله من أخرى:

اما الرعايا فإنها رشفت ... لديك نعمى عذبا ثنايها
سلكت نهج العدل القويم بها ... فاحمدت دينها ودنياها
وكم امنيت خوفا فامنتها ... متالف الخوف خوفك الله
لله اقطارك التي قطرت ... لها مناها إلى منايااها
أنب في إنب فوارسها ... تردى فتردى أولادك إخراجها

أشجت لهاة البرنس هبوتها وكم عتا عاتيا فاشجاها

وجوسلين استساغ نطفتها فاحتلب الذل تحت مغداها

ردته صفرا من كل ما ملكت يداه ايد ما ضل مسراها

جويس جاستك اوجه لا رأت بؤسا وجاد الحيا محياها

سرية لوتكون فارسها يومئذ ما انبعثت اشقاها

لازال ظل النعماء عن ملك ما الشمس كفئا له إذا باها

والله جازيه عن مقيدة اعزها الله مذ تولاها

محمود المعتلى إلى فلك ال حمد وشيرا له ولاياها

اعطاكه جدك المتوج بالجد ونفس لله مغزاها

نفس عزوف وعن الخنا طبعت نزهها الله يوم سواها

أنت الذي سلم الأنام له يمنى طباق العلا ويسراها

وأنت مولى الملوك قاطبة من كان فنا خسرو شاهنشاها

والشعر هذا لا قول أحمده أوهبديل من قولتي واها

وله من أخرى:

يابن الذي لم يأل في نجدة ال اسلام إدلاجا وتهجيرا

تكتنف الشام وقد شام بر ق الخوف إنجادا وتغويرا

وكف كلب الروم من بعد أن أنشبه نابا وأظفورا

فأهله رقك إن أنصفوا رقا بحد السيف مسطورا

بدر هوى واستخلف الشمس في دستك إشراقا وتأثيرا

وله من أخرى:

ملك كسا الإسلام من ذبه بردا بتدبيج الظّبا معلما

من أصبح الشام به شامة يقطر من قتل عداه دما

لو لم يقم منصلتا دونه لم نلق في أقطارها مسلما

وله يمدحه بعد مصالحة صاحب حماة واهتمامه بالعرس وعوده إلى حلب

الدهر ما رضته بالجود والباس — مقسم بين أغراس وأعراسى
فتح تعاقبه فتح، ومطلب — داني المنال، وملك ثابت راسي
نصرا بُبصرى، وصفحا عن حماة لقد — أحسنت للداء حسما أيها الآسي
يابن الذي عنت الدنيا لدولته — من فاطمي أعز به وعباس

وله فيه أيضا:

غدا الذين باسمك سامي العلم — أمين العماد، مكين القدم
لذلك لقبت نورا له — وقد أغطش الظلم فيه الظلم
أضاءت بعدلك آفاقه — وفضت عرى الدين لما ادْلهم
ولم تمش زهواً لِنَصر الرّها — ومثلك أدرك غزم
ويوم بسوطا، بسطت الحمام — على الهضب من ركنها فانهدم
وبصرى وصرخد، لو لم تثر — دراكا لكانا رَدِيَفْى إرم
ومذ فض جيشك في الغوطتي — ن فض الصليب له ما نظم
وفي كفر لاثا، وهاب، حَلَل — ت عقد البرنس، ببيض خذم
معودة أنها لا تسل — إلا مقمقمة للقمم
ويوم بَسَرْفُود جرعتهم — أجابا أغصهم واصْطَلم
وفوق العريمة غشاهم — عرام حيوشك سيل العرم
وأنت بكلبهم في الكبول — مباح الحريم مذال الحرم
وبارتهم أذنت أنها — أبارتهم، فليبؤوا بذم
بنوهاً وأعلوا، ولم يعلموا — بما خط في اللوح منك القلم
وأنك خارم ما أحكمو — ومن ديننا راقع ما انحزم
فترفع من بعد خفض هدى — وتخفض من بعد رفع صنم
سمكت المدارس فوق النجوم — فكم منجم تحتها قد نجم
وعاش الحنيفي والشافعي — بما شدت منها وكانا رمم

وإن لم تكن هاشمي الأصول فإنك فرع الهزبر الهشم

ومن يدعى في العلا ما ادعيت وأنت ابن من عز لما احتكم

واقسم ما غاب سيف سقت مغارسه عين هذى الشيم

قلت: وقصائد ابن منير في مدح نور الدين فيكثرة، ونفسه فيها طويل. و لم يبق بعد موت القيسراني وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي إلا ابن أسعد الموصلى، وسيأتي شيء من شعره؛ إلى أن قدم العماد الكاتب الشام في سنة اثنتين وستين، فتسلم هذا الأمر، وعبر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغزواته بأحسن العبارات وأتمها نظما ونثرا. وسيأتي كل ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

قال ابن الأثير: وفيها توفى صاحب ماردين حسام الدين تمرناش، ووليها بعده نجم الدين إلى بن تمرناش ارتق قلت: وقد مدحه القيسراني والعرقلة وغيرهما من الشعراء

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة

قال ابن الأثير: ففيها ملك نور الدين دمشق وأخذها من صاحبها مجير الدين آبق بن محمد وكان الذي حمل نور الدين على الجد في ملكها أن الفرنج ملكوا في السنة الخالية عسقلان، وهي مدينة فلسطين حسنا وحصانة. ولما كانوا يحاصروها كان نور الدين يتلهف ولا يقدر على إزعاجهم عنها، لأن دمشق في طريقه وليس له على غيرها معبر، لاعتراض بلاد الإفرنج في الوسط. وقوى الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق، واستضعفوا مجير الدين، وتابعوا الغارة على أعماله وأكثروا الفتك بها والنهب والسبي. وزاد الأمر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعه كل سنة، وكان رسولهم يجئ إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد. ثم اشتد البلاء على أهلها حين أرسل الفرنج عبيدهم وامائهم الذين نهبوا من سائر بلاد النصرانية، وخيروهم من المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم، فمن أحب المقام تركوه، ومن أحب وطنه سار إليه. وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع إنسانٍ منهم كان يقال له مؤيد الدين، ابن الصوفي. فلما كانت الأمور بها هكذا خاف أهلها وأشفقوا من العدو، فلجأوا إلى الله تعالى ودعوه أن يكشف ما بهم من الخوف، فاستجاب لهم وأذن في خلاصهم مما هم فيه، على يد أحب عباده إليه، وأحسنهم طريقة، وأمثلهم سيرة، وهو الملك العادل حقا نور الدين محمود؛ فحسن له السعي ملك البلدة وألقاه في روعه. فلما خطر له ذلك أفكر فيه فعلم أنه أن رام ملكه بالقوة والحصار تعذر عليه،

لأن صاحبه متى رأى شيئا من ذلك راسل الفرنج واستعان بهمم واستمالهم. قلت: وقد كان سبق له بذلك سوابق قد تقدم ذكر شيء منها. ولذلك قال العرقلة يمدح أتابكه معين الدين أثر من قصيدة:

يظن صلاح الدين فرسان جلق ... كفرسانه، ما الأسد مثل الثعالب
رجال إذا قام الصليب تصلبت ... رماحهم في كل ماش وراكب
غدا يطلع الشام الفرنج بفيلق ... معوذة أبطاله للمصائب
لها الليل نقع والأسنة أنجم ... فما غير أبطال وغير جنائب

وصلاح الدين هذا المذكور ليس هو يوسف بن أيوب المشهور، فإن ذلك لم يكن حينئذ ملكا يقود الجيوش، وإنما هذا صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبساني صاحب حماة، أحد أصحاب زنكي، وقد تقدم ذكره مرارا، وكأنه كان في مقدمة الجيش النوري لما قصد دمشق في المرتين الأوليين، أوفي إحداهما، أوفى زمن حصار زنكي لها، والله أعلم.

قال ابن الأثير: وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه، كان، يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق، فكيف إذا أخذها وقوى بها. وانضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين، فإن الدم كان عنده عظيما، لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل. فلما رأى الحال هكذا عمد إلى إعمال الحيلة، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله، وواصلة بالهدايا، وأظهر له المودة حتى وثق إليه. ثم صار بكاتبه في بعض الأوقات ويقول له: إن فلانا، ويذكر بعض الأمراء الذين لجير الدين، قد كاتبني في المخامرة عليك فاحذره. فتارة يأخذ إقطاع أحدهم، وتارة يقبض عليه. فلما خلت دمشق من الأمراء، قدم أميرا كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، وكان شهما شجاعًا، وفوض إليه أمر دولته، وكان نور الدين لا يتمكن من دمشق معه. فقبض عليه مجير الدين وقتله، فقال له عند قتله: إن الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلني، فإنه سيظهر لك ما أقول. فلم يصغ إلى قوله، وقتله.

قلت: وفى بعض قصائد ابن منير ما يدل على أن عطاء هذا كان له مع نور الدين في دمشق حديث فإنه قال:

ودمشق في دمشق رجال سلم ... لحور نسائهم منهم نساء
هي الفردوس أصبح وهو عاف ... من العالي ومن خال خلاء
جنان ان تعرف الجنات فيها ... ولا رأى هناك، ولا رواء
لأسمح صعبها ودنت قصاها ... وأمكنك اقتياد وامتطاء
ويانعم العطاء عطاء رب ... توسطه فانشطه عطاء

تفاءل بإسمه فالفال وعد | يكون على ظباك به الوفاء
هو السبب الذي شزرت قوله | وهذبه بخدمتك الصفاء
وسيف إن نشمه تشم حساما | وإن يغمد فنار بل ذكاء

جنتة لك السعادة قطف رأى | لنقب الخادعيك به هناءً

ويجوز أنه لم يكن لعطاء في ذلك حديث، وإنما هذه الأبيات أو ما في معناها كانت سبب قتله لما بلغ مجير الدين ذلك. وعطاء هذا هو الذي ينسب إليه مسجد عطاء خارج الباب. الشرقي بدمشق؛ وجورة عطاء ببيت أبيات، وهي أرض فيها أخشاب كبارً من الحور تربى أوتاراً لجامع دمشق، وهي وقف عليه. وقد مدحه العرقلة وغيره من الشعراء.

قال ابن الأثير: فلما قتل عطاء قوى طمع نور الدين في دمشق فراسل أحداث البلد وزناطرته، واستمالهم، فأجابوه إلى تسليم البلد، فسار إليهم وحاصرهم عشرة أيام. فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الأموال وقلعة بعلبك إن رحلوا نور الدين عنه. فإلى أن اجتمعوا وجاءوا بلغهم أخذ نور الدين دمشق، فعادوا بخفي حنين. وأما نور الدين فإنه لما حاصرهم وضيق علي من به، ثار الأحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا إليه البلد من الباب الشرقي، فدخله بالأمان عاشر صفر، وحصر مجير الدين في القلعة، وراسله وبذل له. الإقطاع الكثير، من جملته مدينة حمص، فأجاب إلى تسليم القلعة وسار إلى حمص.

وقال ابن أبي طي: أنفذ نور الدين شيركوه رسولا إلى صاحب دمشق، فخرج في تجمل عظيم ومعه ألف فارس، فعظم على مجير الدين ذلك وقال: ما هذه رسالة، هذه مكيدة؛ و لم يتجاسر على الخروج إلى لقائه ولا أحد من أمراء دمشق. فاستوحش أسد الدين، ونزل بمرج القصب، وأغلظ لصاحب دمشق في المقال وأنقذ إلى نور الدين يعرفه بما جرى عليه. فسار نور الدين في عساكره، وزحف إلى البلد من شرقية، وكانت الحرب في عاشر صفر، وتولى أسد الدين القتال، وأبلى الجهد، فكر عساكر دمشق إلى الأسوار من قبلي البلد؛ و لم يكن أحد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب، لأن نور الدين كان من شرقها وجل العسكر مقابله. ورأى من كان مع نور الدين من الجاندريه والحلبيين خلو السور من المقاتلة، فتسرعوا إلى السور وتسلقوا به وحصلوا في الحال على الأسوار. ويقال إن امرأة كانت على السور، فدلت حبلا فصعدوا فيه، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم، وصعد جماعة أخرى ونصبوا علما وصاحوا بشعار نور الدين. فوقع على أهل البلد الخذلان، وكسر باب البلد ودخلت الخيالة منه وملك نور الدين دمشق. وكان لأسد الدين اليد الطولي في فتحها، فولاه نور الدين أمرها، ورد إليه جميع

أحوالها. وفي هذه السنة أقطعه نور الدين الرحبة.

وقال الرئيس أبو يعلى: في العشر الثاني من المحرم وصل الأمير أسد الدين شيركوه رسولا من نور الدين إلى ظاهر دمشق، وخيم بناحية القصب من المرج في عسكر يناهز الألف.، فأنكر ذلك ووقع الاستخوان منه، وإهمال الخروج إليه لتلقيه والاختلاط به، وتكررت المراسلات فيما اقتضته الحال، و لم تسفر عن سداد ولا نيل مراد، وغلا سعر الأقوات لانقطاع الواصلين بالغلات. ووصل نور الدين في عسكر. إلى شيركوه. ثالث صفر وخيم بعيون الفاسريا، عند دومة، ورحل في الغد ونزل بيت الآبار من الغوطة، وزحف إلى البلد من شرقيه وزحف إليه من عسكره وأحداثه الخلق الكثير؛ ووقع الطراد بينهم، ثم عاد كل من الفريقين إلى مكانه. ثم زحف يوما بعد يوم، وتأكد الزحف يوم الأحد عاشر صفر، وظهر العسكر الدمشقي فاندفع بين أيديهم حتى قربوا من سور باب كيسان والدباغة من قبلي البلد، وليس على السور أحد من العسكرية والبلدية لسوء تدبير صاحب الأمر غير نفر يسير لا يوبه لهم. فسرع بعض الرجالة إلى السور، وعليه امرأة يهوديه، فأرسلت إليه حبلا فصعد فيه وحصل على السور، و لم يشعر به أحد؛ وتبعه من تبعه وأطلعوا علما نصبوه على السور، وصاحوا: نور الدين يامنصور وامتنع الأجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وعدله، وحسن ذكره وبادر بعض قطاعي الخشب بفأسه إلى الباب الشرقي فكسر إغلاقه وفتحه، فدخل منه العسكر وسعوا في الطرقات، و لم يقف أحد بين أيديهم. وفتح باب توما أيضا ودخل الناس. منه. ثم دخل نور الدين وخواصه، وسُر كافة الناس من الأجناد والعسكرية، لما هم عليه من الجوع وغلاء الأسعار والخوف من منازلة الفرنج. الكفار. وكان مجد الدين لما أحس بالغلبة والقهر قد انهزم في خواصه إلى القلعة وأنفذ إليه، فأومن على نفسه وماله، وخرج إلى نور الدين، فطيب نفسه ووعده الجميل. ودخل نور الدين القلعة في يوم الأحد المقدم ذكره، وأمر بالمناداة بالأمان للرعية، والمنع من انتهاب شيء من دورهم. وتسرع قوم من الرعاع والأوباش إلى سوق على وغيره، فعاثوا ونهبوا، وانفذ نور الدين إلى أهل البلد بما طيب نفوسهم وأزال نفرتهم. وأخرج مجير الدين ما كان له في دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدار الأتابكية، دار جده، وأقام أياما. ثم تقدم إليه بالمسير إلى حمص في خواصه ومن أراد السكون معه من أسبابه وأتباعه، بعد أن كتب له المنشور بإقطاعه عدة ضياع بأعمال حمص، برسمه ورسم جنده؛ وتوجه إلى حمص على القضيه المقررة. ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أماثل الرعية من القضاة والفقهاء والتجار وخوطبوا بما زاد في إيناسهم وسرور نفوسهم، وحسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم تحقيق آمالهم؛ فأكثروا الدعاء له، والثناء عليه، والشكر لله تعالى على ما أصارهم إليه. ثم تلا ذلك أبطال حقوق دار البطيخ وسوقي

البقل، وضمان الأنهار، وأنشأ بذلك المنشور، وقرئ على المنبر بعد صلاة الجمعة. فاستبشر الناس بصلاح الحال، وأعلن الناس برفع الدعاء، إلى الله تعالى بدوام أيامه، ونصرة أعلامه.

وقال ابن الأثير: لما استقر نور الدين في البلد عمل مع أهله مكرمة عظيمة، وأظهر فيهم عدلا عاما. قلت: قد تقدم ذكره في أول الكتاب، وسيأتي منه أشياء مفرقة فيما بعد.

قال: وألق الإسلام جرانه بدمشق، وثبتت أوتاده؛ وأيقن الكفار بالبوار، ووهنوا واستكانوا؛ وصار جميع ما بالشام من البلاد الإسلامية بيد نور الدين. وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص وراسل أهل دمشق في إثارة الفتنة فانتهى الأمر إلى نور الدين، فخاف أن يحدث ما يشق تلاقيه، بل ربماً تعذر، لا سيما مع مجاورة الإفرنج. فأخذ حمص من مجير الدين وعوضه عنها مدينة بالس، فلم يرضها؛ وسارعن الشام إلى العراق، فأقام ببغداد وابنى داراً تجاور المدرسة النظامية، وتوفى بها.

قال: ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج كافة، علموا أنه لا يقعد عنهم وعن غزو بلادهم، والمبادرة إلى قتالهم؛ فراسله كل كند وقمص وتقربوا إليه. ثم إن من بتل باشر راسلوه وبذلوا له تسليما فأرسل إلى الأمير حسان المنبجي، وهو من أكابر أمراء نور الدين، وإقطاعه منبج، فأمره أن يتسلمها منهم. فسار إليها، وتسلمها، وحصتها، ورفع إليها ذخائر كثيرة.

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: وقد كان مجاهد الدين بزان أطلق يوم الفتح من الاعتقال وأعيد إلى داره. ووصل الرئيس مؤيد الدين المسّيب إلى دمشق، مع ولده النائب عنه في صرخد، إلى داره، معوّلا على لزومها، وترك التعرض لشيء من التصرفات والأعمال. فبدا منه من الأسباب المعربة عن إضمار الفساد، والعدول إلى خلاف مناهج السداد، والرشاد، ما كان داعيا إلى فساد النية فيه. وكان في إحدى رجليه فتح قد طال به ونسيه. ثم لحقه مرض وانطلاق متدارك أفرط عليه، واسقط قوته، مع فهاق متصل وقُلاع في فيه زائد. فقضى نحبه في رابع ربيع الأول، ودفن في داره، واستبشر الناس بهلاكه، والراحة من سوء أفعاله.

قال: ووردت الأخبار بقتل خليفة مصر الملقب بالظافر بن الحافظ، وأقيم ولده عيسى مقامه، وهو صغير يناهز ثلاث سنين، ولقبوه بالفائز، وعباس الوزير. ثم ورد الخبر بأن الأمير فارس الدين طلائع بن رزيك، وهو من أكابر الأمراء المقدمين، والشجعان المذكورين لما انتهى إليه الخبر وهو غائب عن مصر قلق لذلك وامتعض، وجمع واحتشد، وقصد العود إلى مصر. فلما عرف عباس بما جمع خاف الغلبة، فتأهب للهرب في خواصه وأسبابه وحرمه، وما تهيأ من ماله، وسار بهذا. فلما قرب من أعمال عسقلان وغزة خرج إليه

جماعة من خيالة الإفرنج، فاغتر بكثرة من معه وقلة من قصده فلما حملوا عليه فشل أصحابًه وأعانواعليه، وانهزم أقبح هزيمة، هو وابنه الصغير واسر ابنه الكبير، الذي قتل العادل ابن السلار، مع ولده وحرمه، وماله وكراعه، وحصلوا في أيدى الفرنج؛ ومن هرب لقي من الجوع والعطش شدة؛ ومات العدد الكثير من الناس والدواب ووصل في اثر هروبهم فارس الدين فوضع السيف فيمن ظفر به من أصحاب عباس، وانتصب في الوزارة وتدبير الأمور موضعه. ووصل إلى دمشق منهم من أنجاه الهرب على أشنع صفة من العدم والعرى، في آخر ربيع الآخر.

قلت: وفي ذلك يقول عمارة اليمنى من قصيدة له:

لكم يا بنى رزيك، لازال ظلكم ... مواطن، سحب الموت فيها مواطر

سللتم على عباس بيض صوارم ... قهرتم بها سلطانه وهو قاهر

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن نصر بن عباس لما قتل ابن السلار وتوزر أبوه عباس كان نصر يعاشر الخليفة الظافر ويخالطه، وعباس كاره لذلك مستوحش من ابنه، لعلمه بمذهب القوم وضرب بعض الناس ببعض حتى يفنوهم وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على أبيه ومواصلته بالعطايا الكثيرة؛ ففاتحني في ذلك فنهيته. فأطلع والده على الأمر، فاستماله أبوه ولطف به، وقرر معه قتل الظافر، وكانا يخرجان متنكرين، وهما تربان سنهما واحد. فدعاه إلى داره ورتب من أصحابه معه في جانب الدار نفراً؛ ثم لما استقر به المجلس خرجوا عليه فقتلوه؛ وذلك سلخ محرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، ورماه بجنب الدار وأصبح عباس جاء إلى القصر ضحوة نهار للسلام، فجلس في مجلس الوزارة ينتظر جلوس الظافر. فلما تجاوز وقت جلوسه استدعى، صاحب زمام القصر وقال: ما لمولانا ما جلس للسلام؟ فتبلد الأستاذ في الجواب؛ فصاح عليه وقال: مالك لا تجاوُبني قال: يامولاي؟ مولانا ما ندري أين هو. قال: مثل مولانا يضيع! ارجع واكشف الحال. فمضى ورجع؛ فقال: ما وجدنا مولانا. فقال يبقى الناس بلا خليفة! ادخل إلى الموالى إخوته يخرج منهم واحد لنبايعه. فمض وعاد، وقال: الموالى يقولون لك مالنا في الأمر شيء، والدنا عزله عنا وجعله في الظافر، والأمر لولده بعده. قال: أخرجوه حتى نبايعه. قال: وعباس قد قتل الظافر وعزم على ان يقول لإخوته أنتم قتلتموه ويقتلهم. فخرج ولد الظافر، ولعل عمره خمس سنين، يحمله الأستاذ؛ فأخذه عباس فحمله وبكى، وبكى الناس، ثم دخل به إلى مجلس أبيه، وهو حامله، وفيه أولاد الحافظ. قال ابن منقذ: ونحن في الرواق جلوس وفى القصر أكثر من ألف رجل من المصريين، فما راعنا إلا قوم قد خرجوا من المجلس مجتمعين إلى القاعة، فإذا السيوف تختلف على إنسان؛ فقلت لغلام

لي أرْمَنِيّ: انظر من هذا المقتول. فمضى وعاد وقال: ما هؤلاء مسلمين هذا مولاي أبو الأمانة جبريل بن الحافظ قد قتلوه، وواحد قد شق بطنه يجذب مصارينه. ثم خرج عباس وهو اخذ برأس الأمير يوسف تحت إبطه وفي رأسه ضربة سيف، والذم، يفور منها، وأبو البقاء ابن أخيهم مع ابنه نصر. ثم أدخلوهما خزانة في القصر فقتلوهما، وفي الخزانة ألف سيف مجرد قال،: وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي جرت عليّ لأني رأيت من الفساد والبغي ما ينكره الله سبحانه وجميع خلقه.

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في ديوانه قال كان لعباس أربعمائة جمل تحمل أثقاله، ومائتا بغل، ومائتا جنيب. فلما أراد الخروج من مصر يوم الجمعة رابع عشر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وقد قام عليه أهل مصر وعسكريتها، فارسهم وراجعهم، تقدم بشد خيله وجماله لتحمل ويخرج. فلما صار الجميع على باب داره، وقد ملأت ذلك الفضاء إلى قصر السلطان إلى الايوان، خرج غلام يقال له عنبر كان على أشغاله، وغلمانه كلهم تحت يده، فقال للجمالين والخَرْبَنْديّة والرّكابية: روحوا إلى بيوتكم وسيبوا الدواب. ففعلوا ذلك، وانحازوا إلى المصرين يقاتله معهم. وكان ما جرى، من تهميك الدواب لطفا من الله تعالى به، فإنها سدت الطريق بينه وبين المصريين. ومنعتهم من الوصول إليه، وهم في خلق كثير، ونحن في قلة ما نبلغ خمسين أرجلا؛ وغلمان عباس ومماليكه في ألف ومائتي غلام بالخيول الجياد والسلاح التام، وثمانمائة فارس من الأتراك؛ خرجوا كلهم من باب النصر ووقفوا في الفضاء الذي بينه وبين رأس الطابية فرارا من القتال. فشرع المصريون في نهب الخيل والجمال والبغال.فلما فتحوا طريقهم إليه خرج عباس من باب القصر وجاءوا في أثره حتى أقفلوا الباب وعادوا إلى نهب دوره. وكان عباس قد أحضر من العرب نحوا من ثلاثة آلاف فارس يتقوى بهم على المصريين، واستحلفهم، ووهبهم هبات عظيمة. فلما خرج من باب مصر غدروا به وقاتلوه أشد قتال ستة أيام، يقاتلهم من الفجر إلى الليل؛ فإذا نزل أمهلوه إلى نصف الليل، ثم يركبون ويهدون خيلهم على جانب الناس، ويصيحون صيحة واحدة، فتجفل الخيل وتقطع، ويخرج إليهم منها ما فيه منة وقوة فيأخذونه، فكان ذلك سبب هلاك خيله، وتمكن الإفرنج منه، واشتغاله عن سلوك طريق لا يقصد الفرنج إليه.

قال:ودامت الحرب بينه وبينهم من يوم الجمعة ضحى نهاره إلى آخر يوم الخميس، ثم جاءوا إليه وأخذوا منه حسبا على أموالهم وأنفسهم وبيوتهم ظنا أن له عودة إليهم؛ وانصرفرا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس. ويوم الأحد صبحتهم الإفرنج وقد هلك الناس من الجوع والعطش وماتت خيلهم، فقتلوا عباسا وابنه الأوسط، وأسروا ابنه الأكبر وقتلوا خلقا كثيرا؛ وأخذوا نساء عباس وخزائنه، وأسروا أولادا له صغارا وانصرفوا.

قلت: عباس هذا هو عباس ابن أبي الفتوح بن تميم بن المعز بن باديس الحميري ويلقب بالأفضل ركن الدين، ويكنى بأبي الفضل. ورأيت علامته في الكتب أيام وزارته: الحمد لله وبه أثق. وفيه يقول أسامة بن منقذ:

لقد عم جود الأفضل السيد الورى وأغنى غناء الغيث حيث يصوب

ومن أبيات لابن أبي أسعد فيه لما قتل الظافر:

وأنفق من أنعامهم في هلاكهم وأظهر ما قد كان عنه ينافق

ومد يدا هم طولوها إليهم وحلت بأهل القصر منه البوائق

سقى ربه كاس المنايا، وما انقضى له الشهر إلا وهو للكأس ذائق

وكان عباس قد تخيل من أسامة عند خروجه من مصر، يا يعلمه بينه وبين الملك الصالح من الودة والمصافاة، فأحضره واستحلفه أنه لا يفصل عنه. ثم لم يقنعه ذلك حتى أنقذ من أستاذى داره من يدخل على حرمه إلى داره، فأخذ أهله وأولاده، فتركهم عند أهله وأولاده، وقال قد حملت ثقلهم عنك، لهم أسوة بوالدة ناصر الدين، يعني ولده ناصر الدين، وبأخواته. فلما خرجوا ونهبت دورهم ودوابهم عجز عن حمل من يخصه، فأعادهم أسامة من بلبيس، وانفذ إلى الملك الصالح يقول له: قد أنفذت أهلي وأولادي اليك، وأنت ولى ما تراه فيهم. فأنزلهم في دار، وأجرى عليهم الجاري الواسع، وأحسن إليهم غاية الإحسان. وكان يكاتبه في الرجوع إلى مصر وهو بلطف الأمر معه قصدا لخلاص أهل. وأولاده؛ فلما عرف ذلك منه نسبه إلى وحشة قلبه من القصور، ونفوره من المصريين. فأنفذ إليه يقول له: تصل إلى مكة في الموسم ويلقاك رسولي إليها يسلم إليك مدينة أسوان، وأنفذ إليك أهلك؛ وأمدك بالأموال؛ وهي كما علمت، الثغر بيننا وبين السودان، وما يسد الثغر مثلك. واكثر من الوعد وذكر رغبته في قربه ورعايته، وما بين وبينه من قديم الصحبة. فاستأذن أسامة في ذلك الملك العادل نور الدين، وكان في خدمته. فقال: يافلان ما تساوي الحياة الشتات، والرجوع إلى الأخطار، والبعد عن الأوطان. ومنعة من ذلك بإحسانه ووعده أن يستخلص أهله. فكتب أسامة إلى الملك الصالح يعتذر ويسأله تسيير أهله.

وترددت بينهما مكاتبات، وأشعار متصلات، إلى أن سيرهم، وهم نيف وخمسون نسمة، في الإكرام والاحترام إلى آخر ولايته. وذكر أن أهل القصور والأمراء أنكروا تسييرهم، وقالوا نكون أهله رهائن عندنا لنأمن ما يكون منه. ووصله بعض أصحابه من دمشق، وهو في العسكر النوري بحلب، فأخبره أن من كان له بمصر من الأهل والأولاد والأصحاب وصلوا، وأن المراكب انكسرت بهم في ساحل عكا،

ونهب الفرنج كل ما فيه، و لم يصلوا إلي دمشق إلا بأنفسهم. وأن تملك الإفرنج أعطاهم خمسمائة دينار أصلحوا منها حالهم واكتروا ظهرا إلى دمشق، فقال أسامة.

إلى الله أشكو فرقة دميت لها جفوني، وأذكت في بالهموم ضميري

تمادت إلى أن لاذت النفس بالمنى وطارت بها الأشواق كل طير

فلما قضى الله اللقاء تعرضت مساءة دهري في طريق سروري

فصل

قال أبو يعلى: وفي آخر ربيع الأول وصل الأمير مجد الدين أبو بكر محمد نائب نور الدين في حلب إلى دمشق عقيب عوده من الحج، وأقام أياما وعاد إلى منصبه في حلب وتدبير أعمالها.قلت مجد الدين هذا هو ابن الداية؛ وكان نور الدين كثير الاعتماد عليه وعلى اخوته، وسيتكرر ذكرهم في هذا الكتاب. ومجد الدين أكبر إخوته، وقد مدحه الشعراء. قال القيسراني من بعض ما قاله فيه:

دعوا ما مضى من قبل هذا لما بعد فأقسم لولا المجد ما عرف المجد

كريم سمت أوصافه لعفاته قرائن كل اثنين بينهما عقد

محيّاه والبشرى، ويمناه والندى ونجواه والدنيا، وتقواه والزهد

ففي قربه الزلفى، وفي وعده الغنى وفي نيله الحسنى، وفي رأيه الرشد

إذا وجه نور الدين قابل مجده فقل في كمال البدر قابله السعد

وفى موسم هذه السنة توفى أمير الحرمين هاشم بن فليتة، وولى الحرمين ولده قاسم ابن هاشم، وهو الذي أرسل عمارة اليمنى الفقيه الشاعر إلى الديار لمصري، وسيأتي ذكره.

قال أبو يعلى: وفي ثامن جمادى الأولى ورد الخبر من ناحية مصر بان عدة وافرة من مراكب الفرنج من صقلية وصلت إلى مدينة تنيس على حين غفلة من أهلها، فهجمت عليها وقتلت وأسرت، وسبت ونهبت، وعادت بالغنائم بعد ثلاثة أيام، وتركتها صفرا. وبعد ذلك عاد من كان هرب منها في البحر بعد الحادثة، ومن سلم واختفى؛وضاقت الصدور عند استماع هذا الخبر المكروه.

قال: وفي شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة القاضي فخر لدين أبى منصور محمد بن عبد الصمد بن الطرسوسي؛ وكان ذاهمة ماضية، ويقظة ومروءة ظاهرة في داره وولده، ومن يلم به من غريب

ووافد؛ وقد نفذ أمره وتصرفه في أعمال حلب في الأيام النورية، وأثر في الوقوف أثرا حسنا توفر به ارتفاعها، ثم اعتزل عن ذلك أجمل اعتزال.

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة

ففيها تسلم نور الدين بعلبك من واليها ضحاك. ذكر ابن الأثير أن ذلك كان في سنة اثنتين وخمسين، وقال: كان ضحاك البقاعي ينوب ببعلبك عن، صاحب دمشق؛ فلما ملك نور الدين دمشق امتنع بها، و لم يمكن نور الدين محاصرتها لقربه من الفرنج؛ فلطف الحال معه إلى ذلك الوقت، فملكها، واستولى عليها.

وقال ابن أبي طي: لما فتح نور الدين دمشق اتصل ذلك بنجم الدين أيوب، فكاتب نور الدين في تسليم بعلبك، فانقذ إليه وتسلمها منه، وألحقه بأصحابه. قال: ورأيت بعض المؤرخين قد ذكر إن مجير الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة وجعله في البلد: وولى القلعة رجلا يقال له ضحاك. فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستترل منها ضحاكا. وتوسط أسد الدين في امر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعا وسيره إلى دمشق، فأقام فيها، ورد نظر دمشق إليه، وولى ولده تور انشاه شحنكية دمشق فساسها أحسن سياسة، و لم يزل بها إلى أن توفي، فولى صلاح الدين شحنكية .

قلت: هذا وهم تور انشاه هو الملك المعظم شمس الدولة الذي فتح اليمن في أيام أخيه صلاح الدين. فكيف يقول انه مات قبل أن يلي صلاح الدين شحنكية دمشق؟ وأما كونه ولى الشحنكية بدمشق قبل صلاح الدين فهذا قريب، وقد رأيت ما يؤكده. قرأت في ديوان العرقلة: وقال يهنئه بالشحنكية بدمشق وهو في دار عمه أسد الدين شيركوه ابن شاذى:

قلت لحسادك: زيدوا في الحسد ... قد سكن الدار، وقد حاز البلد
لا تعجبوا. إن حل دار عمه ... أماتحل الشمس في برج الأسد

وقال في صلاح الدين لما ولى الشحنكية:

لصوص الشام توبوا من ذنوب ... تكفرها العقوبة والصفاد
لئن كان الفساد لكم صلاحا ... فمولاي الصلاح لكم فساد

وله فيه:

رويدكم يالصوص الشآم ... فإني لكم ناصح في مقالي
واياكم وسمى النبيّ ... يوسف رب الحجا والحجال

فذاك مقطع أيدي النساء   وهذا مقطع أيدي الرجال

قال ابن أبي طي: وولى صلاح الدين شحنكية مشق والديوان، فأقام فيه أياما، ثم تركه وصار إلى حلب لأجل واقعة جرت بينه وبين صاحب الديوان، أبي سالم بن همام0 فأنفذ نور الدين وأخذ ابن همام وحلق لحيته، وطيف به في دمشق. قلت وابن همام هذا هو الذي ذكره الشنباشي في قصيدته وأشار إلى حلق لحيته بقوله:

كابى سالم بن همام لما   قام للنصح عاد يمشي ملثم

قال ابن أبي طي واستخص نور الدين صلاح الدين وألحقه بخواصّه، فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر. وكان يفوق الناس جميعا في لعب الكرة، وكان نور الدين يحب لعب الكرة.

قال أبو يعلى: ونزل نور الدين بعسكره بالأعمال المختصة بالملك قليج أرسلان ابن الملك مسعود بن سليمان بن قتلمش ملك قونية وما والاها، فملك عدة من قلاعها وحصونها بالسيف والأمان. وكان الملك قليج أرسلان وأخواه ذو النون ودولات. مشتغلين بمحاربة أولاد الدّانِشَمْند ونصروا عليهم في وقعة كانت بأقصرا في شعبان. فلما عاد قليج أرسلان وعرف ما كان من نور الدين في بلاده، عظم عليه هذا الأمر واستبشعه، مع ما بينهما من الموادعة والمهادنة والصهر. وراسله بالمعاتبة والإنكار، والوعيد. والتهديد، فأجابه نور الدين بحسن الاعتذار وجميل المقال. وبق الأمر بينها مستمرا على هذه الحال، وعاد نور الدين من حلب إلى دمشق.

قال: وولى الأسطول المصري مقدم شديد الباس، بصير باشتغال البحر. فاختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الفرنج، وألبسهم ثيابهم، ونهض بهم في عدة من المراكب الأسطولية، وأقلع في البحر لكشف الأماكن والمكامن، والمسالك المعروفة بمراكب الروم فتعرف أحوالها. ثم قصد ميناء صور، وقد ذكر له أن فيه شختورة رومية كبيرة فيها رجال كثير، ومال وافر. فهجم عليها وملكها، وقتل من فيها، واستولى على ما حوته، وأقام ثلاثة أيام، ثم احرقها وعاد عنها في البحر، فظفر بمراكب حجاج الفرنج، فقتل وانتهب وأسر وعاد إلى مصر بالغنائم والأسرى.

قلت:وفي هذه السنة ورد أمر الخليفة بغداد، وهو المقتفي، إلى أمير الحرمين، قاسم ابن هاشم، يأمره أن يركب على باب الكعبة المكرمة باب ساج جديدا قد ألبس جميع خشبه فضة وطلى بذهب، وأن يأخذ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه، ويسير إليه، خشب الباب القديم مجردا ليجعله تابوتا يدفن فيه عند موته. ذكر ذلك الفقيه عمارة الشاعر وقال: سألني أمير الحرمين أن أبيع له الفضة التي أخذها من الباب في

اليمن، ومبلغ وزنها. خمسة عشر ألف درهم، فتوجهت إلى زبيد وعدن من مكة، في صفر سنة إحدى وخمسين، وحججت في الموسم منها، فدفعت لأمير الحرمين ماله، وألزمني الترسل عنه إلى مصر، يعني مرة ثانية، بسبب جناية جناها خدمه على حاج مصر والشام.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها حاصر نور الدين قلعة حارم، وهي حصن غربي حلب بالقرب من أنطاكية، وضيق على أهلها؛ وهي من أمنع الحصون وأحصنها في نحور المسلمين. فاجتمعت الفرنج، من قرب منها ومن بعد، وساروا نحوه لمنعه. وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يرجعون إلى رأيه، فأرسل إليهم يعرفهم قوتهم، وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه، بما عندهم من العدد والعدد، وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء؛ وقال لم إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه. ففعلوا ما أشار به عليهم، وراسلوا نور الدين في الصلح على أن يعطوه حصة من حارم، فأبى أن يجيبهم إلا على مناصفة الولاية، فأجابوه إلى ذلك، فصالحهم وعاد. وفى ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدة؛ وذكر أبياتا من قصيدة لابن منير. وقد سبق أن ابن منير توفى سنة ثمان وأربعين. فإما أن يكون ابن منير قال هذا الشعر في غير هذه الغزاة، واما أن تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة.

وقد قرأت في ديوان ابن منير: وقال يمدحه ويهنئه بالعود من غزاة حارم:

مافوق شأوك في العلا مزداد ... فعلام يقلق عزمك الإجهاد
هم ضربن على السماء سرادقا ... فالشهب اطنابٌ لها وعماد
أنت الذي خطبت له حساده ... والفضل ما اعترفت به الحساد
قام الدليل وسلم الخصم الیلن ... دَدُ وانجلى للآثر الإسناد
زهرت لدولتك البلاد، فروحه ... أرج المهب، ودوحها مياد
أحيا ربيع العدل ميت ربوعها ... فالبرض نجم والهشيم مراد
فالعيش إلا في جنابك ميتة ... والنوم إلا في حماك سهاد
وإذا العِدا زرعوا النفاق وأحصدوا ... كيدا فعزمك ناقض حصاد
بالمقربات كان فوق متونها ... جن الملا، وكأنها أطواد
تداى ومن وحى الكماة صفورها ... فالزحر قيد والندى قياد

سحب إذا سحبت بأرض ذيلها فالحزن سهل والهضاب وهاد

يهدى النواظر في دُجُنّة نقعها بدر بسرجك نير وقَّاد

أليست دين محمد، يانوره عزا له فوق السماء إساد

مازلت تسمكه بمياد القنا حتى تثقف عوده المّياد

لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه عدد يراع به ولا استعداد

إن المنابر لو تطيق تكلما حمدتك عن خطبائها الأعواد

ولئن حمت منك الأعادي مهلة فلهم إلى المرعى الوبى معاد

ولَكَمْ لَكُمْ في أرضهم من مشهد قامت به لِظُباكمُ الأشهاد

مُلقٍ بأطراف الفرنجة كلكلا طرفاه ضرب صادق وجلاد

حاموا، فلما عاينوا حوض الردى حاموا برائش كيدهم أو كادوا

ورجا البرنس وقد تبرنس ذلة حرما بحارم، والمصاد مصاد

ضجت ثعالبه فأخرس جرسها بيض تناسب في الحديد حداد

وسواعد ضربت بهن وبالقنا من دون ملة أحمد الأسداد

يركزن في حلب ومن أفنانها تجنى فواكه أمنها بغداد

يامن إذا عصفت زعازع بأسه خمدت جحيم الشرك فهي رماد

عجبا لقوم حأولوك وحاولوا عودا فواتاهم إليه مراد

ورأوا لواء النصر فوقك خافقا فأقام منهم في الضلوع فؤاد

من منكر ان ينسف السيل الربا وأبوه ذاك العارض المداد

أو أن يعيد الشمس كاسفة السنا نار لها ذاك الشهاب زناد

لا ينفع الآباء ما سمكوا من الْ علياء حتى ترفع الأولاد

ملك يقيد خوفه ورجاؤه ولقلما تتظافر الأضداد

وقال يهنئه بالنصر يوم حارم قصيدة أولها:

لملكك ما نشاء من الدوام

حظيت من المعالي بالمعاني ولاذ الناس بعدك بالأسامي
عزيز المنتمى عالى المراق بعيد المرتمى غالى المسامي
فما أحد إلى العلياء يدلى بمحتدك القسيمى القسامى
أبوك المعتلى قمم الأعادي إذا استعرت مذامرة القمام
زكا عرق العراق وقد تكنى به وأطال من شمم الشام
وجدك جد حتى قال قوم على الفلك ابتنى عمد الخيام
فخرت ففت آباء عظاما إذا فخر المنافر بالعظام
وقفنا والنواظر مسجدات وروح العز ذارىّ الختام
أساطر كالزبور مقصلات كانا من صلاة في نظام
لدى ملك سجاياه سجال تعاقب بين عفو وانتقام
فأهلنا لسالفتي هلال وكفرنا لضاحكتي حسام
ذهلنا والسماط يخال سمطا وقد سجد المقاول للسلام
هل الدَّست استقل بليث غاب أم الفلك ارتدى بدر التمام
كريم، أكثرت يده أيادي الْ عفاة، وقللت عدد الكرام
وخير سماعه ضرب مدام إذا طرب الملوك إلى المُدام
تطير به إلى العلياء نفس غروب عن ملاءمة الملام
سقي الله العوامل من جبال سعفن النقع عن نقع الأوام
فكم أنتجت من أمل عقيم بها، وحسنت من داء عقام
بإنب والرعال، كأن ثول تطاوح تحت عير من أيام
وأيدي الخيل تذرع لج بحر من الدم مزيد الثَّجَّيْن طامى
مقام كنت قطب رحاه، ارجي مقام بين زمزم والمقام
أحلت الدين فيه، وكان هما عزيز القوم، معتدل القوام

رميتهم بأرعن مرجحن أبارهم، وكنت أبر رامى

وفى شجراء حارم شاجرتهم سواهم كالسهام بكالسهام
فطائر حممت لهم حماما تطاير تحته، مثل الحمام
فلو قد مثل الإسلام شخصا لرشف ما وطئت من السلام
حماه وقد تناعس كل راع وقام وقد تقاعس كل حام
فأكذب مدعين هفوا وغروا بأن الأرض تخلو من إمام
أولى الأبصاركم هذا التعاشي عن النور المبين بل التعامي
عن القمر الذي يجلوه ظل ال عواصم في ضيا الليل التهامي
هو المهدى لامن ضل فيه كثيرا واستخف سوى هشام
وقائم عصرنا لا ما يمنى به من صوغ أضغاث المنام
بنور الدين انشر كل حق أطيل ثواؤه تحت الرجام
وطالت قية الإسلام حتى اس توت بين الفوارس والنعام
تطابق لاسمه لفظ ومعنى أحلاه الطباق على الأنام
جرى قدامه ابن سبكتكين وقبل الوبل هينمة الرهام
وكان من النجوم بحيث تومى إليه من غيابات التكامى
وجئت فصار أشمخ ما بناه لما شيدت الطأ من رغام
أطاعك إذ أطعت الله جد ركبت به الزمان بلا زمام
ألا يارُ بما اتفق الأسامي وفاضل بينها درج التسامي
جنى شرفا من استغواه حتف إليك، وكم حياة من حمام
ترشفك الكماة وأنت موت كأنك من طعان في طعام

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: توجه نور الدين إلى ناحية حلب في بعض عسكره في الرابع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنج إليه بعيثهم في أعمال حلب وإفسادهم. وصادفه في طريقه المبشر بظفر عسكره الحلبي بالإفرنج المفسدين على حارم، وقتل جماعة منهم وأسرهم. ووصل مع المبشر عدة وافرة من رءوس الإفرنج المذكورين وطيف بها في دمشق.

قال: وعاد نور الدين إلى دمشق. في بعض أيام رمضان سالما بعد تهذيب حلب وأعمالها، وتفقد أحوالها واستقرت الموادعة بينه وبين ولد السلطان مسعود صاحب، قونية وزال ما كان حدث بينهما.

وفى شوال تقررت الموادعة والمهادنة بينه وبين ملك الإفرنج مدة سنة كاملة، أولها شعبان، وأن المقاطعة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية؛ وكتبت المواصفة بذلك بعد تأكيدها بالأيمان والمواثيق المشددة.

قال: وفى العشر الآخر من ذي الحجة غدر الفرنج ونقضوا ما كان استقر من الموادعة والمهادنة بحكم وصول عدة وكفرة من الفرنج في البحر، وقوة شوكتهم بهم؛. ونهضوا إلى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس، وقد اجتمع فيها من جشارات خيول العسكرية والرعية وعوامل فلاحى الضياع ومواشي الحلابين والعرب والفلاحين الشيء الكثير الذي لا يحص فيذكر، للحاجة إلى الرعي بها والسكون إلى الهدنة المستقرة، ووقع للمندوبين بحفظها تقصير؛ فانتهزوا الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه، وأفقروا أهله منه، مع من أسروه من تركمان وغيرهم، وعادوا ظافرين آمنين. والله عادل في حكمه، يتولى المكافأة لهم، والإدالة منهم. وقد فعل سبحانه ذلك على ما سيأتي في حوادث السنة الآتية.

وفيها توفي القاضي أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن قادوس، كاتب الإنشاء بالحضر. المصرية، وأصله من دمياط، ذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه. ومن شعره، في رجل كان يكثر التكبير في آخر الصلاة:

وفاتر النية عنينها — مع كثرة الرعدة والهزه
مكبر سبعين في مرة — كأنه صلى على حمزه

وله في وصف كتاب

مداده في الطرس لما بدا — قبله الصب ومن يزهد
كأنما قد حل فيه اللّمى — أو ذاب فيه الحجر الأسود

وبلغني أن القاضي الفاضل كان يعظمه كثيرا ويسميه ذا البلاغتين، وهو أحد من اشتغل الفاضل عليه، وكان لا يتمكن من اقتباس فوائده غالبا إلا في ركوبه من القصر إلى منزله بمصر، ومن منزله إلى القصر، فيسايره الفاضل ويجاريه في فنون الكتابة والأدب والشعر.

قال: وفي يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأول من هذه، السنة توفى الفقيه الزاهد أبو البيان نبا أبن محمد المعروف بابن الحوراني؛ وكان حسن الطريقة مذ نشأ صبيا إلى أن قض، متدينا نقيا، عفيفا سخيا، محبا

للعلم والأدب، والمطالعة للغة العرب. وكان له عند خروج سريره لقبره في مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الصحابة من الشهداء، رض الله عنهم، يوم مشهود، من كثرة المتأسفين له. والمثنين عليه.

قلت: وفي هذه السنة والتي بعدها كثرت الزلازل بالشام.

قال أبو يعلى: في ليلة الثاني والعشرين من ربيع الأول وافت زلزلة هائلة، وجاءت قبلها وبعدها مثلها في النهار وفي الليل، ثم جاء بعد ذلك ثلاث دونهن، بحيث أحصين ست مرات. وفي ليلة الخامس والعشرين منه جاءت زلزلة ارتاع الناس منها في أول النهار وآخره وتواصلت الأخبار من ناحية حلب وحماة بانهدام مواضع كثيرة وانهدام برج من أبراج أفامية بهذه الزلازل المباركه. وذكر أن الذي أحصى عدده منها تقدير الأربعين؛ وما عرف مثل ذلك في السنين الماضية، والأعصار الخالية. وفى التاسع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار، وبالليل ثانية في آخره؛ وفى أول شهر رمضان زلزلة مروعة، وثانيهآ، وثالثة؛ وفى ثالث رمضان ثلاث زلازل، وأخرى وقت الظهر، وأخرى هائلة أيقظت النيام وروعت القلوب انتصاف الليل. وفي ليلة نصف رمضان زلزلة هائلة أعظم مما سبق؛ وعند الصباح أخرى، رفي الليلة التي تليها زلزلتان أولها وآخرها، وفى اليوم الذي بعد يومها، وفي ليلة الثالث والعشرين زلزلة مزعجة. وفى ثاني شوال زلزلة أعظم مما تقدم، وفي سابعه، وسادس عشره، وفي اليوم الذي جاء بعده، أربع زلازل، وليلة الثاني والعشرين منه. ودفع الله تعالى عن دمشق وضواحيها ما خافه أهلها من توالى ذلك وتتابعه، برأفته بهم، ورحمته لهم؛ فله الحمد والشكر. لكن وردت الأخبار من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها، وأنهدام مساكنها. وأما شيزر فإن الكثير من مساكنها انهدم على سكانه بحيث قتل منهم العدد الكثير. وأما كفر طاب فهرب أهلها منها خوفا، على أرواحهم. واما حماة فكانت كذلك. وأما باقي الأعمال الشامية فما عرف ما حدث فيها من هذه القدرة الباهرة.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

ففي ليلة تاسع عشر صفر وافت زلزلة عظيمة، وتلاها أخرى. وكذا في ليلة العشرين واليوم بعدها. وتواصلت الأخبار من الشام بعظيم تأثير هذه الزلازل.

وفي ليلة الخامس والعشرين من جمادى الأولى وافت أربع زلازل، وضج الناس بالتهليل والتسبيح والتقديس. وفى ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان. وتواصلت الأخبار من ناحية الشمال بأن هذه الزلازل أثرت في حلب تأثيرا أزعج أهلها وأقلقهم، وكذا في حمص وهدمت مواضع فيها وفي حماة وكفر طاب وأفامية، وهدمت ما كان بنى من مهدوم الزلازل الأولى وحكى. أن تيماء أثرت فيها هذه الزلازل تأثيرا مهولا.

وفى رابع رجب نهارا وافت بدمشق زلزلة عظيمة لم ير مثلها فيما تقدم ودامت رجفاتها حتى خاف الناس على أنفسهم ومنازلهم، وهربوا من الدور والحوانيت والسقائف، وانزعجوا، وأثرت في مواضع كثيرة، ورمت من فص الجامع الشيء الكثير الذي يعجز عن إعادة مثله؛ ثم وافت عقيبها زلزلة في الحال، ثم سكنتا بقدرة من حركهما. ثم تبع ذلك في أول ليلة اليوم المذكور زلزلة، وفى وسطه زلزلة، وفى آخره زلزلة، وفي ليلة الجمعة ثامن رجب زلزلة مهولة أزعجت الناس وتلاها في النصف منها ثانية، وعند انبلاج الصبح ثالثة، وكذلك في ليلة السبت، وليلة الأحد، وليلة الاثنين؛ وتتابعت بعد ذلك بما يطول به الشرح. ووردت الأخبار من ناحية. الشمال بما يسوء سماعه ويرعب النفوس ذكره، بحيث انهدمت حماة. وقلعتها، وسائر دورها ومنازلها، على أهلها من الشيوخ والشبان، والأطفال والنسوان، وهم العدد الكثير والجم الغفير، بحيث لم يسلم منهم إلا القليل اليسر وأما شيزر فإن ربضها سلم إلا ما كان خرب أولا. وأما حصنها المشهور فإنه انهدم على واليها، تاج الدولة بن أبي العساكر بن منقذ ومن تبعه، إلا اليسير ممن كان خارجا. وأما حمص فإن أهلها كانوا قد اختلفوا منها إلى ظاهرها فسلموا وتلفت مساكنهم وتلفت قلعتها. وأما حلب فهدمت بعض دورها وخرج أهلها منها إلى ظاهر البلد وكفر طاب وأفاميه وما والاها ودنا منها وبعد عنها من الحصون والمعاقل إلى جبلة وجبيل. وأتلفت سلمية وما اتصل بها إلى ناحية الرحبة وما جاورها. ولو لم يدرك العباد، والبلاد رحمة الله تعالى ولطفه ورأفته لكان الخطب أقطع. وقد نظم في ذلك من قال.

روعتنا زلازل حادثات ... بقضاء قضاهُ رب السماء

هدمت حصن شيرز، وحماة ... أهلكت أهله بسوء القضاء

وبلادا كثيرة وحصونا ... وثغورا موثقات البناء

فإذا ما رنت عيون إليها ... أجرت الدمع عندها بالدماء

وإذا قض من الله أمر ... سابق في عباده بالمضاء

حار قلب اللبيب فيه ومن كا ... ن له فطنة وحسن ذكاء

وتراه مسبحا باكَي العين ... مَرُوعاً من سخطة وبلاء

جل ربي في ملكة، وتعالى ... عن مقال الجُهّال والسفهاء

قال: وأما أهل دمشق، فلما وافتهم الزلزلة في ليلة الاثنين التاسع والعشرين من رجب ارتاع الناس من هولها، واجفلوا من منازلهم والمسقف إلى الجامع والأماكن الخالية. من البنيان خوفا على أنفسهم. ووافت

بعد ذلك أخرى، ففتح البلد وخرج الناس إلى ظاهره والبساتين والصحراء، وأقاموا عدة ليال وأيام عل الخوف والجزع، يسبحون ويهللون، ويرغبون خالقهم ورازقهم في الطف بهم والعفو عنهم.

قال: وفى الرابع والعشري من رمضان وافت دمشق زلزلة عظيمة روعت الناس وأزعجتهم، لما وقع في نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشام من تتابع الزلازل فيها. ووافت الأخبار من ناحية حلب بان هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت من دورها وجدرانها العدد الكثير؛ وأنها كانت بحماة أعظم مما كانت في غيرها، وأنها هدمت ما كان عمر فيها من بيوت يلتجأ إليها. وأنها دامت فيها أياما كثيرة في كل يوم هذه وافرة من الرجفات الهائله، يتبعها صيحات مختلفات توفى على أصوات الرعود القاصفة المزعجة. فسبحان من له الحكم والأمر. وتلا ذلك ردفات. متوالية أخف من غيرهن. فلما كان ليلة السبت العاشر من شوال وافت زلزلة هائلة بعد صلاة العشاء الاخرة، أزعجت وأقلقت، وتلاها في أثرها هزة خفيفة. وكذا، في ليلة العاشر من ذي القعدة وفي غدها زلازل، وليلة الثالث والعشرين، والخامس والعشرين منه أيضا زلازل، نفر الناس من هولها إلى الجامع والأماكن المنكشفة، وضجوا بالتكبير والتهليل، والتسبيح والدعاء، والتضرع إلى الله تعالى. وفى يوم الجمعة، انسلاخ ذي القعدة، وافت زلزلة رجفت لها الأرض، وانزعج لها الناس.

وقال ابن الأثير: في سنة اثنتين وخمسين كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة أخربت البلاد وأهلكت العباد، وكان أشدها بمدينة حماة وحصن شيزر، فانهما خربا بمرة وكذا ما جاورهما كحصن بارين والمعرة، وغيرهما من البلاد والقرايا وهلك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع. ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بنور الدين، جمع وحفظ البلاد، وإلا كان دخلها الإفرنج بغير حصار ولا قتال. قال: ولقد بلغني من كثرة الهلكى أن بعض المعلمين بحماة ذكر أنه فارق لمهم، فجاءت الزلزلة فأخربت الدور وسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب.

قلت: وقرأت في ديوان الأمير الفاضل مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ: وقال في الزلازل التي أهلكت كثيرا من أهل الشام، وكان ابتداؤها في شهر الله رجب سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وهلك بها من ملك من الخلق، وكان نحوا من عشرة آلاف نسمة، قال: وكتب هذا المكتوب والزلازل إلى الآن تتعهد البلاد:

نمنا عن الموت والمعاد، وأصبح نا نظن اليقين احلاما

فحركتنا هذى الزلازل أي ... تيقظوا كم ينام من ناما

وقال أيضا:

أيها الغافلون عن سكرة المو ... ت واذ لا يسوع في الحلق ريق

كم إلى هذا التشاغل والغف ... لة، حار الساري وضل الطريق

إنما هزت الزلازل هذى ال ... أرض بالغافلين كي يستفيقوا

وقال في الزلازل أيضا، وقد سكن الناس بعد الدور والترهة في أكواخ عملوها بالأخشاب لئلا تهدها الزلازل:

يا أرحم الراحمين ارحم عبادك من ... هذى الزلازل فهي الهُلْك والعطب

ماجت بهم أرضهم حتى كأنهم ... ر كاب بحر مع الأنفاس تضطرب

"فنصفهم هلكوا فيها، ونصفهم=لمصرع السلف الماضين يرتقب

تعوضوا من مشيدات المنازل بال ... أكواخ فهي، قبور سقفها خشب

كأنها سفن قد أقبلت وهم ... فيها، فلا ملجأ منها ولا هرب

وقال يرثى أهله الذين هلكوا بالزلازل بحصن شيزر قصيدة منها:

ما استدرج الموت قومي في هلاكهم ... ولا تخرمهم مثنى ووحدانا

فكنت أصبر عنهم صبر محتسب ... وأحمد الخطب فيهم عز أوهانا

وافتدى بالورى قبلى، فكم فقدوا ... أخا، كم فأرقوا أهلا وجيرانا

لكن سقيت المنايا وسط جمعهم ... رغا، فخروا على الأذقان إذعانا

وفاجأتهم من الأيّام قارعة ... سقتهم بكئوس الموت ذيفانا

ماتوا جميعا كرجع الطرف، وانقرضوا ... هل ما ترى تارك للعين إنسانا

أعزز على بهم من معشر صبروا ... على الحفيظة إن ذو لوثة لانا

لم يترك الدهر لي من بعد فقدهم ... قلبا أجشمه صبر أو سلوانا

فلو رأوني لقالوا مات اسعدنا ... وعاش للهم والأحزان أشقانا

لم يترك الموت منهم من يخبرني ... عنهم، فيوضح ما قالوه تبيانا

بادوا جميعا وما شادوا، فواعجبا ... للخطب أهلك عمارا وعمرانا

هذى قصورهم أمست قبورهم   كذاك كانوا بها من قبل سكانا
ويح الزلازل، افنت معشري فإذا   ذكرتهم خلتني في القوم سكرانا
لا ألتقي الدهر من بعد الزلازل، ما   حييت، إلا كسير القلب حيرانا
أخنت على معشري الأدنْين فاصطلمت   منهم كهولا وشبانا وولدانا
لم يحمهم حصنهم منها، ولا رهبت   بأسا تناذره الأقران أزمانا
إن أقفرت شيزر منهم فهم جعلوا   منيع أسوارها بيضا وخرصانا
هم حموها، فلو شاهدتهم وهم   بها، لشاهدت آسادا وخفانا
تراهم في الورى اسدا، ويوم ندى   غيثاُ مغيثا، وفي الظلماء رهبانا
بنو أبي وبنو عمي، دمي دمهم   وإن أروني منأواة وشنانا

يطيب النفس عنهم انهم رحلوا   وخلفوني على الآثار عجلانا

وكتب إليه الصالح بن رزيك قصيدة يعزيه عن أهله منها:

بابي شخصك الذي لا يغيب   عن عياني، فهو البعيد القريب
يا أخلاى بالشام لئن غب   تم فشوقي إليكم لا يغيب
غصبتنا الأيام قربكم من   ا ولا بد أن ترد الغصوب
كره الشام أهله، فهو محقو   ق بألا يقيم فيه لبيب
إن تجلت عنه الحروب قليل   خلفتها زلازل وخطوب
رقصت أرضه عشية غنى الر   عد في الجو، والكريم طروب
وتثنت حيطانه إذ أمالت   ها شمال بزمرها وجنوب
لا هبوب لنائم من أمانيه   وللعاصفات فيها هبوب
وأرى البرق شامتا ضاحك السن   وللجو بالغمام قطوب
ذكروا أنه تذوب به السح   ب فما للصخور أيضا تذوب
أبذنب أصابها قدر الل   ه فالأرض، كالأنام، ذنوب
إن ظني، والظن مثل سهام الر   مي، منها المخطي ومنها المصيب

أن هذا لأن غدت ساحة القد س وما للإسلام فيها نصيب

منزل الوحي قبل بعث رسول الل ه، فهو المحجوج والمحجوج

نزلت وسطه الخنازير والخم ر، وبارى الناقوس فيه الصليب

لوراه المسيح لم يرض فعلا ذكروا أنه له منسوب

أبعد الناس عن عبادة رب الن اس قوم إلهم مصلوب

لهف نفسي على ديار من السك ان أقوت، فليس فيها عريب

فاحتسب ما اصاب قومك مجد الد ين، واصبر، فالحادثات ضروب

إن تخصصكم نوائب مازا لت لكم دون من سوامكم ننوب

فكذاك القناة، يكسر يوم الر وع منها صدر وتبقى الكعوب

وقرأت في ديوان العرقلة: كان المولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عبيد غلام المولى، وكان عيد هذا موصوفا بالثقل، في بيت بمدينة حماة يوم الزلزلة فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيت الذي هما فيه. فقال العرقلة:

قل لصلاح الدين رب الندى بلغ عبيدا كل ما امله

بثقه لما تصا حبتما سلمك الله من الزلزلة

وقرأت في بعض كتب أبي الحسين الرازي عن شيوخه وقع بدمشق في ذي القعدة سنه خمس وأربعين ومائتين زلازل عظيمة حكى نحو مما مض ذكره وأكثر؛ نسأل الله تعالى تمام العافية.

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: في ثالث عشر ربيع الأول توجه نور الدين إلى ناحية بعلبك لتفقد أحوالها وتقرير أمر المستحفظين لها. وتواصلت الأخبار إليه من ناحية حمص، وحماة بإغارة الفرنج الملاعين على تلك الأعمال.

وفي خامس عشر ربيع الأول ورد المبشر من العسكر المنصور برأس الماء بأن ناصر الدبن أمير أميران لما انتهى إليه خبر الفرنج أنهم قد أنهضوا سرية وافرة العدد إلى ناحية بانياس لتقويتها، أسرع النهضة إليهم، وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجالة. فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس وقد خرج إليهم من كان فيها من حماتها، فأوع بهم وقد كان كمن لهم في مواضع كمناء من شجعان الاتراك، واندفع المسلمون بين أيديهم في أول المجال، وظهر عليهم الكمناء، فأنزل الله نصره على المسلمين، بحيث لم ينج منهم إلا

القليل؛ وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح، ومسلوب وأسير. وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم، وأموالهم وأسراهم، ورءوس قتلاهم، ما لا يحدُ كثرة ومحقت السيوف عامة رجالتهم من الإفرنج ومسلمي جبل عاملة المضافين إليهم. ووصلت الأسرى ورءوس القتلى والعدد إلى دمشق، وطيف بهم، وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق، وكان يوما مشهودا وانفذ إلى نور الدين إلى بعلبك جماعة من أسرى المشركين فأمر بضرب أعناقهم صبرا.

قال: وتبع هذا الفتح ورود البشرى الثانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير إليه من شجعان التركمان، وافي قد ظفر من المشركين بسريه وافرة ظهرت في معاقلهم من ناحية الشمال، فانهزمت، وتخطف التركمان منهم من ظفروا به. قال: ووصل أسد الدين، إلى بعلبك في العسكر من مقدمي التركمان وأبطالهم للجهاد، وهم في العدد الكثير والجم الغفير، واجتمعوا بنور الدين. وتقررت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها، والابتداء بالنزول على بانياس. وقدم نور الدين دمشق في إخراج آلات الحروب وتجهيزه إلى العسكر بحيث يقيم أياما يسيرة ويتوجه. وأمر بالنداء بدمشق في الغزاة والمجاهدين؛ فتبعه من الأحداث والمطوعة، والفقهاء والصوفية والمتدينين خلق كثير؛ وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأول.

وفي سابع ربيع الآخر، عقيب نزول نور الدين على بانياس ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب، سقط بدمشق الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس، يتضمن كتابة الإعلام لورود المبشر من معسكر أسد الدين بناحية هونين في التركمان والعرب بأن الفرنج، خذلهم الله تعالى.، أنهضوا سرية من أعيان مُقدَّميم وأبطالهم تزيد على مائة فارس، سوى أتباعهم، لكبس المذكورين، ظّنامنهم بأنهم في قل، و لم يعلموا انهم في ألوف. فلما دنوا منهم وثبوا إليهم كالليوث إلى فرائسها فأطبقوا عليهم بالقتل والسمر، والسلب، و لم يبق منهم إلا اليسير. ووصلت الأسرى ورءوس القتلى وعددهم من الخيول المنتخبة، والطوارق، والقنطاريات، إلى دمشق وطيف بهم فيه يوم الاثنين تالي اليوم المذكور.

قال: وتلا هذه الموهبة المتجددة سقوط الطائر من المعسكر المحروس ببانياس، في يوم الثلاثاء تلو المذكور، يذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهرا، على مض أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور، عند تناهي النقب وإطلاق النار فيه، وسقوط البرج المنقوب وهجوم الرجال فيه، وبذل السيف في قتل من فيه، ونهب ما حواه، وانهزام من سلم إلى القلعة وانحصارهم بها، وأن أخذهم بمشيئة الله تعالى لا يبطيء، والله يسهله ويعجله.

قال: وانفق بعد ذاك أن الفرنج تجمعوا من معَاقلهم عازمين على استنقاذ الهنفري صاحب بانياس ومن معه

من أصحابه المحصورين بقلعة بانيس، وقد أشرفوا على الهلاك وبادروا وبالغوا في سؤال نور الدين الأمان ويسلمون ما في أيديهم من القلعة وما حوته لينجوا سالمين؛ فلم يجبهم إلى ما سألوه ورغبوا فيه. فلما وصل ملك الفرنج في جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفله من العسكرين، النازل على بانياس لحصارها، . والنازل على الطريق لمنع الواصل إليها، اقتضت السياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها واستخلصوا من كان فيها. وحين شاهدوا ماعم بانياس من إخراب سورها ومنازل سكانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى سقطت الأطيار بالكتب من المعسكر النوري تتضمن الإعلام بأن الملك العادل نور الدين، أعز الله نصره، لما عرف أن معسكر الكفرة الإفرنج على الملاحة، بين طبرية وبانياس، نهض في عسكره المنصور من الأتراك والعرب وجد في السير. فلما شارفهم وهم غازون، وشاهدوا راياته قد أظلتهم، بادروا بلبس السلاح والركوب وافترقوا أرع فرق؛ وحملوا على المسلمين. فعند ذلك ترجل الملك العادل نور الدين، فترجلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح، حتى زلزت بهم الأقدام، ودهمهم البوار والحمام. فأنزل الله نصره على المسلمين، وتمكنوا من فرسانهم قتلا وأسرا، واستأصلت لسيوف الرجالة، وهم العدد الكثير، فلم يفلت منهم غير عشرة نفر وقيل إن ملكهم لعنه الله فيهم، وقيل إنه في جملة القتلى، و لم يعرف له خبر. و لم يفقد من عسكر الإسلام سوى رجلين أحدها من لأبطال المذكورين قتل أربعة من شجعان الكفرة، وقتل عند حضور أجله إلى رحمة الله والآخر غريب لا يعرف؛ وكل منهما مض شهيدا، مثابا مأجورا، رحمهما الله وامتلأت أيدي العساكر من خيولهم وعددهم، وكُراعهم وأثاث سوادهم، وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بالاتها المشهورة وكان فتحا مبينا، ونصرا عزيزا. ووصلت الأسرى ورءوس القتلى إلى دمشق يوم الأحد تالي يوم الفتح، وقد رتبوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ومعهما راية من راياتهم منشورة، وفيها من جلود رءوسهم بشعرها عدة. والمقدمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كل واحد منهم على فرس، وعليه الزردية والخوذة، وفى يده رأيه. والرجالة كل ثلاثة وأربعة، وأقل وأكثر في حبل وخرج من أهل البلد الخلق الذي لا يحص لهم عدد، من الشيوخ والشبان، والنساء والصبيان، لمشاهدة ما منح الله تعالى ذكره، كافة المسلمين من هذا النصر المبين، وأكثروا شكر الله تعالى، والدعاء لنور الدين المحامي عنهم، والرامي دونهم، والثناء على مكارمه، والوصف لمحاسنه ونظم في ذلك أبيات في هذا المعنى:

ما رأينا فيما تقدم يوما | كامل الحسن غاية في البهاء

مثل يوم الفرنج لاحين علتهم ... ذلة الأسر والبلا والفناء
وبراياتهم على العيس زفوا ... بين ذل وحسرة وعناء
عد عز لهم وهيبة ذكر ... في مصاف الحروب والهيجاء
هكذا هكذا، هلاك الأعادي ... عند شن الإغارة الشعواء
شؤم أخذ الجشار كان وبالا ... عمهم في صباحهم والمساء
نقضوا هدنة الصلاح بجهل ... بعد تأكيدها بحسن الوفاء
فلقوا بينهم بما كان منهم ... من فساد يجهلهم واعتداء
لا حمى الله شملهم من شتهات ... بمواض تفوق حد المضاء
فجزاء الكفور قتل وأسر ... وجزاء الشكور خير الجزاء
ولرب العباد حمد وشكر ... دائم مع تواصل النعماء

قال: وشرع نور الدين في قصد أعمالهم لتملكها وتدويخها، والله المعين والموفق.

وقال ابن أبي طي: في سنة اثنتين وخمسين أغارت الفرنج على بلد حمص وحماة، وأفسدوا، وأكثروا العبث؛ واتصل ذلك بنور الدين فأنفذ إليهم عسكرا كثيفا، فأوقع بهم وهزمهم إلى أرض بانياس. وخرج نور الدين حتى نزل على بانياس وحاصرها، أشد حصار، حتى افتتحها في الثامن والعشرين من ربيع الأول، وأخذ جميع ما كان للفرنج فيها، وأنقذ الغنيمة والأساري مع أسد الدين إلى دمشق، وأنفذ معه مقدار ألف رأس. واتصل ذلك بالفرنج، فأنهضت إلى معارضة أسد الدين قطعة من خيالتها، واتصل هذا بأسد الدين، وقد دهمته الفرنج، قلبي لأمته، وتقدم في جماعة من مماليكه بين يدي العسكر، وأمر الرجال بلقاء الفرج، وناجزهم الحرب، فلم يتماسكوا بين يديه، ورجعوا على أدبارهم؛ وتبعهم مقدار فرسخين بقتل وبأسر؛ وغنم منهم غنيمة حسنة، وعاد. إلى أصحابه ظافرا، وتوجه في وجهته مؤيدا.

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: وفي العشر الثاني من جمادى الآخر تواصلت الأخبار بوصول ولد السلطان مسعود في خلق كثير للنزول على أنطاكية. وأوجبت الصورة تقرير المهادنة بين نور الدين وملك الإفرنج؛ وتكررت المراسلات بينهما والاقتراحات والمشاجرات، بحيث فسد الأمر و لم يستقر على مصلحة، ووصل نور الدين إلى مقر عزه في بعض عسكره، وأقر باقيه ومقدميه مع العرب بإزاء أعمال المشركين.

قال: وفي ثالث رجب توجه نور الدين إلى ناحية حلب وأعمالها لتجديد مشاهدها، وإمعان النظر في حمايتها عندما عاث المشركون فيها، وقربت عساكر الملك ابن مسعود منها. قال بعد ذلك: وقد تقدم من ذكر نور الدين ونهوضه في عساكره من دمشق إلى بلاد الشام عند انتهاء الخبر إليه بتجميع أحزاب الفرنج، خذلهم الله تعالى، وقصدهم لها وطمعهم، بحكم ما حدث من الزلازل والرجفات المتتابعة لها، وما هدمت من الحصون والقلاع والمنازل في أعمالها وثغورها لحمايتها والذب عنها إيناس من سلم من أهل حمص وشزر، وكفر طاب، وحماة، وغيرها، بحيث اجتمع إليهم العدد الكثير والجم الغفير، من رجال المعاقل والأعمال والتركمان. وخيم بهم بإزاء جمع الفرنج بالقرب مزن أنطاكية، وحصرهم، بحيث لم يقدر فارس منهم على الإقدام على الفساد. فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حماد؛ فلما اشتد به، وخاف منه على نفسة، استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران، وأسد الدين !شيركوه، وأعيان الأمراء والمقدمين، وأوصى إليهم ما اقتضاه رأيه، واستصوبه، وقرر معهم كون أخيه نصرة الدين القائم في منصبه من بعده، والساد لثلمة فقده، لاشتهاره بالشهامه وشدة البأس، ويكون مقيما بحلب؛ ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين واستحلف الجماعة على هذه القاعدة فلما تقررت اشتد به المرض، فتوجه في محفة إلى حلب وحصل في قلعتها، وتوجه أسد الدين إلى دمشق لحفظ أعمالها من فساد الإفرنج وتواصلت الأراجيف نور الدين فقلقت النفوس، وأزعجت القلوب، فتفرقت جموع المسلمين، واضطربت الأعمال وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شيزر وهاجموها وحصلو فيها فقتلوا، وأسروأ، ونهبوا. وتجمع من عدة جهات خلق وكثير من رجال الاسماعيليه وغيرهم، وظهرو عليهم، فقتلوا منهم وأخرجوهم من شيزر. واتفق وصول نصرة الدين إلى حلب فأغلق والى القلعة، مجدالدين، في وجهه الأبواب وعص عليه. فثارت أحداث حلب، وقالوا هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه فزحفوا في. السلاح إلى بابا لبلد وكسروا أغلفة؛ ودخل نصرة الدين في أصحابه وحصل في البلد. وقامت لأحداث على وإلى القلعة باللوم والنكار والوعيد، واقترحوا على، نصرة الدين اقتراحات من جملتها إعادة رسمهم في التأذين بحى عَلَى خَيْرَ العَمَل، مُحَمَّدٌ وعَلِيٌّ خَيْرُ البشر. فأجابهم إلى ما رغبوا فيه، وأحسن القول لهم والوعد، ونزل في داره. وأنفذ والى القلعة إليه والى الحلبيين يقول: موله نور الدين حي في نفسه وما كان إلى ما فعل حاجة. فقيل الذنب في ذلك للوالي؛ وصعد إلى القلعة من شاهد نور الدين حيا يفهمه، ما يقول وما يقال له. فأنكر ما جرى وقال: أنا أصفح للأحداث عن هذا الفعل الخطل ولا أؤاخذهم بالزلل؛ وما طلبوا لصلاح حال اخى وولى عهدى من بعدى وشاهد الأخبار وانتشرت البشائر في الأقطار بعافيته فأنست القلوب، بعد الاستيحياش، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج؛ وتزايدت العافيه، وصرفت الهمم إلى مكانات المقدمين، بالعود إلى جهاد الملاعين وكان نصرة الدين قد ولى مدينة حران وما أضيف إليها،

وتوجه نحوها ولما تناصرت الأخبار بالبشائر إلى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدين واعتزامه على استدعاء العساكر الإسلامية للجهاد، سارع بالنهوض من دمشق إلى حلب؛ ووصل إليها في خيله، فاجتمع بنور الدين فأكرم لقيا، وشكر مسعاه وشرعوا في حماية الأعمال، من شر عصب الكفر والضلال.
قال: ونظمت هذه الأبيات في هذا المعنى:

لقد حسنت صفاتك يا زماني		وفزت بما رجوت من الأماني
فكم أصبحت مرتاعا لخوف		فبدّلت المخالفة بالأمان
وجاءتنا أراجيف بملك		عظيم الشأن، مسعود الزّمان
فروعت القلوب من البرايا		وصار شجاعُها مثل الجبان

وثارت فتنة يُخشى أذاها		على الإسلام في قاصٍ ودان
ووافى بعد ذاك بشير صدق=بعافية المليك مع التهاني
فولى الخوف منهدم المباني		وعاد الأمن معمور المغاني

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة كانت الزلزلة التي هدمت شيزر، فخرج نور الدين وأخذها من بني منقذ وسلمها إلى مجد الدين ابن لداية، وسار إلى سرمين، لأنه بلغه حركة الفرنج، فاعترضه هناك مرض أشفى من؛ فأحضر شيركوه، وأوصاه بالعساكر، وأن يكون الامر بهذه لأخيه نرة الدين أمير أميران. فسار أسد الدين إلى دمشق وأقام بمرج الصفر أن يتحرك الفرنج إلى جهة دمشق أو غيرها؛ ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين فعاد إلى خدمته، منئا له بالعافيه. وكان أوخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب في مدة مرض نور الدين من مرضه سيرة إلى حران وجعل ولى عهدع أخاه قطب صاحب الموصل.
قال: ومان مجد الدين طمع في الملك لنفسه، فتحزم لأمره، وتقترب إلى الناس، زجعل له أصحاب أخبار، وشَحَن الطرقات والسبل بالرجال لتفتيش الخارجين من حلب وغيرهما والداخلين إليها.
قلت: ولابن منير تمنئة لنور الدين بالعافية من مرض غير هذا:

يا شمس لا كسف ولا تكدار		ولا خلت من نورك الأنوار
البدر منقوص وأنت كامل		لك السرايا وله السرار
برؤك الإسلام من أدوائه		برء، وفي أعدائه بوار
ما أنت إلا السيف صد صدأ		عن متنه مضربه البتار

لو كان محمولا أذى عن منفس … لحملته دونك الأبصار

ولوفدت أرض سماء، ساقت ال … ملوك في فدائك الأمصار

انت غياث محلهم إن أجدبوا … وخيرهم إن ذكر الخيار

وفى سرير الملك منها ملك … لله في سرائه اسرار

خير ملوك الأرض جدا وأبا … إن هز عطفي ما جد نجار

مد على الدين رواق دولة … تنازعت أسمارها للسمار

علت بنا، وحلت في يده … فهى عليه السور والسوار

محمود المحمود عصر ملكه … فلحيا من مزنها عتصار

يانور دين أظلمت آفاقه … لو لم تبلج هذه الآثار

لله أيامك، ما تخطه … بالمسك من إسفارها الأسفار

سلمت للإسلام، ترعى سرحه … إذا ولى رعاته وجاروا

شكوت فالدنيا على سكانها … قرارة جانبها القرار

كادت تموت الأرض من إشفاقها … لولا شفاء ردها تمار

زرت عليك الترك جيب نسب … يحسدها بزيه نزار

لا عَدِمت منك الأماني ربها … معطى من الإقبال ما يختار

ما سمح الدهر بأن تبق لنا … فكل جرح مسنا جبار

وله في قصيدة أخرى:

لا نؤدي لأنعم، الله شكرا … بك يا أعظم البرية قدرا

زور عشر وافي لإقلاع ذا … جعلا المنة الممناة عشرا

ام مغناك ضامنا أن ايا … مك تغنى الأحقاب عصرا فعصرا

في محل له السما كان سمك … وجدود لها المجرة مجرى

أيها العادل المظفر، لاقص … ت شبا الدهر من شباتك ظفرا

جعل الله ما استهل من الأش … هر ينهل في مغازيك نصرى

أبدا ينشر التهاني على سا … حاتك الزهر في المواسم نشرا

أنت أسرى الملوك نفسا وفلسا ... وإلى أسرهم من الطيف أسرى
ملك عنده المشارب تستم ... رى وأخلاف الجود تمرى فتفرى
فلك الله من.مثمر بذر ... يصطفى صالحا ويحصد أجرا
عش لملك أصبحت في الدست منه ... فوق كسرى عدلاً وشعبا وكسرا
تفطر الطيبات للقطر فطرا ... وتعم الأعداء في النحر نحرا
يقتنى من كساك أنفس ملبو ... س يفنيك منه أطول عمرا
أنت تملى ونحن ننظم ماتن ... ثره الغر من مساعيك نثرا
صرف الله عنك عين زمان ... بك صارت بعد الإصابة عبرى

وتوالت لك الفتوح إلى أن ... تملاء الخافقين نهيا وأمرا
كلما أبهجت ملابس نعمى ... وتمليتهن، جددت أخرى

وقال القيسراني من قصيدة:

أشرق البهو ياجبين الهلال ... فحلاه لوجهك المتلالي
عن ليال حجبن عنا سناها ... إنما غيبة الهلال ليالي
لم يكن ما ألم بالجسم شكوى ... فتهنا توافد الإقبال
لا ، ولا كان زائرا من سقام ... إنما كان طائفا من خيال
وعكة أقلعت وأنت صحيح ... ويصح النسيم بالاعتلال
أوما هذه السماء سرار ال ... بدر فيها على طريق الكمال
نعمة الله لايخص بها الخا ... لق إلأمن كان منه ببال
ولباس من المثوبة والغف ... ران ألبست ضافى الأذيال
فهنيئا لك البقاء وإن كا ... ن هناء يخص فيه المعالي
والتق، والندى، ومعربة الخي ... ل، وبيض الظبا، وسمر العوالي
والخلال التي إذا ما تحلت ... صدرت منك عن كريم الخلال
إن وقتك النفوس ما تتوقى ... فحقيق فدا الموالى الموالي

أو تحصنت في شعار من التق ... وى فما زلت منه في سربال
فشفى الله من أجل دوائي ... ه صريح الدعاء والإبتهال
ملك أبدل المخافة بالأم ... ن وأضحى بعد في الإبدال
وهو تاج الملوك، فالملك العا ... طال حال به على كل حال
وإذا النيران غابا، فنور الد ... ين شمس فجرية الآصال
قد أرت وجهك العلاما يريها ... وهى مرآة صالح الأعمال
وقض الله أن نجمك في الا ... نجم سام، وان جدك عال
كل يوم هذا المحيا محيى ... بالتهاني على يد الإقبال

فصل في ذكر حصن شيزر وولاية بني منقذ

فال ابن الأثير وهو حصن قريب من حماة، بينهما نحو نصف نهار. وهو من أمنع القلاع واحصنها، على حجر عال، له طريق منقور في طرف الجبل، وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب؛ فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود ود إليه وكان لآل منقذ الكنانيين، يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس إلى أن انتهى الأمر إلى الأمير أبي المرهف نصر بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم، بعد أبيه أبي الحسن علي، فبقى به مدة طويلة إلى أن مات بشيزر سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وكان شجاعا كريما، صؤاما قواما. فلما حضره الموت استخلف أخاه الأمير أبا سلامه مرشد بن على، وهو والد أسامة، فقال والله لا وليتها، ولا خرجن من الدنيا كما دخلتها وكان عالما بالقرآن والأدب، كثير الصلاح؛ فولاها اخاه أبا العساكر سلطان بن علي وكان أصغر منه، فاصطحبا أجمل صحبة من الزمان.فولد أبو سلامة مرشد عدة أولاد ذكور، فكبروا وسادوا. منهم عز الدولة أبو الحسن على، ومؤيد الدولة أسامة بن مرشدا. وغيرهما ولم يولد لخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر فجاءه أولاد، فحسد أخاه على ذلك؛ فكان كلما رأى صغر أولاده وكبر أولاد أخيه وسيادتهم ساءه ذلك وخافهم على أولاده وسعى المفسدون بينهما فغيروا كلا منهما على أخيه فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعرا يعاتبه على أشياء بلغته عنه، فأجابه بأبيات جيدة في معناها وكلهم كان أديبا شاعراً، فمنها:

ظلوم أبت في الظلم إلا تماديا ... وفي الصد والهجران إلا تناهيما
شكت هجرنا في ذاك، والذنب ذنبها ... فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين في، وطالما ... عصيت عذولاً في هواها وواشيا

ومال بِهاَتِيهُ الجمال إلى القلى وهيهات أن أمسى لها الدهر قاليا
ولا ناسيا ما أودعت من عهودها وإن هي أبد ت جفوة وتناسسيا
ولما أتاني من قريضك جوهر جمعت المعالي فيه لي والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حينا لأنه تولى برغمى حين ولى شبابيا

وأين من الستين لفظ مفوف إذا رمت أدْني القول منه عصانيا
وقلت أخي يرعى بنى وأسرتي ويحفظ عهدي فهم وذماميا
ويجزيهم ما لم أكلفه فعله لنفسي، فقد أعددته من تراثيا
فمالك أن جنى الدهر صعدتي وثلم مني ما كان ماضيا
تنكرت حتى صار بِرُّك قسوة وقربك منى جفوة وتنائيا
فأصبحت صفر الكف مما رجوته كذا اليأس قد عفى سبيل رجائيا
على أنني ما حلت عما عهدته ولا غيرت هذى السنون وداديا
فلا غَزْوَ عند الحادثات فإنني أراك يميني والأنام شماليا
تهن بها عذراء، لو قُرنت بهما نجوم السماء لم تعد دراريا
تحلت بد رمن صفاتك، زانها كما زان منظوم اللآلي الغوانيا
وعش بانيا للْجُود ما كان واهنا مُشيدا من الإحسان ما كان واهيا

قال: وكان الأمر فيه في حياة الأمير بض إلستر، فلما مات، سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، قلب أخوه لأولاده ظهر المجن، وبادأهم بما يسوءهم وتمادت الأيام بينهم إلى أن قوى عليهم فأخرجهم من شيزر.

وكان أعظم الأسباب في إخراجهم ما حدثت به عن مؤيد الدولة أسامة بن مرشد قال: كنت من الشجاعة والإقدام على ما قد علمه الناس فبينما أنا بشيزر وإذا قد أتاني إنسان أخبرني أن بدجلة، يقاربها، أسدا ضاريا فركبت فرسي وأخذت سيفي وسرت إليه لأقتله، ولم أعلم أحدا من الناس. لئلا أمنع من ذلك. فلما قربت من الأسد نزلت عن فرسي وربطته، وسثيت نحوه. فلما رآني قصدني ووثب فضربته بالسيف عل رأسه فانفلق، ثم أجهزت عليه، وأخذت رأسه في مخلاة فرسي وعدت إلى شيزر؛ ودخلت على والدتي، وألقيت الرأس بين يديها، وحدثتها الحال فقالت: يا بنى: تجهز الخروج من سيزر، فو الله يمكنك عمك من المقام، ولا أحداً من إخوتك، وأنتم على هذه الحال من الإقدام والجرأة. فلما كان الغد

أمر عمي بإخراجنا من عنده، وألزمنا به إلزاما لا مهلة فيه، فتفرقنا في البلاد. فقصدوا الملك العادل نور الدين وشكوا إليه ما لقوا من عمهم، فلم يمكنه قصده ولا الأخذ بثأرهم وإعادهم إلى أوطاهم، لاشتغاله بجهاد الفرنج، ولخوفه من أن تسلم شيزر إلى الفرنج؛ وبقي لي في نفسه وتوفى الأمير سلطان وولى بعده أولاده فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج، فاشتد ما في نفسه وهو ينتظر الفرصة. فلما خربت القلعة بالزلزلة و لم يسلم منها أحد كان بالحصن، بادر إليها. وملكها، وأضافها إلى بلاده، وعمرها واسوارها، وأعادها كان لم تخرب. كذلك أيضا. فعل بمدينه حماة، وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة، فعادت البلاد كأحسن ما كانت قلت: وسيأتي ذكر أسامة بن مر شد في أخبار سنة اثنتين وسبعين، وهى السنة التي قدم فيها دمشق من بلاد الشرق. وذلك أنه لما خرج من شيزر استوطن دمشق ثم فارقها، إلى الديار المصرية، وكتب إلى معين الدين أثر، أتابك صاحب دمشق، يعانيه في أسباب المفارقة قصيدة أولها:

وَلُوا، فلما رجونا عدلهم ظلمو — فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مر يوما بفكري ما يريبهم — ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم
ولا أضعتُ لهم عهدا، ولا اطلعت — على ودائعهم في صدري التهم
فَلَيْت شعري! بم استوجبتُ هجرهمُ — ملوا قصدهم عن وصلى السَّأم
حفظت ما ضيعوا، أغضبت حين جنوا — وفَيْتُ إذ غدروا،واصلت إذ صرموا
حُرِمتُ ما كنت أرجو من ودادهم — ما الرزق إلا الذي تجرى به القسم
وبعدُ لَوْ قيل لي ماذا تحب، وما — تختار من زبنَة الدُّنيا؟ لقلت هم
لهم مجال الكرى من مقلتي، ومن — قلبي محل المنى، جاروا أو اجترموا
تبدّلوا بي، ولا أبغى بهم بدل — حسبي هم أنصفوا في الحكم أو ظلموا
بلغ أميري معين الدين مالكه — من نازح الدار، لكن وده أمم
وقل له: أنت خير الترك فضلك ال — حياء والدين، والإقدام، والكرم

هلاَّ أنفت حياء أو محافظة — من فعل ما أنكرته العرب والعجم
أسلمتنا وسيوف الهند مغمدة — ولم يرو سنان السمهري دم
وكنت أحسب من والاك في حرم — لايعتريه به شيب ولا هرم
وما طُمانُ بأولى من أسامة بال — وفاء، لكن جرى بالكائن القلم

هبنا جنينا ذنوبا لا يكفرها عذر، فماذا جنى الأطفال والحرم
ألقيتهم في رضا الإفرنج متبعا رضا عداً يسخط الرحمن فعلهم
جرّبهمُ مثل تجريبي لتخبرهم فللرجاّل إذا ما جربوا قيم

وهي طويلة. وطمان المذكور خادم تركي كان لأتابك ملك الأمراء زنكي بن آق سنقر، هرب من خدمته إلى دمشق، فطلبه ولج فيه؛ فاشتمل عليه معين الدين للجنسية، وحماه. فلما لج فيه سيره إلى العرب.وقام له بما يحتاج إلى أن رده لخدمته بدمشق.

وبقي أسامة بمصر إلى أن خرج منها مع عباس، كما سبق ذكره، وأسر الفرنج أخاه نجم الدولة محمد بن مرشد، وطلب من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سلطان، صاحب شيزر، الإعانة في فكاكه فلم يفعل.

قال: وادخر الله سبحانه أجر خلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين، رحمه الله، فوهبه فارسا من مقدمي الدّاوية، يقال له المشطوب، قد بذل الإفرنج فيه عشرة آلاف دينار، فاستخلص به أخاه من الأسر

وبلغ أسامة أن القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري أنشد نور الدين:

ملكُ بنى منقذ تولى وكان فوق السِّماك سمكة
فاعتبروا، وانظروا، وقولوا سبحان من لا يزول ملكه

والمعروف ملك بني برمك، فغيره المنشد لما تمثل به في غرضه. فأجازهما أسامة، بهذه الأبيات:

وكل ملك إلى زوال لا يعتري ذا اليقين شكه
إن لم يزل بانتقال حال أزال ذا الملك عنه هلكه
والله رب العباد باق وهالك نده وشركه
فقل لمن يظلما البرايا غرك إمهاله وتركه
تنس ذنوبا عليك تحمى يحصرها نقده وحكه
كم ناسك نسكه رياء أوبقَه في المعاد نسكه
فاحذر فما يختفي عليه من عبده صدقه وافكه

وما أحسن ما قال أسامة في كبره:

مع الثمانين عاث الضعف في جَلَدي وساءني ضعف رجلي واضطراب يدى
إذا كتبت فخطى جد مضطرب كخط مرتعش الكفين مرتعد
فاعجب لضعف يدي عن حملها قلماً من بعد حطم القنا في لبة الأسد

وإن مشيت وفي كفى العصا، ثقلت رجلي، كأني أخوض الوحل في الجلد

فقل لمن يتمنا طول مدته هذى عواقب طول العمر والعدد

فصل في باقي حوادث سنه اثنتين وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى: تناصرت الأخبار بظهور أمير المؤمنين المقتفي على عسكر السلطان المخالف لأمره ومن انظم إليه من عسكري الموصل وغيره، بحيث قتل منهم العدد الكثير، ورحلوا عن بغداد مفرقين مغلولين خاسرين، بعد المضايقه والتناهي في المحاصرة والمصابرة.

قال: ووردت الأخبار في أوائل رجب بوفاة السلطان غياث الدين أبي الحارث سنجر بن الفتح بن ألب أرسلان، سلطان خراسان، عقيب خلاصه من الشدة التي وقع فيها، والأسر الذي حصل فيه وكان يحب العدل والإنصاف للرعايا، حسن السيرة، جميل الفعل؛ وقد علت سنه وطال عمره وكان قد ورد كتابها في أواخر صفر من هذه السنة إلى نور الدين بالتشوق إليه والإحماد لخلاله، وما ينتهي إليه من جميل أفعاله، وإعلامه ما من الله عليه به من خلاصه من الشدة التي وقع فيها، والأسر الذي بلى به في أيدي الأعداء الكفرة، من ملوك التركمان، بحيلة دبرها، وسياسة أحكمها وقررها، بحيث عاد إلى منصبه من السلطة المشهورة، واجتماع العساكر المتفرقة عنه إليه.

قال: وفي شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الشيخ مخلص الدين أبي البركات عبد القاهر بن على بن أبي جرادة الحلبي، وهو الأمين على خزائن مال نور الدين وكان كاتبا بليغا، حسن البلاغة نظما ونثرا، مستحسن الفنون من التذهيب البديع، وحسن الخط المحرر على الأصول القديمة المستظرفة، مع صفاء الذهن وتوقد الفطنة والذكاء وقال: وفيها رابع عشر شوال ورد الخبر من ناحية بصري بأن واليها فخر الدين سرخاك قتل غيلة بموافقة من أعيان خاصته. وكان فيه افراط في التحرر واستعمال التيقظا. ولكن القضاء لا يغالب ولا يدافع قال: وفي أوائل ذي القعدة ورد الخبر من حمص بوفاة واليها الأمير الملقب بصلاح. الدين وكان في أيام شبيبته قد حظي في خدمة عماد الدين زنكي، وتقدم عنده بالمناصحة وسداد التدبير، وحسن السفارة وصواب الرأى؛ ولما علت سنه ضعف عن ركوب الخيل، وألجأته الضرورة إلى الحمل في المحفة لتقرير الأحوال، والنظر في الأعمال؛ و لم ينقص من حسنه وفهمه ما ينكر عليه إلى حين وفاته. وحلفه من بعده أولاده في منصبه وولايته قال: وورد إلى دمشق إمامٌ من أئمة فقهاء بلخ في عنفوان شبابه وغضارة عوده، ما رأيت أفصح من لسانه في ببلاغَتْيه العربية والفارسية، ولا أسرع من جوابه ببراعته، ولا أطيش منه قلما في كتابته: أبو الحياة محمد بن أبي القاسم بن عمر السلمي ووعظ

في جامع دمشق عدة أيام والناس يستحسنون وعظه، ويستظرفون فنه، وسلاطة لسانة، وسرعة جوابه، وحدة خاطرة، وصفاء حسة.

قال ابن الأثير: وفيها في ذي الحجة توفى الأمير عز الذين أبو بكر الدبيسى صاحب جزيرة ابن عمر؛ وكان من أكابر الأمراء، ياخذ نفسه ماخذ الملوك وكان عاقلا حازما، ذا رأى وكيد ومكر. وملك الجزيرة قطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل، أخو نور الدين.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

قال الرئيس أبو يعلى: في أوائل المحرم تناصرت الأخبار من ناحية الفرنج المقيمين بالشام، خذلهم الله تعالى، بمضايقتهم لحصن صارم ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق إلى ان ضعف وملك بالسيف. وتزايد طمعهم في شن الغارات في الأعمال الشامية وايطلاق ألايدى في العبث والفساد في معاقلها وضياعها، بحكم تفرق العسكر الإسلامية والخلف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بعقابيل المرض العارض له. ولله المشيئة التي لا تدافع والأقضية التي لا تمانع0 وقال: وفي صفر ورد الخبر، والمبشر بترول نور الدين من حلب للتوجه إلى دمشق. واتفق للكفرة الملاعين تواتر الطمع في شن الغارات على أعمال حوران والإقليم، وإطلاق أيدى الفساد والعيث والإحراق والإخراب في الضياع، والنهب والسبي والأسر؛ وقصد داريا والترول عليها في انسلاخ صفر، واحراق منازلها وجوامعها، والتناهي في إخرابها. وظهرإليهم العسكرية والأحداث، وهموا بقصدهم والإسراع إلى لقائهم وكفهم؛ فمنع من ذلك بعد أن قربوا منهم. وحين شاهد الكفار، خذلهم الله تعالى، كثرة العدد الظاهر إليهم رحلوا في آخر النهار المذكور إلى ناحية الإقليم. ووصل نور الدين إلى دمشق وحصل في قلعته، سادس ربيع الأول، سالما في نفسه وجملته ولقي باحسن زي وترتيب وتجمل، واستبشر العالم بمقدمة المسعود وابتهجوا، وبالغوا في شكراللة تعالى على سلامتة وعافيتة والدعاء لة بدوام ايامة. وشرع في امر الاجتهاد والتاهب للجهاد.

قال: وفي أوائل ربيع الأول ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عسكرها إلى غزة وعسقلان، وأغاروا على أعمالها وخرج إليهم من كان بها من الفرنج الملاعين، فأظهر الله تعالى المسلمين عليهم قتلا وأسرا، بحيث لم يفلت منهم إلا اليسير، وغنموا ما ظفروا به وعادوا سالمين ظافرين. وقيل إن مقدم الغزاة في البحر ظفر بعدة من مراكب المشركين وهي مشحونة بالفرنج، فقتل وأسر منهم العدد الكثير، وحاز من أموالهم وعددهم وأثاثهم مالايحصى، وعاد ظافرا غانما.

قلت: وأرسل إلى مؤيد الدولة أسامة بن منقذ من وزيرها الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك قصيدة يشرح فيها هذة الغزاة ويحرص فيها نور الدين على قتال المشركين، ويذكرة بما من الله تعالى عليه

من العافيه والسلامة من تلك المرضة المقدم ذكرها. وكان كثيرا ما يكاتبه طالبا منه بالغزاة لحثه عليها.

واول هذه القصيدة:

إلا هكذا في الله تمضى العزائم ... وتُنضى لدى الحرب السيوف الصوارم

ويُستنزل الاعداء من طَوْد عزهم ... وليس سوى سُمْر الرماح سلالم

وتغزى جيوش الكفر في عقر دارها ... ويوطا حماها والانوف رواغم

ويوفى الكرام الناذرون بنذرهم ... وان بذلت فيها النفوس الكرائم

نذرنا مسير الجيش في صفرٍ، فما ... مضى نصفة حتى انثنى وهو غانم

بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا ... مفاوز وخد العيش فيهن دائم

فما هاله بعد الديار، ولا ثنى ... عزيمته جهد الظما والسمائم

يهجر والعصفور في قعر وكره ... ويسرى إلى الاعداء والليل نائم

يبارى خيولا ما تزال كانها ... إذا ما هي انقضت نسور قشاعم

يسير بها ضرغام في كل مازق ... وما يصحب الضرغام إلا الضراغم

ورفقته عين الزمان، وحاتم ... ويحيى، وان لاقى المنية حاتم

وواجههم جمع الفرنج بحملة ... يهون على الشجعان فيها الهزائم

فلقوهم زرق الاسنة، وانطووا ... عليهم، فلم يرجع من الكفر ناجم

وما زالت الحرب العوان اشدها ... إذا ما تلاقي العسكر المتضاجم

يشبههم من لاح جمعهمُ له ... بلجَّة بحر موجها متلاطم

وعادوا إلى سل السيوف، فقطعت ... رءوس، وحزّت للفرنج غَلاَصِم

فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر ... ولاقيل هذا وحده اليوم سالم

نقتلهم بالرأي طورا، وتارة ... تدوسهم منا المذاكى الصلادم

فقولوا لنور الدين، لا قل حده ... ولا حكمت فيه الليالي الغواشم

تجهز إلى ارض العدو، ولا تهن ... وتظهر فتورا إن مضت منك حازم

فما مثلها تبدى احتفالا به ولا ... يعض عليها للملوك الاباهم

فعندك من الطاف ربك مابه ... علمنا يقينا انه بك راحم

اعادك حيا إن زعم الورى بانك قد لاقيت ما الله حاتم
بوقت اصاب الأرض ما اصابها وحلت بها تلك الدواهى العظائم
وخيم جيش الكفر في الض شيزر فسيقت سبايا واستحلت محارم
وقد كان تاريخ الشام وهلكه ومن يحتويه انه لك عادم
فقم،واشكر الله الكريم بنهضه إليهم،فشكر الله للخلق لازم
فنحن ىلى ما عهدت،نروعهم ونحلف جهدا اننا لا نسالم
وغاراتناليست تفتر عنهم وليس ينجى القوم منا الهزائم
فاسطولنا اضعاف ما كان سائرا إليهم،فلا حصن لهم منه عاصم
ونرجو بان يجتاح باقيهم به وتحوى الاسارى منهم والغنائم

وكتب إليه أيضاً:

يا سيدا يسمو بهم ته إلى الرتب العليه
فينال منها حين يح رم غيره اوفى مزيه
انت الصديق وان بعد ت،وصاحب الشيم الرضيه
ننبيك إن جيوشنا فعلت فعال الجاهليه
سارت إلى الاعداء من ابطالها مائتا سريه
فتغير هذى بكرة وتعاود الاخرى عشيه
فالويل منها للفر نج فقد لقوا جهد البليه
جاءترءوسهم تلو ح على رءوس السمهريه
وقلائع قد قسمت بين الجنود على السويه
وخلائق كسرت من ال أسرى تقاد إلى المنيه
فانهض فقد أنبيت مَجْ د الدين بالحال الجليّه
والمم بنور الدين واع امه بهاتيك القضيه
فهو الذي ما زال يخ لص منه أفعالاً ونيه
ويبيد جمع الكفر بال بيض الرّقاق المشرفيه

فعساه ينهض نهضه يفنى بها تلك البقيه

إما لنُصرة دينه أو مُلكه، أو للحميه

وكتب إليه أيضاً:

أيها المفتدي، لأنت على البُع د صديق لنا، ونعم الصّديق

ليس فيما تأتيه من بر أفعا لك للطالب الحقوق عقوق

فلهذا نرى مواصلة الكت ب تباعاً إليك خليق

ونناجيك بالمهات، اذ أنْ ت بالقائها إليك خليق

وأهم المهم أمر جهاد ال كفر، فاسمع فعندنا التحقيق

واصلتهم منا السرايا، فأشجا هُم بُكُورٌ منا لهم وطرق

وأباحت ديارهم، فأباد ال_قوم قتل ملازم وحريق

وانتظرنا بزحفنا برءُ نور الد ين، علماً منّا بأن سيُفيق

وهو الآن في أمان من الل ه، وما يعتريه أمر يعوق

ماً لهذا المهم مثلك مجد الد ين، فانهض به فانت حقيق

قل له، لا عداء رأى، ولازا ل له بكل خير طريق

أنت في جسم داء طاغية الكف ار ذاك المرجو والمرموق

فاغتنم بالجهاد أجرك كي تل قى رفيقا له ونعم الرفيق

فاجبه اسامه بقصية منها:

يا أمير الجيوش ما زال للاس لام والدين منك ركن وثيق

أسمعت دعوة الجهاد، فلبا ها مليك بالمكرمات خليق

ملك عادل أنار به الدي ن، فعم الإسلام منه للشروق

ماله عن جهاده الكفر، والعد ل، وفعل الخيرات شغل يعوق

هومثل الحسام: صدر صقيل لين منه، وحد ذليق

ذوانة بجمالها الغر اهما لا، وفيها حتف الأعادى المحيق

فاسلما للإسلام كهفين ما طر ز ثوب الظلام برق خفوق

وكتب الصالح إليه أيضاً:

قل لابن منقذ الذي قد حاز في الفضل الكمالا
فلذاك قد أضحى الأنا م علىمكارمه عيال
كم قدبعثنا نحوك ال ا شعارمسرعة عجالا
وصددت عنها حين را مت من محاسنك اوصال
هلاّ بذلت لنا مقا لأ، حين لم تبذل فعالا
مع أننا نوليك صب را في المودة، واحتمال
ونبثك الأخبار إن أضحت قصاراً أو طوالا
سارت سرايانا لقص د الشام تعتسف الرمالا
نزجي إلى الأعداء جر د الخيل اتباعا توالى
تمضى خفافا للمغا ر بها، وتاتينا ثقالا
حتى لقد رام الأعا دى من ديارهم ارتحال
وعلى الوعيرة معشر لم يعهدوا فيها القتالا
لما نأت عمن يحف بها يمينا أو شمالا
نهضت إليها خيلنا من مصر تحتهمل الرجالا
والبيض لامعة، وبي ض الهند، والأسل النهالا
فغدت كان لم يعهدوا في أرضها حيا حلالا
هذا، وفي تل العجا ل ملأن بالقتلى التلالا
اذ مر مرى ليس يد وى نحو رفقتها اشتغالا
واستق عسكرنا له أهلا يحبهم ومالا
وسرية ابن فرنج الطا ئي طال بها وصالا
سارت إلى أرض الخلي ل فلم تدع فيها خلالا
فلو إن نور الدين يج عل فعلنا فيهم مثالا

ويسير الأجناد جه … را، كي ينازلهم نزال
ووفى لنا، ولأهل دو … لته، بما قد كان قالا
لرأيت للافرنج طرا … في معاقلها اعتقالا

وتجهزوا للسير نح … و الغرب، أو قصدوا الشمالا
واذا أبى إلآ اطرا … حا للنصيحة واعتزالا
عدنا بتسليم الأمو … ر لحكم خالقنا تعالى

فأجاب ابن منقذ بقصيدة منها:

يا اشرف الوزراء اخ … لاقا، واكرمهم فعال
نبهت عبدا طالما … نبهته قدرا وحالا
وعتبته، فانلته … فخرا، وحمدا، لن ينالا
لكن ذاك العتب يش … عل في جوانبه اشتعالا
اسفا لجد مال عن … ه إلى مساءته ومالا
اما السرا ياحين تر … جع بعد خفتها ثقالا
فكذاك عاد وفود با … بك مثقلين ثنا ومالا
ومسيرها في كل ار … ض تبتغي فيها المجالا
فكذاك فضلك مثل عد … لك في الدنا سارا وجالا
فاسلم لنا حتى نرى … لك في بنى الدنيا مثالا
واشدد يديك بود نو … ر الدين والق به الرجالا
فهو المحامي عن بلا … د الشام جمعا إن تذالا
ومُبيد أملاك الفرن … ج وجمعهم حالا فحالا
ملك يتيه للدهر والد … نيا بدولته اختيالا
جمع الخلال الصالحا … ت فلم يدع منها خلالا
فإذا بدا للناظري … ن رأت عيونهم الكمالا

فبقيم للمسلمي ن حمى وللدنيا جمالا

وكتب إليه الصالح من قصيدة تقدم ذكرها فيها لزلازل:

ولعمرى ان المناصح في الدي ن على الله أجره محسوب
وجهاد العدو بالفعل والقو ل على كل مسلم مكتوب
ولك الرتبة العلية في الأم رين مذ كنت إذ تشب الحروب
أنت فيها الشجاع، مالك في الطع ن ولا في الضراب يوماً ضريب
وإذا ما حرضت، فالشاعر المف لق فيما يقوله، والخطيب
وإذا ما أشرت فالحزم لاين كر ان التدبير منك نصيب
لك رأى يقظان إن ضعف الرا ئ، على حاملى الصليب صليب
فانهض الآن مسرعا، فبأمثا لك مازال يدرك المطلوب
الق منا رسالة عند نور الد ين مافي إلقائها مايريب
قل له، دام ملكه، وعليه من لباس الإقبال برد قشيب
أيها العادل الذي هو للدي ن شباب، وللحروب شيب
والذي لم يزل قديما عن الإس لام بالعزم منه تجلى الكروب
وغداً منه للفرنج، إذالا قوه، يوم من الزمان عصيب
إن يرم نزف حقدهم فلا شطا ن قناة في كل قلب قليب
غيرنا من يقول ما ليس يمضي ه بفعل، وغيرك المكذوب
قد كتبنا إليك ما وضح الا ن، بماذا عن الكتاب تجيب؟
قد قصدنا أن يكون منا ومنكم أجل في مسيرنا مضروب
فلدينا من العساكر ما ضا ق بأدناهم الفضاء الرحيب
وعلينا أن يستهل على الشا م مكان الغيوث مال صبيب
أو تراه مثل العروس، نراها كله من دم العدا مخضوب
لطنين السيوف في فلق الصب ح على هام أهلها تطريب
ولجمع الحشود من كل حصن سلب لهم ونهوب

ويحول الإله ذاك، ومن غا لب ربى فإنه مغلوب

وكتب إليه أيضاً:.

أيها السائر المجد إلى الشا م، تبارى ركابة والخيول

خذ على بلدة بها دار مج د الدين، لأربع ريعها المأهول

وتعرف أخباره واقره من ا سلاما فيه العتاب يجول

قل له: أنت نعم ذخر الصديق ال يوم، لكنك الصديق الملول

ما ظننا بأن حالك في القر ب ولا البعد بالملال يحول

لا كتاب، ولا جواب، ولا قو ل به لليقين منا حصول

غير أنا نواصل الكتب إذ أق صر منك البر الكريم الوصول

ذاكرين الفتح الذي فتح الل ه علينا، فالفضل منه جميل

جاءنا بصد ما ذكرناه في كت ب أتاكم بهن منا رسول

أن بعض الأسطول نال من الإف رنج مالا يناله التأميل

سار في قلة، وما زال بالل ه وصدق النيات ينمى القليل

وبقايا الأسطول ليس له بع د إلى جانب الشام وصول

فحوى من عكآ وأنطرسوس عدة لم يحط بها التحصيل

جمع د يوية، بهم كانت الإف رنج تسطو على الورى وتصول

قيد في وسطهم. مقدمهم، يه دى إلينا، وجيده مغلول

بعد مثوى جماعة هلكوا بال سيف، منها الغريق والمفلول

هذه نعمة الإله، وتعدي د أيادي الإله شيء يطول

بلغوا قولنا إلى الملك الع ادل، فهو المرجو والمأمول

قل له: كم تماطل الدين في الكف ار، فأحذر أن يغضب الممطول

سر إلى القدس، واحتسب ذلك في الل ة، فبالسير منك يشفى الغليل

وإذا ما أبطا مسيرك، فالل ة إذا حسبنا ونعم الوكيل

فأجابه أسامة بقصيدة منه:

يا أمير الجيوش، يا أعدل الحك ... ام في فعله وفي ما يقول
أنت حليت بالمكارم أهل العص ... ر حتى تعرف المجهول
وقسمت الفرنج بالغزو شطري ... ن: فهذا عان، وهذا قتيل
بالغ العبد في النِّيابة والتح ... ريض، وهو المفوه المقبول
فرأى من عزيمة الغزو ما كا ... دت له الأرض والجبال تميل
وإذا عاقت المقادير فالل ... ة إذا حسبنا ونعم الوكيل

وكتب الصالح إليه جواباً قصيدته الطائية التي أولها:

هي البدر، لكن الثريا لها قرط ... ومن أنجم الجوزاء في نحرها سمط

ثم قال بعد وصف السيوف:

ذخرنا سطاها للفرنج، لأنها ... بهم دون أهل الأرض أجدر أن تسطو
وقد كاتبوا في الصلح، لكن جوابهم ... بحضرتنا ما تكتب الخط لا الخط
سطور خيول لا تغب ديارهم ... لها بالمواضى والقنا الشكل والنقط
إذا أرسلت فرعا من النقع فاحما ... أثيثا، فأسنان الرماح لها مشط
رددنا به ابن الفنش عنا، وإنم ... ا يثبته في سرجه الشد والربط
فقولوا لنور الدين: ليس لخائف ال ... جراحات إلا الكي في الطب والبط
وحسم أصول الداء أولى بعاقل ... لبيب إذا استولى على المدنف الخلط
فدع عنك ميلاً للفرنج وهدنة ... بها أبداً يخطى سواهم ولم يخطوا
تأمل، فكم شرط شرطت عليهم ... قديما، وكم غدر به نقص الشرط
وشمر فإنا قد اعنا بكل ما ... سألت، وجهزنا الجيوش ولن يبطوا

قال العماد في كتاب الخريدة: الصالح أبو الغارات بن رزيك سلطان مصر في زمان الفائز وأول زمان العاضد. ملك مصر، واستولى على أمر صاحب القصر، ونفق في زمانه النظم والنثر، وقرب الفضلاء، واتخذهم جلساء، ورحل إليه ذوو الرجاء، وأفاض على القاصي والداني العطاء. وله قصائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشام، يذكر فيها بنصر الإسلام، وما يصدق أحد أن ذلك شعره، لجودته، وإحكام مباني حكمته، وأقسام معاني بلاغته، فيقال إن للمهذب ابن الزبير كان ينضم له، وان الجليس ابن الحباب

كان يعينه وله ديوان كبير وإحسان كثير.

ولما جلس في دست الوزارة نضم هذه الأبيات بديهة:

انظر إلى ذي الدار، كم قد حل ساحته وزير

ولكم تبختر آمنا وسط الصفوف بها أمير

ذهبوا، فلا والله ما يبقى الصغير ولا الكبير

ولمثل ما صاروا إلي ه من الفناء غدا نصير

فصل

قال أبو يعلى: ورد الخبر في خامس عشر ربيع الأول من ناحية حلب بحدوث زلزله هائله روعت أهلها وأزعجتهم، وزعزعت مواضع مساكنها، ثم سكنت بقدرة محركها سبحانه وتعالى. وفي ليلة الخامس والعشرين من ربيع الأول وافت زلزلة في دمشق روعت وأقلقت، ثم سكنت.

وفى التاسع من ربيع الآخر برز نور الدين من دمشق إلى جسر الخشب في العسكر المنصور بآلات الحرب لجهاد الكفرة. وقد كان أسد الدين قبل ذلك، عند وصوله، فيمن جمعه فرسان التركمان، أغارهم على أعمال صيدا وما قرب منها، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها؛ وخرج إليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها، وقد كمنوا لهم، فغنموهم، وقتل أكثرهم، وأسر الباقون؛ وفيهم ولد المقدم المتولي حصن حارم، وعادوا سالمين بالأسرى ورءوس القتلى والغنيمة، ولم يصب منهم غير فارس واحد.

قال: وفي أوائل في شهر تموز، الموافق الأول جمادى الآخرة من السنة، وافى البقاع مطر هطال بحيث حدث منه سيل أحمر كما جرت به العادة في تنبوك للشتاء، ووصل إلى بردى، ووصل إلى دمشق؛ وكثر التعجب من اثار قدرة الله تعالى بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت.

قال: وفى ليلة الثالث والعشرين من رجب وافت زلزلة عند تأذين الغداة، ثم أخرى في الليلة بعدها وقت صلاة الغداة. وورد الخبر من العسكر بأن الفرنج تجمعوا وزحفوا إلى العسكر المنصور وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر، والتقى الجمعان. واتفق إن عسكر الإسلام حدث فيه فشل لبعض المقدمين، فاندفعوا وتفرقوا بعد الاجتماع، وبقى نور الدين ثابتا مكانه، في عدة يسيرة من شجعان غلمانه وأبطال خواصه، في وجوه الفرنج،واطلوا فيهم السهام، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير، ثم ولوا منهزمين خوفا من كمين يظهر عليهم من عسكر الإسلام ونجى الله، وله الحمد، نور الدين من بأسهم.بمعونة الله تعالى، وشدة باسه، وثبات جأشه. ومشهور شجاعته؛ وعاد إلى مخيمه سالما في جماعته،

ولام من كان السبب في اندفاعه بين يدي الفرنج. وتفرق جمع الفرنج إلى أعمالم، وراسل ملكهم نور الدين في طلب الصلح والمهادنة، وحرض على ذلك. وترددت بين الفريقين مراسلات، و لم يستقر بينهما حال؛ وعاد نور الدين إلى دمشق سالم.

قلت. وذكر أبو الفتح بنجه بن أبي الحسن بن بنجه الأشترى، المعيد كان بالمدرسة النظامية، في سيرة مختصرة جمعها لنور الدين، وقد تقدم شيء منها، رحمهما الله. قال: وبلغنا أن نور الدين خرج إلى الجهاد، في سنة ست وخمسين وخمسمائة، فقضى الله بانهزام عسكر المسلمين، وبق الملك العادل، مع شرذمة قليلة، وطائفة يسيرة، واقفا على تل يقال له تل حبيش، وقد قرب عسكر الكفار بحيث اختلط رجالة المسلمين. مع رجالة الكفار فوقف الملك العادل بحذائهم موليا وجهه إلى قبلة الدعاء، حاضرا بجميع قلبه، مناجيا ربه يقول: يارب العباد، أنا العبد الضعيف، ملكتني هذه الولاية وأعطيتني هذه النهابة؛ عمرت بلادك، ونصحت عبادك، وأمرتهم بما أمرتني به، ونهيتهم عما نهيتني عنه؛ فرفعت المنكرات من بينهم، وأظهرت شعار دينك في بلادهم؛ وقد انهزم المسلمون، وأنالا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم، ولا أملك إلا نفسي هذه، وقد سلمتها إليهم ذابا عن دينك وناصرا لنبيك.
فاستجاب الله تعالى دعاءه، وأوقع في قلوبهم الرعب، وأرسل عليهم الخذلان؛ فوقفوا مواضعهم وما جسروا على الإقدام عليه، وضنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأن عسكر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه يخرج عساكر المسلمين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد فوقفوا وما أقدموا علية. قال ولولا أن ذلك إلهام من الله تعالى لكانوا قد استأجروا المسلمين وما كان ينفلت واحد من المسلمين.
فوقف عسكر الكفار وبرز اثنان منهم يحولان بين الصفين يطلبان البراز من المسلمين؛ فأمر الملك العادل لخطلخ الزاهد، مولى الشهيد بالخروج إليهما، فخرج، وجال بينهما ساعة، وحمل على واحد منهما فقتله؛ ثم جال ساعة وعمل حيلة وخدعة، ورجع إلى قريب صف الكفار، وحمل على الآخر فقتله، ورجع إلى الصف.

قال: وحدثنا الشيخ داود القدسي خادم قبر شعيب، على نبينا وعليه السلام، قال: كان أعطاني ملك القدس بغلة كنت راكبا عليها، يعني في ذلك اليوم، واقفا مع الملك العادل؛ فلما وصل الكفار وقربوا منا شمت بغلتي رائحة خيل الكفار، فصهلت تطلب خيلهم، فسمعوا صهيل بغلتي، فقالوا هذا داود راكب على البغلة مع نور الدين واقف، ولولا الحيلة والكمين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشرذمة القليلة، والطائفة اليسيرة. فتحقق ذلك في قلوبهم فوقفوا وما جهروا على الإقدام عليه. قال: فترجل كل من كان مع الملك العادل وتتشفعوا إليه، وباسوا الأرض بين يديه، وقالوا: أيها الملك أنت بجميع المسلمين في هذا

الموضع وفي هذا الإقليم؛ فإن جرى، والعياذ بالله، وهن وضعف من استيلاء الكفار على المسلمين فمن الذي يقدر على تداركه ؟! قال: وحلف هذا الشيخ داود أنهم بعنان فرسه كرها ورحلوا من ذلك الموضع، وما كان في عزم الملك العادل أن يرحل من ذلك الموضع. فلما علم الكفار ذلك، وأنه ما كان عليهم حيلة ولا كمين، ندموا على ذلك ندامة عظيمة. قال: وكان قبل هذه الوقعة بسنة كسر الملك العادل الكفار وقتل منهم مقتله عظيمة وأسر منهم خلقا كثيرا، على ما حكى عن صلاح الدين صاحب حمص أنه قال: قد جاز التركمان علينا، فحصل في الجريدة ألف أسير مع التركمان. هذا ما جاز على بلد حمص وحده. وكان قد انفلت ملك القدس ودخل إلى قليعة؛ فلما جن عليه الليل خرج من القلعة ومضى.

فصل

قال أبو يعلى: في رجب تجمع قوم من السفهاء العوام وعزموا على التحريض لنور الدين على إعادة ما كان أبطل وسامح به أهل دمشق من رسوم دار البطيخ وعرصة البقل والأنهار، وصانهم من إعنات شرار الضمان وحوالة الأجناد. وكرروا لسخف عقولهم الخطاب، وضمنوا القيام بعشرة آلاف دينار بيض؛ وكتبوا بذلك حتى أجيبوا إلى ما راموا. وشرعوا في فرضها على أرباب الأملاك من المقدمين والأعيان والرعايا، فما اهتدوا إلى صواب، ولا نجح لهم قصد في خطاب ولا جواب وعسفوا الناس بجهلهم بحيث تألموا وأكثروا الضجيج والاستغاثة إلى نور الدين؛ فصرف همة إلى النظر في هذا الأمر، فنتجت له السعادة وإيثار العدل في الرعية الإعادة إلى ما كان عليه. فأمر في عاشر رمضان بإعادة الرسوم المضادة إلى ما كانت عليه، من إماتتها وتعفية أثر ضمانها؛ وأضاف إلى ذلك، تبرعا من نفسه، إبطال ضمان الهريسة والجبن واللبن. ورسم بكتابة منشور يقرأ على كافة الناس بإبطال هذه الرسوم جمعها وتعفية ذكرها، فبالغ العالم عند ذلك في مواصلاً الأدعية والثناء عليه، والنشر لمحاسنه.

قال: وفي الحادي والعشرين من رمضان وصل الحاجب محمود المستر شدي من ناحية مصر بجواب ما تحمله من المراسلات من الملك الصالح متولي أمرها، ومعه رسول. من مقدمي أمرائها، ومعه المال المنفذ برسم الخزانة الثورية، وأنواع الثياب المصرية، والجياد العربية. وكانت فرقة من الفرنج، خذلهم الله، قد ضربوا لهم في المعابر، فأظفر الله بهم، فلم يفلت منهم إلا القليل النزر. ثم تلا ذلك ورود الخبر من العسكر المصري بظفره بجملة وافرة من الفرنج ناهز أربعمائة فارس، وتزيد على ذلك، في ناحية العريش من الجفار، بحيث استولى عليهم القتل والأسر والسلب.

قال: وقد كانت الأخبار تناصرت من ناحية القسطنطينية في ذي الحجة يبروز ملك الروم منها بالعدد الكثير لقصد الأعمال والمعاقل الإسلامية، ووصوله إلى مروج الديباج وتخييمه فيها، و بث سرايا. للإغارة على أعمال أنطاكية وما والاها. وأن قوما من التركمان ظفروا بجماعة منهم، هذا بعد أن افتتح من أعمال لا وين، ملك الأرمن، عدة من حصونه ومعاقله. ولما عرف نور الدين هذا شرع في مكاتبة الولاة بالأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم، وبعثهم على استعمال التيقظ، والتأهب للجهاد فيهم، والاستعداد للنكاية بمن يظهر منهم.

قال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وخمسين سار الملك محمد بن محمود، فحصر بغداد، و بها الخليفة المقتفى لأمر الله، ومعه وزيره عون الدين ابن هبيرة. فكاتب أصحاب الأطراف فتحركوا؛ ووصل الخبر إلى الملك محمد بأن أخاه ملكشاه قصد همدان ودخلها في عسكر كبير ونهبها، وأخذ نساء الأمراء الذين معه، وأولادهم. فاختلط العسكر وتفرقوا، وعاد محمد نحو همدان. وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر المنقطعين، وشعثوا دار السلطان.

قلت: وفي هذه السنة توفى أبو الوقت عبد الأول المحدث المنفرد يعلو رواية كتاب الجامع الصحيح للبخاري، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة

قال أبو يعلى: في أول يوم منها وافت زلزلة عظيمة ضحى نهار، وتلاها ثنتان دونها. وكان قد عرض لنور الدين مرض تزايد به بحيث أضعف قوته، ووقع الإرجاف به من حساد دولته، والمفسدين من عوام رعيته. وارتاعت الرعايا وأعيان الأجناد، وضاقت صدور قطان الثغور والبلاد، خوفا عليه واشفاقا من سوء يصل إليه، لا سيما مع أخبار الروم والفرنج ولما أحس من نفسه بالضعف تقدم إلى خواص أصحابه وقال لهم: إنني قد عزمت على وصيه إليكم بما وقع في نفسي فكونوا لها سامعين مطيعين، وبشروطها عاملين إني مشفق على الرعايا وكافة المسلمين ممن يكون بعدى من الولاة الجاهلين، والظلمة الجائرين؛وإن آخي نصرة الدين أعرف من أخلاقه وسؤ أفعاله ما لا أرتضى معه توليته أمرا من أمور المسلمين. وقد وقع اختياري على أنني الأمير قطب الدين مودود، متولي الموصل، لما يرجع إليه من عقل وسداد، ودين وصحة اعتقاد. فحلفوا له، وأنفذ رسله إلى أخيه بإعلامه صورة الحال ليكون لها مستعدا. ثم تفضل الله تعالى بإبلاله من المرض وتزايد القوه في النفس والحس؛ وجلس للدخول إليه والسلام عليه. وكان الأمير محمد الدين النائب في حلب قد رتب في الطرقات من يحفظ السالكين فيها؛ فظفر المقيم في منبج برجل حمال

من أهل دمشق ومعه كتب، فأنفذ بها إلى مجد الدين متولي حلب. فلما وقف عليها أمر بصلب متحملها، وأنفذها في الحال إلى نور الدين، فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبي القاسم، متولي ديوانه، ومن عز الدين والى القلعة، مملوكه، ومن محمد بن جفرى، أحد حجابه، إلى أخيه نصرة الدين أمير أميران صاحب حران بإعلامه بوقوع اليأس من أخيه، و يحضونه على المبادرة والإسراع إلى دمشق لتسلم إليه. فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على أربابها فاعترفوا بها، فأمر باعتقالهم، وكان رابعهم سعد الدين عثمان، وكان قد خاف فهرب قبل ذلك بيومين. وورد في الحال كتاب صاحب قلعة جعبر يخبر بقطع نصرة.

الدين الفرات مجدا إلى دمشق فأنهض أسد الدين في العسكر المنصور لرده ومنعه من الوصول، فاتصل به خبر عوده إلى مقره عند معرفته بعافية أخيه، فعاد أسد الدين إلى دمشق ووصلت رسل الملك العادل من ناحية الموصل بجواب ما تحملوه إلى أخيه قطب الدين، وفارقوه وقد برز في عسكره، متوجها إلى ناحية دمشق. فلما فصل عن الموصل اتصل به خبر عاقبته، فأقام بحيث هو وأنفذ وزيره. جمال الدين أبا جعفر محمد بن علي لكشف الحال. فوصل إلى دمشق يوم السبت الثامن صفر في أحسن زي وأبها تجمل، وخرج إلى لقائه الخلق الكثير.

قال: وهذا الوزير قد ألهمه الله تعالى من جميل الأفعال وحميد الخلال، وكرم النفس، و أنفاق أمواله في أبواب البر والصلات والصدقات، ومستحسن الآثار في مدينة الرسول عليه السلام، ومكة ذات الحرم والبيت المعظم، شرفه الله تعالى، ما قد شاع ذكره، وتضاعف عليه حمده وشكره. واجتمع مع نور الدين وجرى بينهما من المفاوضات والتقريرات ما انتهى إلى عوده إلى جهته، بعد الإكرام له، وتوفيتة حقه من الاحترام؛ وأصحبه برسم قطب الدين أخيه وخواصه من الملاطفة ما اقتضته الحال الحاضرة؛ وتوجه معه الامير أسد الدين.

وقال ابن أبي طي: لما وصل الوزير جمال الدين إلى حلب تلقاه موكب نور الدين، وفيه وجوه الدولة وكبراء المدينة، وانزل في دار ابن الصوفي وأكرم غاية الإكرام؛ وأعيدة إلى صاحبه شاكرا عن نور الدين، وسير معه الأمير أسعد الدين شيركوه رسولا إلى قطب الدين بالشكر له والثناء عليه؛ وأخذت معه هدايا سنية. فسار وعاد إلى حلب مكرما، فوجد نور الدين عازما على الخروج إلى دمشق لما بلغته من إفساد الفرنج في بلد حوران، فسار في صحابته ووصل نور الدين إلى دمشق، فأمر الناس بالتجهز لقتال الفرنج، ثم أنهض أسد الدين في قطعة من العسكر للإغارة على بلد صيدا فسار وسار معه أخوه نجم الدين أيوب وأولاده. و لم يشعر الفرنج وهو قد عاث في بلد صيدا وقتل وأسر عالم عظيما، وغنم غنيمة جليلة؛ وعاد فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب.

قلت: وهذا هو ما تقدم ذ كره بعد المرضة الأولى، وكأن ابن أبي طي جعل المرضتين واحدة بحلب؛ وأبو يعلى ذكر أن الأولى بحلب والثانية بدمشق، وهو الأصح. والله أعلم.

فصل

قال أبو يعلى: وكان قد وصل من ملك الروم رسول من معسكر. ومعه هدية أتحف بها الملك العادل من أثواب ديباج وغير ذلك، وجميل خطاب وفعال؛ وقوبل بمثل ذلك. وحكى عن ملك الفرنج، خذله الله، إن المصالحة بينه وبين ملك الروم تقررت، والمهادنة انعقدت؛ والله يرد باس كل واحد منهما إلى نحره، و يذيقه عاقبة غدره ومكره.

قال: ووردت أخبار من ناحية، ملك الروم باعتزامه على أنطاكية وقصد المعاقل الإسلامية؛ فبادر نور الدين بالتوجه إلى البلاد الشامية لإيناس أهلها بن استيحاشهم من شر الروم والإفرنج، خذلهم الله تعالى، فسار في العسكر صوب حمص وحماة وشيزر.

قال: وفي ثالث ربيع الأول وافت زلزلة هائلة ماجت أربع موجات وأيقظت النيام وأزعجت اليقظى، وخاف كل ذي مسكن مضطرب على نفسه وعلى مسكنه.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى هبت ريح عاصف شديدة أقامت يومها وليلتها، فأتلفت أكثر الثمار، صيفيها وشتويها، وأفسدت بعض الأشجار، ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ماجت موجتين أزعجت وأقلقت.

قال وتجددت المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم، بعد تكرر المراسلات والاقتراحات في التقريرات؛ وأجيب ملك الروم إلى ما التمسه من إطلاق مقدمي الإفرنج المقيمين في حبس نور الدين، فأنفذهم بأسرهم. وقابل الروم هذا الفضل بما يضاهيه من الإتحاف بأثواب الديباج الفاخرة، المختلفة الأجناس، الوافرة العدد؛ ومن. الجوهر النفيس، وخيمة من الديباج لها قيمة وافرة، وما استحسن من الخيول الجبلية ثم رحل عقيب ذلك في عساكره من متزله عائدا إلى بلاده مشكورا محمودا، و لم يؤذ أحدا من المسلمين، في العشر الأوسط من جمادى الأولى؛ فاطمأنت القلوب بعد انزعاجها وقلقها.

قال: وورد بعد ذلك الخبر بأن نور الدين صنع لأخيه قطب الدين، والعسكر، ولمن ورد معه من المقدمين والولاة وأصحابهم، الواردين لجهاد الروم والإفرنج، سماطاً عظيما هائلا، تناهىفيه، وفرق من الحصن العربية والخيول والبغال العدد الكثير؛ ومن الخلع من أنواع الديباج المختلف وغيره، والتخوت الذهب، الشيء الكثير الزائد على الكثرة؛وكان يوما مشهودا في الحسن والتجمل. وانفق أن جماعة من غرباء

التركمان وجدوا من الناس غفلة باشتغالهم بالسماط وانتهابه، فأغاروا على العرب من بني أسامة وغيرهم، واستاقوا مواشيهم فلما ورد الخبر بذلك أنهض. نور الدين في أثرهم فريقا وافرا من العسكر، فأدركوهم. واستخلصوا منهم، جميع ما أخذوه، وأعيد إلى أربابه.
قال: وتقرر الرأي النورى على التوجه إلى مدينة حران لمنازلتها واستعادتها من يد أخيه نصرة الدين، حسبما رآه في ذلك من الصلاح؛ فرحل في عسكره. أول جمادى الآخرة. فلما نزل عليها وأحاط بها، وقعت المراسلات، إلى أن تقرر الحال على أمان من بها؛ وسلمت في يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، وقررت أحوالها، وأحسن النظر في أحوال أهلها، وسلمها للأمير زين الدين على سبيل الإقطاع، وفوض إليه تدبير أمورها

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة

قال الرئيس أبو يعلى: في صفر توفى الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين أحد مقدمي أمراء الأكراد. وهو من ذوى الوجاهة في الدولة، موصوف بالشجاعة والبسالة والسماحة مواظب على بث الصلات والصدقات، في المساكين والضعفاء والفقراء مع الزمان، في كل عصر ينقضي وأوان؛ جميل المحيا، حسن البشر في اللقاء. وحمل من داره بباب الفراديس إلى الجامع للصلاة عليه ثم إلى المدرسة المشهورة باسمه، فدفن فيها في اليوم، و لم يخل من باك عليه، ومؤبن له، ومتأسف على فقده؛ لجميل أفعاله وحميد خلاله.
قلت: وله أوقاف على أبواب البر منها المدرستان المنسوبتان إليه إحداهما التي دفن فيها، وهي لزيق باب الفراديس المجدد، والأخرى قبالة باب دار سيف الغربي، في صف مدرسة نور الدين، رحمه الله. وله وقف على من يقرأ السبع كل يوم بمقصورة الخضر بجامع دمشق؛ وغير ذلك. وقد مدحه العرقلة وغيره.

قال أبو يعلى: وفي مستهل صفر رفع القاضي زكى الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي القرشي، قاضي دمشق، إلى الملك العادل نور الدين، رقعة يسأله فيها الإعفاء من القضاء، والاستبدال به، فأجاب سؤاله وولى قضاء دمشق القاضي كمال الدين ابن الشهرزورى، وهو المشهور بالتقدم ووفور العلم، وصفاء الفهم، والمعرفة بقوانين الأحكام، وشروط استعمال الإنصاف، والعدل، والنزاهة، وتجنب الهوى والظلم. واستقام له الأمر على ما يهواه، ويؤثره. ويرضاه، على أن القضاء من بعض أدواته. واستقر أن يكون النائب عنه، عند اشتغاله، ولده.
قلت: ولكمال الدين رحمه الله تعالى الصدقة الجارية بعده على الفقراء كل جمعة؛ وإليه ينسب الشباك الكمالي بجامع دمشق من الغرب، وهو الذي حكمت فيه القضاة مدة، ويصلون فيه الجمعة في زماننا.

وإلى ههنا أنتها ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التميمي، فإنه آخر كتابه. وفي هذه السنة توفي رحمه الله. وقال ابن الأثير: وفيها توفي أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله. بن المستظهر بأمر الله، ومولد سنة تسع وثمانين وأربعمائة؛ وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وشهرين. وبويع ولده أبو المظفر يوسف، ولقب بالمستنجد بالله فأقر ابن هبيرة على وزارته.

قال: وفيها حج زين الدين على وأحسن إلى الناس في طريق مكة، وأكثر الصدقات. فلما وصل بغداد أكرمه المستنجد بالله؛ فلما لبس الخلعة كانت طويلة، وكان قصيرا جدا، فمد يده إلى كمراته وأخرج ما شد به، وقصر الجبة. فنظر المستنجد إليه واستحسن ذلك منه، وقال لمن عنده: مثل هذا يكون الأمير والجندي لا مثلكم.

قلت: وفيها توفى المستخلف بمصر، الملقب بالفائز بن الظاهر بن الحافظ، وولى بعده. بن عمه العاضد بن يوسف بن الحافظ؛ وهو أخر خلفاء مصر. ووصل من الصالح بن رزيك كتاب إلى ابن منقذ أسامة بذلك فكتب إليه:

هناء بنعمى قل عن قدرها الشكر وصبرا لرزء لا يقوم به الصبر

مض الفائز الطهر الإمام، وقام بال إمامة فينا بعده العاضد الطهر

إماما هدىالله، في نقل ذا إلى كرامته، وفي إقامة ذا سر

فعش أبدا، واسلم لهم يا كفيلهم تدافع عنهم كل حادثة تعرو

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

قال ابن أبي علي: في هذه السنة حج أسد الدين من الشام وخرج في محمل عظيم وشارة رائقة؛ واستصحب معه من الأزواد والكسى أشياء عظيمة. ويقال إنه كان معه ألف نفس يجرى عليهم الطعام والشراب. وحج على كوجك المعروف بزين الدين من العراق؛ وحج ملهم أخو ضرغام وزير مصر؛ فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثير الخير، واستغنى بسببهم أهل الحجاز وعاد أسد الدين سالما وخرج نور الدين إلى لقائه، وكان يوم وروده يوما عظيما.

وقال أيضاً: وفيها قتل الصالح ابن رزيك بمصر وكان سبب قتله إن عمة العاضد عملت على قتله، وأنفذت الأموال إلى الأمراء فبلغ ذلك الصالح، فاستعاد الأموال، واحتاط على عمة العاضد. قال: وإنما كرهته عمة العاضد لاستيلائه على الأمور والدولة، وحفظه للأموال وقتل الصالح بسببها جماعة من الأمراء ونكبهم، وتمكن من الدولة تمكنا حسنا. ثم إن عمة العاضد عادت وأحكمت الحيلة عليه، وبذلت لقوم

من السودان مالا جزيلا حتى أوقعوا به الفعل: جلسوا له في بيت في دهليز القصر مختفين فيه. فلما كان يوم تاسع عشر رمضان ركب إلى القصر ودخله، وسلم على العاضد، وخرج من عنده، فخرج عليه الجماعة، ووقعت الصيحة. فعثر الصالح بأذياله، فطعنه أحدهم بالسيف في ظاهررقبته، فقطع أحد عمودي الرقبة، وحمل إلى باب القصر، وأصيب ولده رزيك في كتفه. ولما حصل الصالح في داره أوصى ولده رزيك، ومات بعد ساعة من ذلك اليوم.

قال العماد: وانكسفت شمس الفضائل، ورخص سعر الشعر، وانخفض علم العلم، وضاق قضاء الفضل؛ وعم رزء ابن رزيك، وملك صرف الدهر ذلك المليك. فلم تزل مصر بعد منحوسة الحظ، منجوسة الجد، منكسوة الراية، معكوسة الآية، إلى أن ملكها يوسفها الثاني، وجعلها مغاني المعاني، وأنشررميمها، وعطر نسيمها، وتسلم قصرها، والتزم خصرها. قال زين الدين الواعظ: عمل فارس المسلمين، أخو الصالح، دعوة في شعبان من السنة التي قتل فيها فعمل هذه الأبيات وسلمها إلى:

أنست بكم دهرا، فلما ظعنتم اس ... تقرت بقلبي وحشة للتفرق

وأعجب شيء أنني يوم بينكم ... بقيت، وقلبي بين جنبي ما بقى

أرى البعد ما، بيني وبين أحبتي ... كبعد المدى ما بين غرب ومشرق

ألا جددى يانفس وجدا وحسرة ... فهذا فراق بعده ليس نلتقي

قال: فلم يبق بعدها لهم اجتماع في مسرة، وقتل في شهررمضان.

قلت: ولعمارة اليمنى ولغيره مدائح في الصالح ومراث جليلة، وقد أثنى عليه كثيراً في كتاب الوزراء المصرية وقال: لم يكن يجلس أنه ينقطع إلا بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته. قال: وكان مرتاضا، قد شم أطراف المعارف، وتميز عن أجلاف الملوك. وكان شاعرا يحب الأدب وأهله، . يكرم. جليسه، و يبسط أنيسه، ولكنه كان مفرط العصبية في مذهب الأمامية. وكان مرتاضا. حصيفا قد لقي في ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم.

قال: ودخلت عليه قبل أن يموت بثلاث ليال، وفي يده قرطاس وقد كتب فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة

نحن في غفلة ونوم، وللمو ... ت عيون يقظانة لا تنام

قد رحلنا إلى الحمام سنينا ... ليت شعري؛ متى يكون الحمام

قال: ومن عجيب الاتفاق أني أنشدت ابنه مجد الإسلام، في دار سعيد السعداء، ليله السادس عشر من شهر رمضان، أو السابع عشر، قصيدة أقول فيها:

أبوك الذي تسطو الليالي بحده وأنت يمين، إن سطا، وشمال
لرتبته العظمى، وإن طال عمره إليك مصير واجب ومآل
تخالسك اللّحظ المصون، ودونها حجاب شريف، لا انقضى، وحجال

قال: فانقل الملك بعد ثلاث إليه: قال: ومما رثيته به قولي:

أفى أهل ذا النادي عليم أسائله فأني لما بي ذاهب اللب ذاهله
سمعت حديثا أحسد الصم عنده ويذهل واعيه ويخرس قائله
فقد رابني من شاهد الحال أنني أرى الدست منصوبا وما فيه كافله
وأني أرى فوق الوجوه كآبة تدل على أن الوجوه ثواكله
دعوني، فما هذا بوقت بكائه سيأتيكم طل البكاء ووابله
ولم لا تبكيه وتندب فقده وأولادنا ايتامه وأرامله
فياليت شعري بعد حسن فعاله وقد غاب عنا، ما بنا الدهر فاعله
أيكرم مثوى ضيفكم وغريبكم فيسكن، أم تطوى ببين مراحله

وله من أخرى يرثيه ويذكر ولاية ابنه:

طمع المرء في الحياة غرور وطويل الآمال فيها قصير
ولكم قدر الفتى فأتته نوب لم يحط بها التقدير
فض ختم الحياة عنك حمام لا يراعى إذنا ولا يستشير،
ما تخطى إلى جلالك إلا قدر أمره علينا قدير
يا أمير الجيوش، هل لك علم أن حر الأسى علينا أمير
إن قبرا حللته لغنى إن دهرا فارقته لفقير
انطوى ذلك البساط، وعهدي وهو بالعلم والندى معمور
لا تظن الأيام أنك ميت لم يمت من ثناوه منشور
إن مضى كافل فهذا كفيل أو وزير يغب فهذا وزير
دولة صالحية، خلفتها دولة عادلية لا تجور
ما شكونا كسر النوائب حتى قيل في الحال كسركم محبور

نصر الناصر الملا بالعوالي ونعم المولى ونعم النصير

وقال أيضاً يرثيه، و يذكر ا لظفر بقاتله، ويصف نقل تابوته إلى مشهده قصيدة طويلة منها: &قد كنت أشرق من ثماد مدامعي=أسفا، فكف وقد طي التيار

عم الورى يوم الخميس، وخصتني خطب بأنف الدهر منه صغار

ما أوحش الدنيا غدية فارقت قطبا رحى الدنيا عليه تدار

خربت ربوع المكرمات لواحد عمرت به الأحداث وهي قفار

نعش الجدود العاثرات مشيع عشيت برؤية نعشه الأبصار

نعش يود بنات نعش لو غدت ونظامها أسفا عليه نثار

شخص الأنام إليه تحت جنازة خفضت لرفعة قدرها الأقدار

صار الإمام أمامها، فعلمت إن قد شيعتها الخمسة الأبرار

ومشى الملوك بها حفاة، بعدما حفت ملائكة بها أطهار

فكأنها تابوت موسى أودعت في جانبيه سكينة ووقار

لكنه ماضم غير بقية ال اسلام وهو الصالح المختار

أقطنته دار الوزارة ريثما بنيت لنقلته الكريمة دار

وتغاير الهرمان والحرمان في تابوته، وعلى الكريم يغار

آثرت مصرا منه بالشرف الذي حدت قرافتها له الأمصار

وجعلتها أمنا به ومثابة ترجو مثابة قصدها الزوار

قد قلت إذ نقلوه نقلة ظاعن نزحت به دار وشط مرار

ما كان إلا السيف جدد غمده بسواه، وهو الصارم البتار

والبدر فارق برجه متبدلا برحابه تتشعشع الأنوار

والغيث روى بلدة ثم انتحى أخرى، فنوء سحابه مدرار

يا مُسبل الأستار دون جلاله ماذا الذي رفعت له الأستار

مالي أرى الزوار بعد مهانة فوضى، ولا إذن ولا استئمار

غضب الإله على رجال أقدموا جهل عليك، وآخرين أشاروا

لا تعجبا لقدار ناقة صالح فلكل دهر ناقة وقدار

ؤاخجلتا للبيض كيف تطاولت سفها بأيدي السود وهي قصار

واحسرنا :كيف انفردت لأعبد وعبيدك السادات والأحرار

رصدوك في ضيق المجال بحيث لا ال سخطى متسع ولا الخطار

ما كان أقصر باعهم عن مثلها لو كنت متروكا وما تختار

ولقدت ثبت ثبات مقتدر على خذلانهم لو ساعد المقدار

وتعثرت أقدامهم، بك هيبة لو لم يكن لك بالذيول عثار

أحللت دار كرامة لا تنقضي أبدا، وحل بقاتليك بوار

ياليت عينك شاهدت أحوالهم من بعدها، ورأت إلى ما صاروا

وقع القصاص بهم، وليسوا مقنعا يرضى، وأين من السماء غبار

ضاقت بهم سعة الفجاج، وربما نام العدو ولا ينام الثار

وتوهموا ان الفرار مطية تنجى، وأين من القضاء فرار

طاروا فمد أبو الشجاع لصيدهم شرك الردى، فكأنهم ما طاروا

فتهن بالأجر الجزيل وميتة درجت عليها قبلك الأخبار

مات الوصي بها، وحمزة عمه وابن البتول، وجعفر الطيار

نلت السعادة والشهادة والعلا حيا وميتا، إن ذا لفخار

ولقد أقر العين بعدك أروع لولاه لم يك للعلا استقرار

الناصرالهادى، الذي حسناته عن سيئات زماننا أعذار

لما استقام لحفظ أمة أحمد عمرت به الأوطان والأوطار

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين العساكر وسار إلى قلعة حارم وحصرها وجد في قتالها، فامتنعت عليه، لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعاهم. واجتمع الفرج من سائر البلاد وساروا نحوه ليرحلوه عنها؛ فلما قاربوه طلب منهم المصاف، فلم يجيبوه الىذلك، وراسلوه وتلطفوا الحال معه فعاد

إلى بلاده. وممن كان معه في هذه الغزاة الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ، وكان من الشجاعة في الغاية التي، لا مزيد عليها. فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد سيرين، وكان قد دخله في العام الماضي، سائرا إلى الحج؛ فلما دخله عامئذ كتب على حائطه:

لك الحمد يا مولاي، كم لك منة على، وفضل لا يحيط به شكري
نزلت بهذا المسجد العام قافلا من الغزو، موفور النصيب من الأجر

ومنه رحلت العيس في عامي الذي مض نحو بيت الله ذي الركن والحجر
فاديت مفروضي، وأسقطت ثقل ما تحملت من وزر الشبيبة عن ظهري

قلت: أذكرني هذا ما كتبه أسامة أيضاً بمدينة صور وقد دخل دار ابن أبي عقيل فرآها وقد تهدمت وتغيرت زخرفتها، فكتب على لوح من رخام هذه الأبيات:

احذر من الدنيا، ولا تغتر بالعمر القصير
وانظر إلى آثار من سرعته منا بالغرور
عمروا وشادوا ماترا ه من المنازل والقصور
وتحولوا من بعد سُك ناها إلى سكني القبور

قلت:ابن أبي عقيل هذا هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن عياض بن أبي عقيل صاحب صور، ويلقب عين الدولة. مات سنة خمس وستين وأربعمائة، واستولى على صور ابنه النفيس. والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد، وهو للفرنج، عازما عل دخول بلادهم ومنازلة طرابلس. فبينما الناس في بعض الأيام في خيامهم في وسط النهار، لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن فكسبوهم. فأراد المسلمون دفعهم فلم يطيقوا، فانهزموا. ووضع الفرج السيف، وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل، فخرج عن ظهر خيمته عجلا بغير قباء، فركب فرسا هناك للنوبة، ولسرعته ركبه وفي رجليه شبحة، فنزل إنسان من الأكراد فقطعها، فنجا نور الدين وقتل الكردي؛ فسأل نور الدين عن مخلفي ذلك الكردي فأحسن إليهم، جزاء لفعله. وكان أكثر القتل في السوقة والغلمان وسار نور الدين إلى مدينة حمص، فأقام بظاهرها، وأحضر منها ما فيها من الخيام ونصبها على بحيرة قدس على فرسغ من حمص، وبينها وبين

مكان الواقعة أربعة فراسخ؛ وكان الناس يظنون أنه لا يقف دون حلب، وكان رحمه الله أشجع من ذلك وأقوى عزماً ولما نزل على بحيرة قدس اجتمع إليه كل من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن نقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال. فوبخه وأسكته، وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قلوا وكثروا؛ وَوَاللهِ لا أستظل بجدار حتى اخذ بثأر الإسلام وثأرى، ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام، وسائر ما يحتاج إليه الجند؛ فأكثر، وفرق ذلك جميعه على من سلم. وأما من قتل فانه أقر إقطاعه على أولاده، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله. فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه أحد.

وأما الفرنج فكأنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة، لأنها أقرب البلاد إليهم. فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا. وكان نور الدين رحمه الله قد أكثر الخرج إلى أن قسم في يوم واحد مائتي ألف دينار، سوى غيرها من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك. وتقدم إلى ديوانه أن يحضروا الجند ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أخذ منه، فكل من ذكر شيئا أعطوه عوضه، فحضر بعض الجند وادعى شيئا كثيرا علم بعض النواب كذبه فيما ادْعاه لمعرفتهم بحاله. فأرسلوا إلى نور الدين ينهون إليه القضية، و يستأذنونه في تحليف الجندي على ما ادعاه. فأعاد الجواب:لا تكدروا عطاءنا، فإني أرجو الثواب والأجر على قليلة وكثيرة. وقال له أصحابه إن لك في بلادك إدرارتٍ كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء وللصوفية والقراء، فلو استعنت بها.

الآن لكان أمثل، فغضب من هذا وقال: والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم. كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي، بسهام لا تخطيء، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطيء وتصيب؟! ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم فسكتوا.

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم إليها؛ فتركوا عند الحصن من يحميه، وعادوا إلى بلادهم وتفرقوا.

قلت: وفى هذه الحادثة تحت حصن الأكراد يقول، أبو الفرج عبيد الله بن أسعد الموصلي تزيل حمص، من جملة قصيدة فائقة يمدح بها نور الدين رحمه الله تعالى أولها:

ظُبا المواضي وأطراف القنا الذبل	ضوا من لك ما جازوه من نفل
وكافل لك كاف ما تحاوله	عز، وعزم، و بأس غير منتحل
وما يعيبك ما حازوه من سلب	بالختل، قد تؤسر الآساد بالحيل

وإنما أخلدوا جبنا إلى خدع إذا لم يكن لهم بالجيش من قبل
واستيقظوا وأراد الله غفلتكم لينقذ القدر المحتوم في الأزل
حتى أتوكم ولا الماذى من أمم ولا الضبا كثب من مرهق عجل.
قَنَاً لِقًا، وقسى غير موترة والخيل عازبة ترعى مع الهمل
ما يصنع الليث لا ناب ولا ظفر بما حواليه من عفر ومن وعل
هلا، وقد ركب الأسد الصقور وقد سلوا الظبا تحت غابات من الأسل
وإنما هم أضاعوا حزمهم ثقة يجمعهم، ولكم من واثق خجل
بنى الأصافر ما نلتم بمكركم والكر في كل إنسان أخو الفشل
وما رجعتم بأسرى، خاب سعيكم غير الأراذل والاتباع والسفل
سلبتم الحرد مُعراة بلا لجم والسّمر مركوزةً، والبيض في الخلل
هل اخذ الخيل قد أردى فوارسها مثال آخذها في الشكل والطول
أم سالب الرمح مركوزا، كسالبه والحرب دائرة من كف معتقل
جيش أصابتهم عينا الكمال وما يبخلوا من العين إلا غير مكتمل
لهم بيوم حنين أسوة، وهم خير الانام، وفيهم خاتم الرسل
سيقتضيكم بضرب عند أهونه البيض كالبيض، والأدراع كالحلل
ملك بعيد من الأدناس، ذو كلف بالصدق في القول والإخلاص في العمل

ومنها:

فالسمر ما أصبحت، والشمس ما أفلت والسيف ما فل، والأطواد لم تزل
كم قد تجلت بنور الدين من ظُلَم للظلم، وإنجاب للإضلال من ظلل
قل لِلْمُولّين: كفوا الطرف من جبن عند القاء، وغضوا الطرف من خجل
طلبتم السهل تبغون النجاة، ولو لذتم بملككم لذتم إلى جبل
أسلمتموه ووليتم، فأسلمكم بثبتة، لو بغاها الطود لم ينل
فقام فردا وقد ولت جحافله فكان من نفسه في جحفل زجل
في مشهد، لَوْ ليوث الغيل تشهده خرت لأذقانها من شدة الوهل

وسط الندى وحده ثبت الجنان، وقد طارت قلوب على بعد من الوجل

يعود عنهم رويدا غير مكترث بهم، وقد كرفيهم غير محتفل

يزداد قدما إليهم من تيقنه أن التأخر لا يحمى من الأجل

ما كان أقربهم من أسر أبعدكم لم أنهم لم يكونوا منه في شغل

ثباته في صدور الخيل أنقذكم لا تحسبوا وثبات الضمّر الذلّل

ما كل حين تصاب الأسد غافلة ولا يصيب الشديد البطش ذو الشلل

والله عونك فيما أنت مز معه كما أعانك في أيامك الأول

كم قد ملكت لهم ملكا بلا عوض وحزت من بلد منها بلا بدل

وكم سقيت العوالي من طلى مثلك وكم قريت العوافي من قرى بطل

لا نكبت ملكت الأقدار عن غرض ولا ثنت يدك الأيام عن أمل

قلت: حاول ابن أسعد في هذه القصيدة ما حاوله المتبي في قوله:

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع

فإن كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم وهم المنهزمون؛ وقد احسنا معا عفا لله عنهم.

وعبيد الله بن أسعد هذا فقيه فاضل وشاعر مفلق، كان مدرسا بحمص يعرف بابن الدهان، وله ترجمة في تاريخ دمشق. وقد ذكره العماد الكاتب في خريدته، فاحسن ذكره وأكثر الثناء على علمه وشعره؛ وسيأتي ذكره أيضاً في هذا لكتاب في أخبار سنة سبعين، وست وسبعين، وثمان وسبعين، إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة، أعني سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، توفى عبد المؤمن بن علي، خليفة المهدي محمد بن تومرت صاحب المغرب؛ وولى بعده ابنه يوسف.

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية تأليف شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامه الجزء الأول-القسم الثاني

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

ففيها سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى مصر المرة الاولى، وهو من أكابر الأمراء الذين في الخدمة النورية، عازماً على ملك الديار المصرية واستضافتها إلى المملكة النورية.

وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب، وهو الأكبر، ابنا شاذي، من بلد دَوِين وهي بلدة من آخر بلاد أذْرَبِيجان مما يلي بلاد الروم؛ وأصلهما من الأكراد الرواذية، وهذا القبيل من أشرف الأكراد، وقدما العراق، وخدما مجاهد الدين بهروز الخادم، وهو شِحنة العراق؛ فرأى من نجم الدين عقلاً ورأياً وحسن سيرة فجعله دزداراً بتكريت، وهي له، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين.

فلما انهزم أتابك زنكي الشهيد، والد نور الدين، بالعراق من قراجه الساقي، وهو أتابك داود بن السلطان محمود، وذلك من المسترشد بالله، سنة ست وعشرين وخمسمائة، وصل إلى تكريت. فخدمه نجم الدين أيوب وأقام له السفن، فعبر دجلة هناك وتبعه أصحابه، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيَّرهم.

ثم إن أسد الدين قتل إنساناً نصرانياً بتكريت لملاحاة جرت بينهما؛ فأرسل مجاهد الدين إليه وإلى أخيه نجم الدين، فأخرجهما من تكريت. وقيل إن أيوب كان يحسن الرماية فرمى شخصاً من مماليك بهروز بسهم فقتله، فخشى على نفسه، فتوجه نحو الشام وخدم مع زنكي. وقيل لما قتل أسد الدين شيركوه النصراني، وكان عزيزاً عند بهروز، هرب إلى الموصل، والتحق أيوب به. وسنوضح هذه القضية إن شاء الله تعالى عند ذكر وفاة أيوب في أخبار سنة ثمان وستين.

ثم إن أيوب وشيركوه قصدا أتابك الشهيد فأحسن إليهما، وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعاً حسناً، وصارا من جملة جنده. فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دزداراً فيه. فلما قُتل الشهيد عند قلعة حعبر حّصر عسكر دمشق نجم الدين، فأرسل إلى سيف الدين غازي، وقد قام بالملك بعد والده في الموصل، يُنهي الحال إليه، فلم يتفرغ لبعلبك وضاق الأمر على من بها، وخاف نجم الدين أن تؤخذ عنوةًويناله أذى؛ فأرسل في تسليم القلعة وطلب إقطاعاً ذكره، فأجيب إلى ذلك. وحلف له صاحب دمشق عليه، وسلم القلعة، ووفى له بما حلف عليه من الإقطاع والتقدم، وصار عنده من أكابر الأمراء.

واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية، بعد قتل الشهيد، وكان يخدمه في أيام والده، فقربه نور الدين وأقطعه، ورأى منه في حروبه ومشاهده آثاراً يعجز عنها غيره لشجاعته وجرأته، فزاده إقطاعاً وقرباً حتى صارت له حمص والرحبة وغيرهما؛ وجعله مقدم عسكره.

فلما تعلقت الهمة النورية بملك دمشق أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين، وهو بها، في ذلك، فطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى ما يراد منه؛ وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيراً من الاقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها، فبذل لهما ما طلبا منه، وحلف لهما عليه، فوفى لهما لما ملكها، وصارا عنده في أعلى المنازل، لاسيما نجم الدين، فإن جميع الأمراء كانوا لايقعدون عند نور الدين إلا أن يأمرهم أو

أحدهم بذلك، إلا نجم الدين، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك.

فلما كان سنو تسع وخمسين عزم نور الدين على إرسال العساكر إلى مصر، ولم ير هذا الأمر الكبير أقوم ولاأشجع من أسد الدين، فسيَّره.

وكان سبب ذلك أن شاور بن مجير أبا شجاع السعدي، وهو الملقب أمير الجيوش الذي يقول فيه عُمارة من قصيدة:

ضجر الحديد من الحديد، وشاور ... في نصر آل محمد لم يضجر

حلف الزمان ليأتين بمثله ... حنثت يمينك يا زمان فكفر

وهو وزير الملقب بالعاضد لدين الله آخر المستخلفين بمصر، كان قد وصل إلى دمشق في سنة ثمان وخمسين، سادس ربيع الأول، إلى نور الدين مستنجداً به على من أخذ منه منصبه قهراً. وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه، وعرفوا عجزه، وقعّوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه، فإن قوتهم إنما تكون بعسكر وزيرهم، وهو الملقب عندهم بالسلطان، وما كانوا يرون المكاشفة، وأغراضهم مستتبة وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال.

وكان شاور قد غلب على الوزارة وانتزعها من بني رزيك وقتل العادل بن الصالح ابن رزيك الذي وزر بعد أبيه، واسمه رزيك، ويلقب بالناصر أيضاً، وهو الذي استحضر القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني من الاسكندرية واستخدمه بحضرته وبين يديه في ديوان الجيش، على ما ذكره عمارة اليمني، في كتاب الوزراء المصرية. وقال: غرس منه للدولة، بل للملة، شجرة مباركة متزايدة النماء، أصلها ثابت وفرعها في السماء. ثم خرج على شاور نائب الباب، وهو أمير يقال له ضرغام بن سوار ويلقب بالمصور، فجمع له جموعاً كثيرة لم يكن له بها قِبل، فغلبه وأخرجه من القاهرة وولده طيًّا، واستولى على الوزارة. فرحل شاور إلى الشام قاصداً خدمة نور الدين مستصرخاً به ومستنصراً، فأحسن نور الدين لقاءه وأكرم مثواه، فطلب منه شاور إرسال العساكر إلى مصر ليعود إليها، ويكون له فيها حصة، ذكرها له، ويتصرف على أمره ونهيه، واختياره. ونور الدين يقدم في ذلك رجلا ويؤخر أخرى، تارة تحمله رعاية قصد شاور وطلب الزيادة في الملك والتقَّوى على الفرنج، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الفرنج فيه، إلا أن يوغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج أيضاً.

ثم استخار الله تعالى وأمر أسد الدين بالتجهز للمسير معه قضاءً لحق الوافد المستصرخ، وجَسًّا للبلاد، وتطلعاً على أحوالها. وكان هوى أسد الدين في ذلك؛ وكان عنده من الشجاعة وقوة النفس ما لايبالي

معه بمخافة. فتجهز وسار مع شاور، في جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين. هكذا ذكر ابن الأثير والعماد الكاتب. وقال القاضي ابن شداد: كان ذلك سنة ثمان وخمسين؛ والقول في ذلك قولهما، فقد بينا أن قدوم شاور إلى الشام كان في سنة ثمان وخمسين، وإرسال نور الدين العسكر كان في جمادى سنة تسع وخمسين.

وأمر نور الدين أسد الدين بإعادة شاور إلى منصبه والانتقام ممن نازعه في الوزارة. وساروا جميعاً، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الإسلام مما يلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين. ووصل أسد الدين سالماً إلى مصر هو ومن معه، فهرب المنازع لشاور في الوزارة، وقتل، وطيف برأسه؛ وعاد شاور وزيراً وتمكن من منصبه.

وكان عمارة قد مدح ضرغاماً بقصيدة منها:

وأحق من وزر الخلافة من نشا	في حضرة الإكرام والإجلال
واختص بالخلفاء، وانكشفت له	أسرارها بقرائن الأحوال
وتصرف الوزراء عن أفعاله	كتصرف الأسماء بالأفعال

قال عمارة: ولما جازوا برأسه على الخليج، وكنت أسكن صف الخليج بالقاهرة، قلت ارتجالا:

أرى حنك الوزارة صار سيفاً	يَحُدُّ بحدِّه صيد الرقاب
كأنك رائد البلوى، وإلا	بشير بالمنية والمصاب

ولعمارة اليمني من قصيدة مدح بها شاور وذكر وزارتيه:

فنُصرت في الأولى بضرب زلزل ال	أقدام وهي شديدة الإقدام
ونُصرت في الأخرى بضرب صادق	أضحى يطير به غراب الهام
أدركت ثأراً، وارتجعت وزارة	نزعاً بسيفك من يدي ضرغام

وكان ضرغام أولا من أصحاب شاور وأتباعه. وقد أشار إلى ذلك عمارة في قوله من قصيدة له:

كانت وزارتك القديمة مشرعاً	صفواً، ولكن كُدرت غدرانها
غصبت رجالٌ تاجه وسريره	من بعد ما سجدت له تيجانها

وله من قصيدة أخرى في شاور:

وزير تمنته الوزارة أولا	وثانية، عفواً بغير طلاب
فخانته في الأولى بطانة وده	ورب حبيب في قميص حُباب

وجاءته تبغى الصلح ثاني مرة فلم يرض إلا بعد ضرب رقاب

و لم يُغلب وزير لهم وعاد غير شاور. وكان مدة أخذ الوزارة منه إلى أن عادت إليه تسعة أشهر سواء، وهي مدة الحمل. نص عمارة على ذلك، وقال: قتل ولده طيّ يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان، وجاز رأسه على رمح تحت الطيقان، والنساء يولولن بالصراخ، وكان فيهن واحدة تحفظ قولي في الصالح:

أَيُنْسى وفي العينين صورة وجهه ال كريم، وعهد الإنتقال قريب

فما زالت تكرره حتى رأت رأس ضرغام.

قال: وأدرك شاور ثأره في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، فيكون بينهما تسعة أشهر.

قال: وقلت في ذلك:

ونزعت ملكك من رجال نازعوا فيه، وكنت به أحقَّ وأقعدا

جذبوا رداءك غاصبين، فلم تزل حتى كسوت القوم أردية الردى

وبردت قلبك من حرارة حرمة أمرت نسيم الليل ألا يبردا

تاريخ هذا قلتُه في مثله يوماً بيوم، عبرةً لمن اهتدى:

حملت به الأيام تسعة أشهر حتى جعلن له جمادى مولدا

وله أيضاً في ذلك:

لله ردُّك موتوراً أقضّ به دستٌ، وسرجٌ، وأجفانٌ، ومضطجع

ما غبت إلا يسيراً، ثم لحت لنا والثأر مستدرك، والمُلك مرتجع

قضية لم ينل منها ابن ذي يزنٍ إلا كما نلت، والآثار تتُبع

فافخر على الحيّ من قيسٍ ومن يمنٍ أبا شجاع، فليس الحق يندفع

قال ابن الأثير: وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور. وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضاً. فأرسل إليه يأمره بالعودة إلى الشام، فأنف أسد الدين من هذا الحال، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقر؛ فلم يجبه شاور إليه. فلما رأى ذلك أرسل نوابه فتسلموا مدينة بلبيس، وحكم على البلاد الشرقية، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر. وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين، فهم خائفون. فلما أرسل شاور إليهم يستنجدهم ويطلب منهم أن يساعدوه إلى إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه، وسارعوا

إلى تلبية دعوته، والمبادرة إلى نصرته؛ وطمعوا في ملك ديار مصر. وكان قد بذل لهم مالا على المسير إليه، فتجهزوا وساروا.

فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الإفرنج ليمتنعوا من المسير، فلم يمتنعوا، لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشد من الخطر في مسيرهم. فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملك القدس في الباقين إلأى مصر. وكان قد وصل إلأى الساحل جمع كبير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدَّس، فاستعان بهم ملك الفرنج، فأعانوه؛ وسار بعضهم معه، وأقام بعض في البلاد لحفظها.

فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الين وقصد مدينة بلبيس، وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهراً يتحصن به. فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية، ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس، وحصروه بها ثلاثة أشهر؛ وقد امتنع أسد الدين بها وسوُرها من طين، قصير جداً، وليس له خندق ولافصيل يحميها، وهو يغاديهم القتال ويراوحهم؛ فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئاً. فبينما هم كذلك أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم، وملك نور الدين الحصن، ومسيره إلأى بانياس. فحينئذ سُقط في أيديهم وأرادوا العود إلأى البلاد ليحفظوها، ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها، فلم يدركوها إلا وقد ملكها، على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وراسلوا أسد الدين في الصلح، والعود إلى الشام، ومفارقة مصر، وتسليم ما بيده منها إلى المصريين؛ فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في الساحل.

قال ابن الأثير: فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس، قال: رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه، وبقي في آخرهم وبيده لتّ من حديد يحمي ساقتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون. قال: فأتاه فرنجي من الفرنج الغرباء فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المسلمون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك، فلا يبقى لك معهم بقية!! فقال شيركوه: ياليتهم فعلوا!! كنت ترى مالم تر مثله، كنت والله أضع سيفي، فلا أُقتل حتى أقتُل رجالا، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفنى أبطالهم، فيملك بلادهم، ويفني من بقي منهم. ووالله لو أطاعني هؤلاء، يعني أصحابه، لخرجت إليكم أول يوم، لكنهم امتنعوا. فصلّب الفرنجي على وجهه وقال: كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك، والآن قد عذرناهم؛ ثم رجع عنه. وسار شيركوه إلى الشام وعاد سالماً.

وقال العماد الكاتب: وصل شاور إلى نور الدين ملتجئاً، فألفاه على عدوه مقدماً مشكياً، وسيّر معه أسد الدين على قرار عيّنه، وأمر بينّه، وبُغية يدركها، وخطة يملكها، ومَحجَّة واضحة في الملك يسلكها؛ فمضى معه ونصره، وأصفى له مشرعه، واسترد له موضعه، وأظهره بعلّوه، وأظفره بعدوع؛ فلما باد

خصمه، بدا وصمه، وغدر بعهده، وأخلف في وعده.

وكان قد راسل الفرنج وهاداهم في حرب الإسلام، فوصلوا؛ فتحصن شيركوه ومن معه بمدينة بلبيس، فحاصره شاور بدنود مصر والفرنج ثلاثة أشهر، من مستهل رمضان إلى ذي الحجة. فبذلوا له قطيعة فانصرف عنهم، وعاد إلى الشام وفي قلبه من شر شاور الإحن، وكيف تمت بغدره تلك المحن.

قلت: وقد أشار إلى ذلك عُمارة في قوله في مدح شاور، وذكر الإفرنج، فقال:

وأنفذت من مصر عدواً بمثله — فلله من ظفر فللت وناب

صدمت جموع الكفر والشام صدمة — أقمت بها للقوم سوق ضراب

وقد جرّدت أجناد مصر عزائماً — مضاربها في الصخر غير نوابي

تولّوا عن الإفرنج فادح ثقلها — ودارت رحاها منهم بهضاب

أقامت دروع الجند تسعين ليلة — ثياباً لهم، ما بدُلت بثياب

وهم بين مطروح هناك وطارح — وبين مصيب خصمه ومصاب

وقال القاضي ابن شداد: سار أسد الدين إلى مصر، واستصحب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وجعله مقدم عسكره وصاحب رايه وكان لايفصل أمراُ ولايقرر حالا إلا بمشورته ورأيه، لما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة، والفكرة الصحيحة، واقتران النصر بحركاته وسكناته. فساروا حتى وصلوا مصر، وشاور معهم؛ وكان لوصولهم إلى مصر وقع عظيم؛ وخافه أهل مصر، ونصر شاوراً على خصمه، وأعاده إلى منصبه ومرتبته، وقرر قواعده، وشاهد البلاد وعرف أحوالها، وعلم أنها بلاد بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال.

وكان ابتداء رحيله عنها متوجهاً إلى الشام في السابع من ذي الحجة، فأقام بالشام مدبراً لأمره، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية، محدثاً بذلك نفسه، مقرراً لقواعد ذلك مع نور الدين، إلى سنة اثنتين وستين.

قلت: ولفعل شاور ما فعل مع أسد الدين وصفه الشعراء بالغدر، ووقعوا فيه قبل قتله وبعده، على ما سنذكره؛ وبقي متخوفاً من أسد الدين. فقال عرقلة الكلبي من جملة قصيدة له:

وهل همّ يوماً شيركوه بِجلِّق — إلأى الصيّد إلا ارتاع في مصر شاور

هو الملك المنصور، والأسد الذي — شذى ذكره في الشرق والغرب سائر

وفيها في ذي الحجة احترقت جيرون بعد رجوع أسد الدين إلى دمشق، فقال العرقلة يمدحه ويذكر ذلك:

جار صرف الردى على جيرون — وسقى أهلها كئوس المنون

أصبحت جنة وأمست جحيماً تتلَّظى بكل قلب حزين
حبذا حصنُها الحصين، لقد كا ن جمالا لكل حصن حصين
أي سيف سطا على دار سيفٍ وزبون أتى بحرب زبون
خِلتُ نيرانها وكلَّ ظلامٍ نار ليلى تلوح للمجنون
كم غنيٍّ أمسى فقيراً وفقير أمسى غنيِّ اليمين
كل حين لها حريق جديد ليت شعري، ماذا لها بعد حين!

كل هذا البلاء عاقبة الفس ق، وشرب الخمور، والتلحين
ولقد ردها بعزم وحزم أسد الدين غاية المسكين
وحمى الجامع المقدس والمش هد من جمرها بماء معين
ملك فعله بدَلْجَة والبا ب فعال الإمام في صفين

فصل في فتح حارم

قال العماد الكاتب: وفي تلك السنة، يعني سنة تسع وخمسين، اغتنم نور الدين خلو الشام من الفرنج وقصدهم، واجتمعوا على حارم، فضرب معهم المصاف، فرزقه الله تعالى الانتقام منهم؛ فأسرهم، وقتلهم، ووقع في الأسار إبرنس أنطاكية، وقومص طرابلس، وابن لجوسلين، ودوك الروم؛ وذلك في رمضان.

وقل في الخريدة: كانت نوبة البقيعة نوبة عظيمة على المسلمين، وأفلت نور الدين في أقل من عشرة من عسكره، ثم كسر الفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم، وقُتل في معركة واحدة منهم عشرون ألفاً، وأُسر من نجا؛ وأخذ القومص والإبرنس والدوقس وجميع ملوكهم. وكان منحاً عظيماً، وفتحاً مبيناً.

قال ابن الأثير: والسبب في هذا الفتح أن نور الدين لما عاد منهزماً، على ما سبق، من غزوة ناحية حصن الأكراد، أقبل على الجد والاجتهاد، والاستعداد للجهاد، والأخذ بثاره، وغزو العدو في عقر داره؛ وليرتق ذاك الفتق، ويمحو سمة الوهن، ويعيد رونق الملك. فراسل أخاه قطب الدين بالموصل، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن ونجم الدين ألب بماردين، وغيرهم من أصحاب الأطراف.

أما قطب الدين أتابك فإنه جمع عساكره وسار مجداً، وعلى مقدمة عسكره زين الدين نائبه.

وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له لخواصه: على أي شئ عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشّف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك؛ وكلهم وافقه

على ذلك. فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة؛ فقال له أولئك: ماعدا مما بدا! فارقناك بالأمس على حال ونرى الآن ضدها! فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زُهَّادها وعبَّادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم مالقي المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل والأسر والنهب، ويستمد منهم الدعاء، ويطلب منهم أن يحثُّوا المسلمين على الغزاة. فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرءون كتب نور الدين ويبكون، ويلعنونني ويدعون عليّ؛ فلابد من إجابة دعوته. ثم تجهز أيضاً وسار إلى نور الدين بنفسه.

وأما نجم الدين ألب فإنه سيّر عسكراً.

فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فنزل عليها وحصرها؛ وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالساحل أنه لم يسر إلى مصر، فحشدوا وجاءوا، ومقدم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية، والقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدُّوك وهو رئيس الروم ومقدمها. وجمعوا من الراجل ما لايقع عليه الإحصاء، قد ملأوا الأرض وحجبوا بقسطلهم السماء؛ فحرّض نور الدين أصحابه، وفرق نفائس الأموال على شجعان الرجال.

فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرْتاح وهو إلى لقائهم مرتاح؛ وإنما رحل طمعاً أن يتبعوه، ويتمكن منهم إذا لقوه. فساروا حتى نزلوا علم عِمَّ، وهو على الحقيقة تصحيف مالقوه من الغم؛ ثم تيقنوا أنه لاطاقة لهم بقتاله، ولاقدرة لهم على نزاله؛ فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كل خير، وتبعهم نور الدين.

فلما تقربوا اصطفوا للقتال؛ وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين، وبها عسكر حلب وفخر الدين، فبددوا نظامهم، وزلزلوا أقدامهم، وولوا الأدبار، وتبعهم الفرنج. وكانت تلك الفرَّة من الميمنة عن اتفاق ورأي دبروه، ومكر بالعدو مكروه، وهو أن يبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين، ويضعوا فيهم السيوف، ويرغموا منهم الأنوف، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلا يلجئون إليه، ويعود المنهزمون في آثارهم، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم. فكان الأمر على مادبروا؛ فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زيد الدين في عسكر الموصل على راجلهم، فأفناهم قتلاً وأسراً، وعادت خيّالهم و لم يمعنوا في الطلب، خوفاً على راجلهم من العطب، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفَّرين، وبدمائهم مضرجين؛ فَسُقِط فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قدْ ضلُّوا، وخضعت رقابهم وذلوا. فلما رجعوا عطف المنهزمون أعنتهم، وعادوا، فبقي العدو في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كل جانب. فحينئذ حمى الوطيس، وباشر الحرب المرؤس والرئيس، وقاتلوا الفرنج قتال من يرجو بإقدامه

النجاة، وحابوا حرب من أيس من الحياة. وانقضت العساكر الإسلامية عليهم انقضاض الصقور على بغاث الطيور، فمزقوهم بدداً، وجعلوهم قدداً. فألقى الفرنج بأيديهم إلى الأسار، وعجزوا عن الهزيمة والفرار، وأكثر المسلمون فيهم القتل، وزادت عدة القتلى على عشرة الآف. وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة، ويكفيك دليلاً على كثرتهم أن ملوكهم أسروا، وهم الذين من قبل ذُكروا.

وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم، فملكها في الحادي والعشرين من شهر رمضان. وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى أنطاكية ليملكها، لخلوها ممن يحميها ويدفع عنها، فلم يفعل، وقال: أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لاتؤخذ إلا بعد طول حصار، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها 'ليه؛ ومجاورة بيمند أحب إليّ من مجاورة ملك الروم.

وبثَّ سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسويداء وغيلا ذلك، وعادوا سالمين.

ثم إن نور الدين أطلق بيمند أنطاكية بمال جزيل أخذه منه، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم.

وقال الحافظ أبو القاسم: كسر نور الدين الروم والأرمن والفرنج على حارم، وكان عدتهم ثلاثين ألفاً.

قال: ووقع بيمند في أسره في نوبة حارم، وباعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد.

قلت: وبلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى لما التقى الجمعان، أو قبيله، انفرد تحت تل حارم وسجد لربه عز وجل، ومرغ وجهه وتضرع، وقال: يارب! هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهوؤلاء عبيدك وهم اعداؤك؛ فانصر أولياءك على اعدائك. إيش فضول محمود في الوسط؟ يشير إلى أنك يارب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر.

وبلغني أنه قال: اللهم انصر دينك ولاتنصر محموداً. من هو محمود الكلب حتى يُنصر! وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار سنة خمس وستين عند رحيل الفرنج عن دمياط بعد نزولهم عليها؛ وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين، مع أن جيشه عامئذ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شيركوه كما سبق؛ وهذا من عجيب ما وقع وانفق.

فصل

في ذكر وزير الموصل جمال الدين، الجواد الممدح، ووفاته في هذه السنة رحمه الله. وقد ذكره العماد الكاتب في مواضع من مصنفاته واثنى عليه ثناء عظيما حسناً.

فمما ذكره في كتابه الموسوم بنصرة الفترة وعُصرة الفطرة، في أخبار الوزراء السلجوقية أن قال: ذكر

جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور. كان والده من أصفهان يدعى الكامل علي، وهو صاحب الوزير شمس المُلك بن نظام الملك، وكان أبوه أبو منصور فهّاداً في عهد السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، وابنه الكامل أديب لبيب، وزادت أيامه في السمو وأيامنه في النمو حتى تنافس في استخدامه الملوك والوزراء، واستضاءت برأيه في الحوادث الآراء. وقد كان زوّج بنتا له ببعض أولاد أخوال جمال الدين أبي جعفر محمد، وخرّجه في الأدب ودرّجه في الرتب؛ فأول ما رتبه في ديوان العرض السلطاني المحمودي وغلب في تحليته ذكر الأبلج، فنعته الأتراك بالأبلج، الأمير كيدغدي وولدها خاص بك بن كيدغدى من أمراء الدولة وأبناء المملكة وهو يسر معها، فرتبه العزيز لخاص بك وزيراً، فسار في الصحبة، وكان مقبل الوجاهة، مقبول الفكاهة، شهي الهشاشة، بهي البشاشة؛ فتوفرت مُنى زنكي على منادمته، وقصر صباحه ومساءه على مساهمته، وعول عليه آخر عمره في إشراف ديوانه، وزاد المال وزان الحال بتمكينه ومكانه. فلم يظهر لجمال الدين في زمان زنكي جود، ولاعرف له موجود، فإنه كان يقتنع بأقواته، وتزجية أوقاته، ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة زنكي استبقاء لجاهه، واستعلاء به على اشباهه. فمكنه زنكي من أصحاب ديوانه، فمنهم من استضر بإساءته ومنهم من انتفع بإحسانه.

ولما قُتل زنكي صار للدولة الأتابكية ملاذاً، وللبيت الآق سنقري معاذاً؛ واستوزره الأمير غازي بن زنكي وآزره علي كوجك على وزارته، وحلف له على مظاهرته ومظافرته.

وجرى بين جمال الدين الوزير، وبين زين الدين علي كوجك، وبين سيف الدين غازي التعاقد على التعاضد، والتعاهد على التساعد. وتولى جمال الدين وزارة الموصل واستولى، فعاش بنداه الجود، وعشا إلى ناديه الوفود، وعادت به الموصل قبلة الإقبال، وكعبة الآمال، فأنارت مطالع سعوده، وسارت في الآفاق صنائع جوده. وعمر الحرمين الشريفين وشمل بالبر أهلهما، وجمع بالأمن شملهما، وأجرى بحر السماح، ونادى: حيّ على الفلاح، فصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح، وأتوا إليه من كل فج عميق، وقُصد من كل بلد سحيق؛ فقصده العظماء، ومدحه الشعراء.

وممن وفد إليه أبو الفوارس سعد بن محمد الصفي، المعروف بحيص بيص. قال: وأنشدني لنفسه فيه قصيدة أولها:

ياللصوارم والرماح الذبل	نُصرا، ومن أنجدتما لم يُخذل
لو شئتما، ومشيئة بمشيئة	جاد الزمان وبالعلا لم يبخل
فاقني فخارك يا مُجاشع، واعلمي	أني لكم من همتي في جحفل
أنا فارس اليومين، يوم مقالة	ووغى، أصول بصارمي وبمقولي

ظلمت فضائلي المقاول مثل ما ظلمت جمال الدين مأوى العُيَّل

مدحوه كي يحووا مناقب نفسه فَطَمَتْ، فسالت بالمدائح من عل

فأتيت أبذل ما استطعت، ومن يرد نقل الخضم إلى المزادة يخجل

شمس من الإحسان، عم ضياؤها بل آية جاءت بحجة مرسل

يعطي الجزيل لسائلي معروفه ويجود بالنُّعمى إذا لم يُسأل

وتزيده شوس الخطوب طلاقة فيكون أبسم ما يرى في المعضل

ثقُلت به الأعناق من منن الفدا فالهام مطرقة لذاك المثقل

فإذا تلاقي الناس كان حديثهم عن كل جفن بالحجالة مسدل

أسراء معروف الوزير، فكلهم عاف تراه مطلقاً كمكبل

من سنرقند إلى تهامة شاهد فضل الجمال على الحيا المتهلل

السحب تمطر ما تظل، وجوده يسري ودار مُقامه بالموصل

وتقرّ عين محمد بمحمد محيي دَرِيسىْ علمه والمنزل

معمار مرقده، وحافظ دينه ومعين أمته بجود مسبل

جعل المدينة مصر ربعاً آهلا نشوان يمرح بالنعيم المُحصل

فكأنها بالخصب من قربانه بلد على شط الفرات السلسل

فلو انه في عصره نزلت له في مدحه سُور الكتاب المنزل

عبد أخٌ في ضيفه ووداده لايستحيل، وسيد في المحفل

خرق نياط قميصه ورداؤه بعباب زخار وهضبة يذبل

قال العماد: وكنت أنا في ذلك العهد متفقها ببغداد، واتفق حضوري بالموصل سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، فحضرت عند جمال الدين بالجامع في جمعتين، وتكلمت عنده مع الفقهاء في مسألتين. ومما مدحته به قصيدة أولها:

أظنهم وقد عزموا ارتحالا ثنوا عنا جَمالا لاجِمالا

سروا والصبح مبيضٌ الحواشي فلما حال عهد الوصل حالا

هم اعتادوا الملال، فكيف ملّوا وصالهم وماملوا الملالا

أحادي ديسهم، بالله رفقاً فإن السير اورثها الكلالا

وعُج نحو الأراك بها، فإني أراه لاجتماع الشمل فالا

سقى صوب الحيا تلعات نجد وحيًّا بالحمى تلك التلالا

أخلائي، وهل في الناس خل به أُخْلي من الأحزان بالا

لئن لم أشف صدري من حسودي ولم أذق العدا داءً عضالاً

فلا أدركت من أدبي مرادا ولا صادفت من حسبي منالا

ولاوخدت إليكم بي جِمال ولا واليت مولانا الجَمالا

هو المغنى إذا ما المرء أقوى هو المنجي إذا ما الخطب هالا

وقائلة :أفي الدنيا كريم سواه، فقلت: لا وأبي العلا، لا

أطَلْت على الورى كرما وفخراً كذلك من حوى هذين طالا

وحزت المجد عن كسب وإرث فيا صدر الورى حزت الكمالا

خُصصتِ بكل منقبة وفضل تعالى من حباك به، تعالى

قلت: وقد أكثر الشعراء في مدحه، منهم العرقلة، له من قصيدة:

يهوى تجنّيه والصدود كما يهوى المعالي محمد بن علي

جمال دين إله خير فتى للرزق أقلامه وللأجل

معطى القرِى والقُرى لقاصده من غير مَنْ، والخيلُ، والخول

مثل فتوح الفاروق نائله شرقاً وغرباً، في السهل والجبل

من قال لم يَحو ذا ويسكن ذا أصبح مما يقول في خجل

محمد خاتم الكرام، كما سميُّه كان خاتم الرسل

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدة:

كسا الحرمين لبسة عبد شمس وهاشم غرُّتي نسل الخليل

وللبلد الأمين أجدَّ أمناً تكنَّف مثله جدث الرسول

عشيتم ياولاة الأمر عمًّا أتيح له من الأثر الجميل

وطار لها وأشفقتم فشدَّ ال | يدين على عُرى المجد الأثيل
بيوت بالحجاز مقدسات | رماها الدهر بالخطب الجليل
وكان أذالَهُنَّ فصاب صونا | لمن آوته من ولد البتول
مآثرُ باقيات يوم يجنى ال | مقال ويُجتنى طيب المقيل
وكم للموصل الحدباء مما | تُنيل يداه من ريف ونيل
بَرُود الصفح، ملتهب الحواشي | مهيب البطش، فرَّاس الدخول

ولأبي المجد قسيم الحموي فيه من قصيدة:

أغرَّ يبصر منه الناس في رجل | والليث في بشر، والبدر في غصن
سما بهمتَّه في المكرمات إلى | علياء تقصر عنها همة الزمن
يلقاك واضحَ ليل الفكر، راجح نَي | ل الكف، طاهرَ ذيل السر والعلن
ماضي العزيمة، ميمون النقيبة، رئ | بال الكتيبة، عين القائل اللَّسن
إذا تكلم واستمليت غُرَّته | في محفل رُحت حالي العين والأذن
كأن في الدست منه حين تنظره | شمس النهار وصوب العارض الهتن

قال ابن الأثير: وفي شعبان من هذه السنة، وهي سنة تسع وخمسين وخمسمائة، توفي الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني. كان قد خدم الشهيد فولاه نصيبين؛ وظهرت كفايته، فأضاف إليه الرحبة، فأبان عن كفايته وعفة. وكان من خوّاصه فجعله مشرف مملكته كلها، وحكمّه تحكيماً لامزيد عليه، حتى كان وزير الشهيد والحاكم في بلاده ضياء الدين بن الكَفَرْتُوثي يحكي عن جمال الدين قال: كان يدخل إلى أتابك قبلي ويخرج بعدي. ولم يزل كذلك إلى أن قتل الشهيد، ثم وزر لولدي الشهيد سيف الدّين ثم قطب الدين. وكان بينه وبين زين الدين علي كوجك عهود ومواثيق على المصافاة والاتفاق؛ وكان أصحاب زين الدين يكرهونه ويقعون فيه عند زين الدين فنهاهم.
وكانت الموصل في أيامه ملجأ لكل ملهوف، ومأمناً لكل خائف؛ فسعى به الحساد إلى قطب الدين حتى أوغروا صدره عليه وقالوا له: إنه يأخذ أموالك فيتصدق بها؛ فلم يمكنه أن يغيِّر عليه شيئاً بسبب اتفاقه مع زين الدين. فوضع علي زبن الدين من غيَّره من مصافاته ومؤاخاته. فقبض عليه قطب الدين وحبسه بقلعة الموصل. ثم ندم زيد الدين على الموافقة على قبضه لأن خواص قطب الدين وأصحابه كانوا يخافون جمال

الدين، فلما قُبض تبَّسطوا في الأمر والنهي على خلاف غرض زين الدين. فبقي جمالُ الدين في الحبس نحواً من سنة، ثم مرض؛ ومضى لسبيله عظيم القدر والخطر، كريم الوِرد والصَدر، عديم النظير، في سعة نفس، لم يُروْ في كتب الأولين أن أحداً من الوزراء اتسعت نفسه ومروءته لما اتسعت له نفس جمال الدين، فلقد كان عظيم الفتوة كامل المروة.

قال ابن الأثير: حكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم الصوفي، وهو رجل من الصالحين كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه، قال: لم يزل الجمال مشغولا بأمر آخرته مدة حبسه؛ وكان يقول: كنت أخشى أن أُنقل من الدست إلى القبر. قال: فلما مرض قال لي بعض الأيام: يا أبا القاسم، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرِّفني، فقلت في نفسي: قد اختلط الرجل. فلما كان الغد أكثر السؤال عن ذلك الطائر، وإذا طائر أبيض لم يُر مثله قد سقط؛ فقلت له: قد جاء الطائر، فاستبشر، ثم قال: جاء الحق؛ وأقبل على الشهادة وذِكر الله تعالى، وتُوفي؛ فلما توفي طار ذلك الطائر. قال: فعلمت أنه رأى شيئاً في معناه.

ودفن بالموصل نحو سنة؛ وكان قد قال للشيخ أبي القاسم: إن بيني وبين أسد الدين شيركوه عهداً: من مات منا قبل صاحبه حمله الحي إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فدفنه بها في التربة التي عملها؛ فإن أنا متُّ فامض إليه وذكِّره. فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في هذا المعنى؛ فأعطاه مالا صالحاً ليحمله به إلى مكة والمدينة، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول والرحيل، وقدوم مدينة تكون في الطريق، وينادون في البلاد: الصلاة على فلان. ففعلوا ذلك؛ فكان يصلى عليه في كل مدينة خلق كثير. فلما كان في الْحِلَّة اجتمع الناس للصلاة عليه، فإذا شاب قد ارتفع على موضع عال ونادى بأعلى صوته:

سَرَى نعشهُ فوق الرقاب، وطالما ... سَرى بِرُّه فوق الركاب ونائله

يمر على الوادي، فتثُنى رماله ... عليه، وفي النادي فتبكي أرامله

فلم ير باكياً أكثر من ذلك اليوم. ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول الكعبة وصلوا عليه بالحرم، وحملوه إلى المدينة فصلوا عليه أيضاً، ودفنوه بالرباط الذي أنشأه بها، وبينه وبين قبر النبي صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ذراعاً.

قلت: كذا قال ابن الأثير. ولقد رأيت المكان ولعله أراد الحائط الشرقي من مسجد النبي صلى الله عليه وسلم لانفس القبر الشريف، زاده الله شرفاً وصلى على ساكنه.

ثم قال: كان جمال الدين رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلا للمال، رحيماً بالناس متعطفاً

عليهم عادلا فيهم. فمن أعماله الحسنة أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى، وغرم عليه أموالا عظيمة، وبنى الحجر بجنب الكعبة ورأيت اسمه عليه، ثم غُير وبنُى غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة. وزخرف الكعبة بالذهب والنُّقْرة، فكل ما فيها من ذلك فهو عمله إلى سنة تسع وستمائة. ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتفي لأمر الله هدية جليلة حتى أذن فيه، وأرسل إلى أمير مكة عيسى بن هاشم خلعاً سنية وهدية كثيرة حتى مكنه منه. وعمر أيضاً المسجد الذي على جبل عرفات، وعمل الدرج الذي يصعد فيها إليه، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم. وعمل بعرفات مصانع للماء وأجرى الماء إليها من نعمان في طريق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلس، فغرم على ذلك مالا كثيراً.

وكان يعطي أهل نعمان كل سنة مالا كثيراً ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحجاج بعرفات؛ فكان الناس يجدون به راحة عظيمة.

قال: ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعاً أنه بنى سوراً على مدينة النبي عليه السلام فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب، وكان أهلها في ضنك وضر معهم. رأيت بالمدينة إنساناً يصلي الجمعة، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له، فسألناه عن سبب ذلك، فقال: يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له، لأننا كنا في ضر وضيق ونكد عيش مع العرب، لايتركون لأحد منا ما يواريه ويشبع دوعته، فبنى علينا سوراً احتمينا به ممن يريدنا بسوء، فاستغنينا؛ فكيف لاندعو له! قال: وكان الخطيب بالمدينة يقول في خطبته: اللهم صُنْ حريم من صان حرم نبيك بالسور، محمد بن علي بن أبي منصور. قال: فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخراً، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب مشرق الأرض وغربها! وسمعت عن متولي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء، سوى الإدرارات والتعهدات، قال: كان له كل يوم مائة دينار أميرية يتصدق بها على باب داره. قال: ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس؛ إلا أنه لم يفرغ لأنه قُبض قبل فراغه. وبنى أيضاً جسراً على نهر الأرياد عند الجزيرة أيضاً. وبنى الرُّبط بالموصل، وسنجار، ونصيبين، وغيرها؛ وقصده الناس من أقطار الأرض. ويكفيه أن صدر الدين الجخندي رئيس أصحاب الشافعي، رضي الله عنه، بأصبهان، وابن الكافي قاضي قضاة همدان، قصداه، فأخرج عليهما مالا جزيلا، وكذلك غيرهما من الصدور والعلماء ومشايخ الصوفية. وصارت الموصل في أيامه مقصداً وملجأ.

وكان أحب الأشياء إليه إخراج المال في الصدقات، وكان يضيِّق على نفسه وبيته ليتصدق. حكى لي والدي قال: كنت يوماً عنده وقد أحضر بين يديه قندز، ليُعمل على وبر ليلبسه، بخمسة دنانير، فقال: هذا الثمن كثير، اشتروا لي قندزاً بدينارين وتصدقوا بثلاثة دنانير. قال: فراجعناه غير مرة فلم يفعل. قال: وحكى لي من أثق إليه من العدول بالموصل أن الأقوات تعذرت في بعض السنين بها وغلت الأسعار،

وكان بالموصل رجل من الصالحين يقال له الشيخ عمر الملا، فأحضره جمال الدين وسلم إليه مالا، وقال له: تخرج هذا على مستحقيه؛ وكلما فرغ أرسل إليَّ لأنفذ غيره؛ فلم يمض إلا أيام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين، فأنفذ له شيئاً آخر ففني؛ ثم أرسل يطلب ما يخرجه، فقال جمال الدين للرسول: والله ما عندي شئ، ولكن خذوا هذه المحافر التي في داري فبيعوها وتصدقوا بثمنها إلى أن يأتيني شئ آخر إلى الشيخ عمر. فبيعت المحافر وتصدقوا بثمنها وعرفوه ذلك، فلم يكن عنده ما يرسله، فأعطاه ثيابه التي كان يلبسها مع العمامة التي كانت على رأسه، وأرسل الجميع، وقال للرسول: قل للشيخ لايمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة. فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدق بثمنها.

وقال: وحكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائي شيخ الشيوخ بالموصل قال: أحضرني الشيخ فقال لي: انطلق إلى مسجد الوزير، وهو بظاهر الموصل، واقعد هناك، فإذا أتاك شئ فاحفظه إلى أن أحضر عندك؛ ففعلت. وإذا أقبل جمع من الحمالين يحملون أحمالا من النَّصافي والخام، وإذا قد جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ومعهما قماش كثير، وثمانية عشر ألف دينار، وعدة كثيرة من الجمال. فقال لي تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرحبة، فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان، فإذا أحضر لك فلاناً العربي فتوصل إليه الرزمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه، فإذا أوصلك إلى فلان العربي فتوصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب؛ وهكذا إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، توصَل إلى وكيلي فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة، ثم يأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة ويسير إليها فيتصدق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى. قال: فسرنا كذلك إلى وادي القُرى فرأيناه به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق، فلما رأونا ساروا معنا إليها، فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري، والصاع خمسة عشر رطلا بالبغدادي. فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة آصع بدينار. فانقلبت المدينة بالدعاء له. ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا.

قال: وحكى لي والدي قال: رأيت جمال الدين وقد حضر عنده رجل فقيه قبل أن يصير وزيراً فطلب منه شيئاً، وتردد إليه عدة أيام، ثم انقطع، فسأل عنه، فقيل إنه سافر، فشق ذلك عليه، ثم قال: هكذا تنصرف الأحرار عن دور الكلاب، وردد ذلك غير مرة؛ ثم سأل عنه فقيل إنه سار نحو ماردين، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين.

قال: ولو رُمت شرح مفردات أعماله لأطلت وأضجرت، وهي ظاهرة لاتحتاج إلى بيان، فلهذا تركنا أكثرها.

وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار فقال: اجتمعت بجمال الدين الموصلي سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وأنا متوَّجه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مودة قديمة وعشرة ومؤانسة؛ فعرض عليّ الدخول إلى دار في الموصل فامتنعت، ونزلت بخيمتي على الشط، فكان مدة مقامي كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نينوى وأتابك قد ركب إلى الميدان، وينفذ إليّ يقول: أركب فأنا واقف أنتظرك، فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث. فوجدت يوماً منه خلوة من أصحابي، فقلت له: في نفسي شئ يتردد من حيث اجتمعنا أشتهي أن أقوله لك وما يتفق لي خلوة، وقد خلونا الساعة. قال: قل: قلت: أقول ما قاله الشريف الرضي:

ما ناصحتك خفايا الود من أحد — مالم يصبك بمكروه من العذل
مودتي لك تأبى أن تسامحني — بأن أراك على شئ من الزلل

وقد بسطت يدك في إنفاق المال في الصدقات ووجوه البر والمعروف، والسلاطين ما يحتملون إخراج المال، ولاتصبر نفوسهم عليه، ولو أن الإنسان يخرجه من ميراثه؛ وهذا الذي أهلك البرامكة؛ فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه. فأطرق ساعة وقال: جزالك الله خيراً، لكن الأمر قد عَبَر عما تخافه. ففارقته وسرت إلى الحجاز، وعدت من مكة على طريق الشام، ونُكب جمال الدين ومات في الحبس.
قلت: ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشاتاني في هذا الوزير الجواد لما نكب:

ماحطّ قدرك من أوج العلا القدر — كلا، ولا غيرت أفعالك الغير
أنت الذي عم أهل الأرض نائله — ولم ينل شأوه من سؤدد بشر
سارت صفاتك في الآفاق واتضحت — وصدّق السمع عنها ما رأى البصر
فاصبر لصرف زمان قد منيت به — فآخر الصبر، ياطود النُّهى، الظفر
فما ترى أحداً في الخلق يسلم من — صروف دهر له في أهله غير
سعوا بقصدك سرَّا، واستتب لهم — ولو سعوا نحوه جهراً لما قدروا
لولا الأماني التي تحيا النفوس بها — لمتّ من لوعة في القلب تستعر

ومنها في ذكر الشيخ عمر الملا:

وأصدق الناس في حفظ العهود، إذا — ميزت بالفكر أحوال الورى، عُمَر
الزاهدُ، العابدُ، البَرُّ، التقي، ومن — يزوره ويقويّ أزره الخضِر

وقال العرقلة يرثى جمال الدين الوزير والصالح بن رزيك:

لاخير في الدنيا و لا أهلها بعد جمال الدين والصالح

بحران، لولا دمع باكيهما ماكان ماء البحر بالمالح

قال ابن الأثير: قال والدي: كنت أرى من الوزير جمال الدين في الأيام الشهيدية من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها، والمحاققة فيها، ما يدل على تمكنه من الكفاية. فلما وصل الأمر إلى الملك قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد، وجمال الدين وزيره حينئذ، وقد تمكن زين الدين عليّ بن بكتكين في الدولة تمكناً عظيماً، وتقدم عند قطب الدين جماعة من أصحابه؛ فكان جمال الدين مع تمكنه وعلو محله يهمل بعض الأمور؛ قال: فقلت له يوماً: أين تلك الكفاية التي كنا نراها منك في الأيام الشهيدية؟ ما أرى الآن منها شيئاً!! فقال لي: والآن ما عندي كفاية؟ فقلت: ما هذا العمل من ذلك بشئ. فقال: أنت صبي غرٌّ. ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان، إنما الكفاية أن يسلك الإنسان في كل زمان ما يناسبه ذلك الوقت. كان لنا صاحب متمكن قوي العزم لايتجاسر أحد على الاعتراض عليه، ولايَتَلَّون بأقوال أصحابه، فحفظناه؛ فكان ما أفعله هو الكفاية. وأما الآن فلنا سلطان غير متمكن، وهو محكوم عليه؛ فهذا الذي أفعله هو الكفاية.

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج. وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم، وأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعودة إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبرية؛ فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها. فسار نور الدين مجداً إلى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة الممانعين عنها؛ ونازلها، وضيق عليها وقاتلها. وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه؛ فلما رآه نور الدين قال له: لو كُشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت أن تذهب الأخرى. وجدّ في حصارها، وسمع الفرنج بذلك فجمعوا، فلم تتكامل عدهم حتى فتحه الله تعالى. على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم أوسرهم، فملك القلعة وملأها ذخائر وعُدة، ورجالا عدة. وعاد نور الدين إلى دمشق وفي يده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر، فسقط من يده في شعراء بانياس، وهي كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان. فلما أبعد من المكان الذي ضاع فيه الفص علم به، فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلهم على مكانه، وقال أظنه هناك صاع. فعادوا إليه فوجدوه، فقال بعض

الشعراء الشاميين، وأظنه أحمد بن منير، من جملة قصيدة يمدحه بها ويهنيه بهذه الغزاة وعود الفص الياقوت:

إن يِمترِ الشكاك فيك، فإنك ال ... مهديّ مطفئُ جمرة الدجال

فلعودة الجبل الذي أظللته ... بالأمس بين عناطيل وجبال

مسترجعاً لك بالسعادة آية ... ردت مطال الفال غير مُطال

لم يُعْطَها إلا سليمان، وقد ... نلت الرقاء بموشك الإعجال

زجر جرى لسرير ملكك أنه ... كسريره عن كل جدر عال

فلو البحار السبعة استهوينه ... وأمرتهن قذفنه في الحال

قلت: هذه الأبيات لابن منير بلا شك، ولكن في غير هذه الغزاة، فإن ابن منير قد سبق أنه توفي سنة ثمان وأربعين، وفتح بانياس كما تراه في سنة ستين. وقد قرأت في ديوان ابن منير: وقال يمدحه، يعني نور الدين، ويهنئه بالعود من غزاة وضياع فص ياقوت جبل من يده لاشتغاله بالصيد شراؤه ألأف ومائة دينار. وفي نسخة: ووجد أن خاتماً ضاع منه في الصيَّد قيمته ألف ومائة دينار، وأنشده إياه بقلعة حمص. فذكر القصيدة أولها:

*يوماك يوم ندىً ويوم نزال *

يقول فيها:

أخرست شقشقة الضلال، وقدته ... قود الذَّلول أطاع بعد صيال

ورميت دار المشركين بصليم ... ألفحت فيها الحرب بعد حيال

وسَعَرْتَ بين تربيهم وترابهم ... ذعراً يشيبُ نواصي الأطفال

فوق الخطيم، وقد خطمت زعيمهم ... ضرباً سوابقه بغير توالي

ضرباً ملأت فرنجةً من حرِّه ... رهباً، به سيف الصقالب صالي

وبفَجٍّ حارم أحرمت لقراعهم ... هيم أحلن النوم غير حلال

عجموا على الجسر الحديد حديدها ... نبعاً يعاذمه أدير دُصال

زلزلت أرضهم بوقع صواعق ... أعطيننا أمناً من الزلزال

في مأزق شمرت ذيلك تحته ... والنصر فوقك مسبل الأذيال

في دولة غراء محمودية سحبت رداء الحمد غير مذال
تنسى الفتوح بها الفتوح، وتجتني زُهر المقال بباهر الأفعال
لبست بنور الدين نور حدائق ثمراتهن غرائب الأفضال
ملك تحجبّ في السرير بزأرة زرّت حواشيها على رئبال
تتجاب عن ذي لبدتين شذاته في بردتي بدل من الأبدال
رفع الرواق بروق أنطاكية فرمى الخليج بمرهق البلبال
بدر لأربع عشرة اقتبس السنا من خمس عشرة سورة الأنفال
فوز المآل أخاضه ماءً الطلي وسواه يُقعده احتيازُ المال
متقسم بين القسيمين العلا عن همٍّ عمٍ أو مخايل خال
لازلت تطلع من ثنايا جحفل يقفو لواءك كاللوى المنهال
لك أن تطل على الكواكب راقياً ولحاسديك بكاً على الأطلال

ومما يناسب هذه السعادة في وجدان الخاتم بعد وقوعه في مظنة الهلاك والضياع ما بلغني أن موسى الهادي لما ولي الخلافة سأل عن خاتم عظيم القيمة كان لأبيه المهدي، فبلغه أن أخاه الرشيد أخذه، فطلبه منه فامتنع، فألح عليه، فحنق الرشيد ومر على جسر بغداد فرماه في دجلة. فلما مات الهادي وولي الرشيد الخلافة أتى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص فرماه ثَمَّ، وأمر الغطاسين أن يلتمسوه، ففعلوا، فاستخرجوا الخاتم الأول، فعُد ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه.

قال ابن الأثير: ولما فتح نور الدين حصن بانياس كان ولد معين الدين أنر الذي سلم بانياس إلى الإفرنج قائماً على رأسه، فالتفت إليه وقال له: للناس بهذا الفتح فرحة واحدة، ولك فرحتان، فقال: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برّد جلدة والدك من جهنم. وقد تقدم أنه كان صانع بها عن دمشق ولما نزل الفرنج عليها.

وفيها توفي وزير بغداد عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، من بني ذهل بن شيبان بن ثعلبة ن الحصن. وكان عالماً ديناً مدبرا حنبلي المذهب؛ وزر للمقتفي ثم للمستنجد بعده، وله عدة مصنفات، منها: الإفصاح في شرح الأحاديث الصحاح. وكان يجمع في مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الأربعة والنحاة وغيرهم، ويجري بحضرهم فوائد كثيرة. ثم توفي وهو ساجد في صلاة الصبح من يوم الأحد ثالث عشر جمادي الأولى سنة ستين وخمسمائة. ورئيت له منامات حسنة، ومدحه جماعة من الفضلاء. ومولده في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وأربعمائة بقرية من أعمال دُجَيْل تعرف بالدُّور، وهو

الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره. ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: اجتهد أن تستر العصاة، فإن ظهور معاصيهم عيب في الإسلام، وأولى الأمور ستر العيوب.

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

ففيها توفي فتح الدين بن أسد الدين شيركوه، أخو ناصر الدين؛ وقبره بالمقبرة النجمية إلى جانب قير ابن عمه شاهنشاه بن أيوب في قبة فيها أربعة قبور، هما الأوسطان منها. وفي هذين الأخوين، ناصر الدين وفتح الدين، يقول العرقلة حسان:

لله شبلا أسد خادر ... ما فيهما جبن و لا شح

ما أقبلا إلا وقال الورى ... قد "جَاءَ نَصرْ ُ اللهِ وَاْلفَتْحُ"

وفيها سار نور الدين أيضاً إلى حصن المنيطرة، وهو للفرنج، و لم يحشد له ولا جمع عساكره، إنما سار إليه على غرة من الفرنج، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا؛ فانتهز الفرصة وسار إلى المنيطرة وحصرها، وجدّ فيؤ قتالها، وأخذها عنوة وقهراً، وقتل من بها، وسبى، وغنم غنيمة كثيرة لأَمِنْ من به، فأخذهم خيل الله بغتة وهم لايشعرون؛ و لم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه إلا وقد ملكه. ولو علموا أنه جرد جريدة لأسرعوا، وإنما ظنوا أن نور الدين في جمع كثير، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا منه.
هذا قول ابن الأثير. وذكر القاضي ابن شداد أن ذلك في سنة اثنتين وستين كما سيأتي، والله أعلم.
وفيها توفي الجليس بن الحباب بمصر. قال العماد في الخريدة: القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبي السعدي التميمي، جليس صاحب مصر، ففضله مشهور، وشعره مأثور. وكان أوحد عصره في مصر نظماً ونثراً، وترسلا وشعرا؛ ومات بها في سنة إحدى وستين، وقد أناف على السبعين. انشدني له الأمير نجم الدين بن مصال من قصيدة يقول فيها:

ومن عجب أن السيوف لديهُم ... تحيض دماءً، والسيوف ذكور

وأعجب من ذا أنها في أكفهم ... تأججُ ناراً، والأكف بحور

قال: وأنشدني له الشريف إدريس الإدريسي قصيدة سيَّرها إلى الصالح بن رزيك قبل وزارته، يحرضه على إدراك ثأر الظافر، وكان عباس وزيرهم قتله وقتل أخويه يوسف وجبريل، يقول فيها:

أصادفهُم قولا وغيباً ومشهداً ... نحوهم على عمد بفعل أعادي

فأين بنو رزيك عنها ونصرهم وما لهم من منعة وذياد
تدارك من الإيمان قبل دثُورِه حشاشة نفس آذنت بنفاد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم ومصرعهم لم تكتحل برقاد
فمزق جموع المارقين، فإنها بقايا زروع آذنت بحصاد

وله فيه من أخرى في هذه الحادثة:

ولما ترامى البربري بجهله إلى فتكة ما رامها قط رائم
ركبت إليه متن عزمتك التي بأمثالها تُلقى الخطوب العظائم
أعدت إليهم ملكهم بعد ما لوى به غاصب حق الإمامة ظالم

وأنفذ إليه في المعنى:

أعدت إلى جسم الوزارة روحها وماكان يرجى بعثها ونشورها
أقامت زماناً عند غيرك طامثاً فهذا الأوان قرؤها وطهورها
من العدل أن يحيا بها مستحقُّها ويخلعها مردودةً مستعيرها
إذا ملك الحسناء من ليس كفئها أشار عليه بالطلاق مشيرها

وله يشكو طبيباً:

وأصل بليتي من قد غزاني من السَّقَم الملحّ بعسكرين
طبيب طبُّه كغراب بين يفرق بين عافيتي وبيني
أتي الحمى وقد شاخت وباخت فرد لها الشباب بنسختين
ودبرها بتدبير لطيف حكاه عن سسنان أو حنين
وكانت نوبةً في كل يوم فصيّرها بحذق نوبتين

قلت: الأبيات الرائية تمثل بها الجليس، وهي لصُرد، وقرأتها في ديوانه؛ وهي من قصيدة مدح بها وزير الخليفة ببغداد فخر الدين أبا نصر محمد بن جهير ويهنيه بعوده إلى الوزارة؛ وأول القصيدة:

لجاجةُ قلب ما يفيق غرورها وحاجة نفس ليس يُقضي يسيرها

وهي طويلة يقول فيها متغزلا:

وقفنا صفوفاً في الديار، كأنها صحائف ملقاة ونحن سطورها

يقول خليلي، والظباء سوانح: أهذي التي تهوى؟ فقلت: نظيرها
وقد قلتما لي ليس في الأرض جنة أما هذه فوق الركائب حورُها؟
أراكَ الحمْى، قل لي بأي وسيلة وصلت إلى ان صادقتك ثغورها!

ويقول في مديحها:

وما لي بها علم، فهل أنت عالم ألأفواهها أولى بها أم نحورها
على رسلكم في الهجر، إنَّا عصابة إذا ظفرت في الحب عف ضميرها
فقل لليالي: كيف شئت تقلبَّي ففي يد عبل الساعدين أمورها

أمانيُّ في نفس الوزارة بُلِّغت به كنهها حتى استحقت نذورها
لوَتْ وجهها عن كل طالب متعة إلى خاطبٍ حلَّ عليه سفورها
إذا مثل الأقوام دون عرينه تساوى به ذو طيشها ووقورها
تكاد لما قد أُلبسْت من سكينة ترف على تلك الرؤس طيورها

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

ففيها عاد أسد الدين إلى مصر تاسع ربيع الآخرة! وقد كان بعد رجوعه من مصر لايزال يحدث نفسه بقصدها ومعاودتها، حريصاً على الدخول إليها، يتحدث به مع كل من يثق إليه. وكان مما يهيجه على العود زيادة حقده على شاور وما عمل معه. فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها، وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب. وفي ذلك يقول العرقلة:

أقول والأتراك قد ازمعت مصرَ إلى حرب الأعاريب :

ربّ، كما ملكتها يوسف الص_ديق من اولاد يعقوب

يملكها في عصرنا يوسف الص ادق من أولاد أيوب
من لم يزل ضرّاب هامِ العدا حقاً وضرّاب العراقيب

ثم إن أسد الدين جدَ في السير على البرّ، وترك بلاد الإفرنج عن يمينه، فوصل إلى الديار المصرية وقصد إطفيح، وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجزيرة مقابل مصر، وتصرّف في البلاد الغربية وأقام بها نيفاً وخمسين يوماً.

وكان شاور لما بلغه مجئ أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم؛ فأتوه على الصعب والذلول، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجد والتشمير، وتارة يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النُّوري على الإسراع في المسير؛ فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم. فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي؛ وكان أسد الدين والعسكر النُّوري قد ساروا إلى الصعيد فبلغوا مكاناً يعرف بالبابين، وسارت العساكر المصرية، والفرنج وراءهم، فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جمادي الأولى.

وكان شيركوه قد أرسل إليهم جواسيس، فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعددُهم، وجدهم في طلبه؛ فعزم على قتالهم ولقائهم، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم.

إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطير الذي عطبهم فيه أقرب من السلامة، لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم؛ فاستشارهم، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالوا له: إن نحن انهزمنا، وهو الذي لاشك فيه، فإلى أين نلتجئ وبمن نحتمي، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدوٌّ لنا، ويودون لو شربوا دمتءنا؛ وحق لعسكر عدتهم ألفا فارس قد بعدُوا عن ديارهم وقل ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات ألوف، مع أن كل أهل البلاد عدو لهم فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النُّورية يقال له شرف الدين بزغش، وكان من الشجاعة بالمكان المشهور، وقال: من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته؛ والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلاء تعُذرون فيه ليأخذن إقطاعاتكم وليعودنَّ عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار؟! قال أسد الدين: هذا رأيي وبه أعمل، ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال، فاجتمعت الكلمة على اللقاء. فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة، وقد جعل الأثقال في القلب يتكثر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد.

ثمَّ إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب، وقال له ولمن معه: إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب فهم يجعلون جمرتهم بإزائه وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولاتهلكوا نفوسكم، واندفعوا بين أيديهم؛ فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابكم. واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنة. فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه، فقاتلهم من به قتالا يسيراً، ثم انهزموا بين أيديهم، فتبعوهم. فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف عن الفرنج الذين حملوا على القلب من

المسلمين فهزموهم، ووضع السيف فيهم فأثخن، وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون. فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعاً ليس بها منهم ديار، فانهزموا أيضاً. وكان هذا من أعجب ما يؤرخ: أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل.

ثم سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية وجبى ما في طريقها من القرايا والسواد من الأموال، ووصل إلى الإسكندرية فتسلمها من غير قتال: سلمها إليه أهلها؛ فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه، وعاد إلى الصعيد وتملّكه، وجبى أمواله، وأقام بها حتى صام رمضان.

وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم، وأقاموا عوض من قتل منهم، واستكثروا، وحشدوا، وساروا إلى الإسكندرية، وبها صلاح الدين في عسكر يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتد الحصار وقل الطعام بالبلد، فصبر أهله على ذلك. ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسل المصريين والفرنج يطلبون الصلح، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد؛ فأجابهم إلى ذلك وشرط أن الفرنج لايقيمون بمصر، ولا يتسلمون منها قرية واحدة، وأن الإسكندرية تعاد إلى المصريين. فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا؛ وعاد إلى الشام، فوصل دمشق ثامن عشر ذي القعدة؛ وتسلم المصريون الإسكندرية في النصف من شوال.

وأما الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع الملك العادل من إنفاذ عسكر إليهم، ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار. هذا كله يجري بين الفرنج وشاور؛ وأما العاضد صاحب مصر فليس إليه من الأمر شئ، ولايعلم بشئ من ذلك: قد حكم عليه شاور وحجبه. وعاد الفرنج إلى بلادهم، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعبانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة.

ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي، وهو من أكابر أمراء الملك العادل، وهو خال صلاح الدين يوسف، ينهى محبته وولاءه، ويسأله أن يأمر بإصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته، ويجمع كلمة الإسلام، وبذل مالاً يحمله كل سنة. فأجابه إلى ذلك، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلا. فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار سنة أربع وستين.

قال القاضي أبو المحاسن يوسف بن شداد: ذكر عود أسد الدين إلى مصر في المرة الثانية، وهي المعروفة بوقعة البابيْن: لم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاوراً ذلك وداخله الخوف على البلاد من الأتراك، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد، وأنه لابد له من قصدها. فكاتب الفرنج وقرر معهم

أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها تمكيناً كلياً، ويعينونه على استئصال أعدائه، بحيث يستقر قدمه فيها. وبلغ ذلك نور الدين وأسد الدين، فاشتد خوفهما على مصر أن يملكها الكفار فيستولون على البلاد كلها. فتجهز أسد الدين، وأنفذ نور الدين معه العسكر، وألزم صلاح الدين رحمه الله بالمسير معه على كراهة منه لذلك، وذلك في اثناء ربيع الأول. وكان وصولهم إلى البلاد المصرية مقارناً لوصول الفرنج إليها. واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين، والمصريون بأسرهم، وجرى بينهم حروب كثيرة ووقعات شديدة، وانفصل الفرنج عن الديار المصرية، وانفصل أسد الدين.

وكان سبب عود الفرنج أن نور االدين، قدس الله روحه، جرد العساكر إلى بلاد الإفرنج وأخذ المنيطرة؛ وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم وعادوا. وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الفرنج والمصريين، وما عانوه من الشدائد وعاينوه من الأهوال. وما عاد حتى صالح الفرنج على أن ينصرفوا كلهم عن مصر، وعاد إلى الشام في بقية السنة، وقد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الفرنج، لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها، وعرفوها من الوجه الذي عرفها. فأقام بالشام على مضض وقلبه مقلقل والقضاء يجره إلى شئ قد قُدر لغيره وهو لايشعر بذلك.

قال: وفي اثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد مسير أسد الدين في رجب، وخرب قلعة اكاف بالبرية.

وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخوه قطب الدين وزين الدين بحماة للغزاة، وساروا إلى بلاد الفرنج، فخربوا هُونين في شوال منها.

وفي ذي القعدة منها كان عود أسد الدين إلى مصر.

وفيه مات قرا أرسلان بديار بكر.

فصل

وفي شعبان من هذه السنة قدم دمشق عماد الدين الكاتب ابو حامد محمد بن محمد الاصفهاني، مصنف كتابي الفتح والبرق، فأنزله قاضي القضاة كمال الدين ابو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن الشهرزوري بالمدرسة النورية الشافعية عند حمام القصير بباب الفرج، المنسوبة الان الى العماد. وانما نسبت اليه لان نور الدين رحمه الله تعالى ولاه اياه في رجب سنة سبع وستين بعد الشيخ الفقيه بن عبد الحارثي.

وكان العماد له معرفة بنجم الدين ايوب واسد الدين شيركوه ابني شاذي من تكريت، بسبب ان عمه

العزيز احمد بن حامد اعتقله السلطان محمود بن ملشكاه بقلعة تكريت، ونجم الدين ايوب اذ ذاك واليها، فانتسجت المودة بينهم من هناك. فلما سمع نجم الدين بوصوله ، بكر الى مترله لتبجيله، وكان صلاح الدين وشيركوه حينئذ بمصر، فمدح العماد نجم الدين ايوب بقصيدة اولها:

يوم النوى ليس من عمري بمحسوب ... ةلا الفراق الى عيشي بمنسوب
ما اخترت بعدك، لكن الزمان اتى ... كرها بما ليس، يا محبوب، محبوبي
ارجو ايابي اليكم ظافراً عجلا ... فقد ظفرت بنجم الدين ايوب
موفق الرأي، ماضي العزم، مرتفع ... على الاعاجم مجداً والاعاريب
احبك الله اذ لازمت نجدته ... على جبين بتاج الملك معصوب
اخوك وابنك، صدقاً منهما، اعتصما ... بالله، والنصر وعد غير مكذوب
هما همامان في يومي وغى وقرى ... تعودا ضرب هام او عراقيب
داً يشبان في الكفار نار وغى ... بلفحها يصبح الشبان كالشيب
بملك مصر ونصر المؤمنين غداً ... تحظى النفوس بتأنيس وتطييب
ويستقر بمصر يوسف، وبه ... تقر بعد التنائي عين يعقوب
ويلتقي يوسف فيها بأخوته ... والله يجمعهم من غير تثريب

وكان انشاده هذه القصيدة في اخر شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وتم ملكهم مصر بعد سنتين فنظمت ما في الغيب تقديره.

قال: وكان اسد الدين قد جمع وسار الى مصر في الرمل في النصف من ربيع الاول، ووصل في سادس ربيع الاخر الى اطفيح وعبر منها الى الجانب الغربي ، واناخ بالجيزة محاذاة مصر، فأقام عليها نيفاً وخمسين يوماً، واستعان شاور بالفرنج ورتبوا لهم سوقاً بالقاهرة، وعبروا بهم من البلاد الشرقية الى الغرب، وعلم اسد الدين فسار امامهم، فالتقوا بموضع يعرف بالبابين، فكسرهم اسد الدين واصحابه، وقتلوا من الفرنج وممن تبعهم من المصريين الوفا، وحصل منهم في الاسار سبعون فارساً من بارونيتهم. فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا إلى الإسكندرية، فوجدوا مساعدة من أهلها فدخلوها. ثم قال أسد الدين: أنا لايمكنني أن أحصر نفسي؛ فأخذ العسكر وسار به إلى بلاد الصعيد فاستولى عليها، وجبى خراجها. وأقام صلاح الدين بالإسكندرية فسار إليه شاور والرنج، فحاصروه أربعة أشهر، وصدق أهل الإسكندرية القتال مع

صلاح الدين، وقوى أسد الدين بقوص، واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص. فسمع الفرنج أنه جاء يقصدهم فرحلوا عن الحصار. وكان شاور قد استمال جماعة من التركمان الذين مع أسد الدين بالذهب، فلما راسلوه في المهادنة أجاب، وطلب منهم عوض ماغرمه؛ فبذلوا له خمسين ألف دينار، فخرجوا من الإسكندرية في النصف من شوال، ووصلوا إلى دمشق ثامن عشر ذي القعدة، وعادوا إلى الخدمة النورية. فاجتمع العماد بأسد الدين وأنشد هذه القصيدة:

بلغت بالجد مالا يبلغ البشر ... ونلت ماعجزت عن نيله القُدر
من يهتدي للذي أنت اهتديت له ... ومن له مثل ما أثرّته أثر!
أسرِت أم بِسُراك الأرضُ قد طويت ... فأنت إسكندرٌ في السير أم خَضِر
أوردت خيلا بأقصى النيل صادرةً ... عن الفرات يقاضي وِرْدَها الصَّدَر
تناقلت ذكرك الدنيا، فليس لها ... إلا حديثك ما بين الورى سمر
فأنت مَنْ زانت الأيام سيرته ... وزاد فوق الذي جاءت به السيِّر
لو في زمان رسول الله كنت، أتت ... في هذه السيرة المحمودة السور
أصبحت بالعدل والإقدام منفرداً ... فقل لنا: أعليٌّ أنت أم عمر
إسكندرٌ ذكروا أخبار حكمته ... ونحن فيك رأينا كل ماذكروا
ورُسْتُمٌ خبرونا عن شجاعته ... وصار فيك عياناً ذلك الخبر
اِفخر؛ فإن ملوك الأرض أذهلهم ... ماقد فعلت، فكلٌ فيك مفتكر
سهرت إذرقدوا، بل هجت إذ سكنوا ... وصُلت إذ جبنوا، بل طُلت إذ قُصروا
يستعظمون الذي أدركته عجباً ... وذاك في جنب مانرجوه محتقر
قضى القضاء بما نرجوه عن كثب ... حتما، ووافقك التوفيق والقدر
شكت خيولك إدمان السرى، وشكت ... من فَلِّها البيضُ، بل من حَطْمها السُّمر
يسرت فتح بلاد كان أيسرها ... لغير رأيك قفلاً فتحه عسر
قرنت بالحزم منك العزم، فاتسقت ... مآرب لك عنها أسفر السفر
ومن يكون بنور الدين مهتدياً ... في أمره، كيف لايقوى له المرر
يرى برأيك مافي الملك يبرمه ... فأنت منه بحيث السمع والبَصر
لقد بغت فئةُ الإفرنج فانتصفت ... منها، بإقدامك، الهندية البتر

غرست في أرض مصرٍ من جسومهمُ أشجار خط لها من هامهم ثمر

وسال بحر نجيع في مقام وغي به الحديد غمامٌ، والدم المطر

أنهرت منهم دماءً بالصعيد، جرى منها إلى النيل في واديهمُ نَهَر

رأوا إليك عبور النيل إذ عدموا نصراً فما عبروا حتى قد اعتبروا

تحت الصوارم هامُ المشركين، كما تحت الصوالج يوماً خفتّ الأكر

أفنت سيوفك من لاقت، فإن تركت قوماً فهم نفر من قبلها نفروا

لم ينج إلا الذي عافته من خبث وحش الفلا، وهو للمحذور منتظر

والساكنون القصور القاهرية قد نادى القصورُ عليهم أنهم قُهروا

وشاورٌ شاوروه في مكائدهم فكادوه الكيد لما خانه الحذر

كانوا من الرعب موتى في جلودهم وحين أمنتهم من خوفهم نُشروا

وإن من شيركوه الشرك منخزلٌ والكفرَ منخذل، والدين منتصر

عوّل على فئةٍ عند اللقاء وفت وعدِّ عن تركمان قبله غدروا

وكيف يُخذل جيش أنت مالكه والقائدان له التأييد والظفر

أجاب فيك إله الخلق دعوة من يطيب بالليل من أنفاسه السَّحر

وقال العماد: واتصلت بيني وبين صلاح الدين يوسف ابن أخيه مودة، تمت لي بها على الزمان عُدة؛ ولم يزل يستهديني نظمي ونثري، ويشعرني أنه يميل إلى شعري. فأول ما خدمته به هذه الكلمة:

كيف قلتم بمقلتيه فتور وأراها بلا فتور تجور

ومنها:

مستجيزٌ جوري، وإنيَّ منه بابن أيوب يوسفٍ مستجير

فضله في يدي الزمان سوار مثلها رأيه على الملك سور

كرمٌ سابغ، وجودٌ عميم وندىً سائغ، وفضل غزير

أنت من لم يزل يحن إليه، وهو في المهد، سرجه والسرير

من دم الغادرين غادرت بالأم س صعيد الصعيد وهو غدير

ولكلٍ مما تطاولت فيهم		أمل قاصر وعمر قصير

لاذ بالنيل شاورُ مثل فرعو		ن، فذل اللاجيّ وعز العُبور

شارك المشركين بغياُ، وقدماً		شاركتها قريظةٌ والنضير

والذي يدعى الإمامةَ بالقا		هرة ارتاع أنه مقهور

وغدا الْمَلْك خائفاً من سُطاكم		ذا ارتعاد كأنه مقرور

وبنو الهنفري هانوا ففروا		ومن الأسد كلُّ كلب فرور

إنما كان للكلاب عواء		حيث ماكان للأسود زئير

قليب عند الفرار سليب		فهو بالرعب مطلق مأسور

لم يبقوا سوى الأصاغر للسب		ي فودوا أن الكبير صغير

وحميت الإسكندرية عنهم		ورحى حربهم عليهم تدور

حاصروها وما الذي بان من ذَبَّ		ك عنها وحفظها محصور

كحصار الأحزاب طيبةً قدماً		ونبيُّ الهدى بها منصور

فاشكر الله حين أولاك نصراً		فهو نعم المولى ونعم النصير

ولكم أرجف الأعادي، فقلنا		مالما تذكرونه تأثير

ورقبنا كالعيد عودك فاليو		م به للأنام عيد كبير

عاد من مصر يوسفٌ وإلى يع		قوب بالتهنئات جاء البشير

فلأيوب من إياب صلاح الدِّ		ين يوم به توفيَّ النذور

ولكم عودة إلى مصر بالنص		ر على ذكرها تمر العصور

فاستردوا حق الإمامة ممن		خان فيها فإنه مستعير

وافترعها بكراً، لها في مدى الده		ر رواح في مدحكم وبكور

أنا سيرت طالع العزم مني		وإلى قصدك انتهى التسيير

وأرى خاطري لمدحك إلفاً		إنما يألف الخطير الخطير

وهي والتي قبلها طويلتان جداً. فانتظمت معرفة العماد بصلاح الدين وكان له مساعداً عند نور الدين.
وقرأت في ديوان العرقلة: وقال يمدح أسد الدين شيركوه، وقد أخذ الشقيف ورحل طالباً حصناً يقال له الغراق:

رحلت من الشقيف إلى الغراق ... بعزم كالمهندة الرقاق
ونكست الأعادي منه قهراً ... ومجدك في ذرا الجوزاء باقي
بجأشك لا بجيشك نلت هذا ... وبالتوفيق لا بالإتفاق

فداؤك من مضى بالحصن قبلي ... إلى دار الخلود من الرفاق
وما نخشى على الإسلام بؤساً ... إذا هلك الجميع وأنت باقي
أشاوركم تُشاور كل خب ... وتنفق عند مثلك بالنفاق
أتصبر إن أتتك بحار خيل ... وقدماً ما صبرت على السواقي
متى رفعت لك السودان رأساً ... وقد خلاهم مثل الزقاق
وعيشك ماله من مصر بد ... ومن عندي ثلاثاً بالطلاق
هو الأسد الذي مازال حتى ... بنى مجداً على السبع الطباق

فصل

قال ابن الأثير: وفي هذه السنة أرسل نور الدين إلى أخيه قطب الدين يطلب أن يعبر الفرات إليه بعساكره؛ فتجهز وسار هو وزين الدين في العساكر الكثيرة، فاجتمعوا بنور الدين على حمص. فدخل بالعساكر الإسلامية بلاد الفرنج واجتاز على حصن الأكراد، فأغاروا ونهبوا وأسروا، وقصدوا عَرْقَةَ ونزلوا عليها وحصروها، وحصروا جَبَلَة وأخربوها. وتوجهت عساكر المسلمين يميناً وشمالاً تغير وتخرب البلاد، وفتح العَرِيمة وصافيثا. وعاد إلى حمص، فصام بها شهر رمضان. ثم سار إلى بانياس وقصد قلعة هُونين، وهي للفرنج ايضاً، من قلاعهم المنيعة، فانهزم الفرنج عنها وأحرقوها، فقصدها نور الدين فوصلها من الغد، وخرب سورها جميعه. وأراد الدخول إلى بيروت فتجدد في العسكر خُلف أوجب التفرق، فعاد. وسار قطب الدين إلى الموصل وأقطعه مدينة الرَّقَّة فأخذها في طريقه.
قال: وفي هذه السنة عصى الأمير غازي بن حسان المنبجي صاحب مَنْبِج على نور الدين، وهو كان أقطعه إياها، فأرسل إليه نور الدين عسكراً حصره بها وأخذها منه، وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن

حسان، وكان عاقلاً خيراً، حسن السيرة، فبقى بها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة اثنتين وسبعين كما سيأتي.

وفي هذه السنة توفي القاضي الرشيد أحمد بن علي بن الزبير صاحب كتاب الجنان. قال العماد في الخريدة: كان ذا علم غزير وفضل كثير، قتله شاورَ صبراً في سنة اثنتين وستين، ونسب إليه أنه شارك أسد الدين شيركوه في قصده. وأخوه المهذب أبو علي الحسن بن علي بن الزبير أشعر منه وتوفي قبله بسنة، لم يكن في زمانه أشعر منه. وله شعر كثير، منه قصيدة غراء في مدح الصالح بن رزيك، وذكر فيها نور الدين، أولها:

أعلمت حين تَجاور الحيان	أن القلوب مواقد النيران
يا كاسر الأصنام قم فانهض بنا	حتى تصير مكسِّر الصلبان
فالشام ملكك قد ورثت بلاده	عن قومك الماضين من غسان
وإذا شككت بأنها أوطانهم	قدماً فسل عن حارث الجولان
أورمُت أن تتلو محاسن ذكرهم	فاسند روايتها إلى حسان
مازلزلت أرض العدا، بل ذاك ما	بقلوب أهليها من الخفقان
وأقول إن حصونهم سجدت لما	أوتيت من ملك ومن سلطان
ولقد بعثت إلى الفرنج كتائباً	كالأسد حين تصول في خفَّان
لبسوا الدروع، ولم نخل مِنْ قبلهم	أن البحار تحل في غُدران
عجلت في تل العَجُول قراهم	وهم لك الضيفان بالذِّيفان
وثللت في يوم العريش عروشهم	بشبا ضراب صادق وطعان
ألجأتهم للبحر لما أن جرى	منه ومن دمهم معاً بحران
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما	لم يأت في حين من الأحيان
وأعدت رُسل ابن القسيم إليه في	شعبان كي يتلاءم الشَّعبان
والفال يشهد في اسمه أن سوف يغ	دو الشام وهو عليكما قسمان
وأراك من بعد الشهيد أباً له	وجعلته من أقرب الإخوان
وهو الذي مازال يفعل في العدا	مالم يكن لِيُعَدَّ في الإمكان
قتل البرنس ومن عساه أعانه	لما عتا في البغي والعدوان

وأرى البرية حين عاد برأسه | مُرَّ الجنى يبدو على المران

وتعجبوا من زرقة في طرفه | وكأن فوق الرمح نصلاً ثاني
عجباً لجود يديه إذ يبني العلا | والسيل يهدم ثابت الأركان
قلدت أعناق البرية كلها | منناً تحمل ثقلها الثقلان
حتى تساوى الناس فيك وأصبح ال | قاصي بمنزلة القريب الداني

وفي هذه السنة ذكر القاضي كمال الدين بن الشَّهْرَزَوْرِي للسلطان نور الدين رحمه الله حال العماد الكاتب وعرفه به، وعرض عليه قصيدة له في مدحه مطلعها:

لو حفظت يوم النوى عهودها | ما مُطلت بوصلكم وعودها

ومنها:

محمد يحمد عيش بلدة | مالكها بعدله محمودها
مؤيد أموره بعزمة | من السموات العلا تأييدها
آثاره حميدة، وإنما | للمرء من آثاره حميدها
إن الورى بحبه وبغضه | يعرف من شقيها سعيدها
قد جاءكم نور من الله، فمن | به اهتدى فإن رشيدها
جلا ظلام الظلم نور الدين عن | أرض الشآم، فله تحميدها
إن الرعيا منه في رعاية | ونعمة مستوجب مزيدها
لنومها يسهر، بل لأمنها | يخاف، بلْ يخصبها بجودها
بالدين والملك له قيامه | وللملوك عنهما قعودها
ودأبه ثلم ثغور الكفر، لا | لثم ثغور ناقع برودها
قد أسبغ الله لنا بعدله | ظلال أمن وارف مديدها
غدا ملوك الروم في دولته | وهم على رغمهم عبيدها
لما أبت هاماتهم سجودها | لله، أضحى للظُّبا سجودها
إن فارقت سيوفه غمودها | فإن هاماتهم غمودها

كم مغلقات، من حصون عزمه مفتاحها، وسيفه إقليدها
قد ودَّت الفرنج لو فرَّت نجتْ منك، ولكن روعها يبيدها
قهرتها حتى لودَّ حيُّها من ذلة لو أنه فقيدها
أماتها رعبك في حصونها كأنما حصونها لحودها
وإن مصراً لك تعنو بعدما لسيفك العضب عنا صعيدها
والملة الغراء اخالٍ بالها عال سناها، بك حالٍ جيدها
مفترة ثغورها، ممنوعة ثغورها، محفوظة حدودها
وإن بغى جالوتها ضلالةً فأنت في إهلاكه داودها
يابن قسيم الدولة الملك الذي خرّضت له من الملوك صيدها
دع العدا بغيظها، فإنما يذيب أكباد العدا حقودها
يادولة نوريةً أمن الورى وخصبها، وجودها، وُجودها
مامثلُ الدنيا لمن يجمعها بالحرص إلا قَزَّة ودودها
أنت الذي يرفضها عن قدرة فلا يشوب زهده زهيدها
فابق لنا ياملكا، بقاؤه في كل عام للرعايا عيدها
في نعمة جديدة سعودها ودولة سعيدة جدودها

وهي طويلة. فرتبه نور الدين في ديوانه منشئاً لاستقبال سنة ثلاث وستين.

قال: ووجدت على الأيام منه الإعزاز والتمكين. قلت: وذلك بعد أن استعفى أبو اليُسر شاكر بن عبد الله من الخدمة في كتابة الإنشاء وقعد في بيته. كذا ذكر العماد في الخريدة.

وقال: تولى ديوان الإنشاء بالشام سنين كثيرة، وله مقاصد حسنة في الكتب، وهو حميد السيرة، جميل السريرة.

وفيها توفي الحافظ أبو سعد عبد الكريم محمد السمعاني المروزي رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة

فذكر العماد أن نور الدين رحل إلى حمص، ثم مضى إلى حماة، ثم شتَّى بقلعة حلب ومعه الأسد والصّلاح. ونزل العماد بمدرسة ابن العجمي وكتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد عثر فرسه في الميدان وهو يلعب بالكرة مع نور الدين رحمه الله تعالى:

لاتنكُرنَّ لسابح عثرت به ... قدم وقد حمل الخضم الزاخرا
ألقى على السلطان طرفِك طرفه ... فهوى هنالك للسلام مبادرا
سبق الرياح بجريه، وكففته ... عنها، فليس على خلافك قادرا
ضعفت قواه إذ تذكر أنه ... في السرج منك يُقل ليثاً خادراً
ومتى تطيق الريح طوداً شامخاً ... أو يستطيع البرق جوناً ماطرا
فاعذر سقوط البرق عند مسيره ... فالبرق يسقط حين يخطف سائرا
وأقِلْ جوادك عثرة ندرت له ... إن الجوادَ لَمَن يُقيل العاثرا
وتوقّ من عين الحسود وشرها ... لاكان ناظرها بسوء ناظرا
واسلم لنور الدين سلطان الورى ... في الحادثات معاضدا ومؤازرا
وإذا صلاح الدين دام لأهله ... لم يحذروا للدهر صَرفاً ضائرا

وجرت بين العماد وبين الإمام شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون مكاتبات. كتب إليه العماد:

أيا شرف الدين إن الشتا ... بكافاته كفّ آفاته
وكفك من كرم كافها ... لقد كفلت لي بكافاته
وإنك مَن عرفه شكرنا ... غدا عاجزا عن مكافاته

قال: فكتب إليَّ شرف الدين في جوابها:

إذا ما الشتاءُ وأمطاره ... عن الخبر حابسة رادعه
فكافاته الست أُعطيتها ... وحوشيتَ من كافه السابعه
وكف المهابة والإحتشام ... لكفِّيَ عن بره مانعه
وهمة كل كريم النِّجار ... بميسور أحبابه قانعة
ونفسي في بسط عذري إليه، ... جعلت الفداء له، طامعه
وشوقي إلى قربه زائد ... ومعذرتي إن جفا واسعه

قال: فكتبت إليه جوابها:

أيا من له همة في العلا ... لذروتها أبدا فارعه

ومن كفه ديمة ماتزا ... ل بالعرف هامية هامعه

وللفضل في سوق أفضاله ... بضائع نافقة نافعه

وهل كابن عَصْرون في عصرنا ... إمام أدلته قاطعه

فحبر فوائده جمة ... وبحر موارده واسعه

أيا شرف أوامرك الساميات ... وما برحتْ همتي طائعه

أرى كل جارحة لي تودّ ... لو أنها أذن سامعه

وأما الشتاء وكافاته ... وكفُّك عن كافه الرابعه

فنفسي منزهة بالعفا ... ف عنها، وفي غيرها طامعه

وماذا تُطيق إذا لم تكن ... بميسور سيدنا قانعه

وهي أكثر من هذا.

قال: وكان ابن حسان صاحب منبج قد ساءت أفعاله، فبعث إليه نور الدين من حاصره وانتزعها منه؛ ثم توجّه نور الدين إليها لتهذيب أحوالها، ومدحه العماد بقصيدة منها:

بشرَى الممالك فتح قلعة منبج ... فلْيَهْنِ هذا النصر كل متوج

أُعطيت هذا الفتح مفتاحاً، به ... في الملك يفتح كل باب مرتج

وافي يبشر بالفتوح وراءه ... فانهض إليها بالجيوش وعرِّج

أبشِر، فبيت القدس يتلو منبجاً ... ولَمَنبج لسواه كالأنموذج

ما أعجزتك الشهب في أبراجها ... طلباً، فكيف خوارج في أبرُج

ولقدرُ من يعصيك أحقر أن يرى ... أثر العبوس بوجهك المتبلج

لكن تهذب من عصاك سياسة ... في ضمنها تقويم كل معوَّج

فانهد'لى البيت المقدس غازياً ... وعلى طرابلسٍ ونابلسٍ عج

قد سرت في الإسلام أحسن سيرة ... مأثورة، وسلكت أوضح منهج

وجميع ما استقريت من سنن الهدى ... جددت منه كل رسم مبهج

قال العماد: وسار نور الدين من منبج إلى قلعة نجم، وعبر الفرات إلى الرُّها، وكان ينال صاحب مَنْبِج، وهو سديد الرأي رشيد المنهج، فنقله إليها مُقْطَعاً وواليا. وأقام نور الدين بقلعة الرهامدة، فمدحه العماد بقصيدة، وتحجَّب له صلاح الدين في عرضها، وهي:

أدركت من أمر الزمان المشتهى وبلغت من نيل الأماني المنتهى
وبقيت في كنف السلامة آمناً متكرماً بالطبع لا متكرهّا
لازلت نور الدين في فلك الهُدى ذا غرة للعالمين بها الْبها
يا محييَ العدل الذي في ظله مِن عَدْله رَعَت الأسودُ مع المها
محمودٌ المحودُ من أيامه لبهائها ضحك الزمان وقهقها
مولى الورى، مُولى الندى، معلى الهدى مُرْدى العدا، مسدى الجدا، معطى اللها
ارؤه بصوابها مقرونة وبمقتضاها دائرُ فلك النهى
متلِّبس بحصافة وحصانة متقِّدس عن شَوْب مكر أودها
يامن أطاع الله في خلواته متأوباً من خوفه متأوها
أبداً تقدم في المعاش لوجهه عملاً يبيض في المعاد الأوجها
كل الأمور وهي، وأمرك مبرم مستحكم لا نقض فيه ولاوها
ما صين عنك الصيّن لَوْ حاولتها والمشرقان، فكيف منبجُ والرُّها
ما للملوك لدى ظهورك رونق وإذا بَدْت شمس الضحى خَفَى السُّها
إن الملوك لَهوْا وإنك من غدا وبماله والملك منه مَالَها
شرهت نفوسهُم إلى دنياهم وأبى لِنَفسِك زهدها أن تشرها
ما نمت عن خير ولم يك نائماً من لايزال على الجميل منبّها
أخملت ذكر الجاهلين، ولم تزل ملكا بذكر العالمين منوها
ورأيت إرعاء الرعايا واجباً تغنى فقيراً أو تجير مدلها
لرضاهمُ متحفظا، ولحالهم متفقداً، ولدينهم متفقها
وبما به أمرَ الإله أمرتهم من طاعة ونهيتهم عما نهى
عن رحمة لصغيرهم لم تشتغل عن رأفة لكبيرهم لن تُشدها

باليأس عندك آمل لم يُمتحن بالرد دونك سائل لن يُجْبها

أتعبت نفسك كي تنال رفاهة من ليس يتعب لايعيش مرفهّا

فقت الملوك سماحة وحماسة حتى عدمنا فيهُم لك مشبها

ولك الفخار على الجميع، فدونهم أصبحت عن كل العيوب منزها

وأراك تحلمُ حين تصبح ساخطا ويكاد غيرك ساخطاً أن يسفها

قلت: رحم الله العماد، فقد نظم أوصاف نور الدين الجليلة بأحسن لفظ وأرقه؛ وهذا البيت الأخير مؤكد لما نقلناه في أول الكتاب من قول الحافظ أبي القاسم رحمه الله تعالى في وصف نور الدين رحمه الله تعالى، إنه لم يستمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره، وقلَّ من الملوك من له حظ من هذه الأوصاف الفاضلة والنعوت الكاملة.

قال العماد: ثم عاد نور الدين إلى حلب في شهر رجب، وضربت خيمته في رأس الميدان الأخضر.

قال: وكان مولعاً بضرب الكرة وربما دخل الظلام فلعب بها بالشموع في الليلة المُسْفرة، ويركب صلاح الدين مبكراً كل بكرة، وهو عارف بآدابها في الخدمة، وشروطها المعتبرة.

قال: وأقطعه في تلك السنة ضيعتين إحداهما من ضياع حلب والأخرى من ضياع كفرطاب. قال: وكتبت إليه في طلب كنبوش:

أصبحت بغلتي تشكيَّ من العُرْ ى، وأسراجها بلا كنبوش

قلت :كُفى. فخير يومك عندي أن تفوزي بالتبن أو بالحشيش

وافرجي ليلة الشعير كما يف رح قوم بليلة الماشوش

لو تبصرت حالتي لتصبر ت، فإياك عندها أن تطيشي

أوَما مات في الشتاء من البر د، ومن فرط جوعه، إكديشي

فثقي واسكني بجود الد ين غرس الملوك مَلْك الجيوش

فهو يجلوك للعيون بكنبو ش جديد مستحسن منقوش

كم عدو من بأسه في عثار وولى بجوده منعوش

والموالي على الأسرة، والأع داء تحت الهوان فوق النعوش

قال: وأقطع أسد الدين حمص وأعمالها، فسار إليها؛ فسد ثغورها، وضبط أمورها، وحمى جمهورها.
وكان نور الدين قد جدد سورها وحصن دورها، وبلى الفرنج منه بالمغاور والمراوغ، ذي البأس الدامغ.
وسأله نور الدين في السُّلُوِّ عن حب مصر، وقال: قد عتبت مرتين واجتهدت، ولم يحصل لك ما طلبت؛ وقد أذعنوا بالطاعة، وشفعوا السؤال بالشفاعة، وسمحوا بكل ما يدخل تحت الاستطاعة.
قلت: وأنشد العماد أسد الدين في رجب من هذه السنة:

دمت في الملك آمراً ذا نفاذ — أسد الدين شيركوه بن شاذي
يا كريماً عن كل شر بطيئاً — وإلى الخير دائم الإغذاذ
وملاذ الإسلام أنت، فلا زل — ت لأهل الإسلام خير ملاذ
في نفوس الكفار رعبك قد حلَّ — بصدَع الأكباد والأفلاذ
لم تدعْ بالظبُّا، رؤساً وأصنا — ماً من المشركين غير جذاذ
أنت من نازل الدعيين في مص — ر لنصر الإمام في بغداذ
وبلاد الإسلام أنقذتها أن — ت من الشرك أيما إنقاذ

فصل في وفاة زين الدين

قال ابن الأثير، وغيره: في سنة ثلاث وستين سار زين الدين علي بن بكتكين، نائب أتابك قطب الدين، عن الموصل إلى إرْبِل، وسلم جميع ماكان من البلاد والقلاع إلى قطب الدين ماعدا إربل، فإنها كانت له من أتابك زنكي رحمه الله تعالى. فمن ذلك سنجار وحرَّان وقلعة عَقْر الحُمَيدية، وقلاع الهكارية جميعها.
وكان نائبه بتكريت الأمير تبر، فأرسل إليه ليسلمها، فقال: إن المولى أتابك لايقيم بتكريت ولابد له من نائب فيها، وأنا أكون ذلك النائب، فليس له مثلي؛ فما أمكن محاققته لأجل مجاورة بغداد. وأما شَهْرَزَوْر فكان بها الأمير بوزان، فقال مثله أيضاً، فأُقرَّت بيده؛ فكان في طاعة قطب الدين.
وسبب فراق زين الدين أنه أصابه عمى وصمم، وأقام بإربل إلى أن توفي بها، في ذي الحجة من هذه السنة، وكان قد استولى عليه الهرم وضعفت قوته.
وكان خيِّراً عادلا حسن السيرة، جواداً، محافظاً على حسن العهد وأداء الأمانة، قليل الغدر بل عديمه.
وكان إذا وعد بشئ لابد له من أن يفعله وإن كان فعله خطيراً. وكان حاله من أعجب الأحوال، بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته حتى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغلبة الدهاء. بلغني أنه أتاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر أنه نفق له، فأمر له بفرس؛ فأخذ ذلك الذنب أيضاً غيره من

الأجناد فأحضره وذكر أنه نفق له دابة، فأمر له بفرس وتدوال ذلك الذنب اثنا عشر رجلا كلهم يأخذ فرساً. فلما أحضره آخرهم قال لهم: أما تستحيون مني كما أستحيي أنا منكم؟ قد أحضر هذا عندي اثنا عشر رجلا وأنا أتغافل لئلا يخجل أحدكم. أتظنون أنني لاأعرفه؟ بلى والله، وإنما أردت أن يصلكم عطائي بغير مَنٍ ولاتكدير، فلم تتركوني!

ليس الغبيّ بسيِّدٍ في قومه لكنّ سيد قومه المتغابي

قال: وكان يعطي كثيراً ويخلع عظيماً؛ وكان له البلاد الكثيرة، فلم يخلف شيئاً بل أنفذه جميعاً في العطايا والإنعام على الناس. وكان يلبس الغليظ ويشدّ على وسطه كلّ ما يحتاج إليه من سكين ودرفش ومطرقة ومسلة وخيوط ودسترك وغير ذلك. وكان أشجع الناس، ميمون النقيبة، لم تنهزم له راية. وكان يقوم المقام الخطير فيسلم منه بحسن نيته وكان تركياً أسمر اللون خفيف العارضين قصيرا جدا؛ وبنى مدارس ورُبطاً بالموصل وغيرها. وبلغني أنه مدحه الحيص بيص، فلما أراد الإنشاد قال له: أنا لاأدري ما تقول لكن أعلم أنك تريد شيئاً؛ وأمر له بخمسمائة دينار وأعطاه فرساً وخلعة وثياباً، يكون مجموع ذلك ألف دينار. قال ومكارمه كثيرة.

ولما توفي بإربل كان الحاكم بها خادمه مجاهد الدّين قايماز، وهو المتولي لأمورها. وولى بعد زين الدين ولده مظفر الدين كوكبري مدة ثم فارقها لُخلِفٍ كان بينه وبين مجاهد الدّين قايماز؛ وجرت أمورٌ يطول ذكرها.

ولما فارق زين الدين الموصل استناب أتابك قطب الدين بقلعة الموصل بعده مملوكه فخر الدين عبد المسيح، فسلك غير طريق زين الدين، فكرهه الناس وذّموه فلم تَطُلْ أيامه: وسيجئ ذكر عزله في أخبار سنة ست وستين إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

ففي أولها ملك نور الدين رحمه الله تعالى قلعة جعبر، وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن عليّ بن مالك العقبلي من آل عقيل من بني المسيّب؛ وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه، وقد تقدم ذكر ذلك. وهي من أمنع الحصون وأحسنها، مطلّة على الفرات لايطمع فيها بحصار؛ وقد أعجز جماعة من الملوك أخذها منه، وقُتِلَ عليها عماد الدين زنكي والد نور الدين.

ثمّ اتفقّ أنه خرج صاحبها منها يوماً يتصيد، فصاده بنو كلب، فأخذوه أسيراً وأوثقوه، وحملوه إلى

نورالدين، فتقربوا به إليه، وذلك في رجب من سنة ثلاث وستين؛ فحبسه بحلب وأحسن إليه، ورغبه في الإقطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل؛ فعدل به نور الدين إلى الشدة والعنف وتهدده فلم يفعل أيضاً؛ فسير إليها عسكرا مقدمه الأمير فخر الدين مسعُود بن أبي علي الزعفراني، فحصرها مدة فلم يظفر منها بشئ؛ فأمدهم بعسكر آخر وجعل على الجميع مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية، وهو أكبر أمراء نور الدين ورضيعه ووالى معاقله، فأقام عليها وطاف حواليها فلم ير له في فتحها مجالا، ورأى أخذها بالحصر متعذرا محالا. فسلك مع صاحبها طريق اللين، وأشار عليه بأخذ العوض من نور الدين؛ و لم يزل يتوسط معه حتى أذعن على أن يعطي سروج وأعمالها والملاّحة التي في عمل حلب والباب وبزاعة وعشرين ألف دينار معجلة؛ فأخذ جميع ما شرطه مكرها في صورة مختار. قال ابن الأثير: وهذا إقطاع عظيم جدا لكنه لاحصن فيه.

وتسلم مجد الدين قلعة جعبر وصعد إليها منتصف المحرم. ووصل كتابه إلى نور الدين بحلب، فسار إليها وصعد القلعة في العشرين من المحرم؛ ثم سلمها نور الدين إلى مجد الدين ابن الداية، فولاها أخاه شمس الدين علياً. وكان هذا آخر أمر بني مالك، ولكل أمر آخر ولكل ولاية نهاية؛ يؤتي الله الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء.

قال ابن الأثير: بلغني أنه قيل لشهاب الدين أيُّما أحب إليك وأحسن مقاماً، أسَرُوج والشام أم القلعة؟ فقال: هذا أكثر مالا، والعز بالقلعة فارقناه.

قال العماد: وأنشدت نور الدين بقلعة جعبر قصيدة أولها:

اسلم لبكر الفتوح مفترعاً ... ودُمْ لَملك البلاد منتزعا

فإن أولى الورى بها ملك ... غدا بعبء الخطوب مضطلعاً

إن ضاق أمر فغير همته ... لكشف ضيق الأمور لن يسعا

يا محيي العدل بعد ميتته ... ورافع الحق بعدما اتضعا

ونور دين الهدى الذي قمع الش ... رك، وعفَّى الضلال والبدعا

أنت سليمان في العفاف وفي ال ... مُلك، وتحكى بزُهدك اليَسَعَا

حُزت البقا، والحياءَ، والكرم المح ... ضَ، وحُسن اليقين، والورعا

أسقطت أقساط ما وجدت من المك ... س بعدلٍ، والقاسط ارتدعا

ولم تدع في ابتغاء مصلحة الدّ ... ين لنا باقياً، ولنْ تدعا

وكل ما في الملوك مُفترق ... من المعالي لملكك اجتمعا

همتك الرُّبط والمدارس تب — نيها ثواباً وتهدم البيعا

ما زلت ذا فطنة مؤيدة — على غيوب الأسرار مطلعاً

ببأسك البيض والطُّلي اصطحبت — بعدلك الذئب والطَّلا رتعا

كم صائدٍ لم يقع له قنص — في شرك وهو فيه قد وقعا

ومالكٍ حين رُمت قلعته — غدا مطيعاً للأمر متبَّعا

عنا خُشُوعاً لرب مملكة — لغير ربّ السماء ما خشعا

كان مقيما منها على الفلك ال — أعلى شهاباً بنوره سطعا

لكنما الشهب ما تنير إذا — لاح عمودُ الصباح فانصدعا

يدفعها طائعاً إليك، وكم — عنها إباءً بجهده دفعا

هي التي في علوها زحل — كرَّ على وردها وما كرعا

وهي التي قاربت عطارد في ال — أفق فلاحاً والفرقدين معا

كأن منها السُّها إذا استرق السَّ — معَ أتاها في خيفة ودعا

هضبة عزّ لولاك ما أرتقيت — وطود ملك لولاك ما فرعا

ما قبلت في ارتقاء ذروتها — من ملكٍ لارُقي ولا خدعا

عزت على المالك الشهيد وأع — طتك قيادا ما زال ممتنعاً

للأب لو جلَّ خطبها لغدا — محرِّماً لابنه وما شرعا

لازلت محمودُ في أمورك محمو — داً بثوب الإقبال مدَّرعا

وفيها وفي سابع عشر صفر من هذه السنة توفي بهاء الدين عمر أخو مجد الدين بن الداية. وفيه وفي أخويه يقول العماد الكاتب من قصيدة:

أنتم لمحودٍ كآل محمد — متصادفي الأفعال والأسماء

يتلو أبا بكر علَى حسناته — عمرُ الممدَّح في سنا وسناء

ويليه عثمان المرجّي للعُلا — وعليُّ المأمول في اللأواء

وتقبل الحسن الممجَّد مجدهم — فهمُ ذُوو الإحسان والنعماء

فرعت لمجد الدين إخوته الذّرا		دون الزرى في المجد والعلياء
من سابق كرماً وشمس ساده		شرفاً وبدر دُجنة وبهاء
سُرُج الهدى، سُحُب النَّدى، شُهُب النُّهى		أسدُ الحروب، ضراغم الهيجاء

يريد سابق الدين عثمان، وشمس الدين علياً وبدر الدين حسنا، وبهاء الدين عمر؛ ومجد الدين الأكبر، فهم خمسة، رحمهم الله.

فصل

وفي هذه السنة فتحت الديار المصرية، سار إليها أسد الدين مرة ثالثة، فهزم العدو وقتل شاوراً وولى الوزارة مكانه، ثم مات، فوليها صلاح الدين.

وسبب ذلك ان الفرنج كانوا في النوبتين الأولبين اللتين استعان بهم شاور فيهما على أسد الدين شيركوه قد خبروا الديار المصرية واطلعوا على عوراتها، فطمعوا فيها ونقضوا ما كان استقر بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد. فجمعوا وحشدوا، وقالوا: ما بمصر من يصدنا، وإذا أردناها فمن يردنا؟ ثم قالوا: نور الدين في البلاد الشمالية والجهة الفُراتية، وعكسر الشام متفرق كل في بلده، حافظ لما في يده؛ ونحن ننهض إلى مصر، ولانطيل بها الحصر، فإنه ليس لها معقل، ولالأهلها منّا موئل؛ وإلى أن تجمع عساكر الشام، نكون قد حصلنا على المرام، وقوينا بتملك الديار المصرية على سائر بلاد الإسلام.

فتوجهوا إليها سائرين، ونحوها ثائرين، وأظهروا أنهم على قصد حمص وشايعهم على قصد مصر جماعة من أهلها كابن الخياط وابن قرجلة، وغيرهما من أعداء شاور.

وكان الفرنج قد جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة، وسكر فرسانهم أبواب البلدين، والمفاتيح معهم، على ماسبق ذكره، وتحكموا تحكماً كبيراً، فطمعوا في البلاد، وأرسلوا إلى ملكهم مُرَّى_و لم يكن ملك الفرنج منذ خرجوا إلى الشام مثله شجاعة ومكراً ودهاءً_ يستدعونه لتملك البلاد. وأعلموه خلوها من ممانع عنها، وسهلوا أمرها عليه؛ فلم يجبهم إلى المسير. واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدم وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها، فقال لهم: الرأي عندي ألا نقصدها فإنها طعمة لنا، وأموالها تساق إلينا، نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لتملكها فإن صاحبها وعساكره، وعامة أهل بلاده وفلاحيه، لايسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين. وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام. فلم يصغوا إلىقوله وقالوا: إن مصر لامانع لها ولاحافظ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم إلينا نكون نحن

قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها.

وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم أمرها؛ فأجابهم إلى ذلك على كره شديد، وتجهزوا، وأظهروا أنهم على قصد الشام، وخاصة مدينة حمص، وتوجهوا من عسقلان في النصف من المحرم، ووصلوا أول يوم من صفر إلى بلبيس ونازلوها، وحصروها، فملكوها قهراً ونهبوها، وسبوا أهلها، وأقاموا بها خمسة أيام ثم أناخوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبيس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه، وبذلوا جهدهم في حفظه. ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس لملكوا مصر والقاهرة سرعةً، ولكن الله تعالى حسَّن لهم ذلك ليقضي الله أمراً كان مفعولا.

وكان شاور أمر بإحراق مدينة مصر، تاسع صفر، قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد، خوفاً عليها من الفرنج؛ فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر.

ثم ضاق الحصار وخيف البوار، وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية، فشرع في تمحُّل الحيل، وأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة، وأن هواه معه، وتخوفه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لايوافقونه على التسليم إليه؛ ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم إلى نور الدين. فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض ويؤخر البعض؛ واستقرت القاعدة على ذلك. ورأى الفرنج أن البلاد امتنعت عليهم وربما سلمت إلى نور الدين، فأجابوه كارهين، وقالوا: نأخذ المال نتقوى به، ونكثر من الرجال ثم نعود إلى البلاد بقوة لانبالي معها بنور الدين ولاغيره. "وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِين". فعجل لهم شاور مائة ألف دينار وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً.

وكان خليفة مصر العاضد عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتُنقذهن من الفرنج. فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر. ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال عاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيماً عنده في عسكر وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين. هذا قول ابن الأثير.

وقال العماد: عجل شاور لملك الفرنج بمائة ألف دينار حيلة وخداعاً، وإرغاماً له وإطماعاً، وواصل بكتبه إلى نور الدين مستصرخاً مستنفراً، وبما ناب الإسلام من الكفر مخبراً؛ ويقول: إن لم تبادر ذهبت البلاد. وسيَّر الكتب مسودة بمدادها، كاسية لباس حدادها، في طيها ذوائب مجزوزة، وعصائب محزوزة،

أظن أنها شعور أهل القصر، للأشعار بما عراهم من بليَّة الحصر. وأرسلها تباعاً، وأردف بها نجَّابين سراعاً؛ وأقام منتظراً، ودام متحيراً، وعامل الفرنج بالمطال، ينقدهم في كل حين مالا، ويطلب منهم إمهالا. وما زال يعطيهم ويستمهلهم، حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله تعالى.

فصل فيما فعله نور الدين

كان نور الدين لما أتاه الرسل أولاً من العاضد قد أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص، وهي إقطاعه، فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها. وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضاً وصلته في هذا الأمر فبقي مسلوب القرار، مغلوب الاصطبار، لأنه كان قد طمع في بلاد مصر فخاف خروجها من يده، وأن يستولي عليها الكفر. فساق في ليلة واحدة من حمص إلى حلب، واجتمع بنور الدين ساعة وصوله. فتعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسرَّه، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في العساكر والخزائن، فاختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع من التركمان ستة الآف فارس. وكان في مدة حشد التركمان سار نور الدين لتسلم قلعة جعبر؛ ثم سار هو ونر الدين إلى دمشق، ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له. وأضاف إلى أسد الدين جماعة من الأمراء منهم مملوكه عز الدين جرديك، وغرس الدين قليج، وشرف الدين بزغش، وناصح الدين خمارتكين، وعين الدولة ابن الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وغيرهم. ورحلوا على قصد مصر، مستنزلين من الله تعالى النصر، وذلك منتصف ربيع الأول.

وخيَّم نور الدين فيمن أفام برأس الماء، وأقام ينتظر ورود المبشرات؛ فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين، وسبَّ الملك كل من أشار عليه بقصد مصر؛ وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبث رسله إلى الآفاق بذلك.

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان، يعني صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجت مع عمي باختياري. قال: وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: "وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُو خَيْرٌ لَكُمْ". وقال ابن الأثير: أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه.

حُكى لي عنه أنه قال: لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه، مستصرخين

ومستنجدين، أحضرني وأعلمني الحال، وقال تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه يأمره بالحضور، وتحثه أنت على الإسراع فما يحتمل الأمر التأخير. قال ففعلت. فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادماً في هذا المعنى؛ فقال له نور الدين: تجهز للمسير، فامتنع خوفاً من غدرهم أولا، وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج، ولايبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره. قال فالتفت إليَّ عمي أسد الدين وقال: تجهز يا يوسف. قال: فكأنما ضرب قلبي بسكين! فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق ما لاأنساه أبداً. فقال عمي لنور الدين: لابد من سيره معي، فترسم له. فأمرني نور الدين وأنا استقيله. فانقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم و لم يبق غير المسير، فقال لي نور الدين: لابد من مسيرك مع عمك. فشكوت إليه الضائقة وقلة الدواب وما أحتاج إليه؛ فأعطاني ما تجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت. وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، فسرت معه. فلما أستقر أمره وتوفي، أعطاني الله من ملكها مالا كنت أتوقعه.

قلت: وحرضه أيضاً حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة مدحه بها. قال:

وهل أخشى من الأنواء بخلا ... إذا ما يوسفٌ بالمال جادا
فتى للدين لم يبرح صلاحا ... وللأعداء لم يبرح فسادا
لئن أعطاه نور الدين حصناً ... فإن الله يعطيه البلادا
إلى كم ذا التواني في دمشق ... وقد جاءتكم مصرٌ تهادى
عروس بعلها أسد هزبر ... يصيد المعتدين ولن يصادا
ألا يا معشر الأجناد سيروا ... وراء لوائه تلقوا رشادا
فما كل امرئ صلى مع النا ... س مأموماً كمن صلى فرادا

فلما سار صلاح الدين إلى مصر عبر العرقلة على داره، فوجدها مغلقة، فقال:

عبرت على دار الصلاح وقد خلت ... من القمر الوضاح والمنهل العذب
فو الله لولا سرعةٌ مثل عزمه ... لغرَّقها طرفي وأحرقها قلبي

يقول فيها:

الناصر الملك الموفى بذمته ... ومن ندى كفه يغني عن الديم
ومن إذا جرد البيض الصوارم في ال ... هيجاء أغمدها في البيض والقمم
ومن حوى الملك من بعد الطماعة في ان ... زاعه بشبا الهندية الحذم
ورد طاغية الإفرنج يحسب ما ... رجاه من مُلك مصرٍ كان في الحلم
وليَّ وراحته صفر وقد ملئت ... بعد الطماعة من يأس ومن ندم
يصعدون على ما فاتهم نفسا ... لو لافح البحر أضحى الموج كالحمم
وفي السلامة، لولا جهلهم، ظفر ... لمن أراد نزال الأسد في الأجم
وهو أسود الشرى، لكن أذلهم ... ملك لديه الأسود الغُلب كالغنم

وله من قصيدة أخرى:

أقمت عمود الدين حين أماله ... لطاغي الفرنج الغُتم طاغي بني سعد
وجاهدت حزب الكفر، حتى رددتهم ... خزايا، عليهم خيبة الذل والرد
أفدت بما قدمت ملكاً مخلداً ... وذكراً مدى الأيام يقرن بالحمد
وذكرك في الآفاق يسري، كأنه الص ... باح له نشر الأوَّة والنَّد

ولأبي الحسن بن الذروي فيه من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مُرِّي:

ولكم أشمت الروم أشأم بارق ... أضحت مياه نفوسها من قطره
وافاك بحر دروعها عن مده ... ومضى وقد حكمت ظُباك بجزره
ولقيت مُرِّياً وطعم حياته ... حلو، فبدله القتال بمره
فاعقد إليه الرأي في عذب القنا ... واحلل بها عِجلاً معاقد مكره
واطرده من وكر الشآم، فإنه ... قد طار منك بخافق من ذعره

فصل في القبض على شاور وقتله

وصل أسد الدين القاهرة رابع ربيع الآخر واجتمع بالعاضد خليفة مصر، فخلع عليه وأكرمه، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة؛ و لم يمكن شاور المُنع من ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد، ورأى هوى العاضد معهم من داخله، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، فكتمه، وهو يماطل أسد الدين في تقرير ماكان له من المال والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين.

وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه، ويعده ويمنيه "وَمَا يَعِدُهُم الشَّيْطَان إلاَّ غُرُوراً".

ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء، ويقبض عليهم؛ فنهاه ابنه الكامل وقال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين. فقال له أبوه والله لئن لم أفعل هذا لنقتلن جميعاً. فقال: صدقت، ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملكون البلاد؛ فترك ماكان عزم عليه فلما رأى العسكر النُّوري المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف، وعز الدين جرديك، وغيرهما، على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم؛ فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شئ مهما هذا على حاله؛ فأنكر ذلك. واتفق أن أسد الدين سار بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعي، رضي الله عنه، وقصد شاور عسكره على عادته للاجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين جرديك، ومعهما جمع من العسكر، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة؛ فقال: نمضي إليه. فسار، وهما معه قليلاً، ثم ساوروه وألقوه عن فرسه؛ فهرب أصحابه وأخذ أسيراً، و لم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فسجنوه في خيمته وتوكلوا بحفظه. فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعاً، و لم يمكنه إلا إتمام ما عملوه. وأرسل العاضد لدين الله، صاحب مصر، في الوقت، إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله؛ وتابع الرسل بذلك. فقتل شاور في يومه، وهو سابع عشر ربيع الآخر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين إلى القاهرة، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ماخاف منه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور؛ فقصدها الناس ينهبونها، فتفرقوا عنه. هذا قول ابن الأثير.

وقال ابن شداد: أقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور في الأحيان، وكان وعدهم بمال في مقابلة ما خسروه من النفقة، فلم يوصل إليهم شيئاً. وعلقت مخاليب الأسد في البلاد، وعلم الفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد، وأن ترددهم إليها في كل وقت لايفيد، وأن شاوراً يلعب بهم تارة وبالإفرنج أخرى، وملاكها قد كانوا على البدعة المشهورة عنهم، وعلموا أنه لاسبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور. فأجمعوا أمرهم على قبضه إذا خرج إليهم، وكانوا هم يترددون إلى خدمته دون أسد الدين، وهو يخرج في الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به. وكان يركب على قاعدة وزارتهم بالطبل والبوق والعلم، فلم يتجاسر على قبضه منهم إلا السلطان نفسه، يعني صلاح الدين، وذلك أنه لما سار إليهم تلقاه راكباً وسار إلى جانبه ثم أخذ بتلابيبه، وأمر العسكر أخ خذوا على أصحابه، ففروا ونهبهم العسكر، وقُبض شاور وأنزل إلى خيمة مفردة. وفي الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول لابد من رأسه، جرياً على عادتهم

في وزارتهم في تقرير قاعدة من قوى منهم على صاحبه، فحزت رقبته وأنفذوا رأسه إليهم.

قال العماد: ودخل أسد الدين في الرابع من شهر ربيع الآخر الإيوان، وخُلع عليه ولقي الإحسان. وتردد شاور إلى أسد الدين وتودد، وتجدد بينهما من الوداد ما تأكد. وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة، والأطعمة الواسعة، والحلاوات والميرة. فقال صلاح الدين: هذا أمر يطول، ومسألة فرضها يُعول، ومعنا هذا العسكر الثقيل، وإقامته بالإقامة يقصر عنها الأمد الطويل، ولاأمر لنا مع استلاء شاور، ولاسيما إذا راوغ وغادر. فأنفذ أسد الدين الفقيه عيسى إلى شاور يشير عليه بالاحتراز، وقال له: أخشى عليك من عندي من الناس. فلم يكترث بمقاله، وركب على سبيل انبساطه واسترساله، فاعترضه صلاح الدين في الأمراء النورية وهو راكب على عادته في هيبته الوزيرية، فبغته وشحته، وقبضه وأثبته، ووكل به في خيمة ضربها له، وحاول إمهاله. فجاء من القصر من يطلب رأسه، ويعجل من العمر يأسه. وجاء الرسول بعد الرسول، وأبوا أن يرجعوا إلا بنجح السُّول. فحم حمامه، وحمل إلى القصر هامه.

قلت: وبلغني أن الذي حز رقبة شاور هو عز الدين جرديك، وكان صلاح الدين لما لقيه في اصحابه سار بجنبه وأراد إفراده عن العسكر، فالتمس منه المسابقة بفرسيهما، فأجابه، ووافقهما في ذلك جُرديك. وكان ذلك عن أمر قد تقرر، فحركوا خيلهم، فلما بعدوا عن العسكر ووقفوا قبض صلاح الدين وجرديك على شاورداخل الخيمة.

وقد كثر هجاء شاور بغدره ومكره حتى قال عرقلة:

لقد فاز بالملك العقيم خليفة | له شيركوه العاضديُّ وزير
كأن ابن شاذي والصلاح وسيفه | عليٌّ لديه شيَّرُ وشّبير
هو الأسد الضاري الذي جل خطبه | وشاور كلب للرجال عقور
بغي وطغى، حتى لقد قال قائل | على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره | ولا زال فيها منكر ونكير

وقال أيضاً:

إن أمير المؤمنين الذي | مصر حِماه وعليٌّ أبوه
نص على شاور فرعونها | ونص موساها على شيركوه

وقد وصف الفقيه الشاعر أبو حمزة عمارة اليمني في كتاب الوزراء المصرية الذي صنفه حال شاور في وزارته الأولى، ثم قال: وزارة شاور الثانية: فيها تكشفت صفحاته، وأحرقت لفحاته، وأغرقت نفحاته،

وغّضَّه الدهر وعضه، وأوجعه الثُّكل وأمضه، وبان غمره وثماده، وجمره ورماده، و لم يجف من الأنكاد لبده، ولاصفا من الأقذاءِ وِرْده. وما هو إلا أن تسلمها بالراحة، وسُلمت له الهموم عوضاً عن الراحة.

وفي أول ليلة دخل القاهرة ارتحل أسد الدين طالباً بلبيس، فأقام بها، ثم عاد إلى القاهرة، فكسر الناس يوم التاج وأسر أخوه صبح، وأصيب على باب القنطرة بحجر كاد يموت منه، وتعقب ذلك تنقل القتال على القاهرة حتى دخلت من الثغرة. ثم تبع هذا مجئ الفرنج، وعمل البرج، وحصار بلبيس؛ ثم تلا ذلك قيام يحيى بن الخياط طالباً للوزارة؛ ثم تلا ذلك نفاق لواته ومن ضامَّها من قيس، وخروج أخيه نجم الدين وابنه سليمان وجماعة من غلمانهم لحربهم ثم خروج ابنه الكامل في بقية العسكر. وفي أثناء هذه المدة قبضُه على الأثير بن جلب راغب وقتله، وأسر معالي بن فُريج ثم قتله.

واتصل إليه الخبر من قدوم أسد الدين إلى أطفيح بأم النوائب الكُبَر؛ ووافق مجئ الغز قدوم الفرنج ناصرين للدولة، وتوجهوا من مصر في البر الشرقي تابعين للغزِّ. ثم لاحت الفرصة للفرنج فعادوا إلى مصر واقترحوا من المال، ماتنقطع دونه الآمال، وخيموا على ساحل المقسم، وأظهروا رجوعهم إلى الشام؛ فتجهز الكامل للمسير صحبة الإفرنج. حدثني القاضي الأجل الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني، قال: أنا أذكر وقد خلونا في خيمة وليس معنا أحد، إنما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم، فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج، وعزم نجم الدين على التغريب إلى سليم وماوراءها، وقال شاور: لكن لاأبرح أقاتل بمن صفا معي حتى أموت. فنحن في ذلك حتى وصل إلينا الداعي ابن عبد القويّ وصنيعة المُلك جوهر وعزُّ الأستاذ وقد التزموا المال. وتفرع على هذا الأصل مقام الغز بالجيزة، ونوبة البابين، وحصار الإسكندرية، وانصراف الغز راجعين، والفرنج بعدهم.

فما هو إلا أن توهم شاور أن الدهر قد نام وغفا، وصفح عن عادته وعفا؛ وإذا الأيام لاتخطب إلا زواله وفوته، ولاتريد إلا انتقاله وموته. فكان من قدوم الفرنج إلى بلبيس وقتل من فيها وأسرهم بأسرهم ما أوجب حريق مصر، ومكاتبة الأجل نور الدين بن القسيم، وإنجاده كلمة الإسلام بأسد الدين ومن معه من المسلمين الذين قلت فيهم وقد ربط الإفرنج الطريق عليهم:

أخذتم على الإفرنج كل ثنَّية وقلتم لأيدي الخيل مرّي على مرِّي
لئن نصبوا في البر جسراً، فإنكم عبرتم ببحر من حديد على الجسر

قلت: وهذان البيتان من قصيدة ستأتي. ومُرِّي هو أسم ملك الإفرنج.

قال عمارة: فقضى قدوم الغز برحيل الفرنج عن الديار المصرية، و لم يلبث شاور ان مات قتيلا بعد قدوم الغز بثمانية عشر يوماً. وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها

ماهو عليه أكثر مما هوله.

قال: و لم يربِّ أحد رجال الدولة مثل مارباهم الصالح بن رُزّضيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، وكانت وزارته تسعة أشهر مدة حمل الجنين، ولا أتلف أموالهم مثل شاور؛ وشاور هو الذي أطمع الغز والإفرنج في الدولة حتى انتقلت عن أهلها.

ولما عاد من حصار الإسكندرية أكثر من سفك الدماء بغير حق: كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة، ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار.

وقال الحافظ أبو القاسم: لما خيف من شر شاور ومكره، لما عرف من غدره وضرّه، واتضح الأمر في ذلك واستبان، تمارض الأسد ليقتنص الثعلبان. فجاءه قاصداً لعيادته، وأراحا العباد والبلاد من شره وما شاورا. وكان ذلك برأي صلاح الدين، فإنه أول من تولى القبض عليه، ومد يده الكريمة بالمكروه إليه. وصفا الأمر لأسد الدين وملك، وخلع عليه الخلع وحنك؛ واستولى أصحابه على البلاد، وجرت أموره على السداد، وظهر منه جميل السيرة، وظهرت كلمة السنة.

فصل في وزارة أسد الدين

وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر. أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر، وترتب وزيرا، ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة فنزلها، وهي التي كان بها شاور فمن قبله من الوزراء، فلم ير فيها ما يقعد عليه. واستقر في الأمر و لم يبق له فيه منازع ولامناوئ. وولى الأعمال من يثق إليه، واستبد بالولاية، فأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه؛ وصلاح الدين مباشر للأمور مقرر لها، وزمام الأمر والنهي مفوض إليه لمكان كفايته ودرايته، وحسن تأتيه وسياسته.

قال العماد: وكُتب لأسد الدين منشور من القصر، بسيط الشرح طويل الطي والنشر، كتب العاضد في طُرَّته بخطه، ولاشك أنه بإملاء كاتبه: "هذا عهد لاعهد لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله. فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى نبوة النبوة. واتخذه للفوز سبيلا، ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا".

ونسخة المنشور: من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الأجل، الملك المنصور، سلطان الجيوش، ولى الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام

قدرته، وأعلى كلمته. سلام عليك، فإنه يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين، والأئمة المهديين وسلم تسليما".

ثم ذكر باقي المنشور، وهو مشتمل على كلام طويل، وحشو غير قليل، على عادة الكتاب المتأخرين الذين نراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين، والبلاغة عكس ذلك. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "بعثت بجوامع الكلم واختُصر لي الكلام اختصاراً".

ولما أستقل أسد الدين بالوزارة طلب من القصر كاتب إنشاء، فأرسل إليه بالقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني. وكان أبوه من أهل بيسان الشام. ثم ولي قضاء عسقلان؛ وخرج الفاضل إلى الديار المصرية فولي كاتباً بالإسكندرية على باب السِّدرة. ثم إنه أتصل بالكامل بن شاور فاستكتبه وزارحم به كتّاب القصر، فثقل عليهم أمره، فلما طلب أسد الدين كاتباً أُرسل إليه، وظن رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لايتم، وأن أسد الدين سيقتل كما قتل من كان قبله، فأرسلوا بالفاضل إليه وقالوا لعله يُقتل معه فنخلص من مزاحمته لنا. فكان من أمره ماكان، واستمر في الدولة، ولم يزدد في كل يوم إلا تقدماً، بصدقه ودينه وحسن رأيه، رحمه الله.

وأنفذ العماد قصيدة طويلة تهنئة لأسد الدين أولها:

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب ... كم راحة جُنيت من دوحة التعب
ياشيركوه بن شاذي الملك دعوة من ... نادى، فعرَّف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم ... من المدى في العلا ماحزت بالخبب
تَمَلَّ من ملك مصر رتبة قصرت ... عنها الملوك فطالت سائر الرتب
فتحت مصر، وأرجو أن تصير بها ... ميسراً فتح بيت القدس عن كثب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من ... فتح البلاد، فبادر نحوها، وثِب
أنت الذي هو فرد من بسالته ... والدين من عرفه في جحفل لجب
في حلق ذي الشرك من عدوي سطاك شجاً ... والقلب في شجن، والنفس في شجب
زارت بني الأصفر البيض التي لقيت ... حمر المنايا بها مرفوعة الحجب

وإنها نَقَد من خلفها أسد ... أرى سلامتها من أعجب العجب
لقد رفعنا إلى الرحمن أيدينا ... في شكرنا ما به الإسلام منك حُبى

شكا إليك بنو الإسلام يُتْمهم | فقمت فيهم مقام الوالد الحدب
في كل دار من الإفرنج نادبة | بما دهاهم، فقد باتوا على ندب
من شر شاور أنقذت العباد، فكم | وكم قضيت لحزب الله من أرب
هو الذي أطمع الإفرنج في بلد ال | إسلام حتى سعوا للقصد والطلب
وإن ذلك عند الله محتسب | في الحشر من أفضل الطاعات والقرب
أذله الملك المنصور منتصراً | لما دعا الشرك: هذا قد تعزز بي
وما غضبت لدين الله منتقماً | إلا لنيل رضا الرحمن بالغضب
وأنت من وقعت في الكفر هيبته | وفي ذويه وقوع النار في الحطب
وحين سرت إلى الكفار فانهزموا | نُصرت نصر رسول الله بالرعب
يامحيي الأمة الهادي بدعوته | للرشد كل غَوِيّ منهم وغبي
لما سعيت لوجه الله مرتقباً | ثوابه، نلت عفواً كل مرتقب
أعدت نقمة مصرٍ نعمةً، فغدت | تقول :كم نكتٍ لله في النكب
أركبت رأس سنان رأس ظالمها | عدلا، وكنت لوزرٍ غير مرتكب
ردَّ الخلافة عباسيةً، ودع الد | عيَّ فيها يصادف شر منقلب
لا تقطعن ذنب الأفعى وتريله | فالحزم عندي قطع الرأس كالذنب

وقال العماد في الخريدة: أنشدني الحافظ أبو القاسم لنفسه، وقد أعفى الملك العادل نور الدين، قدس الله روحه، أهل دمشق من المطالبة بالخشب فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر، فكتب إليه يهنيه:

لما سمحت لأهل الشام بالخشب | عُوضِّت مصر بما فيها من النشب
وإن بذلت لفتح القدس محتسباً | للأجر جوزيت أجراً غيرَ محتسب
والأجر في ذاك عند الله مرتقب | فيما يثيب عليه خيرُ مرتقب
والذكر بالخير بين الناس تكسبه | خير من الفضة البيضاء والذهب
ولست تعذر في ترك الجهاد وقد | أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل | لما تريد، فبادر فجأة النوب
فأحزم الناس من قويَّ عزيمته | حتى ينال بها العالي من الرتب

فالجَدُّ والْجِدُّ مقرونان في قرن والحزم في العزم، والإدراك بالطلب
فطهر المسجد الأقصى وحوزته من النجاسات، والإشراك، والصلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثناً وفي القيامة تلقى خير منقلب

فصل في وفاة أسد الدين شيركوه وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه

توفي أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام.

وقال ابن شداد: كان أسد الدين كثير الأكل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التخم والخوانيق وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة، فأخذه مرض شديد، واعتراه خانوق عظيم، فقتله رحمه الله. وفَوض الأمر بعده إلى صلاح الدين واستقرت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام. وبذل الأموال، وملك الرجال، وهانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة الله عليه فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بلباس الجد والاجتهاد، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جدا، إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته. ولقد سمعت منه، رحمه الله، يقول: لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي. ومن حين استتب له الأمر مازال يشن الغارات على الفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادهما، وغشى الناس من سحائب الأفضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام. هذا كله وهو وزير متابع للقوم، لكنه مُقوٍّ مذهب السنة، غارسٌ في البلاد أهل العلم والفقه والتصوف والدين، والناس يهرعون إليه من كل صوب ويفدون إليه من كل جانب؛ وهو رحمه الله، لايخيب قاصداً، ولايعدم وافداً. ولما عرف نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين، وذلك في رجب من هذه السنة.

وقال ابن الأثير: أما كيفية ولاية صلاح الدين فإن جماعة من الأمراء النُّورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة، منهم الأمير عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن تليل، وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذَباني الذي كان صاحب إربل، ومنهم سيف الدين علي بن أحمد الهطاري، وجده كان صاحب قلاع الهَكّارية، ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين؛ وكل من هؤلاء قد خطبها، وقد جمع ليغالب عليها. فأرسل الخليفة العاضد إلى صلاح الدين، فأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة، ويوليه الأمر بعد عمه.

وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين وليس له عسكر ولارجال، كان في ولايته بحكمه ولايجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين. فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام، فألزم به وأخذ كارهاً. إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل! فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة: الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب بالملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه.

وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لايصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال إلى صلاح الدين. ثم قصد شهاب الدين الحارمي وقال له: إن صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك، وقد أستقام الأمر له، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه فلا يصل إليك؛ ولم يزل به حتى أحضره أيضاً عنده وحلَّفه له. ثم عدل إلى قطب الدين وقال له: إن صلاح الدين أن أصله من الأكراد فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك؛ ووعده وزاد في إقطاعه؛ فأطاع صلاح الدين أيضاً. وعدل إلى عين الدولة الياروقي، وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً، فلم تنفعه رقُاه ولانفذ فيه سحره، وقال: أنا لاأخدم يوسف أبداً، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكر عليهم فراقه وقد فات الأمر، ليقضى الله أمراً كان مفعولا، وثبت قدم صلاح الدين ورسخ ملكهه؛ وهو نائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها، ولايتصرفون إلا عن أمره.

وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الأسفهسلار ويكتب علامته في الطتب تعظيماً أن يكتب اسمه، ولايفرده في كتاب بل يكتب: الأمير الأسفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا.

واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين جمعه، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه، فلم يمكنه منعه. فمال الناس إليه وأحبوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه، وضعف أمر العاضد، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه.

وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته، فلم يجبه إلى ذلك، وقال: أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد. ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر، وفيهم إخوة صلاح الدين، منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وهو أكبر من صلاح الدين. فلما أراد

أن يسير قال له: إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلاتسر، فإنك تفسد البلاد، وأُحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه؛ وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامي، وتخدمه بنفسك كما تخدمني، فسر إليه واشدد أزره، وساعده على ما هو بصدده. فقال: أفعل معه من الخدمة والطاعة مايصل إليك إن شاء الله تعالى، فكان كما قال.

وقال العماد: لما فُرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم واختلطت أهواؤهم، وكاد الشمل لاينتظم، والخلل لايلتئم. فاجتمع الأمراء النُّورية على كلمة واحدة، وأيد متساعدة، وعقدوا لصلاح الدين الرأي والراية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وقالوا: هذا قائم مقام عمه ونحن بحكمه، والتزموا لصاحب القصر بتوليته. ونادت السعادة بتلبيته، وشرع في ترتيب الملك وتربيته، وفض ختوم الخزائن، وابضَّ رسوم المزائن، وأنارت على منار العلا أناة آياته، ورأى أولياءه تحت ألويته وراياته، وأحبوه، ومازالت محبته غالبة على مهابته، وهو يبالغ في تقريبهم كأنهم ذوو قرابته. ومازاده الملك ترفعاً، وما أفاده إلا تأصلا في السماح وتفرعاً؛ وضم من أمر المملكة ماكان منشوراً، وكتب له العاضد صاحب القصر منشوراً، وهو بالمثال الكريم الفاضلي الذي هو السحر الحلال، والعذب الزلال. ثم أورده العماد وهو شبيه بمنشور عمه أسد الدين. وجرى القلم فيه بما خط له القلم في الأزل من وصف جهاده وسلمه. ففي ذلك المنشور: والجهاد أنت رضيع دَرِّه، وناشئة حجره، وظهور الخيل مواطنك، وظلال الخيام مساكنك، وفي ظلمات قساطله تُجلى محاسنك، وفي أعقاب نوازله تتلى مناقبك. فشمر له عن ساق من القنا، وخُض فيه بحراً من الظبا، واحلل في عقد كلمة الله وثيقات الحبا، وأَسل الوهاد بدم العدا، وارفع برؤسهم الربا، حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخوراً لأيامك، وشهوداً لك يوم مقامك".

وفي طرَّته بالخط العاضدي، ولم يذكره العماد في كتابه: هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته عند الله سبحانه عليك، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتا أمير المؤمنين بيمينك، ولمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن أسوة، ولمن تبقى بثقته بنا أعظم سلوة. تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين".

يعني بمن مضى أسد الدين وبمن بقي صلاح الدين.

ثم قال العماد: وهذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت، وتبددت عقودها وما انتظمت.

ووصلت كتب صلاح الدين إلينا إلى الشتم، بما تسنى له من المرام، ولمن يقصده بالاستدعاء والاستبطاء، ولمن تأخر عنه بالخلع والعطاء. وترددت الكتب الصلاحية بذكر الأشواق، وشكو الفراق، وشرح الاستيحاش، وبرح القلوب العطاش، فإن أصحابنا وإن ملكوا، ونالوا مقاصدهم وأدركوا، حصلوا بين أمة

لايعرفونها، بل ينكرونها فإن أجناد مصر كانوا في الدين مخالفين، وعلى عقيدتهم معاقدين محالفين.

وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتاباً أوله:

أيها الغائبون عني، وإن كن ... تم لقلبي بذكركم جيرانا

إنني مذ فقدتكم لأراكم ... بعيون الضمير عندي عياناً

فسألني المكتوب إليه أن أكتب جوابه، فقلت:

أيها الظاعنون عني، وقلبي ... معهم لايفارق الأظعانا

ملكوا مصر مثل قلبي، وفي ه ... ذا وهاتيك أصبحوا سكاناً

فاعدلوا فيهما فإنكم اليو ... م ملكتم عليهما سلطاناً

لاتروعُوا بالهجر قلب محب ... أورثته روعاته الخفقانا

حبذا معهد قضينا به العي ... ش فكنا بربعه جيرانا

إذ وجدنا من الحوادث أمناً ... وأخذنا من الخطوب أمانا

ورتعنا من المنى في رياض ... وسكنا من المغاني جنانا

وبعد، فإن وفود الهناء، وأمداد الدعاء، متواصلة على الولاء، صادرة عن محض الولاء، إلى غاية جنابه المأنوس، ومنيع كنفه المحروس، فليهنه اظفران: بالملك وبالعدو، وفرع هضاب المجد والعلو؛ وكيف لايكون النصر مساوقا لدين هو صلاحه، والتأييد مرافقاً لعزم نجاحه وفلاحه:

فالشام يغبط مصراً مذ حللت بها ... كما الفرات عليكم يحسد النيلا

نلتم من الملك عفواً ما الملوك به ... عُنوا قديماً وراموه فما نيلا

قال العماد: و رثيت أسد الدين بقصيدة خدمت بها نور الدين وعزيت بها أخاه نجم الدين، منها:

تضعضع في هذا المصاب المباغت ... من الدين، لولا نوره، كل ثابت

فأيام نور الدين دامت منيرة ... لنا، خلفاً من كل مودٍ وفائت

فما بالنا نبدي التصامم غفلةً ... وداعي المنايا ناطق غير صامت

نؤمل في دار الفناء بقاءنا ... ونرجو من الدنيا صداقة ماقت

وما الناس إلا كالغصون، يد الردى ... تقرِّب منها كل عود لناحت

لقد أبلغت رسل المنايا وأسمعت ... ولكنها لم تحظ منا بناصت

فلهفي على تلك الشمائل، إنها		لقد كرمُت في الحسن عن نعت ناعت

وله من أخرى عزى بها أخاه نجم الدين أيوب وولده ناصر الدين محمداً، يقول:

ما بعد يومك للمعنى المدنف		غير العويل وحسرة المتأسف
ما أجرا الحدثان! كيف سطا على ال		أسد المخوف سطا ولم يتخوف
من ذا رأى الأسد الهصور فريسة		أم أبصر الصبح المنير وقد خفى
من ثابتٌ دون الكماة سواه إن		زلت بهم أقدامهم في الموقف؟

ومنها:

ياناصر الدين استعذ بتصبر		مُدْن إلى مرضاة ربٍ مزلف
وتعزَّ نجم الدين عنه مهنَّأً		أبد الزمان بملك مصر ويوسف
لاتستطيع سوى الدعاء، فكلنا		إلا بما في الوسع، غير مكلف

ولعمارة اليمني في صلاح الدين مدائح، منها قوله:

لك الحسب الباقي على عقب الدهر		بل الشرف الراقي إلى قمة النَّسر
كذا فليكن سعى الملوك إذا سعت		بها الهمم العليا إلى شرف الذكر
نهضتم بأعباء الوزارة نهضة		أقلتم بها الأقدام من زلة العثر

وقال أيضاً من قصيدة:

ياشبيه الصديق عدلا وحسناً		وسميًّا حكاه معنى ومغنى
هذه مصر يوسف، حل فيها		يوسفٌ مالكا وما حل سجنا
أنت حرَّمت أن يثلَّث فيها		بسوى الله وحده أو يثنى
إنما الملك والوزارة جسم		أنت روح فيه، وفي اللفظ معنى

وقال أيضاً من قصيدة:

ملكُ صلاح الدين، لاقوضت		أطنابه، ملك التقى والصلاح
سيرة عدل حسَّنت عندنا		ماكان من وجه الليالي القباح
سافر في الدنيا وأقطارها		ذكرٌ غدا عنه جميلا وراح
قل لابن أيوب، وكم ناصح		أنفع ممن هو شاكي السلاح

حارب على مثل نجوم السما فملك مصر ما عليه اصطلاح

قولا لمن في عزمه فترة ارجع إلى الجد وخل المزاح

فالقدس قد أذَن إغلاقه على يدي يوسف بالإنفتاح

وقال أيضاً من قصيدة:

ونُبت بمصر عن سميك يوسفٍ كما ناب عن سكب الحيا واكفٌ سكب

فصل

وهذا الذي ذكرناه من قصة شاور وما جرى بسببه في الديار المصرية إلى أن تمت وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطاً مشتملاً على زيادات وفوائد في كتاب ليحيى ابن أبي طيّ الحلبي في السيرة الصلاحية، فأحببت ذكره مختصراً.

ذكر أن الملك الصالح طلائع بن رُزيك، وزير الديار المصرية، لما قتل في رمضان سنة ست وخمسين، بتدبير عمه العاضد عليه، أوصى عند موته ابنه رزيك بشاور، وقال له: لاتزلزله من ولايته فإنه أسلم لك. ويقال إنه أنشد أبياتاً منها:

فإذا تبدد شمل عقدكما لاتأمنا من شاور السعدي

وكان شاور متولي قوص والصعيد الأعلى؛ فلما دفن الصالح استوزر ابنه رزيك ولقب بالعادل. ولما أستقرت أحواله أرسل إلى عمة العاضد فخنقها؛ واجتمع إلى رزيك أولاد عمته، ومن جملتهم عز الدين حسام، وأشاروا عليه بعزل شاور، فامتنع، ثم ألحوا عليه فأجاب. وبلغ شاوراً فجاهر بالعصيان وجمع العربان وأهل الصعيد وصار إلى القاهرة، وخرج إليه جماعة من أمرائها كانوا كاتبوه، فخرج رزيك تحت الليل فضل الطريق وتاه، فوقع عند إطفيح، وثمَّ بيوت عرب، فقبضوا عليه؛ وحُمل إلى شاور وقد دخل القاهرة وتسلمها، وأخرجت إليه خلع الوزارة وتم أمره.

ولما حصل رُزَّيك عند شاور أكرمه وصلب الذي أتى به ونادى عليه: هذا جزاء من لايراعي الجميل؛ وكان للصالح إليه إحسان. وتفرَّق آل رزيك في البلاد، ونجا حسام الذي كان سبب هلاك بني رزيك بأموال وصار إلى حماة فأقام بها واشترى القرى، و لم يزل بها إلى أن مات. وكان في خروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينار فوفوا له وردوها عليه. ثم أراد تقي الدين أخذها منه، فقال: من العجب أن الفرنجي يفي لي بردها وتأخذها أنت مني. فكف عنه.

وتمكن شاور، وكان له ثلاثة أولاد: طيّ، والكامل، وسليمان، فتبسطوا على الناس وتعاظموا فمجتهم

الأنفس.

وكان مُلهم وأخوه ضرغام من صنائع الصالح بن رزيك؛ فلما شاهدا ميل الناس عن شاور بسبب أولاده أخذا في مراسلة رزيك بن الصالح، وهو في السجن، والعمل له في إعادته إلى الوزارة. واتصل ذلك بطيّ بن شاور، فدخل على أبيه وقال له: أنت غافل ومُلْهم وضرغام يفسدان أمرك، وقد شرعا في أمر رزيك واستحلفا له جماعة من الأمراء، ولايمكن تلافي حالك إلا بقتل رزيك. فقال له: إن الصالح أولاني جميلا وبسببه حللت هذا المحل. فتركه ولده طيّ، ودخل على رزيك فقتله في سجنه، وسمع شاور ذلك فقامت قيامته؛ ونُمى الخبر إلى ضرغام وأخيه ملهم فثارا وأثارا من استحلفاه من الأمراء، وزحفا بالعساكر إلى شاور فانهزم وخرج من باب القاهرة وهرب إلى الشام. وأدرك ضرغام ولديه طياً وسليمان فقتلهما، وأسر الكامل فأخذه ملهم واعتقله عنده، وأراد ضرغام قتله فمنعه منه ملهم وحفظ له جميلا كان قد فعله معه. واستقر أمر ضرغام في الوزارة وخلُع عليه ولقب بالملك المنصور. ولما استقر به الأمر بلغه أن جماعة من الأمراء حسدوه واستصغروه وكاتبوا شاوراً، وكان صار إلى الشام، فأخذ في إعمال الحيلة عليهم وأحضرهم إلى دار الوزارة ليلاً فقتلهم جميعاً، ولم يتعرض لأموالهم ولا لمنازلهم. وقيل إنه قتل منهم سبعين أميراً، ويقال إنه جعلهم في توابيت وكتب على كل تابوت اسم صاحبه، فكان ذلك أكبر الأسباب في هلاكه، وخروج دولة المصريين عن يد أصحابها لأنه أضعف عسكر مصر بقتل الأمراء.

وأما شاور فإنه لما خرج من القاهرة سار على وجهه حتى وصل إلى دمشق بعد تحققه قتل ولديه. ولما وصل إلى بُصرى اتصل خبره بنور الدين فندب جماعة إلى تلِّقيه، وأنزله في جوسق الميدان الأخضر، وأحسن ضيافته وإكرامه. ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أحضر نور الدين ابن الصوفي وجماعة من وجوه الدمشقيين وقال لهم: اخرجوا إلى هذا الرجل وسلموا عليه وعرفوه اعذارنا في التقصير في حقه، وسلوه فيما قدم، وماحاجته، فإن كان ورد علينا مختاراً للإقامة أفردنا له من جهاتنا ما يكفيه ويقوم بأربه وأوده، ونكون عوناً له على زمانه، وإن كان ورد لغير ذلك فيصفح عن حاجته. فخرج الجماعة إليه بالرسالة فشكر إحسان نور الدين وسكت عما وراء ذلك. فسأله القوم الجواب، فقال: إذا لم يبيَّت الرأي جاء فطيراً. فعاد القوم إلى نور الدين وعرفوه مادار بينهم وبينه، فأمرهم بالعود إليه من غد ذلك اليوم، ففعلوا، وطلبوا الجواب، فسكت وأطال أيضاً، ثم قال: إن رأي نور الدين، أطال الله بقاءه، الاجتماع بي فله علُّو الرأي. فعرَّفوا نور الدين بمقالته، فأجاب نور الدين أن يكون الاجتماع على ظهر بالميدان الأخضر. وركب نور الدين من الغد في وجوه دولته وخواص مملكته في أحسن زي وأكمل شارة. فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتقيا في وسط الميدان بالتحية فقط، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه. ثم

سارا من موضع اجتماعهما، وهو نصف الميدان، إلى آخره، ثم انفصلا من هناك وعاد نور الدين إلى قلعة دمشق، وأخذ وقته ذلك في جمع العساكر.

وأما ضرغام فإنه حين استقر به الأمر أنشأ كتاباً إلى نور الدين، على يد علم الملك ابن النحاس، يظهر فيه الطاعة ويعرِّض بخذلان شاور، فأظهر نور الدين لعلم الملك القبول في الظاهر وهو شاور في الباطن، وأجاب عن الكتاب، وانفصل علم الملك عن دمشق. فلما كان بظاهر الكرك أخذه فيليب بن الرفيق الفرنجي وحصل على جميع ماكان معه، وانهزم علم الملك بنفسه وتوجه إلى الساحل وسار إلى مصر.

وكان شاور قد أطمع نور الدين في أموال مصر ورغبه في ملكها، وأنه إذا ملكها كان من قبله فيها.

ولما بلغ شاوراً استتبابُ أمر العسكر سأل عن المقدم عليه، فقيل له أسد الدين شيركوه، فلم يطب له ذلك، لأنه ظن أن التقدمة تكون له، فلما زُحم بهذا العود سُقط في يده، وفت في عضده، و لم يجد بداً من المسير. فخرج واجتمع بأسد الدين وسارا جميعاً حتى وصلوا أطراف البلاد المصرية ونزلوا على تل في الحوف قريب من بلبيس يعرف بتل بسطة، وضربوا خيامهم هناك.

ولما اتصل بضرغام خبر ورود شاور وأسد الدين بالعساكر الشامية جمع أمراء مصر واستشارهم؛ فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجتمع العساكر وتخرج جريدة وتلقى العساكر الشامية بصدر، وهي على يومين من القاهرة، فإنهم لايثبتون، لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء، ولمكان قلة الماء عليهم، لأن المسافر إلى مصر يحمل الماء من أيْلة مسيرة ثلاثة أيام، فلم يروا ذلك واختاروا أن يلقوهم على بلبيس. فأمر ضرغام الأمراء بالخروج، فخرجوا في أحسن زي وأكمل عدة، والمقدَّم عليهم ناصر الدين مُلْهم، أخو ضرغام، وجاءوا حتى أحاطوا بالتل الذي كان أسد الدين نازلا عليه.

ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر وأنهم قد ملكوا عليهم الجهات وسدوا منافذ الطرقات، قال لشاور: ياهذا، لقد أرهقتنا وغررتنا، وقلت إنه ليس بمصر عساكر، فجئنا في هذه الشرذمة! فقال له شاور: لايهولنك ما تشاهد من كثرة الجموع فأكثرها الحاكة والفلاحون الذين يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا، فما ظنك بهم إذا حمي الوطيس وكلبت الحرب! وأما الأمراء فإن كتبهم عندي وعهودهم معي، وسترى ذلك إذا لقيناهم. ثم قال: أريد أن تأمر العساكر بالاستعداد للوثوب، ففعل، ونهاهم شاور عن القتال.

ووقف الفريقان مصطفين من غير حرب إلى أن حمي النهار والتهب الحديد على أجساد الرجال، فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار، وخلعوا السلاح، ونزلوا عن الخيول، وجلسوا في الظل. فأمر شاور الناس بالحملة فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق عنانه وولى منهزماً. وتركوا خيمهم وأموالهم ليس بها حافظ، فاحتوى عليها أصحاب أسد الدين، وأُسر شمس الخلافة وجماعة من أمراء المصريين، و لم يمكن

شاور من تقييدهم والاحتياط عليهم فهربوا. وساق أسد الدين وشاور في أثر الناس، ونزلوا على القاهرة وقاتلوها أياماً. وراسل شاورُ العاضد في إصلاح الحال وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة، فأذن له. وكان ضرغام صار إلى تحت القصر وقال: أريد أمير المؤمنين يكلمني لأسأله عما أفعل، فلم يجبه أحد. فذهب على وجهه منهزماً، وخرج من باب زويلة والعامة تلعنه وتصيح عليه، فالتحقه رجل من أهل الشام ليقتله، فقال له ضرغام: أوصلني إلى أسد الدين ولك مناك، فلم يقبل منه وحمل عليه فطعنه، فأرداه، ونزل إليه واحتز رأسه وحمله إلى أسد الدين، وأعلمه بما جرى بينهما، فصعب على أسد الدين وأوجعه ضرباً، وأراد قتله، فشفع فيه شاور. ودخل شاور القاهرة وقتل ملهماً أخا ضرغام عند بركة الفيل، وخرج ابنه الكامل من دار ملهم، وكان معتقلاً فيها، وخرج معه القاضي الفاضل، وكان أيضاً معتقلا فيها معه.

واستقام أمر شاور في الوزارة، وأقام أسد الدين على المقسم ينتظر أمر شاور فيما ضمن لنور الدين، وأرسل إليه يقول له: قد طال مقامنا في الخيم وقد ضجر العسكر من الحر والغبار. فأرسل إليه شاور ثلاثين ألف دينار وقال: ترحل الآن في أمن الله تعالى ودعته. فلما سمع أسد الدين ذلك أرسل إليه: إن نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه، إذا ملك شاور تكون مقيما عنده، ويكون لك ثلث مُغَلِّ البلاد، والثلث الآخر لشاور وللعسكر، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه. فقال شاور: أنا ما قررت شيئاً مما تقول، أنا طلبت نجدة من نور الدين، فإذا انقضى شغلي عادوا إلى الشام. وقد سيرت إليكم نفقةً فخذوها وانصرفوا، وأنا أتصرف مع نور الدين. فقال أسد الدين: أنا لايمكنني مخالفة نور الدين، ولا أقدر على الانصراف إلا بإمضاء أمره. فأمر شاور بإغلاق باب القاهرة، وأخذ في الاستعداد للحصار، واستعد أسد الدين أيضاً، وسيَّر صلاح الدين في قطعة من الجيش إلى بلبيس لجمع الغلال والأتبان والأحطاب وما تدعوا الحاجة إليه، ويكون جميع ذلك في بلبيس ذخيرة، وأخذ في قتال القاهرة.

وكاتب شاور ملك الفرنج مُرِّي يستنجده ويقول له: إن شيركوه طلع معي نجدةً على ضرغام، فلما حصلوا في البلاد طمعوا فيها، ومتى ملكوها مضافةً إلى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيش ولاقرار. وضمن له في كل مرحلة يرحلها إلى ديار مصر ألف دينار، وقرر شيئاً لقضيم دوابهم وشيئاً لاسبتاريته. فخرج مُرِّي من عسقلان في جموعه إلى فاقوس في سبع وعشرين مرحلة، وقبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار.

ولما تحقق أسد الدين قرب الفرنج من القاهرة أجفل عنها إلى بلبيس، وانضاف إليه من أهلها الكنانيَّة. وخرج شاور في عساكر مصر واجتمع بالفرنج، وجاء حتى خيَّم على بلبيس وأحاط بها محاصراً لأسد الدين، يباكر الحرب ويراوحها، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر.

وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين، وكان اتصل بنور الدين، وهو بدمشق خبر مسير الفرنج إلى ديار مصر وغدر شاور؛ فكاتب الأطراف بقدوم العساكر، فقدم عليه عساكر الشرق جميعها واجتمعوا بأرض حلب، فترل بهم مجد الدين بن الدّاية، وكان نائب نور الدين بحلب، وسار إلى جهة حارم ونزل على أرتاح، وخرج نور الدين من دمشق وشن الغارة على الساحل، وقتل وأسر عالماً عظيماً، ثم قصد جهة حلب وجعل طريقه حصن الأكراد؛ فلما حصل بأرضه شن الغارة فيها وغنم غنيمة عظيمة، ونزل في مرجه، فخرج إليه الفرنج الإخوة من حصن الأكراد وهجموا عسكره، وقتلوا جماعة من المسلمين؛ وكان عسكر نور الدين غافلا فلم يتماسك الناس وساروا على وجوههم.

وسار نور الدين إلى أن اجتمع بعساكره على أرتاح، وكان أخوه نصرة الدين مع الفرنج، فلما عاين أعلام نور الدين لم يتماسك أن حمل بجميع أصحابه قاصداً أخاه نور الدين، فلما قَرُب منه نزل وقبل الأرض فلم يلتفت عليه، فتم على وجهه. واصطف الناس للحرب، فحملت الفرنج فكسرت الميسرة، ثم عادت فوجدت راجلها جميعه قد قتل والخيل قد أطبقت عليهم، فترلوا عن الخيل وألقوا أسلحتهم وأذعنوا بالأمان، فأخذوا جميعاً قبضاً بالأيدي.

وسار إلى حارم ففتحها، وأراد الترول على أنطاكية فلم يتمكن لشغل قلبه بمن في مصر من المسلمين؛ فانحرف قاصداً لدمشق، ونزل على بانياس، فافتتحها. وأغار على بلد طبرية وجمع أعلام الفرنج وشعافهم وجعلها في عيبة وسلمها إلى نَجَّاب، وقال له: أريد أن تُعمل الحيلة في الدخول إلى بلبيس، وتخبر أسد الدين بما فتح الله على المسلمين، وتعطيه هذه الأعلام والشعاف، وتأمره بنشرها في أسواق بلبيس، فإن ذلك مما يفتُّ في أعضاد الكفار ويدخل الوهن عليهم. ففعل ذلك. فلما رأى الفرنج الأعلام والشعاف قلقوا لذلك وخافوا على بلادهم، وسألوا شاوراً الإذن في الانفصال. فانزعج شاور لذلك، وخاف من عاقبة الأمر، وسألهم التَّمُّهل أياماً؛ وجمع أمراءه للمشورة، فأشاروا عليه بمصالحة أسد الدين. وتكفل إتمام الصلح له الأمير شمس الخلافة؛ فأنفذه إليه، فتم الصلح على يديه، على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى.

وحكى أن شاوراً أرسل إلى أسد الدين، وهو محصور ببلبيس، يقول له: اعلم أنني أبقيت عليك و لم أمكن الفرنج منك لأنهم كانوا قادرين عليك؛ وإنما فعلت ذلك لأمرين: أحدهما أني ما أختار أن أكسر جاه المسلمين وأُقوي الفرنج عليهم. والثاني أني خفت أن الفرنج إذا فتحوا بلبيس فيها، وقالوا هذه لنا؛ لأنا فتحناها بسيوفنا؛ وما من يوم كان يمضي بمصر إلا وأنا أُنفذ إلى كبار الفرنج الجملة من المال، وأسألهم أن يكسروا همة الملك عن الزحف.

قال: وأقام أسد الدين بظاهر بلبيس ثلاثة أيام، ورحلت الفرنج إلى جهة الساحل، وسار أسد الدين قاصداً الشام، وجهل مسيره على البرِّية.

واتفق أن البرنس أرناط صاحب الكَرَك والشَّوْبَك تأول ليمينه التي حلفها لأسد الدين، وقال: أنا حلفت أني ما ألحق أسد الدين ولا عسكره في البر، وأنا أريد ألحقه في البحر. وركب في البحر وصار في يوم واحد إلى عسقلان، وخرج منها إلى الكرك والشوبك وجمع عسكره المقيم هناك، وقعد مرتقباً خروج أسد الدين من البرية ليوقع به. وعلم أسد الدين بمكيدة أرناط بالحدس والتخمين، فسلك طريقاً من خلف المكان الذي كان فيه أرناط: شق إلى الغور وخرج من البلقاء، وسلمه الله تعالى منه. ودخل دمشق فاجتمع بنور الدين وأخبره بالأحوال، وأعلمه بضعف ديار مصر، ورغبه فيها وشوقه إلى ملكها، فرغب فيها نور الدين وأمره بتجنيد الأجناد واستخدام الرجال.

وأما شاور فإنه بعد رحيل أسد الدين والفرنج إلى بلادهم عاد إلى القاهرة، و لم يكن له همة إلا تتبع من علم أن بينه وبين أسد الدين معرفة أو صحبة. وكان استفسد جماعة من عسكر أسد الدين منهم خشترين الكردي وأقطعه شطنوف؛ وقتل شاور جماعة من أهل مصر وشردّ آخرين.

ثم توجه أسد الدين في ربيع الأول سنة اثنتين وستين قاصداً الديار المصرية، وكتم أخباره، فما راع شاوراً إلا ورود كتاب مُرِّي ملك الافرنج، يعرفه فيه أن أسد الدين قد فصل عن دمشق بعساكره قاصداً ديار مصر. فطلب شاور منه إعادة النجدة، والمقرر من المال يصل إليه على ماكان يصل إليه في العام الماضي.

فسار مُرِّي في عساكر الفرنج إلى مصر على جانب البحر، وكان أسد الدين سائراً في البر، فسبقه الفرنج ونزلوا على ظاهر بلبيس، وخرج شاور بعساكر مصر واجتمع بالملك، وقعدوا جميعاً في انتظار أسد الدين.

وعلم أسد الدين باجتماع الفرنج بشاور على بلبيس، فنكب عن طريقهم وأم الجبل، وخرج على إطفيح، وهي في الجنوب من مصر، وشن الغارة هناك. واتصل بشاور خبره، فسار في عساكره، والفرنج في صحبته، يقفو أثره. واتصل بأسد الدين ذلك فأندفع بين أيديهم حتى بلغ شرونة من صعيد مصر، وتحيَّل في مراكب ركبها، وعدى إلى البر الغربي. ولما استكمل تعديته أدرك شاور بعض ساقته ومنقطعي عسكريته، فأوقع بهم. وأحضر شاور أيضاً مراكب وقطع النيل في أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج، وسار أسد الدين إلى الجيزة وخيم بها مقدار خمسين يوماً، واستمال قوماً يقال لهم الأشراف الجعفريون والطلحيون والقرشيون، فأنفذ أسد الدين إلى شاور يقول له: أنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلا هو، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه، أنني لاأقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبداً، ولاامكن أحداً من

التعرض إليها، ومن عارضك فيها كنت معك إلباً عليه، وما أؤمِّل منك إلا نصر الإسلام فقط، وهو أن العدو قد حَصَل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة، وخلاصه عسير، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهز فيه الفرصة التي قد أمكنت والغنيمة التي قد كُتبت، فنستأصل شأفته ونخمد ثأرته، وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً.

فلما صار الرسول إلى شاور وأدى إليه الرسالة أمر به فقتل، وقال: ماهؤلاء الفرنج، هؤلاء الفَرَج! ثم أعلم الفرنج بما أرسل به إليه أسد الدين وأعلمهم بما أجابه، وجدد لهم أيماناً وثقوا بها. وبلغ ذلك أسد الدين فأكل يديه أسفاً على مخالفة شاور له في هذا الرأي، وقال: لعنه الله، لو أطاعني لم يبق بالشام أحد من هؤلاء الفرنج! ونزل شاور في اللوق والمقسم، وأمر بعمل الجسر بين الجيزة والجزيرة، وأمر بالمراكب فشحنت بالرجال، وأمرهم أن يجيئوا من خلف عسكر أسد الدين.

ولما رأى أسد الدين ذلك كتب إلى أهل الإسكندرية يستنجدهم على شاور لأجل إدخاله الفرنج إلى دار الإسلام وتضييعه أموال بيت مال المسلمين فيهم؛ فقاموا معه وأمروا عليهم نجم الدين بن مصال، وهو ابن أحد وزراء المصريين، وكان لجأ إلى الإسكندرية مستخفياً فظهر في هذه الفتنة.

حدثني الشريف الإدريسي، نزيل حلب، قال: كنت بالإسكندرية يومئذ فكتب معي ابن مصال كتاباً إلى أسد الدين، وقال لي: قل له إني أخبرك أن السلاح واصل. وكان أنفذ لأسد الدين خزانة من السلاح، قال فسبقتها بيومين، وحضرت بين يدي أسد الدين وأعطيته الكتب، وشافهته بمقالة ابن مصال في معنى السلاح والآلات، ثم وصلت الخزانة بعد يومين مع ابن أخت الأمير ابن عوف. قال: وبقينا على الجيزة يومين، فوصل إلينا رسول ابن مدافع يخبر أسد الدين بقرب شاور منه ويأمره بالنجاة، فترك أسد الدين الخيام والمطابخ وما يثقل حمله، وسار سيراً حثيثاً حتى قارب دَلَجْة، فأمر أسد الدين بنهبها فنهبت. ونزل الناس لتغشية الدواب فلم تستتم عليقها حتى أمر أسد الدين بالرحيل وأوقد المشاعل ليلا وسرنا، فإذا الجاووش ينادي في الناس بالرجوع، وعاد أسد الدين إلى دجلة فنزل عليها، فأصبحوا على ذلك والتقوا، فقتل من أصحاب أسد الدين جماعة كبيرة وانهزموا. وكان أسد الدين قد فرق أصحابه فريقين: فريقاً معه وفريقاً جعله مع صلاح الدين وأنفذه ليأتي من خلف عسكر شاور، فدخل الضعف من هذا الطريق. ثم إن أصحاب أسد الدين تجمعوا وتماسكوا، وعلموا أنه لاملجأ لهم إلا الصبر، فتحالفوا على الموت وحملوا، وطلع صلاح الدين من ورائهم. فلم تزل الحرب قائمة إلى الليل، فولت عساكر الإفرنج والمصريين الإدبار، وكاد مُرِّي ملك الإفرنج يؤسر، وصار شاور ومن سلم معه إلى منية ابن خصيب. وسار أسد الدين على الفيوم إلى الإسكندرية فدخلها، ونزل القصر وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم، وكان

فيها ابن الزبير متولياً ديوانها، فحمل إلى أسد الدين الأموال، وقواه بالسلاح. وخاف أسد الدين أن يقصده شاور والفرنج فيحصروه، فربما تأذى بالحصار، فأمر صلاح الدين بالمقام بالإسكندرية وترك عنده جماعة من العسكر، ومن به مرض أو جراح أو ضعف، واستحلف له وجوه الإسكندرية وأوصاهم به، ورحل في أقوياء عسكره قاصداً إلى الصعيد. ونزل الفرنج وشاور على الإسكندرية وحاصروها مدة ثلاثة أشهر بأشد القتال، وبذل أهلها في نصرة الملك الناصر أموالهم وأنفسهم، وقتل منهم جماعة عظيمة. ولما صار أسد الدين بالصعيد حصَّل من تلك البلاد أموالا عظيمة، ولم يزل هناك حتى صام شهر رمضان. واتصل به اشتداد الأمر على الإسكندرية فرحل من قوص إلى جهتها، واتبعه جماعة كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد. وبلغ ذلك شاوراً فرحل هو والفرنج، واضطر إلى الصلح، وضجرت الفرنج أيضاً، فتوسط ملك الفرنج في ذلك، فتقرر أمر الصلح على أن شاوراً يحمل إلى أسد الدين جميع ما غرمه في هذه السفرة، ثم يعطي الفرنج ثلاثين ألف دينار، ويعود كل منهم إلى بلاده. وطلب صلاح الدين من ملك الفرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء من أصحابه فأنفذ له عدة مراكب.

قال الإدريسي: كنت في جملة من خرج في المراكب، فلما وصلنا إلى ميناء عكا أخذنا واعتقلنا في معصرة القصب إلى أن وصل الملك مُرِّي فأطلقنا، فخرجنا إلى دمشق.

وخرج صلاح الدين من الإسكندرية بعد أن استحلف شاوراً لأهلها بألا يعرض لهم بسوء، واجتمع بعمه أسد الدين.

ثم أنفذ شاور وقبض على ابن مصال وجماعة ممن أعان صلاح الدين وضيق عليهم، وتتبع أهل الإسكندرية. واتصل ذلك بصلاح الدين فاجتمع بملك الفرنج وقال له: إن شاوراً نقض الأيمان. قال: وكيف ذلك؛ قال: لأنه قبض على من لجأ إلينا. فقال: ليس له ذلك. وأنفذ إلى شاور وقال له: إن الأيمان جرت على ألا تعرض لأحد من أهل مصر ولا الإسكندرية؛ وألزمه يميناً أخرى في ألا يعرض لأحد ممن لجأ إلى أسد الدين أو صلاح الدين.

ولما شاهد من التجأ إلى الأسد والصلاح فساد تلك الأحوال خافوا من شاور، فأخذوا في الرحيل إلى الشام. واتصل ذلك بشاور، فخرج بنفسه وجمع من عزم على الرحلة إلى الشام، وحلف لهم على الإحسان إليهم وحماية أنفسهم وأموالهم، فمنهم من سكن إلى أيمانه، ومنهم من لم يسكن ورحل.

وألهم الله تعالى أسد الدين أن الفرنج ربما خطر لهم في مصر خاطر فقصدها، فراسل الملك مري وقال له: قد سأل أهل مصر يمين الملك ألا يدخل إليهم ولا يتعر لهم. فامتنع الملك، ثم أجاب خوفاً أن يتحقق أسد الدين وشاور أنه ربما قصد ديار مصر، فربما اجتمعا عليه، فلم يجد بداً من اليمين فحلف وحلف أصحابه؛

وخرج أسد الدين من مصر وفي قلبه الداء الدوي منها، لأنه شاهدها وشاهد مُغَلاّتها فوجدها أمراً عظيماً.
فأخذ نور الدين في تهوين أمرمصر عليه، وأقطعه حمص وأعمالها.

وحدثني أبي رحمه الله: قال: حدثني غير واحد أن شاوراً كاتب نور الدين في ذلك وضمن له أن يحمل في كل سنة عن ديار مصر مالا مصانعة.

ولما بلغ شاوراً أن نور الدين صرف همة أسد الدين عن ذكر مصر والتعرض لها أنفذ رسولاً بهدية سنية، وأصحبه كتاباً حسناً، أوله: ورد كتاب استدعى شكري وحمدي، واستخلص من الصفاء ماعندي، واستفرغ في الثناء على مرسله جهدي، فكأنما استمليت معانيه مما عندي، واشتملت على حقائق قصدي؛ وسررت للإسلام وأهله، والدين الذي وعد الله أن يظهره على الدين كله، وأن يكون مثله ملكا من ملوكه، يُرجع إليه في عقده وحله، وتشير الأصابع وتعقد الخناصر على علو محله. والله يزيده بمكانه تثبيتاً وقوة، ويحقق على يديه مخايل النصر المرجوة؛ فما أسعد رأسا دل على نصرة الكلمة، ودعا إلى سبيل الفئة المسلمة، ووفر على مصالح الأمة قلوب رعاياها المنقسمة. وأنا متمم من هذا الأمر ما صدر مني، وباق منه على ما نُقل عني، لاأتغير عن المصلحة فيه، ولايخالف ما أظهره منه لما أخفيه، ولا أستكثر كبيراً أصل إليه وأتوصل به لما سبق للملك العادل من حقوق استوجب شكرها قولا وفعلا، ونصرة كانت في هجير الخطوب برداً وظلا، وأنعم لاتزال آياتها بألسُن الحمد تتلى وتملى. ولعمري لقد بني بها فخراً، وارتفع على الأملاك قدراً وذكراً. ووجب أن ستتمها فلا يصل إلى مواردها الكدر، ويحوطها فلا تتطرق إلى جوانبها الغير. ووراء هذه المكاتبة من اهتمامي ما لايعوقه عائق إلا انتظام العقد على الأمور المألوفة، وتمام التوثقة باليمين المنصوصة الموصوفة، مع أن قوله كيمينه، وكتابه كصفحة يمينه، والثقة به واقعة على كل حال، والمحبة له توجب الاحتراس على الوداد من تطرق أسباب الاختلال".

قال: وفي سنة أربع وستين طمع مري ملك الفرنج في مصر وعول على الدخول إليها والاستيلاء عليها، وذلك لما أنكشف له من عوارها، وظهر له من ضعف من بقي فيها. فجمع إليه ملوك الفرنج وكبراء الداوية والاسبتارية، وتشاوروا، فجرت بينهم في ذلك خطوب؛ ثم أجابوه إلى الخروج معه إلى الديار المصرية فأحضرو وزيره وأمره بإقطاع بلاد مصر لخيالته، وفرق قراها على أجناده. وكان، لعنه الله، لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها، زتعرف له خبر ارتفاعها. ثم سار حتى نزل الداروم، فقامت قيامة شاور لما بلغه الخبر، وانتخب أميراً من أمرائه، يقال له بدران، وسيره إلى لقاء مري يسأله عن السبب في قصده. فاجتمع به وسأله؛ فتلكأ عليه، ثم استلان جانبه، وضمن له رضيخة على أن يورِّي عنهم، ولايكشف لشاور حالهم. ويقال إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمم على المصريين الحيلة، ويعلم شاوراً أنه إنما قصد مصر للخدمة؛ ففعل ذلك بدران. ولما سمع ذلك

شاور أشفق منه، وأحضر الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار وقال له: كأن بدران قد غشني و لم ينصحني، وأنا فواثق بك: فأريد تخرج وتكشف لي حال الفرنج. فسار شمس الخلافة إلى مُري، وكان بينهما مؤانسة.

فلما دخل على الملك قال له: مرحباً بشمس الخلافة. فقال: مرحباً بالملك الغدار، ولإلا ما الذي أقدمك إلينا؟ قال: اتصل بي أن الفقيه عيسى تزوج أخت الكامل بن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتزوج الكامل أخت صلاح الدين، فقلنا هذا عمل علينا. فقال له شمس الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض للعهد. فقال له الملك: الصحيح أن قوماً من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبونا على رأينا، وخرجوا طامعين في بلادكم، فخفنا من ذلك فخرجنا لنتوسط الأمر بينكم وبينهم. فقال شمس الخلافة: فأي شئ قد طلبوا؟ قال: ألفي ألف دينار. فقال: مكانكم حتى أصل إلى شاور وأبلغه مقالكم وأعود بالجواب. فقال له ملك الفرنج: فنحن نترل على بلبيس إلى أن تعود.

قال: وحكى أن ملك الفرنج لما وصل إلى الداروم كتب إلى شاور يقول له: إني قد قصدت الخدمة على ما قررته لي من العطاء في كل عام. فأجابه شاور: إن الذي قررته لك إنما جعلته متى احتجت إليك وإذا قدم عليّ عدو، فأما مع خلو بالي من الأعداء فلا حاجة إليك ولا لك عندي مقرر. فأجابه مري أن لابد من حضوري وأخذي المقرر. فعلم شاور أنه قد غدر بالعهد ونقض الأيمان، وأنه قد طمع في البلاد. فأخذ في تجنيد الأجناد وحشد العساكر إلى القاهرة، وأنفذ إلى بلبيس قطعة من الجيش وفيرة وعُدة.

ثم إن ملك الفرنج سار خلف رسول شاور لايلوي على قول حتى خيم على بلبيس في صفر، وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك ابن النحاس، وابن الخياط يحيى، وابن قرجلة. وأرسل إلى طي بن شاور، وكان ببلبيس، وقال له: أين نترل؟ قال: على أسنة الرماح. وقال له: أتحسب أن بلبيس جبنة تأكلها؟ فأرسل إليه مري: نعم هي جبنة والقاهرة زبدة. ثم قاتل بلبيس ليلاً ونهاراً حتى افتتحها بالسيف، وقتل من أهلها خلقاً عظيماً وخرب أكثرها، وأحرق جُلَّ آدرها؛ ثم أخرج الأسارى إلى ظاهر البلد وحشروا في مكان واحد، وحمل في وسطهم برمحه ففرقهم فرقتين، فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره، وقال لفرقته: قد أطلقتكم شكراً لله تعالى على ما أولاني من فتح بلاد مصر، فإني قد ملكتها بلا شك. ووقف إلى أن عدى أكثرهم النيل إلى جهة منية حمل، وأخذ العسكر نصيبهم من الأسارى فاقتسموهم؛ وبقي أهل بلبيس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة في أسر الفرنج، وهلك أكثرهم في أيديهم، وأفلت منهم اليسير. لأن الملك الناصر رحمه الله لما ملك ديار مصر وقف مُغَلَّ بلبيس على كثرته على فكاك الأسرى منهم؛ وسامح أهل بلبيس بخراجهم إلى آخر

أيامه.
ولما أتصل بشاور ما جرى على أهل بلبيس من القتل والأسر، وأن الفرنج شحنوها بالرجال والعُدد وجعلوها لهم ظهراً، أشفق من ذلك وطلب الإذن على العاضد؛ فلما اجتمع به بكي بين يديه وقال: اعلم أن البلاد قد ملكت علينا، و لم يبق إلا أن تكتب إلى نور الدين وتشرح له ما جرى وتطلب نصرته ومعونته. فكتب جميع ذلك، وأرسل شاور طيَّ تلك الكتب كتباً وسخم أعاليها بالمداد.
قال: وحدثني شمس الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار قال: إنما كتب هذا الكتاب برأي أبي شمس الخلافة، لأنه لما رجع من عند مرِّي، لعنه الله، بعد أخذ بلبيس اجتمع بالكامل بن شاور وقال له. عندي أمر لايمكنني أن أفضي به إليك إلا بعد أن تحلف لي أنك لاتطلع أباك عليه. فلما حلف له قال له: إن أباك قد وطَّن نفسه على المصابرة وآخر أمره يسلم البلاد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين، وهذا عين الفساد؛ فاصعد أنت إلى العاضد وألزمه أن يكتب إلى نور الدين، فليس لهذا الأمر غيره. فقصده الكامل وكتب الكتاب. فلما وصل إلى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيماً، وأنفذ أسد الدين، وكان ذلك من مُناه، وأرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى مصر برسالة ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر واصلة، وبرسالة سرية إلى العاضد، وأمره أن يستحلفه على أشياء عيَّنها، وأن يكتم ذلك من شاور.
وأما الفرنج فساروا إلى جهة مصر، وأمر شاور بإحراق مصر وأنذر أهلها، فخرج الناس منها على وجوههم وهجُوا في بلاد مصر، وبلغ أجرة الجمل إلى القاهرة ثلاثين ديناراً، وترك الناس أكثر أموالهم فنهبت. وأحرقت مصر في تاسع صفر، وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً.

ثم إن الفرنج، لعنهم الله، نزلوا في بركة الحبش، وانبثت أخبارهم في الأطراف، وتخطفوا من ظفروا به.
فأنفذ شاور شمس الخلافة إلى مرِّي، لعنه الله، فلما دخل عليه سأله أن يخرج إلى باب الخيمة ففعل، فأراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له: أترى دخاناً في السماء؟ قال: نعم. قال: هذا دخان مصر، ما أتيت إلا وقد أحرقت بعشرين ألف قارورة نفط، وفرقت فيها عشرة آلاف مشعل، وما بقي فيها ما يؤمل بقاؤه ونفعه؛ فخلَّ الآن عنك مدافعتي ومخاتلتي، وكوني كلما قلت لك انزل في مكان تقدمت إلى غيره، ومابقي لك إلا أن تترل القاهرة. فقال: هو كما تقول، ولابد من نزول القاهرة، ومعي فرنج من وراء البحر قد طمعوا في أخذها. ثم رحل فترل على القاهرة مما يلي باب البرقية نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام الجرخ تقع في خيمته؛ فقاتلوا البلد أياماً.
فلما تيقن شاور الضعف عدل إلى طريق المخادعة والمخاتلة، والمغاورة والمدافعة، إلى أن تصل عساكر الشام. فأنفذ شمس الخلافة إلى مري، لعنه الله تعالى، برسالة طويلة فيِّل بها في غاربه ودار من حواليه؛ وفي

ضمنها: "إن هذا بلد عظيم كبير وفيه خلق كثير، ولايمكن تسليمه ألبتة ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم، وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة. والرأي أن تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابي، وتحصِّل شيئاً أدفعه لك فيحصل لك عفواً". فاستقرت المصالحة على أربعمائة ألف دينار، وقيل ألفي ألف دينار، يعجل له منها مائة ألف دينار. فأجاب مري إلى ذلك وانعقدت الهدنة، وحلف مري، ورحل إلى بركة الحبش، وحمل شاور إليه مائة ألف دينار في عدة دفعات سوّف فيها الأوقات؛ ثم أخذ يمطله في الباقي انتظاراً لقدوم العساكر، ويوهم أنه يجمع لهم الأموال. فلم يشعر الفرنج إلا بهجوم عسكر الشام عليهم؛ فلما رأوهم رحلوا إلى بلبيس، ونزل أسد الدين بالمقس. ثم رحل ملك الفرنج ونزل على فاقوس واتبعه أسد الدين ونزل على بلبيس.

وكان لما اتصل بشاور وصول أسد الدين إلى صَدْر أنفذ شمس الخلافة إلى ملك الفرنج يستطلق له منه بعض المال؛ فصار إليه واجتمع به، وقال: قد قلَّ علينا المال. فقال ملك الفرنج: اطلب منه ما شئت قال: أشتهي أن تهب لي النصف. قال: قد فعلت. فقال شمس الخلافة: ما بلغني أن ملكا في مثل حالك وقدرتك علينا وهب مثل هذه الهبة لقرم هم في مثل حالنا. فقال ملك الفرنج: أنا أعلم أنك رجل عاقل وأن شاوراً ملك، وأنكما ما سألتماني أن أهبكما هذا المال العظيم إلاَّ لأمر قد حدث. فقال له: صدقت. هذا أسد الدين قد وصل إلى صدر نُصرة لنا، وما بقي لك مقام، وشاور يقول لك أرى لك أن ترحل ونحن باقون على الهدنة فإنه أوفق لك ولنا، وإذا حصل هذا الرجل عندنا أرضيناه من هذا المال بشئ وحملنا الباقي إليك متى قدرنا، وإن نحن أخرجنا في رضاهم أكثر من هذا المال عدنا عليك بما يبقى علينا من المقدار. فقال ملك الفرنج: أنا راضٍ بذلك وإن بقي على شئ حملته إليكم؛ وعول على الرحيل؛ فقال له: بعد أن تطلق طيَّ ابن شاور وجميع من في عسكرك من الأسارى ولا تأخذ من بلبيس بعد انصرافك شيئاً. فأجابه إلى جميع ذلك.

ولما رحلت الفرنج عن القاهرة نزل أسد الدين بأرض يقال لها اللوق، وأخرج إليه شاور الإقامات الحسنة والخدم الكثيرة ولما اجتمعا قال شاور لاسد الدين: قد رأيت من الرأي أن أخرج أنا وأنت وأن ندرك الفرنج ونوقع بهم. فقال أسد الدين: هذا كان رأيي والفرنج على البر الغربي وليس لهم وزر، وأما الآن فلا، لأنهم على البر المتصل ببلادهم ونحن فقد خرجنا من البر في أسوأ حال من الضعف والتعب؛ وقد كفانا الله شرهم ونحن إلى الراحة والاستجمام أحوج.

ولما نزل أسد الدين باللوق أرسل له العاضد هدية عظيمة وخلعاً كثيرة، وأخرج إلى خدمته أكابر أصحابه. ثم إنه خرج إليه في الليل سراً متنكراً، واجتمع به في خيمته، وأفضى إليه بأمور كثيرة، منها قتل شاور، ثم عاد إلى قصره. وكان شاور قد رأى ليلة نزل أسد الدين على القاهرة كأنه دخل دار الوزارة

فوجد على سرير ملكه رجلا وبين يديه دواة الوزارة وهو يوقع منها بأقلامه، فسأل عنه، فقيل هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولما حصل أسد الدين بالديار المصرية وانفصل عنها الفرنج أمنت البلاد، وتراجع الناس إلى بيوتهم وأخذوا في إصلاح ما شعثه الفرنج وأفسدوه. وتقاطر الناس إلى خدمة أسد الدين فتلقاهم بالرحب والسعة وأحسن إليهم.

وأما شاور فإنه أخذ في التودُّد إلى أسد الدين والتقرب إلى قلبه بجميع ما وجد السبيل إليه، وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة، حتى استحوذ على قلبه،زنوى تبقيته في ملكه وصفا له قلبه حتى نفذ اليه سرا:احرس نفسك عن عساكر الشام.

واما عسكر الشام فانهم لما رأوا طيب بلاد مصر وكثرة خيرها وسعة اموالها تافت اتفسهم الى الاقامة بها،واختاروا سكناها ، ورغبوا فيها رغبة عظيمة ؛فقوى الطمع اسد الدين في الاستيلاء بملكها، ثم علم انه لا يتم ذلك وشاور باقٍ فيها ،فأخذ في اعمال الحيلة عليه وكان العاضد قد تقدم اليه بقتله ؛ فجمع اصحابه وشاورهم في امر شاور ، وقال لهم:قد علمتم رغبتي في هذه البلاد ومحبتي لها وحرصي عليها، لا سيما وقد تحققت ان عند الفرنج منها ما عندي، وعلمت انهم قد كشفوا عورتها ، وعلموا مسالك رقعتها، وتيقنت اني متى خرجت منها عادوا اليها واحتَوُا عليها؛وهي معظم دار الاسلام وحلوبة بيت مالهم؛ وقد قوى عندي ان اثب عليها قبل وثوبهم، واملكها قبل مملكتهم ، واتخلص من شاور الذي يلعب بنا وبهم ، ويغرنا ويغرهم، ويضرب بيننا و بينهم ؛ وقد ضيع اموال هذه البلاد في غير وجهها، وقَّوى بها الفرنج علينا ؛ وما كل وقت ندرك الفرنج ونسبقهم الى هذه البلاد التي قد قل رجالها وهلكت ابطالها .فتنخلت الاراء بين الامراء انه لا يتم لهم امر الا بعد القبض على شاور؛وتفرقوا على ايقاع القبض عليه.

وكان شاور يركب في الابهة العظيمة،والعدة الحسنة، والالة الجميلة على عادتهم الاولى.وكان من جملة قواعدهم ان الوزير اذا ركب حمل في موكبه الطبل والبوق.وكان شاور قليل الركوب، فجعل الامراء يترصدونه .ورأى اسد الدين قبل قبض شاور بليلة كأن شاور داخل اليه داره، وناوله سيفه وعمامته ؛فتأوله اسد الدين بالقبض عليه واخذ منصبه.

ثم ان شاورا ركب يوما في ابهته وجلالته ،فلما عاينه الامراء هابوه واحجموا عنه ، وكان يوما عظيما الضباب؛ وكان خروج شاور من باب القنطرة للسلام على اسد الدين ؛فتقدم صلاح الدين فسلم عليه ودخل في موكبه ، ثم سايره ، ثم مد يده الى تلابيبه وصاح عليه فرجَّله.ولما رأى ذلك عسكر الشام قويت

عزماتهم ووقعوا في عسكر شاور فنهبوا ما كان مع رجاله،وقتلوا منهم جماعة، وحمل الملك الناصر شاورا راجلا الى خيمة لطيفة واراد قتله، فلم يمكنه قتله دون مشاورة اسد الدين.وفي الحال ورد على اسد الدين توقيع من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاور ، فأنفذ التوقيع الى صلاح الدين فقتله في الحال، وانفذ رأسه الى القصر.وبلغ الكامل بن شاور قتل ابيه فهرب الى القصر وخلع العاضد على اسد الدين وقلده الوزارة ، وانفذ اليه فضة فيه رأس الكامل بن شاور ورؤوس اولاد اخوته.

ولما خرج منشور الوزارة الى اسد الدين امر بقراءته على رؤوس الاشهاد وفرح به غاية الفرح ، واعيدت قراءته عليه عدة دفعات استحسانا لمعانيه،واستظرافا لما اودع من بدائع الكلام فيه.

قال،ولما اتصل بنور الدين فتح الديار المصرية فرح بذلك فرحا شديدا،وواصل الحمد والثناء على الله تعالى اذ كان في زمنه وعلى يده؛وامر بضرب البشائر في جميع ولايته وتزيين جميع بلاده؛وجلس الهنا بذلك ، وانشده الشعراء في فتحها عدة اشعار.غير انه لما اتصل به ان اسد الدين وزر للعاضد واستبد بالامر في ذلك الصقع امضه ذلك واقلقه، وظهرت في مخايل قسماته وفلتات كلماته الكراهة، واخذ في الفكرة في امره وسهر له ليالي،وافضى بسره الى مجد الدين بن الداية.حدثني جماعة عن شمس الدين على بن الداية، اخي مجد الدين، وحدثني الموفق محمود بن النحاس الفقيه الحلبي وقد جرى ذكر فتح مصر وان نور الدين ابتهج به، فقال:والله ما ابتهج به، لقد كان وده الا يفتح والا يصير اسد الدين وصلاح الدين الى ما صارا اليه.ولقد ظهرت الكراهية منه لذلك في الفاظه ووجهه.ولقد اعمل الحيلة في افساد امر اسد الدين وصلاح الدين فما تهيأ له، لا سيما يوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر، فأنه اقام ثلاثة ايام لا يقدر احد ان يراه؛واهتم لذلك حتى افضى عليه الهم، ولو لم يكن الفتح اليه منسوبا، وعليه فضله محسوبا ،لما صبر على مل جرى، ولا اغضى للملك الناصر على القذى.ولقد كاتب العاضد عدة دفعات في امر الاسد والصلاح، فلم يحصل له فيهما النجاح ، وكثيرا ما يوجد في كتب نور الدين الى العاضد التعريض بانفاذ اسد الدين، ولو امكنه المجاهرة بالقول لقال.

فمن بعض مكاتباته :" وقد افتقر العبد الى بعثته،واعوز عسكره يُمن نقيبته، واشتد حزب الضلال على المسلمين لغيبته،لانه ما يزال يرمي شياطين الضلال بشهابه الثاقب، ويُصمي معقل الشرك بسهمه النافذ الصائب".

قلت:لعل نور الدين رحمه الله انما اقلقه من ذلك كون اسد الدين وزر للعاضد فخاف من ميله الى القوم والى مذهبهم ،وان يفسد جنده عليه بذلك السبب.هذا ان صح ما نقله ابن ابي طي، والله اعلم.

قال:وكان اسد الدين لما ولى الوزارة لم يتغير على احد شيئا، واجرى اصحاب مصر على قواعدهم

وامورهم، الى ان انقضت ايامه،وفنيت اعوامه.

وكان قرما يحب اكل اللحوم ويواظب عليه ليلا ونهارا، فتواترت عليه التخم، واتصلت به مرضاته،الى ان ظهرت بحلقه خوانيق كان فيها تلافه.ويقال انه اكل في ذلك اليوم مضيرة ودخل الحمام، فلما خرج منها اصابه الخناق.

قال:وكان شجاعا،بارعا،قويا،جلدا في ذات الله شديدا على الكفار وطاته، عظيمة في ذات الله صولته،عفيفا ديناً،كثير الخير.وكان يحب اهل الدين والعلم ،كثير الايثار،حدبا على اهله واقاربه.وكان فيه امساك ،وخلف مالا كثيرا، وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئا كثيرا، وخلف جماعة من الغلمان ، خمسمائة مملوك، وهم الاسدية.

وهو كان مشيد قواعد الدولة الشاذية والمملكة الناصرية، وكان ابتداء امره يخدم مع صاحب تكريت على اقطاع مبلغه تسعمائة دينار، وتنقل الى ان ملك الديار المصرية.وعقد له العزاء بالقاهرة ثلاثة ايام.

قلت:اليه تنسب المدرسة الاسدية بالشرف القبلي ظاهر دمشق ، وهي المطلة على الميدان الاخضر؛وهي على الطائفتين الشافعية والحنفية، والخانقاه الاسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين.

قال ابن ابي طي:وساعة وفاته وقع الاختلاف فيمن يولي الوزارة بين العسكر الشامي ،ومالت الاسدية الى صلاح الدين.وفي تلك الساعة انفذ العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة،فأرشد من جماعة من الامراء الى شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين، فأنفذ اليه واحضره وخاطبه في تولي الوزارة، فأمتنع من ذلك، واشار بولاية الملك الناصر.

وكان الحارمي اولا قد رغب في الوزارة وتحدث فيها، وحصل ما يحتاجه ،فلما رأى مزاحمة عين الدولة بن ياروق وغيره عليها خاف ان يشتغل بطلبها فيفوته، وربما فاتت صلاح الدين فأشار به لانها اذا كانت في ابن اخته كانت في بيته.

وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع،واعجبه عقله وسداد رأيه، وشجاعته، واقدامه على شاور في موكبه، وانه قتله حين جاءه امره و لم يتريث ولا توقف.فسارع الى تقليده الوزارة، وما خرج شهاب الدين الحارمى من حضرة العاضد الا وخلع الوزارة قد سبقت الى الملك الناصر.

وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تِنِّيسي بطرز ذهب وثوب دبيقي بطراز ذهب ،وجبة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب، وطليسان دبيقي ذهب، وعقد جوهر قيمته الاف دينار، وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة الاف دينار، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية الاف دينار لم يكن بالديار المصرية اسبق منها، وطوق، وتخت وسرفسار ذهب مجوهر ، وفي رقبة الحر مشدة بيضاء ، وفي رأسها مائتا حبة

جوهر ، وفي اربع قوائم الفرس اربع عقود جوهر، وقصبة ذهب في رأسها طالعة مجوهرة، وفي رأسها مشدة بيضاء بأعلام ذهب، ومع الخلعة عدة بقج، وعدة من الخيل ، واشياء اخر؛ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب اطلس ابيض.

وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادي الاخرة، سنة اربع وستين وخمسمائة؛ وقرئ المنشور بين يدي الملك الناصر يوم جلوسه في دار الوزارة ؛وحضر جميع ارباب الدولتين المصرية والشامية ؛وكان يوما عظيما.

وخلع السلطان على جماعة الامراء والكبراء ،ووجوه البلد، وارباب دولة العاضد،وعمَّ الناس جميعهم بالهبات والصلات.

ولما استقرت قدمه في الوزارة والرياسة قام في الرعية مقام من قام بالشريعة والسياسة، ونظم بحسن تدبيره من الدولة بددها،وجرى في مناهج العدل على جددها،وحَيُعَلَ الى وجوده وفضله، ونادى الى رفده بذله؛ وكاتب الأطراف بما صار إليه من السلطان، وسر قلوب الأصدقاء والأحباب بما حصل عليه من شريف الرتبة والمكان؛ واستدعى إلى حوزته الأصحاب والأهل، وروَّي بفسيح كرمه مَنْ بعد منه وقرب من أهل الفضل؛ وتاب من الخمر وعدل عن اللهو، وتيقظ للتدبير وسها عن السهو، وتقمص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشرع المبين؛ وشمر عن ساق الجد والاجتهاد، وأفاض على الناس من كرمه وَجُود جوده شآبيب فضله الغائب عن العهاد؛ وورد عليه القصاد والزوار، وأُمَّ بنفائس الخطب وجواهر الأشعار.

حدثني بعض الأمراء قال: أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر وأحبه محبة عظيمة، وبلغ من محبته له أنه كان يدخل إليه القصر راكباً، فإذا حصل عنده أقام معه في قصره اليوم والعشرة لايعلم أين مقره.

قال: ولما استولى الملك الناصر على الوزارة، ومال إليه العاضد، وحكَّمه في ماله وبلاده، حسده من كان معه بالديار المصرية من الأمراء الشامية، كابن ياروق وجرديك وجماعة من غلمان نور الدين. ثم إنهم فارقوه وصاروا إلى الشام.

وحدثني أبي رحمه الله تعالى قال: حدثني جماعة من أصحاب نور الدين أن نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين ووزارة صلاح الدين وما قد انعقد له من المحبة في قلوب الرعايا أعظم ذلك وأكبره، وتأفف منه وأنكره، وقال: كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري! وكتب في ذلك عدة كتب، فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله، إلا أنه لم يخرج عن طاعته وأمره، وأنه ما فارق قبول رأيه وإشارته. وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه، وطلب منه حساب مصر وما صار إليه.

وكان كثيراً ما يقول: ملك ابن أيوب! قلت: هذا كله مما تقتضيه الطباع البشرية والجبلة الآدمية. وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك، إلا من عصم الله، ومن أنصف عذر، ومن عرف صبر. والذي

أنكره نور الدين هو إفراط صلاح الدين في تفرقة الأموال واستبداده بذلك من غير مشاورته؛ هذا مع أن ابن أبي طيّ متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لايليق به، فإن نور الدين رحمه الله كان قد أذل الشيعة بحلب وأبطل شعارهم وقوى أهل السنة؛ وكان والد ابن أبي طي من رؤس الشيعة فنفاه من حلب. وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طي في كتابه مفرقاً في مواضع، فلهذا هو في الكتاب الذي له كثير الحمل على نور الدين رحمه الله، فلا يُقبل منه ما ينسبه إليه مما لايليق به. والله أعلم.

قال: ولما ملك الملك الناصر مصر انتزع نور الدين حمص والرحبة من ناصر الدين ابن أسد الدين، وفرق عماله وأعطاه تل باشر ثم أخذها منه؛ ولقد كان يتألم لملك الملك الناصر. ويقال إنه لما مرض قال: ما أخطأت إلا في إنفاذي أسد الدين إلى مصر بعد علمي برغبته فيها، وما يحزنني شئ كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب. ثم التفت إلى أصحابه فقال: إذا أنا مت فصيروا بابني إسماعيل إلى حلب فإنه لايبقى عليه غيرها.

قال ابن أبي طي: ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضه، غير أنه يلقاها بصدر رحب، وخلق عذب. حدثني أبي عن ابن قاضي الدهليز، وكان من خواص الملك الناصر، قال: جرى يوماً بين يدي السلطان ذكر نور الدين فأكثر الترحم عليه، ثم قال: والله لقد صبرت منه على مثل حزّ المدى ووخز الإبر، وما قدر أحد من أصحابه أن يجد عليّ ما يعتده ذنباً؛ ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً أن يجد لي هفوة يعتدها عليّ فلم يقدر. ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي على الأشياء التي لايصبر على مثلها لعليَّ أتضرر أو أتغير، فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوماً قط.

قلت: وقد وقفت على كتاب بخط نور الدين رحمه الله يشكر فيه من صلاح الدين رحمه الله تعالى، وذلك ضد ما قاله ابن أبي طي. كتب نور الدين ذلك الكتاب إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون رحمه الله وهو بحلب ليوليه قضاء مصر. صورته: حسبي الله وكفى. وفق الله الشيخ الإمام شرف الدين لطاعته وختم له بخير. غير خافٍ عن الشيخ ما أنا عليه وفيه، وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين، وما يقربني إلى الله، والله ولي التوفيق، والمطلع على نيتي. وأنت تعلم نيتي كما قال عز من قائل: "وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ_. أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار، التي جعلها الله تعالى دار إسلام بعد ما كانت دار كفر ونفاق؛ فلله المنة والحمد. إلا أن المقدم على كل شئ أمور الدين التي هي الأصل، وبها النجاة؛ وأنت تعلم أن مصر وإقليمها ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع، وما تُدخر الدموع إلا للشدائد، وأنا ماكنت أسخى ولا أشتهي مفارقتك. والآن فقد تعين عليك وعليّ أيضاً

أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت، ولا أقدر أولي أمولها ولا أقلدها إلا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله. فيجب عليك، وفقك الله، أن تشمر عن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقربك إلى الله. وقد برئت ذمتي، وأنت تحاوب الله. فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي، وفقه الله، فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي. وقد كتبت هذا بخطي حتى لايبقى عليّ حجة. تصل أنت وولدك عندي حتى أسيركم إلى مصر والسلام. بموافقة صاحبي واتفاق منه صلاح الدين، وفقه الله، فأنا منه شاكر كثير كثير، جزاه الله خيراً وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم، ومنفعة لأهل الإسلام. الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

قال ابن أبي طيّ: وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم: ما يستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار؛ فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابة سجل به من ديوان الإنشاء، وأنفذ إلى سائر أعمال مصر يُقرأ على المنابر. وعرض عليه سياقه جرائد الدوواين في جهات المستخدمين والمعاملين لعدة سنين متقدمة، آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف أردب غلة، فسامح في جميع ذلك، وأبطله من الدواوين، وأسقطه عن المعاملين. وأنهى إليه ما يستأدي من الحجاج بالحجاز المحروس من المكوس، فأنكره وأكبره، وعوض عنه بعدة ضياع؛ فأغاث أهل الحجاز بما أوسعهم من العين والغلة يطول شرحها.

قلت: وسيأتي كل ذلك في موضعه. ونسخة منشور إسقاط المكوس في أخبار سنة سبع وستين، وذلك بإشارة نور الدين رحمه الله، وفي أيامه.

فصل

ذكر العماد في ديوانه قصيدة يمدح بها نور الدين ويهنئه بملك مصر، ولم يذكرها في كتاب البرق. منها:

بملك مصر أهني مالك الأمم ... فاسعد وأبشر بنصر الله عن أَمم

أضحى بعدلك شمل الملك ملتئما ... وهل بعدلك شئ غير ملتئم

يافاعل الخير عن طبع بلاكلف ... ومُولى العرف عن خلق بلا سأم

ووامقاً ثلم ثغر الكفر تعجمه ... لا لثم ثغر شنيب واضح شم

لله درك نور الدين من ملك ... بالعزم مفتتح بالنصر مختتم

آثار عزمك في الإسلام واضحة ... وسره لك باد غير مكتتم

بما من العدل والإحسان تنشره | تخاف ربك خوف المذنب الأثم
أوردت مصر خيول النصر عادمة | ثني الأعنة إقداماً على اللجم
فأقبلت في سحاب من ذوابلها | وقضبها بدماء الهام منسجم
تمكن الرعب في قلب العدو بها | تمكن النار بالإحراق في الفحم
سرت لتقطع ما للكفر من سبب | واهٍ، وتوصل ما للدين من رحم
مستسهلات وعور الطرق في طلب ال | علياء، مقتحمات أصعب القحم
وجاعلات من الإفرنج غلَّهم | والقيد في موضع الأطواق والحزم
لقد شفت غلة الإسلام وانتقمت | من العدو بحد الصارم الحَذِمِ
أعانها الله في إطفاء جمر أذى | من شر شاور في الإسلام مضطرم
وأصبحت بك مصر بعد خيفتها | للأمن والعز والإقبال كالحرم
والسُّنة اتسقت، والبدعة انمحقت | وعاودت دولة الإحسان والكرم
ملوكها لك صاروت أعبداً، وغدا | بها عبيدك أملاكا ذوي حُرم
أنَبْت عنك بها قرما ينوب بها | في البأس عن عنتر، في الجود عن هرم
لله درك نور الدين من ملك | عدلٍ لحفظ أمور الدين ملتزم
كانت ولاية مصر قبل عزتا | بكشف دولتها لحماً على وضم
فالنيل ملتطم، جار على خجل | جاراً لبحر نوال منك ملتطم
أُغْزُ الفرنج، فهذا وقت غزوهم | واحطم جموعهم بالذابل الحطِمِ
وطهر القدس من رجس الصليب وثبِ | على البغاث وثوب الأجدل القطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما | في عِقد عز من الإسلام منتظم
محمود، الملك الغازي، يسوسهما | بالفضل، والعدل، والإفضال، والنعم
بالشكر كل لسان ناطق أبداً | محمودُ الملك محمود بكل فم
فأشك مصر وأظهر عز سنتها | كم تقتفي، وإلى كم تشتكي، وكم

ولعلم الدين الشاتاني في نور الدين رحمه الله:

مانال شأوَك في المعالي سنجر كلا، ولاكسرى، ولا الإسكندر
يا خير من ركب الجياد، وخاض في لجج المنايا والأسنة تقطر
هل حاز غيرك ملك مصر، وصار من أتباعه مَن جده المستنصر
والمستضي بالله معتد به وبجده، وبحده مستظهر
أو سدَّ بالشام الثغور محامياً للدين حتى عاد عنها قيصر
يبكي فيروي الأرض بحر دموعه والجو من أنفاسه يتسعر
أوما أبوك بسيفه فتح الرُّها والأسد تقتنص الكماة وتزأر
هابت ملوك الأرض بأس كماتها فتقاعدوا عن قصدها وتأخروا
ما ضره طيُّ المنية ذاته وصفاته بين البرية تنشر
فلكم على كل الملوك مزية لوقائع مشهورة لاتنكر
وإذا عددنا للأنام مناقباً فعليك قبل الكل يثني الخنصر
في الرأي قيس، في السماحة حاتم في النطق قس، في البسالة حيدر
دانت لك الدنيا وأنت تعافها وسواك في آماله يتعثر
من ذا يصون الصين عنك وأنت من أسد الشرى منه تخاف وتحذر

قال العماد: وأنفذ صلاح الدين من مصر خلعاً لجماعة من الأعيان، وأنفذ للعماد عمامة ملبوسة، فكتب إليه قصائد في هذا المعنى، منها:

يا صلاح الدين الذي أصلح الفا سد بالعدل من خطوب الزمان
أنت أجريت نيل مصر إلى الشا م نوالاً، أم سال نيل ثاني!
وعلى نيلها لكفيك فضل فهما بالنضار جاريتان
وصلت أعطياتك الغر غزراً فتلقت آمالنا بالتهاني

خلع راقت العيون ورقت وعلا وصفها عن الإمكان
مذهبات كأنها خلع الرض وان قد أهديت لأهل الجنان
مشرقات بطرزها الذهبيا ت الحسان الرفيعة الأثمان

فالعمامات كالغمامات، والطرو ... ز بروق كثيرة اللمعان

والموالي بها من التيه والفخ ... ر على الدهر ساحبو الأردان

كيف خُص العماد بالأدْوَن المخْ ... لَق من دون عصبة الديوان

أخليقُ من نسجه لك في المد ... ح جديدُ بأمهن الخلقان!

وكذا عادة الليالي: تخص ال ... فاضل المستحق بالحرمان

لم تزل سائرات جودك بالشا ... م لديه غزيرة التهتان

فإذا لم تزده مصر كمالا ... في المنى فاحمه من النقصان

وكتب إلى فخر الدين أخي صلاح الدين قصيدة، منها:

عبدك شمس الدولة المرتجى ... منتظر تشريفك المذهبا

فاعتب صلاح الدين لي حالتي ... عساه بالإصلاح أن يعتبا

عرِّفه ما ثمَّ، فإني أرى ... من فضله للفضل أن يغضبا

وكيف يرضى ذاك بعض الرضا ... ومجده يأباه كل الإبا

وقل له: جاءته ملبوسةً ... تخلفت من تُبَّع في سبا

عمامة رقَّت ورثت، فما ... نشرتها إلا وطارت هبا!

قال: فوصل إليّ من صلاح الدين عمامة مذهبة، وكتب يعتذر عن العمامة التي قبلها. وكتب إلى سعد الدين كمشتكين كتاباً يقول قيه: استعير لسانه في الاعتذار إلى العماد فإني أستقل لمرامه إرم ذات العماد.

فكتب العماد:

أما العماد فقد تضاعف شكره ... نعماك، شكر الروض نُعمى الصَّيِّب

لعمامة ذهبية كغمامة ... يبدو بها برق الطراز المغربي

ماكان أحسن حاله لو أنه ... شُفعت عمامته بثوب مذهب

قال: وكتب إليه:

أهني الملك الناصِ ... رَ بالملك وبالنصر

وما مهد من بنيا ... ن دين الحق في مصر

وما أسداه من برّ ... بلا عدٍ ولا حصر

وما أحياه من عدل وما خففه من إصر
وإعلاء سنا السن ة في بحبوبة القصر
قد استولى على مصرٍ بحق يوسف العصر
وأحيا سنة الإحسا ن في البدو وفي الحضر

وكتب إليه الأمير أسامة بن منقذ من قصيدة يقول:

ديارَ الهوى حيًّا معالمك القطر وجادك جود الناصر الغدق الهمر
به رجعت في عنفوان شبابها ونضرتها من بعد ما هرمت مصر
وكم خاطبٍ ردته لم يك كفئها إلى أن أتاها خاطب سيفه المهر
حماها حمى الليث العرين، وصانها كما صان عيناً من مُلِمٍّ القذي شفر
وكان بها بحر أجاج، فأصبحت ومن جوده العذب النمير بها بحر

وله فيه من أخرى:

فما أنت إلا الشمس، لولاك لم تزل على مصر ظلماء الضلالة سرمدا
وكان بها طغيان فرعون لم يزل كما كان لما أن طغى وتمردا
فبصَّرتهم بعد الغواية والعمى وأرشدتهم بعد الضلال إلى الهدى

وله فيه من أخرى:

قل للملوك: تزحزحوا عن ذروة ال علياء للملك الهمام الناصر
يعطي الألوف ويلتقيها باسما طلق المحيا في القنا المتشاجر

وقرأت في ديوان العَرْقلة: وقال في المولى الملك الناصر وقد أنفذ له من ديار مصر ذهباً ولغيره سلاما:

صلاح الدين قد أصلحت دنيا شقي لم يبت إلا حريصا
وأرسلت السلام لنا عموما وجودك جاءني وحدي خصوصا
فكنت كيوسف الصديق لما تلقى منه يعقوب القميصا

وكان العرقلة من جملة المتردّدين إلى صلاح الدين أيام كونه بدمشق، فلما صار إلى مصر وعد أنه متى ملكها أعطاه ألف دينار. فلما تم أمره بمصر كتب إليه العرقلة قصيدة منها:

إليك صلاح الدين مولاي أشتكي زماناً على الحُر الكريم يجور

تُرى أُبصر الألف التي كنت وَاعدي		بها في يدي قبل الممات تصير
وهيهات والإفرنج بيني وبينكم		سياجُ قتيل دونه وأسير
ومن عجب الأيام أنك ذو غنى		بمصر، ومثلي بالشآم فقير

وقال أيضاً:

قل للصلاح مُعيني عند إعساري		يا ألفَ مولايَ أين الألفُ دينارُ؟
أخشى من الأسر إن حاولت أرضكم		وما تفي جنة الفردوس بالنار
فجد بها عاضِدِيَّاتٍ مسطرة		من بعض ما خلف الطاغي أبو الطاري
حمراً كأسيافكم، غرا كخيلكمُ		عُتْقاً ثقالا كأعدائي وأطماري

وأنفذ له من مصر عشرين ألف دينار. فقال:

يامالكا ما برحت كفه		تجود بالمال على كفي
أفلح بالعشرين من لم يزل في		رأس عشرين من الكهف
ياألف مولاي ولكنها		محسوبة من جملة الألف

وذكر العماد في الخريدة أن العرقلة قصد صلاح الدين إلى مصر فأعطاه ذلك، وأخذ له من إخوته مثله؛ فعاد إلى دمشق وهو مسرور مجبور، وكان ذلك ختام حياته. ودنا أجل وفاته فمات بدمشق في سنة ست، أو سبع، وستين وخمسمائة.

قلت: وفي ديوانه ما يدل على قدومه مصر، فإن فيه: وقال: وكتبها على حمام عمَّرها المولى الملك الناصر بديار مصر:

ياداخل الحمام هُنئتها		دائرة كالفلك الدائر
تأمل الجنة قد زُخرفت		وعمرت للملك الناصر
كأنما فيض أنابيبها		نداه للوارد والصادر

فصل

في قتل المؤتمن بالخرقانية، ووقعة السودان بين القصرين، وغير ذلك.

قال العماد: وشرع صلاح الدين في نقض إقطاع المصريين، فقطع منهم الدابر من أجل من معه من العساكر. وكان بالقصر خصي، يدعى بمؤتمن الخلافة، متحكم في القصر، فأجمع هو ومن معه على أن

يكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الأسدية والصلاحية، لأن صلاح الدين يخرج إلى الفرنج بمن معه، فيؤخذ مَن بقي من أصحابه بالقاهرة، ويُتبع من ورائهم، فتكون عليهم الدائرة فكاتبوا الفرنج؛ واتفق أن رجلا من التركمان عبر البئر البيضاء فرأى مع إنسان ذي خلقان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي، فأنكرهما، فأخذهما، وجاء بهما إلى صلاح الدين، ففتقهما، فوجد مكاتبة للفرنج فيهما من أهل القصر، يرجون بحركتهم حصول النصر. فأخذ الكتاب وقال: دلوني على كاتب هذا الخط؛ فدلوه على يهودي من الرهط. فلما أحضروه ليسألوه، ويعاقبوه على خطه ويقابلوه، نطق بالشهادة قبل كلامه، ودخل في عصمة إسلامه؛ ثم اعترف بما جناه، وشيده من الأمر وبناه، وأن الآمر به مؤتمن الخلافة، وأنه برئ من هذه الآفة. فحسن لدى السلطان إسلامه، وثبت اعتصامه، وعرف استسلامه، ورؤى إخفاء هذا السر واكتتامه. واستشعر الخصيّ العَصِيّ، وخشى أن تسبقه على شق العصا العِصيّ؛ فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج لم يبعد مسافة؛ وصلاح الدين عليه مغضب وعنه مغض، لايأمر فيه ببسط ولاقبض؛ إلى أن استرسل واستبسا، فظن أن ما نسله من الشر العقيم فصل. وكان له قصر في قرية يقال لها الخرقانية لخُرقه، ورقع ما يتسع عليه من خرقه، وهو بقرب قليوب؛ فخلا فيه يوماً للذته، ولم يدر أنه يوم ذلته، وانقضاء ساعاته بانقضاء دولته؛ فأنهض إليه صلاح الدين من أخذ راسه، ونزع ما جاء به لباسه، وذلك يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة أربع؛ فورد موارده مِن رَداه على أدون مشرع.

قال: ولما قتل غار السودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً. وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه، واجتاحوه وأذلوه، واستباحوه واستحلوه؛ فحسبوا أن كل بيضاء شحمة، وأن كل سواد فحمة. مثار أصحاب صلاح الدين إلى الهيجاء، ومقدمهم الأمير أبو الهيجاء؛ واتصلت الحرب بين القصرين، وأطاحت بهم العسكرية من الجانبين، ودام الشر يومين، حتى أحس الأساحم بالحَيْن وكلما لجئوا إلى محلة أحرقوها عليهم، وحوَوْا ما حواليهم، وأخرجوا إلى الجيزة، وأذلوا بالنفي عن منازلهم العزيزة؛ وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة، فما خلص السودان بعدها من الشدة؛ ولم يجدوا إلى الخلاص سبيلا، وأينما وقفوا أُخذوا وقتِّلوا تقتيلا.
وكانت لهم على باب زويلة محلة تسمى المنصورة، وكانت بهم المعمرة المعمورة، فأخلى بنيانها من القواعد فأصبحت خاوية، ثم حرثها بعض الأمراء واتخذها بستاناً، فهي الآن جنة لها ساقية.
قال: وكان قد وصل إلى صلاح الدين قبيل هذه النوبة أخوه الأكبر، فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أنفذه إليه نور الدين من دمشق يشد أزره بمصر، لما سمع حركة الفرنج وأهل القصر، فوصل القاهرة في ثالث ذي القعدة. قال: وباشر بنفسه وقعة السودان هذه، وكان له فيها أثر عظيم.

ومن عجيب ما اتفق أن العاضد كان يتطلع من المنظرة يعاين الحرب بين القصرين، فقيل إنه أمر مَنْ بالقصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة ففعلوا؛ وقيل إن ذلك كان من غير اختياره. فأمر شمس الدولة الزراقين بإحراق منظرة العاضد، فهمَّ أحد الزراقين بذلك، وإذا بباب المنظرة قد فتح وخرج منه زعيم الخلافة وقال: أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول: دونكم والعبيد الكلاب، أخرجوهم من بلادكم. وكانت العبيد مشتدة الأنفس بأن العاضد راضٍ بفعالهم، فلما سمعوا ذلك فُتَّ في اعضادهم، فجبنوا وتخاذلوا وأدبروا.

ومما كتبه العماد على لسان غيره إلى صلاح الدين قصيدة منها:

بالملك الناصر استنارت — في عصرنا أوجه الفضائل

عليّ من حقه فروض — شكراً لما جاد من نوافل

يوسف مصر الذي إليه — تشد آمالنا الرواحل

أجريت نيلين في ثراها: — نيل نجيع ونيل نائل

وما نفيت السودان حتى — حكَّمت البيض في المقاتل

صيرت رحب الفضاء ضيقاً — عليهم كفة لحابل

وكل رأي منهم كراء — وأرض مصر كلام واصل

وقد خلت منهم المغاني — وأقفرت منهم المنازل

وما أصيبوا إلا بَطلّ — فكيف لو أمطروا بوابل

والسود بالبيض قد أبيحوا — فهي بَوَازٍ بهم نوازل

مؤتمن القوم خان حتى — غالته من شره غوائل

عاملكم بالخنا، فأضحى — ورأسه فوق رأس عامل

يا مخجل البحر بالأيادي — قد آن أن تُفتح السواحل

فقدِّس القدس من خباث — أرجاس كفر غُتم أراذل

قال العماد: ومما مدحت به صلاح الدين في ذلك التاريخ تهنئة له بالملك وتعزية بعمه:

أيا يوسف الإحسان والحسن، خير من — حوى الفضل والإفضال والنهي والأمرا

ومن للهدى وجه النجاح برأيه — تجلَّى، وثغر النصر من عزمه افترّا

حمى حوزة الدين الحنيف بحوزه — من الخالق الحسني ومن خلقه الشكرا

أبوه أبي إلا العلاء، وعمه بمعروفه عمَّ الورى: البدو والحضرا
وطال الملوك شيركوه بطوله وما شاركوه في العلا فحوى الفخرا
بنو الأصفر الإفرنج لاقوا ببيضه وسمر عواليه مناياهم حمرا
وما ابيضَّ يوم النصر واخضر روضه من الخصب حتى اسودَّ بالنقع واغبرَّا
رأى النصر في تقوى الإله، وكل من تقوَّى بتقوى اللهلايعدم النصرا
ولما رأى الدنيا بعين ملالة أغذَّ من الأولى مسيراً إلى الأخرى

وقام صلاح الدين بالملك كافلا وكيف ترى شمس الضحى تخلف البدرا
ولما صبت مصرُ إلى عصر يوسف أعاد إليها الله يوسف والعصرا
فأجرى بها من راحتيه بجوده بحاراً، فسماها الورى أنمْلا عشرا
هزمتم جنود المشركين برعبكم فلم يلبثوا خوفاً ولم يمكثوا ذعرا
وفرقتم من حول مصر جموعهم بكسر، وعاد الكسر من أهلها جبرا
وأمَّنتم فيها الرعايا بعدلكم وأطفأتم من شر شاورها الجمرا
بسفك دم حطتم دماء كثيرة وحزتم بما أبديتم الحمد والشكرا
وما يرتوي الإسلام حتى عذابها بأن تقسموا ما بينها القتل والأسرا
ولاتهملوا البيت المقدس، واعزموا على فتحه غازين، وافترعوا البكرا
تديمون بالمعروف طيِّب ذكركم وما الملك إلا أن تديموا لكم ذكرا
وإن الذي أثرى من المال مُقْترُ وإن يُفْنِه في كسب محمدة أثري

قال: وكثرت كتب صلاح الدين إلى أصدقائه مبشرةبطيِّب أنبائه. فمنها كتاب ضمه هذا البيت:

ما كنت بالمنظور أقنع منكم ولقد رضيت اليوم بالمسموع

فقلت في جوابه أبياتاً منها هذه:

ياهلْ لسالف عيشتي بفنائكم من عودة محمودة ورجوع
قد غبتم عن ناظري ما أذنت للقلب شمسُ مَرة بطلوع
كنتُ المشفَّع في المطالب عندكم فغدوت أطلب طيفكم بشفيع

أصبحت أقنع بالسلام على النوى وبقربكم كم بتُّ غير قنوع

قال: ووصل أيضاً منه كتاب ضمنه هذا البيت:

وأنثر در الدمع من قبل أبيضا وقد حال مذ بِنْتم فأصبح ياقوتا

فنظمت في جوابه أبياتاً منها:

هنيئاً لمصر حوز يوسف ملكها بأمر من الرحمن قد كان موقوتا

وما كان فيها قتلُ يوسف شاوراً يماثل إلا قتل داود جالوتا

وقلت لقلبي: أبشر اليوم بالمنى فقد نلتَ ماأملت، بل حزت ما شيتا

قال: وفي هذه السنة قتل العاضد بالقصر ابني شاور الكامل وأخاه، يعني الطاري، يوم الاثنين الرابع من جمادي الآخرة وذلك أنه لما قتل شاور عادوا في القصر، فكأنما نزلوا في القبر؛ فلو أنهم جاءوا إلى أسد الدين سلموا، وامتنعوا وعصموا، فإنه ساءه قتل شاور وإن كان أمن بقتله ماحاذر.

قلت: الكامل هو شجاع بن شاور، وكان له أخوان: طي تقدم ذكر قتل ضرغام له والآخر الطاري قال الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي السرور الروحي في تاريخه: أخذ ابنا شاور، شجاع الملقب بالكامل والطاري الملقب بالمعظم، وأخوه الملقب بفارس المسلمين؛ فقتلوا ودير برؤسهم.

قال: ولما وَلي صلاح الدين ساس الرعية وأظهر لهم من العدل ما لم يعلموه، فاجتمع أهل البلاد وكرهوه، فأوقع براجلهم وأخرجهم من القاهرة إخراجاً عنيفاً، وأخرج بعد ذلك فارسهم وشتت شملهم؛ "فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِما ظَلَمَوُا".

قال: ولما كانت سنة ست وستين رفع جميع المكوس صادرها وواردها، جليلها وحقيرها؛ وغزا بلاد الشام غزوتين.

قال ابن شداد: وفي المحرم من هذه السنة توفي ياروق الذي تنسب إليه الياروقة، يعني المحلة التي بظاهر حلب.

قال غيره: وفيها احترق جامع حلب وأسواق البز، وأخذ نور الدين في عمارته آخر السنة.

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

ففي أول صفر منها نزل الفرنج، خذلهم الله تعالى، على دمياط من الديار المصرية. قال ابن الأثير: كان فرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك، فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية

يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين؛ وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة؛ فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح، وأتعدوا على النزول على دمياط، ظناً منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديار مصر. فلما نازلوها حصروها، وضيقوا على من بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل، وحشر فيها كل من عنده، وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو له ماهو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلّفيه ومخلفيّ عسكره بالسوء، وخرجوا من طاعته، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه فجهز إليه نور الدين العساكر أرسالا، كلما تجهزت طائفة أرسلها؛ فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً. ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر فدخل بلاد الإفرنج فنهبها، وأغار عليها واستباحها، ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد عن ممانع. فلما رأى الإفرنج تتابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين بلادها، ونهبها وإخراجها، رجعوا خائبين و لم يظفروا بشئ؛ وهذا موضع المثل: ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين!، فوصلوا إلى بلادهم فأوها خاوية على عروشها.

وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً، أخرج منها صلاح الدين أموالاً لاتحصى حكى عنه أنه قال ما رأيت أكرم من العاضد: أرسل إليّ مدة مُقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها.

قال القاضي ابن شداد: لما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم وماتم للسلطان من استقامة الأمر في الديار المصرية علموا أنه يملك بلادهم ويخرب ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك فاجتمع الفرنج والروم جميعا وحدثوا نفوسهم بقصد الديار المصرية، والاستيلاء عليها وملكها، ورأوا قصد دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون إليه. فاستصبحوا المنجنيقات والدبابات والجروخ وآلات الحصار وغير ذلك. ولما سمع الفرنج بالشام ذلك اشتد أمرهم، فسرقوا حصن عكا من المسلمين، وأسروا صاحبها، وكان مملوكاً لنور الدين يسمى خطلخ العلمدار، وذلك في ربيع الآخر منها.

وفي رجب منها توفي العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه، وكان صاحب بعلبك وتدمر.

ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم، فنزل على الكرك محاصراً لها في شعبان من هذه السنة، فقصده فرنج الساحل، فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقعوا له. ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية بحلب في رمضان، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره، فعاد يطلب الشام، فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي ضربت كثيراً من البلاد، وكانت في ثاني عشر شوال من السنة المذكورة وهو بعشترا.

فسار يطلب حلب، فبلغه موت أخيه قطب الدين بالموصل؛ وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحجة، وبلغه الخبر وهو بتل باشر فسار ليلته طالباً بلاد الموصل.

ولما علم صلاح الدين شدة قصد العدو دمياط أنفذ إلى البلد وأودعه من الرجال والأبطال والفرسان والميرة والآت السلاح ما أمن معه عليه، ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر والآلات، وإزعاج العدو عنهم إن نزل عليهم، وبالغ في الهدايا والعطايا والهبات. وكان وزيراً متحكماً لايرد أمره في شئ. ثم نزل الفرنج عليها في التاريخ المذكور واشتد زحفهم عليها وقتالهم لها، وهو رحمه الله تعالى يشن الغارات عليهم من خارج، والعسكر يقاتلهم من داخل. ونْصرُ الله للمسلمين يؤيدهم، وحسن قصده في نصرة دين الله يسعدهم وينجدهم، حتى بان لهم الخسران، وظهر على الكفر الإيمان، ورأوا أنهم ينجون برؤسهم، ويسلمون بنفوسهم، فرحلوا خائبين خاسرين، فحرقت مجانيقهم، ونهبت الآتهم، وقتل منهم خلق عظيم، وسلم البد بحمد الله ومنّه.

وقال العماد: أقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه، ومدار فلكه، يُنهض إليها المدد بعد المدد، ويرسل إليها العدد بعد العدد، ويسهر ليله، ولايقيل نهاره، وقد أخلص لله سره وجهاره، ولاينام ولاينيم، وعنده من ذلك المُقْعِد المقيم. وسبق تقيّ الدين، ابن أخي السلطان، إلى دمياط فدخلها، وكذا خاله شهاب الدين محمود فترلها. واتَّصل الحصار، وتواصل الأنصار، ودب في الفرنج الفناء، وهب عليهم البلاء، فرحلوا عنها في الحادي والعشرين من ربيع الأول، بالذل الأكمل، والصغار الأشمل.

وكان لما وصل الخبر بوصولهم، واجتماعهم على دمياط ونزولهم، اغتم واهتم، واستصعب الملم، وأنهض من عنده عسكراً ثقيلاً مقدّضمه الأمير قطب الدين خسرو الهذباني، وكان مقداماً مقدّما، وهُماما مُعْلما، وأمره أن يسير بالعسكر، ويخوض بهم بحر العجاج الأكدر، فوصل في النصف من ربيع الأول قبل رحيل الفرنج بأسبوع، فوقع رَوْعه من الكفر في كل رُوع.

قُلت: وبلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بامر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرئ عليه جزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسُّم، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتَبَسَّم لتتم السلسلة، على ما عرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: إني لأستحيي من الله تعالى أن يراني متبسما والمسلمون محاصرون بالفرنج. وبلغني أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: أَعْلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال يا رسول الله ربما لايصدقني فاذكر لي علامة يعرفها، فقال: قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت: يارب انصر دينك ولاتنصر محموداً، من هو محمود

الكلب حتى ينصر!! قال: فانتهيت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه كان يترل إليه بغلس ولايزال يتركع فيه حتى يصلي الصبح، قال: فتعرضت له، فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب. فقال نور الدين رحمه الله تعالى: اذكر العلامة كلها؛ وألح علي في ذلك، فقلتها؛ فبكى رحمه الله وصدَّق الرؤيا. وأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

فصل

أرسل نور الدين كتاباً إلى العاضد صاحب القصر يهنيه برحيل الفرنج عن ثغر دمياط، وكان قد ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الأتراك في مصر خوفاً منهم، والاقتصار على صلاح الدين وألزمه وخواصه. فكتب إليه نور الدين يمدح الأتراك ويعلمه أنه مأأرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك فإن الفرنج لايرعبون إلا منهم، ولولاهم لزاد طمعهم في الديار المصرية، وتحصلوا منها على الأمنية، فلعل الله ييسر فتح المسجد الأقصى، مضافاً إليه نعمه التي لاتحصى. قلت: ولعمارة اليمني من قصيدة:

من شاكر، والله أعظم شاكر ... ماكان من نُعمى بني أيوب
طلب الهدى نصراً، فقال، وقد أتوا: ... حسبي، فأنتم غاية المطلوب
جلبوا إلى دمياط عند حصارهم ... عز القويِّ وذلة المغلوب
وجلوا عن الإسلام فيها كربة ... لو لم يجلُّوها أتت بكروب
فالناس في أعمال مصر كلها ... عتقاؤهم من نازح وقريب
إن لم تظن الناس قشراً فارغاً ... وهم اللباب، فأنت غير لبيب

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة يقول:

ولاغرو أن عاد الفرنج هزيمة ... ولو لم تعد لم يبق للشرك ساحل
فقد أيقنت أعداؤه أن حظهم ... لديه رماح أشرعت أو سلاسل
ولما أتوا دمياط كالبحر طامياً ... وليس له من كثرة القوم ساحل
يزيد عن الإحصاء والعد جمعهم ... ألوف ألوف خيلهم والرواحل
رأوا دونهم أسداً، بأيديهم القنا ... وبيضاً رقاقاً أحكمتها الصياقل

وداروا بها في البحر من كل جانب ومن دونها سد من الموت حائل

رجا الكلب، ملك الروم إذ ذاك، فتحها فخاف، فأم الملك والروم هابل
فعادوا على الأعقاب منها هزيمة كأنهم ذل انعام جوافل
وما أمّلوا أن يلحقوا ببلادهم لتعصمهم مما رأوه المعاقل

قال العماد: وسألني كريم الملك أن أعمل له أبياتاً في صلاح الدين تهنئة بالنصر في دمياط، فعملت قصيدة منها:

يايوسف الحسن والإحسان، ياملكا بجده صاعداً أعداؤه هبطوا
حللت من وسط العلياء في شرف ومركز الشمس من أفلاكها الوسط
هنيت صونك دمياط التي اجتمعت لها الفرنج فما حلوا ولا ربطوا
مصر بيوسفها أضحت مشرَّفة وكل أمر لها بالعدل منضبط
وحين وافى صلاح الدين أصلحها فللمصالح من أيامه نمط

قال العماد: ومما سيَّرته إلى صلاح الدين قصيدة منها:

كأن قلبي وحبَّ مالكه مصر وفيها المليك يوسفها
هذا بسلب الفؤاد يظلمني وهو بقتل الأعداء ينصفها
الملك الناصر الذي أبداً بعز سلطانه يُشرِّفها
قام بأحوالها يدبرها حسناً، واثقالها يخففها
بعدله والصلاح يعمرها وبالندى والجميل يكنفها
من دنس الغادرين يرحضها ومن خباث العدا ينظفها
وإن مصراً بملك يوسفها جنة خلد يروق زخرفها
وإنه في السماح حاتمها وإنه في الوقار أحنفها
يوسف مصر الذي ملاحمها جاءت بأوصافه تعرفها
كتب التواريخ لايزينها إلا بأيامه مصنفها
وحُطت دمياط إذ أحاط بها من برجوم البلاء يقذفها

لاقت غواة الفرنج خيبتها فزاد من حسرة تأسفها
أوردت قلُب القلوب أرشيةً من القنا للدماء تنزفها
وليتها سفكها فعاملها عاملها، والسنان مشرفها
يُمضي لك الله في قتالهم عزيمة للجهاد ترهفها

وله فيه من أخرى:

قد استقرت أموري فيه بحسب اقتراحي
كما استقر صلاح الدُّ نيا بملك الصلاح
تنير شمس أيادي ه في سماء السماح
وأمْرُه مستفاد من القضاء المتاح

وأرسله نور الدين إلى خلاط، ومتوليها حينئذ ظهير الدين سكمان المعروف بشاه أرمن. فلما كنت بماردين كتبت إلى بعض المعارف:

قد نزلنا في جوارك وحللنا قرب دارك
وسرينا في الدياجي فهدانا ضوء نارك
فتدارك أمرنا اليو م بطول متدارك
وتفردْ باغتنام الشُّ كر من غير مشارك

قال العماد: وفي هذه السنة خرج نور الدين إلى دارياً فأعاد عمارة جامعها، وعمر مشهد أبي سليمان الداراني، وشتَّى بدمشق.

فصل في مسير نجم الدين أيوب إلى مصر بباقي أولاده وأهله

وقد وصف ذلك عمارة في قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين، تقدم بعضها، يقول فيها:

صحَّت به مصر، وكانت قبله تشكو سقاماً لم يعن بطبيب
عجباً لمعجزة أتت في عصره والدهر ولاَّد لكل عجيب!
رد الإله به قضية يوسف نسقاً على ضرب من التقريب
جاءته إخوته ووالده إلى مصر على التدريج والترتيب
فاسعد بأكرم قادم، وبدولة قد ساعدتك رياحها بهبوب

قال العماد: لما دخل فصل النيروز وزاد استأذن الأمير نجم الدين أيوب نور الدين في قصده ولده صلاح الدين والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته وسبده ولبده، وخيَّم بظاهر البلد إلى أن بان وضوح جدده؛ وسار في حفظ الله تعالى، فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من رجب، وقضى صاحب القصر العاضدُ من حق قدومه ماوجب، وركب لاستقباله، وزاد إقبال البلاد بإقباله.

ولما عزم على التوجه إلى مصر شرع في تفريق أملاكه، وتوفير ماله في شركه على أشراكه، وما استصحب شيئاً من موجوده، وجعله نهبة لجوده.

قلت: ووقف رباطاً داخل الدرب بزقاق العونية بباب البريد.

ثم قال العماد: ولما نصب نجم الدين أيوب لقصد مصر مضاربه، وسحب للعلا على روض الرضا سحائبه، خرج نور الدين إلى رأس الماء بعسكره وخيامه، وأرهف للجد في الجهاد حد اعتزامه. ثم أقام بعد توديعه، والوفاء بحق تشييعه، إلى أن اجتمعت إليه عساكره، وحضر بادي جنده وحاضره، وعب بحره، وماح زاخره.

ثم توجهنا إلى بلاد الكرك مستهل شعبان، ونزلنا أياماً بالبلقاء على عَمّان، وأقمنا على الكرك أربعة أيام نحاصرها، ونصبنا عليها منجنيقين. فورد الخبر أن الفرنج قد تجمعوا ووصلوا إلى ماعين، فقال نور الدين: نرى أن نعطف أعنتنا وبالله نستعين، فإنا إذا كسرناهم وقسرناهم، وقتلناهم وأسرناهم، أدركنا المراد، وملكنا البلاد. فرحلنا إليهم فولوا مدبرين حين سمعوا برجوعنا، وقالوا رحيلهم عن الحصن قد حصل وهو مقصودنا. وعاد نور الدين إلى حوران فخيم بعشترا وصام رمضان.

وقال ابن الأثير: كان سبب حصر نور الدين الكرك أن نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، سار عن دمشق إلى مصر فسير نور الدين معه عسكراً، فاجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودة مالايُعد؛ فخاف نور الدين عليهم، فسار إلى الكرك فترل عليه وحصره، وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين، ونصب نور الدين على الكرك المجانيق، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وساروا إليه، وأن ابن الهنفري وفليب بن الرفيق، وهما فارسا الفرنج في وقتهما، في المقدمة إليه. فرحل نور الدين، رحمه الله تعالى، نحوهما للقائهما ومن معهما قبل أن يلحق بهما باقي الفرنج، وكانا في مائتي فارس وألف تركبلي ومعهم من الراجل خلق كثير. فلما قاربهما رجعا القهقري إلى من وراءهم من الفرنج، وقصد نور الدين وسط بلادهم، ونهب ماكان على طريقه، ونزل بعشترا، وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم، فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه.

وقال ابن شداد: أنفذ صلاح الدين في طلب والده ليكمل له السرور، ويجمع القصة مشاكلة ما جرى

للنبي يوسف الصديق عليه السلام. فوصل والده نجم الدين إليه، وسلك معه من الأدب ماكان عادته، وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه، وقال: يا ولدي، ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفءُ له، فما ينبغي أن نغير موقع السعادة؛ فحكمَّه في الخزائن كلها. وكان رحمه الله تعالى كريماً يطلق ولايرد. و لم يزل صلاح الدين وزيراً محكماً إلى أن مات العاضد أبو محمد عبد الله، وبه ختم أمر المصريين.

وقال ابن أبي طي الحلبي: أرسل الخليفة المستنجد بالله من بغداد إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة بمصر، فأحضر الأمير نجم الدين أيوب وألزمه الخروج إلى ولده بمصر بذلك، وحمَّله رسالة منها: "وهذا أمر تجب المبادرة إليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة، والمنقبة النبيلة، قبل هجوم الموت، وحضور الفوت، لاسيما وإمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته، وهو عنده من أهم أمنيته".

وسار نجم الدين، وأصحبه نور الدين هدية سنية للملك الناصر، وخرج العاضد لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح عند شجرة الإهليلج، و لم يجر بذلك عادة لهم. وكان من أعجب يوم شهده الناس، وخلع العاضد عليه ولقبَّه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا، وأظهر السلطان من بره وتعظيم أمره ما أحرز به الشكر والأجر، وأفرد له داراً إلى جانب داره، وأقطعه الإسكندرية ودمياط والبحيرة، وأقطع شمس الدولة تورانشاه أخاه قوص وأسوان وعيذاب، وكانت عبرتها في هذه السنة مائتي ألف وستة وستين ألف دينار.

وسار شمس الدولة إلى قوص وولاها شمس الخلافة محمد بن مختار. وكان السلطن قبل إقطاعها شمس الدولة قد سيَّر رسلان بن دغمش لجباية خراجها، فخرج عليه عباس بن شلذي في جماعة من الأعراب والعبيد في مرج بني هميم، فغنمه رسلان وعاد إلى القاهرة. وفي هذه السنة ليلة عيد الفطر رزق السلطان ولده الملك الأفضل نورالدين علياً وفرح به فرحاً عظيماً، وخلع وأعطى، وتصدق بما بهر به العقول.

ومن قصيدة للحكيم عبد المنعم، قد تقدم بعضها:

في مشرق المجد نجم الدين مطلعه ... وكل أبنائه شهب، فلا أقلوا

جاءوا كيعقوب والأسباط، إذ وردوا ... على العزيز من أرض الشام واشتملوا

لكنَّ يوسف هذا جاء إخوته ... ولم يكن بينهم نزع ولازلل

وملكوا أرض مصر في شماخته ... ومثلها لرجال مثلهم نزلوا

فصل في ذكر الزلزلة الكبرى

قال ابن الأثير: وفي ثاني عشر شوال كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها، عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق وغيرها؛ إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام. فخربت بعلبك وحمص، وحماة، وشيزر، وبعرين، وغيرها؛ وتهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العد والإحصاء فلما أتى نور الدين خبرها سار إلى بعلبك ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها، وكان لم يبلغه خبر غيرها. فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد بخراب أسوارها، وخلوها من أهلها؛ فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك، ثم إلى حماة، ثم إلى بارين. وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بارين، فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شئ البتة، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلا ونهاراً. ثم أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ماليس بغيرها من البلاد، فإنها قد أتت عليها، وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ، فكانوا لايقدرون يأوون إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفاً من الزلزلة، فإنها عاودتهم غير مرة؛ وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج. فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين. ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها، وجميع البلاد وجوامعها، وأخرج من الأموال مالايقدَّر قدره.

وأما بلاد الفرنج، خذلهم الله تعالى، فإنها أيضاً فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا، وهم أيضاً يخافون نور الدين على بلادهم، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده من قصد الآخر.

قال العماد: وكانت قلاع الفرنج المجاورة لبعرين ولحصن الأكراد وصافيثا والعُريمة وعرقا في بحر الزلازل غرقى، لاسيما حصن الأكراد، فإنه لم يبق له سور، وقد تم عليه فيه دحور وثبور. فشغلهم سوءُهم عن سواه، وكل اشتغل بما دهاه. وتواصلت الأخبار من جميع بلاد الشام بما أحدثته الزلزلة من الانهداد والانهدام.

قال: وما سكنت النفوس من رعبها، وتسلت القلوب عن كربها، إلا بما دهم الكفار من أمرها وعراهم من ضرها، فلقد خصتهم بالأمضِّ الأشق، وأخذتهم الرجفة بالحق، فإنها وافقت يوم عيدهم وهم في الكنائس، فأصبحوا للردى فرائس، شاخصة أبصارهم ينظرون "فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ".

ثم ذكر العماد قصيدة في مدح نور الدين ووصف الزلزلة مطلعها:

هل لعاني الهوى من الأسر فادي ... ولساري ليل الصبابة هادي

جنِّبوني خطب البعاد، فسهلُ ... كل خطب سوى النوى والبعاد

كنت في غفلة من البين حتى ... صاح يوم الأثيل بالبين حادي
قد حللتم من مهجتي في السويدا ... ء، ومن مقلتي محل السواد
وبخلتم من الوصال بإسعا ... في، أما كنتمُ من الأجواد
وبعثتم نسيمكم يتلافا ... ني، فعاد النسيم من عُوّادي
سُمتموني تجلداً واشتياقاً ... ومحال تجمُّع الأضداد
أبقاءُ بعد الأحبة ياقلْ ... بيَ !ماهذه شروط الوداد
ذاب قلبي وسال في الدمع لما ... دام من نار وجده في اتقاد
ما الدموع التي تحدرها الأش ... واق إلا فتائت الأكباد
حبذا ساكنو فؤادي، وعهدي ... بهمُ يسكنون سفح الوادي
أتمنى بالشام أهلي ببغدا ... د، وأين الشآم من بغداد
ما اعتياضي عن حبهم يعلم الل ... ه تعالى إلا بحب الجهاد
واشتغالي بخدمة الملك العا ... دل محمودٍ، الكريم، الجواد
أنا منه على سرير سروري ... راتع العيش في مراد مُؤادي
قيدتني بالشام منه الأيادي ... والأيادي للحر كالأقياد

قد وردت البحر الخضم وخلَّف ... تُ ملوك الدنيا به كالثماد
هو نعم الملاذ من نائب الده ... ر ونعم المعاذ عند المعاد
جل رزء الفرنج فاستبدلوا من ... ه بلبسُ الحديد لبس الحداد
فرَّق الرعب منه في انفس الكف ... ار بين الأرواح والأجساد
سطوة زلزلت بسكانها الأر ... ض وهدت قواعد الأطواد
أخذتهم بالحق رجفة بأس ... تركتهم صرعى صروف العوادي
خفضت في قلاعها كل عال ... وأعادت قلاعها كالوهاد
أنفذ الله حكمه فهو ماض ... مظهر سر غيبه فهو بادي
آية آثرت ذوي الشرك بالُهْل ... ك وأهل التوحيد بالإرشاد

والأعادي جرى عليهم من التد ... مير ما قد جرى على قوم عاد

أشركت في الهلاك بين الفريقي ... ين :دعاة الإشراك والإلحاد

ولقد حاربوا القضاء، فأمضى ... حكمه فيهم بغير جلاد

والإله الرؤوف في الشام عنا ... دافع لطفه بلاء البلاد

قال العماد: ومنها معنى مبتكر ابتدعته في الزلزلة، وهو:

وبحق أصيبت الأرض لما ... سكنت من مقام أهل الفساد

قال العماد: في هذه السنة عند وصولنا إلى حلب في الخدمة النورية كنت مقرِّظاً للفضائل الشَّهْرَزَوْرِية، وكان الحاكم بها القاضي محيي الدين أبو حامد محمد، ابن قاضي قضاة الشام كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرَزَوْرِي. وكان كمال الدين قد علق به تنفيذ الأحكام وإليه أمور الديوان، وهو ذو المكانة والإمكان، في بسط العدل والإحسان؛ ومحيي الدين ولده ينوب عنه في القضاء بحلب وبلدانها، وينظر أيضاً في أمور ديوانها؛ وبحماة وحمص من بني الشهرزوري قاضيان، وهما حاكمان متحكمان. وكان هذا محيي الدين من أهل الفضل، وله نظم ونثر، وخطب وشعر؛ وكانت معرفتي به في أيام التفقه ببغداد في المدرسة النظامية، منذ سنة خمس وثلاثين، والمدرس شيخنا معين الدين سعيد بن الرزّاز؛ وكان مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه بعلمه مُعلماً مذهب الطراز. وكانت الزلزلة بحلب قد خربت دار محيي الدين وسلبت قراره، وغلبت اصطباره، وحلبت أفكاره؛ فكتبت إليه قصيدة مطلعها:

لو كان من شكوى الصبابة مشكيا ... لعدا على عدوى الصبابة معدياً

ومنها:

مات الرجاء، فإن أردت حياته ... ونشوره، فارجُ الإمام المحييا

أقضى القضاة، محمد بن محمد ... من لست منه للفضائل محصيا

قاضٍ به قضت المظالم نحبها ... وغدا على آثارهن معفيا

يا كاشفاً للحق في أيامه ... غُررا يدوم لها الزمان مغطيا

لم تنعش الشهباء عند عثارها ... لو لم تجدك لطود حلمك مرسيا

رجفت لسطوتك التي أرسلتها ... نحو الطغاة لحد عزمك ممهيا

وتظلمت من شرهم فتململت ... عجل أجازتها عليها مبقيا

أنفت من الثقلاء فيها إذ رمت ... أثقالها ورأتك منها ملجيا

حَلَبُ لها حلب المدامع سُيِّل أن لاقت الخطب الفظيع المبكيا
وبعدل نور الدين عاود أفقها من بعد غم الغم جواً مصحيا
لأمورها متدبراً، لشتاتها متألفاً، لصلاحها متولياً
فالشرع عاد بعدله مستظهراً والحق عاد بظله مستذرياً
والدهر لاذ بعفوه مستغفراً مما جناه، مطرقا، مستحييا

فصل في غزو صاحب البيرة ووفاة صاحب الموصل

قال ابن الأثير: كان شهاب الدين محمد بن إلياس بن إيلغازي بن أرتق، صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكر، وهم مائتا فارس، إلى الخدمة النورية وهو بعشترا. فلما وصل إلى اللبوة، وهي من أعمال بعلبك، ركب متصيداً فصادف ثلثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للغارة على بلاد الإسلام، وذلك سابع عشر شوال، فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا، وصبر الفريقان لاسيما المسلمون، لأن ألف فارس منهم لاتصبر لحملة ثلثمائة فارس من الفرنج. وكثر القتلى بينهم وانهزم الفرنج، وعمهم القتل والأسر، فلم يفلت منهم إلا من لايعتد به. "وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي المِيعَادِ، وَلَكِنْ لَيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولا" وسار شهاب الدين بالأسرى ورؤس القتلى إلى نور الدين، فركب هو وعسكره إلى لقائه، واستعرض الأسرى ورؤس القتلى، فرأى فيها رأس مقدم الأستبارية صاحب حصن الأكراد، وكانت الفرنج تعظمه لشجاعته ودينه عندهم، ولأنه شجي في حلوق المسلمين؛ وكذلك أيضاً رأى رأس غيره من مشهوري الفرنج، فازداد سروراً، ولله الحمد.

قال: وفي شوال سنة خمس وستين توفي الملك قطب الدين مودود بن زنكي بالموصل. وكان لما أشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكي بن مودود، وهو أكبر أولاده، وأعزهم عليه، وأحبهم إليه. وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقيم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح، وكان يكره عماد الدين زنكي لأنه كان قد أكثر المقام عند عمه الملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى، وتزوج ابنته، وكان عزيزه وحبيبه. وكان نور الدين يبغض عبد المسيح لظلم كان فيه، ويذمه ويلوم أخاه قطب الدين على توليته لأموره. فخاف عبد المسيح أن يتصرف عماد الدين في أموره عن أمر عمه فيعزله ويبعده، فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش، زوجة قطب الدين، فردوه عن هذا الرأي. فلما كان الغد أحضر قطب الدين مودود الأمراء واستحلفهم لولده سيف الدين غازي. وتوفي وقد جاوز عمره أربعين

سنة.

وكان تام القامة كبير الوجه، أسمر اللون، واسع الجبهة، جهوري الصوت. وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً.

ولما توفي استقر سيف الدين غازي في الملك ورحل عماد الدين إلى عمه نور الدين شاكياً ومستنصراً.

وكان عبد المسيح هو متولى أمور سيف الدين ويحكم في مملكته، وليس لسيف الدين من الأمر إلا اسمه، لأنه في عنفوان شبابه وعزة حداثته.

قال: وهذه حادثة تحث على العدل: كان من جملة أعمال جزيرة ابن عمر قرية تسمى العُقَيمة مقابل الجزيرة من الجانب الشرقي، يفصل بينهما دجلة لها بساتين كثيرة، بعضها تمسح أرضه ويؤخذ على كل جريب من الأرض التي قد زرعت شئ معلوم وبعضها عليه خراج ولا مساحة عليه، وبعضها مطلق منهما. فالممسوح منها لايحصل لأصحابه منه إلا القدر القريب، وكان لنا بها عدة بساتين. فحكى لي والدي قال: جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح إلى الجزيرة، وأنا حينئذ أتولى ديوانها، يأمر بأن تجعل بساتين العقيمة كلها ممسوحة؛ فشق ذلك عليَّ لأجل أصحابها، ففيها ناس صالحون ولي بهم أنس وهم فقراء. فراجعته، وقلت له: لاتظن أني أقول هذا لأجل ملكي، لا والله، وإنما أريد أن يدوم الناس على الدعاء للمولى قطب الدين وأنا أمسح ملكي جميعه. قال: فأعاد الجواب بأمر المساحة ويقول: تمسح أولا ملكك ليقتدي بك غيرك، ونحن نطلق لك ما يكون عليه. فشرع النواب يمسحون. وكان بالعقيمة رجلان صالحان بيني وبينهما مودة، اسم أحدهما يوسف والآخر عبادة، فحضرا عندي وتضرّرا من هذه الحال، وسألاني المكاتبة في المعنى؛ فأظهرت لهما كتاب عبد المسيح جواباً عن كتابي، فشكراني، وقالا: وأيضاً تعودُ تراجعهُ. فعاودت القول، فأصر على المساحة؛ فعرَّفتهما الحالة. فلما مضى عدة أيام عدت يوماً إلى داري وإذا هما قد صادفاني على الباب، فقلت لنفسي: عجباً لهذين الشيخين، قد رأيا مراجعتي وهما يطلبان مني مالا أقدر عليه! فقلت لهما: والله إني لأستحيي منكما كلما جئتما في هذا المعنى، وقد رأيتما الحال كيف هو. فقالا: صدقت، و لم نحضر إلا لنعرفك أن حاجتنا قضيت. فظننت أنهما أرسلا إلى الموصل من شفع لهما، فدخلت إلى داري وأدخلتهما معي، وسألتهما عن الحال كيف هو، ومن الذي سعى لهما. فقالا: إن رجلا من الصالحين الأبدال شكونا إليه حالنا، فقال: قد قضيت حاجة أهل العقيمة جميعهم. قال: فوقع عندي من هذا ولكن تارة أصدقهما لما أعلم من صلاح أحوالهما، وتارة أعجب من سلامة صدورهما، كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدانه واقعاً لاشك فيه! فلما كان بعد أيام وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمر فيه بإطلاق مساحة العقيمة وإطلاق كل مسجون وبالصدقة، فسألت

القاصد عن السبب، فأخبرنا أن قطب الدين شديد المرض. قال: فأفكرت في قولهما وتعجبت منه، ثم توفي بعد يومين من هذا. ورأيت والدي إذا رأى أحد الرجلين يبالغ في إكرامه، ويحترمه، ويقضي أشغاله، واتخذهما صديقين.

قال: وكان قطب الدين من أحسن الملوك، وأعفَّهم عن أموال رعيته، محسنا إليهم، كثير الإنعام عليهم، محبوباً إلى صغيرهم وكبيرهم، حليماً عنالمذنين، سريع الانفعال للخير. حدَّثني والدي قال: استدعاني يوما وهو بالجزيرة، وكنت أتولى أعمالها، فلامني في بعض الأمر. فقلت: أخاف من الاستقصاء؛ لو دُعي على بعض هؤلاء الملوك، وأومأت إلى أولاده، لكانت شعرة منه تساوي الدنيا ومافيها، ولنا مواضع تحتمل العمارة لو عمرت لتحصل منها أضعاف هذا. فقال: جزاك الله خيراً! لقد نصحت وأديت الأمانة، فاشرع في عمارة هذه الاماكن. ففعلت، وكبرت منزلتي عنده، و لم يزل يثني عليّ.

قال: وكان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه. لقد صبر من نوابه زين الدين وجمال الدين وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه. وكان حسن الاتفاق مع اخيه الملك العادل نور الدين كثير المساعدة والإنجاد له بنفسه وعسكره وأمواله؛ حضر معه المصافَّ بحارم وفتحها وفتح بانياس. وكان يخطب له في بلاده باختيار من غير خوف. وكان إحسانه إلى أصحابه متتابعاً من غير طلب منهم ولاتعريض. وكان يبغض الظلم وأهله، ويعاقب من يفعله. قال: وبالله أقسم إذا فكرت في الملوك أولاد زنكي: سيف الدين ونور الدين وقطب الدين، وما جمع الله فيهم من مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال، وحسن السيرة، وعمارة البلاد، والرفق بالرعية؛ إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج الملك إليها، أذكر قول الشاعر:

من تلقَ منهم تقلْ لاقيت سيدهم — مثل النجوم التي يسري بها السَّاري

قلت: وقرأت بخط الشيخ عمر الملا، رحمه الله، في كتاب كتبه إلى بعض الصالحين وسأله فيه الدعاء لقطب الدين صاحب الموصل وقال فيه: "يأخي، لو ذهبت أشرح لك سيرته في بلاده وعيش رعيته في ولايته أطلت وأضجرت. غير أني أذكر لك ماخصه الله به من الأخلاق الصالحة: هو من أكثر الناس رحمة، وأشدهم حياء، وأعظمهم تواضعاً، وأقلهم طمعاً، وأزهدهم في الظلم، وأكثرهم صبراً، وأبعدهم غضباً، وأسرعهم رضا. وهو من هذه الأخلاق على حدٍ أحبه أنا محبة لاأقدر أصفها، وبيني وبينه إخاء ومزاورة، يزورني وأزوره".

فصل

قال ابن الأثير: ولما بلغ نور الدين وفاة أخيه قطب الدين وملك ولده سيف الدين بعده، واستيلاء عبد المسيح واستبداده بالأمور، وحكمه على سيف الدين أنف من ذلك وكبر لديه، وشق عليه. وكان يبغض عبد المسيح لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبالغة في إقامة السياسة: وكان نور الدين رحمه الله تعالى ليناً رفيقاً عادلا، فقال: أنا أولى بتدبير أولاد أخي وملكهم. ثم سار من وقته فعبر الفرات عند قلعة حعبر أول المحرم.

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

وقصد الرَّقَّة فامتنع بها شيئاً من الامتناع، ثم سلمها على شئ اقترحه. فاستولى نور الدين عليها وقرر أمورها؛ وسار إلى الخابور فملكه جميعه؛ ثم ملك نصيبين وأقام يجمع العساكر، فإنه كان قد سار جريدة، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن وديار بكر، واجتمعت عليه العساكر؛ وقد كان ترك أكثر عسكره بالشام لحفظ ثغوره وأطرافه من الفرنج وغيرهم. فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها، وأقام عليها، ونصب المجانيق، وكان بها عسكر كبير من الموصل. فكاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثونه على السُّرعة إليهم ليسلموا البلد إليه وأشاروا بترك سنجار، فلم يقبل منهم، وأقام حتى ملك سنجار وسلمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زنكي. ثم سار إلى الموصل فأتى مدينة بَلَد وعبر دجلة في مخاضة عندها إلى الجانب الشرقي، وسار فترل شرقي الموصل على حصن نينوى، ودجلة بينه وبين الموصل.

وقال: ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة. وكان عبد المسيح قد سيَّر عز الدين مسعود بن قطب الدين أتابك إيلْدكِز صاحب بلاد الجبل وآذربيجان وأرّان وغيرها يستنجده، فأرسل إيلْدكِز رسولا إلى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل ويقول له: إن هذه البلاد للسلطان ولاسبيل لك إليها. فلم يَلْتَفت نور الدين إلى رسالته، وكان بسنجار، فسار إلى الموصل، وقال للرسول: قل لصاحبك: أنا أرفق ببني أخي منك فلاتدخل نفسك بيننا، وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب همدان، فإنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكُرْج عليها؛ وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس، الفرنج، فأخذت بلادهم، وأسرت ملوكهم، فلايجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام، وإزالة الظلم عن المسلمين. فعاد الرسول بهذا الجواب.

وحصر نور الدين الموصل، فلم يكن بينهم قتال، وكان هوى كل من بالموصل، من جندي وعامي، معه، لحسن سيرته وعدله. وكاتبه الأمراء يعلمونه أنهم على الوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد إليه. فلما

علم عبد المسيح ذلك راسله في تسليم البلد إليه وتقريره على سيف الدين، ويطلب الأمان وإقطاعاً يكون له. فأجابه إلى ذلك وقال: لاسبيل إلى إبقائه بالموصل، بل أن يكون عندي بالشام، فإني لم آت لأخذ البلاد من أولادي، إنما جئت لأخلص الناس منك وأتولى أنا تربية أولادي. فاستقرت القاعدة على ذلك، وسلمت الموصل إليه، فدخلها ثالث عشر جمادي الأولى، وسكن القلعة. وأقر سيف الدين غازي على الموصل، وولى بقلعتها خادماً يقال له سعد الدين كمشتكين، وجعله دُزداراً فيها، وقسم جميع ماخلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة.

ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة من الخليفة فلبسها، فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين. وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد، وأمر ببناء الجامع النوري بالموصل، فبنى وأقيمت الصلاة فيه سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة.

وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً، وسار إلى الشام، فقيل له: إنك تحب الموصل والمقام بها ونراك أسرعت العود؛ فقال: تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت؛ ويمنعني أيضاً أنني ههنا لاأكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد. ثم أقطع نصيبين والخابور العساكر، وأقطع جزيرة ابن عمر سيف الدين غازي ابن أخيه مع الموصل، وعاد إلى الشام ومعه عبد المسيح، فغير اسمه وسماه عبد الله، وأقطعه إقطاعاً كثيراً.

وقال العماد: استدعاني نور الدين ونحن بظاهر الرقَّة وقال لي: قد أنست بك وأمنت إليك، وأنا غير مختار للفرقة، ولكن المهم الذي عرض، لايبلغ فيه غيرك الغرض، فتمضي إلى الديوان العزيز جلايدة، وتؤدي عني رسالة سديدة سعيدة، وتُنهي أني قصدت بيتي وبيت والدي، ومغنَى طريفي وتالدي، وأنا كبيره ووراثه، والذي له حديثه وحادثه. فامض وخذ لي إذناً فإني أعد كل جارحة لما أخاطب به أُذناً، وأمثل ما يصلني من المثال لدفع كل مكروه ركناً. وأمر ناصر الدين محمد بن شيركوه أن يسيرني إلى الرحبة، في رجال مأموني الصحبة وسرت منها على البرية غربي الفرات، بخفير من بني خفاجة. فذكر أنه وصل وقضى الحاجة، ثم رجع من عند الخليفة المستنجد إلى نور الدين، وهو يحاصر سنجار، فأخذها وسلمها إلى ختنه ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي.

قال: ثم رحل على عزم الموصل وقصد بلد، واستوضح فيها الجدد، ودُلَّ هناك في دجلة على مخاضة، وكان ذا أخلاق وهمم مرتاضة، فاستسهل من خوضها والعبور فيها ماظن مستعصيا، وسهل لنا الله ذلك ورأيناه أمراً عجيباً؛ وجاء دليل تركماني قدامنا، وهو يقطع دجلة تارة طولا وتارة عرضاً أمامنا، ونحن وراءه كخيط واحد لانميل يميناً ولايساراً، ولانجد لنا في سوى المجاز اختياراً؛ حتى عبرنا من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي برجالنا وأثقالنا، وخيلنا وبغالنا وجمالنا؛ وأقمنا بقية ذلك اليوم، حتى تمَّ عبور القوم.

ثم رحلنا ونزلنا على الموصل من شرقها، وخيمنا على تلِّ توبة، فاستعظم أهلها تلك النوبة، وما خطر ببالهم أننا نعبر بغير مراكب، وأنَّا نأخذ عليهم ذلك الجانب. فعرفوا أنهم محصورون، مقهورون، محسورون؛ وانقطعت عنهم السيل من الشرق، وتعذر عليهم الرقع لاتساع الخرق؛ وبسط العطاء، وكشف الغطاء، وتكلم في المصلحة والمصالحة الوسطاء؛ ومُد الجسر، وقضى الأمر، وأنعم نور الدين على أولاد أخيه، ومثلوا بناديه؛ وأقر سيف الدين غازياً على قاعدة أبيه، وألبسه التشريف الذي وصله من أمير المؤمنين المستضيء.

ثم دخل قلعة الموصل وأقام بها سبعة عشر يوماً، وجدد مناشير أهل المناصب وتوقيعات ذوي المراتب من القضاة والنقابة وغيرهما. وأمر بإسقاط جميع المكوس والضرائب، وأنشأ بذلك منشوراً يقرأ على الناس، فمنه: "وقد قنعنا من كتر الأموال باليسير من الحلال؛ فسحقاً للسحت، ومحقاً للحرام الحقيق بالمقت؛ وبعداً لما يبعد من رضا الرب، ويقصي من محل القرب. وقد استخرنا الله وتقربنا إليه، وتوكلنا في جميع الأحوال عليه، وتقدمنا بإسقاط كل مكس وضريبة، في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة؛ وإزالة كل جهة مشتبهة مشوبة، ومحو كل سنَّة سيئة شنيعة، ونفي كل مظلمة مُظلمى فظيعة؛ وإحياء كل سنة حسنة، وانتهاز كل فرصة في الخير ممكنة، وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظورة، خوفاً من عواقبها الرديئة المحذورة، فلا يبقى في جميع ولايتنا جور جائر جارياً، ولاعمل لايكون به الله راضياً، إيثاراً للثواب الآجل، على الحطام العاجل. وهذا حق لله قضيناه، وواجب علينا أديناه، بل هي سنة استنناها، ومحجة واضحة بيناها، وقاعدة محكمة مهدناها، وفائدة مغتنمة أفدناها".

فصل

قال العماد: وكان بالموصل رجل صالح يعرف بعمر الملاَّ، سمى بذلك لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوَّت بها، وكل ما عليه من قميص ورداء، وكسوة وكساء، قد ملكه سواه واستعاره، فلا يملك ثوبه ولا إزاره. وكن له شئ فوهبه لأحد مريديه، وهو يتجر لنفسه فيه، فإذا جاءه ضيف قراه ذلك المريد. وكان ذا معرفة بأحكام القرآن والأحاديث النبوية.

وكان العلماء والفقهاء، والملوك والأمراء، يزورونه في زاويته، ويتبركون بهمته، ويتيمنَّون ببركته. وله كل سنة دعوة يحتفل بها في أيام مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضره فيها صاحب الموصل، ويحضر الشعراء وينشدون مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم في المحفل.

وكان نور الدين من أخص محبيه يستشيرونه في حضوره، ويكاتبه في مصالح أموره. وكانت بالموصل

خربة واسعة في وسط البلد أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلا من ذهب عمره، و لم يتم على مراده أمره. فأشار الشيخ عمر على نور الدين بابتياعها، ورفع بنائها جامعاً تقام فيه الجمع والجماعات؛ ففعل وأنفق في فيه أموالاً كثيرة، ووقف عليه ضيعة من ضياع الموصل، ورتب فيه خطيباً ومدرساً. وكان قد وصل في تلك السنة وافداً يكون مدرساً في ذلك الجامع وكتب له به منشوراً.

قال: وحضر مجاهد الدين قايماز صاحب إربل إلى الخدمة النورية في الموصل. وكان دخولهم إياها في بحبوبة الشتاء؛ فكتب العماد إلى بعض كبراء الموصل قصيدة، منها:

مايمنع الخادم من قصدْه الْ ... خدمة غير الطُّرْق والوحل
كأنما مَوْصلكم مقطع ... مايهتدي فيه إلى وصل
وكلّ معروف بها منكر ... كما تراه ضيّق السّبل
وكل من حلّ بها لايرى ... في زمن الخصب سوى المحل
ومذ دخلناها حصلنا بها ... كَرهاً على خرج بلا دخل
أصعب ما نلقاه من أهلها ... قول بلا أهل ولاسهل
وكنت أهاوها، ولكنني ... لقيت منها كلّ ما يسلي
وانت من أصبح إحسانه ... حلية هذا الزمن العُطل

قال: وعاد نور الدين إلى سنجار فأعاد عمارة أسوارها. ثم أتى حرّان وقد اقتطعها عن صاحب الموصل هي ونصيبين، والخابور، والْمِجْدل. ووصل حلب في خامس رجب.

قال ابن شدّاد: دخل حلب في شعبان وزوّج صاحب الموصل ابنته.

قال العماد: وفوّض القضاء والحُكم بنصيبين وسنجار والخابور إلى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، فولّى بها نوابه وحكّم فيها أصحابه.

وقال القاضي ابن شداد: لما صارت الموصل إلى سيف الدين، ابن أخي نور الدين، كان قد استولى عليه وتولى أمر البلد رجل يقال له عبد المسيح كان نصرانياً فأسلم، وقيل إنه كان باقياً على نصرانيته وله بيعة في داره، وتتبع أرباب العلم والدّين وشتّتهم وأبعدهم وآذى المسلمين. فبلغ نور الدين ذلك، وكُتب له قصص في ذلك. فسار ونزل على الموصل من جانب الشطِّ، والشط بينه وبينها، وقال: لاأقاتل هذه البلدة وأهتك حرمتها وهي لولدي. وراسل سيف الدين وقال له: أنا ليس مقصودي البلد وإنما مقصودي حفظ البلد لك، فإنه قد كتب إلي في عبد المسيح كذا وكذا ألف قصة بما يفعل مع المسلمين، وإنما مقصودي أزيل هذا النصراني عن ولاية المسلمين.

قال: وعبد المسيح يدبر البلد ويدور فيه، والأمر إليه. وبذل الصلح لنور الدين؛ فقال نور الدين: أنا قد جئت ولابد لي من دخول البلد. فقال: نعم لايدخل إلا من باب السِّر، فقال نور الدين: ماأدخل إلا من باب السر. فجرت بين نور الدين وبين ابن أخيه مراسلات، إلى أن علم أن نيته صالحة، فصالحه في السر؛ وركب عبد المسيح وخرج يدور بين السورين، فجاءه بعض أصحابه وقال له: أنت نائم؟ دمُك قد راح وأنت غافل! فقال: مالخبر؟ فقال: سيف الدين قد صالح عمه وأنت في مقابلة نور الدِّين. فجاء ودخل على سيف الدين وألقى شربوشه بين يديه، وقال له: أنت قد صالحت عمك وقد عمِلتُ ما عملت في حفظ بلدك، وما لي طاقة بمقابلة نور الدين؛ فالله الله في دمي! فقال له: ما لي طاقة بدفعه عنك، ولكن عليك بالشيخ عمر الملا! فقال: والله لو مضيت إليه لم يفتح لي_لعلمه بما جرى منه في حق المسلمين_ ولكن تسيِّر أنت إليه. فأنفذ سيف الدين إليه وأحضره، وكان معتكفاً، فقال له: مالخبر! فقال سيف الدين لعبد المسيح: منك إليه؛ فوقف بين يديه يبكي؛ فالتفت إليه الشيخ عمر وقال: من يعادى الرجال يبكي مثل النساء! فقال له: قد تمسكت بك وأطلب منك حقن دمي! فقال: أنت آمن على دمك؛ فقال: وعلى مالي! فقال: وعلى مالك؛ فقال: وعلى أهلي! فقال: وعلى أهلك.

وكان شرف الدين بن أبي عصرون مع نور الدين حينئذ؛ فقال سيف الدين لعمر الملاّ: تخرج تحلِّف نور الدين؛ فأحضر الفقهاء وعملوا له نسخة يمين لنور الدين ونسخة يمين لعبد المسيح؛ فأخذهما عمر وخرج إلى نور الدين، فقام نور الدين وخرج من خيمته والتقاه وأكرمه. فقال له عمر: الناس يعملون حُسْن عقيدتك فيّ، وقد خرجت في كذا وكذا، وناوله النسخة التي تتعلق بسيف الدين، فقرأها وناولها لابن أبي عصرون، فقال: نسخة جيدة. فقال له الشيخ عمر الملاّ: إيش تقول في هذه النسخة؟ فقال: جيدة؛ فقال: إذا حلف بها على هذا الوجه أليس أنها تقع لازمة؟ فقال: بلى. فقال للحاضرين: اشهدوا على الشيخ بذلك، يشير إلى نور الدين كان يجري منه أيمان في وقائع، وكان ابن أبي عصرون يفتيه بالخروج منها، فقيَّد عليه القول، فأجاب نور الدين إلى ذلك، فقال له: قد علم الناس حسن عقيدتك فيّ، وأن قولي مسموع عندك، وقد خرجت إليك ولابدّ لي من ضيافة، فقال: كيف لي بذلك وأنت لاتأكل طعامي ولاتقبل مني شيئاً! فقال: تحلف لي بهذه النسخة، فوقف عليها وتغير وجهه، وقال: أنا ما جئت إلا في هذا لأخلص المسلمين منه! فقال له الشيخ عمر: فما نطلب منك أن توليه على المسلمين! فقال: قد أمنته على نفسه، فقال: وعلى أهله! فقال: ومن أهله؟ فقال: نصارى، فقال: أمنتهم، فقال: وعلى ماله، فقال: ومن أين لهذا الكلب مال؟ هذا مملوك لنا، فقال: قد أُعتق وماله له، وهو اليوم كان صاحب الموصل، قال: قد أمنته على ماله. فحلف له على ذلك جميعه، واستقرّ الصلح.

وخرج سيف الدين إلى خدمة نور الدين، فوقف بين يديه، فأكرمه نور الدين، وكان وصله خلعة أمير المؤمنين فخلعها عليه، فدخل إلى الموصل بها، وانتقل إلى جانب الشط الآخر، و لم يدخل إلى الموصل إلى أن جاء مطر شديد جدّاً فدخل من باب السر إليها، وأقام بها مدة ورتب أمورها وولي فيها كمشتكين فرأى النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو يقول له: جئت إلى بلدك وطاب لك المقام به، وتركت الجهاد وقتال أعداء الدين! فاستيقظ من منامه وسار سحرة ذلك اليوم و لم يلبث، و لم يعلم به أكثر الناس حتى خرج ولحقوه، رحمه الله تعالى.

فصل

وصل الخبر بموت الإمام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي، ونورُ الدين مخيم بشرقي الموصل بتل توبة. وكانت وفاته يوم السبت تاسع ربيع الآخر، وبويع ابنه المستضئ بأمر الله أبو محمد الحسن.

وكان مولد المستنجد مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وستة أيام. وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العباس. وهذا العدد له بحساب الجمَّل، اللام والباء، فيه يقول بعض الأدباء:

أصبحت لب بني العباس كلهم ... إن عُدّت بحساب الجمّل الخلفا

وكان أسمر تام القامة طويل اللحية، وكان من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية؛ كان عادلا فيهم كثير الرفق بهم، وأطلق من المكوس كثيراً، و لم يترك بالعراق مكسا. وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس.

قال ابن الأثير: بلغني أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس ويكتب فيهم السِّعايات فأطال حبسه، فحضر بعض أصحابه وشفع فيه، وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال له: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنساناً آخر مثله أحبسه لأكفَّ شره عن الناس.

وتوفي في أيامه شيخ الشيوخ إسماعيل بن أبي سعد، وصار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ، وذلك سنة إحدى وأربعين.

وفي سنة ثمان وأربعين توفي محمد بن نصر القيسراني، وأحمد بن منير، الشاعران. وقد تقدم ذلك.

وفي سنة تسع ةأربعين توفي الحكيم أبو الحكم الشاعر الأندلسي.

وفي سنة إحدى وخمسين توفي الوأواء الشاعر الحلبي.

وفي سنة ثلاث وستين توفي الشيخ أبو النجيب الصوفي الفقيه الواعظ.

قال العماد: وجاءنا رسل دار الخلافة مبشرين بخلافة المستضئ، واتفق ذلك يوم عبور دجلة. وركب يوم

التزول على تل توبة في الأهبة السوداء، واليد البيضاء، وذلك بمرأى ومنظر أهل الموصل الحدباء. ثم أرسل الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون إلى بغداد نائباً عنه في خدمة الإمام. ومما نظمه العماد فيه:

قد أضاء الزمان بالمستضىِّ — وارث البُرد، وابن عم النبيِّ
جاء بالحق، والشريعة، والعد — ل، فيا مرحباً بهذا المجيِّ

فهنيئاً لأهل بغداد، فازوا — بعد بؤس بكل عيش هنيِّ
ومضىٌ إن كان في الزمن المظ — لم، فالعود في الزمان المضي

وله من قصيدة أخرى:

لهفي على زمن الشباب، فإنني — بسوى التأسف عنه لم أتعوض
نقضت عهود الغانيات، وإنها — لولا نقاء شيبتي لن تنقض
ياحسن أيام الصبا، وكأنها — أيام مولانا الإمام المستضى
ذو البهجة الزهراء يشرق نورها — والطلعة الغراء، والوجه الوضيَ
قَسَم السعادة والشقاوة ربُّنا — في الخلق، بين محبّه والمبغض

ومنها:

فضل الخلائف والخلائق بالتقي — والفضل، والإفضال، والخُلق الرضي
فانعم أمير المؤمنين بدولة — ما تنتهي، وسعادة ما تنقضي

قال: ووصل نور الدين، رحمه الله تعالى، إلى دمشق وأدى فرض الصيام، وخرج بعد العيد إلى الخيام، وأخرج سرادقه إلى جسر الخشب، وسرنا إلى عشترا. ثم ذكر العماد هنا سرّية صاحب البيرة الأرتقي باللبوة، وقد مضت في أخبار سنة خمس وستين فَثَمَّ ذكرها ابن الأثير.

فصل فيما جرى بمصر في هذه السنة

قال العماد: كان بمصر حبس للشحن يعرف بدار المعونة فأعادها صلاح الدين مدرسة للشافعية في أول سنة ست وستين، وعمل في النصف من المحرم دار الغزل مدرسة للمالكية، وولى صدر الدين عبد الملك بن درباس القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها، وذلك في الثاني والعشرين من جمادي الآخرة. ثم خرج إلى الغزاة وأغار على الرملة وعسقلان وهجم ربض غزة، ثم رجع إلى القاهرة.

ثم وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله فأشفق عليها وأحب أن يجتمع بها شمله، فخرج في النصف من ربيع الأول. وكانت بأيلة قلعة في البحر قد حصنها أهل الكفر، فعمر لها مراكب وحملها إلى ساحلها على الجمال، وركبها الصنّاع هناك وشحنها بالرجال، وفتح القلعة في العشر الأول من ربيع الآخر، واستحلها واستباح بالقتل والأسر أهلها، وملأها بالعدد والعدد، وحصَّنها بأهل الجلاد والجلد. واجتمع بأهله وسار بهم على سمت القاهرة، ودخلوا في السادس والعشرين من جمادي الأولى إليها. وسار إلى الإسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها ويرتب قواعدها، وهي أول دفعة سار إليها في أيام سلطانه، وعم أهلها بإحسانه، وأمر بعمارة أسوارها وابراجها وابدانها.

وفي النصف من شعبان اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه، وهو ابن أخي صلاح الدين، منازل العز بمصر وجعلها مدرسة للشافعية، واشترى الروضة وحمام الذهب وغيرهما من الأملاك ووقفها عليها.

وفي النصف من جمادى الآخرة أغار شمس الدولة، أخو السلطان، بالصعيد على العربان، ثم دخل القاهرة في عاشر شهر رمضان.

وفي الثالث والعشرين من جمادي الآخرة توفي القاضي الموفق أبو الحجاج يوسف ابن الخلال، وكان من الأماثل الأفاضل، ولم يزل صاحب ديوان الإنشاء إلى أن كبر. وكان الأجل الفاضل يوصل إليه كل ماكان له، وقام به مدة حياته يكرم عهده ويكفله. وقال العماد في الخريدة: هو ناظر ديوان مصر وإنسان ناظره، وجامع مفاخره؛ وكان إليه الإنشاء، وله قوة على الترسل يكتب ما يشاء، عاش كثيراً وعطل في آخر عمره، وأضر ولزم بيته إلى أن تعوض منه القبر. ومن شعره:

يأأخا الغرة، حسب الدهر من	عظة المغرور ما أصبح يبدي
تؤثر الدنيا، فهل نلت بها	لحظة تخلص من همّ وكدِّ!!

قلت: وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري في أول كتابه المسمى بالوشي المرقوم في حل المنظوم، قال حدثني عبد الرحيم بن علي البيساني رحمه الله بمدينة دمشق في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة قال: كان فن الكتابة بمصر في زمن بني عبيد غضاً طرياً، وكان لايخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكاناً وبياتاً، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطاناً. وكان من العادة أن كلا من أرباب الدَّواوين إذا نشأ له ولدو شدا شيئاً من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع. قال: فأرسلني والدي، وكان إذا ذاك قاضياً بثغر عسقلان، إلى الديار المصرية في أيام الحافظ، وهو أحد خلفائها، وأمرني بالمسير إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأس به في تلك الأيام

رجل يقال له ابن الخلال. فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرّفته من أنا وما طلبي، رحبَّ بي وسهل، ثم قال: ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات؟ فقلت: ليس عندي شئ سوى أني أحفظ القرآن العزيز وكتاب الحماسة. فقال: وفي هذا بلاغ. ثم أمرني بملازمته؛ فلما ترددت إليه تدربت بين يديه، ثم أمرني بعد ذلك أن أحلّ شعر الحماسة، فحللته من أوله إلى آخره، ثم أمرني أن أحله مرة ثانية، فحللته.

وقال ابن أبي طيّ: في هذه السنة شرع السلطان، يعني صلاح الدين، في عمارة سور القاهرة، لأنه كان قد تهدم أكثره وصار طريقاً لايردُّ داخلاً ولاخارجاً، وولاه لقراقوش الخادم، وقبض على القصور وسلمها إليه، وأمر بتغيير شعار الاسماعيلية، وقطع من الأذان حيّ على خير العمل، وشرع في تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس.

وفيها طلب شمس الدولة توانشاه؛ من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة وازداد على إقطاعه بوش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها.

قلت: وقد وقفت على كتاب فاضلي وصف فيه غزاة صلاح الدين رحمه الله في زمان وزارته وكان الكتاب إلى مدينة قوص، وأظن هذه الغزاة هي التي أشار إليها العماد في اثناء كلامه السابق أوّل الكتاب: "فانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءُ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ واللهِ ذُو فَضْلٍ عَظِيم".

وفيه: "توجهنا من بركة الجب يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول، ووصلنا بتاريخ السابع والعشرين من الشهر المذكور، والعساكر بالتسهل والوعر منتظمة، والهمم على السهل والصّعب مزدحمة وجنود الله في الأرض المُعْلمة، قد أيّدها جنود السماء المسوّمة. وصابحنا الديّر يوم الأربعاء بقتال جعل كلّ من في حصن الدّير راهبا، ونصبنا عليه منجنيقا لايزال بشهاب القذف ضاربا. فلما تعالى النهار ملكنا ربضه، وأطلقنا فيه النيران، ورملنا الرجال بالدم، وأرملنا النسوان؛ وزحفنا إلى أبراجه وهي أبراج قد استعدت للبلى جلبابا، فجعلنا لكلّ واحد جورة مفردة وبابا، وسرحنا إليهم رسل المنايا من النشاب، وقصدنا أحد الأبراج والبيوت تؤتى في الحرب من غير الأبواب، وتقدمت إليها نقابة الحلبية فباتت ليلتها تساوره، وتراجعه بألسنة المعاول وتشاوره. وأسفر الصبح وقد أمكن تعليقه، وتيسر تحريقه، فأودعنا تلك العقود آلات الوقود، فلم يكن إلا مقدار اشتعالها حتى خرّ صريعا سريعا، وعفرّ بين أيدينا سامعا مطيعا. وانتظمت الرجال على أحجاره، وتواثبت إلى أمثاله من الأبراج وأنظاره؛ فحصلت في القبضة، وعجز من كان فيها عن النهضة؛ واحتكم فيها العذاب بالسيف والنار، وضاق عليهم مجال النفس والقرار".

"واستقبلنا يوم الخميس نقب القلعة وتقديم المنجنيق، وتيسير السبيل للقتال وتخليص الطريق، هذا والسّلوب والنهوب قد امتارت منها العساكر، وخرجت فيها مكنونات الذخائر، وأشبه اليوم يوم تُبلى

السرائر، وظهر الأرض منهم بالدم المائر".

فلما كان بكرة الجمعة وردتنا الأخبار بأن الملك قد زحف من غزة في فارسه وراجله، ورامحه ونابله، وحشود دياره، وجنود أنصاره؛ فركبنا مستبشرين بزحفه، موقنين بحتفه، ولقيناه، فأحطنا من بين يديه ومن خلفه. وناوشته الخيل الطِّراد، وأحدقت به أحداق الأغلال بالأجياد، وانتظرت حملته التي كان لها قبل ذلك اليوم موقع، وصدمته التي لها من رجال الحرب موضع؛ فملأ الله قلبه رعبا وثنى صدقه كذبا. و لم يزل يخاتل ولايقاتل، ويواصل المسير ولايصاول، والقتل في أعقابه، وأيدي السيوف وسواعد الرّماح لاتني في عقابه، حتى تحصّل في الدير هو وخيله ورجله، و لم يبق له من ملك الشام إلا ما وطئته رجله. فناصبناه الحصار في ليلة السبت مستهل ربيع الآخر بالركوب إليه، والوقوف عليه، لعله يبرز ويبارز، ويخرج ولايحاجز؛ فخرست غماغمه، واستذابت ضراغمه، فتركناه وراء ظهورنا، وجعلنا بلاده أمام صدورنا؛ فكنا في توليته مرضين لله تعالى سبحانه لامغضبين، وفي تركه وراء ظهورنا ومباعدته من الله متقربين. وواجهنا غزة بعساكرنا المنصورة، وأطفنا بها في أحسن صورة، وهي على ماعلم من كونها بكرا لم تفترعها الحوادث، وحصانا لم يطمثها أمل طامث؛ وهي معقل الديوية الذين هم جمرة الشرك، وداهية الإفك؛ وأتى الله ببنيانها من القواعد، وأنجز فيها من النّصر صادق المواعد، ووردناها بأيمن الموارد؛ وفتحناها من عدة جوانب، ووطئناها وإذا هي كأمس الذاهب، فألْقَت إلينا أفلاذ كبدها، وذخيرة يدها، فمن بين مواش بخراب البلاد التي منها خرجت، وخيول مسومة كأنها لركوبنا أُسرجت وأُلجمت، وحوامل أثقال وزوامل خففت عن عساكرنا وفرّجت، وميرة كثيرة تمكنت منها يد الأجناد وأفرجت، وأسارى المسلمين فكوا من القيد والقد، وأنقذوا بلطف الله من سوء المكيدة وشدة الجهد. فأما الرؤس المقطوعة وأسارى الفرنج الذين أيديهم إلى أعناقهم مجموعة، فإن القضاء الفضي تعصفر من دمائهم وتذهب، وجرى منها مابه اضطرم وقد الجحيم وتلهب. وفي الحال أمرنا بالنار أن تشتغل بها وتشتعل، وبالهدم أن ينقل عنها معاوله وينتقل، "فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ"، أو تنظر إلا طلوعا على عروشها خاوية، وعراصا من سكانها خالية، قد بقيت عبرة للعابر، وذكرى للذاكر، وموعظة سارة للمسلم مرغمة للكافر".

ثم عدنا بقية يوم السبت إلى الملك، خذله الله تعالى، راجين أن يحمله الثكل على الإقدام، ويخرجه حر النار إلى مقام الانتقام، فإذا شيطانه قد نصحه، وقتل أصحابه قد جرحه؛ فبِتْنا عليه والألسنة بفراره تعيره، واستباره يقرعه ويقَرِّره.

واصبحنا يوم الأحد ثاني شهر ربيع الآخر والكسب قد أثقل المقاتلة، ونصر الله قد بلغ الغاية المستأصلة،

ورحلنا والسلامة لصغير عسكرنا وكبيره شاملة، والعدو قد غزى في عُقره وعُقر، وأذل في دار ملكه واحتقر. ووصلنا إلى مستقر سلطاننا في يوم الاثنين الحادي عشر من الشهر المذكور، فاستقبلنا من مولانا، صلوات الله عليه، وتشريفه واستقبال ركابه، ومشافهتنا بمقبول دعائه الشريف ومحابه، ما عظمت به النعم وجلّت، وزالت به وعثاء الطريق وتجلّت، وجادها سماء إنعامه التي لم تزل تجودنا واستهلت.

قلت ومن قصيدة لعمارة في مدح صلاح الدين أولها:

فؤاد بنار الشوق والوجد محرق

يقول فيها:

لعل بني أيوب إن علموا بما — تظلمت منه أن يرقوا ويشفقوا
غزوا عُقر دار المشركين بغزةٍ — جهاراً، وطرف الشرك خزيان مطرق
وزاروا مصلّى عسقلان بأرعن — يفيض إناء البر منه ويفهق
وكانت على ما شاهد الناس قبلكم — طرائق من شوك القنا ليس تُطرق
وما عصمتهم منك إلا معاقل — تأنوا على تحصينها وتأنقوا
جلبت لهم من سورة الحرب ماالتقى — وادره سورعليهم وخندق
وأخربت من أعمالهم كل عامر — يمر به طيف الخيال فيفرق
أضفت إلى أجر الجهاد زيارة ال — خليل، فأبشر، أنت غازٍ مُوفق
وهيجت للبيت المقدّس لوعة — يطول بها منه إليك التشوق
تنشق من ملقاك أعظم نفحة — تطيب على قلب الهدى حين تنشق

وغزوك هذا سُلم نحو فتحه — قريباً، وإلا رائد ومطرق
هو البيت، إن تفتحه، والله فاعل، — فما بعده باب من الشام مغلق

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

واستفتحها صلاح الدين رحمه الله تعالى بإقامة الخطبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني العباس، وفي الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة، وانقطع ذكر خلفاء مصر. وتوفي العاضد يوم عاشوراء بالقصر، وانقضت تلك الدولة بانتهاء مادام لها من العصر.

وذكر العماد أيضا في أخبار سنة اثنتين وسبعين، كما سيأتي، أنّ الذي خطب بمصر لبني العباس أولا هو أبو عبد الله محمد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي؛ وذكر ذلك أيضاً ابن الدبيثي في تاريخه. وقد أشار إليه القاضي الفاضل في كتاب له إلى وزير بغداد سيأتي ذكره.

قال ابن الأثير: كان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبتت قدمه في مصر وزال المخالفون له وضعف أمر العاضد، وهو الخليفة بها، و لم يبق من العساكر المصرية أحد كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة العباسية. فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك، لميلهم إلى العلويين؛ فلم يصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لافسحة له فيه.

واتفق أن العاضد مرض، وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له، فاستشار الأمراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية؛ فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها، ومنهم من خاف ذلك إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين. وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجمي يعرف بالأمير العالم، وقد رأيناه بالموصل كثيرا، فلما رأى ماهم فيه من الإحجام قال: أنا أبتدئ بها. فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله، فلم ينكر أحد ذلك عليه؛ فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله، ففعلوا ذلك و لم ينتطح فيها عنزان؛ وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية.

وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك، وقالوا، إن سلم فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الأيام التي قد بقيت من أجله؛ فتوفي يوم عاشوراء و لم يعلم.

قال: ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وعلى جميع مافيه. وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش، وهو خصيٌّ، لحفظه، وجعله كأستاذ دار العاضد؛ فحفظ مافيه حتى تسلمه صلاح الدين، ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد، ووكل لحفظهم، وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في الإيوان في القصر، وجعل عندهم من يحفظهم، وأخرج من كان بالقصر من العبيد والإماء، فأعتق البعض ووهب البعض وباع البعض، وأخلى القصر من أهله وسكانه؛ فسبحان من لايزول ملكه ولايغيره ممر الأيام وتعاقب الدهور.

قال: ولما أشتد مرض العاضد أرسل يستدعي صلاح الدين، فظن أن ذلك خديعة، فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه.

قلت: أخبرني الأمير أبو الفتوح بن العاضد، وقد اجتمعت به سنة ثمان وعشرين وستمائة وهو محبوس مقيد بقلعة الجبل بمصر، أن أباه في مرضه استدعى صلاح الدين فحضر، قال وأحضرنا، يعني أولاده وهم

جماعة صغار، فأوصاه بنا، فالتزم إكرامنا واحترامنا، رحمه الله. وأما ندمُ صلاح الدين، فبلغني أنه كان على استعجال بقطع خطبته وهو مريض، وقال: لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما قطعتها إلى أن يموت.

قال العماد: وجلس السلطان للعزاء، وأغرب في الحزن والبكاء، وبلغ الغاية في إجمال أمره؛ والتوديع له إلى قبره؛ ثم تسلم القصر بما فيه من خزائنه ودفائنه. وكان مذ نافق مؤتمن الخلافة وقتل، صُرف مَنْ هو زمام القصر وعُزل، ووكل بهاء الدين قراقوش بالقصر وجعله زمامه، واستنابه مقام نفسه وأقامه؛ فما دخل إلى القصر شئ ولا خرج إلا بمرأى منه ومسمع، ولاحصل أهل القصر بعد ذلك على صفو مشرع. فلما توفي العاضد بطلت تلك القواعد، ووهت المقاعد، وأمر السلطان بالاحتياط على أهله وأولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد، وقرر ما يكون لهم برسم الكسوات والأقوات والأزواد.

قلت: أخبرني أبو الفتوح أنه جعلهم في دار برجوان في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة، وهي دار كبيرة واسعة، كان عيشهم فيها طيبا؛ ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها، وأبعدوا عنها.

قال العماد: وهم إلى اليوم في حفظ قراقوش واحتياطه واستظهاره، يكلؤهم ويحرسهم بعين حزمه في ليله ونهاره؛ وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم من القصر في إيوان، واحترز عليهم في ذلك المكان بكل إمكان، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا فيكثروا، وهم إلى الآن محصورون محسورون لم يظهروا، وقد نقص عددهم، وقلص مددهم. ثم عرض من بالقصر من الجواري والعبيد، والعدّة والعديد، والطريف والتليد، فوجد أكثرهن حرائر فأطلقهن، وجمع الباقيات فوهبهن وفرقهن؛ وأخلى دوره، وأغلق قصوره، وسلّط جوده على الموجود، وأبطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود، وأخذ كل ما صلح له ولأهله وأمرائه، ولخواص مماليكه وأوليائه، من أخائر الذخائر، وزواهر الجواهر، ونفائس الملابس، ومحاسن العرائس، وقلائد الفرائد، والدّرة اليتيمة، والياقوتة العالية الغالية القيمة، والمصوغات التبريّة، والمصنوعات العنبرية، والأواني الفضية، والصوافي الصينية، والمنسوجات المغربية، والممزوجات الذهبية، والمحوكات النضارية، والكرائم واليتائم، والُعود والتمائم، والعقود والنقود، والمنظوم والمنضود، والمحلول والحبير، والوثير والنثير، والعيني واللجيني، والبسط والفرش، ومالا يعدّ إحصاء، ولايحد استقصاء؛ فوقع فيها الغناء، وكشف عنها الغطاء، وأسرف فيها العطاء؛ وأطلق البيع بعد ذلك في كل حدث وعتيق، ولبيس وسحيق، وبال وأسمال، ورخيص وغال، وكل منقول ومحمول، ومصوغ ومعمول. واستمر البيع فيها مدة عشر سنين، وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين.

ونقلت من ديوان العماد بخطه قال. ولما وصل خبر موت العاضد الذي كان بمصر في القصر، موسوماً

بالأمر، في ليلة عاشوراء سنة سبع وستين، بعد الخطبة بها للمستضيء بالله أمير المؤمنين، عملت هذه الأبيات. فذكر قصيدة منها:

توفي العاضد الدّعي، فما … يفتح ذو بدعةٍ بمصر فما

وعصر فرعونها انقضى، وغدا … يوسُفها في الأمور محتكما

وانطفأت جمرة الغواة، وقد … باح من الشرك كل ما اضطرما

وصار شمل الصلاح ملتئما … بها، وعقد السداد منتظما

لما غدا معلنا شعار بني ال … عبّاس حقا، والباطل اكتتما

وبات داعي التوحيد منتصرا … ومن دُعاة الإشراك منتقما

وظلّ أهل الضلال في ظلل … داجية من غيابة وعمى

وارتبك الجاهلون في ظلم … لما أضاءت منابر العُلما

وعاد بالمستضيء مجتهدا … بناءُ حق قد كان منهدما

واعتلت الدولة التي اضطهدت … وانتصر الدين بعدما اهتضما

واهتز عطف الإسلام من جذل … وافترّض ثغر الإيمان وابتسما

واستبشرت أوجه الهدى فرحاً … فليقرع الكُفر سِنّهُ ندما

عاد حريم الأعداء منتهك ال … حمى، وفئ الطغاة مقتسما

قصور أهل القصور أخربها … عامر بيت من الكمال سما

أزعج بعد السكون ساكنها … ومات ذلا وأنفه رُغما

ومن كتاب فاضلي عن السلطان صلاح الدين إلى وزير بغداد على يد الخطيب شمس الدين بن أبي المضاء في بعض السنين: "كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودين الولاء مشروع، وعلم الجهاد مرفوع، وسؤدد السواد متبوع، وحكم السداد بين الأمة موصوع، وسبب الفساد مقطوع ممنوع. وقد توالت الفتوح غرباً ويمناً وشآما؛ وصارت البلاد بل الدنيا، والشهر بل الدهر، حرماً حراما، وأضحى الدين واحدا بعدما كان أديانا؛ والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها إلا صُمًّاً وعُميانا؛ والبدعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلة في شيع الضلال شائعة؛ ذلك بأنهم أتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعا، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعا، وكذبوا بالنار

فعجلت لهم نار الحتوف، ونثرت أقلام الظُّبا حروف رؤسهم نثر الأقلام للحروف، ومزقوا كل ممزق وأخذوا منهم كل مخنق، وقطع دابرهم، ووعظ آيبهم غابرهم، ورغمت أنوفهم ومنابرهم، وحقت عليهم الكلمة تشريدا وقتلا، وتمّت كلمات رَبِّكَ صِدْقا وَعَدْلاً؛ وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم، ولا الليل عن سير إليهم بنائم. ولاخفاء عن المجلس الصاحبي أن من شد عقد خلافة وحلّ عقد خلاف، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الأخلاف والأسلاف، فإنه مفتقر إلى أن يُشكر ما نصح، ويُقلَّد مافتح، ويبَّلغ ما أقترح، ويقدم حقه ولا يطرَّح، ويقرب مكانه وإن نزح، وتأتيه التشريفات الشريفة، وتتواصل إليه أمداد التقويات الجليلة اللطيفة، وتُلَّبى دعوته بما أقام من دعوة، وتوصل عروته بما وصل من غزوة، وترفع دونه الحجب المعترضة، وترسل إليه السحب المروضة، فكل ذلك تعود عوائده، وتبدو فوائده، بالدولة التي كشف وجهه لنصرها، وجرد سيفه لرفع منارها، والقيام بأمرها. وقد أتى البيوت من أبوابها، وطلب النجعة من سحابها، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها، وأنهض لإيصال ملطفاته وتنجيز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر، وقام بالأمر قيام من برّ، واستفتح بلباس السواد الأعظم، الذي جمع الله عليه السواد الأعظم، أملا أنه يعود إليه بما يطوي الرجاء فضل عقبه، ويخلد الشرف في عقبه". ولصاحبنا مجد الدين محمد بن الظهير الإربلي من قصيدة في مدح بعض ذرية السلطان رحمه الله تعالى:

مليك من القوم الذين رماحهم ... دعائم هذا الدين في كل مشهد
هم نصروا التوحيد نصرا مؤزرا ... به عزّ في الآفاق كلّ موحد
وهم قهروا غُلب الفرنج ببأسهم ... فدانوا لهم بالرغم لاعنْ تؤدُّد
وردوا إلى البيت المقدس نُوره ... وقد كان في ليل من الشّرك أسود
وهم سهلوا سبل الحجيج وآمنوا ... بها الركب خوف الكافر المتشدد
وقد ركبت فرسانه بحر أيلة ... يخوضون في بحر من الكيد مُزبد
وهم رجعوا مصراً إلى دعوة الهدى ... بعزمٍ ورأى في العظائم محصد
وهم شيّدوا ركن الخلافة بالذّي ... أعادوه من حقّ طريفٍ ومتلد
وهم شرفوا قدر المنابر باسمها ... وذكر منوط بالرسول محمد
وهم وهبوا عزّ الممالك، واكتفوا ... بسُمر العوالي والعلاء المشيد
فَسَل عن ظُباهم يوم حطين كم مضت ... بمرّ مراد الله في كل أّصيد

وَضعّفْ حديث العدل والبأس والندى إذا كان عنْ أيامهم غَير مُسند

وقال ابن أبي طيّ الحلبي: قد قدمنا ذكر مكاتبة نور الدين رحمه الله وإلحاحه على صلاح الدين في إقامة الخطبة بمصر للعباسيين وأنه أنفذ إليه أباه الأمير نجم الدين أيوب لأجل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد إلى نور الدين في ذلك. ولما ولي ابنه المستضئ أقبل أيضا على مكاتبة نور الدين فيه، وألح نور الدين على صلاح الدين في طلبه، وأفضى به ألمر إلى أنه أهم صلاح الديم وشنع عليه بسببه، وأكثر القول في ذلك.

ولما قدم الأمير نجم الدين حداه على فعل ذلك فاعتذر إليه بأن أحواله لم تستقر بعد، وأموره مضطربة، وأعداؤه كثيرون، وأن المصريين لهم جماعة كبيرة متفرقة في بلاد مصر من السودان وغيرهم، وأن هذا الأمر إن لم يؤخذ على التدريج وإلاَّ فسدت أحواله. فلما أوقع السلطان الملك الناصر بالسودان والأرمن ونكث أمر المصريين وقطع أخبارهم، وترك أجناده في دورهم، ثم قطع إقطاع العاضد وقبض جميع ماكان بيده من البلاد، واستولى على القصور ووكل بها وبمن فيها قراقوش الخادم، خلت له بلاد مصر من معاند ومنابذ؛ ثم شرع وأبطل من الأذان "حيّ على خير العمل"، وأنكر على من يتسم بمذهبهم الانتساب إليهم. فلما رأى أموره مواتية، وأعداؤه قليلين شرع حينئذ في الخطبة لبني العباس. ولما عول على ذلك أمر والده الأمير نجم الدين بالنزول إلى الجامع في جماعة من أصحابه وأمراء دولته، وذلك في أول جمعة من السنة، وأمره أن يحضر الخطيب إليه ويأمره بما يختاره. وإنما فعل الملك الناصر ذلك ووكل الأمر إلى غيره استظهارا وخوفا من فادحة ربما طرأت، أوعدو ربما ثار، فيكون هو معتذرا من ذلك.

ولما حصل نجم الدين بالجامع أحضر الخطيب وقال له: إن ذكرت هذا المقيم بالقصر ضربت عنقك. فقال فلمن أخطب؟ قال: للمستضئ العباسي. فلما صعد المنبر وخطب ووصل إلى ذكر العاضد لم يذكر أحداً لكنه دعا للأئمة المهديين وللسلطان الملك الناصر، ونزل، فقيل له في ذلك فقال: ما علمت اسم المستضئ ولانعوته، ولاتقرر معي في ذلك شئ قبل الجمعة، وفي الجمعة الثانية أفعل إن شاء الله ما يجب فعله في تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك.

قال: وقيل إن العاضد لما اتصل به ما فُعل من قطع اسمه من الخطبة قال لمن خُطب؟ قيل له لم يخطب لأحد مسمى. قال: في الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مسمى. واتفق أنه مات قبل الجمعة الثانية. قيل إنه أفكر واستولى عليه الفكر والهم حتى مات. وقيل إنه لما سمع أنه قطعت خطبته اهتم وقام ليدخل إلى داره فعثر وسقط، فأقام متعللاَ خمسة أيام ومات. وقيل إنه امتص فص خاتمه، وكان تحته سم، فمات.

ولما أتصل موته بالملك الناصر قال: لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة.

فحُكي أن القاضي الفاضل قال للسلطان: لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت؛ أشار إلى أن العاضد قتل نفسه. وكان موته يوم عاشوراء.

قال: وحكى ابن المارستاني في سيرة ابن هبيرة الوزير قال: إن من عجيب ماجرى في أمر المصريين أن رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمس زخمسين وخمسمائة، كأن قمرين أحدهما أنور من الآخر، والأنور منهما مُسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طول، ويهب أدنى نسيم فيحركها، وأثر حركتها وظلها في الأرض؛ وكان الرجل يتعجب من ذلك وكأنه سمع أصوات جماعة يقرؤون بألحان وأصوات لم يسمع قط مثلها، وكأنه سأل بعض من حضر فقال ماهذا، فقالوا قد استبدل الناس بإمامهم. قال وكان الرجل استقبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماماً برًّا تقياً، واستيقظ الرجل. وبلغ هذا المنام ابن هبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد، فعبر المنام بأن الإمام الذي بمصر يستبدل به وتكون الدعوة لبني العباس لمكان اللحية السوداء، وقوى هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين إلى مصر في أول مرة بأنه يظفر بمصر وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده.

وقيلت في ذلك الزمان أشعار في هذا، منها قصيدة شمس المعالي أبي الفضائل الحسين ابن محمد بن تركان، وكان حاجب ابن هبيرة، قالها حين سمع تأويله المنام:

لتهنك يامولى الأنام بشارة ... بها سيف دين الله بالحق مرهف

ضربت بها هام الأعادي بهمة ... تقاصر عنها السمهري المثقف

بعثت إلى شرق البلاد وغربها ... بعوثا من الآراء تحيي وتتلف

فقامت مقام السيف والسيف قاطر ... ونابت مناب الرمح والرمح يرعف

وقدت لها جيشا من الروع هائلا ... إلى كل قلب من عداتك يزحف

ملكت به أقصى المغارب عنوة ... وكادت بمن فيها المشارق ترجف

ليهنك يامولاي فتحا تتابعت ... إليك به حوص الركائب توجف

أخذت به مصرا وقد حال دونها ... من الشرك ناس في لهي الحق تقذف

وقد دنست منها المنابر عصبة ... يعاف التقي والدين منهم ويأنف

فطهرّها من كل شرك وبدعة ... أغر غرير بالمكارم يشغف

فعادت بحمد الله باسم إمامنا ... تتيه على كل البلاد وتشرف

ولاغرو أن دانت ليوسف مصره وكانت إلى عليائه تتشوف

تملكها من قبضة الكفر يوسف وخلصها من عصبة الرفض يوسف

قال يحيى بن أبي طيّ: يريد بيوسف الأول يوسف الصديق النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويوسف الثاني المستنجد بالله الخليفة يومئذ، وقاله على سبيل الفأل؛ ألا تراه قال بعد هذا البيت:

فشابهته خلقا وخلقا وعفة وكل عن الرحمن في الأرض يخلف

وجرى الفأل في البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبني العباس، وهذا من عجيب الاتفاق.

قلت: وذكر ابن المارستاني في السيرة المذكورة قال: وكان هذا المنام سببا إلى أن كاتب الوزير ابن هبيرة نور الدين بن زنكي يحثه على التعرض لمصر والبعث إليها؛ واتفق في اثناء ذلك نوبة شاور وزير صاحب القصر وقدومه هارباً منه إلى نور الدين، فحرك ذلك ماكان تخمر في نفسه مما كان كاتبه به ابن هبيرة، فاستطلع من شاور الأسباب التي يمكن بها الدخول على المصريين، فشرحها وأوضحها، فسير إليها أسد الدين، كما سبق ذكره.

قال: ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السنة على الإسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهم، وصاروا لايقدرون على الظهور من دورهم، وإذا وجد أحد من الأتراك مصريا أخذ ثيابه، وعظمت الأذية بذلك؛ وجلا أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد، وفرح الناس بذلك، وكتبت الكتب به إلى الأقطار وتحدث به السُّمار.

ولما وصل خبر ذلك إلى نور الدين ندب للبشارة إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المطّهر بن أبي عصرون، وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمر بها يقول فيها: "اصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه، وأوضح لنا منهاجه، وهو ما اعتمدنا من إقامة الدعوة الهادية العباسية، بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية والإسكندرية، ومصر والقاهرة، وسائر الأطراف الدانية والقاصية والبادية والحاضرة؛ وانتهت إلى القريب والبعيد، وإلى قوص وأسوان بأقصى الصعيد؛ وهذا شرف لزماننا هذا وأهله، نفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله. وما برحت هممنا إلى مصر مصروفة، وعلى افتتاحها موقوفة، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية، والأقدار في الأزل بقضاء آرائنا وإنجاز مواعدنا قاضية، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها. وطالما مرت عليها الحقب الخوالي، وآبت دونها الأيام والليالي، وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوَّة بدعوة المبطلين، مملوَّة بحزب الشياطين، سابغة ظلالعا للضلال، مقفرة المحل إلا من المحال، مفتقرة إلى نصرة من الله تملكها، ونظرة ستدركها، رافعة يدها في أشكائها، متظلمة إليه ليتكفل بإعدائها على أعدائها، حتى

أذن الله لغُمتها بالانفراج، ولعلتها بالعلاج؛ وسبَّب قصد الفرنج لها، وتوجُّههم إليها طمعا في الاستلاء عليها. واجتمع داءان: الكفر والبدعة، وكلاهما شديد الروعة، فملكنا الله تلك البلاد، ومكنّ لنا في الأرض، وأقدرنا على ماكنا نؤملّه في إزالة الإلحاد والرفض، ومن إقامة الفرض، وتقدمنا إلى من استنَبْناه أن يستفتح باب السعادة، ويستنجح مالنا من الإرادة، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك، ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك".

وهو كتاب طويل اختصرت منه الغرض وهو هذا.

قال: وسار شهاب الدين بن أبي عصرون إلى جهة بغداد ولم يترك مدينة إلا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر، وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر والذكر، حتى وصل إلى بغداد، فخرج الموكب إلى تلقيه وجميع أهل بغداد، مكرمين لخطير وروده، معظمين لجليل مورروده. ونثرت عليه دنانير الإنعام، وحُبى بكل إحسان وإكرام، وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين، كما سيأتي ذكره.

وقال العماد: كان صلاح الدين لايخرج عن أمر نور الدين، ويعمل له عمل القوى الأمين، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين. وقد كان كاتبه نور الدين في شوال سنة ست وستين بتغيير الخطبة، وتذليل أمورها هذه الصعبة، وافتراع بكر هذه القصبة، وفرع الرتبة؛ وأيقن أن أمره متبوع، وقوله مسموع، وحكمه مشروع، ونطقت بذلك قبل التمام، ألسُن الخواص والعوام، فسيَّر نور الدين شهاب الدين أبا المعالي المطهر، ابن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، بهذه البشارة، وإشاعة ما تقدم له بها من الإشاعة، وأمرني بإنشاء بشارة عامة تقرأ في سائر بلاد الإسلام، وبشارة خاصة للديوان العزيز بحضرة الإمام، في مدينة السلام_ثم ذكر نسخة الكتابين.

ثم قال: ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أولها:

قد خطبنا للمستضئ بمصر ... نائب المصطفى إمام العصر

وخذلنا لنصرة العضد العا ... ضدَ والقاصر الذي بالقصر

أراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء.

قال العماد في كتاب الخريدة: قصدت بالعضد والعاضد المجانسة، ونصرة وزير الخليفة كنصرته. ثم قال:

وأشعْنا بها شعار بني العبّ ... اس، فاستبشرت وجوه النصر

وتركنا الدَّعي يدعو ثبورا ... وهو بالذل تحت حجر وحصر

وتباهت منابر الدين بالخط ... بة للهاشمي في أرض مصر

ولدينا تضاعفت نعم الل ... ه، وجلّت عن كل عدّ وحصر
فاغتدى الدين ثابت الرّكن في مص ... ر، محوط الحمى، مصون الثغر
واستنارت عزائم الملك العا ... دل نور الدين الكريم الأغر
وبنو الأصفر القوامص منه ... بوجوه من المخافة صُفر
عرف الحقَّ أهل مصر، وكانوا ... قبله بين منكر ومقر
قل لداعي الدعيّ: حسبك، فالل ... ه أقرّ الحقوق خير مقر
هو فتح بكر، و دون البرايا ... خصنا الله بافتراع البكر
وحصلنا بالحمد، والأجر، والنص ... ر، وطيب الثنا، وحسن الذكر
ونشرنا أعلامنا السود قهرا ... للعدا الزرّقْ بالمنايا الحمر
واستعدنا من أدعياء حقوقا ... تدعيّ بينهم لزيد وعمرو
والذي يدعي الإمامة بالقا ... هرة انحط في حضيض القهر
خانه الدهر في مناه، ولا يط ... مع ذو اللب في وفاء الدهر
ما يقام الإمام إلا بحق ... ما تحاز الحسناء إلا بمهر
خلفاء الهدى سراة بني ... العباس والطيبون أهل الطهر
بهمُ الدين ظافر، مستقيم ... ظاهر قوة، قوى الظهر
كشموس الضحى، كمثل بدور الت ... مِّ، كالسحب، كالنجوم الزهر
قد بلغنا بالصبر كل مراد ... وبلوغ المراد عقبى الصبر
ليس مُثرى الرجال من مَلَك الما ... ل، ولكنما أخو اللب مثرى
ولهذا لم ينتفع صاحب القص ... ر، وقد شارف الدثور، بدثر
دام نصر الهدى بملك بني العب ... اس حتى يقوم يوم الحشر

قال العماد في ديوانه، ونقلته من خطه، قال: ووصل الخبر بأن الخطبة قامت في الإسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان، وفي مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشري شهر رمضان لمولانا الإمام المستضئ بأمر الله أمير المؤمنين، وإقامة شعار بني العباس بها. فقلت، ونحن نزول بجسر الخشب من دمشق في عاشر شوال، وكتبت بها إلى بغداد_فذكر هذه القصيدة.

وقال في البرق: ووصل من دار الخلافة في جواب هذه البشارة عماد الدّين صندل وهو من أكابر الخدم

المقتفوية، من ذوي الروية والهمَّة القوية. وتولى أستاذية الدار العزيزة بعد عزل كمال الدين بن عضد الدين عنها، فأكرم نور الدين بإرسال مثله إليه، وعول في هذا الأمر المهم عليه. وهو أكرم رسول وصل، فأنجح الأمل، وجاء بالتشريف الشريف لنور الدين مكملا، معظما مجملا، بأهبته السوداء العراقية، وحلله الموشية، وطوقه الثقيل، ولوائه الجليل.

وعين يوم يحضر فيه الرسول، ونصوا على من يحضر في مجلس نور الدين وأغفلوا ذكر العماد، فطلبه نور الدين لما حضروا، وقام لقيام الرسل له لما حضر، وقصد أن يعرفهم مترلته عنده، وناوله الكتاب ليقرأه.
قال: فتناوله مني الموفق بن القيسراني خالد، وكان عنده في مقام الوزير وله انبساط زائد، فداريته وماريته، وتركته يقرأ وأنا أرد عليه، وأرشده في التلاوة إلى ما لايهتدي إليه، حتى أنهاه، وأنا على افتياته عليّ لا أنهاه. فأعجب نور الدين صمتي وسمتي، وأحمد مني فضل التأني والتأتي. واجتاب الأهبة ولبس الفرجية فوقها، وتقلد مع تقلد السيفين طوقها؛ وخرج وركب من داخل القلعة، وهو حالٍ بما عليه من الخلعة؛ واللواء منشور، والنضار منثور، والمركبان الشريفان أحدها مركوبه، والآخر بحليته مجنوبه.
قال: وسألت عن معنى تقليده السيفين، واشتماله بالنجادين، فقيل لي هما للشام ومصر، والجمع له بين البلدين.
وخرج إلى ظاهر دمشق حتى انتهى إلى منتهى الميدان الأخضر ثم عاد شريف المفخر، جميل المنظر، حميد المخبر، سعيد المورد والمصدر، لبيقاً بالأعظمين السرير والمنبر. وكان وزن الطوق مع أكرته ألف دينار من الذهب الأحمر. وحملوا لصلاح الدين تشريفاً فاضلاً فائقاً، رائعا رائقاً، لجماله وكماله لائقاً؛ لكن تشريف نور الدين أميز وأفضل، وأجمل وأكمل؛ فسير تشريفه برمته إليه بمصر ليحتاجه، وسير أيضا بخلع من عنده يكرم بها أصحابه. ووصلت تلك الخلعة إليه ولبسها، وأنس من السعادة الدائمة قبسها؛ وطاف بها في الحادي والعشرين من رجب. وهي أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية؛ يعني بعد استيلاء بني عبيد عليها.
قال: وكانت وصلت مع الرسل أعلام وبنود، ورايات سود، وأُهب عباسية، للخطباء في الديار المصرية، فسيُرّت إلى صلاح الدين ففرقها على المساجد والجوامع والخطباء والقضاة والعلماء؛ والحمد لله على ما أنعم وأولى، ووهب وأعطى.
قال ابن أبي طيّ: ولما فرغ السلطان من أمر الخطبة أمر بالقبض على القصور وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح وغير ذلك، فلم يوجد من المال كبير أمر، لأن شاور كان قد ضيّعه في إعطائه الفرنج في المرات التي قدمنا ذكرها، ووجد فيها ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب

وجواهر. ومن عجيب ما وجد فيه: قضيب زمرد طوله شبر وكَسْر، قطعة واحدة، وكان سمت حجمه مقدار الإبهام، ووجد فيه طبل للقولنج، ووجد فيه إبريق عظيم من الحجر المانع، ووجد فيه سبعمائة يتيمة من الجوهر. فأما قضيب الزمرد فإن السلطان أخذه وأحضر صانعاً ليقطعه، فأبى الصانع قطعه، فرماه السلطان فانقطع ثلاث قطع، وفرَّقه السُّلطان على نسائه. وأما طبل القولنج: فإنه وقع إلى بعض الأكراد فلم يَدْر ما هو فكسره، لأنه ضرب به فحبق. وأما الأبريق فأنفذه السلطان إلى بغداد.

واحتاط السلطان على أهل العاضد وأولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد، وقرر لهم ما يكفيهم، وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم، وفرّق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم. واستعرض من بالقصر من الجواري والعبيد، والعدّة والعديد، والطرّيف والتليد، فأطلق مَنْ كان منهم حرا، وأعتق من رأى إعتاقه، ووهب من أراد هبته. وفرق على الأمراء والأصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئاً كثيرا، وحصل هو على اليتيمات وقطع البلخش والياقوت وقضيب الزمرد، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، فأقام البيع في القصر مدّة عشر سنين.

قال: ومن جملة ما باعوا: خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا لأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر. ومن عجائبها: أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، ويقال إنها كانت تحتوى على ألفي ألف وستمائة ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة اشياء كثيرة. وحصل للقاضي الفاضل قدر منها كبير حيث شغف بحبها؛ وذلك أنه دخل إليها واعتبرها، فكلّ كتاب صلح له قطع جلده ورماه في بركة كانت هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها محرومات ثم جمعها بعد ذلك، ومنها حصل ما حصّل من الكتب، كذا أخبرني جماعة من المصريين منهم الأمير شمس الخلافة موسى بن محمد.

واقتسم الناس بعد ذلك دور القصر، وأعطى السلطان القصر الشمالي للأمراء فسكنوه وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة، وهو قصر عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري؛ ونقل الملك العادل إلى مكانه آخر منه، وأخذ باقي الأمراء دور من كان ينتمي إليهم، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن داراً أخرج منها صاحبها وسكنها. وانقضت تلك الدولة برمتها، وذهبت تلك الأيام بجملتها، بعد أن كانوا قد احتووا على البلاد، واستخدموا العباد، مائتين وثمانين سنة وكسورا.

قال: وحكى أن الشريف الجليس وهو رجل كان قريباً من العاضد يجلس معه ويحدثه، عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب أخي السلطان بعد القبض على القصور وأخذ ما فيها وانقراض دولتهم، وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالا كثيراً، وأحضرها أيضاً جماعة من أكابر الأمراء. فلما جلسوا على الطعام

قال شمس الدولة لهذا الشريف: حدّثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم. قال: نعم. طلبني العاضد يوماً وجماعة من الندماء، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم أقبية مثلر أقبيتكم وقلانس كقلانسكم وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم، فقلنا له: ياأمير المؤمنين، ما هذا الزي الذي ما رأيناه قط؟ فقال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ويأخذون أموالنا وذخائرنا.

قال العماد: وأخذت ذخائر القصر، فقصها كما سبق. ثم قال: ومن جملتها الكتب فإني أخذت منها جملة في سنة اثنتين وسبعين، وكانت خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين ألف مجلدة، مؤيدة من العهد القديم مخلدة، وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدي، واقتطعه التعديّ؛ وكانت كالميراث مع أمناء الأيتام، يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهام، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام. وتقاسم الخواص بِدُور القصر وقُصوره، وشرع كل من سكن في تخريب معموره؛ وانتقل إليه الملك العادل سيف الدين لما ناب عن أخيه، واستمرت سكناه فيه؛ وخطب لإمامنا المستضئ في قوص وأسوان والصعيد، والقاصي والداني والقريب والبعيد. وشاعت البشائر، وذاعت المفاخر، وسار بها البادي والحاضر؛ وتملك السلطان أملاك أشياعهم، وضرب الألواح على دورهم ورباعهم، ثم ملكها أمراءه، وخص بها أولياءه؛ وباع أماكن، ووهب مساكن، وعفّى الآثار القديمة، واستأنف السنن الكريمة.

وقال ابن الأثير: لما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ماا"اد ووهب أهله وأمراءه وباع منه كثيرا؛ وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك، قد جمع على طول السنين وممر الدهور، فمنه القضيب الزمرد طوله نحو قبضة ونصف، والحبل الياقوت، وغيرهما؛ ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد.

فصل

ولما خطب بالديار المصرية لبني العباس ومات العاضد انقرضت تلك الدولة، وزالت عن الإسلام بمصر بانقراضها الذلة. واستولى على مصر صلاح الدّين وأهله ونوابه، وكلُّهم من قَبِل نور الدين رحمه الله، هم أمراؤه وخدمه وأصحابه. وفيهم يقُول العرقلة:

أصبح الملك بعد آل عليّ	مشرقا بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق يحسد الغرب للقو	م، ومصرُ تزهو على بغداذ
ما حوَوْها إلا بحزم وعزم	وصليل الفولاذ في الفولاذ
لا كفرعون والعزيز ومن كا	ن بها كالخصيب والأستاذ

يعني بالأستاذ كافور الإخشيد. وقوله: بعد آل علي، يعني بذلك بني عبيد المستخلفين بها، أظهروا للناس أنهم شرفاء فاطميون، فملكوا البلاد، وقهروا العباد. وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلا ولا نسبهم صحيحا، بل المعروف أنهم بنو عبيد.

وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسي، وقيل كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سَلَمْية من بلاد الشام، وكان حدادا؛ وعبيد هذا كان اسمه سعيداً، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله، وزعم أنه علويّ فاطميّ، وادعى نسباً ليس بصحيح، لم يذكره أحد من مصنفي الأنساب العلوية، بل ذكر جماعة من العلماء بالنسب خلافه، وهو ما قدمنا ذكره. ثم ترقت به الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدي، وبني المهدية بالمغرب ونسبت إليه. وكان زنديقاً خبيثاً عدوًّا للإسلام، متظاهراً بالتشيع متستراً به، حريصاً على إزالة الملّة الإسلامية؛ قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة كثيرة، وكان قصده إعدامهم من الوجود، لتبقى العالم كالبهائم، فيتمكن من إفساد عقائدهم وضلالتهم، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون. ونشأت ذريّته على ذلك منطوين، يجهرون به إذا أمكنتهم الفرصة وإلا أسرُّوه، والدعاة لهم منبثون في البلاد، يضلون من أمكنهم إضلاله من العباد. وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها، وذلك من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى سنة سبع وستين وخمسمائة.
وفي أيامهم كثرت الرّافضة واستحكم أمرهم، ووضعت المكوس على الناس واقتدى بهم غيرهم، وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام كالنصيرية والدَّرَزّيّة؛ والحشيشية نوع منهم. وتمكن دعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم. وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة، إلى أن منَّ الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكي وتقدمه مثل صلاح الدين، فاستردّوا البلاد، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد.
وكانوا أربعة عشر مستخلفاً، ثلاثة منهم بإفريقية، وهم الملقبون بالمهدي والقائم والمنصور، وأحد عشر بمصر وهم الملقبون بالمعزّ، والعزيز، والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والفائز، والعاضد؛ يدعون الشرف ونسبتهم إلى مجوسي أو يهودي، حتى أشتهر لهم ذلك بين العوام فصاروا يقولون الدولة الفاطمية والدولة العلوية، وإنما هي الدَّولة اليهودية أو المجوسية الباطنية الملحدة. ومن قحتهم أنهم كانوا يأمرون الخطباء بذلك على المنابر، ويكتبونه على جدران المساجد وغيرها.
وخطب عبدهم جوهر، الذي أخذ لهم الديار المصرية وبنى لهم القاهرة المعزية، بنفسه خطبة طويلة قال فيها: "اللهم صلّ على عبدك ووليك، ثمرة النبوة وسليل العترة الهادية المهدية، معدّ أبي تميم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الطاهرين، وسلفه المنتخبين الأئمة الراشدين".

كذب عدوّ الله اللعين، فلا خير فيه ولا في سلفه أجمعين، ولا في ذريته الباقين، والعترة النبوية الطاهرة منهم بمعزل، رحمة الله عليهم وعلى أمثالهم من الصدر الأول.
وقد بيّن نسبهم هذا، وأوضح محالهم وماكانوا عليه من التمويه وعداوة الإسلام جماعة من سلف من الأئمة والعلماء، وكل متورع منهم لايسميهم إلا بني عبيد الأدعياء، أي يدعوّن من النسب بما ليس لهم.
ورحمة الله على القاضي أبي بكر محمد بن الطيب، فإنه كشف في أول كتابه، المسمى بكشف أسرار الباطنية، عن بطلان نسب هؤلاء إلى علي رضي الله عنه، وأن القدّاح الذي انتسبوا إليه دَعيٌّ من الأدعيتء، ممخرق كذاب، وهو أَضَلّ دعاة القرامطة لعنهم الله.
وأما القاضي عبد الجبار البصري، فإنه استقصى الكلام في أصولها وبينها بياناً شافياً في آخر كتاب تثبيت النبوة له. وقد نقلت كلامهما في ذلك وكلام غيرهما في مختصر تاريخ دمشق في ترجمة عبد الرحيم بن إلياس، وهو من تلك الطائفة الذين هم بئس الناس. وهذان إمامان كبيران من أئمة أصول دين الإسلام.
وأظهر عبد الجبار القاضي في كتابه بعض ما فعلوه من المنكرات والكفريات التي يقف الشَّعر عند سماعها، ولكن لابد من ذكر شئ من ذلك تنفيرا لِمَن لعله يعتقد إمامتهم، وخفي عنه محالهم، ولم يعلم قحتهم ومكابرتهم، وليعذر من أزال دولتهم، وأمات بدعتهم، وقلل عدّتهم، وأفنى أمتهم، وأطفأ جمرتهم.

ذكر عبد الجبار القاضي أن الملقب بالمهدي، لعنه الله، كان يتخذ الجهال ويسلطهم على أهل الفضل؛ وكان يرسل إلى الفقهاء والعلماء فيذبحون في فرُشهم؛ وأرسل إلى الروم وسلطهم على المسلمين؛ وأكثر من الجور واستصفاء الأموال وقتل الرجال. وكان له دعاة يضلون الناس على قدر طبقاتهم، فيقولون لبعضهم: "هو المهدي ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحجة الله على خلقه". ويقولون: "هو رسول الله، صلى الله عليه وسلم وحجة الله". ويقولون لطائفة أُخرى: "هو الله الخالق الرازق. لاإله إلا الله وحده لاشريك له" تبارك سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا".
ولما هلك قام ابنه المسمى بالقائم مقامه، وزاد شرّه على شر أبيه أضعافاً مضاعفة، وجاهر بشتم الأنبياء، فكان ينادي في أسواق المهدية وغيرها: "ألعنوا عائشة وبَعْلَها، ألعنوا الغار ومن حوى". اللهم صل على نبيك وأصحابه وأزواجه الطاهرين، والعن هؤلاء الكفرة الملحدين، وارحم من أزالهم وكان سبب قلعهم، ومن جرى على يديه تفريق جمعهم؛ وأصلهم سعيراً، ولَقِّهم ثبوراً، وأسكنهم النار جميعا، واجعلهم ممن قلت فيهم: "الَّذين ضَلّض سَعْيُهم في الحَيْاة الدُّنيا وَهُمْ يَحْسَبون أَنَّهم يُحْسِنُون صُنعاً".
وبعث إلى أبي طاهر القرمطي المقيم بالبحرين، وحثه على قتل المسلمين وإحراق المساجد والمصاحف.
وقام بعده ابنه المسمى بالمنصور فقتل أبا يزيد مخلداً الذي خرج على أبيه ينكر عليه قبيح فعله المقدم

ذكره، وسلخه وصلبه، واشتغل بأهل الجبال يقتلهم ويشردهم، خوفاً من أن يثور عليه ثائر مثل أبي يزيد. وقام بعده ابنه ىالملقب بالمعز، فبعث دعاته فكانوا يقولون: هو المهدي الذي يملك الأرض، وهو الشمس التي تطلع من مغربها. وكان يسره ما يترل بالمسلمين من المصائب من أخذ الروّم بلادهم، واحتجب عن الناس أياماُ ثم ظهر وأوْهم أن الله رفعه إليه، وأنه كان غائباً في السماء، وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها إليه جواسيس له، فأمتلأت قلوب العامة والجهال منه. وهذا أول خلفائهم بمصر، وهو الذي تنسب إليه القاهرة المعزيّة. واستدعى بفقيه الشام أبي بكر محمد بن أحمد بن سهل الرّملي، ويعرف بابن النابلسي؛ فحمُل إليه في قفص خشب، فأمر بسلخه، فسلخ حيا، وحشى جلده تبنا وصلب، رحمه الله تعالى. قال أبو ذر الهروي سمعت أبا الحسن الدار قطني يذكره ويبكي، ويقول: كان يقول وهو يسلخ: "كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُوراً".

قلت: وفي أيام الملقب بالحاكم منهم أمر بكتب سبّ الصحابة رضي الله عنهم على حيطان الجوامع، والقياسر والشوارع، والطرقات؛ وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسبّ، ثم أمر بقلع ذلك؛ وأنا رأيته مقلوعاً في بعض أبواب دمشق في الأمكنة العليا منقوراً في الحجر، ودلّني أول الكلام وآخره على ذلك، ثم جدّد ذلك الباب وأزيل الحجر. وفي أيامه طُوّف بدمشق برجل مغربي ونودي عليه؛ هذا جزاء من يحبّ أبا بكر وعمر، ثم ضربت عنقه. وكان يجري في أيامهم من نحو هذا أشياء مثل قطع لسان أبي القاسم الواسطي، أحد الصالحين، وكان أَذّن ببيت المقدس وقال في أذانه "حيّ على الفلاح" فأُخذ وقطع لسانه. ذكر ذلك وما قبله من قتل المغربي وأبي بكر النابلسي الحافظُ أبو القاسم في تاريخه. وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين إلا محنة من الله تعالى، ولهذا طالت مدهم مع قلة عِدهم، فإن عدهم عدة خلفاء بني أمية أربعة عشر، وأولئك بقوا نيّفاً وتسعين سنة وهؤلاء بقوا مائتي سنة وثمانياً وستين سنة؛ فالحمد لله على ما تيسر من هُلكهم وإبادة ملكهم، ورضي الله عمن سعى في ذلك وأزالهم، ورِحم مَنْ بيّن مَخْرقتهم، وكذبهم ومِحالهم.

وقد كشف أيضاً حالهم الإمام أبو القاسم عبد الرَّحمن بن علي بن نصر الشاشي في كتاب الرَّدِّ على الباطنية، وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش في أيام نزار وما بعده. ووصل الأمر إلى أن وصف بعضهم ما كانوا في قصيدة سماها: الإيضاح عن دعوة القدّاح، أوَّلها:

حيَّ على مصر إلى خلع الرَّسَنْ فثمَّ تعطيل فروض وسنن

وقال لو وُفّق ملوك الإسلام لصرفوا أعنة الخيل إلى مصر لغزو الباطنية الملاعين، فإهم من شر أعداء دين

الإسلام، وقد خرجت من حد المنافقين إلى حدّ المجاهرين، لما ظهر في ممالك الإسلام من كفرها وفسادها، وتعيّن على الكافة فرض جهادها. وضرر هؤلاء أشد على الإسلام وأهله من ضرر الكفار؛ إذ لم يقم بجهادها أحد إلى هذه الغاية، مع العلم بعظيم ضررها وفسادها في الأرض.

قلت: ثم إنيّ لم يقنعني هذا من بيان أحوالهم، فأفردت كتاباً لذلك سميته كشف ما كان عليه بنو عبيد، من الكفر والكذب والمكر والكيد، فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به، فإني بتوفيق الله تعالى جمعت فيه ماذكره هؤلاء الأئمة المصنفون وغيرهم. ووقفت على كتاب كبير صنفه الشريف الهاشمي رحمه الله، وكان في أيام الملقب بالعزيز ثاني خلفاء مصر، فبين فيه أصولهم أتم بيان، وأوضح كيفية ظهورهم وغلبتهم على البلاد، وتتبع ذكر فضائحهم وما كان يصدر منهم من أنواع الزندقة والفسق والمخرقة، فنقلت منه إلى ما كنت جمعته قطعة كبيرة، وبالله التوفيق.

وما أحسن ماقال فيهم بعض من مدح بني أيوب بقصيدة منها:

ألَسْتم مزيلي دولة الكفر من بني ... عبيد بمصر، إن هذا هو الفضل

زنادقة، شيعية، باطنية ... مجوسُ، ومافي الصالحين لهم أصل

يُسِرُّون كفراً، يظهرون تشيَّعاً ... ليستتروا شيئاً، وعمهّم الجهل

أما مافعله هؤلاء من الانتساب إلى عليّ رضوان الله عليه والتستر بالتشيع فقد فعله جماعة القرامطة، وصاحب الزنج الخارج بالبصرة، وغيرهم من المفسدين في الأرض على ماعرف مِنْ سيرهم من وقف على أخبار الناس، وكلهم كذبة في ذلك وإنما غرضهم التقرب إلى العوام والجهال، واستتباعهم لهم، واستجلابهم إلى دعوتهم بذلك البلاء، ويفعل الله مايشاء. ولايغُتر بأبيات الشريف الرضي في ذلك، فقد حصل الجواب عنها في كتاب الكشف بوجوه حسنة، وبالله التوفيق.

وقد صنف الشريف العابد الدمشقي، رحمه الله، كتاباً في إبطال نسبهم إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وفصل ذلك تفصيلا حسناً، وأطنب في ذكر أخبار إخوانهم من القرامطة، لعنهم الله تعالى.

فصل في ذكر غزو الفرنج في هذه السنة

قال ابن شداد: واستمرت القواعد على الاستقامة، وصلاح الدين كلما استولى على خزانة مال وهبها، وكلما فتح له خزائن ملك أنهبها، ولايُبقى لنفسه شيئاً. وشرع في التأهب للغزاة، وقصد بلاد العدو، وتعبئة الأمر لذلك، وتقرير قواعده.

وأما نور الدين فإنه عزم على الغزاة، واستدعى صاحب الموصل ابن أخيه، فوصل بالعساكر إلى خدمته.

وكانت غزوة عرقة فأخذها نور الدين ومعه ابن أخيه في المحرم سنة سبع وستين.

وقال ابن أبي طي: جمع نور الدين عساكره وخرج إلى عرقة ونازلها، وقاتلها، أياماً حتى فتحها، واحتوى على جميع مافيها، وغنم الناس غنيمة عظيمة.

قال ابن الأثير: خرجت مراكب من مصر إلى الشام فأخذ الفرنج في اللاذقية مركبين منها مملوءتين من الأمتعة والتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا. فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه، وراسل الفرنج في ذلك، وأمرهم بإعادة ماأخذوه، فغالطوه، واحتجوا بأمور منها: أن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما؛ وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء، وكانوا كاذبين، فلم يقبل مغالطتهم. وكان رضي الله عنه لايهمل أمراً من أمور رعيته؛ فلم يردوا شيئاً، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة، وبث السرايا في بلادهم، بعضهم نحو أنطاكية، وبعضهم نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة وأخرب ربضه، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصني صافيثا والعريمة، فأخذهما عنوة وكذلك غيرهما؛ ونهب وخرّب، وغنم المسلمون الكثير، وعادوا إليه وهو بعرقة فسار في العساكر جميعها إلى قريب طربلس يخرب ويحرق وينهب. وأما الذين ساروا إلى أنطاكية فإنهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس، فراسله الفرنج وبذلوا إعادة ما أخذوه من المركبين، ويجدد معهم الهدنة؛ فأجابهم. وكانوا في ذلك كما يقال: اليهودي لايعطي الجزية حتى يُلطم، فكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن، فلمّا نُهبت بلادهم وخربت أعادوها.

قال: وكان لوالدي في المركبين تجارة مع شخصين، فلما أعادوا إلى الناس أموالهم لم يصل إلى كل إنسان إلا اليسير. وكان يُحمل المتاع فكل من كان اسمه عليه أو على ثوب أخذه. وكان في الناس من يأخذ ماليس له، وكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة، وكان نصرانياً، فلم يأخذ إلا ما عليه اسمه وعلامته، فذهب من ماله ومالنا شئ كثير بهذا السبب. وكان الذي حصل من مالنا أكثر من الذي حصل له، فلما عاد إلينا سلّم الذي لنا إلى والدي، فامتنع من أخذه وقال: خذ أنت الجميع فإنك أحوج إليه وأنا في غنى عنه؛ فلم يفعل؛ فقال خذ النصف وأنا النّصف، واجتهد به والدي فلم يفعل. فلما كان بعض الأيام وإذا قد جاء الغلام ومعه عدّة من الأثواب السوسية وغيرها؛ وقال: هذا من قماشنا قد حضر اليوم. وسبب حضوره أن إنساناً فقاعياً من أهل تبريز كان معنا في المركب وقد أعادوا عليه ماله، فرأى هذه الأثواب واسمى عليها فلم يسهل عليه أن يردها، يعني عليهم، وسأل عني وقد قصدني، وهي معي، وحضر عندي الساعة وسلمها إليّ، وقال: قد تركت طريقي لتبرأ ذمتي. فأخذنا نحن ماعليه اسمنا بعد الجهد، وطلب

والدي الرجل، وسأله أن يقيم عندنا لنسلم إليه مالاً يتجر فيه، فلم يفعل، وعاد إلى بلده. قال: وهذان الرجلان نادران في هذا الزمان.

فصل في عزم نور الدين على الدخول إلى مصر

قال العماد: وكان صلاح الدين واعده نور الدين أن يجتمعا على الكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بالصلاح المشترك، فخرج من القاهرة في الثاني والعشرين من المحرم، بالعزم الأجزم، والرأي الأحزم؛ فاتفق للاجتماع عائق، و لم يقدر للاتفاق قدر موافق؛ فلقي في تلك السفرة شدة، وعدم خيلا وظهرا وعُدة؛ وعاد إلى القاهرة في النصف من ربيع الأول.

قال ابن الأثير: وفي سنة سبع وستين أيضاً جرى ما أوجب نفرة نور الدين من صلاح الدين.

وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلاد الفرنج والنزول على الكرك ومحاصرته، ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاسيلاء على بلادهم. فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم، وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لايتأخر؛ وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو. فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكرك، فوصل إليه، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد إليها؛ فلم يقبل نور الدين عذره.

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوّفوه من الاجتماع بنور الدين. فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شقّ ذلك عليه، وعظم عنده، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها. فبلغ الخبر صلاح الدين فجمع أهله، وفيهم والده نجم الدين، وخاله شهاب الدين الحارمي، ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه؛ واستشارهم، فلم يجبه أحد منهم بشئ. فقام ابن أخيه تقيّ الدين عمر وقال: إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد؛ ووافقه غيره من أهله. فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه، وكان ذا رأى ومكر، وكيد وعقل، وقال لتقيّ الدّين: اقعد، وسبَّه؛ وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا شهاب الدّين خالك، أتظنّ في هؤلاء كلِّهم مَنْ يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا. فقال: والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكنا إلا أن نترجل إليه ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمر بضرب عنقك بالسيف لفعلنا؛ فإذا كنّا نحن هكذا كيف يكون غيرنا، وكلّ من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه، ولاوسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه؛ وهذه البلاد له، وقد أقامك فيها، فإن أراد عزلك فأي حاجة به إلى المجئ؟

يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد! وقال للجماعة كلهم: قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده، ويفعل بنا مايريد. فتّفرقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر.

ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال: أنت جاهل قليل المعرفة؛ تجمع هذا الجمع الكبير وتُطلعهم على مافي نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهمّ الأمور إليه وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم ترمعك من هذا العسكر أحدا، وكانوا أسلموك إليه؛ وأما الآن بعد هذا المجلس، فسيكتبون إليه ويعرفونه قولي، وتكتب أنت إليه وترسل في هذا المعنى وتقول: أيّ حاجة إلى قصدي؟ يجئ نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي؛ فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده، والأيام تندرج، والله كل وقت في شأن.

ففعل صلاح الدين ما أشار به والده. فلما رأى نور الدين رحمه الله تعالى الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين؛ توفي نور الدين و لم يقصده ولا أزاله، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

فصل في الحمام

قال ابن الأثير: وفي سنة سبع وستين أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الهوادي، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده.

وكان سبب ذلك أنه اتسعت بلاده وطالت مملكته، فكانت من حد النوبة إلى باب همذان، لايتخللها سوى الفرنج. وكان الفرنج، لعنهم الله، ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض؛ فحينئذ أمر بذلك وكتب به إلى سائر بلاده، وأجرى الجرايات لها ولمربيها؛ فوجد بها راحة كبيرة. وكانت الأخبار تأتيه لوقتها، لأنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون، ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر، وسرحوه إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين؛ وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه. فانحفظت الثغور بذلك حتى إن طائفة من الفرنج نازلوا ثغراً له فأتاه الخبر ليومه، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس العدو، ففعلوا ذلك، فظفروا والفرنج قد أمنوا لبُعد نور الدين عنهم؛ فرحم الله نور الدين ورضي عنه، فما كان أحسن نظره للرعايا وللبلاد.

وقال العماد: وكان نور الدين لايقيم في المدينة أيام الربيع والصيف محافظة على الثغر، وصوناً من الحيف،

ليحمي البلاد من العدو بالسيف، وهو متشوف إلى أخبار مصر وأحوالها، وتحقيق اعتدالها بتمحيق اعتلالها. فرأى اتخاذ الحمام المناسيب وتدريجها على الطيران، لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان؛ وتقدم إلى بكتب منشور لأربابها، وإعزاز أصحابها، وهو حينئذ بظاهر دمشق، مخيم بوادي اللّوان، ونحن مستظهرون في ذلك الأوان، عادُون على أهل العدوان؛ وذلك في سابع عشر ذي القعدة من السنة. ثم ذكر نسخة المنشور ووصف فيه الحمام، فقال: "هي برائد الأنباء، المخصوصة بفضيلة الإلهام والإيحاء، وهي فيوج الرسائل المأمونة الإبطاء، والسابقات الهُوج في الاهتداء؛ والحاملات مُلطَّفات الأسرار في أقرب مدة إلى أبعد غاية، والموصّلات مهمات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية، والقاطعات في ساعتها إلى البلاد أجواز القفار والموامي، والنافذات بنجح المرام بعود السهام إلى المرامي؛ وهي تطوي الفراسخ البعيدة والأشواط في ساعة، وتنتهي إلى أقصى عنايات الطاعة بأتم استطاعة. وقد عمّ بها نفع المرابطين للغزاة والمجاهدين في سبيل الله، في إهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها، دالة على مكايدها ومكامنها، طائرة بكتبهم إلى من وراءهم من الطلائع والسّرايا، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا؛ وإنها لميمونة المطار، مأمونة العثار، سالمة على الأخطار، مهدية في الأسفار، أمينة على الأسرار، سابقة إلى الأوكار، صادرة بالأوطار، سائرة إلى المؤمنين بنبأ الكفار".

قلت: وكل هذه أوصاف حسنة وعبارات مستحسنة. وقد بلغني عن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى أنه وصفها بألطف من هذه الأوصاف وأخصر فقال: الطيور ملائكة الملوك؛ يشير إلى أن نزولها على الملوك من جوّ الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء، مع فرط مافيها من الأمانة، لايتوهم من جهتها خيانة. فلقد أحسن فيما وصف، وأبدع فيما استنبط وأنصف، وهو بذلك أولى وأعرف. رحم الله الجميع.

فصل في باقي حوادث هذه السنة

قرأت نسخة سجل بإسقاط المكوس بمصر، قرئ على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر سنة سبع وستين وخمسمائة، عن السلطان الملك الناصر في أيام نور الدين رحمه الله، فهو كان الآمر وذاك المباشر، يقول فيه: "أما بعد؛ فإنا نحمد الله سبحانه على مامكنّ لنا في الأرض، وحسّنه عندنا من أداء كل نافلة وفرض، ونصبنا له من إزالة النّصب عن عباده، واختارنا له من الجهاد في الله حق جهاده، وزهدنا فيه من متاع الدّنيا القليل، وألهمنا من محاسبة أنفسنا على النّقير والفتيل، وأولانا من شجاعة السماحة، فيوماً نهب ما اشتملت عليه الدواوين، ويوماً نقطع ما سقاه النيل؛ فالبشائر في أيامنا تترى، شفعاً ووترا،

والمسارُّ كنظام الجوهر تتبع الوادحة منها الأخرى، والمسامحات قد ملأت المسامع والمطامع، وأسخطت الخيمة والصنائع، وأرضت المنبر والجامع. ولما تقلدنا أمور الرّعية رأينا المكوس الديوانية بالقاهرة ومصر، أولى ما نقلناها من أن تكون لنا في الدنيا إلى أن تكون لنا في الآخرة، وأن نتجرد منها لنلبس أثواب الأجر الفاخرة، ونطهر منها مكاسبنا، ونصون عنها مطالبنا، ونكفي الرّعيّة ضرّهم الذي يتوجه إليهم، "وَنَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُم وَالأَغْلالَ الَّتِي كانت عَلَيْهِم"، ونعيدها اليوم كأمس الذاهب، ونضعها فلاترفعها من بعد يد حاسب، ولاقلم كاتب. فاستخرنا الله وعجلنا إليه ليرضى، ورأينا فرصة أجر لاتغض عليها بصائر الأبصار ولايُغضى؛ وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر، وجميع التجار المترددين إليهما، وإلى ساحل المقسم، والمنية، بأبواب المكوس صادرها وواردها، فَيَرِدُ التاجر ويُسفر، ويغيب عن ماله ويحضر، ويقارض ويتجر براَ وبحراً، مركباً وظهرا، سرّا وجهراً، لايحلُّ ماشده، ولايحاول ما عنده، ولايكشف ما ستره، ولا يسأل عما أورده وأصدره، ولا يُستوقف في طريقه، ولايشرق بريقه، ولايؤخذ منه طعمه، ولا يستباح له حرمه. والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العين مائة ألف دينار، مسامحة لايتعقبها تأويل، ولايتخونها تحويل، ولايعتريها زوال، ولايعتورها انتقال؛ دائمة بدوام الكلمة، قائمة ماقام دين القيِمَة؛ مَنْ عارضها ردّت أحكامه، ومن ناقضها نقض إبرامه، ومن أزالها زلّت قدمه، ومن أحالها حل دمه، ومن تعقبها خلدت اللعنة فيه وفي عقبه، ومن احتاط لدنياه فيها أحاط به الجحيم الذّي هو من خطبه. فمن قرأه، أو قُرى عليه من كافة ولاة الأمر من صاحب سيف وقلم، ومشارف أو ناظر، فليمتثل ما مثل من الأمر، ولْيُمْضه على ممر الدهر مُرضياً لربه، ممضياً لما أمر به".

وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبي المقري النحوي، وهو نزيل الموصل رحمه الله تعالى.

وفيها ولد العزيز والظاهر ابنا صلاح الدين، والمنصور محمد بن تقي الدين.

وفيها في ثالث شوال توفي أبو الفتوح نصر بن عبد الله الإسكندري، المعروف بابن قلاقس الشاعر، بعيذاب، ومولده بالإسكندرية رابع ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، فيكون عمره نحواً من خمس وثلاثين سنة.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

ففيها توفي ملك البجاة الحسن بن صافي.

وفيها ترتب العماد الكاتب مشرفا بديوان نور الدين مضافا إلى كتابة الإنشاء.

قال: وكان نور الدين ذكيا ألمعيا، فطنا لوذعيا، لاتشتبه عليه الأحوال، ولا يتبهرج عليه الرجال، ولايتأهل

لغير أهل الفضل منه الإفضال.

قال: ولما عرض صلاح الدين بعد العاضد خزائنه، واستخرج دفائنه، سير منها عدة من الأمتعة المستحسنة، والآلات المثمنة، وقطع البلور واليشم، والأواني التي لايتصور وجودها في الوهم، ومعها ثلاث قطع من البلخش، أكبرها نيف وثلاثون مثقالا، والثانية ثمانية عشر، والأخرى دونها، وقرن بها من اللآلئ مصونها ومكنونها؛ وحمل معها من الذهب ستين ألف دينار، ووصلت من غرائب المصنوعات بما لايجتمع مثله في أعصار وأعمار، ومن الطيب والعطر ما لم يخطر ببال عطار. فشكر نور الدين همته وذكر بالكرم شيمته، ووصف فضيلته، وفضل صفته، وقال: ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال، ولا نسد به خلة الإقلال، فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر وبنا إلى الذهب فقر، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جُدْنا به قدر. وتمثل بقول أبي تمام:

لم يُنفق الذهب المُرْبى بكثرته   على الحصا وبه فقر إلى الذهب

لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى السداد، ووفور الأعداد من الأجناد، وقد عم بالفرنج بلاء البلاد؛ فيجب أن يقع التعاقد على الإمداد بالمعونة، والمعونة بالإمداد.

فاستنزره وما استغزره، واستقل المحمول في جنب ماحرره، وتروى فيما يدبره، وأفكر فيما يقدمه من هذا المهم ويؤخره.

قال ابن أبي طيّ: لم تقع هذه الهدية من نور الدين بموقع، وجرد الموفق بن القيسراني وزيره إلى مصر وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام أخبارها وارتفاعها، وأين صرفت أموالها؛ فإذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنة. وعظُم على نور الدين أمر مصر، وأخذه من إستيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعد، وأكثر في مراسلته في حمل الأموال.

حدثني أبي قال: لم تخف حال نور الدين في كراهية الملك الناصر؛ ولقد علم ذلك جميع الأجناد والأمراء وتحدثت به العوام، ولاسيما حين أنفذ هذه الهدية. واشتد بعد ذلك في مراسلته، وأنفذ ابن القيسراني لكشف الأحوال؛ ولو طال عمره لم يكن له بدٌّ من الدخول إلى مصر.

قال العماد: وكان نور الدين مذ مُلكت مصر، وتوجه له فيها النصر، يؤثر أن يقر له فيها مال للحمل، يستعين به على كلف الجهاد وتخفيف ماله من الثقل، والأيام تماطله، والأعوام تطاوله، وهو ينتظر أن صلاح الدين يبتدئ من نفسه بما يريده، وهو لايستدعي منه ولايستزيده. فلما حمل من أخائر الذخائر والمال الحاضر ما حمله، وعرف مجمله ومفصله، تقدم إلى الموفق خالد بن القيسراني أن يمضي، ويطالب ويقتضي، ويعمل أيضا بالأعمال المصرية جزازة، ولايبتغي في نفوس ديوانه من أمرها حزازة؛ وأرسل معه

الهدايا، والتحف السنايا، وأقام العماد مقامه في ديوان الاستيفاء، فجمع بين الإشراف والاستيفاء، ومنصب الإنشاء. ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قال العماد: وخرج صلاح الدين في النصف من شوال ومعه الفيل، والحمارة العتابية، والذخائر النفيسة التي كان انتخبها من خزائن القصر، وهي معدودة من محاسن العصر، وقد سبق ذكر تسييرها إلى نور الدين، وقُوبلت بالإحسان والتحسين. ووصلت الحمارة وكثرت لها النظارة؛ وأما الفيل فإنه وصل إلينا في سنة تسع وستين ونحن بحلب في الميدان الأخضر، وأهداه نور الدين إلى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شئ من تحفة الثياب والعود والعنبر. ثم سيّره سيف الدين إلى بغداد هدية للخليفة، مع ما سيّره معه من التحف اللطيفة؛ وسير نور الدين الحمارة العتابية إلى بغداد مع هدايا، وتحف سنايا.

فصل في جهاد السلطانين للفرنج في هذه السنة

قال العماد: ونزل صلاح الدين على الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون فبرح بها، وفرق عنها عربها، وخرب عمارتها، وشنَّت على أعمالها سراياه بغاراته.

ووصل منه كتاب بالمثال الفاضلي: سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل، أعز الله سلطانه ومد أبداً إحسانه، ومكن بالنصر إمكانه، وشيد بالتأييد مكانه، ونصر أنصاره، وأعان أعوانه. علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص أجنحتهم ويقلل أسلحتهم، ويقطع موادهم، ويخرب بلادهم؛ وأكبر الأسباب المعينة على مايرومه من هذه المصلحة ألا يبقى في بلادهم أحدُ من العربان، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الإيمان. ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد، وعده من أعظم أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل دارهم، إلى أن صار العدو اليوم إذا نهض لايجد بين يديه دليلاً، ولايستطيع حيلة، ولايهتدي سبيلا.

ثم ذكر باقي الكتاب.

قال ابن شداد: وهذه أول غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية. وإنما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لأنها كانت أقرب إليه، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، وكان لايمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو؛ فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض، وتسهل على السابلة. فخرج قاصداً لها أثناء سنة ثمان وستين، فحاصرها، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد عنها و لم يظفر منها بشئ في تلك الدفعة؛ وحصل ثواب القصد.

وأما نور الدين فإنه فتح مرعش في ذي القعدة من هذه السنة وأخذ بهسني في ذي الحجة منها.

وقال العماد: حضرت عند الملك العادل نور الدين بدمشق، في العشرين من صفر، ووجهه بنور الدين البشر قد سفر، والحديث يجري في طيب دمشق وحسن آلائها، ورقّة هوائها، وبهجة بهائها، وإزهار أرضها كزهر سمائها، وكلّ منا يمدحها، وبحبه يمنحها، وكلّ منا يطريها؛ فقال نور الدين: أنا حُبّ الجهاد يسليني عنها، فما أرغب فيها. فارتجلت هذا المعنى في الحال، فقلت:

ليس في الدنيا جميعاً بلدةُ مثل دمشق
ويسليني عنها في سبيل الله عشقي
والنقي الأصل، ومن يت ركها يَشْقَى ويُشْقي
كم رشيقٍ شاغل عنه بسهم الغزو رشقي
وامتشاق البيض يغني عنه بالإقلام مشقي

قال: وسألني نور الدين أن أعمل دوبيتيات في معنى الجهاد على لسانه، فقلت:

للغزو نشاطي وإليه طربي مالي في العيش غيره من أرب
بالجد وبالجهاد نجح الطلب والراحة مستودعة في التعب

وقلت أيضا:

لاراحة في العيش سوى أن أغزو سيفي طربا إلى الطلي يهتز
في ذل ذوي الكفر يكون العز والقدرة في غير جهادٍ عجز

وقلت أيضا:

أقسمت سوى الجهاد مالي أرب والراحة في سواه عندي تعب
إلا بالجد لاينال الطلب والعيش بلا جدٍّ جهادٍ لعب

قال: واتفق خروج كلب الروم اللعين، في جنود الشياطين، يقصد الغارة على زرّا من ناحية حوران، وهم في جمع غلبت الخبر والعيان؛ ونزلوا في قرية تعرف بسمكين. فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة إليهم، وأقدم بعساكره عليهم؛ فلما عرفوا وصوله رحلوا إلى الفوار ثم إلى السواد ثم نزلوا بالشلالة، ونزل نور الدين عشترا، وقد سرّه ماجرى؛ فأنفذ سريّة إلى أعمال طبرية، واغتنم خلّوها، فأدلجت تلك الشجعان، وثبت من ثبته الإيمان، حتى عبرت السرية، وانفصلت تلك القضية. ورحل نور الدين من عشترا فنزل بظاهر زرّا.

قال العماد: وكنت راكباً في لقائهم مع الملك العادل وهو يقول: كيف تصف ماجرى، فمدحته بقصيدة منها:

عُقدت بنصرك راية الإيمان ... وبدت لعصرك آية الإحسان
يا غالب الغُلب الملوك، وصائد الصِّ ... يد اللُّيوث، وفارس الفرسان
يا سالب التيجان من أربابها ... حُزت الفخار على ذوي التيجان
محمودُ المحمودُ مابين الورى ... في كل إقليم بكل لسان
ياواحدا في الفضل غير مُشارك ... أقسمت: مالك في البسيطة ثاني
أحلى أمانيك الجهادُ وإنهُ ... لك مؤذنُ أبداً بكل أمان
كم بكر فتح ولَّدته ظُباك من ... حرب لقمع المشركين عَوان
كم وقعةٍ لك بالفرنج، حديثها ... قد سار في الآفاق والبلدان
قمصت قومصهم رداءً من ردى ... وقرنت رأس برنسهم بسنان
وملكت رقّ مُلوكهم، وتركتهم ... بالذل في الأقياد والأسجان
وجعلت في أعناقهم أغلالهم ... وسحبتهم هُوناً على الأذقان
إذ في السوابغ تحطم السمر القنا ... والبيض تخضب بالنجيع القاني
وعلى غناء المشرفية في الطلى ... والهام رقص عوالي المرّان
وكأن بين النقع لمع حديدها ... نارُ تألقُ من خلال دخان
في مأزق ورد الوريد مكفل ... فيه برىّ الصارم الظمآن
غطى العجاج به نجوم سمائه ... لتنوب عنها أنجم الخرصان
أو ما كفاهم ذاك حتى عاودوا ... طُرُق الضلال ومركب الطغيان

ومنها:

وجلْوتَ نور الدين ظلمة كفرهم ... لما أتيت بواضح البُرهان
وهزمتهم بالرأي قبل لقائهم ... والرأي قبل شجاعة الشجعان
أصبحت للإسلام رُكناً ثابتاً ... والكفر منك مضعض الأركان

قوَّضت آساس الضلال بعزمك ال ماضي، وشدْت مباني الإيمان
قُل أين مثلك في الملوك مجاهد لله في سرِ وفي إعلان
لم تلقهم ثقةً بقوة شوْكةٍ لكن وثقت بنصرة الرحمن
مازال عزمك مستقلا بالذي لا يستقل بثقله الثقلان
وبلغت بالتأييد أقصى مبلغ ما كان في وسع ولا إمكان
دانت لك الدنيا، فقاصيها إذا حققته لنفاذ أمركداني
فمن العراق، إلى الشآم، إلى ذرا مصر، إلى قوص، إلى أسوان
لم تله عن باقي البلاد، وإنما ألهاك فرض الغزو عن همذان
للروم والإفرنج منك مصائب بالترك، والأكراد، والعربان
أذعنت لله المهيمن إذ عنت لك أوجه الأملاك بالإذعان
أنت الذي دون الملوك وجدته ملآن من عرف ومن عرفان
في بأس عمرو، في بسالة حيدرٍ في نطق قسٍ، في تقى سلمان
سيرُ، لوان الوحي ينزل أنزلت في شأنها سورُ من القران
فاسلم، طويل العُمْر، ممتد المدى صافي الحياة، نخلد السلطان

وهي قصيدة طويلة، وصف فيها أمراءه الحاضرين الجهاد معه ومدحهم.

فصل في فتح بلاد النوبة

قال العماد: وفي جمادي الأولى غزا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أخو صلاح الدين، بلاد النوبة، وأراهم سُطاه الموهوبة وفتح حصناً لهم يعرف بإبريم، وآلى ألا يريم؛ وهي بلادُ عديمة الجدوى، عظيمة البلوى. ثم جمع السبْيّ وعاد به إلى أسوان، وفرّق على أصحابه في الغنائم السودان.

وقال ابن أبي طيّ الحلبي: وفي هذه السنة اجتمع السّودان والعبيد من بلاد النوبة وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين ملك بلاد مصر، وصاروا إلى أعمال الصعيد، وصمموا على قصد أسوان وحصارها، ونهب قراها. وكان بها ألمير كنز الدولة، فأنفذ يُعلم الملك الناصر وطلب منه نجدة، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكي. فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخربوا أرضها؛ فأتبَّعهم الشجاع والكنز، فجرت حربُ عظيمة قُتل فيها من الفريقين عالم عظيم.

ورجع الشجاع إلى القاهرة وأخبر بفعال العبيد، وتمكنهم من بلاد الصعيد، فأنفذ الملك الناصر أخاه شمس الخلافة في عسكر كثيف، فوجدهم قد دخلوت بلاد النوبة، فسار قاصداً بلادهم وشحن مراكب كثيرة في البحر بالرجال والميرة، وأمرها بلحاقه إلى بلاد النوبة. وسار إليها ونزل على قلعة إبريم، وافتتحها بعد ثلاثة أيام، وغنم جميع ماكان فيها من المال والكُراع والميرة، وخلص جماعة من الأسرى، وأسر من وجده فيها، وهرب صاحبها.

وكتب إلى السلطان بذلك فأنشد السلطان أبو الحسن بن الذروي يهنئه بفتح إبريم قصيدة، منها:

فقدّم العَزْمَ فذا مُبتداه يقصر ملك الأرض عن منتهاه

واستحب ذيول الجيش حتى أرى أنجمه طالعة عن دُجاه

سواك من ألقى عصاه بها قناعةً لما استقرت نواه

عليك بالروم ودع صاحب ال باج إذا شئت وتورانشاه

فقد غدّت لإبريمُ في ملكه تُبرم أمراً فيه كبْتُ العداه

لابُد للنوبة من نوبة تُرضى لسخط الكفر دين الإله

تظل من نوبة منسوبة لعزمةٍ كامنة في أناه

تكسو الغزاة القاطني أرضها ما نسجت للحرب أيدي الغُزاه

سودُ وتحمرّ الظُّبا حولها كأعين الرُّمد بدت للأساه

أو لا، فسُمرُ يحتميها القنا مثل دنان بزلتها السُّقاه

لله جيش منك لاينثني إلا بنصل دميت شفرتاه

ما بين عقبان ولكنها خيل وفرسان كمثل البزاه

آساد حرب فوق أيديهم أساود الطعن، فهم كالحواه

تقلّدوا الأنهار واستلأموا ال غُدران، فالنيران تجري مياه

قال: ثم رجع شمس الدولة إلى أسوان ثم إلى قوص، وكان في صحبته أمير يقال له إبراهيم الكردي، فطلب من شمس الدولة قلعة إبريم فأقطعه إياه وأنفذ معه جماعة من الأكراد البطالين، فلما حصلوا فيها تفرّقوا فرقا. وكانوا يشنون الغارات على بلاد النّوبة حتى برحوا بهم، واكتسبوا أموالاً كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم. وأتفق أنهم عدّوا إلى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة دندان فغرق أميرهم إبراهيم

وجماعة من أصحابه ورجع من بقي منهم إلى قلعة إبريم وأخذوا جميع ماكان فيها وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين، فعاد إليها وملكوها.
وأنفذ ملك النوبة رسولا إلى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ومعه كتاب فيه طلب الصلح ومع الرسول هدية، عبد وجارية. فكتب له جواب كتابه وأعطاه زوجي نشاب، وقال مالك عندي جواب إلا هذا. وجهز معه رسولا يعرف بمسعود الحلبي وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها؛ فسار الحلبي مع الرَّسول حتى وصل دنقله، وهي مدينة الملك. قال مسعود فوجدت بلادا ضيقة ليس لهم زرع إلا الذرة، وعندهم نخل صغار منه إدامهم. ووصف ملكهم بأوصاف منها أن قال: خرج علينا يوماً وهو عريان قد ركب فرسا عريا وقد التف في ثوب أطلس وهو أقرع ليس على رأسه شعر؛ قال فأتيت فسلمت عليه فضحك وتغاشى وأمر بي أن تكوى يدي، فكوى عليها هيئة صليب، وأمر لي بقدر خمسين رطلا من الدقيق، ثم صرفني. قال: وأما دنقلة فليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط وباقيها أخصاص.

فصل

في وفاة نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، وطرف من أخباره.
قال العماد: وركب نجم الدين أيوب فشب به فرسه بالقاهرة عند باب النصر وسط المحجَّة، يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة، وحمل إلى منزله، وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة.
وكان كريما رحيما، عطوفا حليما، وبابه مزدحم الوفود، وهو متلف الموجود، يبذل الجود؛ وكان ولده صلاح الدين عنه غائبا، وفي بلاد الكرك والشوبك على الغزاة مواظبا، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت الدار السلطانية، ثم نقلا بعد سنتين إلى المدينة الشريفة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسّلام، والتحية والإكرام، والإجلال والإعظام، وعلى آله وصحبه وسلم.
قلت: وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل المقدم ذكره، رحمهم الله.
وقال القاضي ابن شداد: ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدين فشقّ ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته. وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس؛ وكان رحمه الله تعالى، شديد الرّكض ولعاً بلعب الكرة بحيث من رآه يلعب بها يقول مايموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس.
ومن كتاب فاضليّ عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه بمصر يقول فيه: صحّ من المصاب بالمولى الدارج، غفر الله له ذنبه، وسقى بالرحمة تربه، ما عظمت به اللوعة، واشتدت الروعة، وتضاعفت لغيبتنا عن مشهده الحسرة، فاستنجدنا بالصبر فأبى وانحدرت العبرة، فياله فقيداً فقد عليه العزاء، وهانت بعده

الأرزاء، وانتثر شمل البركة بفقده فهي بعد الاجتماع أجزاء.

وتخطفته يد الردى في غيبتي هبني حضرت، فكنت ماذا أصنع؟ قال ابن أبي طي الحلبي: وهو الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي، ولايُعرف في نسبه أكثر من والده شاذي. وحدثني أبي رحمه الله قال: كان تقي الدين عمر يزيد فيقول: شاذي بن مروان. قلت: وسمعت أنا من يقول شاذي بن مروان بن يعقوب.

قال ابن أبي طي: وقد أدّعى ابن سيف الإسلام لما ملك اليمن أنهم منة بني مروان ابن محمد الجعدي المعروف بالحمار، يعنى آخر خلفاء بني أمية. قال: وقد نقبت عن ذلك فأجمع الجماعة من آل أيوب أن هذا كذب، وأن جميع آل أيوب لايعرفون جدًّا فوق شاذي. وكذلك أخبرني السلطان الملك الناصر رحمه الله.

قلت: ودليل صحة ذلك أني وقفت على كتاب وقف الرّباط النجمي بدمشق و لم يزد فيه على نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شاذي العادلي. وابن سيف الإسلام هذا هو أبو الفداء اسماعيل، بن طغتكين بن أيوب بن شاذي، ابن أخي السلطان صلاح الدين؛ ملك اليمن بعد أبيه وتعاظم إلى أن ولي نفسه الخلافة وادعى أنه من بني أمية، وعزم على إعادة الخلافة من بني هاشم إلى بني أمية؛ وله في ذلك أشعار كثيرة؛ وتلقب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين، ومدحه كثير من الشعراء بذلك وزينوا له فعله وما هو فيه. فمن شعره:

وإني أنا الهادي الخليفة والذي ... أدوس رقاب الغُلب بالضُّمَّر الجُرْد

ولابدّ مِنْ بغداد أطوي ربوعها ... وأنشرها نشر السماسر للبرد

وأنصب أعلامي على شرفاتها ... وأُحيي بها ماكان أسسه جدّي

ويُخطبُ لي فيها على كل منبر ... وأظهر دين الله في الغور والنّجد

ثم قال ابن أبي طيّ: وكان نجم الدين أيوب عدلا مرضيا كثير الصَّلات والصِّلات، غزير الصدقات والخيرات، يحبّ العلماء، ويميل إلى الفضلاء؛ وكان مُمَدّحا، مدحه العماد الكاتب بجملة قصائد.

قال: وكان مولد نجم الدين أيوب شبختان، كذا حكاه مؤيد الدين ابن منقذ. وحدّثني جماعة أن مولد نجم الدين كان بجبل جور، وربي في بلد الموصل. ونشأ شجاعا باسلا، وخدم السلطان محمد بن ملكشاه فرأى منه أمانة وعقلاً، وسداداً وشهامة؛ فولاّه قلعة تكريت، فقام في ولايتها أحسن قيام وضَبَطها أكرم ضبط، وأجلى من أرضها المفسدين وقطاع الطريق وأهل العيث، حتى عمرت أرضها، وحسن حال أهلها، وأمنت سبلها.

فلما ولي السلطان مسعود الملك أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدّين بهروز الخادم شحنة بغداد ومُتولي العراق؛ وكان هذا بهروز أميراً ينفذ أمره في جميع العراق إلى الموصل إلى أصفهان، وكانت خيله خمسة الآف فارس؛ فأقر الأمير نجم الدين في ولاية تكريت، وأضاف إليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له، وقرر أمره عند السلطان مسعود وجعل بهروز قلعة تكريت خزانة أمواله وبيت عقائله، وجعل جميع ذلك منوطا بالأمير نجم الدين ومعَعْذُوقاً بهمته.

وكان نجم الدين عظيماً في أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة؛ وكان لايمر أحد من أهل العلم والدين به إلا حمل إليه المال والضيافة الجليلة، وكان لايسمع بأحد من أهل الدين في مدينة إلا أنفذ إليه. وقد ذكر العماد الكاتب في سيرة السلجوقية الأمير نجم الدين وقرّضه وأثنى عليه، وذكر من دينه وعفته ووفور أمانته وكثرة خيره أشياء حسنة؛ وحكى قضية عمّه العزيز حين حبس عنده بقلعة تكريت من جهة الوزير الدركزيني وأمره بقتله، فأبى نجم الدين إلى أن قتله بهروز بنفسه بأمر الدركزيني.

ثم إن السلطان مسعوداً حشد وخرج في أخذ السلطنة وطمع هو وأتابك زنكي بن آق سنقر في بغداد، وجردا عسكراً ضخما وسارا إلى تكريت طامعين في بغداد، وانصل هذا الخبر بقراجه السّاقي، وهو أتابك ابن السلطان محمود، فجرد ألف فارس للقاء زنكي، ثم أ ردفهم بعسكر ضخم، فانهزم زنكي وقُتل جماعة من أصحابه ونهب جميع ماكان في عسكره، ولجأ إلى سور تكريت وبه عدة جراحات. وعلم مكانه الأمير نجم الدين وأخوه شيركوه فمتحاه إلى القلعة بحبال وداويا جراحاته، وخدماه أحسن خدمة وتقربا إليه؛ فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوماً. ثم سار إلى الموصل، وأعوزه الظهر، فأعطياه جميع ماكان عندهما من الظهر حتى إنهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ماسلم معه من امتعته. فكان زنكي يرى لأيوب هذه اليد ويعرف له هذه الصنيعة، ويواصله بالهدايا والألطاف مدة مُقامه في تكريت. فلما انفصل نجم الدين عنها، على ما سنذكره، تلّقاه زنكي بالرحب والسعة، واحترمه احتراماً عظيماً وأقطعه عدة قطائع.

وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة حتى ملك بذلك حبّات قلوبهم. وكان أخوه شيركوه معه في القلعة، وكان شجاعاً باسلا، يترل من القلعة ويصعد إليها في أسبابه وحاجاته. وكان نجم الدين لايفارق القلعة ولايترل منها. فاتفق أن أسد الدين نزل القلعة يوماً لبعض شأنه ثم عاد إليها، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارض، وكان رجلاً نصرانياً، فاتفق في ذلك اليوم أن النصراني صادف أسد الدين صاعداً إلى القلعة فعبث به بكلمة مُمضة، فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني وصعد إلى القلعة، وكان مهيباً، فلم يتجاسر أحدُ على معارضته في أمر النصراني بشئ، وأُخذ النصراني برجله فأُلْقي من القلعة.

وبلغ بهروز صاحب قلعة تكريت ماجرى، وحضر عنده من خوفه جُرأة أسد الدين وأنه ذو عشيرة كبيرة، وأن أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا، وأنه ربما كان منهما أمرٌ تخشى عاقبته ويصعب استدراكه. فكتب إلى نجم الدين يُنكر عليه ماجرى من أخيه ويأمره بتسليم القلعة إلى نائب سيّره صُحبة الكتاب؛ فأجاب نجم الدين إلى ذلك بالسمع والطاعة، وأنزل من القلعة جميع ماكان له بها من أهل ومال، واجتمع هو وأخوه أسد الدين وصمما على قصد عماد الدين زنكي بالموصل.

وقيل إن أسد الدين كان خرج إلى الموصل قبل نجم الدين.

وأعظم أهل تكريت خروج نجم الدبن من بين أظهرهم، و لم يبق أحدُ إلا خرج لتوديعه وأظهر البكاء والأسف على مفارقته.

ولما أتصل بأتابك زنكي قُدومُهما أفرحه ذلك وأمر الموكب بلقائهما وأكرمهما إكراماً عظيماً، وأقطعهما في بلد شهرزور إقطاعاً سنيّا؛ وقيل إنه أقطع أسد الدين بالمؤُزَّر.

وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودة عظيمة حتى حلف كل واحد منهما للآخر أنه يقوم بأمره في حياته وبعد وفاته. وتجرد جمال الدين في أمر أسد الدين وأمر أخيه نجم الدين حتى قربهما من قلب أتابك زنكي وجعلهما عنده بالمترلة العظيمة. وخرجا معه إلى الشام وشهدا معه حروب الكفار وقتال الفرنج، لعنهم الله تعالى، وكان لأسد الدين في تلك الوقائع اليد البيضاء والفَعْلَةُ الغراء.

وحدثني أبي رحمه الله قال: حدثني سعد الدولة أبو الميامين المؤملي، وكان أحد أصحاب نجم الدين أيوب، قال: وحدثني أيضا بهذه الحكاية مجد الدين بن داية الملك الصالح قال: حدثني حسام سنقر غلام الأمير نجم الدين أبي طالب، وكان سنقر هذا يخدم مع الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي، قال: كنت في صحابة الأمير نجم الدين لما أنفذه نور الدين بن زنكي إلى ابنه السلطان الملك الناصر إلى مصر من أجل قطع خطبة المصريين وإقامة دعوى بني العباس، في أول سنة سبع وستين وخمسمائة؛ واتفق أني كنت حاضراً وقد اجتمع السلطان الملك الناصر ووالده الأمير نجم الدين في دار الوزارة وقد قعدا على طُرّاحة واحدة، والمجلس غاصٌّ بأرباب الدولتين، وعند الناس من الفرح والسرور ماقد أذهل العقول. فبينا الناس كذلك إذ تقدم كاتب نصراني كان في خدمة الأمير نجم الدين فقبل الأرض بين يدي السلطان الملك الناصر ووالده نجم الدين، والتفت إلى نجم الدين وقال له: يامولاي هذا تأويل مقالتي لك بالأمس حين وُلد هذا السلطان. فضحك نجم الدين وقال: صدقت والله. ثم أخذ في حمد الله وشكره والثناء عليه، والتفت إلى الجماعة الذين حوله، من أكابر العلماء، والقضاة والأمراء، وقال: لكلام هذا أمرني صاحب قلعة تكريت بالرّحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من أخي أسد الدين شيركوه رحمه الله وقتله النصراني؛ وكنت قد ألفت القلعة وصارت لي كالوطن، فثُقل عليّ الخروج عنها والتحول عنها إلى غيرها، واغتممت لذلك.

وفي ذلك الوقت جاءني من القلعة وأنا على طيرتي به لاأكاد أذكره ولاأسميه. وكان هذا النصراني معي كاتباً؛ فلما رأى مانزل بي من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى مني أن آذن له في الكلام، فأذنت له، فقال لي: يامولاي قد رأيت ماقد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي وأي شئ له من الذنب، وبما أستحق ذلك منك وهو لاينفع ولايضرّ ولايُغني شيئاً! وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله تعالى سبحانه وقدر، ثم مايُدريك أن هذا الطفل يكون ملِكاً عظيم الصيت جليل المقدار. فعطفني كلامه عليه؛ وهاهو ذا قد أوقفني على ماكان قاله. فتعجبت الجماعة من هذا الاتفاق وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه.

قلت: ولعُمارة في نجم الدين مدائح ومراثٍ. منها قوله:

ثغر الزمان بنجم الدين مبتسم ... ووجهه بدوام العز متسم

يقول فيها:

أضحى بك النّيل محجوجا ومعتمرا ... كأنما حلّ فيه الحلّ والحرم
جاءت بنوك وشمل الدين منتثر ... فقارعوا عنه، فهو اليوم منتظم
وما ادري أحدُ من قبل رؤيتهم ... أن الحظوظ بلثم الأرض تقتسم
نامت عيون الورى في دل سيرتهم ... كأن يقظتنا في عصرهم حلم
والناصر ابنك كافي كلِّ معضلة ... إذا الحوادث لم يُكشف لها غمم
أعز بالبأس والإحسان حوزتنا ... فلم يُلّم بنا خوف ولاعدم
تبسم الدّست من أيوب عن ملك ... تنحطّ عن قدره الأقدار والهمم

وقال في مرثية:

هي الصدمةُ الأولى فمن بان صبره ... على هول ملقاها تضاعف أجره
أذمُّ صباح الأربعاء، فإنه ... تبسم عن ثغر المنية فجره
أصاب الهدى في نجمه بمصيبة ... تداعى سماك الجوّ منها ونسره
فلا تعذلونا، واعذرونا، فمن بكى ... على فقد أيوبٍ فقد بان عُذره
أقام بأعمال الفرات، وخيله ... يُراع بها نيل العزيز ومصره
إلى أن رماها من أخيه بضغيم ... فرى نابه أهل الصليب وظفره
تعاقبتما مصراً تعاقب وابل ... يبيت بقطر النيل ينهلُّ قطره

وآخيته في البرّ حيّا وميتّا … فقبرك في دار القرار وقبره
وقد شخصت أهل البقيع إليكما … وإلا فسكان الحجون وحجره
هنيئاً لملك مات والعزّ عزه … وقُدْرته فوق الرّجال وقدره
وأدرك من طول الحياة مراده … وماطال إلا في رضا الله عمره
وأسعد خلق الله من مات بعدما … رأى في بني أبنائه مايسره
شهيد تلقى ربه وهو صائم … فكان على أجر الشهادة فطره
مضى وهو راض عنك لم ترم صدره … لضيق، ولاجاشت من الغيظ قدره
حمى حوزة الإسلام والدين بعده … ثمانية من أجلهم عزّ نصره
فكيف لخيس آل أيوب أسده … لقد بان خوف الدهر منه وذعره
رعى الله نجماً تعرف الشمس أنه … أبوها، ونور البدر منها، وزهره
وأبقى المقام الناصريّ، فإنه … لدولتكم كنز الرّجاء وذخره

وقال أيضا:

صفو الحياة ولإن طال المدى كدر … وحادث الموت لايبقي ولايذر
وما يزال لسان الدهر ينذرنا … لو أثرت عندنا الآيات والنذر
فلا تقل غرت الدنيا مطامعنا … فما مع الموت لاغشٌ ولاكدر
كأس إذا ما الردى حيا الحياة بها … لم ينج من سكرها أنثى ولاذكر
كم شامخ العز لاقى الذل من يدها … ما أضعف القدر إن ألوى به القَدَر
في كل جيلٍ وعصر من وقائعها … شعواء يقطر منها الناب والظفر
أودى عليٌّ وعثمان بمخلبها … ولم يُفتْها أبو بكر ولاعُمر
ومن أراد التأسِّي في مصيبته … فللورى برسول الله معتبر
نجمُ هوى من سماء الدين منكدرا … والنجم من أفقه يهوى وينكدر
منظومة أنجم الجوزاء من جزع … له، وعقد الثريا منه منتثر
وكيغ يُنسى محياه الكريم، ومن … نُعماه في كلّ عيش صالح أثر
جددت من أسد الدين الشهيد لنا … حُزنا، به يتساوى الصبر والصبر

قد كان للدين والدنيا بعزمكما ذكر يعبر عنه الصارم الذّكر
لإن فاح نشر كلام تُمدحان به مِسكاً فعترة أيوب هي العتر

تخفى ذبال مصابيح إذا طلعوا صُبحاً وتنسى مُلوك الأرض إن ذكروا
كأنما صوّر الله الكمال بهم شخصاً، ويوسفُ منه السمع والبصر
لا شوبك منه معصوم ولا كرك ولا جليل ولا قدس ولا زغر
لم يرتحل قافلاً إلا وساكنها إما مباحُ حماه، أو دمُ هدر
مامات أيوب إلا بعد معجزة في المجد لو يؤتها من جنسه بشر
مضى سعيدا من الدنيا وليس له في رتبة أربُ باقٍ ولاوطر
وطوّل الله منه باع أربعة منها :النَّدى، والتقي، والملك، والعُمُر
وأشرف الملك ما امتَدَّت مسافته في صحة أخواها العقل والكبر
ومن سعادته أن مات لاسأم يشكوه منه مُعانيه ولاضجر

فصل

قال العماد: وسار نور الدين قاصداً جانب الشمال لتسديد ما أختل هناك من الأحوال. فسار إلى بعلبك ومنها إلى حمص ثمّ حلب، وفعل في كلّ منها من المصالح ماوجب؛ وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الروم ففتح مرعش في العشرين من ذي القعدة ثم فتح بهنسي، واتبع في كل منهما الطريقة الحسنى.

وكتب العماد إلى صديقٍ له بدمشق، وكان سافر عنها مع نور الدين في أطيب فصولها وهو زمن المشمش:

كتابي، فديتُك، من مرعش وخوف نوائبها مُرعشب
وما مرَّ في طرفها مُبصرٌ صحيحُ النواظر إلا غُشى
وما حلّ في أرضها آمن من الضيّم والضر إلا خشى
ترنحني نشوات الغرام كأني من كأسه منتشى
أُسِرُّ وأُعلن برح الجوى فقلبي يُسرُّ ودمعي يشي
بذلت لكم مهجتي رشوةً فحاكم حبّكم مرتشي

وكيف يلذّ الكرى مغرم بنار الغرام حشاه حشي

بمرعش أبقى وبلوطها مضاهاة جلق والمشمش

قال العماد في الخريدة: فسارت هذه القطعة ونُمى حديثها إلى نور الدين، فاستنشدنيها، فأنشدتها إياه ونحن سائرون في وادٍ كثير الأشجار مع بيتين بدهت بهما في الحال، وهما.

وبالملك العادل استأنست نجاحاً مُنى كل مستوحش

وما في الأنام كريمُ سواه فإن كنت تنكر ذا فتش

قال ابن الأثير: وفي سنة ثمان وستين سار نور الدين رحمه الله نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقي، وهي ملطية وسيواس وقونية وأقصرا، عازما على حربه وأخذ بلاده منه.

وكان سبب ذلك أن ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس وغيرهما من تلك البلاد قصده قليج أرسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريداً فريداً، فسار إلى نور الدين مستجيراً وملتجئاً إلى ظله، فأكرم نزله وأحسن إليه، وحمل له ما يليق أن يحمل للملوك، ووعده النصر والسعي في رد ملكه إليه. وكانت عادة نور الدين أنه لايقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة، إما ليستعين بها على قتال الفرنج أو للخوف عليها منهم، كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما. فلما قصده ذو النون راسل قليج أرسلان وشفع إليه في إعادة ما غلبه عليه من بلاده فلم يجبه إلى ذلك، فسار نور الدين نحوه فابتدأ بكيسون وبهنسي ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها من الحصون، وسيّر طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها.

وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من اطرافها التي تلي الشام إلى وسطها خوفاً وفرقاً، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه؛ فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب، فأتاه من الفرنج ما أزعجه فأجابه إلى الصلح.

وكان في جملة رسالة نور الدين إليه: "إنني أريد منك أموراً وقواعد ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء: أحدها أن تجدد إسلامك على يد رسولي حتّى يحلّ لي إقرارك على بلاد الإسلام، فإني لاأعتقدك مؤمناً_وكان قليج أرسلان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة_والثاني إذا طلبت عسكرك للغزاة تسيره فإنك قد ملكت طرفا كبيرا من بلاد الإسلام وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم، فإما أن تكون تُنجدني بعسكرك لأقاتل بهم الفرنج وإما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع والجهد في جهادهم.والثالث أن تزوّج ابنتك لسيف الدين غازي ولد أخي". وذكر أموراً غيرها.

فلما سمع قليج أرسلان الرسالة قال: ماقصد نور الدين إلا الشناعة عليّ بالزندقة، وقد أجبته إلى ماطلب، أنا أجددّ إسلامي على يد رسوله. واستقر الصلح وعاد نور الدين وترك عسكره في سيواس مع فخر الدين عبد المسيح في خدمة ذي النون، فبقي العسكر بها إلى أن مات نور الدين رحمه الله تعالى، فرحل العسكر عنها وعاد قليج أرسلان وملكها.

قال العماد: وفي هذه السنة وصل الفقيه الإمام الكبير قطب الدين النيسابوري، وهو فقيه عصره ونسيج وحده، فسر نور الدين به وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق، ثم أطلعه إلى دمشق، فدرس بزاوية الجامع الغربية المعروفة بالشيخ نصر المقدسي رحمه الله، ونزل بمدرسة الجاروق. وشرع نور الدين في إنشاء مدرسة كبيرة للشافعية لفضله، وأدركه الأجل دون إدراك عملها لأجله.

قلت: هي المدرسة العادلية الآن التي بناها بعده الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو صلاح الدين وفيها تربته، وقد رأيت أنا ما كان بناه نور الدين ومن بعده منها وهو موضع المسجد والمحراب الآن. ثم لمّا بناها الملك العادل أزال تلك العمارة وبناها هذا البناء المتقن المحكم الذي لانظير له في بنيان المدارس، وهي المأوى وبها المثوى، وفيها قدر الله تعالى جمع الكتاب فلا أقفر ذلك المترل ولا أقوى.

وبقي قطب الدين إلى أن توفي في الأيام الناصرية في سنة ثمان وسبعين. وقد وقف كتبه على طلبة العلم، ونقلت بعد بناء هذه المدرسة إليها، فما فاتما ثمرته إذ فاتما مباشرته رحمه الله تعالى.

قال العماد: وكان وفد في سنة أربع وستين شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتوح محمد بن علي بن محمد بن حمويه، فأقبل عليه نور الدين وأمرني بإنشاء منشور له بمشيخة الصوفية، ورغبه في المقام بالإحسان إليه بالشام. ومن جملة ما أتحفه به عمامة بأعمدة ذهبية أنفذها صلاح الدين من مصر، فبذل فيها ألف دينار بزنة ذهبها فلميجب من سامها إلى طلبها.

قلت وقد سبق ذكر هذه العمامة في أخبار نور الدين أول الكتاب من كلام ابن الأثير، وابن المعكى إياه وهو الشيخ تاج الدين عبد الله، رحمهم الله تعالى.

ثم ذكر العماد نسخة المنشور وفيه: "فلينظر في رباط السميساطي وقبة الطواويس ورباط الطاحونة وغيرها من ربط الصوفية بدمشق المعمورة وبعلبك".

ثم ذكر العماد أنه في آخر شعبان من هذه السنة قبل الرحيل من دمشق كان أهدى إلى صديقه الفاضل الأديب علم الدين الحسن بن سعيد الشاتاني قطائف وكتب إليه:

ماراقدات في صحون	مستوطنات في سكون
يجلين أمثال العرا	ئس بين أبكار وعون

أو كالعقائل في الخدو ر قد اعتقلن على ديون
هن اللذيذات اللوا ئذ بالسهول من الحزون
أو كالتمائم للصحا ف، وما نسبن إلى جنون
السّكريات الغري قات الغلائل والشئون
صرعى ومادارت لها يوما رحى الحرب الزبون
لُفّفن في أكفانهن على المنى لا المنون
يحيين بالتغريق بل يسمن في ضيق السجون
المستطابات الظهو ر المستلذات البطون
نضدن بالترصيع في ال جامات كالدرّ المصون
المستقيمات الصفو ف وقفن كالخيل الصَّفون
وقد اشتملن من اللطا ئف والصفات على فنون
اسمع حديثي في انبسا طي فالحديث أخو شجون

وهي أكثر من هذا.

فصل

قال العماد: قد سبق ذكر مليح بن لاون مقدم بلاد الأرمن والتجائه إلى نور الدين وتطاوله بقوته على الروم والأرمن. وكانت الدروب: أذنه، والمصيصة، وسيواس، يحميها كلب الروم ويضبطها بجنده، حتى استولى عليها مليح بن لاون فكسرهم وقتل وأسر، وساق لنور الدين من مقدمي الروم ثلاثين أسيرا.
فأرسل نور الدين القاضي كمال الدين الشهرزوري بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضيء بأمر الله ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة وما فتح من البلاد ويقول فيه: "وقسطنطينية والقدس يجريام إلى أمد الفتوح في مضمار المنافسة، وكلاهما في وحشة ليل الظلام المدلهم على انتظار صباح المؤانسة، والله تعالى بكرمه يدني قطاف الفتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم لحيازة مراضى الأمام".
وفي آخره: "ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ما تسنى في هذه النَّوبة، من افتتاح بعض بلاد النوبة والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنابك الخيل الإسلامية في العصور الخالية. وكذلك استولت عساكر مصر أيضا على برقة وحصونها، وتحكموا في محكم معاقلها ومصونها، حتى بلغوا إلى حدود

المغرب، فظفروا من السُّؤال بعنقاء مغرب".

قلت: كان اتفق في هذه السنة وصول قراقوش غلام تقي الدين من الديار المصرية مع طائفة من الترك وانضم إليهم جماعة من العرب فاستولى على طرابلس وكثير من بلاد إفريقية ماخلا المهدية وسفاقي وقفصة وتونس.

وفي آخر ذلك الكتاب: "ونسأل الله التوفيق لاستدناء قواصي المنى، وإقصاء عبدة الصلي الأنجاس من المسجد الأقصى، وأن يجعل فتح البيت امقدس مفتتح مراده، ومقتدح زناده، ومقترحه في جهاده، وأن يملكه الساحل بجميع بلاده".

وسير العماد معه قصيدة منها:

بالمستضئ أبي محمد الحسن ... رجعت أمور المسلمين إلى السنن

في أرض مصر دعا له خطباؤها ... وأتت لتخطب بكر خطبته عدن

فالمغرب الأقصى بذلك مشرق ... وبنصر مصر محقق يمن اليمن

ورأى الإله المستضئ لشرعه ... وعباده نعم الأمين المؤتمن

سر النبوة كامن فيه ومن ... فطر الإمامة مشرق نور الفطن

تقوى أبي بكر، ومن عمر الهدى ... وحياءُ عثمان، وعلم أبي الحسن

وبجده عرفت مقالة حيدر ... لامن ددٍ أنا، ولامنى الددن

كم من عدو ميت في جلده ... رعبا وخوفا، فهو حي في كفن

ومنها في مدح نور الدين رحمه الله:

هل مثل محمود بن زنكي مخلص ... متوحدٌ يبغي رضاك بكل فن

ورعٌ لدى المحراب أروع محرب ... في حالتيه إن أقام وإن ظعن

يمسي ويصبح في الجهاد، وغيره ... يضحى رضيع سلافة وضجيع دَنّ

وبعزة الإسلام منتصراً حرٍ ... وبذلة الإشراك منتقماً قمن

قال ابن أبي طي وفيها وصل شهاب الدين بن أبي عصرون من بغداد ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصريفين وخمسين دينارا من دنانير النثار التي نثرت يوم دخل الشهاب إلى بغداد بالبشارة بالخطبة في مصر، وزن كل دينار عشرة دنانير.

قال العماد: وكانت ناحيتا درب هارون وصريفين من أعمال العراق لزنكي والد نور الدين قديما من

إنعام أمير المؤمنين، فسأل نور ادين إحياء ذلك الرسم في حقه، فأنعم بهما الخليفة عليه ووجه بهما مثالُه الشريف إليه. وكان من مراده أن يستوهب ببغداد على شاطئ دجلة أرضا يبنيها مدرسة للشافعية ويقف عليها الناحيتين طلبا للأجر، والذكر الباقي على ممر الدهر، فقيل له ما ثمَّ موضع يصلح لهذا لإلا دار التمر، فعاقه أمر القدر عن قدرته على الأمر.

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

ونور الدين قد فتح من حصون الرّوم مرعش وغيرها، ومليح بن لاون متملك الأرمن في خدمته. ووصل إلى خدمته أيضا ضياء الدين مسعود بن قفجاق صاحب ملطية؛ وكان في خدمته أيضا الأمراء من المجِدْل، فسرّحهم بالعطاء الأجزل، والسمت الأجمل؛ وأظهر أنه يترل على قلعة الروم على الغزاة، فتقبله مستخلف الأرض بالبراة، وحمل خمسين ألف دينار، على سبيل الجزية مصانعة وصغار؛ وعاد إلى حلب وقد نجح في كل ما طلب.

وأراد أن يسرع إلى دمشق فالتأثت سريرته لالتياث سريَّته، وحظى بمرض القلب لمرض جسم حظيته، وجرت شكايته جاريته، فتصدق عنها بألوف، والتزم لله في شفائها بنذور ووقوف؛ ثم سيرها في محفة، تحمل على أيدي الرجال في خفة؛ وسارت على الطريق المهيع مع العسكر، يحملها من الخدم والخواص المعشر بعد المعشر؛ فما تُقرِّب إليه بمثل حملها والمشي معها، وتقدم بحق لازم من بخدمته شيعا. وتأخر نور الدين جريدة مع عدة من مماليكه وأمرائه المماحضين في ولايته، وتقدم إلىّ أن أسايره في طريقه وأحاوره، وأحاضره في منازله وأسامره.

وسرنا على طريق قبة ملاعب والمشهد وسلمية، فجاءه الخبر أن الفرنج قد أغارت على حوران، فثنى إلى الجهاد العنان؛ وسمع الفرنج فتفرقوا، وقلقوا بعد ما كانوا أقلقوا؛ ودخلنا دمشق.

قلت: وفي جمادي الأولى أبطل نور الدين رحمه الله فريضة الأتبان، ورأيت منشوره بذلك، وعلامته عليه بخطه الحمد لله؛ يقول فيه: وبعد فإن من سنتنا العادلة، وسير أيامنا الزاهرة، وعوائد دولتنا القاهرة، إشاعة المعروف وإغاثة الملهوف، وإنصاف المظلوم، وإعفاء رسم ما سنه الظالمون من جائرات الرسوم. وما نزال نجدد للرعية رسما ممن الإحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون من حياضه، ونستقرْئ أعمال بلادنا المحروسة، ونصفيها من الشبه والشوائب، ونلحق ما يعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب، تقربا إلى الله تعالى الكافل لنا بسبوغ المواهب وبلوغ المطالب. وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضه الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة، وضياع الغوطة، والمرج،

وجبل سَنِير، وقصر حجاج، والشاغور، والعقيبة، ومزارعها الجارية في الأملاك، وجميع ما يقسط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، وفرّنا على أربابه، طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهربا من انتقامه وأليم عقابه. وسبيل النّواب إطلاق ذلك على الدوام، وتعفيه آثاره، والاستعفاء من أوزاره، والاحتراز من التدنس بأوضاره، وإبطال رسمه من الدواوين، لاستقبال سنة تسع وستين، وما بعدها على تعاقب الأيام والسنين.

فصل في فتح اليمن

قال العماد: وفي رجب توجه تورانشاه، أكبر إخوة صلاح الدين، إلى اليمن فملكها. وكان يحثه على المسير إليها عُمارة اليمني شاعر القصر، وكان كثير المدح لتورانشاه فتجهزّ وسار إلى مكة ثم إلى زبيد فملكها وقبض على الخارجي بها، وأهلكه نائبه سيف الدين مبارك بن منقذ. ومضى إلى عدن فأخذها واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي، وفتح حصن تعزّ وغيره من القلاع، ففتح إقليما ومنح ملكا عظيما، وافترع بكرا وأُشيع ذكرا.

وقال ابن شداد: ولما كان سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قوة عسكره وكثرة عدد إخوته وقوّة بأسهم. وكان بلغه أن باليمن إنساناً استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه، يسمى عبد النّبي بن مهدي، ويزعم أنه ينتشر ملكه إلى الأرض كلها، واستتب أمره؛ فرأى أن يسير إليها أخاه الأكبر الملك المعظم تورانشاه، وكان كريما أريحيا حسن الأخلاق؛ سمعت منه، يعني من صلاح الدين رحمه الله، الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه، وترجيحه إياه على نفسه؛ فمضى إليها وفتح الله على يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها.

قلت: وكان أخو هذا الخارجي قد خرج باليمن قبله. ذكر عمارة اليمني في أول كتابه في وزارة مصر في أثناء كلام له قال: وكان جماعة من أماثل الناس مثل بركات المقرئ وعلي بن محمد النيلي والفقيه أبي الحسن علي بن مهدي القائم الذي قام باليمن وأزال دولة أهل زبيد وغيرهم قد سبقوني، يعني إلى صاحب عدن، فذكر كلاماً يتعلق به.

وقال العماد في الخريدة: علي بن مهدي ملك اليمن في زماننا هذا، وسفك الدماء وسبى المسلمين، وأقبل على شرب الخمر، وادّعى الملك والإمامة ودعا إلى نفسه؛ وكان يحدث نفسه بالمسير إلى مكة، فمات سنة ستين، وتولى بعده أخوه؛ وله شعر حسن يدل على عُلّو همته.

قال ابن أبي طيّ: كان سبب خروج شمس الدين إلى اليمن أنه كان كريماً جوادا، وكان إقطاعه بمصر

لايقوم بفتوته، ولاينهض بمروّته؛ وكان قد انتظم في سلكه عُمارة الشاعر، وكان من أهل اليمن، وكان ورد إلى مصر ومدح أصحابها ونفق عليهم، فلما زالت دولتهم انضوى إلى شمس الدولة ومدحه. وكان إذا خلا به يصف له بلاد اليمن، وكثرة أموالها وخيرها، وضعف من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها.

قلت: فمن جملة شعره في ذلك قوله في القصيدة التي أولها:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم — وشفرة السيف تستغني عن القلم

كم تترك البيض في الأجفان ظامئة — إلى الموارد في الأعناق والقمم

أمامك الفتح من شام ومن يمن — فلا تردّ رؤس الخيل باللجم

فعمُّك الملك المنصور سوّمها — من الفرات إلى مصر بلا سأم

فاخلق لنفسك ملكا لاتضاف به — إلى سواك، وأوْرِ النار في العلم

هذا ابن تومرت قد كانت بدايته — كما يقول الورى، لحماً على وضم

وقد ترّقى إلى أن أمسكت يده — من الكواكب بالأنفاس والكظم

حاسب ضميرك عن راآ أتاك وقل — نصيحة وردت من غير متهّم

وله من أخرى:

أفاتح أرض النِّيل، وهي عظيمة — على كلّ راجٍ فتحها ومؤمل

متى توقد النار التي أنت قادح — بغمدان مشبوبا سناها بمندل

وتفتح ما بين الحصين وأبين — وصنعاء من حصنٍ حصين ومعقل

وتملك من مخلاف طرف وجعفر — نقيضين من حَزْن خصيب ومُسهل

وتخلق ملكا لاتُحيل بفخره — على أحد إلا على عزمك العلي

وله من قصيدة أخرى:

قالوا :إلأى اليمن الميمون رحلته — فقُلت مادونه شئ سوى السفر

سيْرٌ يَسُرُّ بني الدنيا، وطيب ثناً — وطول عمر، كذا يحكى عن الخضر

لاتوقَدنَّ لها النار التي خمدت — خفض عليك تنل ما شئت بالشرر

المال ملء يدٍ، والقوم ملكُ يدٍ — وأطيل، وهذا جملة الخبر

قال ابن أبي طيّ: ووافق ذلك أنه كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له هاشم ابن غانم وأطمعه في المعاونة لأن صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدى على هذا الشريف هاشم؛ فأعلم شمس الدولة

أصحابه بعزمه على اليمن فأجابوه، فتجهز، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له، وأطلق له مُغَلّ قوص سنة، وزوده فوق ماكان في نفسه، وأصحبه جماعة من الأمراء ومقدار ألف فارس خارجا عمّن سيره من حلقته. وسار في البر والبحر، في البر العساكر وفي البحر الأسطول يحمل الأزواد والعدد والآلات. فوصل إلى مكة، شرفها الله تعالى، فدخلها زائراً، ثم خرج متوجهاً منها إلى اليمن؛ فوصل زبيد في أوائل شوال، فنزل عليها، ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني وجميع الأشراف بنو سليمان في جمع جم وعدد كثير، فهجم زبيد وتسلمها، واحتوى على مافيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبيّ أخي علي بن مهدي.

ثم رحل إلى عدن وفي صحبته ابن مهدي ففتحها عنوة وولاها عز الدين الزنجيلي. ثم سار إلى المخلاف وتسلّم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي، كتعز وغيرها؛ وسار إلى صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها، فأحرقت صنعاء، فدخلها شمس الدولة فلم يجد بها إلا شيخا وامرأة عجوزا؛ فأقام بها ثمانية أيام، ثم لم يستطع المقام لقلة الميرة، فرجع إلى زبيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبي بن مهدي. وكان شمس الدولة قد استناب بزبيد الأمير سيف الدولة المبارك ابن منقذ وأمره بحمله؛ فلما بُعد شمس الدولة خاف ابن منقذ من فساد أمره فرأى المصلحة في قتله، فقتله ابن منقذ بزبيد؛ فلما بلغ شمس الدولة قتله استصوبه. ولما حصل شمس الدولة في زبيد أنفذ إليه صاحب طمار وصالحه هو وباقي الملوك على أداء المال. ثم تتبع تلك الحصون والقلاع فاحتوى عليها جميعها، وكتب بذلك إلى أخيه الملك الناصر، فأرسل إلى نور الدين يخبره بما أفاض الله عليه من الإحسان، وخوّله من ملك البلدان. فأرسل نور الدين مهذب الدين أبا الحسن عليّ بن عيسى النقاش بالبشارة بذلك إلى بغداد.

فصل

ذكر العماد ههنا الأمير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ المستناب بزبيد ووصفه بأنه من الكفاة الكرماء، والدّهاة ذوى الآراء. وهو فاضل من أهل بيت فضل كتب العماد من شعره:

لما نزلت الدّير قلت لصاحبي قم فاخطب الصهباء من شماسه
فأتى وفي يمناه كأس خلتها مقبوسةً في الليل من نبراسه
وكأن لذة طعمها من ريقه وأريجها الفيّاح من أنفاسه
لم أنس ليلة شربها بغنائه إذ بات يجلوها على جُلاّسه

إذ قام يسقينا المدام، وكلما عابثته ردَّ الجواب براسه

قلت: ومدحه أبو الحسن بن الذروي المصري بقصيدة غراء ذالية ما أظن أنه نظم على قافية الذال أرق منها لفظاً وأدق معنى. أوّلها:

لك الخير، عرّج بي على ربعهم، فذى ربوع يفوح المسك من عرفها الشذى

يقول فيها:

مَبَارِكُ عيسِ الوفد بابُ مباركٍ وهل منقذ القُصاد غيرُ ابن منقذ

قال العماد: ثم سير نور الدين إلى بغداد بشارة بأمرين، أحدها فتح اليمن، والآخر كسر الرّوم مرة ثانية ومقدمهم الدوقس كلمان، وكان قديما أسيرا عند نور الدين من نوبة حارم، وفداه بخمسة وخمسين ألف دينار وخمسمائة وخمسين ثوبا أطلسا، وسيّر معه أسرى من الروم؛ وذلك في شعبان هذه السنة.

ومما تضمنه كتاب البشارة: ولم ينج من عشرة آلاف غير عشرة حمر مستنفرة، فرت من قسورة.

وقبل ذلك بشهرين سيّرت قصيدة للعماد في جمادى الآخرة على لسان نور الدين إلى بغداد، أوّلها:

أطاع دمعي وصبري في الغرام عَصَي والقلب جرّع من كأس الهوى غصصا

وإن صفو حياتي ما يكدره إلا اشتياقي إلى أحبابي الخلصا

ما أطيب العيش بالأحباب لو وصلوا وأسعد القلب من بلواه لو خلصا

ومنها: من ذا الذي سار سيري في ولائكم=غداة قال العدا: لاسير عند عصا

قد نال عبدك محمودٌ بها ظفرا مازال يرقبهُ من قبل مرتبصا

مِنْ خوف سطوته أن العدوّ إذا أم الثغور على أعقابه نكصا

قال العماد: وكلّف نور الدين في هذه السنة بإفادة الألطاف، والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصدقات، وتوفير النفقات، وكسوة النسوة الأيامى في أيامها، وإغناء فقراء الرّعية وإنجادها بعد أعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذله، وعوْن الضعفاء وتقوية المقوين بعدله.

ثم ذكر ما قدمناه ذكره في أول الكتاب من مناقب نور الدين وأفعاله الكريمة.

قال العماد: وفي يوم الاثنين رابع شهر رمضان ركب نور الدين على العادة، وجلسنا نحن في ديوانه، حافلين في إيوانه، لبسط عدله وإحسانه، وتنفيذ أوامر سلطانه. فجاءني من أخبرني أن نور الدين نزل إلى المدرسة التي أتولاها، وبسط سجادته في قبلتها لسُنة الضحى وصلاّها؛ فقمت في الحال، ومضيت على الاستعجال، فلقيته في الدهليز خارجا، في أجر العبادة ناجحا ولنهج العادة ناهجا؛ فلما رآني توقف،

ولقولي تشوف فقلت له: إن الموضع قد تشرف؛ أما ترى أنه من أيام الزلزلة قد تشعث؟ فلما رأى حاله تلبث، وقال: نعيده إلى العمارة، ونكسوه حلل النضارة. ثم حملت له وجوه سكر، وشيئا من ثياب وطيب وعنبر، وكتبت معها هذه الأبيات:

عند سليمان على قدره ... هدية النملة مقبوله

ويصغر المملوك عن نملة ... عندك، والرحمة مأموله

رقِّي لمولانا، وملكي له ... وذمتي بالشكر مشغوله

وكيف يقضي الحق ذومنةُ ... ضعيفة بالعجز معلوله!

وإنما شيمة مولى الورى ... طاهرة بالخير مجبولة

قال: وكان رأي قبلة المدرسة غير مُفصصة، وبالترخيم والتذهيب والتهذيب غير مخصصه؛ فأنفذ لي لعمارتها فصوصا مذهبة وذهبا. ثم حم مقدور حمامه، وعاق القدر عن إتمامه؛ ودفعت إلى الموصل فرأيته في المنام، وهو يجاريني في الكلام، ويقول ما يعود إلى المدرسة معناه، وقال الصلاة الصلاة؛ فعرفت أنه أشار إلى المحراب، وأنه الآن على هيئة الخراب؛ فكتبت إلى الفقيه الذي كان عنده الذهب أن يشرع في عمارته؛ ودخلت دمشق يوم فراغ الصانع منه.

فصل

قال ابن أبي طيّ: وفي هذه السنة وصل رسول نور الدين الموفق بن القيسراني إلى الديار المصرية، وأجتمع بالسلطان الملك الناصر، وأنهى إليه رسالة نور الدين، وطالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع إليه من ارتفاع البلاد. فصعب ذلك على السلطان وأراد شق العصا لولا ما ثاب إليه من السكينة. ثم أمر بعمل الحساب، وعرضه على ابن القيسراني، وأراه جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعهم وتعيين جامكياتهم ورواتب نفقاتهم. فلما حصل عنده جميع ذلك أرسل معه هدية إلى نور الدين على يد الفقيه عيسى.

قال: ووقفت على برنامج شرحها بخط الموفق بن القيسراني وهي خمس ختمات؛ إحداها ختمة ثلاثون جزءاً مغشاة بأطلس أزرق، مضببة بصفائح ذهب، وعليها أقفال ذهب، مكتوبة بذهب، بخط يانس؛ وختمة بخط راشد مغشاة بديباج فُستُقى عشرة أجزاء؛ وختمة بخط ابن البواب، مجلد واحد بقفل ذهب؛ وختمة بخط مهلهل، جزء واحد؛ وختمة بخط الحاكم البغدادي؛ ثلاثة أحجار بلخش، حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالا، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالا، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف؛ ست قصبات زمرد،

قصبة وزنها ثلاثة عشر مثقالا وثلث وربع، وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل، وقصبة وزنها مثقالان ونصف، وقصبة وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث؛ وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل؛ وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس؛ مائة عقد جوهر مختومة وزنها جميعها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالا؛ خمسون قارورة دهن بلسان؛ عشرون قطعة بلور؛ أربع عشرة قطعة جزع، وذكر تفصيلها؛ إبريق يشم، طشت يشم سقرق ميناء وذهب؛ صحون صيني وزبادي وسكارج؛ أربعون قطعة عود طيب قطعتين كبار؛ كرتان وزن إحداهما ثلاثون رطلا بالمصري والأخرى واحد وعشرون رطلا؛ مائة ثوب أطلس؛ أربعة وعشرون بقيارا مذهبة؛ أربعة وعشرون ثوبا حريري؛ أربعة وعشرون ثوبا من الوشي حريرية بيض؛ حلة فلفي مذهبة؛ حلة مرايش صفراء مذهبة. وذكر غير ذلك أنواعا من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية، وعدّة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئاً كثيراً من السلاح على اختلاف ضروبه.

قال: وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين لأنهم أتصل بهم وفاته، فمنها ما أعيد ومنها ما استهلك، لأن الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعا عليها من نهبها واستَبَدا بأكثرها. وقيل إنها جميعا إلى السلطان لأنه اتصل به خبلا موت نور الدين فأنفذ من ردّها.

قال: وحدثني من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالاً لم يعلم مقداره.

وقال العماد: ولما وصل إلى صلاح الدين رسول نور الدين، وهو الموفق خالد، أطلعه على كل ماهو فيه وأحصى له الطريف والتالد، وقال هؤلاء الأجناد فاعرضهم وأثبت أخبارهم، وما يضبط مثل هذا الإقليم إلا بالمال العظيم؛ ثم أنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها، وأنهم اعتادوا من السّعة والدّعة على نعمائها، وقد تصرفوا في مواضع لايمكن انتزاعها، ولايسمحون بأن ينقضي ارتفاعها؛ فالموارد مشفوهة، والشدائد مكروهة، والمقاصد بردعها مجبوهة، والهمم بها مشدوهة. وشرع في جمع مال يسيره ويحمله، بجهد يبذله، وبخطر يحتمله؛ وحصل لخالد منه مالم يكن في خلده، وجاء مطرف غناه أضعاف متلْده.

فصل في صلب عمارة الشاعر اليمني وأصحابه

قال العماد: واجتمع جماعة من دعاة الدّولة المصرية المتعصبة المتصعبة، المتشددة المتصلبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخفية، واعتقدوا أمنية، عادت بالعقبى عليهم منية، وعينوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرأي والتدبير، وبيّتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل؛ وكان عمارة اليمني الشاعر عقيدهم، ودعا للدعوة قريبهم وبعيدهم.

وكانوا قد أودعوا سرّهم عند من أذاعه، واستحفظوا من أضاعه، وأدخلوا عدّة من أنصار الدولة الناصرية

في جملتهم، وعرفوهم بجهلتهم.
وكان الفقيه الواعظ زين الدين علي بن نجا يُناجيهم فيما زين لهم من سوء أعمالهم، ويداخلهم في عزم خروجهم مطلعا على أحوالهم؛ وتقاسموا الدّور والأملاك، وكادت آمالهم تدنو من الإدراك. فجاء زين الدين الواعظ وأطلع صلاح الدين على فسادهم، وما سوّلوه من مراد مرادهم، وطلب ما لابن كامل الداعي من العقار والدور، وكلّ ماله من الموجود والمذخور؛ فبذل له السلطان كل ما طلبه، وأمره بمخالطتهم ورغبه.

ثم أمر السلطان بإحضار مقدميهم، واعتقالهم لإقامة السياسة فيهم، وصلب يوم السبت ثاني شهر رمضان جماعة منهم بين القصرين، منهم عمارة، وأفنى بعد ذلك من بقي منهم، ومات بموهم الخبر عنهم.
وكان منهم داعي الدعاة ابن عبد القوي، وكان عارفاً بخبايا القصر وكنوزه، فباد و لم يسمح بإبدائها، وبقيت تلك الخزائن مدفونة، وتلك الدفائن مخزونة، قد دفن دافنها، وخزن تحت الثرى خازنها، إلى أن يأذن الله في الوصول إليها، والاطلاع عليها؛ وجمع من أموال هؤلاء ما يحمل إلى الشام، للاستعانة به على حماية ثغور الإسلام.
قال ابن أبي طيّ: وفي هذه السنة اجتمع جماعة من دعاة المصريين والعوام وتآمروا فيما بينهم خفية، وبكوا على أنقراض دولة المصريين وما صاروا إليه من الذل والفقر، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيراً، وتجمعوا هم وجماعة عينوهم من الأمراء وغيرهم. وقرّروا أن يكاتبوا الفرنج، وأن يثبوا بالملك الناصر. وأدخلوا معهم في هذا الأمر ابن مصال، وأعدوا جماعة من شيعة المصريين ليلة عينوها، وكاتبوا الفرنج بذلك، وقرروا معهم الوصول إليهم في ذلك الزمان المقرر. فخانهم ابن مصال فيما عاهدهم عليه، ونكث في اليمين وكفّر عنها، وصار إلى الملك الناصر وعرفه بجلية ماجرى.
فأحضرهم واحدا واحدا وقررهم على هذه الحالة، فأقروا واعترفوا، واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم، وأخذت أموالهم. فأحضر السلطان العلماء واستفتاهم في أمرهم، فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم، فأمر بصلبهم.
وقيل إن الذي أذاع سرّهم زيد الدين على الواعظ، وطلب جميع مالابن الداعي من العقار والمال، فأعطاه جميع ذلك.
وكان الذين صلبوا منهم المفضل بن كامل القاضي، وابن عبد القوي الداعي، والعوريس وكان قد تولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك، وشبرما كاتب السر، وعبد الصمد القشة أحد أمراء المصريين، ونجاح الحمامي، ورجل منجم نصراني أرمني كان قال لهم إن أمرهم يتم بطريق علم النجوم، وعُمارة اليمني

الشاعر.

قلت: وبلغني أنّ عُمارة إنما كان تحريضه لشمس الدولة على المسير إلى اليمن ليتم هذا الأمر، لأن فيه تقليلا لعسكر صلاح الدين وإبعاداً لأخيه وناصريه عنه.

قال العماد في الخريدة: ووقعت أتفاقات عجيبة من جملتها أنه نسب إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه له، يعني في القصيدة التي حرض فيها شمس الدولة على المسير إلى اليمن أولها:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم

وقد تقدم ذكرها؛ وأما البيت فهو هذا:

قد كان أول هذا الدين من رجل ... سعى إلى أن دعوه سيّد الأمم

قال العماد: ويجوز أن يكون هذا البيت معمولاً عليه، فأفتى فقهاء مصر بقتله، وحرضوا السلطان على المثلة بمثله.

قال: ولعمارة في مصلوب بمصر يقال له طرخان وكان خرج على الصالح بن رزيك فظفر به الصالح وصلبه، وكان يستحسن أبيات عُمارة فيه، وهي:

أراد عُلو مرتبة وقدر ... فأصبح فوق جذع وهو عالي

ومُد على صليب الجذع منه ... يمين لاتطول على الشمال

ونكس رأسه لعتاب قلب ... دعاه إلى الغواية والضلال

قال العماد: فكأنه وصف حاله وما آل إليه أمره.

وقال في البرق: ووصل من صلاح الدين يوم وفاة نور الدين إلى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية وهو بخط ابن قريش، يعني المرتضى.

وقال بن أبي طيّ: وقد كتب القاضي الفاضل إلى نور الدين كتاباً شرح فيه قضية المصلَّبين، فقال بعد مطلع الكتاب: "قصر هذه الخدمة على متجددٍ سار للإسلام وأهله، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله في إظهاره على الدين كله، بعد أن كانت لها مقدمات عظيمة إلا أنها أسفرت عن النُّجح، وأوائل كالليلة البهيمة إلا أنها انفرجت عن الصبح؛ فلإسلام ببركاته البادية وفتكاته الماضية قد عاد مستوطنا بعد أن كان غريبا، وضرب في البلاد بجرانه بعد أن كان الكفر يتم عليه تخيلا عجيبا؛ إلا أنّ الله سبحانه أطلع على أمرها من أوله، وأظهر على سرها من مستقبله؛ والمملوك يأخذ في ذكر الخبر ويعرض عن ذكر الأثر".

و لم يزل يتُوسم من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعتهم، ونقض من عُرى دولتهم،

وخفض من مرفوع كلمتهم، أنهم أعداء وإن تعدت بهم الأيام، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام. وكان لايحتقر منهم حقيرا ولا يستبعد منهم شرا كبيرا، وعيونه لمقاصدهم موكلة، وخطراته في التحرز منهم مستعملة، لاتخلو سنة تمر، ولاشهر يكرّ، من مكر يجتمعون عليه، وفساد يتسرعون إليه، وحيلة يبرمونها، ومكيدة يتمممونها. وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون إليه المكاتبات المتوارترة، والمراسلات المتقاطرة، إلى الفرنج خذلهم الله تعالى، التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع، ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع، ويزينون لهم الإقدام والقدوم، ويخلعون فيها ربقة الإسلام خلع المرتد المخصوم؛ ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلا أنهم لايقطعون حبل طمعهم على عادتهم. وكان ملك الفرنج كلما سوّلت له نفسه الاستتار في مراسلتهم، والتحيل في مفاوضتهم، سير جرج كاتبه رسولا إلينا ظاهراً وإليهم باطناً، عارضا علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشمل عليه في وقته علمنا. ولأهل القصر والمصريين في أثناء هذه المدد رسل تتردد، وكتب إلى الفرنج تتجدد.

ثم قال والمولى عالم أن عادة أوليائه المستفادة من أدبه ألا يسطوا عقاباً مؤلما، ولا يعذبوا عذابا محكما؛ وإذا طال لهم الاعتقال، ولم ينجع السؤال، أطلق سراحهم، وخلى سبيلهم، فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرقة عليهم إلا قساوة. وعند وصول جرج في هذه الدفعة الأخيرة رسولا إلينا بزعمه، ورد إلينا كتاب ممن لانرتاب به من قومه، يذكرون أنه رسول مخاتلة، لارسول مجاملة، وحامل بليّة، لاحامل هدية؛ فأوهمناه الإغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه وإليه، فتوصل مرة بالخروج ليلاً، ومرة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها نهارا، إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه، وبأمراء المصريين وأسبابهم، وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكتابهم. فدسسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم، فصار ينقل إلينا أخبارهم، ويرفع إلينا أحوالهم. ولما تكاثرت الأقوال، وكاد يشتهر علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى وقبضنا على جماعة مفسدة، وطائفة من هذا الجنس متمردة، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة، والسرائر المنافقة، فكلاً أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقر طائعاً عند إحضاره، ومنهم من أقر بعد ضربه، فانكشفت أمور أخر مكتومة، ونوب غير التي كانت عندنا معلومة، وتقريرات مختلفة في المراد، متفقة في الفساد.

ثم ذكر تفصيلا حاصله أنهم عينوا خليفة ووزيرا مختلفين في ذلك، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد وإن كان صغيرا؛ واختلف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له. وأما بنو رزيك وأهل شاور فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة.

ثم قال: وكانوا فيما تقدم، والملوك على الكرك والشوبك بالعسكر، قد كاتبوهم وقالوا لهم إنه بعيد والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى صدر أو إلى أيلة ثارت حاشية القصر وكافة الجند

وطائفة السودان وجموع الأرمن وعامة الاسماعيلية وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة.
ثم قال: ولما وصل جرج كتبوا إلى الملك الفرنجي أن العساكر متباعدة في نواحي إقطاعهم، وعلى قرب من موسم غلاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم وإذا بعثت أسطولا إلى الثغور أنهض فلانا من عنده وبقي في البلد وحده، ففعلنا ما تقدم ذكره من الثورة.
ثم قال: وفي اثناء هذه المدة كاتبوا سنانا صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحدة والكلمة جامعة، وأن مابين أهلها خلاف إلا فيما لايفترق به كلمة، ولايجب به قعود عن نصرة؛ واستدعوا منه من يُتمم على المملوك غيلة، أو يبيت له مكيدة وحيلة، وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيْطٌ وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قرجلة المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج.

ولما صح الخبر وكان حكم الله أولى مأأخذ به، وأدب الله فيمن خرج عن أدبه، وتناصرت من أهل العلم والتقوى، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى، قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة الغلاة، الدعاة إلى النار، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفجّار؛ وشنقوا على باب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم؛ ووقع التتبع لأتباعهم، وشردت طائفة الاسماعيلية ونفوا، ونودى بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد. فأما من في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم إلى أن ينكشف وجه رأي يمضى فيهم، من تطيب النفس بتقليده، وتمضي الحدود بتحديده. ورأى المملوك إخراجهم من القصر فإنهم مهما بقوا بقيت مادة لا تنحسر الأطماع عنها، فإنه حبالة للضلال منصوبة، وبيعة للبدع محجوبة. قال المؤلف لعلها محجوبة.
ومما يطرف به المولى أن ثغر الإسكندرية على عموم مذهب السنة فيه، أطلع البحث أن فيه داعية خبيثا أمره، محتقرا شخصه، عظيما كفره، يسمى قديد القفاص، وأن المذكور مع خموله في الديار المصرية، قد فشت في الشام دعوته، وطبقت عقول أهل مصر فتنته، وأن أرباب المعايش فيه يحملون إليه جزءاً من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطرا وافيا من أموالهن؛ ووجدت في مترلته بالإسكندرية عند القبض له، والهجوم عليه، كُتب مجررة فيها خلع العذار، وصريح الكفر الذي ماعنه اعتذار، ورقاع يخاطب بها فيها ما تقشعر منه الجلود وكان يدعى النسب إلى أهل القصر، وأنه خرج منه صغيرا ونشأ على الضلالة كبيرا. وبالجملة فقد كفى الإسلام أمره، وحاق به مكره، وصرعه كفره.
قلت: وفي قضية عُمارة هذه يقول العلاّمة تاج الدين الكندي رحمه الله تعالى، ونقلته من خطه:

عُمارة في الإسلام أبدى جناية ... وبايع فيها بيعة وصليبا

وأمسى شريك الشرك في بُغض أحمد فأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى إن عجمته تجد منه عوداً في النفاق صليبا
سيلقى غدا ماكان يسعى لأجله ويسقى صديدا في لظى وصليبا

قلت الصليب الأول النصارى والثاني بمعنى مصلوب والثالث من الصلابة والرابع ودك العظام، وقيل هو الصديد أي يسقى ما يسيل من أهل النار نعوذ بالله منها.

وكان عُمارة مستشعراً من الغز وهم أيضاً منه، لأنه كان من أتباع الدولة المصرية وممن انتفع بها واختل أمره بعدها، فلم تصف القلوب بعضها لبعض، وصار يظهر في فلتات لسانه، في نظمه ونثره، مايقتضي التحرز منه وإبعاده، وهو يرى ذلك منهم فيزداد فساداً في نيته، وإن مدحهم تكلف ذلك، وصرّح وعرّض فيه بما في ضميره.

وقد قال في كتاب الوزراء المصرية: ذكر الله أيامهم بحمد لايكلّ نشاطه، ولايطوى بساطه، فقد وجدت فقدهم، وهنت بعدهم.

وقال من قصيدة مدح بها نجم الدين أيوب:

وكان لي في ملوك النيل قبلكمُ مكانة عرفتها العرب والعجم
وكان بيني وبين القوم ملحمة في حربها ألسُن الأديان تختصم
وماتزال إلى داري عوارفهم يسعى إلىّ بها الإنعام والكرم
تركت قصدك لماّ قيل إنك لا تجود إلا على من مسه العدم
ولست بالرجل المجهول موضعه ولا لنزز من الإحسان أغتنم
ولا إلى صدقات المال أطابها ولا عميً نال أعضائي ولاصمم
وإنما أنا ضيف للملوك، ولى دون الضيوف لسان ناطق وفم

وقال من قصيدة مدح بها صلاح الدين رحمه الله:

قرّرت لي أبناء رزيك زرقا كان في عصرهم مسنيً مهنا
وأتت بعدهم ملوك فسّنوا فيّ ماكان صالحُ القوم سنّا
ورعوني، إما اقتداء بماض أو لمعنىً، فكلهم بي يُعنى

وله فيه من أخرى:

فقد صارت الدنيا إليكم بأسرها فلا تشبعوا منها ونحن جياع

إذا لم تزيدونا فكونوا كمن مضى ... ففي الناس أخبار لهم وسماع

وليس على مُرَّ العظام إقامة ... فهل في ضروع المكرمات رضاع

وقال في قصيدة مدح بها تقيّ الدين:

هل تأذنون لمن أراد عتابكم ... أم ليس في أعتابكم من مطمع

ضيعتّم من حق ضيفكم الذي ... مازال قبل اليوم غير مضيع

وتغافل السلطان عنيّ حين لم ... أكشف قناع مذلة وتضرّع

ورجوت نفعك بالشفاعة عنده ... فسمحت لي بشفاعة لم تنفع

وإذا نطاق الرزق ضاق مجاله ... أمسى مجال النطق غير موسع

وقال أيضا:

تيممت مصراً أطلب الجاه والغنى ... فنلتها في ظل عيش ممنع

وزرت ملوك النيل أرتاد ميلهم ... فأحمد مرتادي وأخصب مربعي

وفزت بألف من عطية فائز ... مواهبه للصنُع لا التصنيع

وجاد ابن رزيك من الجاه والغنى ... بما زاد عن مرمى رجائي ومطمعي

وأوحى إلى سمعي ودائع شعره ... فخيرته منى بأكرم مودع

وليست أيادي شاور بذميمة ... ولاعهدها عندي بعهد مضيع

ملوكٌ رَعَوا لي حرمة صار نبتها ... هشيما رعته النائبات وما رعى

مذاهبهم في الجود مذهب سنّة ... وإن خالفوني باعتقاد التشيع

فقل لصلاح الدين، والعدل شأنه ... من الحاكم المصغى إلىّ فأدعى

أقمت لكم ضيفاً ثلاثة أشهر ... أقول لصدري كلما ضاق؛ وسع

وكم في ضيوف الباب ممن لسانه ... إذا قطعوه لايقوم بأصبعي

فيا راعي الإسلام، كيف تركتنا ... فريقي ضياع من عرايا وجوع

دعوناك من قرب وبعدٍ، فهب لنا ... جوابك، فالباري يجيب إذ دعى

وقال أيضا:

أسفى على زمن الإمام العاضد		أسف العقيم على فراق الواحد
جالست من وزرائه وصحبت من		أمرائه أهل الثناء الخالد
لهفي على حجرات قصرك إذ خلت		يابن النبيّ من ازدحام الوافد
وعلى انفرادك من عساكرك الذي		كانوا كأمواج الخضم الراكد
قلّدت مؤتمن الخلافة أمرهم		فكبا وقصر عن صلاح الفاسد
فعسى الليالي أن تردّ إليكم		ماعودتكم من جميل عوائد

وقال أيضاً:

قست رأفة الدنيا، فلا الدهر عاطف		عليّ، ولا عبد الرحيم رحيم
عفا الله عن آرائه كل فترة		كلام العدا فيها عليّ كلوم
وسامحه في قطع رزق بفضله		وصلت إليه، والزمان ذميم
ألا هل له عطف عليّ، فإنني		فقير إلى مت اعتدت منه عديم

عبد الرحيم هو القاضي الفاضل رحمه الله.

وبلغني أن عمارة لما مروا به ليُصلب به على جهة دار الفاضل، فطلب الاجتماع به، فقيل ليس إليه طريق. فقال:

عبد الرحيم قد احتجب		إن الخلاص هو العجب

قال: وهذه القصيدة تحقق ما رُمي به من الاجتماع على مكاتبة الفرنج والخوض في فساد الدولة بل الملة، وتوضح عذر السلطان في قتله وقتل من شاركه في ذلك، وهي:

رميت يادهر كف المجد بالشلل		وجيده بعد حلى الحسن بالعطل
سعيت في منهج الرأي العثور، فإن		قدرت من عثرات البغي فاستقل
جدعت نارنك الأقنى، فأنفك لا		ينفك مابين نقص الشين والخجل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل		سُقيت مُهْلاً، أما تمشى على مَهَل!
لهفي ولهف بني الآمال قاطبة		على فجيعتنا في أكرم الدول
قدمت مصر فأولتني خلائفها		من المكارم ما أربى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألوف، ومن		كما لها أنها جاءت ولم أسل
وكنت من وزراء الدّست حيث سما		رأس الحصان بهاديه على الكفل

ونلت من عظماء الجيش تكرمة وخلّة حرست من عارض الخلل
ياعاذلي في هوى أبناء فاطمة لك الملامة إن قصَّرت في عذلي
بالله زُر ساحة القصرين، وابك معي عليهما، لا على صفين والجمل
وقل لأهلهما: والله مالتحمت فيكم قروحي، ولاجُرحى بمندمل

ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة في نسل آل أمير المؤمنين علي
هل كان في الأمر شئ غير قسمة ما مُلِّكتم بين حكم السبّي والنفل
وقد حصلتم عليها واسم جدكم محمد، وأبيكم، غير منتقل
مررت بالقصر والأركان خالية من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهي خوف منتقد من الأعادي، ووجه الودّ لم يمل
أسبلت من أسف دمعي غداة خلت رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكي على مأثراتٍ من مكارمكم حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست ورث منها جديد عنهم وبلي
وموسم كان في كسر الخليج لكم يأتي تجمّلكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدان كان لكم فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز في عيد الغدير لما يهتز مابين القصرين من الأسل
والخيل تعرض من وشيٍ ومن شية مثل العرائس في حلي ةفي حلل
ولاحملتم قرى الإضياف من سعة ال أطباق إلا على الأعناق والعجل
وما خصصتم ببرٍ أهل ملتكم حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتين وللض يف المقيم وللطاري من الرسل
وللجوامع من أحباسكم نعم لمن تصدّر في علم وفي عمل
وربما عادت الدنيا لمعقلها منكم، وأضحت بكم محلولة العقل

وقال العماد في الخريدة: أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل كان داعي الدعاة بمصر للأدعياء، وقاضي القضاة لأولئك الأشقياء، يلقبونه بفخر الأمناء، وهو عندهم في المحلة العليا والمرتبة الشماء، والمنزلة التي في السماء، حتى انكدرت نجومهم، وتغيرت رسومهم، وأقيم قاعدهم، وعضد عاضدهم، وأخليت منهم مصرهم، وأجلى عنهم قصرهم؛ فحرّك ابن كامل ناقص الذب عنهم، والشدّ منهم، فمالأ قوما على البيعة لبعض أولاد العاضد، ليبلغوا به ما تخيلوه من المقاصد، وسوّلوه من المكايد؛ فأثمرت بجثثهم الجذوع، وأقفرت من جسومهم الرّبوع، وأحكمت في حلومهم النسوع، وهذا أوّل من ضمه حبل الصلب، وأمه فافرة الصلب؛ وهذا صنع الله فيمن ألحد، وكفر النعمة وجحد؛ وذلك غرة رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة. سمعت الملك الناصر صلاح الدين يذكره، وقد ذكروه عنده بالفضل والأدب، ونسبوا إليه هذين البيتين في غلام رفاء، وأنشدهما الملك الناصر وذكر أنه كان ينكرهما:

يا رافيا خرق كلّ ثوب ... ويارشاً حُبّه اعتقادي
عسى بكف الوصال ترفو ... مامزق الهجر من فؤادي

فصل في التعريف بحال عمارة ونسبه وشعره

قال العماد: وقد أوردت شعر عمارة بن أبي الحسن اليمني في كتاب خريدة القصر وجريدة العصر، ونقلت إلى هذا الكتاب، يعني كتاب البرق الشامي، لمعاً من ذلك. فمن ذلك ما أنشدنيه نجم الدين أبو محمد بن مصال:

لو أن قلبي يوم كاظمة معي ... لملكته وكظت غيظ الأدمع

قال العماد: إنما أنشدني فيض الأدمع فرأيت غيظ الأدمع أليق بالكظم.

قلب كفاك من الصبابة أنه ... لبى نداء الظاعنين ومادعى
ومن الظنون الفاسدات توهميّ ... بعد اليقين بقاءه في أضلعي
ما القلب أوّل غادر فألومه ... هي شيمة الأيام، مُذْ خلقت، معي

قال: وأنشدني لعمارة أيضا:

ملك إذا قابلت بشر جبينه ... فارقته والبشر فوق جبيني
وإذا لثمت يمينه وخرجت من ... أبوابه لثم الملوك يميني

قال: وأنشدني له عضد الدين أبو الفوارس موهف بن أسامة بن منقذ يقول:

لي في هوى الرشأ العذري أعدار ... لم يبق لي مذ أقر الدمع إنكار

لي في القدود، وفي لثم الخدود، وفي ضم النهدو، لبانات وأوطار

هذا اختياري فوافق إن رضيت به أولا، فدعني وما أهوى وأختار

لمُنى جزافا وسامحني مصارفة فالناس في درجات الحب أطوار

وخلِّ عذلي، ففي داري ودائري من المها دُرَّة قلبي لها دار

قلت ويُروى:

وغُرَّ غيري ففي أسرى ودائرتي

والأبيات العينية من قصيدة في مدح تقيّ الدين، والنونية في مدح نجم الدين أيوب، والرائية في مدح شمس الدولة بن أيوب.

وكان عمارة هذا عربيا فقيهاً أديباً، وله كتاب صغير ذكر فيه أخباره وأحواله باليمن ثم بمصر، فذكر أنه أقام بزبيد ثلاث سنين يقرأ عليه مذهب الشافعي رضي الله عنه. قال: ولى في الفرائض مصنف يقرأ باليمن.

وفي سنة تسع وثلاثين زارني والدي، وخمسة من إخوتي، في زبيد، فأنشدته شيئا من شعري فاستحسنه، ثم قال تعلَّم والله أن الأدب نعمة من نعم الله عليك فلا تكفرها بذم الناس؛ واستحلفني ألا أهجو مسلماً ببيت شعر، فحلفت له على ذلك، ولطف الله بي فلم أهج أحدا ماعدا إنساناً هجاني بحضرة الملك الصالح، يعمي ابن رزيك، ببيتي شعر فأقسم الصالح عليّ أن أجيبه ففعلت متأولا قول الله عز وجل: "وَلَمَن انْتَصر بَعْدَ ظُلْمِه فأولِئكَ مَاعَلَيْهِم مِنْ سَبِيل"، وقوله تعالى: "فَمَن اعتَدى عَلَيْكُم فاعْتَدوا عَلَيْه بِمثِل مَا اعْتَدَى عَلَيْكُم". قال و لم يكن شئ غير هذا.

وحججت مع الملكة أم فاتك ملك زبيد، وكانت تقوم لأمير الحرمين بجميع ما يتناوله من حاجّ اليمن برا وبحرا، وبجميع خفارات الطريق، فذكر أنه حصل له وجاهة عندها فانتفع بها حتى أثرى وكثر ماله وجاهه. ثم طرأت أمورٌ اقتضت أن هرب من اليمن وحج سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

قال: وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم بن فليتة، وولى الحرمين ولده قاسم بن هاشم، فألزمني السّفارة عنه والرسالة منه إلى الدولة المصرية، فقدمتها في شهر ربيع الأول سنة خمسين، والخليفة بها يومئذ الفائز بن الظافر، والوزير له الملك الصالح طلائع ابن رزّيك. فلما حضرت للسلام عليهما في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمدا يقوم بما أولت من النعم

لا أجحد الحق، عندي للركاب يد　　　تمنت اللجم فيها رتبة الخطم
قرّبن بعد مزار العز من نظري　　　حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورُحن من كعبة البطحاء والحرم　　　وفداً إلى كعبة المعروف والكرم
فهل دري البيت أني بعد زورته　　　ماسرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها　　　بين انقيضين من عفو ومن نقم
وللإمامة أنوارٌ مقدسة　　　تجلو البغيضين من ظلم ومن ظُلَم
وللنبوّة آيات تضئ لنا　　　على الخفيين من حكم ومن حكم
وللمكارم أعلام تعلما　　　مدح الجزيلين من بأس ومن كرم
وللعلا ألْسُنٌ تثنى محامدها　　　على الحميدين من فعل ةمن شيم
وراية الشرف البذاخ ترفعها　　　يد الرفيعين من مجد ومن همم
أقسمت بالفئز المعصوم معتقدا　　　فوز النجاة وأجر البّر في القسم
لقد حمى الدِّين والدّنيا وأهلهما　　　وزيره الصالح الفراج للغمم
اللاّبس الفخر لم تنسج غلائله　　　إلا يد الصنعتين السيف والقلم
وُجُوده أوجد الأيام ماقترحت　　　وَجُوده أعدم الشاكين للعدم
قد ملكته العوالي رقّ مملكة　　　تعير أنف الثريا عزّة الشمم
أرى مقاما عظيم الشأن أوهمني　　　في يقظتي أنها من جملة الحُلم
يوم من العمر لم يخطر على أمل　　　ولاترقت إليه رغبة الهمم
ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها　　　عقود مدح فما أرضى لكم كلمي
ترى الوزارة فيه وهي باذلة　　　عند الخلافة نصحا غير متهم
عواطف أعلمتنا أن بينهما　　　قرابة من جميل الرأي لا الرحم

خليفة ووزير مدّ عَدْلُهما　　　ظلاًّ على مفرق الإسلام والأمم
زيادة النيل نقص عند فيضهما　　　فما عسى يتعاطى منة الديم

قال: وعهدي بالصالح وهو يستعيدها في حال النشيد مرارا، والأستاذون والأمراء والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مذهب. ثم أفيضت عليّ خلع من ثياب الخلافة مذهبة، ودفع إليّ الصالح خمسمائة دينار؛ وإذا بعض الأستاذين قد خرج لي من عند السيدة بنت الإمام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى، وحمل المال معي إلى مترلي وأُطلق لي من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد قبلي، وتمادتني أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم، واستحضرني الصالح للمجالسة، ونظمني في سلك أهل المؤانسة، وانثالت عليّ صلاته، وغمرني برّه.

ووجدت بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ أبا المعالي بن الحباب، والموفق أبا الحجاج يوسف بن الخلال صاحب ديوان الإنشاء، وأبا الفتح محمود بن قادوس، والمهذب أبا محمد بن الزبير، وغيرهم. وما من هذه الحلبة أحد إلا ويضرب في الفضائل النفسانية، والرياسة الإنسانية، بأوفر نصيب. ومازلت أحذو على طرائقهم حتى نظموني في سلك فرائدهم. وقلت:

ليالىّ بالفسطاط من شاطئ مصر ... سقى عهدك الماضي عهاد من القطر
ليالٍ هي العمر اسعيد، وكلّ ما ... مضى في سواها لايعدّ من العمر
أفادتني الأقدار فيها موايا ... صفت بهم الأيام من كدر الغدر
تواصوا على ألا تردّ إرادتي ... ولو سمتهم نثر الكواكب في حجري

وله في الصالح من قصيدة:

ولو لم يكن أدري بما جهل الورى ... من الفضل لم تنفق لديه الفضائل
لئن كان منا قاب قوسٍ فبيننا ... فراسخ من إجلاله ومراحل

قال وأنشدت الصالح وهو بالقبو من دار الوزارة قصيدة منها:

دعُوا كل برق شممتم غير بارق ... يلوح على الفسطاط صادق بشره
وزروا المقام الصالحيَّ فكل من ... على الأرض ينسى ذكره عند ذكره
ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغنى ... فتجنوا على مجد المقام وفخره
ولكن سلوا منه العلا تظفروا بها ... فكل امرئ يرجى على قدر قدره

قال: ولما جلس شاور في دار الذهب قام الشعراء والخطباء ولفيف الناس إلا الأقل ينالون من بني رزيك وضرغام نائب الباب ويحي بن الخياط الأسفهسلار، فأنشدته:

صحّت بدولتك الأيام من سقم ... وزال ما يشتكيه الدهر من ألم

ومنها:

زالت ليالي بني رزيك وانصرمت ... والحمد والذم فيها غير منصرم

كأن صالحهم يوما وعاد لهم ... في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم

كنا نظن، وبعض الظن مأثمة ... بأن ذلك جمع غير منهزم

فمذ وقعت وقوع النسر خانهم ... من كان مجتمعا من ذلك الرّخم

ولم يكونوا عدوًّا ذل جانبه ... وإنما غرقوا في سيلك العرم

وما قصدت بتعظيمي عداك سوى ... تعظيم شأنك، فاعذرني ةلاتلم

ولو شكرت لياليهم محافظة ... لعهدها لم يكن بالعهد من قدم

ولو فتحت فمي يوماً بذمهم ... لم يرض فضلك إلا أن يسدّ فمي

والله يأمر بالإحسان عارفة ... منه، وينهى عن الفحشاء في الكلم

قال: فشكرني شاور وأبناؤه على الوفاء لبني رزيك.

قلت: وشعر عمارة كثير حسن، وعندي من قوله: الحمد للعيس، وإن كانت القصيدة فائقة، نفرة عظيمة، فإنه أقام ذلك مقام قولنا الحمد لله؛ ولا ينبغي أن يفعل ذلك مع غير الله تعالى عزّ وجل، فله الحمد وله الشكر، فهذا اللفظ كالمتعين لجهة الربوبية المقدسة، وعلى ذلك اطرد استعمال السلف والخلف رضي الله عنهم.

فصل في وفاة نور الدين رحمه الله تعالى

قال العماد: وأمر نور الدين رحمه الله تعالى بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم عيد الفطر، واحتفلنا لهذا الأمر وغلقت محال دمشق أياما.

قال: ونظمت للهناء بالعيد والطهور قصيدة منها:

عيدان: فطر وطهر ... فتح قريب ونصر

كلاهما لك فيه ... حقا هناء وأجر

وفيهما بالتهاني ... رسم لنا مستمر

طهارة طاب منها ... أصل وفرع وذكر

نجل على الطهر نامٍ زكا له منك نجر
محمود الملك العا دل الكريم الأغر
وبابنه الملك الصا لح العيون تقر
مولى به اشتد للدي ن والشريعة أزر
نور تجلى عيانا مادونه اليوم ستر
أضحت مساعيك غرا كما أياديك غزر
وكل قصدك رشد وكل فعلك بر
وإن حبك دين وإن بغضك كفر
لنا بيمناك يمن كما بيسراك يسر
وللموالين نفع وللمُعادين ضر
وللسماء سحاب وسحب كفيك عشر
وناديك بالرفد رحب نداك للوفد بحر
للبحر مدّ وجزر وما لجودك جزر
عدل عميم وجود غمر ويسر وبشر
وفي العطية حلو وفي الحمية مر
قد استوى منك تقوى ال له سرّ وجهر
تقاك والملك عند القياس عقد ونحر
ياأعظم الناس قدرا وهل لغيرك قدر!
وساهر حين ناموا وقائما حين قروا
ماعتدت إلا وفاء وعادة القوم غدر
وفعلك الدهر غزو للمشركين وقهر
وفعل غيرك ظلم للمسلمين وقسر
يفتر من كل ثغر إلى ابتسامك ثغر
روم به وفرنج في شفعهم لك وتر

حرب عوان وفتح على مرادك بكر
بنو الأصافر من خشي ية انتقامك صفر
لم يبق للكفر ظفر لاكان للكفر ظفر
ومادجى ليل خطب إلا وعزمك فجر
أصبحت بالغزو صبا وعنه مالك صبر
لكسر كل يتيم إسعاف برك جبر
في كل قلب حسود من حر بأسك جمر
تملَّ تطهير مَلْكَ له الملوك تخر
يزهى سرير وتاج به ودست وصدر
وكيف يعمل للطا هر المطهر طهر
هذا الطهور ظهور على الزمان وأمر
وذا الختان ختام بمسكه طاب نشر
رزقت عمرا طويلا ماطال للدهر عمر

قال: وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرسم المعتاد، محفوفا من الله بالإسعاد، مكنونا من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له هذا آخر الأعياد. ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمى القبق، وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر؛ وخطب له القاضي شمس الدين محمد بن الفراش قاضي العسكر، بعد أن صلى به وذكّر، وعاد إلى القلعة، طالع البهجة بهيج الطلعة وأنهب سماطه العام على رسم الأتراك، وأكابر الأملاك. ثم حضرنا على خوانه الخاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص؛ وما أوضح بشره، وأضوع نشره، وأضحك سنه، وأيرك يمنه.

وفي يوم الأثنين ثاني العيد بكر وركب وجمل الموكب، وكأن الفلك بنيره جار، والطود الثابت يمرّ مرّ السحاب في وقار؛ وكأنه القمر في هالته، والقدر في جلالته، والبدر في دائرته، سائرين سيارته؛ ودخل الميدان والعظماء يسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همام الدين مودود، وهو في الأكابر معدود، وكان قديما في أول دولته والى حلب، وقد جرب الدهر بحنكته ولأشطره حلب، فقال لنور الدين في كلامه،

عظة لمن يغتر بأيامه، هل نكون ههنا في مثل اليوم في العام القابل؟ فقال نور الدين قل هل نكون بعد شهر، فإن السنة بعيدة! فجرى على منطقهما ماجرى به القضاء السابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى العام.

ثم شرع نور الدين في اللعب بالكرة مع خواصه البررة، فاعترضه في حاله أمير آخر اسمه برتقش وقال له باش، فأحدث له الغيظ والاستيحاش، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم، وخلقه الحليم، فزجره وزبره، وفاه وهمره، وساق ودخل القلعة ونزل، واحتجب واعتزل؛ فبقي أسبوعا في مترله، مشغولا بنازله، مغلوبا عن عاجله بحديث آجله، والناس من الختان، لاهون بأوطافهم في الأوطان، فهذا يروح بجوده، وذاك يجود بروحه؛ فما انتهت تلك الأفراح إلا بالأتراح وما صلح الملك بعده إلا بمكل الصلاح.

قال: واتصل مرض نور الدين وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيبا فما روجع؛ وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء، إلى مرتع البقاء. ولقد كان من أولياء الله المؤمنين، وعباده الصالحين، وصار إلى جنات عدن أعدت للمتقين.

وكانت له صُفَّة في الدار التي على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال، وكان جلوسه عليهما في جميع الأحوال؛ فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بإزاء تلك الصفّة بيتا من الأخشاب، مأمون الاضطراب، فهو يبيت فيه ويصبح، ويخلو بعبادته ولايبرح؛ فدفن في ذلك البيت الذي اتخذه حِميً من الحمام، وأذن بناؤه لبانيه بالانهدام.

قال العماد: وقلت في ذلك:

عجبت من الموت، كيف اهتدى ... إلى ملك في سجايا مَلَك!

وكيف ثوى الفلك المستدي ... رُ في الأرض، والأرض وسط الفلك !

وله فيه رحمهما الله تعالى:

يا ملكا أيامه لم تزل ... بفضله فاضلة فاخرة

غاصت بحار الجود مذ غيبت ... أنملك الفائضة الزاخرة

ملكت دنياك وخلفتها ... وسرت حتى تملك الآخرة

قال ابن شداد. وكانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعترته عجز الأطباء عن علاجها. ولقد حكى لي صلاح الدين قال: كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه، ونلقى عسكره بمصاف يرده، إذا تحقق قصده؛ قال: وكنت وحدي أخالفهم وأقول: لايجوز أن يقال شئ من ذلك و لم يزل التراع بيننا حتى وصل الخبر

بوفاته رحمه الله تعالى، ورضي عنه.
قال ابن الأثير: وكان نور الدين قد شرّع بتجهيز السير إلى مصر لأخذها من صلاح الدين لأنه رأى منه فتورا في غزو الفرنج من ناحيته، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر. يطلب العساكر ليتركها بالشام لمنعه من الفرنج، ليسير هو بعساكره إلى مصر. وكان المانع لصلاح الدين من الغزو، الخوف من نور الدين، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه؛ فكان يحتمي بهم عليه، ولايؤثر استئصالهم، وكان نور الدين لايرى إلا الجدّ في غزوهم بجهده وطاقته، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو، وعلم غرضه تجهز بالمسير إليه، فأتاه أمر الله الذي لايرد.
قلت: ولو علم نور الدين ماذا ذخر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يدي صلاح الدين من بعده لقرَّت عينه، فإنه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها، رحمهما الله تعالى.

قال: وحكى لي طبيب بدمشق، يعرف بالرحبي، وهو من حذاق الأطباء، قال: استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء، فدخلنا عليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق، وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك، فلا يكاد يسمع صوته، وكان يخلو فيه للتعبد في أكثر أوقاته، فابتدا به المرض فيه فلم ينتقل عنه. فلما دخلنا عليه ورأينا مابه قلت: كان ينبغي أن لايؤخَّر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض إلى هذا الحد، فالآن ينبغي أن تنتقل إلى مكان فسيح فله أثر في هذا المرض. وشرعنا في علاجه فلم ينفع فيه الدواء، وعظم الداء، ومات عن قريب رضي الله عنه.
قال ابن الأثير: وكان أسمر طويل القامة، ليس له لحية إلا في حنكه. وكان واسع الجبهة، حسن الصورة، حلو العينين. وكان قد اتسع ملكه جدا فملك الموصل وديار الجزيرة، وأطاعه أصحاب ديار بكر، وملك الشام والديار المصرية واليمن، وخُطب له بالحرمين الشريفين مكة والمدينة، وطبّق الأرض ذكره لحسن سيرته وعدله. و لم يكن مثله إلا الشاذ النادر. رحمة الله تعالى عليه.
قال الحافظ أبو القاسم، بعد ماذكر أوصاف نور الدين الجليلة المتقدمة مفرقة ومجموعة في هذا الكتاب: هذا مع جمع الله له من العقل المتين، والرأي الثاقب الرصين، والاقتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين؛ والاقتداء بسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم، والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم، حتى روى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأسمعه؛ وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه، حرصا منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحديث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الحديث. فمن رآه شاهد من خلال السلطنة وهيبة الملك مايبهره، فإذا فاوضه رأى من

لطافته وتواضعه مايحيره؛ يحب الصالحين ويؤاخيهم، ويزور مساكهنم لحسن ظنه فيهم. وإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزوّج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم؛ ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد من ولاته، أمره بالكف عن اذى من تظلم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل، قابله بإسقاط المترلة والعزل. فلما جمع الله له من شريف الخصال، تيسر له جميع مايقصده من الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع، ومُكن له في البلدان والبقاع.

ثم قال بعد كلام كثير: زمناقبه خطيرة، وممادحه كثيرة؛ ومدحه جماعة من الشعراء فأكثروا، ز لم يبلغوا وصف الآئه بل قصروا؛ وهو قليل الابتهاج بالشعر، زيادة في تواضعه لعلّو القدر.

ومولده على ماذكر لي كاتبه أبو اليسر شاكر بن عبد الله، وقت طلوع الشمس من يوم الأحد سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وتوفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة، ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه جوار الخواصين في الشارع الغربي رحمه الله.

قلت: وفي هذه المدرسة يقول العرقلة:

ومدرسة سيدرس كل شئ — وتبقى في حمى علم ونسك
تضوع ذكرها شرقا وغربا — بنور الدين محمود بن زنكي
يقول، وقوله حقٌّ وصدق — بغير كنايةٍ وبغير شكّ
دمشق في المدائن بيت مُلكي — وهذي في المدارس بيت مِلكي

ولما اشتهر به من قلة ابتهاجه بالمدح لما علم من تزايد الشعراء، وهي طريقة عمر بن عبد العزيز زاهد الخلفاء، قال يحيى بن محمد الوهراني في مقامة له، وقد سئل في بغداد عن نور الدين: هو سهم للدولة سديد، وركن للخلافة شديد، وأمير زاهد، وملك مجاهد، تساعده الأفلاك، وتعضده الجيوش والأملاك، غير أنه عرف بالمرعى الوبيل، لابن السبيل، وبالمحل الجديب، للشاعر الأديب، فما يُرزى ولايُعزى، ولا لشاعر عنده من نعمة تجزى.

وإيَّاه عني أسامة ابن منقذ بقوله:

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا — له، فكلٌّ على الخيرات منكمش
أيَّامه مثل شهر الصوم: طاهرة — من المعاصي، وفيها الجوع والعطش

قلت: رحمه الله، ماكان يبذل أموال المسلمين إلا في الجهاد، ومايعود نفعه على العباد؛ وكان كما قيل في

حق عبد الله بن محيريز، وهو من سادات التابعين بالشام، قال يعقوب بن سفيان الحافظ، حدّثنا ضمرة الشيباني، قال: كان ابن الديلمي من أنصر الناس لأخوانه، فذكر ابن محيريز في مجلسه، فقال: رجل كان بخيلا. فغضب ابن الدّيلمي وقال: كان جوادا حيث يحب الله وبخيلا حيث تحبون.

وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به فهو القائل في ليلة الميلاد يمدح نور الدين رحمه الله تعالى:

في كل عام للبرية ليلة فيها تشب النار بالإيقاد
لكن لنور الدين من دون الورى ناران نار قرى ونار جهاد
أبداً يصرّفها نداه وبأسه فالعام أجمع ليلة الميلاد
ملك له في كل جيد منّة أبهى من الأطواق في الأجياد
أعلى الملوك يدا، وأمنعهم حمى وأمدهم كفًّا ببذل تلاد
يعطى الجزيل من النوال تبرعا من غير مسألة ولا ميعاد
لازال في سعد وملك دائم مادامت الدنيا بغير نفاد

وقد تقدم من شعر ابن منير وابن القيسراني والعماد الكاتب وغيرهم من مدح نور الدين بالكرم والجود ماقليل منه يرّد قول الوهراني وابن منقذ. على أنّ ابن منقذ قد رددنا شعره كما تراه، وإنما الشعراء وأكثر الناس كما قال الله تعالى في وصف قوم "فإنْ أُعْطُوا مِنْها رّضُوا، وَإنْ لَمْ يُعْطَوا مِنْها إذَا هم يَسْخَطون" وما كلّ وقت ينفق العطاء ويفعل الله ما يشاء.

فصل

قال ابن الأثير: لما توفي نور الدين جلس ابنه الصالح اسماعيل في الملك وحُلِف له و لم يبلغ الحُلم، وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق، وأقام بها، وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام، وصلاحُ الدين بمصر، وخطب له بها، وضرب السكة باسمه فيها. وتولّى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدم.

قال العماد: وأخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصالح اسماعيل، وقد أبدى الحزن والعويل، وهو مجزوز الذوائب مشقوق الجيب، حاسر، حافٍ مما فجأه وفجعه من الرّيب، وأجلسوه في الأيوان الشمالي من الدّست والتخت الباقي من عهد تاج الدولة تتش، فاستوحى كل قلب حزنه واستوحش، فوقف الناس يظطرمون ويضطربون، ويلتهفون ويتلهبون. ولما كفّن بحلة الكرامة، ودفن في روضة بابها إلى باب رضوان من دار المقامة، وقضوا الجزع، وقوضوا الفزع، وغيبوا الدمعة، وأحضروا الرّبعة، حضر القاضي كمال الدين، وشمس الدين بن المقدم، وجمال الدين ريحان، وهو أكبر الخدم. والعدل أبو صالح بن

العجمي أمين الأعمال، والشيخ اسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحدة، وعزائمهم متعاقدة، وأن ابن المقدم مقدم العسكر، وإليه المرجع والمصدر.

قال: وأنشأت في ذلك اليوم كتابا عن الملك الصالح إلى صلاح الدين في تعزيته بنور الدين، ترجمته: إسماعيل بن محمود وفيه: أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل ندب الشام، بل الإسلام، حافظ ثغوره، وملاحظ أموره، ومقدام الجهاد مقتني فضيلته، ومؤدي فريضته، ومحيي سنته؛ وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره، على أنه يعزّ أن يرى الزمان نظيره. وما ههنا ما يشغل السر، ويقسم الفكر، إلا أمر الفرنج خذلهم الله؛ وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلا لمثل هذا الحديث الجلل، والصرف الكارث المذهل؛ فقد ادخره لكفايات النوائب، وأعده لحسم أدواء المعضلات اللوازب، وأمله ليومه ولغده، ورجاه لنفسه ولولده، ومكنّه قوة لعضده. فما فقد رحمه الله تعالى إلا صُورة والمعنى باق، والله تعالى حافظ لبيته واق؛ وهل غيره، دام سموه، من مؤازر، وهل سوى السيّد الأجل النّاصر من ناصر؛ وقد عرفناه المقترح، ليروض برأيه من الأمر ماجمح. والأهم شغل الكفار، عن هذه الديار، بما كان عازما عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البدار؛ ويجري على العادة الحسنة في إحياء ذكر الوالد هناك بتجديد ذكرنا، راغبا في اغتنام ثنائنا وشكرنا.

قلت: وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدين فأرسل كتابا بالمثال الفاضل فيه: ورد خبر من جانب العدو اللعين، عن المولى نور الدين، أعاذ الله تعالى فيه من سماع المكروه، ونور الدين بعافيته القلوب والوجوه؛ فاشتد به الأمر، وضاق به الصدر، وانقصم بحادثه الظهر، وعزّ فيه التثبت وأعوز الصبر. فإن كان والعياذ بالله قد تم، وخصّه الحكم الذي عم، فللحودات تدخر النصال، وللأيام تصطنع الرجال؛ وما رتب الملوك ممالكها إلا لأولادها، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلا لتؤدي حقها يوم حصادها؛ فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي، فتبلغ الأعداء مرادها، وتعدم الآراء رشادها، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها، إلى أن أعطت قيادها. فكونوا يداً واحدة، وأعضاداً متساعدة، وقلوبا يجمعها ودّ، وسيوفا يضمها غمد؛ ولاتختلفوا فتنكلوا، ولاتنازعوا فَتَفْشَلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولاتأخذوا الأمر بأطراف الأنمل؛ فالعداوة محدقة بكم من كل مكان، والكفر مجتمع على الأيمان. ولهذا البيت منّا ناصر لانخذله، وقائم لانسلمه. وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحققت، بأن ولده القائم بالأمر وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه؛ فإن كانت الوصية ظهرت وقبلت، والطاعة في الغيبة والحضور أديت وفعلت، وإلا فنحن لهذا الولد يدُ على من ناواه، وسيف على من عاداه. وإن أسفر الخبر عن معافاة فهو الغرض المطلوب، والنذر الذي يحل على الأيدي والقلوب.

قال العماد: وورد كتاب صلاح الدّين بالمثال الفاضل معزيا لابن نور الدين وفي آخره: وأما العدو خذله الله تعالى فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليلٍ لنهار، وسيل لقرار، إلى أن يزعجه من مجاثمه، ويستوقفه عن مواقف مغانمه؛ وذلك من أقلّ فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه. أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم، وصرح فيه بذكره في الموقف العظيم، والجمع الذي لالغو فيه ولا تأثيم؛ وأشبه يوم الخادم أمسه في الخدمة ووفى مالزمه من حقوق النعمة وجمع كلمة الإسلام عالماً أن الجماعة رحمة. والله تعالى يخلد ملك المولى الصالح، ويصلح به وعلى يديه، ويؤكد عهود النَّعْماء الراهنة لديه، ويجعل للإسلام واقية باقية عليه، ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشييده، ومضاعفة ملكه ومزيده، وييُسر منال كل أملٍ صالح وتقريب بعيده، إن شاء الله تعالى.

ومن كتاب آخر: الخادم مستمر على بدأته من الاستشراف لأوامرها، والتعرض لمراسمها، والرفع لكلمتها، والإيالة لعسكرها، والتحقق بخدمتها، في بواطن الأحوال وظواهرها، والتّرقب لأن يؤمر فيمتثل، ويكلف فيحتمل، وأن يُرمى به في نحر عدوه فيتسدد بجهده، ويوفى أيام الدولة العالية يوما يكشف الله فيه للمولى ضمير عبده.

قال العماد: ولما توفي نور الدين أختل أمري، واعتل سرّي، وعلت حسادي، وبلغ مرادهم أضدادي. وكان الملك الصالح صغيرا، فصار العدل ابن العجمي له وزيرا؛ وتصرف المتحالفون في الخزانة والدولة كما أرادوا، وولَّوْا وصرفوا ونقصوا وزادوا؛ واقتصروا لي على الكتابة، محروم الدعوة من الإجابة.

ومما نظمته في مرثية نور الدين قصيدة منها.

لفقد الملك العادل يبكي الملك والعدل
وقد أظلمت الآفاق :لا شمس ولاظل
ولما غاب نور الدين عنا أظلم الحفل
وزال الخصب والخير وزاد الشر والمحل
ومات البأس والجود وعاش اليأس والبخل
وعز النقص لمّا هان أهل الفضل والفضلُ
وهل ينفق ذو علم إذا ما نفق الجهل
وما كان لنور الدين، لولا نجلُه، مثل

فصل

قال العماد: واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين رحمه الله تعالى على الثغر وقصدهم بانياس، ورجوا أن يتم لهم الأمر ثم ظهرت خيبتهم وبان الياس. وذلك أن شمس الدّين ابن المقدم خرج وراسل الفرنج وخوّفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم، وأنه قد عزم على جهادهم؛ وتكلموا في الهدنة، وقطع مواد الحرب والفتنة، وحصلوا بقطيعة استعجلوها، وعدة من أساراهم استطلقوها؛ وتمّت المصالحة.

وبلغ ذلك صلاح الدين فأنكره و لم يعجبه، وكتب إلى جماعة الأعيان كُتُباً دالّة على التوبيخ والملام. ومن جملتها كتاب بالمثال الفاضلي إلى الشيخ شرف الدّين بن أبي عصرون يخبره فيه أنه أتاه كتاب الملك الصالح بقصد الفرنج تجهّز وخرج وسار أربع مراحل، ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذُل الإسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى؛ وسيدنا الشيخ أول من جرّد لسانه الذي تُغمد له السيوف وتُجرّد، وقام في سبيل الله قيام من يقطّ عادية من تعدّى وتمرّد.

وفي آخره: كتب من المترل بفاقوس والفجر قَدْ هَمّ أنْ يشقّ ثوب الصباح، لولا أن الثّريا تعرضت تعرض أثناء الوشاح. وهذه الليلة سافرة عن نهار يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجة، بلغه الله فيه أمله، وقبل عمله، بالغاً أسنى المراد وأفضله.

وقال ابن الأثير: لما توفي نور الدين قال الأمراء، منهم شمس الدين بن المقدم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحي، وغيرهما من أكابر الأمراء: قد علمتم أن صلاح الدين من مماليك نور الدين ونوّابه، والمصلحة أن تشاوره فيما نفعله ولانخرجه من بيننا، فيخرج عن طاعة الملك الصالح، ويجعل ذلك حجة علينا؛ وهو أقوى منا لأن له مثل مصر، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح. فلم يوافق أغراضهم هذا القول، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا.

قال: فلم يمض غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح، يهنيه بالملك ويعزيه بأبيه، وأرسل دنانير مصريه عليها اسمه، ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لوالده. فلّما سار سيف الدين غازي، ابن عمه قطب الدين، وملك الديار الجزرية، و لم يرسل من مع الملك الصالح من الأمراء إلى صلاح الدين ولا أعلموه الحال، كتب إلى الملك الصالح بعتبه حيث لم يُعْلِمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته ويمنعه. وكتب إلى الأمراء يقول إن الملك العادل لو علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته بي، لَسَلَّم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سواي. وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاي وابن مولاي دوني، فسوف أصلُ إلى خدمته وأجازي إنعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأقابل كلاًّ منكم على سوء صنيعه، وإهمال أمر الملك الصالح ومصالحه، حتى أخذت بلاده.

فأقام الصالح بدمشق ومعه جماعة من الأمراء لم يمكنوه من المسير إلى حلب لئلا يغلبهم عليه شمس الدين على بن الدّاية فإنه كان أكبر الأمراء النُّورية، وإنما تأخر عن خدمة الملك الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه؛ وكان هو وإخوته بحلب وأمرها إليهم، وعسكرها معهم في حياة نور الدين وبعده. ولما عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه؛ وأرسل إلى الأمراء يقول لهم: إن سيف الدين قد ملك إلى الفران ولئن لم ترسلوا الملك الصالح إلى حلب حتى يجمع العساكر ويسترد ما أخذ منهم، وإلا عبر سيف الدين الفرات إلى حلب ولانقوى على منعه. فلم يرسلوه ولا مكنوه من قصد حلب.

قال: وكان نور الدين قبل أن يمرض قد أرسل إلى البلاد الشرقية كالموصل وغيرها، واستدعى العساكر منها، فسار سيف الدين غازي بن أتابك قطب الدين صاحب الموصل في عساكره، فلما كان ببعض الطريق أتاه الخبر بموت عمّه نور الدين، فعاد إلى نصيبين فملكها، وأرسل الشحن إلى الخابور فاستولوا عليها، وسار هو إلى حران فحصرها عدة أيام ثم أخذها، وملك الرّها والرّقة وسَرُوج واستكمل ملك ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر. فقال له فخر الدين عبد المسيح_وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين وقصد سيف الدين، ظنًّا منه أن سيف الدّين يرعى له خدمته، وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين، على ماذكرناه أولا، فلم يجن ثمرة ماغرس، وكان عنده كبعض الأمراء_ليس بالشام من يمنعك فاعبر الفرات واملك البلاد. فأشار أمير آخر معه وهو أكبر أمرائه: قد ملكت أكثر من والدك، والمصلحة أن تعود؛ فرجع إلى الموصل.

فصل

قال ابن الأثير: قد سبق أن نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لّما ملكها دُزْداراً له وهو سعد الدين كمشتكين بعض خدمه الخصيان؛ فلما سار سيف الدين إلى الشام كان في مقدمته على مرحلة. فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب، وأرسل سيف الدين في أثره فلم يدركه، فنهب بَرْكه ودوابه وسار إلى حلب، وتمسك بخدمة شمس الدين بن الداية وإخوته، واستقر بينهم وبينه أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح. فسار إلى دمشق، فأخرج ابن المقدم عسكراً لينهبوا فعاد مُنهزما إلى حلب؛ فأخلف عليه شمس الدين بن الداية ما أخذ منه وجهزه وسيره إلى دمشق، وعلى نفسها تجني براقش. فلما وصلها سعد الدين دخلها واجتمع بالملك الصالح والأمراء، وأعلمهم مافي قصد الملك الصالح إلى حلب من المصالح، فأجابوه إلى تسييره، فسار إليها. فلما وصلها وصعد إلى قلعتها قبض الخادم سعد الدين على شمس الدين بن الداية

وإخوته وعلى ابن الخشاب رئيس حلب.

قال ابن الأثير: ولولا مرض شمس الدين لم يُتمكن منه ولاجرى من ذلك الخلف والوهن شئ. وكان أمر الله قدراً مقدوُراً.

واستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق، فكاتبوا سيف الدين ليسلموا إليه دمشق، فلم يفعل وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها، ويقصده ابن عمه من وراء ظهره، فلايمكنه الثبات. فراسل الملك الصالح وصالحه على إقرار ما أخذه بيده، وبقي الملك الصالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبر أمره، وتمكّن منه تمكناً عظيماً يقارب الحجر عليه.

وقال العماد: كان كمشتكين الخادم النائب بالموصل قد سمع بمرض نور الدين فأخفاه، واستأذن في الوصول إلى الشام، فطلب سيف الدين غازي رضاه؛ فخرج وسار مرحلتين وسمع النّعْي، فأغذ السير والسعي، ونجا بماله وبحاله، وندم صاحب الموصل على الرضا بترحاله. وكانت عنده بوفاة عمه بشارة، وظهرت على صفحاته منها أمارة، فإنه لم يزل من كمشتكين متشكياً فإنه كان لحجر الأمر عليه مّذْكيا. وكان المرحوم قد أمر بإراقة الخمور، وإزالة المحظور، وإسقاط المكوس، وإعدام أقساط البوس؛ فنودي في الموصل يوم ورود الخبر بالفسحة في الشرب جهاراً، ليلاً ونهاراً، وزال العرف، وعاد النكر؛ وأنشد قول ابن هاني:

*ولا تسقني سرا فقد أمكن الجهر *

وقيل: أخذ المنادي على يده دنّا وعليه قدح وزمر، وزعم أنه خرج بهذا أمر، فلا حرج على من يغنى ويشرب؛ وعادت الضرائب وضربت العوائد.

فأما كمشتكين فإنه وصل إلى حلب بعد عبور القرى، وتمثل عند الصباح بحمد القوم السّري، واجتمع هناك بالأمير شمس الدين عليّ بن الداية وإخوته، إخوة مجد الدين، وأظهر أنه لهم من المخلصين.

وكان مجد الدين أبو بكر أخوهم رضيع نور الدين وقد تربّى معه، ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام بعد والده، ففوّض إلى مجد الدين جميع مقاصده، من طريفه وتالده، وحكّمه في الملك، ونظمه في السلك، فلا يُحلّ ولا يُعقد إلا برأيه. وكانت حصونه محصّنة، وهو يسكن عنده في قلعة حلب، والحاضر عنده صباحا ومساءً إذا طُلب؛ وشيرز مع أخيه شمس الدين علي، وقلعة جعبر وتلّ باشر مع سابق الدين عثمان، وحارم مع بدر الدين حسن، وعين تاب وعزاز وغيرهما نوّابه فيها، وهو يصونها ويحميها.

ولّما توفّي جرت إخوته في القرب والانبساط على عادته، وهم أعيان الدولة وأعضادها، وأبدال أرضها

وأوتادها، وأمجادها وأجوادها. فلما توفي نور الدين لم يشكوا في أنهم يكفلون ولده ويرّبونه، ويحبهم لأجل سابقتهم ويحبونه؛ فأقام شمس الدين عليّ، وهو أكبرهم وأوجههم، ودخل قلعة حلب، وبها والياً شاذ بخت، وسكنها، وأسرَّ مصلحة الدولة وأعلنها. وعرف ماجرى بدمشق من الاجتماع، واتفاق ذوى الأطماع، فكاتبهم وأمرهم بالوصول إليه في خدمة الملك الصالح. وأنفذ أخاه سابق الدين عثمان، وكان قليل الخبرة بعيدا من التحرُّز والدّهاء، فاستقرّ الأمر على أن يحملوا الملك الصالح إليه، ويقدموا به عليه، وهو يتسلم ممالكه، ويكون أتابكه.

ووصل كمشتكين إلى دمشق في تلك الأيام، فوافقهم على مادبروه من المرام، وسار الصالح ومعه كمشتكين، والعدل ابن العجمي، واسماعيل الخازن، فبغُتوا إخوة مجد الدين الثلاثة فقبضوهم واعتقلوهم؛ وجاء ابن الخشاب أبو الفضل، مقدّم الشيعة، فسفكوا دمه. وأقام شمس الدين بن المقدم بدمشق على عساكرها مقدما، وفي مصالحها محكّما؛ وجمال الدين ريحان والي القلعة والشِّحن من قبله، والأمر إليه بتفصيله وجمُله، والقاضي كمال الدين الشهرزوري الحاكم النافذ حكمه، الصائب سهمه، الثاقب نجمه. وكان مسير الملك الصالح من دمشق في الثالث والعشرين من ذي الحجة؛ وغاظ صلاح الدين ما فُعل بأخوة مجد الدين.

وقال ابن أبي طي الحلبي: لما مات نُور الدين اجتمع أمراء دولته واتفقوا على أن يكونوا في خدمة الملك الصالح، ابن نور الدين، وكان يومئذ صبيا، وحلفوا له على منابذة الملك الناصر وقبض أصحابه الذين بالشام، ومصالحة الفرنج وجعلوا ابن المقدم شمس الدين مقدم العساكر؛ وتم ذلك واستقر، وركب الملك الصالح بدمشق وخطب له.

وكانت الفرنج قد تحركت إلى قصد دمشق فخرج ابن المقدم ونزل على بانياس في عساكر نور الدين، وراسل الفرنج في الهدنة، فأجابوه بعد أن قطعوا قطيعة على المسلمين، فعجل حملها إليهم. وتم أمر الصلح وعادت الفرنج إلى بلادها وابن المقدم إلى دمشق.

واتصل خبر هذه الهدنة بالملك الناصر، وكان قد خرج من مصر أربع مراحل، فأعظم أمرها وأكبره، واستصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم. فراسل ابن المقدم وغيره من الأمراء بإنكار ذلك والتوبيخ عليه، وقال في كتابه إلى ابن عصرون: ورد الخبر بصلح بين الفرنج والدمشقيين، وبقيةُ بلاد المسلمين ما دخلت في العقد، ولا انتظمت في سلك هذا القصد، والعدو لهما واحد؛ وصرف مال الله الذي أُعد لمغنم الطّاعة، ومصلحة الجماعة، في هذه المعصية المغضبة لله ولرسوله ولصالحي الأمة، وكان مذخوراً لكشف الغمة، فصارعَوْنا؛ وأن أسارى من طبرية وفرسانها كانت وطأتهم شديدة، وشوكتهم حديدة، دُفعوا في القطيعة،

وجعلوا إلى السلم السبب والذريعة. فلما بلغنا هذا الخبر، وقفنا به بين الورود والصدر، وإن أتممنا ظُنَّ بنا غير مانريد، وإن قعدنا فالعودّ من بقية الثغور التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد، وإن فرّقنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد. فرأينا أن سيرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي وإخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك، وأنه ربما عُجز عن الاستدراك، وأن العدوّ طالب لايغفل، وجادٌّ لاينكل، وليث لايضيع الفرصة، مجدٌ لايميل إلى الرخصة. فإن كانت الجماعة ساخطين فيظهر أماراتن السخط والتغيير، ولايمسك في الأول فيعجز عن الأخير، لاسيما ونحن نغار لله ونُغير، ونقصد للمسلمين مانجمع به صلاح الرأي وصواب التدبير. وقد منعنا عساكرنا أن تفترق خوفا أن يقصد العدو ناحية حارم بالمال الذي قويت به قوته، وثرت به ثروته، وانبسطت به خطوته؛ فإنه مادام يعلم أنا مجتمعون، وعلى طلبه مجمعون، لايمكنه أن يزايل مراكزه، ولايبادر مناهزه.

قال: وكان متولي قلعة حلب شاذ بخت الخادم النّوري، وكان شمس الدين علي، أخو مجد الدين بن الداية، إليه أمور الجيش والديوان، وإلى أخيه بدر الدين حسن الشحنكية؛ وكان بيده ويد إخوته جميع المعاقل التي حول حلب. فلما بلغ عليا موت نور الدين صعد إلى القلعة، وكان مُقْعَداً، واضطرب البلد، ثمّ سكنه ابن الخشاب، وكوتب ابن الخشاب من دمشق بحفظ البلد، وعول أولاد الداية على الاستيلاء على حلب، وحلف لهم جماعة من القلعيين والحلبيين وأنفذوا خلف أبي الفضل بن الخشاب، فامتنع من الصعود إليهم وترددت بينهم الرسالة؛ وتحزب الناس بحلب، السنة مع بني الداية والشيعة مع أبن الخشاب؛ وجرت أسباب اقتضت أن أنزل حسن بن الداية جماعة من القلعيين وأهل الحاضرة وزحفوا إلى دار ابن الخشاب فملكوها ونهبوها، واختفى ابن الخشاب.

وأتصلت هذه الأخبار بمن في دمشق فأخذوا الملك الصالح وساروا إلى حلب، في الثالث والعشرين من ذي الحجَّة، وسار مع الملك الصَّالح سعد الدين كمشتكين، وجُرديك، وإسماعيل الخازن، وسابق الدّين عثمان بن الدّاية، وقد وكلت الجماعة به وهو لايعلم. وساروا إلى حلب وخرج الناس إلى لقائهم.

وكان حسن قد رتّب في تلك الليلة جماعة من الحلبيين ليصبح ويصلبهم؛ فلمَّا خرج إلى لقاء الملك الصالح ووقعت عينه عليه ترجَّل ليخدم هو وجماعة من أصحابه، فتقدم جرديك وأخد بيده، وشتمه وجذبه، فأركبه خلفه رديفاً، وقُبض سابق الدّين أخوه في الحال، وتُخُطِّفت أصحابهم جميعهم، واحتيط عليهم وساروا مجدّين حتى سبقوا الخبر إلى القلعة وصعدوا إليها، وقبضوا على شمس الدّين علي ابن الداية من فراشه، وحمل إلى بين يدي الملك الصالح؛ فاستقبله أحد مماليك نور الدين المعروف بالجفنية، فركله برجله ركلة دحاه بها على وجهه، فانشقت جبهته. ثم صفدوا جميعا وحبسوا في جُبّ القلعة، وقبضوا على جميع

الأجناد الذين حلفوا لأولاد الداية، وأُخرجوا جميعاً من القلعة.

قلت: وفي آخر هذه السنة توفي مرّي الفرنجي الملك الّي كان حاصر القاهرة وأشرف على أخذ الديّار المصرّية.

وفي كتاب فاضلي: ورد كتاب من الدّاروم يذكر أنه لما كان عشية الخميس تاسع ذي الحجة هلك مرّي ملك الفرنج، لعنه الله، ونقله إلى عذاب كاسمه مشتقا وأقدمه على "نارٍ تَلَظَّى، لاَيَصْلاَهاَ إلاَّ الأَشْقى".

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

قال ابن أبي طيّ: ففي أولّها ضمن القطب ابن العجمي وأبو صالح وابن أمين الدّولة لجرديك إن قتل ابن الخشاب ردُّوا عليه جميع مانهب له في دار ابن أمين الدولة. فدخل على الملك الصالح وتحدّث معه وأخذ خاتمه أماناً لابن الخشاب، ونودي عليه، فحضر وركب إلى القلعة، فقتل وعلّق رأسه على أحد أبراج القلعة.

وبقي الملك الصالح في قلعة حلب ومضى العماد الكاتب إلى الموصل. قال: وعزمت على خدمة سيف الدّين صاحبها وقد أخذ من بلاد الجزيرة إلى حدّ الفرات، ومضى إليه ابن العجمي للإصلاح فأصلح بين ابني العمّ وعلق رهن إخوة مجد الدين في الاعتقال، وضيّقوا عليهم في القيود والأغلال، وألزموهم بتسليم الحصون، وتقديم الرهون، إلى أن غصبوا دورهم، وخربوا معمورهم.

قال: وكان الّموفق خالد بن القيسراني قد وصل، ونحن بدمشق، من مصر فلزم داره و لم يدخل مع القوم. فأما صلاح الدين فإنه اعتقد أن نور الدين يتولاه بعده إخوة مجد الدين، فلما جرى ماجرى ساءه ذلك وقال: أنا أحقّ برعى العهود، والسعيّ المحمود، فإنه إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة، وضاقت المناهج المتسعة، وانفردت مصر عن الشام، وطمع أهل الكفر في بلاد الإسلام. وكتب إلى ابن المقدّم ينكر ما أقدموا عليه من تفريق الكلمة، وكيف اجترءوا على أعضاء الدّولة وأركانها، بل أهلها وإخوانها، وأنه يلزمه أمرهم وأمرها، ويضره ضرهم وضرها. فكتب ابن المقدم إليه يردعه عن هذه العزيمة، ويقبح له استحسان هذه الشيمة، ويقول له: "لا يقال عنك إنك طمعت في بيت من غرسك، وربّاك وأسسك، وأصفى مشربك، وأضفى ملبسك، وأجلى سكونك لملك مصر وفي دسته أجلسك، فما يليق بمالك، ومحاسن أخلاقك وخلالك، غير فضلك وأفضالك.

فكتب إليه صلاح الدين بالإنشاء الفاضلي: "إنا لانؤثر للإسلام وأهله إلا ماجمع شملهم وألف كلمتهم، وللبيت الأتابكي أعلاه الله تعالى إلا ماحفظ أصله وفرعه، ودفع ضرّه وجلب نفعه؛ فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة. وبالجملة إنا في واد، والظانون بناظن السوء في

واد، ولنا من الصلاح مراد، ولمن يبعدنا عنه مراده، ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك قادح، ولمن ألقى السلاح إنك جارح".

فصل

قال العماد: ثم عزم السلطان على أن يسارع إلى تلافي الأمر، فاعترضه أمران: أحدهما وصول أسطول صقلية إلى الإسكندرية وإدراكه، والثاني نوبة الكتر ونفاقه وهلاكه. أما وصول الأسطول فكان يوم الأحد السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين، وانهزم في أول المحرم سنة سبعين.

ثم ذكر كتابا وصل من صلاح الدين إلى بعض الأمراء بالشام يشرح الحال، وحاصله أن أول الأسطول وصل وقت الظهر، ولم يزل متواصلا إلى وقت العصر، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر، لا على حين خفاء من الخبر، فأمر ذلك الأسطول كان قد أشتهر؛ ورُوع به ابن عبد المؤمن في البلاد المغربية، وهدد به في الجزائر الرومية صاحب قسطنطينية. فشوهد في الثغر من وفور عُدّته، وكثرة عدّته، وعظيم الهمّة به، وفرط الاستكثار منه، ما ملأ البحر، واشتد به الأمر، فحمى أهل الثغر عليهم البّر؛ ثم أشير عليهم أن يقربوا من السّور، فأمكن الأسطول الترول، فاستترلوا خيولهم من الطرائد، وراجلهم من المراكب، فكانت الخيل ألفا وخمسمائة رأس، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل، مابين فارس وراجل. وكانت عدة الطرائد ستة وثلاثين طريدة تحمل الخيل، وكان معهم مائتا شيني في كل شيني مائة وخمسون راجلا. وكانت عدة السّفن التي تحمل الآت الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن، وكانت عدة المراكب الحمالة برسم الأزواد والرجال أربعين مركبا؛ وفيها من الراجل المتفرق، وغلمان الخيّالة، وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته المنجنيقية، مايتمم خمسين ألف رجل.

ولما تكاملوا نازلين على البر، خارجين من البحر، حملوا على المسلمين حملة أوصلوهم إلى السور، وفقد من أهل الثغر في وقت الحملة مايناهز سبعة أنفس. واستشهد محمود بن البصار وكان بسهم جرح، وجدفت مراكب الفرنج داخلة إلى الميناء وكان به مراكب مقاتلة ومراكب مسافرة، فسبقهم أصحابنا إليها فخسفوها وغرقوها، وغلبوهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منها. واتصل القتال إلى المساء، فضربوا خيامهم بالبر وكان عدها ثلثمائة خيمة.

فلما أصبحوا زحفوا وضايقوا وحاصروا، ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها، وثلاث مجانيق كبار المقادير، تضرب بحجارة سود استصحبوها من صقلية، وتعجب أصحابنا من شدة أثرها وعظم حجرها. وأما الدبابات فإنها تشبه الأبراج في جفاء أخشابها، وارتفاعها، وكثرة مقاتلتها واتساعها، وزحفوا بها إلى أن

قاربت السّور، ولجّوا في القتال عامة النهار المذكور.

وورد الخبر إلى مترلة العساكر بفاقوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدوّ على جناح الطائر، فاستنهضنا العساكر إلى الثغرين اسكندرية ودمياط، احترازا عليهما، واحتياطا في أمرهما، وخوفا من مخالفة العدوّ إليهما. واستمر القتال، وقدمت الدبابات وضربت المنجنيقات وزاحمت السّور، إلى أن صارت منه بمقدار أماج البحر وأُهاج الدُّور.

فاتفق أصحابنا على أن يفتحوا أبواباً قبالتها من السّور ويتركوها معلقة بالقشور؛ ثم فتحوا الأبواب وتكاثر صالح أهل الثغر من كل الجهات، فأحرقوا الدبابات المنصوبة وصدقوا عندها من القتال، وأنزل الله على المسلمين النّصر، وعلى الكفار الخذلان والقهر.

واتصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء وقد ظهر فشل الفرنج ورعبهم، وقصرت عزائمهم، وفتر حزبهم، وأحرقت آلات قتالهم، واستمر القتل والجراح في رجالهم؛ ودخل المسلمون إلى الثغر لأجل قضاء فريضة الصلاة، وأخذ مابه قوام الحياة، وهم على نيّة المباكرة، والعدوّ على نية الهرب والمبادرة. ثم كر المسلمون عليهم بغتة وقد كاد يختلط الظلام، فهاجموهم في الخيام، فتسلموها بما فيها، وفتكوا في الرّجالة أعظم فتك، وتسلموا الخيالة و لم يسلم منهم إلا من نزع لبسه، ورمى في البحر نفسه. وتقحم أصحابنا في البحر على بعض المراكب فخسفوها وتلفوها، فولت بقية المراكب هاربة. وجاءها أحكام الله الغالبة.

وبقي العدوّ بين قتل وغرق، وأسر وفَرَق، واحتمى ثلثمائة فارس في رأس تلّ، فأخذت خيولهم ثم قتلوا وأسروا، وأخذ من المتاع والآلت والأسلحة مالا يملك مثله. وأقلع هذا الاسطول عن الثغر يوم الخميس.

وذكر ابن شداد أن نزول هذا العدو كان في شهر صفر وكانوا ثلاثين ألفا في ستمائة قطعة مابين شيني وطرادة وبطشة وغير ذلك.

فصل

وأما نوبة الكتر، فقال ابن شداد: الكتر إنسان مقدم من المصريين كان انتزح إلى أسوان فأقام بها، و لم يزل يدبّر أمره ويجمع السودان عليه ويُخيِّل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة المصرية. وكان في قلوب القوم من المهاواة للمصريين ما تستصغر هذه الأفعال عنده، فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر من السودان، وقصد قوص وأعمالها. فانتهى خبره إلى صلاح الدين، فجرد له عسكرا عظيما شاكين في السلاح من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية وخافوا على فوت ذلك منهم، وقدّم عليهم أخاه سيف الدين وسار بهم حتى أتى القوم، فلقيهم بمصاف فكسرهم، وقتل منهم خلقا عظيما، واستأصل شأفتهم، وأخمد ثائرتهم؛

وذلك في السّابع من صفر سنة سبعين، واستقرت قواعد الملك.
قال العماد: وفي أول سنة سبعين، مستهلها، قام المعروف بالكنز في الصعيد، وجمع من كان في البلاد من السودان والعبيد، وعدا ودعا القريب والبعيد. وكان عنده من الأمراء أخ لحسام الدين بن أبي الهيجاء السّمين، ففتك به وبمن هناك من المقطعين، فغارت حمية أخيه وثارت للثأر، وساعده أخو السلطان سيف الدين وعز الدين موسك ابن خاله، وعدة من أمرائه ورجاله، وجاءوا إلى مدينة طود فاحتمت عليهم، وامتنعت، فأسرعت البلية إليها وبها وقعت، وأتى السيف على أهلها، وباءت بعد عزها بذّلها.
ثم قصد الكنز وهو في طغيانه وعدوانه، وسوئه وسودانه، فسُفك دمه، وظهر بعد ظهور وجوده عدمه، وارتقب دماء سوده، وهجم غابه على أسوده؛ ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز، وطلّ دمه ولم ينتطح فيه عنز. وارتدع المارقون فما رقوا بعده سلم نفاق، والله لناصري دينه ناصر وواق.
وقال ابن أبي طيّ: واتفق أيضا أن خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود رجل يعرف بعباس بن شادي، وثار في بلاد قوص ونهبها وخربها، وأخذ أموال الناس؛ واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وكان السلطان قد استنابه بمصر، فجمع له العساكر وأوقع به، وبدّد شمله، وفض جموعه وقتله، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالي بأسوان وكان قصد بلد طود، فقتل أكثر عسكره وهوب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله.

فصل

في توّجه صلاح الدين إلى دمشق ودخوله إليها في يوم الاثنين آخر شهر ربيع الأول.
قال العماد: لّما خلا باله مما تقدم ذكره تجهز لقصد الشام، فخرج إلى البركة مستهل صفر، وأقام حتى اجتمع العسكر؛ ثم رحل إلى بلبيس ثالث عشر ربيع الأول. وكانت رسل شمس الدِّين صاحب بصرى صديق ابن جاولي وشمس الدّين بن المقدم عنده، تَستَورى في الحث والبعث زنده، وتستقدمه وجنده؛ وسار على صَدْر وأيْلة ووصل السيّر بالسُّرى، حتى أناخ على بصرى، بصيراً بالعلا نصيرا للهدى، فاستقبله صاحب بصرى وشد أزره، وسدّد أمره؛ واستضاف إلى بصرى صرخد، وتفرد بالسبق إلى الخدمة وتوَّحد.
وسار في الخدمة معه إلى الكسوة، وبكر صلاح الدّين يوم الاثنين انسلاخ الشهر وسار في موكب قوى بالعدد والعدد، وحسب أن يمتنع عليه البلد، وأن الأطراف توثق، والأبواب تغلق، فأقبل وهو يسوق، وإقباله يشوق، حتى دخل دمشق وخرقها، وكان الله تعالى له خلقها؛ ودخل إلى دار العقيقي مسكن أبيه، وبقي جمال الدين ريحان الخادم في القلعة على تأبِّيه، فراسله حتى استماله، وأغزر له نواله، وتملك المدينة

والقلعة. ونزل بالقلعة سيف الإسلام أخو السّلطان صلاح الدين، وملك ابن المقّدم داره وكل ما حواليها، وبذل له طلبته التي أشار إليها ونص عليها؛ وأظهر صلاح الدين أنه جاء لتربية الملك الصالح، وحِفْظ مَالَه من المصالح، وتدبير ملكه، فهو أحقّ بصيانة حقّه.
واجتمع به أعيانها، وخلص لولاية إسرارها وإعلانها، وأصبح وهو سلطانها. وزاره القاضي كمال الدين بن الشهرزوري فوفاه حقّه من الاحترام، ووفّر له حظ التبجيل والإعظام.

ونفذت الكتب بالأمثلة الفاضلية إلى مصر، بهذا الفتح والنصر، وفي بعضها: "يوم وصولنا إلى بصرى وقبله وفدت وهاجرت، وتزاحمت وتكاثرت، وتوافت، الأمراء، والأجناد الأتراك، والأكراد، والعربان، ورجال الأعمال، وأعيان الرجال. وورد كتاب من دمشق بعد كتاب، وكلٌّ مخبر وذاكر، وهو غائب بكتابه حاضر، يذكر أن البلاد ممكنة القياد، مذعنة إلى المراد. وأمّا الفرنج، خذلهم الله، فإنا في هذه السفرة المباركة نزلنا في بلادهم نزول المتحكم، وأقمنا بها إقامة الحاضر المتخير، وأدلجنا وعيونهم متناومة، وحُزْنا وأنوفهم راغمة، ووطئنا ورقابهم صغر، ومررنا وعيشهم مر؛ والله يزيدهم ذلاً، ويجعل عداوة الإسلام في صدورهم غِلاً، وفي أعناقهم غُلاً".
وفي كتاب آخر: "وكان رحيلنا من بصرى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول، وقد توجه صاحبها بين أيدينا قائما بشروط الخدمة ولوازمها. ثم لقينا الأجل ناصر الدين، ابن المولى أسد الدين شيركوه رحمة الله عليه وأدام نعمته، والأمير سعد الدين ابن أثر، في يوم السبت السابع والعشرين. ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب والأجناد الدمشقية إلينا متوافية، والوجوه على أبوابنا مترامية، ولم يتأخر إلا من أبقى وجهه وراقب صاحبه، ومن اعتقد بالقعود أنه قد نظر لنفسه في العافية. ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ركبنا على خيرة الله تعالى، وعرض دون الدخول عدد من الرجال فدعستهم عساكرنا المنصورة وصدمتهم، وعرفتهم كيف يكون اللقاء وعلمتهم. ودخلنا البلد واستقرت بنا دار والدنا رحمة الله عليه قريرة عيوننا، مستقرا سكون الرعية وسكوننا، وأذعنا في أرجاء البلد النداء بإطابة النفوس وإزالة المكوس. وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت، واليد المتعدية قد امتدت إلى أحوالهم وأجحفت، فشرعنا في امتثال أمر الشرع برفعها، وإعفاء الأمة منها بوضعها.
قال ابن الأثير: لما خاف من دمشق من الأمراء أن يقصدهم كمشتكين والملك الصالح من حلب فيعاملهم بما عامل به بني الداية راسلوا سيف الدين غازي ليسلموها إليه فلم يجبهم، فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر؛ وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدم، ومن أشبه أباه فما ظلم. فلما أتته الرسل لم يتوقف وسار إلى الشام، فلما وصل دمشق سلمها إليه من بها من الأمراء،

ودخلها وايتقرّ بها، ولم يقطع خطبة الملك الصالح، وإنما أظهر "أني إنما جئت لأخدمه واسترد له بلاده التي أخذها ابن عمه". وجرت أمور آخرها أنه اصطلح هو وسيف الدّين والملك الصالح على ما بيده.

وقال القاضي ابن شداد: لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين وكون ولده طفلا لاينهض بأعباء الملك ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد، تجهّز للخروج إلى الشام، إذ هو أصل بلاد الإسلام؛ فتجهزّ بجمع كثير من العساكر، وخلّف بالديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها، ونظم أمورها وسياستها؛ وخرج هو سائرا مع جمع من أهله وأقاربه وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها. واختلف كلمة اصحاب الملك الصالح واختلت تدبيراتهم، وخاف بعضهم من بعض، وقبض البعض على جماعة منهم، وكان ذلك سبب خوف الباقين ممن فعل ذلك وسببا لتنفير قلوب النّاس عن الصبي. فاقتضى الحال أن كاتب ابنُ المقدم صلاح الدين، فوصل إلى البلاد مطالبا بالملك الصالح ليكون هو الذي يتولى أمره ويربّ حاله. فدخل دمشق يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر، وكان أوّل دخوله إلى دار أبيه. واجتمع الناس إليه، وفرحوا به، وأنفق في ذلك اليوم في النّاس مالا طائلا، وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين وأظهروا الفرح به. وصعد القلعة واستقرّ قدمه في ملكها، فلم يلبث أن سار في طلب حلب، فنازل حمص وأخذ مدينتها في جمادى الأولى، ولم يشغل بقلعتها، وسار حتى أتى حلب ونازلها سلخ جمادى المذكور وهي الدفعة الأولى.

وقال ابن أبي طيّ: بلغ السلطان أن ابن المقدم نقض عهد الملك الصالح وهو كان السبب في خروج سيف الدّين صاحب الموصل واسيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح في ممالكه. وقيل إن ابن المقدم كاتب السلطان ودعاه إلى الخروج. وقيل إنما خرج إلى الشام خوفا من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام وشغل بعضهم ببعض، وبجواب مُمض ورد من ابن المقدم إليه. ولما تيقن ابن المقدم خروج السّلطان إلى جهة دمشق أشفق من ذلك واستدرك مابدا منه، وتذلل له، ووعده تسليم دمشق إليه.

قال: ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بُقعتها، نشر علم العدل والإحسان، وعفّى أثار الظلم والعدوان، وأبطل ماكان الولاة استجدوه بعد موت نور الدين من القبتئح والمنكرات، والمؤن والضرائب المحرمات.

قلت: وكان قد كتب إليه أسامة بن منقذ قصيدة بعد مصاف عسقلان أولها:

تهنّ ياأطول الملوك يداً ... في بسط عدلٍ وسطوةٍ وندى

أجراً وذكرا من ذلك الشكرُ في الدّ ... نيا، ومن ذلك الجنانُ غدا

لاتستقلَّ الذي صنعت، فقد قمت بفرض الجهاد مجتهدا

وجستُ أرض العدا، وأفنيت من أبطالهم ما يجاوز العددا

وما رأينا غزا الفرنج من ال ملوك في عقر دارهم أحدا

فسر إلى الشام فالملائكة ال أبرارُ تلقاك جَمْعهم مددا

فهو فقير إليك، يأملُ أنْ تُصلح بالعدل منه ما فسدا

والله يعطيك فيه عاقبة الن صر كما في كتابه وعدا

فما حباك الورى، وألهمك ال عْدل، وأعطاك ماملكت سدى

ومدح وحيش الأسدي صلاح الدّين عند أخذه دمشق بقصيدة أولها:

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا

لله أنت صلاح الدين من أسد أدنى فريسته الأيام إن وثبا

رأيت جلّق ثغراً لانظير له فجئتها عامراً منها الذي خربا

نادتك بالذل لما قلّ ناصرها وأطمع الخلق من أوطانها هربا

أحييْتها مثل ما أحييت مصر، فقد أعدت من عدلها ماكان قد ذهبا

هذا الذي نصر الإسلام فاتضحت سبيله، وأهان الكفر والصُّلبا

ويوم شاور، والإيمانُ قد هزمت جيوشه، كان فيه الجحفل اللجبا

أبت له الضيم نفس مرّة ويد فعالة، وفؤاد قطّ ماوَجَبا

يستكثر المدح يتلى في مكارمه زهدا، ويستصغر الدّنيا إذا وهبا

ويوم دمياط و الإسكندرية قد أصارهم مثلاً في الأرض قد ضربا

والشام لو لم يدارك أهله اندرست آثاره وعفت آياته حقبا

فصل فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحصار حلب

قال ابن أبي طيّ: لما أتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك الناصر وميل الناس إليه، وانعكافهم عليه، خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته، فحّملوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة أرعدوا فيها وأبرقوا، وقالوا له: هذه السيوف التي ملكّتك مصر بأيدينا، والرماح التي حويت بها قصور المصريين على أكتافنا، والرّجال التي ردّت عنك تلك العساكر هي تردّك، وعمّا تصديت له تصدّك؛ وأنت فقد تعدّيت طورك،

وتجاوزت حدك، وأنت أحد غلمان نور الدين وممن يجب عليه حفظه في ولده.

قال: ولما بلغ السلطان وُرُود ابن حسان عليه رسولاً تلّقاه بموكبه وبنفسه، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه؛ ثم أحضره بعد ثالثة لسماع الرسالة منه. فلما فاه ابن حسان بتلك الشقاشق الباطلة، وقعقع بتلك التمويهات العاطلة، لمُ يُعره السّلطان رحمه الله طرفاً ولاسمعا، ولارد عليه خفضاً ولارفعا، بل ضرب عنه صفحا وتغاضيا، وترك جوابه إحسانا وتجافيا، وجرى في ميدان أريحيته، واستن في سنن مرؤته، وخاطبه بكلام لطيف رقيق، وحياطة الجمهور، وسدّ الثغور، وتربية ولد نور الدين، وكف عادية المعتدين. فقال له ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لانطاوعك على ذلك، ودون ماترونه خرط القتاد، وفتّ الأكباد، وإيتام الأولاد. فتبسم السلطان لمقاله، وتزايد في احتماله، وَأَوْمى إلى رجاله بإقامته من بيد يديه، بعد أن كاد يسطو عليه.
ونادى في عسكره بالاستعداد لقصد الشام الأسفل، ورحل متوجها إلى حمص فتسلم البلد، وقاتل القلعة و لم ير تضييع الزمان عليها، فوكل بها من يحصرها؛ ورحل إلى جهة حماة، فلما وصل إلى الرَّسْتَن خرج صاحبها عز الدين جرديك، وأمر من فيها من العسكر بطاعة أخيه شمس الدّين على وأتباع أمره. وسار جرديك حتى لقي السلطان واجتمع به بالرَّسْتَن وأقام عنده يوما وليلة؛ وظهر من نتيجة اجتماعه به أنه سلم إليه حماة وسأله أن يكون السّفير بينه وبين من بحلب، فأجابه السلطان إلى مراده؛ وسار إلى حلب وبقي أخو جرديك بقلعة حماة.
قال: وسار جرديك إلى حلب وهو ظانّ أنه فعل شيئا وحصّل عند من بحلب يدا، فاجتمع بالأمراء والملك الصالح، وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر؛ فاتهمه الأمراء بالمخامرة، وردوّا مشورته، وأشاروا بقبضه؛ فامتنع الملك الصالح. ولجّ سعد الدين كمشتكين في القبض عليه، فقبض وثقل بالحديد، وأخذ بالعذاب الشديد، وحمل إلى الجب الذي فيه أولاد الداية.
قال: ولما قدم جرديك وشدّ في وسطه الحبل وأدلى إلى الجب وأحس به أولاد الداية قام إليه منهم حسن وشتمه أقبح شتم، وسبه ألأم سب، وحلف بالله إن أنزل إليهم لَيَقْتُلنه فامتنعوا من تدليته، فأُعلم سعد الدين كمشتكين فحضر إلى الجبّ وصاح على حسن وشتمه وتوّعده، فسكن حسن وأمسك، وأنزل جرديك الجبّ، فكان عند أولاد الداية، وأسمعه حسن كل مكروه.
قال: وكتب أبي إلى حلب حين أتصل به قبض أولاد الداية وجرديك، وكانوا تعصّبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حلب، قصيدة منها:

بُنو فلانة أعوان الضّلالة قد قضى بذلهم الأفلاك والقدر
وأصبحوا بعد عزّ الملك في صفد وقعر مظلمة يغشى لها البصر
وجرّد الدهر في جرديك عزّمته والدهر لا ملجأٌ منه ولاوزر

قال: ولم يزل السلطان مقيما على الرَّسْتَن، ثم طال عليه الأمر، فسار إلى جباب التركمان، فلقيه أحد غلمان جرديك وأخبره بما جرى على جرديك من الاعتقال والقهر، فرحل السلطان من ساعته عائداً إلى حماة، وطلب من أخي جرديك تسليم حماة إليه، وأخبره بما جرى على أخيه، ففعل؛ وصعد السلطان إلى قلعة حماة واعتبر أحوالها، وولاها مبارز الدين عليّ بن أبي الفوارس، وذلك مستهل جمادى الآخر.

وسار السلطان إلى حلب ونزل على أنف جبل جوشن فوق مشهد الدكة ثالث جمادى وامتدت عساكره إلى الخناقية وإلى السعدى. وكان من بحلب يظنون أن السلطان لايقدم عليهم، فلم يرعهم إلا وعساكره قد نازلت حلب، وخيمته تضرب على جبل جوشن، وأعلامه قد نشرت؛ فخافوا من الحلبيين أن يسلموا البلد كما فعل أهل دمشق، فأرادوا تطييب قلوب العامة، فأشير على ابن نور الدين أن يجمعهم في الميدان ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بلسانه أنهم الْوَزَرُ والملجأ. فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق، فاجتمعوا حتى غصّ الميدان بالناس، فنزل الصالح من باب الدرجة وصعد من الخندق، ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم: ياأهل حلب أنا ربيبكم ونزيلكم، واللاّجئ إليكم، كبيركم عندي بمنزلة الأب، وشابكم عندي بمنزلة الأخ، وصغيركم عندي يحل محل الولد. قال: وخنقته العبرة، وسبقته الدمعة، وعلا نشيجه؛ فافتتن الناس وصاحوا صيحة واحدة، ورموا بعمائمهم، وضجوا بالبكاء والعويل، وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك؛ وأقبلوا على الدعاء له والترحم على ابيه.

وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح أنه يعيد إليهم شرقية الجامع يصلّون فيها على قاعدتهم القديمة وأن يُجهر بحيّ على خير العمل والأذان والتذكير في الأسواق؛ وقدّام الجنائز بأسماء الأئمة الاثنى عشر، وأن يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات، وأن تكون عقود الأنكحة إلى الشريف الطاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسني، وأن تكون العصبية مرتفعة، والناموس وازع لمن أراد الفتنة؛ وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان قد أبطله نور الدين رحمه الله. فأجيبوا إلى ذلك.

قال ابن أبي طيّ: فأذن المؤذنون في منارة الجامع وغيره بحيّ على خير العمل وصلى أبي في الشرقية مسبلاً،

وصلى وجوه الحلبيين خلفه، وذكروا في الأسواق وقدّام الجنائز بأسماء الأئمة، وصلوا على الموات خمس تكبيرات، وأذن للشريف في أن تكون عقود الحلبيين من الإمامية إليه، وفعلوا جميع ما وقعت الأيمان عليه.

فصل

قال ابن أبي طيّ: وكانت هذه السنة شديدة البرد كثيرة الثلوج عظيمة الأمطار هائجة الأهوية؛ وكان السلطان قد جعل أولاد الداية عُلالة له وسببا يقطع به ألسنة من ينكر عليه الخروج إلى الشام وقصد الملك الصالح، ويقول: أنا إنما أتيت لاستخلاص أولاد الداية وإصلاح شأنهم.

وأرسل السلطان إلى حلب رسولا يعرّض بطلب الصلح، فامتنع كمشتكين، فاشتد حينئذ السلطان في قتال البلد.

وكانت ليالي الجماعة عند الملك الصالح لاتنقضي إلا بنصب الحبائل للسلطان والفكرة في مخاتلته وإرسال المكروه إليه. فأجمعوا آراءهم على مراسلة سنان صاحب الحشيشية في إرصاد المتالف للسلطان ولإرسال من يفتك به، وضمنوا له على ذلك أموالا جمة وعدة من القرى. فأرسل سنان جماعة من فتاك أصحابه لاغتيال السلطان، فجاءوا إلى جبل جوشن واختلطوا بالعسكر، فعرفهم صاحب بوقبيس لأنه كان مثاغراً لهم، فقال لهم: يا ويلكم: كيف تجاسرتم على الوصول إلى هذا العسكر ومثلي فيه! فخافوا غائلته فوثبوا عليه فقتلوه في موضعه، وجاء قوم للدفع عنه فجرحوا بعضهم وقتلوا البعض. وبدر من الحشيشية أحدهم وبيده سكينة مشهورة ليقصد السلطان ويهجم عليه، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار، فقتله، وطُلب الباقون فقتلوا بعد أن قتلوا جماعة.

قال: ولما فات من بحلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشية كاتبوا قمص طرابلس وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحلَّ السلطان عن حلب. وكان لعنه الله في أسر نور الدين منذ كسرة حارم، وكان قد بذل في نفسه الأموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين. فلما كان قبل موت نور الدين سعى له فخر الدين مسعود بن ازعفراني حتى باعه نور الدين بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار وفكاك ألف أسير.

واتفق في أول هذه السنة موت ملك الفرنج صاحب القدس وطبرية وغيرهما، فتكفل هذا القمص بأمر ولده المجذوم فعظم شأنه وزاد خطره. فأرسل إلى السلطان في أمر الحلبيين، وأخبره الرّسول أنّ الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يدا واحدة، فقال السلطان: لست ممن يرهب بتألب الفرنج وها أنا ا سائر إليهم. ثم أنهد قطعة من جيشه وأمرهم بقصد أنطاكية، فغنموا غنيمة حسنة وعادوا؛ فقصد القمص جهة فرحل السلطان من حلب إليها، فسمع الملعون فنكص راجعا إلى بلاده، وحصل الغرض من رحيل السلطان عن حلب،

ووصل إلى حمص فتسلم القلعة ورتب فيها واليا من قبله.

قال: وفي فتح قلعة حمص يقول العماد الكاتب من قصيدة، وستأتي:

إياب ابن أيوب نحو الشآم على كلّ ما يرتجيه ظهور

بيوسف مصر وأيامه تقرّ العيون وتشفى الصّدور

رأت منك حمص لها كافيا فواتاك منها القويّ العسير

ومن كتاب فاضليّ عن السلطان إلى زين الدين بن نجا الواعظ يقول في وصف قلعة حمص: والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهد به كونها نجما في سحاب، وعُقابا في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال منها قلامة، عاقدة حبوة صالحها الدهر على ألا يحلها بقرعه، عاهدة عصمة صافحها الزمن على ألا يروعها بخلعه. فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لاتطبع طبع حمص في العقارب، وضربت حجارة بها الحجارة فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب؛ فلم يكن غير ثالثة من الحد إلا وقد أثرت فيها جدريا بضربها، و لم تصل السابع إلا والبحران منذرٌ بنقبها. واتسع الخرق على الراقع، وسقط سعدها عن الطالع، إلى مولد من هو إليها الطالع؛ وفُنحت الأبراج فكانت أبوابا، وسيُرت الجبال بها فكانت سرابا. فهنالك بدت نُقوب يرى القائم من دونها ما وراءها، وحُشيت فيها النار فلولا الشعاع من الشعاع أضاءها.

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى أخيه العادل: قد اجتمع عندنا إلى هذه الغاية ما يزاحم سبعة آلاف فارس، وتكاثفت الجموع إلى الحدّ الذي يخرج عن العَدَّ. وبَعْد أن نُرَتِّب أحوال حمص، حرسها الله تعالى، نتوجه إلى حماة؛ والله المعين على ماننويه من الرّشاد، وننظفه من طرق الجهاد.

وقال العماد: لما سمع المدبّرون للملك الصالح بإقبال صلاح الدين المؤذن بإدبارهم، سُقط في أيديهم، وراسلوا المواصلة وكاتبوهم، وأرسلوا إلى صلاح الدين بالإغلاظ والإحفاظ. وكان الواصل منهم قطب الدّين ينال بن حسان، وقد تجنب في قوله الإحسان، وقال له هذه السيوف التي ملكتك مصر، وأشار إلى سيفه، إليها تردُّك، وعمَّا تصدّيت له تصدك. فحلم عنه السلطان واحتمله، وتغافل كرماً وأغفله، وخاطبه بما أبى أن يقبله، وذكر أنه وصل لترتيب الأمور، وتهذيب الجمهور، وسدّ الثغور، وتربية ولد نور الدين، واستنقاذ إخوة مجد الدين. فقال له: أنت تريد الملك لنفسك، ونحن لانترع في قوسك، ولانأنس بأنسك، ولانرتاع لجرسك، ولانبنى على أُسِّك؛ فارجع حيث جئت، أو أجهد واصنع ماشئت؛ ولاتطمع فيما ليس فيه مطمع، ولاتطلع حيث مالسعودك فيه مطلع. ونال من تقطيب القطب ينال، كلّ ما أحال الحال، وأبلى البال، وأبدى له التبسم وأخفى الاحتمال.

ثم إنه استناب أخاه سيف الإسلام طغتكين بدمشق، وسار بالعسكر ونزل على حمص، فأخذها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى، وامتنعت القلعة فأقام عليها من يحصرها. ورحل إلى حماة، فأخذها مستهلّ جمادى الآخرة.

ثم مضى ونزل على حلب، فحصرها ثالث الشهّر؛ فلمّا اشتد على الحلبيين الحصار، وأعوزهم الانتصار، استغاثوا بالاسماعيلية وعيّنوا لهم ضياعا، وبذلوا لهم من البذول أنواعا، فجاء منهم في يوم شات، من فُتاكهم كل عات؛ فعرفهم الأمير ناصح الدّين خمارتكين صاحب بوقبيس، وكان مثاغرا للاسماعيلية، فقال لهم: لأي شئ جئتم، وكيف تجاسرتم على الوصول وماخشيتم! فقتلوه، وجاء من يدفع عنه فأثخنوه، وعدا أحدهم ليهجم على السلطان في مقامه، وقد شهر سكين انتقامه، وطغريل أمير جاندار واقف ثابت، ساكن ساكت، حتى وصل إليه، فشمل بالسيَّف رأسه، وما قتل الباقون حتى قتلوا عدة، ولاقى من لاقاهم شدة.

وعصم الله حشاشته في تلك النوبة من سكاكين الحشيشية، فأقام إلى مستهل رجب، ثم رحل إلى حمص بسبب أن الحلبيين كاتبوا قومص طرابلس، وقد كان في أسر نور الدين مذ كسرة حارم، وبقي في الأسر أكثر من عشر سنين، ثم فدى نفسه بمبلغ مائة ألف وخمسين ألف دينار، وفكاك ألف أسير، فتوجه في الإفرنجية إلى حمص، فلما سمع بالسلطان رجع ناكصا على عقبيه،خوفا مما يقع فيه ويتم عليه.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى العادل: "قد أعلمنا المجلس أن العدوَّ، خذله الله، كان الحلبيون قد استنجدوا بصلبانهم، واستطالوا على الإسلام بعدوانهم، وأنه خرج إلى بلد حمص؛ فوردنا حماة، وأخذنا في ترتيب الأطلاب لطلبه ولقاه. فسار إلى حصن الأكراد متعلقا بحبله مفتضحاً بحيله. وهذا فتح تفتح له أبواب القلوب، وظفر وإن كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب، فإن العدو قد سقطت حشمته، وانحطت فيه همته، وولى ظهراً كان صدره يصونه، ونكسّ صليبا كانت ترفعه شياطينه".

وقال العماد في الخريدة: لما خيّم السلطان بظاهر حمص قصده المهذب بن أسعد بقصيدة أولها:

مانام بعد البين يستحلى الكرى ... إلا ليطرقه الخيال إذا سرى

كَلِف بقربكم، فلما عاقه ... بعد المدى سلك الطريق الأخضرا

ومودع أمر التفرُّقُ دمعه ... ونهته رقبُة كاشح فتحيرا

ومنها في المديح:

تُردى الكتائب كتبُه، فإذا غدت ... لم يُدْرَ: أنفذ أسطراً أم عسكرا!

لم يحسن الإتراب فوق سطورها إلا لأن الجيش يعقد عثيرا

فقال القاضي الفاضل لصلاح الدّين: هذا الذي يقول:

*والشعر مازال عند الترك متروكا *

فعجَّل جائزته لتكذيب قوله وتصديق ظنِّه، فشرِّفه وجمع له بين الخلعة والضَّيْعة. وعني الفاضل ماقاله في قصيدته في مدح الصالح بن رزيك التي أولها:

*أما كفاك تلافي في تلافيكا *

يقول فيها:

ياكعبة الجود، إن الفقر أقعدني ورقّة الحال عن مفروض حجيكا

من أرتجى، ياكريم الدَّهر، ينعشني جدواه، إن خاب سعيي في رجائيكا

ألمدح التُّرك أبغى الفضل عندهم والشِّعر مازال عند التُّرك متروكا!

أم أمدح السُّوقة النوكي لرفدهم وَاضَيْعَتَا إن تخطتني أياديكا!

لاتتركني، وما أملَّت في سفري سواك، أقفلُ نحو الأهل صعلوكا

قلت: وقد مضى ذكر ابن أسعد هذا في أخبار سنة ثمان وخمسين، وسيأتي من شعره أيضا في أخبار سنة ست وسبعين، وثمان وسبعين.

وما أحسن ما خرج ابن الدهان من الغزل إلى مدح ابن رزيك في قوله من قصيدة أولها:

إذا لاح برق من جنابك لامع أضاء لواشٍ ماتُجنُّ الأضالع

يقول فيها:

تمادى بنا في جاهلية نحلها وقد قام بالمعروف في الناس شارع

وتحسب ليل الشحّ يمتدّ بعدما بدا طالعا شمس السخاء طلائع

فصل

ثم أرسل السلطان الخطيب شمس الدّين بن الوزير أبي المضاء إلى الديوان العزيز برسالة ضمنها القاضي الفاضل كتابا طويلا رائقا فائقا، يشتمل على تعداد ماللسلطان من الأيادي من جهاد الإفرنج في حياة نور الدين، ثم فتح مصر واليمن، وبلادٍ جمةٍ من أطراف المغرب، وإقامة الخطبة العباسية بها. يقول في أوله للرسول: فإذا قضى التسليم حق اللقاء، واستدعى الإخلاص جهد الدعاء، فلْيُعد وليعدّض حوادث

ماكانت حديثاً يفترى، وجواري أمور إن قال فيها كثيرا فأكثر منه ماقد جرى؛ وليشرح صدرا منها لعله يشرح منا صدرا، وليوضح الأحوال المستترة فإن الله لايعبد سرا:

ومن الغرائب أن تسير عرائب في الأرض لم يعلم بها المأمول

كالعيس: أقتل مايكون لها الصدى والماء فوق ظهورها محمول

فإنا كنا نقتبس النار بأكفنا وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير؛ ونلقى السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير، ونصافح الصفاح بصدورنا وغيرنا يدعى التصدير. ولابد أن نسترد بضاعتنا بموقف العدل الذي تُرد به الغصوب، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب. وما كان العائق إلا أنا كنّا ننتظر ابتداءً من الجانب الشريف بالنعمة، يضاهي ابتداءنا بالخدمة، وإنجاباً للحق، يشاكل إنجابنا للسبق. كان أول أمرنا أنا كنا في الشام نفتتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكفار مُتقدمين لعساكرنا، نحن ووالدنا وعمنا. فأي مدينة فُتحت، أو معقل مُلك، أو عسكر للعدو كُسر، أو مصاف للإسلام معه ضرب و لم نكن فيه. فما يجهل أحد صنعنا، ولايجحد عدونا أنا نصطلي الجمرة ونملك الكرة، ونتقدم الجماعة، ونُرتب المقاتلة، وندبر التعبئة، إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها، ولايضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها.

وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير، وبما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير، وأن النظام بها قد فسد، والإسلام بها قد ضعف عن إقامته كل من قام وقعد. والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقاطعهم بأموال كثيرة، لها مقادير خطيرة؛ وأن كلمة السنة بها وإن كانت مجموعة فإنها مقموعة، وأحكام الشريعة وإن كانت مسماة فإنها متحاماة. وتلك البدع بها على مايعلم، وتلك الضلالات فيها على مايفتي فيه بفراق الإسلام ويحكم؛ وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تُعبد من دون الله وتعظم وتفخم؛ فتعالى الله عن شبه العباد، وويل لمن غرّه تَقَلُّبُ الذَينَ كَفَرُوا في البلادِ. فسمت همتنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مُقفلها، ونسترجع للإسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالته منها. فسرنا إليها في عساكر ضخمة، وجموع جمة،وبأموال انتهكت الموجود، وبلغت منا المجهود، أنفقناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا، وثمن اسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا؛ فعرضت عوارض منعت، وتوجهت للمصريين رسل باستنجاد الفرنج قطعت، ولكلّ أجلٍ كتابُ، ولكلّ أمل باب. وكان في تقدير الله تعالى أنا نملكها على الوجه الأحسن، ونأخذها بالحكم

الأقوى الأمكن، غدر الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عظم خطبها وخبطها، وعلم أن استئصال كلمة الإسلام محطها. فكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان، كما كاتبنا المسلمون في الشم في هذا الأوان، بأنا إن لم ندرك الأمر وإلا خرج عن اليد، وإن لم ندفع غريم اليوم لم نمهل إلى الغد. فسرنا بالعساكر المجموعة، والأمراء الأهل المعروفة، إلى بلاد قد تمهد لنا بها أمران، وتقرر لنا في القلوب وُدان: الأول ماعلموه من إيثارنا للمذهب الأقوم، وإحياء الحقّ الأقدم؛ والآخر مايرجونه من فك أسارهم؛ وإقالة عثارهم. ففعل الله ماهو أهله، وجاء الخبر إلى العدو فانقطع حبله، وضاقت به سبله، وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورساتيقها، وبلادها وأقاليمها، قد نفذت فيها أوامره، وخفقت عليها صلبانه، ونصبت بها أوثانه، وأُيس من أن يسترجع ماكان بأيديهم حاصلا، وأن يُستنقذ ماصار في ملكها داخلا. ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير، وأموالهم واسعة، وكلمتهم جامعة، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السّر فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر؛ وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف، كلهم أغنام أعجام، إنْ هُمْ إلا كَٱلْأَنْعَام، لايعرفون ربًّا إلا ساكن قصره، ولاقبلة إلا مايتوجهون إليه من ركنه، وامتثال أمره؛ وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية، موضوعة عنهم الجزية، كانت لهم شوكة وشكة، وحمة وحمية؛ ولهم حواشٍ لقصورهم من بياع داعٍ تتلطف في الضلال مداخله، وتصيب القلوب مخاتله، ومن بين كُتاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل، وخُدام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل؛ ودولة قد كبر نملها الصغير، ولم يعرف غيرها الكبير، ومهابة تمنع من خطرات الضمير فكيف بخطوات التدبير. هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة، وتعطيل للفرائض على عادةٍ جاريةٍ جائرة، وتحريفٍ للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مُراد الله بالتتريل، وكفر سُمي بغير اسمه، وشرعٍ يتستر به ويحكم بغير حكمه. فما زلنا نسحتهم سحت المبادر للشفار، ونتحيفهم تحيُّف الليل والنهار، بعجائب تدبير لاتحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير، ولطيف توصّل ماكان من حيلة البشر ولاقدرتهم لولا إعانة المقادير. وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج، دفعة إلى بلبيس ودفعة إلى دمياط، وفي كلّ دفعة منهما وصلوا بالعدد المجهر، والحشد الأوقر، وخصوصا في نوبة دمياط، فإنهم نزلوها بحراً في ألف مركب، مقاتل وحامل، وبرًّا في مائتي ألف فارس وراجل، وحصروها شهرين يباركونها ويراوحونها، ويماسونها ويصابحونها، القتال الذي يصلبه الصليب، والقراع الذي ينادى به الموت من كلّ مكان قريب. ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر، ونصابر الضَّررين المنافق والكافر، حتى أتى الله بأمره، وأيدنا بنصره، وخابت المطامع من المصريين والفرنج، وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسودان والأجناد، فأخرجناهم من القاهرة، تارةً بالأوامر المرهقة لهم، وتارةً بالأمور الفاضحة منهم، وطوراً بالسيوف المجردة، وبالنار

المحرقة، حتى بقي القصر ومن به من خدم ومن ذرّية قد تفرّقت شيعه، وتمزقت بدعه، وخفتت دعوته، وخَفِيت ضلالته؛ فهنالك تم لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخطبة، والرفع للواء الأسود المعظم، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه وفنائه، وبرأنا من عُهدة يمين كان إثم حنثها أيسر من إثم إبقائه، لأنه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته. ولما خلا درعنا، ورحب وسعنا، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكفار، فلم تخرج سنة إلا عن سنة أقيمت فيها برا وبحرا، مركبا وظهرا، إلى أن أوسعناهم قتلا وأسرا، وملكنا رقابهم قهرا وقسرا، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام فيها منذ أُخذت من أيديهم، ولا أُوجفت عليها خيلهم ولاركابهم مذملكها أعاديهم. فمنها ما حكمت فيه يد الخراب، ومنها ما أستولت عليه يد الاكتساب، ومنها قلعة بثغر أيلة كان العدوّ قد بناها في بحر الهند، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن، وغزا ساحل الحرم، فساء منه خلقا، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقا، فكادت القبلة أن يستولى على أصلها، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها، ومقام الخليل عليه السلام؛ أن يقوم به من ناره غيرُ بردٍ وسلام، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتطرقه من لايدين بما جاء به من الإسلام. فأخذت هذه القلعة وصارت معقلا للجهاد، وموئلا لسُفار البلاد، وغيرهم من عبّاد العبا".

ثم قال: وكان باليمن ماعلم من ابن مهدي الضال الملحد، المبدع المتمّرد، وله آثار في الإسلام، وثأر طالبه النبيّ عليه الصلاة والسلام، لأنه سبى الشرائف الصالحات، وباعهن بالثمن البخس، واستباح منهن كل مالا يقر لمسلم عليه نفس؛ ودان ببدعة، ودعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة، وأخذ أموال الرّعايا المعصومة وأجاحها، وأحلّ الفروج المحرّمة وأباحها. فأنْهَضْنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا نفقات واسعة، وأسلحة رائعة؛ وسار فأخذناه ولله الحمد، وأنجح الله فيه القَصْد؛ والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند سامية، وإلى ما يفْتَضّ الإسلام عذرته متمادية.

ولنا في الغرب أثر أغرب، وفي أعماله أعمال دون مطلبها مهالك كما يكون المهلك دون المطلب؛ وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أنّ أمْرَهم قد أَمِر، وملكهم قد عُمِر، وجيوشهم لاتطاق، وأمرهم لايشاقّ، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلادا تزيد مسافتها على شهر، وسيرنا إليها عسكرا بعد عسكر، فرجع بنصر بعد نصر. ومن البلاد المشاهير، والأقاليم الجماهير: برقة، قَفْصة، قسطيلية، تَوْزَر؛ كلّ هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المستضئ بأمر الله، أمير المؤمنين، سلام الله عليه؛ ولاعهد للإسلام بإقامتها، وينفذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها.

وفي هذه السنة كان عندنا وفْدُ قد شاهده وفود الأمصار، ورموه بأسماع وأبصار، مقداره سبعون راكبا، كلّهم يطلب لسلطان بلده تقليدا، ويرجو منا وعدا ويخاف وعيدا؛ وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها،

وألقيت إلينا مقاليدها، وسيَّرنا الخلع والمناشير والألوية، بما فيها من الأوامر والأقضية. فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشّداد، فمنهم صاحب قسطنطينية، وهو الطاغية الأكبر، والجالوت الأكفر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدّهر وشربت، وقائم النصرانية الذّي حكمت دولته على ممالكها وغلبت، جرَت لنا معه غزوات بحرية، ومناقلات ظاهرة وسّرية، و لم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة نَوْبتين، بكتابين، كلّ واحدٍ منهما يظهر فيه خفض الجناح، وإلقاء السلاح، والانتقال من معاداة إلى مهاداة، ومن مفاضحة إلى مناصحة، حتى إنه أنذر بصاحب صقلية وأساطيله التي تردّد ذكرها، وعساكره التي لم يخف أمرها.

ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية، كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغلبا وقُسرا، وهزما وكُسرا، أراد أن يظهر قوته المستقلة، فعمر أسطولا استوعب فيه ماله وزمانه، فله الآن خمس سنين تكثُر عِدّته، وتنتحب عُدّته، إلى أن وصل منها في السنة الحالية إلى الإسكندرية أمر رائع، وخطب هائل، مااثقل ظهر البحر مثل حمله، ولا ملأ صدره مثل خيله ورَجْله؛ وماهو إلا إقليم، بل أقاليم، وجيش ما احتفا ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله.

ومن هؤلاء الجيوش البنادقة، والباشنة، والجنويبة كلّ هؤلاء تارةً يكونون غزاةً لاتُطاق ضراوة ضرّهم، ولاتُطفأ شرارة شرّهم، وتارةً يكونون سُفّاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة، ومامنهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده؛ وكلهم قد قُرّرت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسالمة، على ما نريد ويكرهون، وعلى مانؤثرُ وَهُمْ لايؤثرون.

ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية، وكنا في تلك السنة على نيّة الغزاة، والعساكر قد تجهزت، والمضارب قد برزت، ونزل الفرنج على بانياس، وأشرفوا على اجتيازها ورأوها فرصة مدُّوا يَدَ انتهازها، استصرخ بنا صاحبها، فسرنا مراحل اتصل بالعدوّ أمرها، وعوجل بالهدنة الدمشقية التي لولا مسيرنا ما انتظم حكمها.

ثم عدنا إلى البلاد وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعُّب الآراء وتوزعها، وتشتُّت الأمور وتقطعها، وأن كلّ قلعة قد حصل فيها صاحب، وكلّ جانب قد طمح إليه طالب، والفرنج قد بنوا قلاعا يتحيفون بها الأطراف الإسلامية، ويضايقون بها البلاد الشامية، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم، وعُوقبوا وصودروا، والمماليك الأعماد الذين خدموا الأطراف لا الصدور، وجعلوا للقيام لا للقعود في المجلس المحضور، قد مدُّوا الأيدي والأعين والسيوف، وسارت سيرتهم في الأمر بالمنكر والنهيّ عن المعروف، وكلّ واحد يتخذ عند الفرنج يداً، ويجعلهم لظهره سندا. وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تتيسرّ

الأسباب لفتحه، وأمر الكُفر إن لم يُجرد العزم في قلعه، وإلا نبتت عروقه، واتسعت على أهل الدين خُروقه؛ وكانت الحجة لله قائمة، وهمم القادرين بالقعود آثمة. وإنا لانتمكن بمصر منه مع بعد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوة، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليد قادرة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعدة. وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتّلة، وأمور مختلة، وأراء فاسدة، وأمراء متحاسدة؛ وأطماع غالبة، وعقول غائبة، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه، فأنا به أولى من قوم يأكلون الدّنيا باسمه، ويُظهرون الوفاء في خدمته، وهم عاملون بظلمه.

والمراد الآن هو كلّ ما يقوّي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الألفة، ويضمن الرأفة، ويفتح بقية البلاد؛ وأن يطبق بالاسم العباسي كل ما تطيقه العهاد، وهو تقليد جامع بمصر، واليمن، والمغرب، والشام، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكلّ ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخ أو ولد من بعدنا، تقليدا يضمن للنعمة تخليدا، وللدعوة تجديدا، مع ما ينعم به نمن السّمات التي فيها الملك. وبالجملة فالشام لاينتظم أموره بمن فيه، والبيت المقدس ليس له قرنٍ يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصما لايملّ الشر حتى يملّوا، وقرناً لايزال محرم السيف حتى يحلوا. وإذا شد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله تعالى ويّدُ كلّ مؤمن تحت برده، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده.

ومن كتاب آخر فاضليّ عن السلطان إلى الدّيوان في تعداد ماله من الأيادي؛ قال: "والذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك التي دوخها، وسنن الضلال التي نسخها، وعقود الإلحاد التي فسخها، ومنابر الباطل التي رَحَضَها، وحجج الزندقة التي دحضها؛ فلله عليه المنة فيه إذْ أهلَّه لشرف مشهده، ومافعله إلا لوجهه، ويدُ الله كانت عون يده؛ وإلا فقد مضت الليالي والأيام على تلك الأمور وما تحركت للفلك في قلعها نابضة، وغبرت الأحوال على تلك البدعة وما ثرت لأفراسها رابضة. فشكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده منها، أن يجتهد في أخرى مثلها في الكفار، وقد عاد الإسلام إلى وطنه، وصوّحت من الكفر خضراء دمنه".

ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه إعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية يقول فيه: "حتى أتى الدّنيا ابن بجدتها، فقضى من الأمر ماقضى، وأسخط من الله في سُخطه رضا، وجعل وجه لابس السواد مُبيضا، فأدرك لهم بثأرٍ نامت عنه الهمم، ودوّخت عليه الأمم، وشفى الصدور، وجاء بالحق إلى من غره بالله الغرور، واستبضع إلى الله تعالى تجارة لن تبور".

ومن كتاب آخر: قد بورك للخادم في الطاعة التي لبس الأولياء شعارها، وأمضى في الأعداء شغارها، وجمع عليها الدين وكان أديانا، واستقامت بها القلوب على صبغة التكلف وكانت ألوانا.

ومن كتاب آخر: لم يكن سبب خروج المملوك من بيته إلا وعد كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله تعالى في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشام، المملوك بعسكري برّه وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره. فلما قضى الله بالمحتوم على أحدها، وحدثت بعد الأمور أمور، اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور، وتحكمت الآراء الفاسدة، وفُورقت المحاج القاصدة، وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين، والكفار محمولة إليها جزى المسلمين؛ والأمراء الذين كانوا للإسلام قواعد، وكانت سيوفهم للنصر موارد، يشكون ضيق حلقات الأسار، وتطرق الكفار بالبناء في الحدود الإسلامية.

ولاخفاء أن الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا، واستنجدوا أنصار النصرانية في الأقطار، وسيروا الصليب ومن كسى مذابحهم بقمامة، وهددوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة، وأنفذوا البطارقة والقسيسين، برسائل صور من يصورّونه ممن يسموهم القديسين؛ وقالوا إن الغفلة إن وقعت فيما لايستدرك فارطه. وإن كلا من صاحب قسطنطينية، وصاحب صقلية، وملك الألمان، وملوك ما وراء البحر، وأصحاب الجزائر، كالبندقية، والبشانية، والجنوبية، وغيرهم، قد تأهبوا بالعمائر البحرية، والأساطيل القوية. وللإسلام بأمير المؤمنين أعزُّ ناصر، لاسيما وهم ينصرون باطلا وهوينصر حقا، وهو يعبد خالقاً وهم يعبدون خلقا

فصل

قال العماد: وكنت بالموصل فسئلت نظم مرثية في نور الدين، فنظمت بعد عوْدي إلى دمشق في رجب:

الدّين في ظُلَم لغيبة نوره	والدهر في غُمم لفقد أميره
فليندبُ الإسلامُ حامي أهله	والشام حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المقدار في أخطاره	إذ كان هذا الخطب في مقدوره !!
ماأكثر المتأسفين لفقد مَنْ	قَرَّتْ نواظرهم بفقد نظيره
ماأعوص الإنسان في نسيانه	أو ماكفاه الموت في تذكيره؟
مَن للمساجد والمدارس بانيا	لله طوعا عن خلوص ضميره
من ينصر الإسلام في غزواته	فلقد أصيب برُكنه وظهيره

مَنْ للفرنج، ومن لأسر ملوكها ... من للْهُدى يبغي فكاك أسيره
من للخطوب مذلِّلاً لجماحها ... من للزمان مُسَهّلا لوعوره
من كاشفُ للمعضلات برأيه ... من مشرقٌ في الداجيات بنوره
من للكريم، و من لنعش عثاره ... منْ لليتيم، ومن لجبْر كسيره
من للبلاد، و من لنصر جيوشها ... من للجهاد، ومن لحفظ أموره
منْ للفتوح محاولا أبكارها ... برَواحه في غزوه وبُكوره
منْ للعلا وعُهودها، منْ للندى ... ووفوده، منْ للحِجا ووفوره
ماكنت أحسب نور الدين دين محمد ... يخبو وليل الشّرك في ديجوره
أعْزِزْ عليّ بليث غابٍ للهدى ... يخلو الشرى من زوره وزئيره
أعْزِزْ عليّ بأنْ أراه مُغّيباً ... عنْ محفل متشرف بحضوره
لهفي على تلك الأنامل، إنها ... مُذْ غّيبت غاض النّدى ببحوره
ولقد أتى منْ كنت تُجري رسمه ... فضع العلامة منك في منشوره
ولقد أتى منْ كنت تؤمن سربه ... وقِّع له بالأمن مِنْ محذوره
ولقد أتى منْ كنت تؤثر قربه ... فأدم له التّقريب في تقريره
والجيش قد ركب الغداة لعرضه ... فاركب لتُبْصِرَه أوَانَ عبوره
أنت الذّي أحييت شرع محمد ... وقضيت بعد وفاته بنشُوره
كم قد أقمت من الشريعة مَعْلما ... هو مُنْذ غبت معرّضٌ لِدثُوره
كم قد أمرت بحفر خندق معقلٍ ... حتى سكنت اللّحد في محفوره
كم قيصرٍ للرُّوم رُمت بقسره ... إرْواء بيض الهند من تاموره
أُوتيت فتح حصونه، وملَكتَ عُقْ ... رَ بلاده، وسبيت أهل قصوره
أزَهِدت في دار الفناء وأهلها ... ورَغبت في الخلد المقيم وحُوره
أوَ ماوعدت القدس أنك منْجزٌ ... ميعاده في فتحه وظهوره
فمتى تجير القدس من دنس العدِا ... وتقدِّس الرّحمن في تطهيره
ياحاملين سريره: مهلاً، فمن ... عجبٍ نهوضُكم بحمّل ثبيره؟

ياعابرين بنعشه: أَنَشَقْتُمُ — من صالح الأعمال نشر عبيره؟
نزلت ملائكة السّماء لدفنه — مستجمعين على شفير حفيره
ومن الجفاء له مُقامي بعده — هلاّ وفيت وسرت عند مسيره
حيّاك معتّل الصبّا بنسيمه — وسَقاك مُنْهلُّ الحَيَا بذُروره
ولبست رضوان المهْيمن ساحباً — أذيال سُنْدس خزّه وحريره
وسكنت عِلّيين في فردوسه — حلْف المسرّة ظافرا بأجوره

قال العماد: وجاء نجاب إلى الموصل وذكر أنه فارق صلاح الدين بقرب دمشق بالكسوة وهو الآن يستكمل من ملك دمشق الحُظوة؛ فهاجني الطرب لقصده، لسابق معرفته وقديم ودّه؛ فقدمت دمشق على طريق البرية، والسلطان على حلب.

وكان العماد في عقابيل ألم، فلما شُفي وعاد السّلطان إلى حمص قصده فيها وقد تسلم قلعتها في شعبان، في الحادي والعشرين منه.

قال: وكنت نظمت قصيدة في الشوق إلى دمشق والتأسف عليها، ثم جعلت مدح السّلطان مخلصها، وهي طويلة، أولها:

أجيران جيرون مالي مجير — سوى عطفكم، فاعدلوا أوْ فجُورا
ومالي سوى طيفكم زائر — فلا تمنعوه إذا لمْ تزوروا
يعزّ علي بأن الفؤاد — لديكم أسيرٌ وعنكم أسير
وماكنت أعلم أني أعي — ش بعد الأحبة، إني صَبُور!
وفتْ أدمعي، غير أنّ الكرى — وقلبي، وصبري، كلُّ غَدُور

إلى ناس باناس لي صبوةٌ — لها الوجد داعٍ وذكرى مثير
يزيد اشياقي وينمو، كما — يزيد يزيد، وَ ثَوْرا يثور
ومن بردى بَرْدُ قلبي المشوق — فها أنا من حره مستجير
و بالمرج مرْجُوٌّ عْيشي الذي — على ذكره العذْب عيشي مرير
فقدتكم ففقدت الحياة — ويوم اللقاء يكون النّشور
تطاول لسؤالي عند القصير — فعن نيله اليوم باعي قصير

وكن لي بريداً بباب البريد فأنت بأخبار شوقي خبير
متى تجد الرى بالقريتين خوامص أثر فيها الهجير
ونحو الجليجل أُزْجى المطيَّ لقد جلّ هذا المرام الخطير
تراني أُنيخ بأدنى ضمير مطايا براها الوجا والضمور
وعند القطيفة المشتهاة قُطوف بها للأماني سفور
ومنها بُكوري نحو القُصَير ومنية عمري ذاك البكور
ويا طِيب بُشراي من جلق إذا جاءني بالنجاح البشير
ويستبشر الأصدقاء الكرامُ هنالك بي، وتُوفي النذور
ترى بالسلامة يوما يكون بباب السلامة منّي عبور
وإن جوازي بباب الصغير لَعَمْري من العُمر حظّ كبير
وما جنة الخلد إلا دمشق وفي القلب شوق إليها سعير
ميادينها الخضر فيحّ الرّحاب وسلسالها العذب صافٍ نمير
وجامعها الرّحب والقُبّة الْ مُنيفة والفلك المستدير
وفي قبّة النسر لي سادة بهم للمكارم أفق منير
وباب الفراديس فرْدوسها وسُكانها أحسن الناس حور
والارزة فالسّهم فالنيربان فجنات مزتها فالكفور
كأن الجواسق مأهولةً بروجٌ تَطَّلَعُ منها البدور
بنيربها تستبير الهموم بربوتها يتربى السّرور
وماغرّ في الرّبوة العاشقي ن بالحسن إلاّ الرّبيب الغرير
وعند المغارة يوم الخميس أغار على القلب منيّ مغير
وعند المنْيبع عين الحياة مدى الدهر نابعة ماتفور
بجسر ابن شواش ثمَّ السكون لنفس، بنفسي تلك الجسور
وما أنسَ لاأنْس أُنْس العبور على جسر جسرين إني جسور
وكمْ بتّ ألْهو بقرب الحبي ب في بيت لِهْيا ونام الغيور

فأين اغتباطيَ بالغوطتين ... وتلك الليالي وتلك العصور
وأشجار سطرا بدت كالسطو ... ر، نمقَهُنّ البليغ البصير
وأيْن تأملْت فُلكٌ يدور ... وعينٌ تفورُ، وبحرٌ يمور
وأين نظرت نسيمٌ يرِقّ ... وزهرٌ يروق، وروضٌ نضير
إلا القساوة يا قاسيون ... وبين السّنا يتجلّى سَنير
ومُنْذُ ثَوى نوُ دين الإل ... ه لم يبق للدّين والشّام نور
وللنّاس بالملك النّاصر الصَّ ... لاح صلاحٌ ونصرٌ وخير
هو الشمس، أفلاكه في البلاد ... ومطلعه سرجه، والسّرير
إذا ماسطا، أو حبا، واحتبى ... فما الليث، من حاتمٌ، ماثبير
بيوسف مصر وأيامه ... تقر العيون وتُشفى الصّدور
ملكت فأسْجح، فما للبلاد ... سواك مجيرٌ ومولى نصير
وفي مِعْصم الملك للعزّ منك ... سوارٌ، ومنك علي الدِّين سُور
لك الله في كل ما تبتغيه ... بحقٍ ظهيرٌ، ونعم الظّهير
أما المفسدون بمصر عصوْك ... وهذي ديارهم اليوم قور

أما الأدعياء بها إذ نشطت ... لإبعادهم زال منك الفتور
ويوم الفرنج إذا ما لقوك ... عبُوس برغمهم قمطرير
نهوضاً إلى القديس يشفى الغليل ... بفتح الفتوح، وماذا عسير
سَلِ الله صعب الخطوب ... فهو على كل شئ قدير
إليك هجرت ملوك الزمان ... فمالك، والله، فيهم نظير
وفجرك فيه القرا والقُران ... جميعاً، وفجر الجميع الفجور
وأنت تريق دماء الفرنج ... زعندهم لاتراق الخمور

فصل في فتح بعلبك

قال العماد: ولما فرغ السلطان من حمص وحصنها سار إلى بعلبك، فتسلمها في رابع شهر رمضان.

قال ابن أبي طيّ: وكان بها خادم يقال له يمن، فلما شاهد كثرة عساكر السّلطان اضطرب في أمره وراسل مَنْ بحلب على جناح طائر، فلم يرجع إليه منهم خبر؛ فطلب الأمان، وسلم بعلبك إلى السلطان.

قال العماد: وهنأته بأبيات منها:

بفتوح عصرك يَفْخر الإسلام — وبنُور نصرك تُشرق الأيام
وبفتح قلعة بعلبك تهذّبت — هذي الممالك واستقام الشّام
وبكى الْحسُود دماً، وثغر الثّغر، من — فرح بنصرك للهدى، بَسَّام
فتح تَسنّى في الصيّام، كأننا، — شكرا لما منح الإله، صيام
من ذا رأى في الصّوم عيد سعادة — حلّت لنا والفطر فيه حرام
أسدي صلاح الدّين والدّنيا يداً — بنوالها سوقُ الرّجاء تقام
فتملّ فتحك، واقصد الفتح الَّذي — بحصوله لفتُوحك الإتمام
دُمْ للعُلا حتى يدوم نظامها — واسلَم يعزّ بنصرك الإسلام

قال: ولزمت خدمته أرحل برحيله وأنزل بنزوله. وكنت ليلةً عنده وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن سديد الملك علي بن منقذ، وهو به مشغوف، وخاطره على تأمله موقوف، وإلى استحسانه مصروف. وقد استحسن قصيدة له طائية لو عاش الطائيان لأقرَّا بفضلها، وإن خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلها. على أنّ الشّعراء المحدثين مامنهم إلا من نظم على رويّها ووزنها، واستمد خصب خاطره من مُزنها، فمنهم المعري، وابن أبي حصينة، والأرَّجاني، والصالح ابن رزيك. وقد أوردت جميعها في كتاب الخريدة. ومطلع قصيدة المعرّي:

لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا

فنظمت في السلطان ونحن على بعلبك بتاريخ انسلاخ شعبان قصيدة طائية، منها:

عفا الله عنكم، مالكم أيها الرّهط — قسطتم، ومن قلب المحبّ لكم قسط!
شرطتم لنا حفظ الوداد وخنتم — حنانيكم؛ ماهكذا الودّ والشرط!
جعلتم فؤاد المُستهام بكم لكم — محطا، فعنه ثقل همكم حُطّوا
ملكتم فأنكرتم قديم مودّتي — كأن لم يكن في البين معرفة قطّ
فدت مهجتي من لايذّم لمهجتي — إذا حاكمته، وهو في الحكم مشتط

وما كنت أدري قبل سطوة طرفه بأن ضعيفاً فاترا مثله يسطو

وأهيف للإشفاق من ضعف خصره يحلُّ نطاقا للقلوب به ربط

يلازم قلبي في الهوى القبض، مثلما يلازم كفَّ النَّاصر الملك البسط

مليكٌ حوى الملك العقيم بضبطه كريمٌ، وما للمال في يده ضبط

إذا لُثمت أيدي الملوك، فعنده مدى الدَّهر، إجلالاً له، تلم البسط

عنا لك طويا نيلُ مصر، ودجلةُ الْعِراق، ودان العُرب، والعُجم، والقبط

وللنيل شطٌ ينتهي سيبه به ونَيْلُك للرَّاجين نِيلٌ ولا شطٌّ

عدوُّك مثل الشّمع، في نار حقده له عنق إصلاح فاسده القط

وهي ثمانية وثمانون بيتا.

ولسعادة الأعمى قصيدة طائية في السلطان سيأتي ذكرها.

قال العماد: ولما وصلتُ إلى السلطان، ورغبت منه في الإحسان، وجدته لأمري مُغْفلا، ولشُغلي مهمى؛ ثم عرفت أنّ حسّادي قالوا له: متى أعدت ديوان الكتابة إلى العماد، وهو لاشكّ بمحل الوثوق والاعتماد، وهذا منصب الأجل الفاضل، وهو عنده في أجل المنازل، ربما ضاق صدره، وتشعّث سرّه. فلما عرفت هذا المعنى، لجأت إلى الفضل الفاضليّ لأنه به يعنى؛ فقام بأمري، ونوّه بقدري، وأراح سرّي، وشدّ أزري.

فصل فيما جرى للمواصلة والحلبيين مع السلطان في هذه السنة

قال ابن شداد: ولما أحسّ سيف الدين صاحب الموصل بما جرى، علم أن الرّجل قد استفحل أمره، وعظم شأنه، وعَلَت كلمته، وخاف أنه إن غفل عنه استحوذ على البلاد واستقرّ قدمه في الملك وتعدّى الأمر إليه. فجهز عسكرا وافراً وجيشاً عظيماً، وقدّم عليهم أخاه عز الدين مسعوداً، وساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه وردّه عن البلاد. فوصل إلى حلب والسلطان بحمص، وانضم إليه من كان بحلب من العسكر وخرجوا في جمع عظيم. ولما عرف السّلطان بمسيرهم سار حتى وافاهم بقرون حماة، وراسلهم وراسلوه، واجتهد أن يُصالحم فما صالحوه، ورأوا أنّ المصاف ربما نالوا به الغرض الأكبر، والمقصود الأوفر، والقضاء يجرّ إلى أمورٍ وهم بها لايشعرون. وقام المصاف بين العسكرين، فقضى الله تعالى أن انكسروا بين يديه، وأَسر جماعة منهم، ومنّ عليهم وأطلقهم؛ وذلك عند قرون حماة في تاسع

عشر شهر رمضان.

ثمّ سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب، وهي المدافعة الثانية وصالحوه على أن أخذ المعرّة، وكفر كاب، وبارين.

وقال العماد: لما تسلم السلطان قلعة بعلبك عاد إلى حمص وقد وصل عز الدين مسعود، أخو صاحب الموصل، إلى حلب نجدة. ولما عرفوا أن السلطان مشغول بالحصون جاءوا إلى حماة فحصروها وراسلوا في الصلح؛ فقدم السلطان في خف من اصحابه، وجاء كُمُشتكين وابن العجمي وغيرهما، وأجابهم السلطان إلى ماطلبوا، وأن يردّ عليهم الحصون، وأن يقنع بدمشق نائباً عن الملك الصالح وله خاطباً، وعلى الانتماء إليه مواظباً، وأن يردّ كلّ ما أخذه من الخزانة، وأن يسلك فيه سبيل الأمانة. فلّما رأوه مجيباً لكلّ ما يلتمس منه وهو في عسكر خفيف قالوا ما خبره صحيح، فشرعوا في الاشتطاط، وطلبوا الرّحبة وأعمالها؛ فقال هي لابن عمي ناصر الدّين محمد بن شيركوه، وكيف أُلحق به في رضاكم المكروه. فنفروا وجفلوا وأصبحوا على الرحيل إلى جانب العاصي قريبا من شيرز، وجمعوا العسكر وأظهروا أنهم على المصاف وعزم الانتصاف. فعبَّر السّلطان إلى سفح قرون حماة خيامه، وركز على مقابلتهم أعلامه؛ ووصل العسكر المصريّ في عشرة من المقدّمين منهم فرخشاه، وأخوه تقيّ الدّين. والتقوا، فهزمهم السلطان ونزل في منزلتهم.

قال العماد: ومما نظمت في هذه الوقعة في مدح ناصر الدين محمد بن شيركوه قصيدة، فقد كان له فيها عناء وبلاء حسن، منها:

وَلَقَدْ أَلِفتُ نِفارها وهَوَيْتها ... إذ ليس يُنكر للظبّاء نفار
ياجارةً للقلب جائرة: دَعِي ... ظُلمي، وإلاّ قلتُ: جار الجار
قلبي كطرفي مايفيقي إفاقة ... سكران، مادارت عليه عقار
صَبٌ بصب الدمع، محترق الحشا ... خطرت ببال بلائه الخطار
لم يخْش من خطر الهوى حتى حمى ... ذاك القوام شبيه الخطار
يذرى الدموع كأنهنّ عوارفٌ ... لاِبْن المملّك شيركوه غزار
من آل شادي الشائدين بنا العلا ... أركانهن لهاذمٌ وشفار
حسنت بهم للدولة الأيام وال ... أعمال، والأحوال، والآثار
قد حاز ملك الشام يوسفٌ الذّي ... في مصر تغبط عصره الأعصار
نصرَ الهُدى فتوطد الإسلام في ... أيامه، وتضعضع الكفار

لما لقيت جموعهم منظومة صيرت ذاك النظم وهو نثار

في حالتي جُودٍ وبأسٍ لم يزل للتّبر والأعداء مِنْك تبار

تهبَ الألوف ولاتهاب ألوفهم هان العدوّ عليك والإنْبار

لما جرى العاصي هنالك طائعا بدمائهم فخرت به الأنهار

وتحطمت عند القرون قرونهم بل كلّت الأنياب والأظفار

عبروا المعر مالكين معرّة والعار يملك تارة ويعار

أو ماكفاهم يوم حمص وكفّهم في بعلبك بمثلها الإنذار

قال: وهنأت الملك المظفر تقيّ الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بقصيدة، منها:

لاتُفن من فرق الفراق الأدمعا فهي الشهود على الغرام المدّعى

واستبق صبرك ما استطعت، فإنه عون لقلبك إن هُما ثبتا معا

قلبٌ أصابته العيون، ولم يزل من مسّها بالهاجسات مروّعا

مابالهم قد صدّ عند صدودهم عنّي، ولما ودّعوني ودعا

ومن التحيّر أنني أبصرته في ظعنهم، وسألت عنه الأضلعا

أصبحت إذ شيّعتهم لثلاثة صبري، وغمضي، والفؤاد، مشيعا

ومنها:

أو ما أتقيتم حين رُعْتُم سربه فيه تقيّ الدين، ذاك الأروعا

عمر بن شاهنشاه من هو عامرٌ أركان ملك الشام حين تضعضعا

خضع العدوّ وذلّ بعد تعزز لكم، وحق عدوكم أن يخضعا

من معشر غر يرون جميع ما لم يبذلوه في السَّماح مضيعا

في مصر واليمن اجتلينا منهم في عصرنا تبعا ليوسف تُبعا

الحاويان بملك مصر ومكةٍ والشام واليمن الحظايا الأربعا

لما عصى الأعداء بالعاصي جرى بدمائهم طوعا سيولا دُفَّعا

وقال ابن أبي طي: لما نسلم السلطان بعلبك وأزاح عللها، عاد إلى حمص ونزل بها، فاتصل به ورود عزّ الدين مسعود، أخي سيف الدين صاحب الموصل، نجدةً للملك الصالح. وكان سبب وروده أن جماعة من أمراء حلب لما كان السلطان نازلا على حلب أجمعوا آراءهم وكاتبوا سيف الدين وألزموه نجدة ابن عمه، وأخبروه أن السلطان متى ملك حلب لم يكن له قصد إلا الموصل؛ وأرسلوا بذلك أمين الدين هاشماً خطيب حلب، وقطب الدين ينال بن حسان وغرس الدين قليج.

وكان سيف الدين منازلا لسنجار وفيها أخوه عماد الدين بن زنكي، وكان عماد الدين قد أظهر الانتماء إلى السلطان، فأنجده السلطان بقطعة من جيشه فكسرهم، ونهبهم عماد الدين بهم وبعسكره.

فلما وصلت رسالة الحلبيين إلى سيف الدين صالح أخاه عماد الدين وحشد عسكره وأنفذ يجيبهم مع أخيه عز الدين مسعود، فورد حلب بعد رحيل السلطان عنها إلى بعلبك؛ فاغتنم الحلبيون بُعد السلطان عنهم فاحتشدوا وخرجوا جميعاً حتى خيموا على حماة وأخذوا في حصارها. واتصل بالسلطان ذلك فرحل من بعلبك إلى حمص، وبلغ عز الدين فعاد عن حماة ونزل قريبا من جباب التركمان إلى جهة العاصي إلى قريب من شيزر. وأرسل النائب بحماة، علي بن أبي الفوراس، يقول له إنما وصلت في إصلاح الحال ووضع أوزار القتال، وسأله مكاتبة السلطان فيما يجمع الكلمة ويلم شعب الفرقة. فكتب ابن أبي الفوارس بذلك إلى السلطان وحَسَّن له الصُّلح، وتلطف في ذلك غاية التلطف.

وقدم أبو صالح بن العجمي وسعد الدين كمشتكين لطلب الصلح، فأجابهما السلطان إلى ما أرادا، وتقرر الأمر على أنه يرد إليهم جميع الحصون والبلاد، ويقنع بدمشق وحدها، ويكون نائبا للملك الصالح. فلما عاين سعد الدين إجابة السلطان إلى الصلح والنزول عن جميع الحصون التي أخذها: حمص وحماة وبعلبك، طمع في جانب السلطان وتجاوز الحد في الاقتراح، وطلب الرحبة وأعمالها. فقال: هي لابن عمي ولاسبيل إلى أخذها. فقام سعد الدين من بين يديه نافرا، وكان ذلك برأي أبي صالح ابن العجمي لأنه كان معه، فاجتهد السلطان به أن يرجع فلم يفعل، وخرج إلى عز الدين مسعود، وكان بعدُ نازلا على حماة، وحدثه مادار بينه وبين السلطان وهون عليه أبو صالح أمر السلطان وأخبره بقلّة من معه.

وكان السلطان لما كوتب في أمر الصلح سار في خفّ من أصحابه، فلما علموا بذلك طمعوا في جانبه وعوّلوا على لقائه وانتهاز الفرصة في أمره؛ فكاتب باقي أصحابه واستعدّ لحربهم، وسار إلى أن نزل على قرون حماة، وأخذ في مدافعة الأيام حتى يقدم عليه باقي عسكره. ورسلهم في التلطف للأحوال، فلم ينجح فيهم حال. وكانوا في كلّ يوم يعزمون على لقائه وقتاله، فيبطل عزيمتهم بمراسلة يفتعلها، تسويفا للأوقات وتقطيعا للزمان، حتى يقدم عليه عسكره. وكانت هيبته قد ملأت صدور القوم، ولولا ذلك

لكانوا قد ناهزوا الفُرصة ونالوا منه الغرض.

قال: وفي يوم الأحد تاسع عشر رمضان التقوا، و لم يكن بعد وصل السلطان من عسكره أحد؛ فتجمع أصحاب السلطان كردوسا واحدا، وأخذوا يحملون يمنة ويسرة ويدافعون الأوقات رجاء أن يتصل بهم بعض العسكر. وضرى عسكر حلب والعسكر الموصليّ على أصحاب السلطان حين شاهدوا قلتهم واجتماعهم، وكاد أصحاب السلطان يولون الإدبار، فوصل تقي الدين عمر عند الحاجة إليه لتمام سعادة السلطان، فإنه لو تأخر ساعة انكسر عسكره؛ فوصل تقيّ الدين في عسكر مصر وجماعة من الأمراء وهم غير عالمين بأن الحرب قائمة. فلما رأوا الناس في الكرّ، والضرب الهبر، حملوا جميعا بعد أن افترقوا في اليمنة واليسرة، فصدموا عسكر الموصل صدمة ضعضعتهم.

وكان السلطان في هذه المدة قد كاتب جماعة من عسكرهم واستفسدهم إليه، وحمل إليهم الأموال. وهذا هو الذي أبطأ بهم إلى أن وصلت عساكره، وإلا لو كان عسكر حلب نصح لم يقدر السلطان على الثبوت ساعة. فلما اشتد القتال لم ينصح الجماعة التي كاتبها السلطان بل كانوا مثبطين مخوفين لمن قرُب منهم. ثم إنهم بعد ذلك انهزموا وتبعهم عسكر السلطان واستباحوا أموالهم وخيامهم، وأمر السلطان أصحابه ألا يوغلوا في طلبهم ولايقتلوا من رأوه منهزما ولا يذففوا على جريح. ورحل حتى نزل في منزلتهم.

ثم سار من وقته مجداً حتى نزل بمرج قرا حصار، ولم يزل هناك حتى عيّد عيد الفطر، فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة وأن يُقرّر الملك الصالح على ما في يده وماهو جارٍ تحت حكمه من الشام الأسفل إلى بلد حماة، فلم يرض بذلك، فجعلوا له مع حماة المعرة وكفر طاب، فرضى بذلك وحلف على نسخة رأيتها وعليها خطه.

قال: وكان في جماعة اليمين أنه متى قصد الملك الصالح عدوٌّ حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه، وألا يغّر الدّعاء له من جميع منابر البلاد التي تحت يد السلطان وولايته وولاية أصحابه، وأن تكون السكة باسمه.

ولما حلف السلطان والملك الصالح وأمراؤه عاد السلطان قاصدا دمشق. فلما وصل إلى حماة وصلت إليه رسل الخليفة المستضئ ومعهم التشريفات الجليلة والأعلام السود، وتوقيعٌ من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام.

وفي هذه الخلع يقول ابن سعدان الحلبي:

يأيها الملك الغزير فضله	لقد غدوت بالعُلا مليا
كفى أمير المؤمنين شرفا	أنك أصبحت له وليّا

طارحك الودّ على شحط النّوى فكنت ذاك الصّادق الوّفيا

أوْلاكَ من لباسه زخرفة لم يولها قبلك آدميا

ناسبت الرّوض سناً وبهجة حتى حكته رونقاً وزيّا

قال: ورحل السلطان من حماة إلى بعرين، وكان فيها فخر الدين مسعود بن الزّعفراني، وكان خرج إلى السلطان لما وصل إلى الشام وتطارح عليه وخدمه، وظنّ أن السلطان يقدمه على عساكره، فلم يلتفت إليه، فترك السلطان وعاد إلى حصن بعرين، فأغضب السلطان ذلك وسار إليه وحاصره حتى تسلم حصنه.

وقال العماد: نزل السلطان قراحصار، بنيَّة الحصار، فجاءت رسلهم بالانقياد، وأجابوا إلى المراد، وقالوا اقنعوا بما أخذتموه إلى حماة، ولاتُشْمِتُوا بنا العداة. فاستزدناه عليهم كفر طاب والمعرّة، واستوفينا عليهم الأيمان المستّقرة؛ وسألهم في المعتقلين، إخوة مجد الدين، فأجابوا وأفرجوا عنهم، وتمّ الصلح، وعمّ النجح.

ورحلنا ظاهرين ظافرين، ونزلنا حماة يوم الاثنين ثاني عشر شوال، وبها وصلت إليه رسل الديوان العزيز بالتشريفات، والتقليد بما أراد من الولايت؛ وأفاضوا على السلطان وأقاربه الخلع، وخص ناصر الدين محمد بن شيركوه بمزيد تفضيل على أقارب السلطان، وكأنه رعاية لحق والده أسد الدين، رحمه الله تعالى.

ثم تسلم السلطان حصن بعرين، وكان بيد الأمير فخر الدين مسعود بن الزعفراني، وهو من أكابر أمراء نور الدين، وذلك في أواخر شوّال. وأقطع مدينة حماة لابن خاله وصهره الأمير شهاب الدين محمود، وأنعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين.

قال العماد: وأذكر أنّا عبرنا نهر العاصي عائدين وقد انكشف الشمس وادلّهم النهار، وغلب على القلوب الاستشعار، وطاحت الأنوار، وخفيت الرّسوم، وظهرت النجوم؛ وجئنا حمص، ثم بعلبك، ثم البقاع، ووصلنا دمشق في ذي القعدة.

فصل

قال العماد: قد سبق ذكر ماقرّره حُسّادي في خاطر السلطان، وقالوا: شُغله المكاتبة وهي منصب الأجل الفاضل، وهو يستنيب فيه من رآه من الأفاضل، وهذا تَصْرُفُه برِفدٍ جزيل، ووجهٍ جميل. والسلطان مع شدّة رغبته متوقف، وإلى ظهور وجه النّجاح في أمري متشوف.

وكنت قد أنست مدّة مقامي بالعسكر بذي المجد والمفخر، ومورد الكرم والمصدر، الأميلا نجم الدين بن

مصال؛ وهو ذو فضل وإفضال، وقبول وإقبال، وله من السلطان ومن الفاضل لجلالة قدره إجلال؛ وقد مال إلى فضله، ونباهته ونبله. وكان أبوه قد وزر للحافظ في آخر عهده، متفرّدا بسؤدده ومجده؛ وكان من أهل السنة والجماعة، والتّقى والورع والعفاف والطاعة؛ وله يدٌ عند السلطان في النُّوب التي قصدوا فيها مصر، وأجزل عنده الإحسان والبّر، لاسيما عند كونه بالإسكندرية محصورا؛ وكان إحسانه مشكورا، واعتناؤه لحفظه مشهورا. فلما ملك أحبّه، واختار قربه، فلزْمت له التودد، وإليه التردد، وجعلته الوسيط بيني وبين الأجل الفاضل، واتخذته من الحجج والوسائل، ووقفت خاطري على تقاضيه نظما ونثرا، ورسالة وشعرا. فمن ذلك ماكتبته إليه:

لعلّ نجم الدين ذا الفضل — يُذكر الفاضل في شُغلي
إنّ أجلّ الناس قدراً فتىً — بفضله يتْعب من أجلي
ومثْله من يعتنى بالعلا — ويستديم الحمد من مثلي

قال: وأول ما أهديته للفاضل مدحة حين لقيته بحمص في شعبان منها:

عاينت طود سكينة، ورأيت شم — س فضيلة، ووردت بحر فواضل
ورأيت سحبان البلاغة ساحبا — ببيانه ذيل الفخار لوائل
أبصرت قُسّا في الفصاحة معجزا — فعرفت أني في فهاهة باقل
حلِف الحصافة، والفصاحة، والسّما — حة، والحماسة، والتّقى، والنائل
بحرٌ من الفضل العزيز، خِضمّهُ — طامي العُباب، وماله من ساحل
وجميعُ مافي الأرض سبعة أبحر — وبحوره تُسْمى بعشر أنامل
في كفه قلمٌ يعجّل جريه — ماكان من أجل ورزق آجل
يجري ولاجرى الحسام إذا جرى — حدّاه، بل جرْى القضاء النازل
نابت كتابته مناب كتيبة — كفلت بهزم كتائب وجحافل
فَعدُوّه في عدوه، ووليّه — في عدله؛ أكرمْ بِعادٍ عادل
ريّان من ماء التّقي، صادٍ إلى — كسب المحامد، وهي خير مناهل
ياواحد العصر الذي بزّ الورى — فضلا بغير مشابه ومشاكل
مالي وجاه الجاهلين، فأغنني — عنهم، كفيتهم، وَجُدْ بالجاه لي
أرجوك معتنيا لدى السلطان بي — كرماً، فمثْلك يْعتنى بأماثلي

قرّر لي الشغل المبجل، مُخليا بالي من الهمّ المقيم الشاغل

قال: فدخل الفاضل إلى السلطان وعرّفه أنه فيّ راغب، وقال لايمكنني الملازمة الدائمة في كل سفرة، وغداً يكاتبك ملوك الأعاجم، ولاتستغني في الملك عن عقد الملطفات وحلّ التّراجم؛ والعماد يفي بذلك ولك أختاره، وقد عُرف في الدولة النّورية مقداره. وأخذ لي خط السلطان بما قرره لي من شغلي وقد عرف أن الأجلّ الفاضل قد أجلّ فضلي.

قال: وخدمت أمير المؤمنين المستضئ بالله في ذي القعدة مع الرّسل بهذه القصيدة:

أصحّ عقود الغانيات مريضها وأفتْكُ ألحاظ الحِسان غضيضها

ومِنْ عجبٍ صلّت لقبلة بأسهم رؤس أعادٍ من ظباهم محيضها

قال ابن أبي طيّ: وظهر في مشغرا، قرية من قرى دمشق، رجل ادعى النّبوة وكان من أهل المغرب، وأظهر من التخاييل والتمويهات مافتُن به الناس، واتبّعه عالم عظيم من الفلاحين وأهل السواد، وعصى على أهل دمشق، ثم هرب من مشغرا في اليل وصار إلى بلد حلب، وعاد إلى إفساد عقول الفلاحيّن بما يريهم من الشعبذة والتخاييل؛ وهوى امرأةً وعلّمها ذلك، وادعّت أيضا النبّوة.

قال: وفيها توفي شهاب الدين إلياس الأرتقي صاحب البيرة، وأوصى إلى الملك الناصر صلاح الدين بولده شهاب الدين محمد.

ثم دخلت إحدى وسبعين وخمسمائة

قال العماد: والسلطان نازل بمرج الصفر من دمشق، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة، فأجابهم السلطان بعد أن اشترط عليهم أموراً، فالتزموها.

وكان الشام ذلك العام جدباً، فأذن السلطان للعساكر المصرية في الرحيل إلى بلادهم وإذا استغلوها خرجوا إليه، وسار معهم الفاضل، واعتمد على العماد فيما كان بصدده.

وواظب السلطان على الجلوس في دار العدل، وعلى الصيد، ومدحه العماد بقصيدة، منها:

سواك لسهم العلا لن يريشا فنسأل رب العلا أن تعيشا

من الناس بالبّرِ صِدْتَ الكرام وبالبأس في البّر صدت الوحوشا

وكمْ سرت من مصر نحو العريش فهدّمت للمشركين العُروشا

سراياك تبعث قُدّامها من الرعب نحو الأعادي جيوشا

ويوم حماة تركت العداة كما طيرت بالفلا الرِّيحُ ريشا

قال: ومدحت، مستهل ربيع الأول، تقيّ الدّين بقصيدة موسومة، وكان قد فوض إليه ولاية دمشق، ومنها بيتان ابتكرت المعنى فيهما و لم أُسبق إليهما، وهما:

يفيد العاقل اليقظ التّغابي ليدرك في الغنى حظّ الغبيّ
ولم تصب السّهام على اعتدال بها لو لا اعوجاجٌ في القسيّ
فقل للدهر يقصر عن عنادي أما هو يتّقي بأس التّقيّ
حلفت برب مكة و المصلى وثاوى تُرب طيبة و الفرىّ
لأنتم يابني أيوبَ خير ال ورى بعد الإمام الستضئ

قال: وفي أول هذه السنة وصل إلى دمشق الجماعة الذين خرجوا من بغداد موافقة قطب الدين قايماز، فأخذوا لأنفسهم بالالتجاء إلى السلطان والاحتراز.

وكان قايماز هذا مُحكّمًا في الدولة الإمامية من أول الأيام المستنجدية، وقوى في الأيام المستضيئية على وزير الخليفة عضد الدين بن رئيس الرؤساء، وسامه أنواع البلاء، وأخافه، ورام إتلافه، حتى استعاذ منه برباط صدر الدين شيخ الشيوخ فسلم به.

ثم إنّ قايماز حالف الخليفة وشقّ العصا، وعنّ له حصار الدّار، فأمر الخليفة بالقبض عليه، فلم ينج لما أحيط بداره، إلا بفتح باب في جداره. وانهزم فوصل إلى الحلة في اوائل ذي القعدة سنة سبعين، وهو في موسم الحجّ؛ فجمع رجاله وتوّجه إلى الموصل وخانه إخوانه، وخذله أصحاب، فتوفي في بعض قرى الموصل، وتفرق أصحابه في البلاد، فمنهم من رجع إلى بغداد، ومنهم من أتى إلى الشام؛ منهم حسام الدّين تميرك وعز الدين أقبوري ابن ازغش، وكان صهر السلطان قديما، وعنده كريما، فأقطعه في الديار المصرّية، وكتب في حقّه إلى الدّيوان شفاعة في تخليص مال ÷نس واستقامة حاله؛ وكان ذا خزائن مملوة، وخيْلٍ مسوّمة؛ فلم يكن ذنبه عندهم في متابعة قايماز مما يقبل الصفح. وكان أقبوري زوج أخت السلطان، والسلطان خال بنته، وهي زوجة عز الدين فرخشاه ابن أخي السلطان.

قلت: وفي بعض الكتب عن السلطان إلى وزير بغداد بالمثال الفاضليّ: وما نحسب أنا مع الموالاة المشتهرة، والنصرة المتناصرة المستظهرة، والمساعي التي كانت لثارات هذه الدولة بالغة، ولأعدائهم دامغة، ولمازعيهم الأمر قاصمة، ولمجاذبيهم الحقَّ واقمة، وبحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمة، وكوننا ما أعنَّا منها بنجدة من رجال، ولا بمادة من مال، ولا بإعانة بحال من الأحوال_يردّ سؤالنا من الدّولة، أعلاها الله، في ذي قربى

لانستطيع دفعه، ولايقبل أسباب النفع إذا أردنا نفعه، فالأخبار عندنا واسعة، والأعواض لدينا غير متعذرة، والولايات التي نفوضها إليه عن كفايته غير مستغنية؛ ولكنّه مابا ع بمكانه من الخدمة مكانا، ولاآثر غير سلطانه سلطانا؛ وله أعذار لابأس أن نُعيره فيها لسانا وبيانا.

ثم ذكرها، ثم قال: وهذا الأمير جزء منّا فكيف يُعّد جزء منا عاصياً، وبألستنا وسيوفنا يُدْعى الخلق إلى الطاعة، وكيف تخلو دار الخلافة من واحد من أهلنا ينوب عنا وعن بقية الجماعة. فنحن في أنفسنا نشفع، وعن جاهنا ندفع، وفي مكاننا نسأل، وبخطّنا الّي لانسمح به للإسلام نبخل. وأنت أيها الأمير السَّائر ثالث رسول سواك ندب في أمر هذا الأمير، والله وليّ التّدبير.

وقال العماد في الخريدة: كنت جالساً بين يدي الملك الناصر صلاح الدِّين بدمشق في دار العدل، أنفذُ ما يأمر به من الشغل، فحضر سعادة الأعمى من أهل حمص، وكان مملوكا لبعض الدمشقيين مولدا، ويكتب على قصائده سعيد بن عبد الله، فوقف ينشد هذه القصيدة في عاشر شعبان سنة إحدى وسبعين:

حيّتك أعطاف القدود ببابها لما انثنت تيهاً على كثبانها

ثم ذكر القصيدة وغزلها في وصف دمشق، ثم قال:

سلطانها الملك ابن أيوب، الذّي كفّاه لاتتكف عن هطلانها
بمواهبٍ، لوْ لمْ أكنْ نُوحاً لما نُجيّتْ يوم نداه من طوفانها
سمحٌ يروح إلى الندىّ براحة قد أعشب المعروف بين بنانها
وفتىً، إذا زخرت بحارُ نواله غرقت بحار الأرض في خلجانها
تلك السيوف المرهفات بكفه أمضى على الأيام من حدثانها
ملك إذا جليت عرائس ملكه رصعت فريد العدل في تيجانها
فاسلم صلاح الدين، وابْق لدولة ذلّت لدولتها ملوك زمانها
وانهض إلى فتح السّواحل نهضة قادت لك الأعداء بعد حرانها

وهي طويلة.

قال: وقام اليوم الذّي يليه، وقد جلس السلطان للعدل، فأنشده قصيدة، منها:

هل بعد جلّق إلا أن ترى حَلَبا وقد تحللّ منها مشكل عقد
وقد أتتك كما تختار طائعةً وقد عَنَا لك منها الحصن والبلد

قال: وكان سعادة سافر إلى مصر في أول غارته على غزّة، وعوده من ذلك الغزو بالعزة:

فتىً مُذْغزا بالخيل والرَّجل غزة | نأى عن نواحيها الرّضا ودنا السخط
رماها بأُسد مالهن مَرابضٌ | ولا أُجُمٌ إلاّ الذي تُنْبت الخط
وعاث ضواحيها ضحى بكتائب | من الترك لانوب طغام ولاقبط

وله في السلطان قصائد أخر. قال: وقام البهاء السنجاري وأنشد الملك النّاصر قصيدة في دار العدل بدمشق سنة إحدى وسبعين في شعبان، منها:

ياظبية الْهَرَمَيْن من مصرٍ، على الرَّ | بْع السَّلام وإن تقوض أو عفا
أصبْو إلى عصر تقادم عهده | فأزيدُ مِنْ ولَهٍ عليه تلُّهفا
أحبابنا بالقصر، لو قصرتمُ | في الهجر ماشمت الحسُود ولاأشتفى

ومنها:

أشكو إلى الوادي، فيحنو بانهُ | من رقة الشكوى عليّ تعطفا
وجرى بي الأملُ الطَّموح، فأقام بي | سلطانَ أرض الله طرًّا، يُوسفا
الناهب الأرواح في طلب العلا | والواهب الآجال في حسن الوفا

فصل فيما تجدد للمواصلة والحلبيين

قد سبق ذكر الصلح الذي جرى بين السلطان والحلبيين. فلما سمع به المواصلة عتبوا عليهم ووبخوهم، ونسبوهم إلى العجلة في ذلك وسلوك غير طريق الحزم؛ فحملوهم على النقْض والنّكث، وأنفذوا من أخذ عليهم المواثيق، وتوجه ذلك الرسول منهم إلى دمشق ليأخذ للمواصلة من السلطان عهده، ويكشف أيضا ماعنده. فلما خلا به طالبه السلطان بنسخة الرأي، فغلط وأخرج من كمه نسخة يمين الحلبيين لهم، وناولها إياه، فتأملها وأخفى سرّه وما أبداه، واطلع على ما اتفقوا عليه، وردها إليه، وقال: لعلّها قد تبدلت؛ فعرف الرّسول أنه قد غلط، ولم يمكنه تلافي مافرط. وقال السلطان كيف حلف الحلبيون للمواصلة، ومن شرط أيمانهم، أنهم لايعتمدون أمراً إلا بمراجعتهم لنا واستئذانهم. وعرف من ذلك اليوم أن العهد منقوض، والوفاء مرفوض.

وشاع الخبر عن المواصلة بالخروج في الرّبيع، فكتب السلطان إلى أخيه العادل وهو نائبه بمصر، يُعلمه بذلك، ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد للخروج في شعبان.

قلت: وفي كتاب طويل فاضلي جليلٍ إلى بغداد عن السلطان: يطالع بأن الحلبيين والموصليين لما وضعوا

السلاح، وخفضوا الجناح، اقتصرنا، بعد أن كانت البلاد في أيدينا، على استخدام عسكر الحلبيين في البيكارت إلى الكفر، وعرضنا عليهم الأمانة فحملوها، والأيمان فبذلوها؛ وسار رسولنا وحلف صاحب الموصل بمحضر من فقهاء بلد وأمراء مشهده، يميناً جعل الله فيها حكما، وضيق في نكثها المجال على من كان حنيفا مسلما، وعاد رسوله ليسمع منا اليمين، فلما حضر وأحضر نسختها، أومى بيده ليخرجها، فأخرج نسخة يمين كانت بين الموصليين والحلبيين مضمونها الاتفاق على حزبنا، والتداعي إلى حربنا، والتساعد على إزالة خطبنا، والاستنفار لمن هو على بعدنا وقربنا؛ وقد حلف بها كمشتكين الخادم بحلب وجماعة معه يمينا نقضت الأولى. فرددنا اليمين إلى يمين الرسول وقلنا هذه يمين عن الأيمان خارجة، وأردت عمرا وأراد الله خارجة.

وانصرف الرّسول عن بابنا وقد نزّهنا الله أن يكون اسمه معرضا للحنث العظيم، والنّكث الذّميم، وعلمنا أنّ الناقد بصير، والآخذ قدير. والمواقف الشرّيفة النبوية، أعلاها الله، مستخرجة الأوامر إلى الموصليّ إمّا بكتاب مؤكد بأن لاينقض عهد الله من بعد ميثاقه، وإما أن تكون الفسحة واقعة لنا في تضييق خناقه.

ثم ذكر أمر الفرنج، ثمّ قال: والمملوك بين عدوّ إسلام يشاركونه في هذا الاسم لفظا، ولاينووُن لما استحفظوا حفظا، وعدوّ كفر فما يجاورهم إلاّ بلادُه، ولايقارعهم إلاّ أجناده.

ثم طلب خروج الأمر بخطاب جميع ملوك الأطراف أن يكونوا للمملوك على المشركين أعوانا، وأن يُتثل أمر نبينا صلى الله عليه وسلم، في أن يكونوا بنيانا، فيعضوده إذا سعى، ويلّبوه إذا دعا، ولايقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدّس الذي طابت النّفوس عن ثاره، وطأطأت الرّؤس تحت عاره، وصارت القلوب صخرة لاترق على صخرته، والعزائم قاصية عن تطهير أقصاه من رجس الشرك ومعرّته. فإن قعدت بهم العزائم، وأخذتهم في الله لومةُ لائم، فلا أقلّ من ألا يكونوا أعوانا عليه يلفتونه عن قصده، حريصين على اتصال المكروه إليه.

قال ابن شداد: لّما وقعت الوقعة الأولى مع الحلبيين والمواصلة، كان سيف الدّين، صاحب الموصل، على سنجار يُحاصر أخاه عماد الدين بقصد أخذها منه ودخوله في طاعته؛ وكان أخوه قد أظهر الانتماء إلى السّلطان صلاح الدين واعتصم بذلك. واشتد سيف الدين في حصار المكان وضربْه بالمنجنيق حتّى استُهدم من سوره ثُلم كثيرة؛ وأشرف على الأخذ. فبلغه وقوع هذه الواقعة فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتّد أمره ويقوى جأشه، فرسله في الصّلح، فصالحه.

ثم سار من وقته إلى نصيبين واهتمّ بجمع العساكر والإنفاق فيها؛ وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة، وخيّم على جانب الفرات الشامي، وراسل كمشتكين والملك الصالح حتى تستقر قاعدة يصل عليها إليهم. فوصل كمشتكين إليه وجرت مراجعات كثيرة عزم فيها على العوّد مرارا، حتى أستقرّ اجتماعه

بالملك الصالح وسمحوا به، وسار ووصل حلب وخرج الصالح إلى لقائه بنفسه، فالتقاه قريب القلعة، واعتنقه، وضمه إليه وبكى؛ ثم أمر بالعود إلى القلعة فعاد إليها، وسار هو حتى نزل بعين المباركة وأقام بها مدّة وعسكر حلب يخرج إلى خدمته في كل يوم.

وصعد القلعة جريدةً وأكل خبزاً ونزل، وسار راحلا إلى تل السّلطان ومعه جمع كبير وأهل ديار بكر، والسلطان رحمه الله تعالى قد أنفذ في طلب العساكر من مصر وهو يرقب وصولها، وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدابيرهم، وهم لايشعرون أنّ في التأخير تدميراً، حتى وصل عسكر مصر، فسار رحمه الله حتى أتى قرون حماة، فبلغهم أنه قد قارب عسكرهم فأخرجوا اليزك، ووجهّوا من كشف الأخبار، فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب التركمان، وتفرّق عسكره يسقى، فلو أراد الله نُصْرتهم لقصدوه في تلك الساعة، لكنْ صبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره، واجتمعوا، وتعبّوا تعبئة القتال.
وأصبح القوم على مصاف، وذلك بكرة الخميس العاشر من شوّال، فالتقى العسكران وتصادما، وجرى قتال عظيم، وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين بن مظفر الدين، فإنه كان في ميمنة سيف الدين.
وحمل السلطان بنفسه، فانكسر القوم، وأسر منهم جمعاً عظيماً من كبار الأمراء، منهم الأمير فخر الدين عبد المسيح، فمنّ عليهم وأطلقهم.
وعاد سيف الدين إلى حلب فأخذ منها خزانته، وسار حتى عبر الفرات وعاد إلى بلاده. وأمسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر، ونزل في بقيّة ذلك اليوم في خيم القوم، فإنهم كانوا قد أبقْوا الثّقل على ماكان عليه، والمطابخ قد عملت، ففرّق الاصبطلات، ووهب الخزائن، وأعطى خيمة سيف الدين عزّ الدين فرخشاه.
وقال العماد: رحلنا في شهر رمضان من دمشق مستأنفين، فعبْرنا العاصي لله طائعين، وإلى المسِّار مسارعين، فما عرّجنا على بلد، ولاانتظرنا ما وراءنا من مدد؛ ونزلنا الغَسُولة وجُزنا حماة، وخيّمنا في مرج بوقبيس. وجاء الخبر أنهم في عشرين ألف فارس سوى سوادهم، وماوراءهم من أمدادهم، وأنهم موعودون من الفرنج بالنجدة، وأنهم يزيدون في كلّ يوم قوّة وشدّة، وماكان اجتمع من عسكرنا سوى ستة آلاف فارس. فرتّب السلطان عسكره، وقوى بقوّة قلبه لُلَبه، وأمد الله بحزب ملائكته حزبه.
ولما وصل المواصلة إلى حلب، أطلقوا من كان في الأسر من ملوك الفرنج، منهم أرناط إبرنس الكرك، وجوسلين خال الملك، وقرّروا معهم أن يدخلوا من مساعدتهم في الدّرك. فلما عيّدنا وصل إلى السلطان الخبر بوصولهم إلى تلّ السلطان، فعبرْنا العاصي عند شَيْزَر، ورتّبنا العسكر، وأعدنا الأثقال إلى حماة.
ثم وصف الوقعة إلى أن قال: وركب السلطان أكتافهم فشل مِئِيهِمْ وآلافهم، حتى أخرجهم عن خيامهم، وأشْرَقهم بمائهم. ووكل بسرادق سيف الدين غازي ومضاربه ابن أخيه فرخشاه، وركض وراءه حتى علم

أنه تعدّاه. ووقع في الأسر جماعة من الأمراء المقدمين، ثم مَنَّ عليهم بالخلع بعد أن نقلهم إلى حماة وأطلقهم. ثمّ نزل في السرادق السيفي فتسلمه بخزائنه ومحاسنه، واصطبلاته ومطابخه، وَرَواسي عزّه ورواسخه، فبسط في جميع ذلك أيدي الجُود، وفرّقها على الحضور والشهود، وأبقى منها نصيباً للرُّسل والوفود. ورأى في بيت الشّراب، بل في السّرادق الخاصّ، طيوراً من القماري، والبلابل، والهزار، والببغاء، في الأقفاص، فاستدعى أحد النّدماء مظفر الأقرع فآنسه، وقال: خُذْ هذه الأقفاص، واطلب بها الخلاص، واذهب بها إلى سيف الدّين فأوصلها إليه وسلّم منّا عليه، وقل له عدْ إلى اللعب بهذه الطيور، فهي سليمة لاتوقعك في مثل هذا المحذور.

قال: ولما كسر القوم ولوا مدبرين إلى حلب، فلم يقف بعضهم على بعض، وظنوا أن العساكر وراءهم ركضا وراء ركض؛ فتبعجت خيولهم، وتموّجت سيولهم، وما صدّقوا كيف يصلون إلى حلب ويغلقون أبوابها، ويسكنون اضطرابها. وأما سيف الدّين فإنه ركض في يومه من تلّ السلطان إلى بزاعة، وجاوز في سَوْقه الاستطاعة، وفرق وفارق الجماعة.

وفي كتاب ابن أبي طيّ أن ميسرة سيف الدين انكسرت، فتحرّك إلى جانبها ليكون ردْءًا لها ومدداً، فظن باقي العسكر أنه قد انهزم فانهزموا، فحقق ماكان وهما، فسار على وجهه لايلوى على شئ؛ وتبعهم السلطان، فهلك منهم جماعة قتْلاً وغرقا، وأُسر جماعة كبيرة من وجوههم وأمرائهم؛ ثم رجع وأمر أصحابه برفع السيف عن الناس، وترْك التّعرّض لمن وُجد منهم بقتل أو نهب.

وفرّق ماوجد في خزائن سيف الدين وسيَّر جواريه وحظاياه إلى حلب، وأرسل إليه بالأقفاص وقال له: عد إلى اللعب بهذه الطيور، فإنها ألذّ من مقاساة الحرب. ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والعيدان والجنوك والمغنين والمغنيات.

قال: واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنيّة، وأن السلطان ا"ى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البلية. وكان أنفذ الأمراء الذّين أسرهم إلى حماة ثم ردّهم، وخلعّ عليهم وأرسلهم إلى حلب.

وهنأ العماد السّلطان رحمه الله تعالى بقصيدة، منها:

فالحمد لله الذي إفضالهُ ... حلْوُ الجنا، عالي السَّنا، وضاحه

عاد العدوّ بظلمة من ظلمه ... في ليل ويلٍ قد خبا مصباحه

وجنى عليه جهله بوقوعه ... في قبضة البازي فَهِيضَ جناحه

حمل السلاح إلى القتال، ومادرى ... أن الذي يجنى عليه سلاحه

أضحى يريد مواصليه صدوده … وغدا يجيد رثاءه مدّاحه

إن أفسد الدين الغلاة بحنثهم … فالناصر الملك الصلاح صلاحه

قد كان عزمك للإله مصمما … فيهم، فلاح، كما رأيت، فلاحه

وكأنني بالساحل الأقصى، وقد … ساحت بنحر دم الفرنجة ساحه

فاعبُر إلى القوم الفرات، ليشربوا ال … مَوْت الأُجاج، فقد طمى طفّاحه

لتفتك من أيديهم رهن الرُّها … عجلاً، ويدرك ليلها إصباحه

وابغوا لحرَّان الخلاص، فكم بها … حرّان قلبٍ نحوكم ملتاحه

نجوا البلاد من البلاءِ بعدلكم … فالظلم بادٍ في الجميع صراحه

واستفتحوا ماكان من مستغلق … فيها، فربّكم لكم فتاحه

أنتم رجال الدّهر، بل فرسانه … ولذي الحلوم الطائشات رجاجه

فُتَّاكه، نُسّاكه، ضُرّاره … نفّاعه، مُنّاعه، مُنّاحه

وأبو المظفر يوسف مطعامه … مِطْعانُه، مِقْدامُه، جَحْجَاحه

وإذا انتدى في محفل فحيِيُّه … وإذا غدا في جحفل فوقاحه

قال: وكان لعزّ الدين فرخشاه في هذه الوقعة يد بيضاء، وهو محب للفضل وأهله باعثُ للخواطر على مدحه ببذله؛ فنظمت فيه قصيدة، منها:

نصرٌ أنار لملككُمْ بُرهانه … وعلا لذلة شانئيكم شانه

ما أسعد الإسلام وهو مظفر … وأبو المظفّر يوسفُ سلطانه

الملكُ مرفوعٌ لكم مقداره … والعدل موضوعٌ بكم ميزانه

والدهسر لايأتي بغير مرادكم … فهل القضاء لأجلكم جريانه

وكأنما لله في أحكامه … فلكٌ على إيثاركم دورانه

فخراً بني أيوب، إن فخاركم … بذَّ الملوك السابقين رهانه

يكفى حسودكم اعتقالا همة … فكأنما أشجانه أسجانه

الدّين، عزّ الدين، عزّ بنصركم … والكفر ذلّ بعونكم أعوانه

قد كان جيشكم كبحرٍ زاخر … واللابسون جواشناً حيتانه

فطمى لهلكهم عليهم بحركم بأساً وغرّق فلكهم طوفانه

فضل الملوك الأكرمين بفضله فعلا زمانهم البهيج زمانه

في فضله، في عدله، في حلمه صديقّه، فاروقه، عثمانه

هو في السماح، وفي اللقاء، عليّه هو في العفاف وفي التقى سلمانه

من آل شادي الشائدين لمجده ببنيه بيتاً عالياً بنيانه

بيت من العلياء، سامٍ، سامقٌ يبنى على كيوانها إيوانه

ياسالب التِّيجان من أربابها ومن الثناء مصوغةٌ تيجانه

والحمد مالٌ أنتم بُذّاله والمال حمدٌ أنتم خزانه

قال: ثم إن صاحب الموصل أسرع عودته، وواصل لذّته، والحلبيون أوثقوا الأسباب، وغلقوا الأبواب، وسُقط في أيديهم، حين أفرطوا في تعديهم، وتهيئوا للحصار، وخافوا من البوار، وتبلدوا وتلددوا، وتجادلوا ثم تجلدوا.

وقال ابن سعدان الحلبي من جملة قصيدة: يهنئ بها السلطان بهذه الكسرة:

وما شك قوم حين قمت عليهم غداة التقى الجمعان أنك غالب

ولو لم تقد تلك المقانب لاغتدى لنفسك في نفس العدو مقانب

قال ابن أبي طيّ: وأما سيف الدين فإنه امتدت به الهزيمة إلى بزاعا، فأقام بها حتى تلاحق به من سلم من أصحابه، ثم خرج منها حتى قطع الفرات وصار إلى الموصل. وصار باقي عسكر حلب إلى حلب، في سابع شوال، في أقبح حال وأسوئه، عراةً حفاةً فقراء، يتلاومون على نقض الأيمان والعهود.

وخاف أهل حلب من قصد السلطان لهم، فأخذوا في الاستعداد للحصار؛ وجاء السلطان وخيّم عليها أياماً، ثم قال: الرأي أن نقصد ماحولها من الحصون والمعاقل والقلاع فنفتحها، فإنا إذا فعلنا ذلك ضعف حلب وهان أمرها. فصوّبوا رأيه، فتزلوا على بزاعة، فتسلّمها بالأمان، وولاها عز الدين خشترين الكردي.

فصل في فتح جملة من البلاد حوالي حلب

قال العماد: ثم نزل السلطان على حصن بُزاعة وتسلّمه في الثاني والعشرين من شوال، ثم فتح منبج في التاسع والعشرين منه، وكان فيها الأمير قطب الدين ينال بن حسّان، والسلطان لايناله به إحسان، بل

كان في جرّ عسكر الموصل إليه أقوى سبب، ولايحاذقه ولايحفظ معه شرط أدب، ويواجهه بما يكره. فسلّم القلعة بما فيها، وقوّم ما كان سلمه بثلاثمائة ألف دينار، منها عين ونقود، ومصوغ، ومطبوع، ومصنوع، ومنسوج، وغلات؛ وسامه على أن يخدم، فأبى وأنف، وكبرت نفسه، فتعب سرُّه، وذهب ماجمعه. ومضى إلى صاحب الموصل فأقطعه الرَّقة، فبقى فيها إلى أن أخذها السلطان منه مرة ثانية في سنة ثمان وسبعين.

وقال العماد:

نزولك في منبج — على الظفر المبهج
ونجحك في المرتجى — وفتحك للمرتج
دليل على كلّ ما — تحاول أو ترتجي
أمورك فيما ترو — مُ واضحة المنهج
وشانيك دامي الشئو — ن منك، شقيّ، شجى
ومن كان في حصنه — ومن قبل لم يخرج
يقال له: ليس ذا — بعُشّك، قم فادرج
فرأيك يستنزل النُّ — جومُ من الأبرُج
فعجِّل عبور الفرات — وأسرِ، وَسِر، وادلُج
وعُجْ نحو تلك البلاد — وعن غيرها عرّج
فحران، والرّقتا — ن تاليتا منبج
وجَلَّ عن المسلمي — ن ليلهم المدّجى

قال ابن أبي طيّ: لما ملك السلطان منبج وتسلم الحصن صعد إليه وجلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره؛ فكان في جملة أمواله ثلاثمائة ألف دينار، ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة والذخائر ما يناهز ألفي ألف دينار. فحان من السلطان التفاتة فرأى على الأكياس والآنية مكتوبا يوسف، فسأل عن هذا الاسم، فقيل له: ولدٌ يحبُّه ويؤثره اسمه يوسف كان يدخر هذه الأموال له. فقال السُّلطان: أنا يوسُف وقد أخذت ماخُبئ لي. فتعجب الناس من ذلك.

قال: ولَّما فرغ من منبج نزل على عزاز ونصب عليها عدّة مجانيق، وجدّ في القتال وبذل الأموال.

قال العماد: ثمَّ نزل السُّلطان على حصن عزاز وقطع بين الحلبيين وبين الفرنج الجواز. وهو حصن منيع

رفيع، فحاصره ثمانية وثلاثين يوما. وكان السُّلطان قد أشفق على هذا الحصن من موافقة الحلبيين للفرنج، فإن الغيظ حملهم على مهادنة الفرنج وإطلاق ملوكهم الذّين تعب نور الدين رحمه الله تعالى في أسرهم، فرأى السُّلطان أن يحتاط على المعاقل، ويصُونها صون العقائل؛ فتسلّمها حادي عشر ذي الحجة بعد مدة حصارها المذكورة.

وقال العماد قصيدة، منها:

أعطاه ربّ العالمين دولة — عزّةُ أهل الدّين في إعزازها
حاز العُلا ببأسه وجوده — وهو أحق الخلق باجتيازها

بجده أفنى كنوزاً فني ال — ملوك في الجدّ على اكتنازها
مهلك أهل الشِّرك طرًّا: رُومها — أرمنها إفرنجها، إنجازها
تفاخر الإسلام من سلطانه — تفاخر الفرس بابراوازها
تَهَنَّ من فتح عزازٍ نصرة — أوقعت العداة في اعتزازها
واليوم ذلت حلب، فإنها — كانت تنال العزّ من عزازها
وحلب تنفي كمشتكينها — كما انتفت بغداد من قيمازها
برزت في نصر الهدى بحجَّة — وضوحُ نهج الحقّ في إبرازها
كم حاملٍ للرمح عاد مبديا — عجز عجوز الحيّ عن عكازها
ارفع حظوظي من حضيض نقصها — وعدِّ عَنْ هُمّازِها لُمّازها
والشعر لابد له من باعث — كحاجة الخيل إلى مهمازها

قال: وأغار عسكر حلب على عسكرنا في مدة مقامنا على عزاز، فأخذوا على غرّة وغفلة ما تعجلّوه، وعادوا؛ فركب أصحابنا في طلبهم فما أدركوا إلا فارساً واحدا، فأمر السلطان بقطع يده بحكم حرده. فقلت للمأمور، وذلك بمسمع من السلطان، تمهّل ساعة لعلّه يقبل مني شفاعة. ثم قلت: هذا لايحلّ، وقدرّك بلْ دينك عن هذه يجل. ومازلت أكرر عليه الحديث حتى تبسم، وعادت عاطفته ورحم، وأمر بحبسه، وسرّني سلامة نفسه.

ودخل ناصر الدين بن أسد الدين، وقال: ما هذا الفشل والوني، وإن سكتم أنت فما أسكت أنا. ودمدم

وزمجر، وغضب وزأر، وقال: لِمَ لايُقتلُ هذا الرّجل ولماذا اعتقل! فوعظه السّلطان واستعطفه، وسكّنَ غيظه وتعطفه، وتلا عليه: "وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخْرى". وأُطلق سراحه، وتمَّ في نجاته نجاحه.

فصل في وثوب الحشيشية على السلطان مرة ثانية على عزاز، وكانت الأولى على حلب

قال العماد: وفي حادي عشر ذي القعدة قفز الحشيشية على السلطان ليلة الأحد وهو نازل على عزاز. وكان للأمير جاولي الأسدي خيمة قريبة من المنجنيقات، وكان السلطان يحضر فيها كلّ يوم لمشاهدة الآلات وترتيب المهمات، وحضّ الرّجال، والحث على القتال؛ وهو بارٌ ببث أياديه، قارٌ على الدهر بكف عواديه؛ والحشيشية في زي الأجناد وقوف، والرّجال عنده صفوف، إذ قفز واحدٌ منهم فضرب رأسه بسكينه، فعاقته صفائح الحديد المدفونة في لمته عن تمكينه، ولفحت المدية خدّه فخدشته. فقوّى السّلطان قلبه، وحاش رأس الحشيش إليه وجذبه، ووقع عليه وركبه، وأدركه سيف الدين يازكزج فأخذ حشاشة الحشيشي وبضعه، وقطعه؛ وجاء آخر، فاعترضه الأمير داود بن منكلان فمنعه، وجرحه الحشيشي في جنبه، فمات بعد أيام، وجاء آخر، فعانقه الأمير علي بن أبي الفوارس وضمه من تحت إبطيه، وبقيت يدُ الحشيشي من ورائه لايتمكن من الضرب، ولايتأتى له كشف ماعراه من الكرب؛ فنادى: عليّ اقتلوني معه فقد قتلني، وأذهب قوّتي وأذهلني؛ فطعنه ناصر الدين بن شيركوه بسيفه. وخرج آخر من الخيمة منهزما، وعلى الفتك بمن يعارضه مُقْدما، فثار عليه أهل السوق فقطعوه.

وأما السلطان فإنه ركب وجاء إلى سرادقه وقد خرعه الحادث، وفزعه الكارث، وصوته جهوري، وزئيره قسوّري، ودم خده سائل، وعطف روعه مائل، وطوق كزاغنهد بتلك الضربة مفكوك، ونهج سلامته مسلوك. وكان سلا سلامته وأقام القوم قيامته، ومن بعد ذلك رعب ورهب، واحترز واحتجب، وضرب حول سرادقه على مثال خشب الخركاة تأزيرا، ووقفه تحجيرا؛ وجلس في بيت الخشب، وبرز للناس كالمحتجب، وماصرف إلا من عرفه، ومن لم يعرفه صرفه، وإذا ركب وأبصر مَنْ لايعرفه في موكبه أبعده ثم سأله عنه، فإن كان مستسعفا أو مستسعدا أسعفه وأسعده.

ومن كتاب فاضل إلى العادل: السلامة شاملة، والرّاحة بحمد الله للجسم الشريف الناصري حاصلة، و لم ينله من الحشيشي الملعون إلا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة، انقطعت لوقتها، واندملت لساعتها؛ والركوب على رسمه، والحصار لأعزاز على حكمه؛ وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدرا، ولا ما يشغل سراً.

وقال ابن أبي طيّ: لما فتح السلطان حصن بزاعة ومنبج أيقن من بحلب بخروج مافي أيديهم من المعاقل

والقلاع، فعادوا إلى عادهم في نصب الحبائل للسلطان. فكاتبوا سناناً صاحب الحشيشية مرة ثانية، ورغبوه بالأموال والمواعيد، وحملوه على إنفاذ من يفتك بالسلطان. فأرسل، لعنه الله، جماعة من أصحابه فجاءوا بزي الأجناد، ودخلوا بين المقاتلة وباشروا الحرب وأبلوا فيها أحسن البلاء، وامتزجوا بأصحاب السلطان لعلهم يجدون فرصة ينتهزونها. فبينما السلطان يوماً جالس في خيمة جاولي، والحرب قائمة والسلطان مشغول بالنظر إلى القتال، إذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه، وكان رحمه الله محترزاً خائفاً من الحشيشية، لاينزع الزردية عن بدنه ولاصفائح الحديد عن رأسه؛ فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئا لمكان صفائح الحديد وأحس الحشيشي بصفائح الحديد على رأس السلطان فسبح يده بالسكينة إلى خد السلطان فجرحه وجرى الدم على وجهه؛ فتتعتع السلطان بذلك.

ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه، ووضعه على الأرض وركبه لينحره؛ وكان من حول السلطان قد أدركهم دهشة أخذت عقولهم.

وحضر في ذلك الوقت سيف الدين يازكوج، وقيل إنه كان حاضرا، فاخترط سيف وضرب الحشيشي فقتله. وجاء آخر من الحشيشية أيضا يقصد السلطان، فاعترضه الأمير داود بن منكلان الكردي وضربه بالسيف، وسبق الحشيشي إلى ابن منكلان فجرحه في جبهته، وقتله ابن منكلان، ومات ابن منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيا. وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير علي بن أبي الفوارس فهجم على الباطني ودخل الباطني فيه ليضربه فأخذه علي تحت إبطه، وبقيت يد الباطني من ورائه لايتمكن من ضربه، فصاح علي: اقتلوه واقتلوني معه، فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه فطعن بطن الباطني بسيفه، ومازال يُخضخضه فيه حتى سقط ميتا ونجا ابن أبي الفوارس. وخرج آخر من الحشيشية منهزما، فلقيه الأثير شهاب الدين محمود، خال السلطان فتنكب الباطني عن طريق شهاب الدين فقصده أصحابه وقطعوه بالسيوف.

وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سرادقه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاحتراز، وضرب حول سرادقه مثال الخركاه، ونصب له في وسط سرادقه برجا من الخشب كان يجلس فيه وينام، ولايدخل عليه إلا من يعرفه، وبطلت الحرب في ذلك اليوم، وخاف الناس على السلطان.

واضطرب العسكر وخاف الناس بعضهم من بعض، فألجأت إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس، فركب حتى سكن العسكر، وعاد إلى خيمته.س وأخذ في قتال عزاز فقاتلها مدة ثمانية وثلاثين يوماً حتى عجز من كان فيها وسألوا الأمان، فتسلمها حادي عشر ذي الحجة، وصعد إليها وأصلح ماتهدّم منها، ثم أقطعها لابن أخيه تقيّ الدين عمر.

وكانت عزاز أولا للجفينة غلام نور الدين، فلما ملك السلطان منبج أخذها منه الملك الصالح وقوّاها لعله

يحفظها من الملك الناصر، فلم يبلغ ذلك.

ولما فرغ السلطان من أمر عزاز حقد على من بحلب لما فعلوه من أمر الحشيشية، فسار حتى نزل حلب، خامس عشر ذي الحجة، وضربت خيمته على رأس الياروقية فوق جبل جوشن وجبى أموالها وأقطع ضياعها، وضيق على أهلها، و لم يفسح لعسكره في مقاتلتها، بل كان يمنع أن يدخل إليها شئ أو يخرج منها أحد.

وكان سعد الدين كمشتكين في حارم، وكانت إقطاعه في يد نوابه، وكان انتزعها من يد أولاد الداية بعد أن عصى نائبها.

وكان سبب خروجه إليها أنّ السلطان لما نزل على عزاز خاف كمشتكين أن ينتقل منها إلى حارم، فخرج إليها، فلما نزل السلطان على حلب ندم كمشتكين على كونه خارجا في حارم، وخاف أن يجري بين السلطان وبين الأمراء الحلبيين صلح فلا يكون له فيه ذكر ولااسم. فراسل السلطان يتلطف معه الحال ويقول: لو فسح لي في الدخول إلى حلب لسارعت في الخدمة وأصلحت الأمر على مايرومه السلطان.

وراسل أيضا الملك الصالح والأمراء بحلب يقول لهم: قد حصلت خارجاً وقد بلغتني أمورٌ ولابدّ من طلبي من الملك الناصر ليأذن لي في الصيرورة إليكم، فإن الذي قد حصل عندي لايمكنني الكلام فيه. فراسل الملك الصالح السلطان في الأذن له في الدخول إلى حلب، فأذن له؛ وطلبوا الرهائن منه، فأنفذ السلطان إليهم رهينة شمس الدين بن أبي المضاء الخطيب والعماد كاتب الإنشاء، وأنفذوا من حلب إلى السلطان رهينةً نصرة الدين ابن زنكي.

وحكى العماد الكاتب قال: لما حصلنا داخل حلب أُخذنا برأي العدل ابن العجمي وجعلنا في بيت ومنع منا غلماننا، و لم يُحضر لنا طعام ولامصباح، وبتنا في أنكد عيش.

وفي تلك الليلة دخل كمشتكين إلى حلب، فلما أصبحوا أُحضرت أنا وابن أبي المضاء إلى الملك الصالح، وكان عنده ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود وجماعة من أرباب الدولة، وكان صاحب الكلام العدل ابن العجمي، فأخذ يتحدث بلثغته، ويترجم بلكنته، ويضرب صفحا عني، ويوهم الجماعة أني وأني.

وما درى الغِمرُ بأني امرؤ — أُميّز التبر من الترب
قد عارك الأهوال حتى غدا — بين الورى كالصارم العضب
قد راضه الدّهر، فَلَوْ أمَّه — بخطبه ما ريع للخطب

قال: وعرضت نسخة اليمين علينا، وصرفنا و لم يلتفت إلينا.
فلما صار إلى السلطان وأخبراه بما جرى في حقهما من الهوان، علم أن ذلك كان حيلة عليه حتى دخل كمشتكين إلى حلب، فأطلق نصرة الدين وقاتل أهل حلب.
و لم يزل منازلا لحلب إلى انسلاخ سنة إحدى وسبعين وخمسمائة؛ ثم كان ما سيأتي ذكره.

فصل في بواقي حوادث هذه السنة ودخزل قرقوش إلى المغرب

قال العماد: وفي سابع شوّال وصل أخو السلطان شمس الدولة من اليمن إلى دمشق.
وذكر ابن شداد أنه قدم في ذي الحجة.
قلت: ولمّا سمع السلطان بقدُومه أرسل إليه بالمثال الفاضليّ كتابا أوّله: "أَنا يُوسُفُ وَهَذا أَخي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلْنَا". وقال في آخره: ولقد أحسن عدنان المبشر إذْ طلع علينا طلوع الفجر قبل شمسه، وغرس في القلوب ما يسرّنا ويسرّه جنى غرسه.
قال ابن أبي طيّ: كان سبب خروجه من اليمن كراهية البلاد، والشّوق إلى أخيه الملك الناصر، وأن يرى ملوك الشام وغيرها. وأمر للعساكر بما أنعم الله به عليه من النّعم والأموال.
قال: وحكى أنه لما تحدّث الناس بخروج شمس الدّولة من اليمن كان باليمن رجل يقال له عباس، وكان صهر ياسر بن بلال الحبشي صاحب عدن، وكان بين عباس وياسر عداوة، فافتعل عباس كتاباً على لسان ياسر وزوّر عليه علامته إلى زيد بن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه: إن شمس الدولة سائر إلى أخيه الملك الناصر إلى الشام، وسبب خروجه ضعفه عن اليمن؛ فأمسكوا ما كنتم تحملون إليه من الأتاوة والرشوة ويبقى لكم. واحتال حتّى وصل الكتاب إلى شمس الدولة، وكان نازلا على حصن يعرف بالخضراء يحاصره.
فلما وقف شمس الدولة على الكتاب استدعى ياسراً وقال له: هذا خطك وعلامتك؟ قال: كأنه هو. قال: فبأي شئ استحققت منك هذا وقد قرّبت مترلتك، وأبقيت عليك بلادك، ورفعت بضبعك على أهل إقليمك. وأراه الكتاب. فلما وقف عليه ياسر حلف أنه ماكتبه، ولايعرفه، ولااملاه لأحد، و لم يعلم خبره. فلم يصدقه شمس الدولة، وأمر به فقتل صبراً بين يديه. فهاب شمس الدولة ملوك اليمن وحملوا إليه الأموال وحلفوا له على الطاعة.
ثم إن شمس الدولة خرج إلى تهامة وتوجه إلى الشام واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ؛ وعثمان بن علي الزنجيلي على عدن؛ وتوجه إلى حضرموت ففتحها، واستناب عنه بها رجلا كرديا يسمى هارون، وكان مقامه بشبام واستمرّ الكردي بها مدة.

ثم أن صاحب حضرموت تحرّك وجمع، فقتل، وعاث هارون في تلك البلاد واستقام أمره. وولّي شمس الدولة ثغر تعزّ مملوكه وجعل إليه أمر الجند، وولّى قلعة بعكر مملوكه قايماز.

قال: وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة المواصلة وكسرهم، وكان شمس الدولة سبب الظفر، وأعطاه السلطان سرادق سيف الدين صاحب الموصل بما فيه من الفرش والأثاث والالات، وولاه دمشق وأعمالها والشّام، وأمره أن يكون في وجه الفرنج لأن السلطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج كعادهم.

قال: وفيها قتل صدّيق بن جولة صاحب بُصرى وصَرْخد، قتله ابنُ أخيه، وملك بعدهُ بُصْرى وصرخد شهورا، فكاتبه شمس الدولة أخو السلطان وحلف له على مايريده من إقطاع؛ واقترح شمس الدولة أن يكتب هو مايريده ليحلف عليه، فأنفذ من بُصْرى نسخة يمين كتبها قاضي بصرى، وكان قليل المعرفة بالفقه والتصرّف في القول، فلم يستقص فيها وجوه التأويل. فلما استوثق بها من شمس الدولة وخرج إليه تأوّل عليه شمس الدولة في اليمين وقبضه، ثم أقطعه عشرين ضيعة، ثم أخذها منه بعد أيام.

قال: وفيها عصى الأمير غرس الدّين قليج بتلّ خالد بسبب كلام جرى بينه وبين كمشتكين، فأنهد إليه من حلب عسكرا فحاصروه أياما، وسلم الحصن، وصلحت حاله.

قال ولما ملك شمس الدّولة اليمن سمت نفس ابن أخيه تقيِّ الدِّين إلى الملك وجعل يرتاد مكانا يحتوى عليه، فأُخبر أنَّ قلعة ازبري هي فم درب المغرب، وكانت خرابا فأشير عليه بعمارها، وقيل له متى عمرت وسكنها أجنادٌ أقوياء شجعان مُلِكَت برقة، وإذا ملكت برقة مُلك ماوراءها. فأنفذ مملوكه بهاء الدِّين قراقوش وقدّمه على جماعة من أجناده ومماليكه، فصاروا إلى القلعة المذكورة وشرعوا في عمارها.

واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فحدّثه عن بلاد الجريد وفزّان، وذكر له كثرة خيرها، وغزارة أموالها، وضعف أهلها، ورغبّه في الدخول إليها. فأخذ جماعة من أصحابه وسار في حادي عشر المحرّم من هذه السّنة، فكان يكمن النَّهار ويسير الليل مدّة خمسة أيام، وأشرف على مدينة أوجلة فلقيه ملكها وأكرمه واحترمه، وسأله المقام عنده ليعتضد به ويزوّجه بنته ويحفظ البلاد من العرب، وله ثلث ارتفاعها. ففعل قراقوش ذلك فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينار، فأخذ عشرة آلاف لنفسه وفرّق على رجاله عشرين ألفا.

وكان إلى جانب أوجلة مدينة يقال لها الأرزاقية، فبلغ أهلها صنيع قراقوش في أوجلة وأنه حرس غلالهم، فصاروا إليه ووصفوا له بلدهم وكثرة خيره وطيب هوائه، ورغبّوه في المصر إليهم على أنهم يملكونه عليهم. فأجاب على ذلك، واستخلف على أوجلة رجلا من أصحابه يقال له صباح ومعه تسعة فوارس

من أصحابه، فحصل لقراقوش أموال كثيرة.

واتفق أنّ صاحب أوجلة مات، فقتل أهل أوجلة أصحاب قراقوش، فجاء قراقوش وحاصرها حتى افتتحها عنوة وقتل من أهلها سبعمائة رجل، وغنم أصحابه منها غنيمة عظيمة، واستولى على البلاد.

ثمّ إن أصحابه رغبوا في الرّجوع إلى مصر وخشى قراقوش أن يقيم وحده فرجع معهم. فلمّ حصل بمصر طاب له المقام وثقل عليه العود، وزوّجه تقيّ الدّين بإحدى جواريه. وكان استناب بأوجلة وقال لأهلها أنا أمضى إلى مصر لتجديد رجال وأعود إليكم.

قال ابن الأثير: وفي ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين استوزر سيف الدّين صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن علي بن جمال الدّين الوزير، رحمهما الله تعالى، ومكنّه في ولايته، فظهرت منه كفاية لم يُظَّنها النَّاس، وبدا منه معرفة بقواعد الدّول وأوضاع الدّواوين، وتقرير الأمور والاطلاع على دقائق الحسبانات، والعلم بصناعة الكتابة الحسابية والإنشاء حيّرت العقول، ووضع في كتابة الإنشاء وضعا لم يعرفوه.

وكان عمره حين ولي الوزارة خمسا وعشرين سنة؛ ثمّ قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين وشفع فيه كمال الدين بن ينسان وزير صاحب آمد وكان قد زوجه بنته، فأُطلق وسار إليه. وبقي بآمد يسيرا مريضا، ثم فارقها، وتُوفي بدنيسر سنة أربع وسبعين، وحُمل إلى الموصل فدفن بها، ثمّ حُمل منها في موسم الحجّ إلى المدينة ودفن عند والده. وكان من أحسن الناس صورة ومعنىً، رحمه الله تعالى.

قال: ثمّ إن سيف الدين استناب دُزْدَاراً بقلعة الموصل الأمير مجاهد الدّين قايماز في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين، وردّ إليه أزمة الأمور في الحلّ والعقد، والرفع والخفض وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إربل وأعمالها ومعه فيها ولدٌ صغير لزين الدَّين على، لقبه أيضا زين الدِّين، فكان البلد لولد زين الدِّين اسماً لامعنى تحته، وهو لمجاهد الدِّين صورة ومعنىً.

قلت: وفيها في حادي عشر رجب توفيّ حافظ الشام أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر صاحب التاريخ الدمشقي رحمه الله تعالى، وحضر السلطان صلاح الدين جنازته ودفن في مقابر باب الصغير.

وفيها قدم دمشق أبو الفتوح عبد السَّلام بن يوسف بن محمد بن مقلد الدّمشقي الأصل البغدادي المولد التنوخي الجماهري الصوفي ابن الصوفي؛ ذكره العماد في الخريدة وقال: كان صديقي، وجلس للوعظ وحضر عنده صلاح الدين وأحسن إليه، وعاد إلى بغداد.

وذكر العماد من أشعاره مقطعات، منها في الحقائق، وأنشدها في مجلسه:

يامالكاً مُهجتي، يامنُتهى أملي	ياحاضراً شاهداً في القلب والفكر
خلقتني من تراب أنت خالقه	حتى إذا صرتُ تمثالاً من الصُّور

أجريت في قالبي رُوحاً منورة تمرُّ فيه كَجَرْيِ الماء في الشجر
جمعت بين صفا رُوحٍ منوّرة وهيكلٍ صنعته من معدنٍ كدر
إن غبت فيك فيا فخري وياشرفي وإن حضرت فيا سمعي ويابصري
أو احتجبت فسري منك في ولهٍ وإنْ خطرتُ فقلبي منك في خطر
تبدو فتمحوُ رسومي ثم تثبتُها وإن تغيبت عنّي عشتُ بالأثر

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

قال العماد: والسّلطان مقيم بظاهر حلب، فعرف أهلها أنّ العقُوبة أليمة، والعاقبة وخيمة. فدخلوا من باب التذلل، ولاذوا بالتوسل وخاطبوا في التّفضل، وطلبوا الصُّلح؛ فأجابهم، وعفا وعفّ، وكفى وكفّ؛ وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها، واستقرى كل عثرة لهم وأقالها؛ وأراد له الإعزاز، فرد عليه عزاز.

وقال ابن شداد: أخرجوا إليه ابنةً لنور الدين صغيرة سألت منه عزاز فوهبها إياها.

قال ابن أبي طيّ. لما تمّ الصلح وانعقدت الأيمان، عوّل الملك الصالح على مراسلة السلطان وطلب عزاز منه، فأشار الأمراء عليه بإنفاذ أخته، وكانت صغيرة، فأُخرجت إليه؛ فأكرمها السلطان إكراماً عظيماً، وقدم لها أشياء كثيرة، وأطلق لها قلعة عزاز وجميع مافيها من مال وسلاح وميرة وغير ذلك.

وقال غيره: بعث الملك الصالح أخته الخاتون بنت نور الدين إلى صلاح الدين في الليل فدخلت عليه، فقام قائماً وقبّل الأرض وبكى على نور الدين؛ فسألت أن يردّ عليهم أزاز فقال سمعا وطاعة، فأعطاها إياها وقدّم لها من الجواهر والتحف والمال شيئا كثيرا. واتفق مع الملك الصالح أنّ له من حماة وما فتحه إلى مصر، وأن يطلق الملك الصالح أولاد الداية.

قال العماد: وحلفوا له على كلّ ماشرطه، واعتذروا عن كلّ ما أسخطه. وكان الصُّلح عاماً لهم وللمواصلة وأهل ديار بكر؛ وكُتب في نسخة اليمن أنه إذا غدر منهم واحدٌ وخالف، ولم يفِ بما عليه حالف، كان الباقون عليه يداً واحدة، وعزيمة متعاقدة، حتى يفئ إلى الوفاء والوفاق، ويرجع إلى مرافقة الرّفاق.

فلما انتظم الصلح ذكر السلطان ثأره عند الاسماعيلية وكيف قصدوه بتلك البلية؛ فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرّم، فحصر حصنهم مصيات ونصب عليه المجانيق الكبار، وأوسعهم قتلاً وأسراً، وساق أبقارهم، وخرّب ديارهم، وهدم أعمارهم، وهتك أستارهم، حتّى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود

بن تكش صاحب حماة، وكانوا قد راسلوه في ذلك لأهم جيرانه، فرحل عنهم وقد انتقم منهم.

قال: وكان الفرنج قد أغاروا على البقاع، فخرج إليهم شمس الدّين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم، وهو متولي بعلبك ومقطع أعمالها، ومدبّر أحوالها، والمتحكم في أموالها، فقتل منهم وأسر أكثر من مائتي أسير، وأحضرهم عند السلطان وهو على حصار مصياث، فجدّد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث.

قال ابن أبي طيّ: وهذا أكبر الدواعي في مصالحة السلطان لسنان وخروجه من بلاد الاسماعيلية، لأن السلطان خاف أن هيج الفرنج في الشام الأعلى وهو بعيد عنه، فرُبما ظفروا من البلاد بطائل؛ فصالح سناناً وعاد إلى دمشق.

قال العماد: وكان قد خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الفرنج على الخروج، وباسطهم عند عين الجر في تلك المروج؛ ووقع من أصحابه عدّة في الأسار، منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار.

ووصل السلطان إلى حماة وقد استكمل الظَّفر، واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثاني صفر، وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر؛ وتعانق الأخوان في المخيّم بالميدان، وتحدّثا في الحدثان، وروعات الفراق، ولوعات الأشواق.

وكان قد وصل إلى السلطان من أخيه هذا عند مفارقته بلاد اليمن كتاب ضمنّه أبياتا أظنها من شعر ابن المنجم المصري، أولها:

الشوق أولع بالقلوب وأوجع   فَعَلَامَ أدفع منه مالا يُدفع

منها:

وحملتُ من وَجد الأحبة مفرداً   ماليس تحملِهُ الأحبّة أجمع
لايَسْتَقِرّ بيَ النّوى في موضع   إلا تقاضاني التّرَّحلَ موضع
فإلى صلاح الدين أشكو أنني   من بعده مُضْنَى الجوانح موجع
جزعا لبعد الدار منه، ولم أكن   لولا هواه، لبعد دارٍ أجزع

فلأركبنَّ إليه متن عزائمي   ويُخبّ بي ركبُ الغرام ويوضع
حتّى أشاهد منه أسعد طلعة   من أفقها صبح السعادة يطلع

قال العماد: فسألني السلطان أن أكتب له في جوابها على رَوِيها ووزنها، فقلت. فذكر قصيدة، منها:

مولاي شمس الدولة الملك الذي   شمس السيادة من سناه تطلع

مالي سواك من الحوداث ملجأُ مالي سواك من النّوائب مفزع

وَلأَنت فخر الدين فخري في العلا وملاذُ آمالي، ورُكني الأمنع

إلا بخدمتك المجلة موقعي والله ما للملك عندي موقع

وبغير قُربك كلُّ ما أرجوه من درك المُنى متعذر متمنع

للنَصَّرُ إن أقبلت نحوي مُقْبل واليمنُ إن أسرعت نحوي مسرع

قال: ثمّ سرنا إلى دمشق ووصلنا إليها سابع عشر صفر، وفوّض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظم شمس الدولة، وعزم إلى مصر السّفر.

فصل في ذكر جماعة من الأعيان تجدد لهم ما أقتضى ذكره في هذه السنة

قال العماد: في السادس من المحرّم توفيّ بدمشق القاضي كمال الدين بن الشهروزري، وعمره ثمانون سنة، لأن مولده في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة. وكان في الأيام النُّورية بدمشق هو الحاكم المتحكم، وصلاح الدين إذ ذاك يتولى الشحنكية بدمشق، وكمال الدين يعكس مقاصده بتوخيّه الأحكام الشرّعية، وربما كسر أغراضه، وأبدى عن قبوله إعراضه، ويقصد في كلّ مايعرض له اعتراضه، وكم صبر على جماعة بحلمه وراضه، إلى أنْ نقله الله سبحانه من نيابة الشحنكية إلى المُلك، وصار كمال الدين من قضاة ممالكه المنتظمة في السلك، وكان في قلبه منه مافيه، وما فرط منه فات وقت تلافيه. فلما ملك دمشق أجراه على حكمه، ولمْ يؤاخذه بجرُمه، واحترم نوّابه، وأكرم أصحابه، وفتح للشرّع بابه، وخاطبه واستحسن جوابه، ولم يزل يستفتيه ويستهديه، ويعرض على رأيه ما يعيده ويبديه.

وكان ابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشهرزوري قد هاجر إلى صلاح الدين بمصر في ريعان ملكه، وأذنت هجرته في درك إرادته بإدارة فلكه، وأنعم عليه هناك بجزيرة الذهب، ومن دار الملك بمصر بدار الذهب، ووفرَّ حظه من الذهب، وملكه داراً بالقاهرة نفيسةً جميلةً، جليَّة جليلة، ورتّب له وظائف، وخصّه بلطائف؛ ووصل مع صلاح الدين إلى الشام، وأمره جارٍ على النظام.

ولما أشتد بكمال الدين المرض، وكاد يفارق جوهره العرض، أراد أنْ يبقى القضاء في ذويه، فوّصى مع حضور ولده بالقضاء لضياء الدين ابن أخيه، علماً منه بأن السلطان يُمضي حُكمه لأجل سوالفه، ويجعله عنده من عوائد عوارفه. ومات ولم يخلف مثله، ومن شاهده شاهد العقل والفضل كلّه، بارًّا بالأبرار، مختاراً للأخيار، مكرما للكرام، ماضيا في الأحكام. وقد قوّاه نور الدين رحمه الله وولده في أيامه، وسدد مرامي مرامه.

وهو الذي سن دار العدل لتنفذ أحكامه بحضرة السلطان، فلا يبقى عليه مغمز ولا ملمز لذوي الشنآن. وهو الذي تولى له أبناء أسوار دمشق، ومداسها، والبيمارستان. فاستمرت عادته واستقرت قاعدته في دولة السلطان. وتوفي ونحن بحلب محاصرون.

وذكر العماد في الخريدة لابنه محييّ الدّين قصيدة في مرثيته منها:

أَلِمُّوا بِسَفْحِي قاسيون فسلموا على جدثٍ بادي السنا، وترحموا

وبالرغم مني أن أناجيه بالمنى وأسأل مع بعد المدى من يُسلم

لقد عدمت منك البرية والداً أحنّ من الأم الرؤف وأرحم

ولاسيما إخوان صدق بجلق همُ في سماء المجد والجود أنجم

نشرت لواء العدل فوق رؤسهم فما كان فيهم من يضام ويظلم

لقيت من الرّحمن عفوا ورحمة كما كنت تعفو، ماحييتَ، وترحم

قال العماد: وجلس ابن أخيه ضياء الدين مكانه، وأحسن إحسانه، وأبقى نُوّاب عمه، وأنفذ أحكامه بنافذ حكمه.

وكان الفقيه شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون قد هاجر من حلب إلى السلطان، وقد أنزله عنده بدمشق في ظل الإحسان، وهو شيخ مذهب الشافعي رضي الله عنه، والأقوم بالفتيا، وأعرفهم بما تقتضيه الشريعة من أمر الدين والدُّنيا، والسلطان يؤثر أن يفوّض إليه منصب القضاء، ولايرى عزل الضياء؛ فأفضى بسرّ مراده إلى الأجل الفاضل، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري يتعصب لشيخه، فاستشعر الضياء من العزل، وأشير عليه بالاستعفاء، ففعل، فأعفى وبقيت عليه الوكالة الشرعية عنه في بيع الأملاك.

قال العماد: وأول ما أشتريت منه بوكالة السلطان الأرض التي ببستان بقر الوحش التي بنيت فيها المواضع من الحمام والدور والاصطبل والخان، وكنت قد احتكرتها في الأيام النورية فملكتها في الأيام الصلاحية.

قلت: قد خرجت هذه الأماكن في سنة ثلاث وأربعين وستمائة بسبب الحصار، واستمرّ خرابها، وعفت آثارها، وصارت طريقاً على حافة بردى وأنت خارج من جسر الصفيّ خارج باب الفرنج ماراًّ إلى ناحية الميدان.

قال: فلما استعفى ضياء الدين بن الشهرزوري من القضاء لم يبق في منصب القضاء إلا فقيه يعرف بالأوحد داود بن إبراهيم بن عمر بن بلال الشافعي وكان ينوب عن كمال الدين، فأمره السلطان أن

يجري على رسمه، ويتصّرف في حكمه.
وكان السلطان لإحياء القضاء في البيت الزّكوي مؤثرا، ولذكر مناقبه مكثر، وقد سبق منه الوعد للشيخ شرف الدّين بن أبي عصرون وهو راج، وبطلب نجاز عِدَته مناج، ففوض إليه القضاء والحكم والإنفاذ والإمضاء، على أن يتولى محيي الدين أبو المعالي محمد بن زكي الدين، والأوحد، قاضيين في دمشق، يحكمان، وهما عن نيابته يوردان ويصدران؛ وتوليتهما بتوقيع من السلطان. ولم يزل الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون متولياً للقضاء، منفرداً بالحكم والإمضاء، سنة اثنتين وثلاث وسبعين في ولاية أخي السلطان الملك المعظم فخر الدين.
فلما عدنا إلى الشام تكلم الناس في ذهاب نور بصره، وأنه لايقوم في القضاء بورده وصدره، ففوض السلطان القضاء بالإشارة الفاضلية إلى ابنه محيي الدين أبي حامد محمد، كأنه نائب أبيه، ولا يظهر للناس صرفه عما هو متوليه. واستمر القضاء له إلى انقضاء أشهر من سنة سبع وثمانين، ثم صُرف واستقلّ به ابن زكي الدين، فأقام في مدّة ولايته للشرع القواعد والقووانين، وفوّض ديوان الوقوف بجامع دمشق وغيره من المساجد والمشاهد إلى أخيه مجد الدين بن الزكي، فتولاه إلى أن انتقل من أعمال الوقوف إلى موقف اعتبار الأعمال، وتوّلاها بعده أخوه محيي الدّين على الاستقلال، إلى آخر عهد السلطان وبعده.
قلت: وفيها في صفر وقف السلطان قرية حزم باللوى من حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليه الفقيه، أو من يحضر لسماع الدروس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزاهد نصر المقدسي رحمه الله تعالى، وعلى من هو مدرّسهم بهذا الموضع من أصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنه؛ وجعل النظر لقطب الدين النيسابوري رحمه الله.
ورأيت كتاب الوقف بذلك على هذه الصورة، وعليه علامة السلطان رحمه الله: "الحمد لله، وبه توفيقي".
قال العماد: وفيها في ليلة الجمعة الثاني عشر من صفر، ونحن في طريق الوصول إلى دمشق، توفي شمس الدين ابن الوزير أبي المضاء بدمشق، وهو أول خطيب بالديار المصرية للدولة العباسية. وكان يتولى الرسالة إلى الديوان العزيز، ويقصده الشعراء ويحضره الكرماء، فيكثر خلعهم وجوائزهم، ويبعث على مدحه غرائزهم. فحمل السلطان همه وقرّب ولده، وجبر بِتْربيته يُتْمه.
ثم تعين ضياء الدين بن الشهرزوري بعده للرسالة إلى الديوان، وصارت منصبا له ينافس عليه، واستتب له هذه السفارة إلى آخر العهد السلطاني، وذلك بعد المضي إلى مصر والعود إلى الشام، فإنه بعد خاطب في هذا المرام؛ فأما في هذه السنة فإنه كان في مسيرنا إلى مصر في الصحبة، وهو متردد إليّ بصفاء المحبة.

وفيها في آخر صفر تزوّج السلطان بالخاتون المنعوته عصمة الدين بنت الأمير معين أنر، وكانت في عصمة

نور الدين رحمه الله تعالى، فلما توفي أقامت في مترلها بقلعة دمشق، رفيعة القدر، مستقلة بأمرها، كثيرة الصدقات، والأعمال الصالحات. فأراد السلطان حفظ حرمتها، وصيانتها وعصمتها، فأحضر شرف الدين بن أبي عصرون وعُدُوله، وزوجه إياها بحضرتهم أخوها لأبيها الأمير سعد الدّين مسعود بن أنر بإذنها، ودخل بها وبات عندها، وقرن بسعده سعدها؛ وخرج بعد يومين إلى مصر.

وذكر العماد بعد وفاة ابن الشهرزوري وابن أبي المضاء الأمير مؤيد الدولة أبا الحارث أسامة بن مرشد بن سديد الملك أبي الحسن عليّ بن منقذ، وعوده إلى الشام عند علمه بوصول السلطان، فقال: هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء، والكرماء الكبراء، والسادة القادة العظماء، وقدمتعه الله بالعمر وطول البقاء؛ وهو من المعدودين من شجعان الشام، وفرسان الإسلام.

و لم تزل بنو منقذ ملاّك شيزر، وقد جمعوا الشيّادة والمفخر، ولما تفرّد بالمعقل منهم من تولاه، لم يرد أن يكون معه فيه سواه، فخرجوا منه في سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وسكنوا دمشق وغيرها من البلاد، وكلهم من الأجواد الأمجاد، وما فيهم إلا ذو فضل وبذل، وإحسان وعدل، وما منهم إلا من له نظمٌ مطبوع، وشعر مصنوع، ومن له قصيدة وله مقطوع.

وهذا مؤيد الدّولة أعرقهم في الحسب، وأعرفهم بالأدب؛ وكانت جرت له نبوة في أيام الدمشقين، وسافر إلى مصر وأقام هناك سنين، في أيام المصريين، فتمت نوبة قتل المنعوت بالظافر، وقتل عباس وزيرهم إخوته، وإقامة المنعوت بالفائز، وما صادف ذلك من الهزاهز. فعاد مؤيد الدوّلة إلى الشام، وسار إلى حصن كيفا وتوطن بها. ولما سمع بالملك الصلاحيّ جاء إلى دمشق، وذلك في سنة سبعين، وقال:

حمدت على طول عمري المشيبا	وإن كنت أكثرت فيه الذنوبا
لأني حييتُ إلى أن لقي	تُ بعد العدو صديقاً حبيبا

قال: وكنت أسمع بفضله وأنا بأصبهان في أيام الشبيبة. وأنشدني له مجد العرب العامري بأصفهان في سنة خمس وأربعين هذين البيتين، وهما من مبتكرات معانيه، في سنّ قلعها:

وصاحبٍ لم أَملَّ الدّهر صحبته	يشقى لنفعي ويسعى سَعي مجتهد
لم ألقه مُذْ تصاحبنا، فحين بدا	لناظري افترقنا فُرقة الأبد

قال: فلما لقيته بدمشق في سنة سبعين أنشدنيها لنفسه؛ مع كثير من شعره المبتكر من جنسه.

قلت: ومن عجيب مااتفق أني وجدت هذين البيتين مع بيتين آخرين، والمجموع أربعة أبيات، في ديوان أبي الحسين أحمد بن منير الأطرابلسي؟ ومات ابن منير سنة ثمان وأربعين وخمسمائة. قرأت في ديوانه: وقال في الضرس:

وصاحب لا أمل الدهر صحبته   يسقى وأجنى ضرّه بيدي

أدنى إلى القلب من سمعي ومن بصري   ومن تلادي، ومن مال، ومن ولدي

ثم قال:

أخلُو ببثِّي من خالٍ بوجنته   مداده زايد النقصير للمدد

لم ألقه مذ تصاحبنا... البيت فالأشبه أنّ ابن منير أخذهما وزارد عليهما، ولهذا غير فيهما كلمات. وقد وجدت هذا البيت الأول على صورة أخرى حسنة:

وصاحب ناصح لي في معاملتي

ويجوز أن يكون أسامة أنشدهما متمثلاً فنسبا إليه لما كان مظنة ذلك. ويجوز أن يكون اتفاقا، والله أعلم.

قال العماد: وشاهدت ولده عضد الدّين أبا الفوارس مرهفا وهو جليس صلاح الدّين وأنيسه وقد كتب ديوان شعر أبيه لصلاح الدّين، وهو لشغفه به يفضله على جميع الدوّاوين. ولم يزل هذا الأمير العضد مرهف مصاحباً له بمصر والشام، وإلى آخر عصره، وتوطن بمصر؛ فلما جاء مؤيد الدولة أبوه، أنزله أرحب مترل، وأورده أعذب منهل، وملكه من أعمال المعرّة ضيعة زعم أنها كانت قديما تجري في أملاكه، وأعطاه بدمشق داراً وإدراراً. وإذا كان بدمشق جالسه وآنسه، وذاكره في الأدب ودارسه.

وكان ذا رأي وتجربة، وحنكة مهذبة، فهو يستشيره في نوائبه، ويستنير برأيه في غيهبه؛ وإذا غاب عنه في غزواته، كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته، واستخرج رأيه في كشف مهماته، وحلّ مشكلاته. وبلغ عمره ستّا وتسعين سنة، فإن مولده سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وتوفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

وقد تقدم من أخباره في قتل الأسد في شيبته أيام كونه بشيزر، وذكرت له أيضا ترجمة حسنة في تاريخ دمشق.

فصل في رجوع السلطان إلى مصر

وخرج من دمشق يوم الجمعة، رابع شهر ربيع الأول.

قال العماد: ولما استتمت للسلطان بالشام أمور ممالكه، وأمن على مناهج أمره ومسالكه، أزمع إلى مصر الإياب، وقد أمحلت من بعده من جود جَود السحاب، وتقدمه الأمراء والملوك. وخرج بكرة الجمعة ونزل بمرج الصّفّر، ثم رحل عنه قبْل العْصر إلى قريب الصنمتين، وخرجت معه وقلبي مروع إلى أهلي، فما نزلت مترلا إلا نظمت أبياتاً. فقلت يوم المسير وقد عبرت بالخيارة:

أقول لِركبٍ بالخيارةِ نُزَّل — أثيروا؛ فما لي في المقام خيار
همُ رحلُوا عنك الغداة ومادَرَوْا — بأنهم قد خلفوك وساروا
حليف اشتياق لاترى من تحبّه — وفي القلب من نار الغرام أُوار
أجيروا من البلوى فؤادي فعندكم — ذمام له ياسادتي وجوار

وقلت وقد نزلنا بالفقيع:

رأيتني بالفقيع منفرداً أضْ — يع من فقع قاعها الضائع
بعت بمصر دمشق عن غرر — مني، فياغبن صفقة البائع
صبْري والقلبُ عاصيان، وما — غير همومي وأدمعي طائعي

وقلت بالفوّار:

تحّدر بالفوّار دمعي على الفوْر — فقلتُ لجيراني أجيروا من الجور
وأصعب مالاقيتُ أني قانع — من الطيف مذ بنتم بزور من الزور

وقلت بالزرقاء:

ولَم أنسَ بالزرقاء يوم وداعنا — أنامل تدمى حيْرةً للتندم
أعدتُك يازرقاء حمراءَ، إنني — بكيتك حتى شيب ماؤك بالدم
تأخر قلبي عندهم مُتخلفا — وخالفتهمُ في عزْمتي والتقدم
فيا ليت شعري هل أعود إليهم — وهل ليت شعري نافعٌ للمتيم

قال: وقلت وقد عبرنا على مسالك قريبة من قلعة الشوبك، وفيها تخطف الإفرنجُ القاصدين إلى مصر:

طريق مصر ضيّق المسْلك — سالكهُ لاشك في مهلك
وحب مصر صار جبا لمن — أوقعه في شبك الشوبك
لكنما من دونها كعبة — محجوجة مبرورة المنسك
بها صلاح الدين يُشكى الذي — إليه من أيامه يشتكى

قال: ونظمت في طريق مصر قصيدة مشتمله على ذكر المنازل بالترتيب، وإيراد البعيد منها والقريب. واتفق أن السلطان سير إلى مصر الملك المظفر تقي الدين، وكان لايستدعي من شاديه، إلا إنشادها في ناديه، ويطرب لسماعها، ويعجب بإبداعها، وكان قد فارق أهله بدمشق كما فارقت بها أهلي، وجمع الله بهم بعد ذلك شملي. وهي هذه.

هجرتكمُ لاعَنْ ملالٍ ولاغدْرٍ | ولكن لمقْدُور أُتيح منَ الأمر
وأعلم أني مخطئ في فراقكم | وعذري في ذنبي، وذنبي في عذري
أرى نُوباً للدّهر تُحصى ولا أرى | أشد من الهجران في نُوب الدهر
بعيني إلى لُقيا سِوَاكم غشاوةٌ | وسمعي عنْ نجوْى سواكم لذو وقر
وقلبي وصبري فارقاني لبُعدكم | فلا صبر في قلبي، ولاقلب في صدري
وإني على العهد الذي تعهدونه | وسرّي لكم سرّي، وجهري لكم جهري
تجرعت صرف الهمّ من كأس شوقكم | وها أنا في صحوي تريف من السّكر
وإن زماناً ليس يعْمر موْطني | بسُكْناكمُ فيه فليس من العمر
وأقسم لو لم يقسم البين بيننا | جوى الهمّ ما أمسيت مقتسم الفكر
أسير إلى مصر وقلبي أسيركمُ | ومِنْ عجبٍ أسري وقَلبيَ في أسر
أخلايَ قد شطّ المزار، فأرسلوا ال | خيال وزورُوا في الكرى واربحوا أجري
تذكرت أحبابي بجلق بعدما | ترحلت، والمشتاق يأنسُ بالذكر
وناديت صبري مستغيثاً فلم يجب | فأسبلت دمْعي للبكاء عَلَى صَبْري

ولمّا قصدنا من دمشق غباغبا | وبتنا من الشوق المُمِضّ على الجمر
نزلنا برأس الماء عند وداعنا | موارد من ماء الدموع التي تجري
نزلنا بصحراء الفقيع وغودرت | فواقع من فيض المدامع في الغدر
ونهنهت بالفوّار فيض مدامعي | ففاضت وباحت بالمكتَّم من سرّي
سرينا إلى الزرقاء، منها، ومن يصب | أواماً يَسِرْ حتى يرى الْوِرد أو يسري
تذكرت حمّام القُصير وأهله | وقد جزت بالحمام في البلد القفر
وبالقريتين القرْيتَين، وأين من | مغاني الغواني منزل الأدم والعفر
وَرَدْنا من الزيتون حسمي وأيلة | ولم نسترح حتى صدرنا إلى صدر
غشينا الغواشي وهي يابسة الثّرى | بعيدة عهد القطر بالعهد والقطر
وضنّ علينا بالنّدى ثمد الحصا | ومن يرتجى ريّاً من الثمد النّزْر

فقلت اشرحي بالخمس صدراً مطيّتي بصدر وإلا جادك النّيل للعشر
رأينا بها عيْن المواساة، إننا إلى عين موسى نبذل الزّاد للسّفر
وما حسرت عيني على فيض عبرةٍ أكفكفها حتى عبرنا على الجسر
وملِنْا إلى أرض السّدير وجنّة هنالك من طلحٍ نضيدٍ ومن سدر
وجبنا الفلا حتى أصبنا مباركا على بركة الجبّ المبشر بالقصر
ولمّا بدا الفسطاط بشرت رفقتي بمن يتلقي الوفد بالوفر والبشر
بكت أمّ عمرو من وشيك ترَّحلي فيا خجلتي من أمّ عمْرو وَمِنَ عمرو
تقول إلى مصر تصير! تعجبًّا وماذا الذي تبغي، ومنْ لك في مصر؟!
فقلت :ملاذي، الناصر، الملك الذي حصلت بجداوه على الملك والنّصر
فقالت :أقم لاتعدم الخير عندنا فقلت: وهل تغني السّواقي عن البحر
ثقي برجوع يضمن الله نجحه ولاتقتضي أنْ نُبْدل العُسر باليسر
عطيَّته قد ضاعفت مُنَّة الرّجا ونعمته قد أضعفت مُنَّة الشكر

قال: وكان الدخول إلى القاهرة يوم السبت سادس عشر ربيع الأول بالزي الأجمل والعزّ الأكمل.

وتلّقى السلطان أخوه ونائبه الملك العادل سيف الدين إلى صدر، وعبر إلينا عند بحر القلزم الجسر، وتلقانا خير مصر ووصلت إلينا ثمراهما، وجليت علينا زهراهما، فظهر بنا نشاطها، وزاد اغتباطها، ودخل السلطان داره، ووفق الله في جميع الأمور إيراده وإصداره.

وكانت قد صعبت عليّ مفارقة دمشق وأهلها، لقلة الوثوق بأني أحصل بمثلها؛ فنظمت يوم خروجي منها أبياتا إلى ناصر الدين محمد بن شيركوه، منها:

بمهجتي خنث العط ف مستلذ الدّلال
يقول لي بانكسارٍ ورقّةٍ واعتلال
معاتباً بحديثٍ أصفى من السلسال
ما مصر مثل دمشقٍ بعتَ الهدى بالضلال
فقلت عنّت أمورٌ عجيبة الأشكال
أسيرُ في طلب العزّ مثل سيْر الهلال
لم يبلغ البدرُ لولا ال مَسيرُ أوجَ الكمال

وكيف أترك شغلي وإنه رأس مالي
صلاح الدين حالي صلاح الدّ ين الغزير النّوال
مالي أفارق مَلْكاً ملكته آمالي
ياناصر الدّين: قلبي عليه في بلبال

ثم ذكر العماد المحسنين إليه بالقاهرة، وسيّدهم المولى الأجل الفاضل؛ وقد مدحه بقصيدة منها:

كيف لايفتدى لي الدهر عبدا وأنا عبدُ عبدِ عَبدِ الرّحيم
بدوام الأجل سيّدنا الفا ضل يادولة الأفاضل دومي
إذ أراه ينوب عني لدى المل ك مناب الأرواح عند الجسوم

مالك الحلّ في الممالك والعق د وحكم التحليل والتحريم
مُعْمِلٌ للنفاذ في كلّ قطر قلماً حاكماً على إقليم
يتلقى الملوكُ في كل أرض كتبه القادمات بالتعظيم
ناحل الجسم، ذو خطاب به يصغ ر للدهر كلٌّ خطب جسيم

ثم ذكر الأخوين تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاه، وهما أبنا أخي السلطان، وهو شاهنشاه بن أيوب، وهمام الدين بزغش الشنباشي والى القاهرة. ومدح فرخشاه بقصيدة حسنة، منها:

شادنٌ كالقضيب لدْن المهزه سلبت مقلتاه قلبي بغمزه
كلّما رُمْت وصله رام هجري وإذا زدتُ ذلة زاد عزه
للصبا من عذاره نسج حُسن رقم المسك في الشقائق طرزه
وعزيزٌ عليّ أن أصطباري فيه قد عزه الغرام وبزه
مارأى ما رأيت مجنونُ ليلى في هواه، ولا كثير عَزّه
ما ذكرنا الفسطاط إلا نسينا ما رأينا بالنيْربين والأرزْه
ونصيري عليه نائل عز الد ين ذي الفضل، خلّد الله عزه
فرّغ الكنز من ذخائر مالٍ مالئاً من نفائس الحمد كنزه
همةٌ مستهامة بالمعالي للدِّنايا أبيّة مشمئزه

قال العماد: وتوفرنا على الاجتماع في المغاني لاستماع الأغاني، والتنزه في الجزيرة والجيزة، والأماكن العزيزة، ومنازل العزّ والروضة، ودار الملك والنيل والمقياس، ومراسي السفن، ومجاري الفلك والقصور بالقرافة، وربوع الضيافة، ورواية الأحاديث النبوية، والمباحثة في المسائل الفقهية، والمعاني الأدبية.

قال: واقترحنا على القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري أن يفرجنا في الأهرام، فقد كنا شغفنا بأخبارها في الشام؛ فخرج بنا إليها، ودرنا تلك البرابي والبراري، والرمال والصحاري، وأحمدنا المقارّ والمقاري؛ وهالنا أبو الهول، وضاق في وصفه مجال القول؛ ورأينا العجائب، وروينا الغرائب، واستصغرنا في جنب الهرمين كلَّ ما استعظمناه، وتداولنا الحديث في الهرم ومن بناه، فكلٌ يأتي في وصفهما بما نقله، لابما عقله، واجتهدوا في الصعود إليه فلم يوجد من توقله، وحارت العقول في عقوده، وطارت الأفكار عن توّهم حدوده؛ فياله من مولود للدهر قبل الطوفان، انقرضت القرون الخالية على آبائه وجدوده، وسمار الأخبار يسمرون بذكر حديث أحداث عاده وثموده، ويُدل إحكامه وعلّوه على همة بانيه في بأسه وجوده. وإن في الأرض الهرمين كما أن في السماء الفرقدين، وهما كالطودين الراسخين، وكالجبلين الشامخين؛ قد فنيت الدُّهور وهما باقيان، وتقاصرت القصور وهما راقيان، وكأنهما لأُمّ الأرض ثديان، وعلى ترائب التراب نهدان، ولسلطان العالم علمان، وإلى مراقي الأملاك سُلمان، وهما لليل والنهار رقيبان، ولرضوي ولشمام نسيبان، ومن زحل والمريخ قريبان، ولعوادي الخطوب خطيبان، ولثور الفلك روقان، ولشخص الكرة الترابية سافان.

قلت: ثم ذكر العماد جماعة ممن كان يقيم الضيافة له ولمثله من الفضلاء والأعيان؛ فذكر منهم الناصح مؤدب أولاد السلطان، وله دارٌ مشرفة على النيل، وذكر منهم اللسان الصوفي البلخي، وكان له صحبة قديمو بنجم الدين أيوب والد السلطان، وله دارٌ أيضا على شاطئ النيل برسم ضيافة من نزل به.

قال: ثم وقف السلطان داره على الصوفية من بعده، وانتقل بعد سنين إلى النَّعيم وخُلده.

فصل في بيع الكتب وعمارة القلعة والمدرسة والبيمارستان

قال العماد: وكان لبيع الكتب في القصر كلّ أسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان وخزائنها في القصر مرتَّبة البيوت، مقسمة الرّفوف، مفهرسة بالمعروف. فقيل للأمير بهاء الدين قراقوش، متولي القصر، والحالّ والعاقد للأمر: هذه الكتب قد عاث فيها إلى أرضها؛ وهو تركيّ لاخبرة لهى بالكتب، ولادربة له بأسفار الأدب. وكان مقصود دلالي الكتب أن يكسوها، ويخرموها ويعكسوها. فأخرجت، وهي أكثر من مائة ألف، من أماكنها، وغُربت من مساكنها، وخرّبت أوكارها، وأذهبت أنوارها وشتت شملها، وبتُ حبلها، واختلط أدبيُّها بنجوميتها، وشرعيُّها بمنطقيها، وطبيُّها بهندسيِّها، وتواريخها بتفاسيرها،

ومجاهيلها بمشاهيرها.

وكان فيها من الكتب الكبار، وتواريخ الأمصار، ومصنفات الأخبار، ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءاً مجلدا، إذا فقد منها جزءٌ لايخلف أبدا. فاختلطت واختبطت، فكان الدلال يخرج عشرة عشرة من كل فن كتباً مبترة، فتسام بالدون، وتباع بالهُون؛ والدلال يعرف كلّ شدة، وما فيها من عدة، ويعلم أن عنده من أجناسها وأنواعها، وقد شارك غيره في ابتياعها، حتى إذا لفق كتاباً قد تقوم عليه بعشرة، باعه بعد ذلك لنفسه بمائة.

قال: فلما رأيت الأمر حضرت القصر، واشتريت كما أشتروا، ومريت الأطباء كما مروا، واستكثرت من المتاع المبتاع، وحويت نفائس الأنواع. ولما عرف السلطان ما ابتعته، وكان بمئتين، أنعم عليَّ بها، وأبرأ ذمَّتي من ذهبها؛ ثم وهب لي أيضا من خزانة القصر ما عينت عينه من كتبها.

ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من القصر، وهو ينظر في بعضها، ويبسط يدي لقبضها، وقال: كنت طلبت عينتها، فهل في هذه منها شئ؟ فقلت: كلها، وما أستغنى عنها، فأخرجتها من عنده بجمال، وكان هذا منه بالإضافة إلى سماحه أقل نوال.

قال: وكان السلطان لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكلّ واحدة منهما سور لايمنعها، فقال: إن أفردت كلّ واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها، وإني أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطئ إلى الشاطئ.

وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم، وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم. ووجدت في عهد السلطان بيتاً رفعه النواب، وأكمل فيه الحساب، ومبلغه، وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل، تسعة وعشرون ألفا وثلاثمائة ذراع وذراعان؛ من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطئ النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدوة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعا، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع، ودائر القلعة بجبل مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع. وذلك طول قوسه في أبدانه وأبراجه من النيل إلى النيل، على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع الهاشمي بتولي الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي.

وبنى القلعة على الجبل، وأعطاها حقها من إحكام العمل، وقطع الخندق وتعميقه وحفر واديه وتضييق طريقه. وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة، فاشتملت القلعة عليها ودخلت في الجملة.

وحفر في رأس الجبل بئراً يترل فيها بالدرج المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين، و لم يتأت له هذا كله في سنين متقاربة لولا أعانه ربُّه المعُين.

وتوفي السلطان وقد بقي من السور مواضع والعمارة فيه مستمرة، ووظائف نفقاها مستدرة.

قال: وأمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشلفعية ورتب قواعدها بفرط الألمعية، وتولاها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني، وهو الشيخ الصالح الفقيه الورع، التقيّ النقيّ.

قال: وأمر باتخاذ دارٍ في القصر بمارستاناً للمرضى، واستغفر الله تعالى بذلك واسترضى؛ ووقف على البيمارستان والمدرسة وقوفاً، وقد أبطل منكراً وأشاع معروفاً؛ وأضرب عن ضرائب فمحاها، وهبّ إلى مواهب فأسداها، واهتم بفرائض ونوافل فأداها.

فصل في خروج السلطن إلى الإسكندرية وغير ذلك من بواقي حوادث هذه السنة

قال العماد: ثمَّ خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، واستصحب ولديه الأفضل عليَّاً والعزيز عثمان، وجعل طريقه على دمياط، ورأى في الحضور بالثغر ومشاهدته الاحتياط، وكان له بها سبيّ كثير جلبه الأسطول، فامتد مقامه بظاهر البلد يومين، ووهب لي منه جارية.

ثمَّ وصلنا إلى ثغر الإسكندرية وترددنا مع السلطان إلى أخيه الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي، وداومنا الحضور عنده، واجتلينا من وجهه نور الايمان وسعده؛ وسمعنا عليه ثلاثة أيام، الخميس والجمعة، والسبت، رابع شهر رمضان، واغتنمنا الزمان، فتلك الأيام الثلاثة هي التي حسبناها من العمر، فهي آخر ما اجتمعنا به في ذلك الثغر.

وشاهدنا ما استجده السلطان من السُّور الدائر، وما أبقاه من حسن الآثار والمآثر؛ وما انصرف حتى أمر بإتمام وتعمير الأسطول.

قال ابن أبي طيّ: ولما نوى السُّلطان المقام بالإسكندرية ليصوم فيها رأى أنه لايخلي نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين، فرأى الأسطول وقد أخلقت سفنه وتغيرت آلاته، فأمر بتعمير الأسطول وجمع له من الأخشاب والصّناع أشياء كثيرة. ولما تمَّ عملُ المراكب أمر بحمل الآلآت، فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج إليه، وشحنه بالرجال، وولّى فيه أحد أصحابه، وأفرد له إقطاعا مخصوصا وديوانا مفردا، وكتب إلى سائر البلاد يقول، القولُ قولُ صاحب الأسطول، وأن لايمنُع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الأسطول أن لايبارح البحر، ويغرى إلى جزائر البحر.

قال العماد: وقلت في معنى تنقلي في البلاد:

يوماً بحيّ، ويوماً في دمشق، وبال فُسطاط يوماً، ويوماً بالعراقين
كأن جسمي وقلبي الصبّ ما خلقا إلا ليُقتسما بالشوق والبين

وقلت يوم الخروج من القاهرة:

يا باخلاً عند الوداع بوقفة لو سامني روحي بها لم أبخل
ماكان ضرك لو وقفت لسائل ترك الفؤاد بدائه في المنزل
هلاّ وقفت لقلب من أحرقته مقدار إطفاء الحريق المشعل
إن أسر مرتجلاً ففي أسر الهوى قلبي لديك، مقيداً لم يرحل
عذب العذاب لدى فؤاد المبتلي إذ كنت أنت معذبي والنبتلى

وقلت وقد نزلنا بين منية غمر ومنية سمنود:

نزلت بأرض المنيتين ومنيتي لقاؤكم الشافي ووصبكم المجدي
سأبلي ولاتبلي سريرة ودكم وتؤنسني إن مت في وحشة اللحد

قال: وعدنا من ىبالإسكندرية في شهر رمضان، فصمنا بقية الشهر بالقاهرة، والسلطان متوفر في ليله ونهاره، على نشر العدل وإنشاره، وإفاضة الجود واغزاره، وسماع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأخباره، وإشاعة العلم والإعلان بأسراره، وإبداء شعار الشرع وإظهاره، وإبقاء المعروف على قراره، وإعدام أعلام الباطل وإنكاره.

وقال: ومن مدائحي في السلطان ما أنشدته إياه سادس شوال:

فديتك من ظالم منصف وناهيك من باخل مسرف
أيبلغ دهري قصدي وقد قصدت بمصر ذرا يوسف
ويوسف مصر بغير التقى وبذل الصنائع لم يوصف
فسر وافتح القدس واسفك به دماءً متى تجرها ينظف
وأهد إلى الأسبتار البتا ر وهدّ السقوف على الأسقف
وخلّص من الكفر تلك البلاد يخلصك الله في الموقف

قال: وفيها وصل رُسُل المواصلة وصاحبي الحصن وماردين إلى دمشق فاستوثقوا بتحليف أخي السلطان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، ثم قصدوا مصر، ووقع رسول صاحب حصن كيفا في الأسر.

قال ابن أبي طيّ: وصل رسول الموصل القاضي عماد الدين بن كمال بن الشهرزوري بهدية قود، فخرج

الموكب إلى لقائه، وأكرمه السلطان واحترمه؛ وقدم بعده رسول نور الدين قرا أرسلان ورسول صاحب ماردين، بهدايا، واجتمعوا في دمشق، وخرجوا إلى السلطان بمصر، فاعترضهم الفرنج، فأسر رسول صاحب الحصن، ولم يزل في الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان فأطلقه وأحسن إليه: قال: وفيها رجع قراقوش إلى أوجلة وتلك البلاد، فجمع أموالاً ورجع إلى مصر، ثم أراد الرجوع فمنعه العادل، ثم خلصه فرخشاه فرجع وفتح بلاد فزّان بأسرها.

قال العماد: ثم خرج السلطان إلى مرج فاقوس، من اعمال مصر الشرقية، لإرهاب العدوّ وهو يركب للصيد والقنص، والتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص. واقترح عليّ أن أمدح عز الدين فرخشاه بقصيدة موسومة، ألزم فيها الشين قبل الهاء؛ فعملت ذلك في أواخر ذي الحجة، فقلت:

مولاي عزَّ الدين فرخشه	الدهر من يَرْجُك لايخشه
تلقاه سمح الكف، دفاقها	طلق المحيَّا كرماً، بشه
إن شئت فوتاً بالرّدى فالقه	أو شئت فوزاً بالعلا فاغشه
يديم بالأيدي وبالأيد في	خزى لهاه والعدا بطشه
كم ملكٍ عاداكم لم يبت	إلا جعلتم عرشه نعشه
خوفتم الشرك، فلا قمصه	أمنتَّم يوما ولا فنشه
اورثك السؤدد ياابن العلا	والداك السيد شاهنشه

وقال في الخريدة. كنا مخيمين بمرج فاقوس مصممين على الغزاة إلى غزة، وقد وصلت أساطيل ثغرى دمياط والإسكندرية بسبي الكفار، وقد أوفت على ألف رأس عدة من وصل في قيد الأسار؛ فحضر ابن رواحة منشداً مهنئاً بعيد النحر، سنة اثنتين وسبعين، ومعرضا بما وهبه الملك الناصر من الإماء والعبيد، قصيدة، منها:

لقد خبر التجارب منه حزم	وقلبّ دهره ظهراً لبطن
فساق إلى الفرنج الخيل برا	وأدركهم على بحر بسفن
وقد جلب الجواري بالجواري	يمدن بكل قدٍ مرجحن
يزيدهم اجتماع الشمل بؤساً	فمرنان تنوح على مرن
زهت إسكندرية يوم سيقوا	ودمياط، فما منيا بغبن

يرون خياله كالطيف يسري — فلو هجعوا أتاهم بعد وهن
أبادهم تخوفه، فأمسى — مناهم لو يبيتهم بأمن
تملك حولهم شرقا وغربا — فصاروا لاقتناص تحت رهن
أقام بآل أيوبٍ رباطا — رأت منه الفرنجة ضيق سجن
رجا أقصى الملوك السلم منهم — ولم ير جهده في البأس يغني

وفيها أبطل السلطان المكس الذي كان بمكة على الحاج، وسيأتي ذكره في أخبار سنة أربع وسبعين.

قال أبن الأثير: وفي سنة اثنتين وسبعين شرع مجاهد الدين، يعنى قايماز دزدار قلعة الموصل، في عمارة جامعه بظاهر الموصل بباب الجسر، وهو من أحسن الجوامع. ثم بني بعد ذلك الرباط، والمدرسة والبيمارستان، وكلها متجاورات.

قال: وتوفي في شهر ربيع الأول من سنة خمس وتسعين بقلعة الموصل، وهو متوليهل، والحاكم في الدولة الأتابكية النورية. وكان ابتداء ولايته القلعة في ذي الحجة، سنة إحدى وسبعين، ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين، وأعيد إلى ولايتها بعد الإفراج عنه، وبقي إلى الآن. وكان أصله من أعمال شبختان وأخذ منها وهو طفل. وكان عاقلا خيّرا، ديّنافاضلاً، تعلم الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، وكان يحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر والتواريخ شيئاً كثيرا، إلى غير ذلك من المعارف الحسنة. وكان يكثر الصوم، وله ورد يصليه كل ليلة ويكثر الصدقة. وبنى عدة جوامع منها الذي بظاهر الموصل، وبنى خانقاهات منها التي بالموصل، ومدارس وقناطر على الأنهار، إلى غير ذلك من المصالح؛ ومناقبه كثيرة.

قال العماد في الخريدة: نزلنا ببركة الجب لقصد فرض الجهاد، وعرض الأجناد؛ فكتب الأسعد بن مماتي إلى قصيدة في الملك الناصر، ويعرض بالشطرنج فإنه كان يشتغل به، وذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين:

ياكريم الخيم في الخيم — أهيف كالريم ذو شمم
عجبي للشمس إذ طلعت — منه في داج من الظلم
كيف لاتطمى لواحظه — ورماة الطرف في العجم
لاتصد قلب المحب لكم — لايحل الصيد في الحرم
ياصلاح الدين ياملكا — قد براه الله للأمم
أضحت الكفار في نقم — وغدا الإسلام في نعم

إن يك الشطرنج مشغلة لعليّ القدر والهمم
فهي في ناديك تذكرة لأمور الحرب والكرم
فلكم ضاعفت عدّتها بالعطاء الجمّ لاالقلم
ونصبت الحرب نصبتها فانثنت كفاك بالقمم
فابق للأقدار ترفعها وأمر الأقدار كالخدم

وفيها توفي بالإسكندرية القاضي الشريف أبو محمد عبد الله العثماني الديباجي من ولد الديباج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنهم، ويعرف بابن أبي إلياس، من بيت القضاء والعلم. وكان واسع الباع في علم الأحاديث، كثير الرواية، قيما بالأدب، متصرفا في النظم والنثر، إلا أنه مقلّ من النظم، أوحد عصره في علم الشروط، وقوله المقبول على كل العدول. ذكر ذلك العماد رحمه الله في الخريدة.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

والسلطان مخيم بمرج فاقوس، فنظم العماد في الأجل الفاضل قصيدة ميمية في منتصف المحرم، وخدمه بها هناك في المخيم أولها:

ريم هضيم يروم هضمي من سقم عينيه عين سقمي
ان رمت يا عاذلي صلاحي فخلني والهوى وزعمي
لومك يذكي الغرام قل لي انت نصيحي ام انت خصمي !
ايازماني الغشوم اقصر انك لا تستطيع غشمي
عبد الرحيم الرحيم اضحى عوني على خطبك الملم
الفاضل، الافضل، الاجل المفضل، الاشرف، الاشم
غيث غياث، وجود جود وبحر علم، وطود حلم
يرعاه في اليمين منه تستخرج الدر من خضم

قال: وكان عندنا بالمخيم بالعباسة، في المحرم علم الدين الشتاني، وهو من ادباء الموصل وشعرائها، وفصئاحها وظرفائها، وفد سنة اثنين وسبعين الى مصر، واهدى النظم والنثر، واصطنعه عز الدين

فرخشاه، وانزله في جواره، وجمع له من رفده ومن الامراء الف دينار، فمدح السلطان بالمخيم بكلمة، مطلعها:

غدا النصر معقوداً برايتك الصفراء فسر وافتح الدنيا، فأنت بها احرى

قلت: لم يذكر العماد من هذه القصيدة غير هذا البيت، وانه لقائم مقام قصائد كثيرة.

والشاتاني هو ابو على الحسن بن سعيد له ترجمة في تاريخ دمشق. وذكر العماد في الخريدة، وذكر فيها من هذه القصيدة:

يمينك فيها اليُمن واليُسر في اليُسرى فبُشرى لمن يرجو النّدى منهما بُشرى

قال العماد: وكانت الأعلام السلّطانية صُفراً، لايفارق نشرها نصراً.

قلت: وفيها يقول بعض الفضلاء:

إذا اسود خطب دونه الموت أحمر أتت بالأيادي البيض أعلامه الصّفر

وقد ظهرت منصوبة جزمت بها ظهور العدا من رفعها الخفض والجرّ

وأضحت تجوز الأرض شرقاً ومغربا ولله في إعلاءِ رتْبته سِرّ

وقال العماد: عاد السلطان إلى القاهرة وأقام بها، ثم اهتمت بالغزاة همتّه إلى غزة وعسقلان، فخرج يوم الجمعة ثالث جمادى الأولى بعد الصلاة، وخيم بظاهر بلبيس في خامسه، وبخميسه. ثم تقدمنا منه إلى السدير، وخيمنا بالمبرز، ثم نُودي: خذوا زاد عشرة أيام أخرى زيادة للاستظهار، ولإعواز ذلك عند توسط ديار الكفار.

قال: العماد: فركبت إلى سوق العسكر للابتياع، وقد أخذ السّعر في الارتفاع، فقلت لغلامي: قد بدا لي، وقد خطر الرّجوع من الخطر ببالي، فاعرض للبيع أحمالي وأثقالي، وانتهز فرصة هذا السّعر الغالي، وأنا صاحب قلم لاصاحب علم، وقد استشعرت نفسي في هذه الغزوة من عاقبة ندم؛ والمدى بعيد، والخطب شديد؛ وهذه نوبة السيّوف لانوبة الأقلام، وفي سلامتنا سلامة الإسلام؛ والواجب على كل منا أن يلزم شغله، ولايتعدّى حدّه، ولايتجاوز محلّه، لاسيما ونواب الدّيوان قد استأذنوا في العودة، وأظهروا قلّة العِدّة. وأظهرت سرّي للمولى الأجل الفاضل، فسرّه ذلك، إشفاقاً عليّ، وإحساناً إلىّ. وكان السّلطان أيضا يؤثر إيثاري، ويختار اختياري؛ فقال لي: أنت معنا أو عزمت أن تدعنا ولاتتبعنا؟ فقلت: الأمر للمولى، وما يختاره لي فهو أولى، فقال: تعّود وتدعو لنا، وتسأل الله أنْ يبلغنا من النّصر سؤلنا.

وكنت قد كتبت أبياتا إلى المخدوم الفاضل ونحن بالمبرز في العشرين من الشهر:

قيلَ في مصر نائلٌ عدد الرّم ... لِ، ووفرْ كنيلها الموفور
فاغتررنا بها وسرّنا إليها ... ووقعنا، كما ترى، في الغرور
وحظينا بالرّمل والسيّر فيه ... ومنعنا من نيلها الميسور
وبرزنا إلى المبرز نشكو ... سدرا من نزولنا بالسدير
قيل لي: سِر إلى الجهاد. وماذا ... بالغٌ في الجهاد جهدُ مسيري؟
ليس يقوى في الجيش جأشي، ولاقو ... سي موتورا إلى موتور
أنا للكتُب لاالكتائب إقدا ... مي، وللصُّحف لا الصفاح حضوري
كاد فضلي يضيع لولا اهتمامُ ال ... فاضل الفائض النّدى بأموري
فأنا منه في ملابس جاهٍ ... رافلاً منه في حبير حبور

فهو رقيّ من الحضيض حظوظي ... وسما بي إلى سرير السُّرور

وقال: وما انقطعت عن السلطان في غزواته إلافي هذه الغزوة، وقد عظَّم الله فيها من النبوة؛ وكانت غزوات السلطان بعدها مؤيدة، والسّعادات فيها مجددة.

وكنت لما فارقت القاهرة استوحشت، وتشوقت إلى أصدقائي وتشوشت، وكتبت من المخيم ببلبيس إلى القاضي شمس الدين محمد بن موسى المعروف بابن الفرّاش، وقد أقام بالقاهرة، وكان صاحباً لي من الأيام النورية، واستشرته في التأخر عن السلطان. فكتب في الجواب: رافقه ولاتفارقه، فكرهت رأيه، فكتبت إليه:

إذا رأيتم بمكروهي فذاك رضاً ... لاأبتغي غير ما تبغون لي غرضا
وإن رأيتم شفاء القلب في مرضي ... فإنني مُستطيبٌ ذلك المرضا
أنتم أشرتم بتعذيبي، فصرت له ... مُستعذباً، أستَلِذّ الْهمّ والمضضا
أصبحت ممتعظاً بي في محبتكم ... فحاش لله أن أبغى بكم عوضا
لله عيشٌ تقضَّى عندكم ومضى ... وكان مثل سحابٍ برْقهُ ومضا
العيش دان جناه الغضّ عندكم ... والقلبُ محترقٌ منيّ بجمر غضا
ماكنت أعهد منكم ذا الجفاء ولا ... حسبت أنّ ودادي عندكم رُفضا
قد أظلم الأفق في عيني لغيبتكم ... فإن أذنت لشخصي في الحضور أضا

ولست أول صبّ من أحبتَّه لمَّا جفوا ماقضى أو طاره، وقضى
مُروا بما شئتم من محنة وأذىً فقد رأيت امتثال الأمر مُعترضا
طوبى لكم مصرُ، والدارّ التي قضيت فيها المآرب، والعيش الذي خُفضا
بعيشكم إن خلوتم بانبساطكم تذكروا ضجراً بالعيش منقبضا
رضيتم سفري عنكم؛ وأعهد كم بسفرتي عنكم لاتظهرون رضا
هلا تكلَّفتم قولاً أُسرُّ به هيهات جوهركم قد عاد لي عرضا
تفضلوا واشرحوا صدري بقربكم أو فاشرحوا لي ذا المعنى الذَّي غمضا

فكتب إليَّ في جوابها أبياتاً، منها:

لاتنسبوني إلي إيثار بُعْدكم فلست أرضى إذا فاقتكم عوضا
ولي ودادٌ تولَّى الصدّق عقدته فما تراه على الأيام منتقضا
يلقاك قلبي على سبل العتاب له بصحَّة ٍليس يخشى بعْدما مرضا
وصرت كالدَّهر يجنى أهله أسفاً ويلتقي من عتاب المذنب المضضا

قال: ثمّ ودّعت وعُدْت، ونهضوا وقعدت.

فصل في نوبة كسرة الرملة

وكانت على المسلمين بالجملة، وذلك يوم الجمعة غرَّة جمادى الآخرة أو ثانية.

ورحل السلطان بعساكره فنزل على عسقلان يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى، فسبى وسلب، وغنم وغلب، وأسر وقسر، وكسب وكسر، وجمع هناك من كان معه من الأسرى فضرب أعناقهم، وتفرَّق عسكره في الأعمال مغيرين ومبيدين، فلما رأوا أن الفرنج خامدون استرسلوا وانبسطوا. وتوَّسط السُّلطان البلاد، واستقبل يوم الجمعة، مستهلّ جمادى الآخرة، بالرّملة، راحلاً لقصد بعض المعاقل، فاعترضه نهرٌ عليه تلّ الصافية فازدحمت على العبور أثقال العساكر المتوافية، فما شعروا إلا بالفرنج طالبةً بأطلابها، حازبةً بأحزابها، ذابَّةً بذئابها، عاويةً بكلابها، وقد نفر نفيرهم، وزفر زفيرهم؛ وسرايا المسلمين في الضياع مغيرة، ولرِحا الحرب عليهم في دورهم مديرة. فوقف الملك المظفرّ تقيّ الدّين وتلقاهم وباشرهم ببيضه وسُمره، فاستشهد من أصحابه عدَّة من الكرام، انتقلوا إلى نعيم دار المقام؛ وهلك من الفرنج أضعافها.

وكان لتقي الدين ولدٌ يقال له أحمد، أول ماطرّ شاربه، فاستشهد بعد أن أردى فارسا.

قال: وكان لتقي الدين أيضا ولد آخر، اسمه شاهنشاه، وقع في أسر الفرنج. وذلك أن بعض الفرنج بدمشق خدعه وقال له: تجئ إلى الملك وهو يعطيك الملك؛ وزّور كتابا فسكن إلى صدقه وخرج معه، فلما تفرد به شدّ وثاقه، وغلّه وقيَّده، وحمله إلى الداوية، وأخذ به مالاً، وجدد عندهم له حالا وجمالا؛ وبقي في الأسر أكثر من سبع سنين حتى فكّه السلطان بمال كثير، وأطلق للداوّية كلّ من كان لهم عنده من أسير؛ فغلط القلب التقوّى على ذلك الولد جرّ هلاك أخيه، ولما عاد من الغزوة زرناه للتعزية فيه.
قال: ولو أن لتقيّ الدين رداءًا لأردى القوم، لكن النّاس تفرقوا وراء أثقالهم، ثم نجوا برحالهم، وصوّب العدوّ بجملتهم حملتهم إلى السلطان، فثبت ووقف على تقدمه من تخلف. وسمعته يوماً يصف تلك النوبة، ويشكر من جماعته الصحبة، ويقول: رأيت فارساً يحثّ نحوي حصانه، وقد صوّب إلى نحري سنانه، فكاد يبلغني طعانه، ومعه آخران قد جعلا شأنهما شانه. فرأيت ثلاثة من أصحابي خرج كلّ واحد إلى واحد منهم فبادروه وطعنوه، وقد تمكن من قربي فما مكّنوه؛ وهم إبراهيم بن قنابر، وفضل الفيضي، وسويد بن غشم المصري، وكانوا فرسان العسكر وشجعان المعشر. وأتفق لسعادة السلطان أنّ هؤلاء الثلاثة رافقوه وما فارقوه، وقارعوا العدوّ دونه وضايقوه؛ فما زال السلطان يسير ويقف، حتى لم يبق من ظنّ أنه يتخلف.
ودخل الليل وسلك الرمل ولاماء ولادليل، ولاكثير من الزاد والعلف ولاقليل، وتعسفوا السلوك في تلك الرمال وأوعاث والأوعار، وبقوا أياماً وليالي بغير ماء ولازادٍ حتى وصلوا إلى الديار. وأذن ذلك بتلف الدّواب وترجل الركاب ولُغوب الأصحاب، وفقد كثير ممن لم يعرف له خبر، ولم يظهر له أثر. وفقد الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري وأخوه الظهير، ومن كان في صُحبتهم، فضّل الطريق عنهم، وكانوا سائرين إلى واره، فأصبحوا بقرب الأعداء، فأكمنوا في مغارة، وانتظروا من يدلهم من بلد الإسلام على عمارة. فدّل عليهم الفرنج من زعم أنه يدل بهم، وسعى في أسرهم وعطبهم، فأسروا، وماخلص الفقيه عيسى وأخوه إلا بعد سنين؛ بستين أو سبعين ألف دينار، وفكاك جماعة من الكفار.
قال: وما اشتدت هذه النوبة بكسرة، ولاعدم نُصرة، فإن النكاية في العدوّ وبلاده بلغت منتهاها، وأدركت كلٌّ نفسٍ مؤمنة مُشتهاها. لكن الخروج من تلك البلاد شتت الشمل، وأوعر السّهل، وسُلك مع عدم الماء والدليل والرمل.
ومما قدره الله تعالى من أسباب السّلامة، والهداية إلى الاستقامة، أن الأجل الفاضل استظهر في دخول بلاد الأعداء باستصحاب الكنانية والأدلاء، وأنهم ماكاونوا يفارقونه في الغداء والعشاء؛ فلما وقعت الواقعة خرج بدوابه، وغلمانه وأصحابه، وأدلائه وأثقاله، وبث أصحابه في تلك الرمال، والوهاد والتلال، حتى

أخذ خبر السلطان وقصده، وأوضح بأدلائه جدده، وفرّق ماكان معه من الأزواد على المنقطعين، وجمعهم في خدمة السلطان أجمعين؛ فسُهل ذلك الوعر، وأنس بعد الوحشة القفر، وجبر الكسر.

وكان الناس في مبدأ توجُّه السلطان إلى الجهاد، ودخول الأجل الفاضل معه إلى البلاد، ربما تحدثوا وقالوا لو قعد وتخلف كان أولى به، فإن الحرب ليست من دأبه. ثمّ عُرف أنّ السَّلامة والبركة والنجاة كانت في استصحابه.

وجاء الخبر إلى القاهرة مع نجابين فخلع عليهم وأركبوا، وأُشيع بأن السلطان نصره الله، وانّ الفرنج كسروا وغلبوا. فركبت لأسمع حديث النجّابين وكيف نصر الله المسلمين، وإذا هم يقولون: أبشروا فإن السلطان وأهله سالمون، وإنهم واصلون غانون. فقلت لرفيقي ما بُشر بسلامة السلطان إلا وقد تمت كسرة، وما ثمَّ سوى سلامته نُصرة.

ولما قرب خرجنا لتَّلقيه، وشكرنا الله على مايسره من ترقيه وتوقيه. ودخل القاهرة يوم الخميس منتصف الشهر، ونابت سلامته مناب الدّهر، وسيرنا بها البشائر، وأنهضنا ببطاقتها الطائر، لإخراس ألسنة الأراجيف، وإبدال التأمين من التخويف، فقد كانت نوبتها هائلة، ووقعتها غائلة.

وقال القاضي ابن شداد: خرج السلطان يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرّملة، وذلك في أوائل جمادى الأولى، وكان مقدم الفرنج البرنس أرناط، وكان قد بيع بحلب فإنه كان أسيراً بها من زمن نور الدين رحمه الله تعالى؛ وجرى خللٌ في ذلك اليوم على المسلمين. ولقد حكى السلطان، قدّس الله روحه، صورة الكسرة في ذلك اليوم، وذلك أنّ المسلمين كانوا قد تعَبَّوا تعبئة الحرب، فلما قارب العدوّ رأى بعض الجماعة أن تغير الميمنة إلى جهة الميسرة والميسرة إلى جهة القلب، ليكون حال اللقاء وراء ظهرهم تلٌ معروف بأرض الرّملة. فبينما اشتغلوا بهذه التعبئة هجم الفرنج، وقدّر اله كسرهم، فانكسروا كسرةً عظيمة؛ و لم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه، فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق وتبددوا، وأُسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى. وكان وَهَناً عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة؛ ولله الحمد.

قلت: وذلك بعد عشر سنين؛ فكسرة الرّملة هذه كانت في سنة ثلاث وسبعين، وكسرة حطين كانت في سنة ثلاث وثمانين.

قال العماد الكاتب: وحيث كانت للملك المظفر تقي الدين في هذه الغزوة اليد البيضاء، أنشدته قصيدة، منها:

سقى الله العراق وساكنيه وحيّاه حيا الغيث الهتون
وجيراناً أمنت الجور منهم ومافيهم سوى وافٍ أمين
صفوا والدهر ذو كدرٍ، وقدما وفوا بالعهد في الزمن الخئون
بنو أيوب زانوا الملك منهم بحليةِ سؤودٍ وتُقى ودين
ملوكٌ أصبحوا خير البرايا لخير رعيةٍ في خير دين
أسانيد السيادة عن علاهم مُعَنْعَنَةٌ مصححةُ المتون
بنو أيوب مثلُ قريش مجداً وأنت لها كأنزعها البطين
أخفت الشرك حتى الذّعر منهم يُرى قبل الولادة في الجنين
ويومَ الرّملة المرهوبَ بأساً تركت الشرك منزعج القطين
وكنتَ لعسكر الإسلام كهفاً أوى منه إلى حصن حصين
وقد عرف الفرنج لما رأوا آثارها عين اليقين
وأنت ثبت دون الدّين تحمى حماه أوان ولى كلُّ دين

قال: واهتم السلطان بعد ذلك بإفاضة الجود، وتفريق الموجود، وافتقاد الناس بالنقود، والسنايا الصادقة الوعود، وجبر الكسير، وفك الأسير، وتوفير العدد، وتكثير المدد، وتعويض مانفق من الدواب؛ فسلوا ماناهم، ولم يأسوا على ما أصابهم.

قال ابن أبي طيّ: وقال ابن سعدان الحلبيّ يمدح السلطان، ويذكر ما فعله على عسق لان، ويهوّن عليه أمر هذه الكسرة، من قصيدة:

قرَّبت من عسقلان كلّ نائبة باتت تقل بوكاف من الأسل
فاض النجيع عليها وهي ممُحلة فأصبحت موتعا للخيل والإبل
قل للفرنجية الخذلى: رويدكم بالثأر أو تخرج الشعري من الحمل
ترقبوها من الفوار طالعةً خوارق الأرض تمحور رونق الأصل
كأنني بنواصيهنّ يقدمها كاسٍ من الجود عريان من النجل
حَسِب العدا ياصلاح الدين حسبهم أن يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسان النحل ملتمسٌ مرّت على أصبعيه لذة العسل

فصل في وفاة كمشتكين وخروج السلطان من مصر بسبب حركة الفرنج

قال العماد: وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبري الملك الصالح، واستولى على أمره العدل ابن العجمي أبو صالح. وكان سعد الدّين كمشتكين الخادم مقدم العسكر، وأمير المعشر، وهو صاحب حصن حارم، وقد حسده أمثاله من الأمراء والخدام، فسلموا لابن العجمي الاستبداد بتدبير الدولة، فقفز عليه الاسماعيلية يوم الجمعة بعد الصلاة في جامع حلب فقتلوه.

واستقل كمشتكين بالأمر، فتكلم فيه حسّاده وقالوا للملك الصالح: ما قتل وزيرك ومشيرك ابن العجمي إلا كمشتكين فهو الذي حسن ذلك للاسماعيلية. وقالوا له: أنت السلطان وكيف يكون لغيرك حُكمٌ أو أمر! فما زالوا به حتى قبض عليه وطالبوه بتسليم قلعة حارم، وأوقعوا بها لأجله العظائم. فكتب إلى نوابه بها فنبوا وأبو، فحملوه ووقفوا به تحت القلعة، وخوّفوه بالصرعة، فلما طال أمره، قصر عمره، واستبد الصغار بعده بالأمور الكبار، وامتنعت عليه قلعة حارم، وجرد إليها العزائم. ونزل عليه الفرنج ثم رحلوا بقطيعةٍ بذلها لهم الملك الصالح واستنزل عنها أصحاب كمشتكين وولّى بها ملوكاً لأبيه يقال له سرخك.
وقال ابن الأثير: سار الملك الصالح من حلب إلى حارم ومعه كمشتكين، فعاقبه ليأمرَ من بها بالتسليم، فلم يجب إلى ماطلب منه، فعُلق منكوساً ودُخن تحت أنفه فملت؛ وعاد الملك الصالح عن حارم و لم يملكها. ثم أنه أخذها بعد ذلك.
قال ابن شداد: أما الملك الصالح فإنه تخبط أمره، وقبض كمشتكين صاحب دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه، فلم يفعل، فقتله. ولما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم، طمعاً فيها، وذلك في جمادى الآخرة، وقاتل عسكر الملك الصالح العساكر الفرنجية. ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأواخر من شهر رمضان. ولما عرف الفرنج بذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم، ثمّ عاد الصالح إلى حلب، و لمْ يزلْ أصحابه على اختلاف يميل بعضهم إلى جانب السلطان قدّس الله روحه.
قال العماد: ووصل في هذه السنة إلى الساحل من البحر كند كبير يقال له اقلندس، أكبر طواغيت الكفر، واعتقد خلو الشام من ناصري الإسلام. ومن جملة شروط هدنة الفرنج أنهم إذا وصل لهم ملك أو كبير، مالهم في دفعه تدبير، أنهم يعاونونه ولايباينونه، ويحالفونه ولايخالفونه، فإذا عاد عادت الهدنة كما كانت، وهانت الشدة ولانت. وبحكم هذا الشرط حشدوا الحشود، وجندواا الجنود، ونزلوا على حماة، في العشرين من جمادى الأولى، وصاحبها، شهاب الدّين محمود الحارمي، مريض، ونائب السلطان بدمشق

يؤئذ أخوه الأكبر توانشاه، وهو والأمراء مشغولون بذاتهم. وكان سيف الدين عليّ بن أحمد بن المشطوب بالقرب، فدخلها وخرج للحرب، واجتمع إليها رجال الطعن والضرب، وجرت ضروبٌ من الحروب، وكاد الفرنج تهجم البلد فأخرجوهم من الدروب. ونصر الله أهل الإسلام، بعد حصارهم لهم أربعة أيام، فانهزم الملاعين ونزلوا على حصن حارم، كما تقدم ذكره، فرحلهم عنه الملك الصالح بعد حصاره أربعة أشهر.

ومن كتاب فاضليّ إلى بغداد: "خرج الكفّار إلى البلاد الشّامية فاسخين لعقد كان محكماً، غادرين غدرا صريحاً، مقدرين أن يجهروا على الشّام لما كان بالجدب جريحا. ونزلوا على ظاهر حماة يوم الاثنين الحادي والعشرين من جمادى الأولى، وزحفوا إليها في ثانية فخرج إليهم أصحابنا. وتضّمن كتاب سيف الدين_يعنى المشطوب_أن القتلى من الفرنج تزيد على ألف رجل مابين فارس وراجل، شفى الله منهم الصدور ورزق عليهم النصر والظُّهور. ثم انصرفوا محموعا لهم بين تنكيس الصُّلُب وتحطيم الأصلاب، مفرّقة أحزابهم عن المدية المحروسة كما افترقت عن المدينة الشريفة النبوية الأحزاب".

قال العماد: وتسامع الحلبيون بيوم رحيلنا من مصر لقصد الشّام، لنُصْرة الإسلام، وقالوا أوّل ما يصل صلاح الدين نسلم حارم. فراسلوا الفرنج وقاربوهم، وأرغبوهم وأرهبوهم، وقالوا لهم صلاح الدين واصل، ومالكم بعد حصوله عندكم حاصل. فرحل الفرنج بقطيعة من المال أخذوها، وعدّة من الأسارى خلّصوها.

ثم تُوفي خال السُّلطان شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي، في جمادى الآخرة، وتوفي ولده تكش، ابن خال السُّلطان، قبله بثلاثة أيَّام وذلك أوان وقعة الرملة.

ولما سمع السُّلطان بنزول الفرنج على حارم رحل من البركة يوم عيد الفطر بعساكره، ووصل أيلة في عاشر الشهر، واستناب بمصر أخاه العادل؛ وأقام بها أيضا القاضي الفاضل بنيَّة الحج في السنة القابلة.

ووصل السُّلطان إلى دمشق في الرابع والعشرين من شوّال. ومما نظمه العماد في التَّشويق إلى مصر قوله:

ساكني مصر، هناكم طيبها — إن عيشي بعدكم لمْ يطب
لاعدمتم راحةً من قربها — فأنا من بعدها في تعب

بعد العهد بأخباركم — فابعثوا أخباركم في الكتب
ليت مصراً عرفت أني وإن — غبتُ عنها فالهوى لم يغب

ومن ذلك قوله:

تذكرت في جلَّقٍ داركم
بمصر، ويا بُعْد مابيننا

وما أتمنى سوى قُربكم
وذلك والله كلُّ المنى

لكم بالجنان وطيب المقام
وحسن النعيم بمصر الهنا

ومن ذلك أيضا:

ياساكني مصر، قد فقتم بفضلكم
ذوي الفضائل من سكان أمصار

لله درّكمُ من عُصبْة كرُمت
ودرُّ مصركم الغناء من دار

ومن ذلك أيضا:

ياحبذا مصرٌ وبرِ
كتها وصدْرٌ والعريش

فهناك أملاكي الذّي
نَ سَمَتْ بعزّهم العُروش

قال: ووصل كتاب من الفاضل يذكر فيه أنّ العدوّ، خذله الله تعالى نهض ووصل إلى صدر، وقالت القلعة و لم يتم له أمر، فصرف الله شره وكفى أمره.

ووصل من الفرنج مستأمن وذكر أنّهم يريدون الغارة على فاقوس، فاستقلوا أنفسهم وعرّجوا، وذكر أنهم مضوا بنية تجديد الحشد، ومعاودة القصد.

قال: وأما نوبة العدوّ في الرّملة فقد كانت عثرةً، علينا ظاهرها، وعلى الكفّار باطنها، ولزمنا مانسي من اسمها، ولزمهم مابقي من عزمها؛ ولادليل أدلّ على القوّة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشَّام، نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثَّقيلة، والحشود الكبيرة، والحريم المستور، والمال العظيم الموفور.

قال العماد: ولما دخلنا دمشق وجدنا رُسُل دار الخلافة، قد وصلوا بأسباب العاطفة والرأفة؛ وكان حينئذ صاحب المخزن ظهير الدّين أبو بكر منصور بن نصر العطَّار، وهو من ذوي الأخطار، وله التحكم في الإيراد والإصدار، وقد توفَّر على محبَّة السُّلطان وتربية رجائه، وتلبية كتابهُ ورسوله بكلّ ماسَرَ السَّرائر، ونوّر البصائر.

فصل في ذكر أولاد السلطان

قال العماد: وفي هذه السَّنة ولد بمصر للسُّلطان ابنه أبو سليمان داود.

وكتب الفاضل إلى السلطان يهنئه به ويقول: "إنه وُلد لِسَبْع بقين من ذي القعدة. وهذا الولدُ المُبارك هو المُوفى لاثني عشر ولداً، بل لاثني عشر نجماً متوقداً، فقد زاد الله في أنجمه على أنجم يوسف عليه السلام نجماً، ورآهم المولى يقظة ورأى تلك الأنجم حلما، ورآهم ساجدين له، ورأينا الخلق سجوداً، وهو قادرٌ

سبحانه أن يزيد جدود المولى إلى أن يراهم أباءً وجدوداً".
قال العماد: وكنت في بعض الليالي عند السُّلطان في آخر عهده، وجرى ذكر أولاده، واعتضاده بهم واعتداده؛ فقلت له: لو عرفت أيام مواليدهم في أعوامها، لأنشأت رسالةً على نظامها. فذكر لي ما أثبته على ترتيب اسنانهم وماصورته: الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن عليّ؛ ولدُ بمصر ليلة عيد الفطر عند العصر سنة خمس وستين وخمسمائة.
العزيز أبو الفنح عثمان عماد الدِّين؛ ولد بمصر ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين.
الظافر أبو العباس خضر مظفر الدِّين؛ ولد بمصر في خامس شعبان سنة ثمان وستين، وهو أخو الأفضل لأبويه.
الظاهر أبو منصور غازي غياث الدين؛ ولد بمصر منتصف رمضان سنة ثمان وستين.
المقرّ أبو يعقوب إسحاق فتح الدِّين؛ وُلد بمصر في ربيع الأول سنة سبعين.
المؤيد أبو الفتح مسعود نجم الدين؛ وُلد بدمشق في ربيع الأول سنة إحدى وسبعين، وهو أخو العزيز لأبويه: الأعزُّ أبو يوسف يعقوب شرف الدِّين؛ وُلد بمصر في ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين، لأم العزيز.
الزَّاهر أبو سليمان داود مجير الدِّين؛ ولد بمصر في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين، لأم الظاهر.
المفضّل أبو موسى قطب الدِّين، ثم نعت بالمظفَّر؛ ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين، وهو أخو الأفضل لأمه.
الأشرف أبو عبد الله محمَّد عزيز الدِّين؛ وُلد بالشَّام سنة خمس وسبعين وخمسمائة.
المحسن أبو العباس أحمد ظهير الدِّين؛ وُلد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين، وهو لأم الأشرف.
المعظَّم أبو منصور تورانشاه فخر الدين؛ ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين أيضا. قلت: ومات سنة ثمان وخمسين وهي السنة التي أخرب العدو من التتار، خذلهم الله تعالى فيها، مدينة حلب وغيرها، والله أعلم.
الجواد أبو سعيد أيوب ركن الدِّين؛ ولد في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين، وهو لأم المعز.

الغالب أبو الفتح ملكشاه نصر الدِّين؛ مولده بالشَّام في رجب سنة ثمان وسبعين، وهو لأم المعظم.
المنصور أبو بكر، وهو أيضا أخو المعظم لأبويه، ولد بحرّان بعد وفاة السلطان.
قلت: فهذه خمسة عشر ولداً ذكرهم العماد في هذا الموضع.
وقال في آخر كتاب الفتح القُدسي، على ماسنذكره في آخر هذا الكتاب: لما توفي خلَّف سبعة عشر ولداً وابنةً صغيرة. فقد فاته هنا ذكر اثنين، وهما عماد الدين شاذي، لأم ولد، ونصرة الدين مروان، لأم ولد. وأما البنت فهي مؤنسة خاتون، تزوجها الملك الكامل محمد، على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، وهو ابن

عمها الملك العادل أبي بكر بن أيوب.

وللسلطان غير هؤلاء الأولاد ممن درج في حياته، كالملك المنصور حسن، وسيأتي ذكر وفاته؛ والأمير أحمد وهو الذي رثاه العرقلة بقوله:

أيّ هلال كُسفا — وأي غصنٍ قصفا
كان سراجاً قد طفا — على الورى، ثمّ انطفا
لم يركب الخيل، ولم — يقلدوه مرهفاً
قل للنحاة: ويحكم — أحمدكم قد صرفا
صبراً صلاح الدين يا — ربّ السماح والوفا

قال العماد: وورد من الفاضل كتاب تاريخه منتصف ذي الحجة سنة ثلاث وسبعين ذكر فيه فصولا متعددة. منها: للمولى أولادٌ وقد صاروا رجالاً، ويجب أن تستجدّ للقلاع رجالا، كما فعل السابقون أعماراً وأعمالا، وقيل: القلاع أنوفٌ من حلها شمخ بها. مافي الرجال على النساء أمين.

ومنها أبيات في ذكر السلام:

مملوك مولانا، ومملوكُ ابنه — وأخيه، وابن أخيه، والجيران
طيّ الكتاب إليه منه إجابة — لسلام مولانا ابنه عثمان
والله قد ذكر السلام وأنه — يجزي بأحسن منه في القرآن
وغريبة قد جئت فيها أوّلا — ومن اقتفاها كان بعدي الثاني
فرسولي السلطان في إرسالها — والناس رسلهم إلى السلطان

قلت ووصف الفاضل الملك المؤيد في كتاب آخر فقال: "وقد تمطت به وامتدت، وتأهبت السعادة لخطبته واعتدت، ولاحظته العيون بالوقار وطرفت دون جلالته وارتدت".

وفي بعض كتب الفاضل عن السلطان إلى ولده الأفضل: إعزازه لأهل الفضل دليلٌ على فضله، وأنّ الأولى أن تكون كتب الأدب عند أهله. وما أبهجنا إذ جال في فضاء الفضائل، وخطب من أبكار المعاني كرائم العقائل، وآخى بين السيف والقلم، وصار في موكبه العلمُ والعلم.

ومن كتاب آخر في المعنى: فلقد زادت هذه المنقبة في مناقبه، ونظمت عقود سؤدد في ترائبه.

فما ترجم الإنسان عن سرّ فضله — بأفضل من تقريبه لأولى الفضل

قال العماد: وخرج السلطان للصيد في ذي الحجة نحو قارا، فشكوت ضرسي، وعدمت أنسي، فرجعت مع عزّ الدين فرخشاه لحميّ عرته، فشكا منها، ألا تزور إلا نهاراً جهاراً، ولاتفارق بعرق، بالضد من الحمي التي وصفها أبو الطيب المتنبي. فنظمت فيه كلمة طويلة أولها:

يمينك دأبها بذل اليسار وكفك صوبها بدر النطار

وإنك من ملوك الأرض طُرًّا بمنزلة اليمين من اليسار

وأنت البحر في بث العطايا وأنت الطود في بادي الوقار

ومنها في وصف الحمى:

وزائرة وليس بها حياء فليس تزور إلا في النهار

ولو رهبت لدى الإقدام جوري لما رغبت جهاراً في جواري

ولو عرفت لظى في وهج اشتياق ليظهر ماأورى من أواري

ولو عرفت لظى سطوات عزمي لكانت من سطاي على حذار

تقيم، فحين تبصر من أناتي ثبات الطود تسرع في الفرار

تفارقني على غير اغتسال فلم أحلل لزورتها إزاري

أيا شمس الملوك، بقيت شمساً تنير على الممالك والديار

أحماك استعارت لفح نار لعزمك لم تزل ذات استعار

فصل

قال العماد: وفي العشر الأول من ذي القعدة قتل عضد الدين بن رئيس الرؤساء، وزير الخليفة ببغداد، على أيدي الملاحدة. وكان قد توجه إلى الحج، فوقف له في مضيق قطفتا، غربي دجلة، كهلٌ في يده قصّة يزعم أنه يريد رفعها إلى الوزير من يده إلى يده؛ فأومأ ليوصل قصته، فانتهز فيه فرصته، فقتله؛ وبدر كمال الدين أبو الفضل بن الوزير فقتل قاتل أبيه بسيفه. وكان مع ذلك الجاهل الملحد رفقيان له، فجرح أحدهما صاحب الباب أبو المعوج فمات، وجرح آخر ولد قاضي القضاة، وقطع الملاحدة وأحرقوا. واستقلَّ ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار صاحب المخزن بالدولة، وكان للسلطان خدنا مصافيا.

قلت: وابن العطار هذا هو المرجوم المسحوب بعد موته ببغداد، كما سيأتي ذكره في آخر حوادث سنة

خمس وسبعين.

قال ابن الأثير: وكنت حينئذ ببغداد عازما على الحد، فعبر عضد الدين دجلة في شبارة، فلما ركب دابته والناس معه مابين راكب وراجل، تقدم إليه بعض العامة ليدعو له، فمنعه أصحابه، فزجرهم وأمرهم ألا يمنعوا أحداً عنه؛ فتقدم إليه الباطنية فقتلوه بالجانب الغربي وقُتل الباطنية وأحرقوا، وحمل من موضعه إلى دار له بقطفتا في الجانب الغربي فتوفي بها.

قال العماد: ووردت مطالعة الفاضل إلى السلطان تتضمن التوجع لقتل الوزير عضد الدين، وفيها: "ومارَبُّكَ بِظَلاَّمٍ للعَبْيدِ"، فقد كان عفا الله عنه قتل ولدي الوزير ابن هبيرة وأزهق أنفسهما وجماعة لاتحصى:

من يرَ يوماً يُرَ به والدهر لايغتر به

وهذا البيت بيت ابن المسلمة عريق في القتل، وجدّه هو المقتول بيد اليساسيري في وقت إخراج الخليفة القائم في أيام الملقب بالمستنصر بمصر، فهو من ذرية لم تزل قالتة مقتولة، ومازالت السيوف عليها ومنها مسلولة؛ فهم في هذه الحادثة المسمعة المصمة كما قال دريد:

*أبى الموت إلا آل صمه *

والأبيات المولى يحفظها، وهي في الحماسة، وقد ختت له السعادة بما ختمت به له الشهادة، لاسيما وهو خارج من بيته إلى بيت الله. قال الله سبحانه: "وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجراً إلى اللهِ وَرَسُولهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموت فَقْد وَقَع أجْرُه على الله".

إن المساءة قد تسرّ وربما كان السرور بما كرهت جديرا

إن الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشناك كان وزيرا

وهذان البيتان قيلا في أبي سلمة الخلال أول وزير لبني العباس.

قلت: وبلغني أنّ الفاضل كان ينشد:

وأحسن من نيل الوزارة للفتى حياة تريه مصرع الوزراء

قال العماد: وكان ضياء الدين بن الشَّهْرَزوْري قد سار في الرسالة إلى بغداد وتوقف في الموصل لحادثة الوزير؛ ووافق وصوله إلى الموصل وفاة ابن عمه القاضي عماد الدين أحمد ابن القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، وكان شاباً. وجاء كتاب الفاضل يذكر ذلك وفيه:

يدلى ابن عشرين في لحده وتسعون صاحبها راتع

اعتبط الولد مع نضارة الشباب المقتبل، وعُمرّ الوالد مع ذبول المشيب المشتمل .

لِيُعْلم أن الشيب ليس بمسلم   وأن الشباب الغض ليس بمانع

وليكون العبد حذراً من بغتات الآجال، في كلّ الأحوال. والله يطيل للمولى العمر، كما أطال له في القدر، ونسمع منه ولانسمع فيه، ويبقيه سنداً للدين الحنيفي فإن بقاءه يكفيه.

الفهرس

فصل.......... 6
فصل.......... 28
فصل.......... 38
فصل.......... 40
فصل.......... 41
ذكر أخبار زنكي 43
فصل.......... 44
فصل.......... 46
فصل في ولاية زنكي الموصل وغيرها من البلاد التي كانت يد البرسقي.......... 48
فصل.......... 49
فصل في جهاد زنكي للفرنج.......... 51
فصل في فتح شهرزور وبعلبك وحصار دمشق 53
فصل.......... 55
فصل.......... 58
فصل.......... 59
فصل.......... 66
فصل في وفاة زنكي رحمه الله 69
فصل في بعض سيرة الشهيد أتابك زنكي.......... 70
فصل فيما جرى بعد قتل زنكي من تفرق أصحابه وتملك ولديه غازي ومحمود 76
فصل فيما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والإفرنج المخذولين 79
فصل.......... 82
ودخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة 83
فصل في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم الله عنها.......... 85
ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.......... 85

فصل.. 91
فصل.. 92
فصل.. 94
ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة 95
فصل..103
فصل في وفاة معين الدين أثر بدمشق وما كان الرئيس ابن الصوفي في هذه السنة............106
فصل في وفاة سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل وهو أخو نور الذين الأكبر.......108
فصل..110
فصل..112
فصل..115
ثم دخلت سنة خمس واربعين وخمسمائة...116
فصل في فتح عزاز...118
فصل في صفة أسر جوسلين...120
فصل..127
فصل..128
ودخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة...129
فل في باقي حوادث هذه السنة...137
ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة...143
فصل..147
ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة...157
فصل..161
فصل..165
ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة..166
ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة 168
فصل..171
ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة 173
فصل..178

فصل..181
فصل في ذكر حصن شيزر وولاية بني مُنْقذ..186
فصل في باقي حوادث سنه اثنتين وخمسين...190
ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة 191
فصل..200
فصل..202
ثم دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة 203
فصل..205
ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة 206
ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة...207
ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة 211
ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة...212
ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة 215
فصل في فتح حارم..222
فصل..224
ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة..233
ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة...236
ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة 238
فصل..241
فصل..246
ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة..249
فصل في وفاة زين الدين..254
ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة 255
فصل..258
فصل فيما فعله نور الدين 260
فصل في القبض على شاور وقتله...262
فصل في وزارة أسد الدين..266

فصل في وفاة أسد الدين شيركوه وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه........................269
فصل..274
فصل..291
فصل..296
ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة 300
فصل..303
فصل في مسير نجم الدين أيوب إلى مصر بباقي أولاده وأهله 305
فصل في ذكر الزلزلة الكبرى 307
فصل في غزو صاحب البيرة ووفاة صاحب الموصل...311
فصل..313
ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة..314
فصل..316
فصل..319
فصل فيما جرى بمصر في هذه السنة..320
ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة 324
فصل..336
فصل في ذكر غزو الفرنج في هذه السنة...340
فصل في عزم نور الدين على الدخول إلى مصر 342
فصل في الحَمَام 343
فصل في باقي حوادث هذه السنة...344
ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة...345
فصل في جهاد السلطانين للفرنج في هذه السنة 347
فصل في فتح بلاد النوبة 350
فصل..352
فصل..358
فصل..361
ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة 363

فصل في فتح اليمن..364
فصل..366
فصل..368
فصل في صلب عمارة الشاعر اليمني وأصحابه..............................369
فصل في التعريف بحال عمارة ونسبه وشعره................................378
فصل في وفاة نور الدين رحمه الله تعالى...................................382
فصل..388
فصل..390
فصل..392
ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة..396
فصل..397
فصل..398
فصل..399
فصل فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحصار حلب 402
فصل..405
فصل..408
فصل..414
فصل في فتح بعلبك...418
فصل فيما جرى للْمَوَاصلة والحلبيّن مع السُّلطان في هذه السّنة...............420
فصل..425
ثم دخلت إحدى وسبعين وخمسمائة 427
فصل فيما تجدد للمواصلة والحلبيين..430
فصل في فتح جملة من البلاد حوالي حلب 435
فصل في وثوب الحشيشية على السلطان مرّة ثانية على عزاز، وكانت الأولى على حلب 438
فصل في بواقي حوادث هذه السنة ودخزل قرقوش إلى المغرب.................441
ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة 444
فصل في ذكر جماعة من الأعيان تجدّد لهم ما أقتضى ذكرهُ في هذه السنة.........446

فصل في رجوع السلطان إلى مصر 450
فصل في بيع الكتب وعمارة القلعة والمدرسة والبيمارستان 455
فصل في خروج السلطن إلى الإسكندرية وغير ذلك من بواقي حوادث هذه السنة 457
ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة.. 461
فصل في نوبة كسرة الرَّملة 464
فصل في وفاة كمشتكين وخروج السلطان من مصر بسبب حركة الفرنج.................... 468
فصل في ذكر أولاد السلطان 470
فصل... 473
الفهرس... 476

To PDF: www.al-mostafa.com